



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



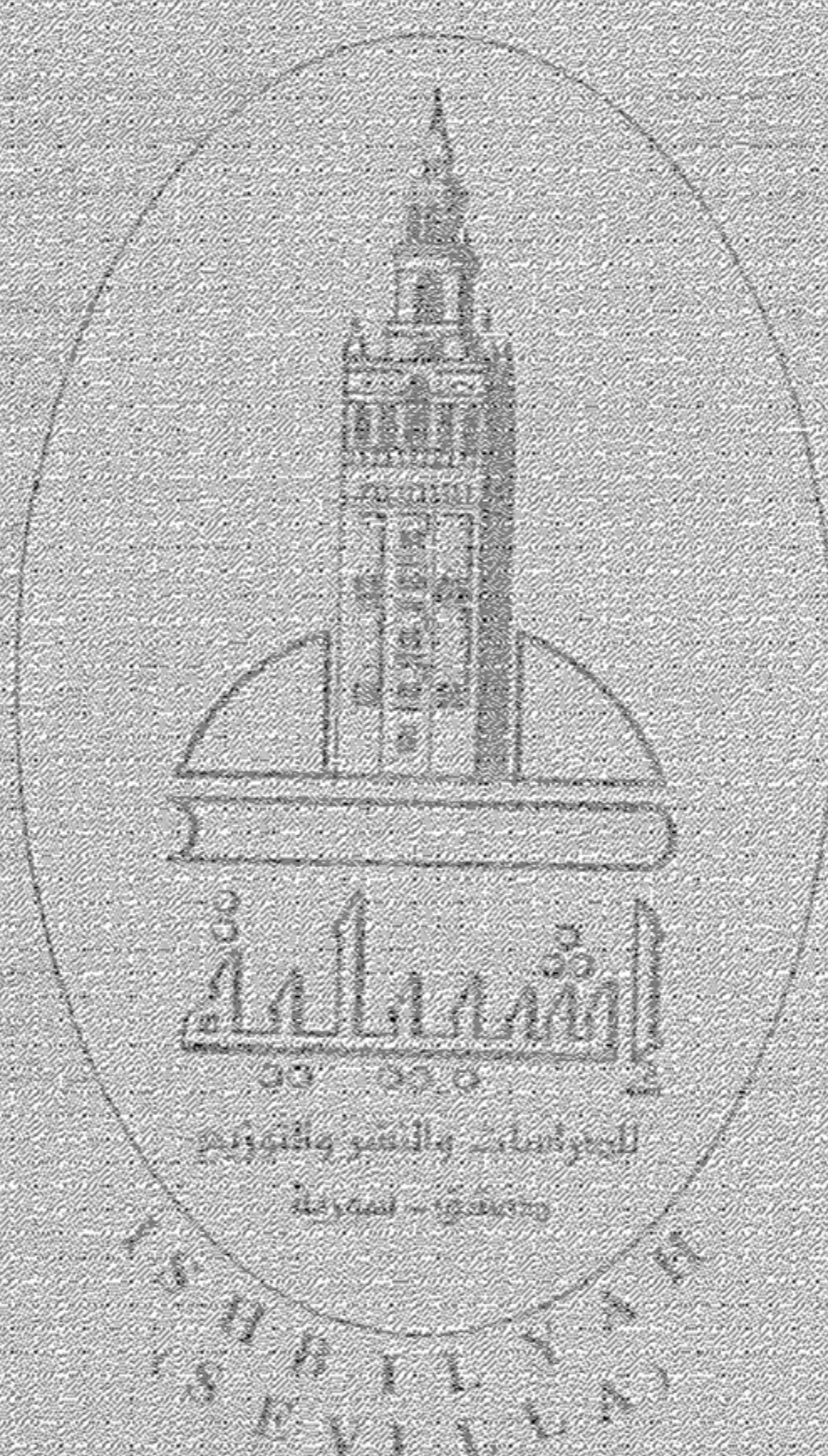
الشمسية

للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P. O. Box : 4363, SYRIA

✓



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P. O. Box 4363, SYRIA

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المسؤول : د. شاکر الفحام رئيس التحرير : ناظم کلاس

العددان السابع عشر والثامن عشر : آب - تشرين الثاني ١٩٨٤

لجنة كتابة تاريخ العرب : رئيس جامعة دمشق د. محمد زياد الشويكي ،
رئيس قسم التاريخ د. عادل زيتون ،
د. عادل العوا ، د. نبیه عاقل ، د. محمد
حرب فرزات ، د. خيرية قاسمية ،
ناظم کلاس .

هيئة الاشراف على المجلة : د. شاکر الفحام ، د. محمد خير فارس ،
د. نبیه عاقل ، د. عبد الكريم رافق ،
د. احمد بدر ، محمد محفل ، ناظم کلاس .

المراسلات :

لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية
--

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية أو ما يعادلها

للأفراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية أو ما يعادلها

تضاف اليها أجور البريد الجوي أو العادي

حسب رغبة المشترك

**يمكن الاشتراك بمجموعات الأعداد الصادرة
في السنوات السابقة بالقيمة نفسها**

في هذا العدد

الصفحة

- نظرة في فهم التاريخ
د. سليمان سعدون البدر ٧
- بعض ملامح الاتجاهات الرئيسة في الاستشراق
د. احمد درغام ٤٤
- ايلاف قريشى
ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام
د. صالح درادكة
- اوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام
د. نجدة خماش ٧٣
- ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم
في الدور العباسي الاول
د. نبيه عاقل ٨٨
- الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي
في القرن التاسع عشر
د. عبد الكريم رافق ١٥٥
- المكتب العربي في القاهرة
قراءة في الوثائق البريطانية
د. خيرية قاسمية ١٦٠
- من وثائق التاريخ الاجتماعي للقطر العراقي
خلال الحرب العالمية الاولى
د. عبد النبي اصطيف ١٨٤

تنويه

- ☐ ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية
- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

دراسات تاريخية

تقديم

يصدر هذا العدد من مجلة « دراسات تاريخية » وقد اتمت عامها الخامس ، ملتزمة بنهجها وتوجهها ، يحدوها الامل في المضي قدما الى غايتها مسددة الخطا ، بمؤازرة المؤرخين والباحثين والمفكرين العرب وتشجيعهم .

ان المجلة ، اذ تتوجه بالشكر لجميع الذين شاركوها مسيرتها خلال السنوات الماضية ، وغناها بشمار افكارهم ونتاج اقلامهم ، ترى من المفيد ان تعود فتذكر بما سبق ان اعلنته ، وهو انها ليست غاية بحد ذاتها ، ولم يكن القصد من اصدارها اضافة دورية اخرى للدوريات العلمية الماثلة ، بل كان القصد ان تكون التوطئة والتمهيد ، والخطوة الاولى ، نحو غاية اجل واكبر ، الا وهي كتابة تاريخ العرب في موسوعة عربية كاملة ، كتابة تلتزم المنهجية التاريخية العلمية النقدية ، فتتقي هذا التاريخ مما شابه او علق به من تشويف وزيف ، وتتيح لابناء الامة العربية وعي تاريخ امتهم على حقيقته ، وصفاء رؤيتهم لحاضرها وللمستقبل الذي تصبو اليه .

فالمجلة اذن خطوة من خطوات ، تخدم كلها وبمجموعها المشروع الام ، مشروع كتابة تاريخ العرب . على صفحاتها تتلاقى الافكار ، وتعرض الاراء الجديدة وتناقش كيما يثبت منها ما هو جدير بالبقاء ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث التاريخي وتسلط الضوء على التيارات العميقة التي حركت تاريخ هذه الامة ، وتوضح ما كان يلفه الغموض ، او لم يحظ بعناية المؤرخين من قبل .

ان مجلة « دراسات تاريخية » تفتح صدرها وصفحاتها للمفكرين والباحثين والمؤرخين العرب ، في الوطن العربي وخارجه ، وترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها ، وبكل مقترح ورأي ينير طريقها ، وبكل بحث يعالج موضوعا من موضوعات التاريخ العربي يندرج في الاطار الذي رسمته لنفسها ، ملتزمة فيما تنشره بمبادئ العمل ، وهي ان كتابة تاريخ العرب تتم من خلال منظورات ثلاثة : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بمبادئ البحث العلمي .

دراسات تاريخية

نظرة في فهم التاريخ

د. سليمان سعدون البدر

جامعة الكويت

ان كلمة « تاريخ » تعنى ذلك العلم المتعلق بالانسان منذ ان بدأ في التعبير عن فكره ، ناحتا ذلك الفكر على الحجر بالكهوف والمفارات . وفي اللغة العربية ، نجد « التاريخ » او « التاريخ » تعنى الاعلام بالوقت وما يلحق به من حوادث ووقائع ، أي انه علم يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعبير والتوقيت، وموضوعه الانسان (١) . واستعملت كلمة « التاريخ » في تراثنا العربي الاسلامي لتعنى امجاد القوم وخلصه شمائلهم كما تعنى تراجم الرجال ورواية اخبار الماضي .

وفي اللغات الاجنبية الحديثة نجد أن كلمتي History الانكليزية ، و Histoire الفرنسية ، مشتقتان من الكلمة الاغريقية Historia بمعنى التعلم . اما في اللغة الالمانية فالكلمة Geschichte تعني حوادث الماضي . او ذلك الذي حدث او العلم الذي يحقق في هذا الشيء الذي حدث . ولقد استخدم فلاسفة الاغريق كلمة « التاريخ » لتعني سردا منظما لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء اكانت مرتبة ترتيبا زمنيا ام غير مرتبة . وحين اختصت كلمة Science لتعني « السرد المنظم للظواهر الطبيعية » دون الاعتماد على ترتيبها الزمني . أصبحت كلمة « التاريخ » مقتصرة على سرد الظواهر الطبيعية المتعلقة بالمسائل الانسانية والمرتبة ترتيبا زمنيا . وبكلمة أخرى

أصبح معنى التاريخ « الماضي والعلم به » (٢) . ومن ناحية أخرى ، فإن اللفظة تطلق تارة على الماضي البشري ذاته ، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية أخباره ، أو العلم المعني بهذا الموضوع (٣) .

لقد عرّف بعض الكتاب التاريخ بأنه « علم الماضي » ، غير أن هذا التعريف فضفاض يخشى منه التأثير على خصوصية التاريخ ، ذلك لأن الماضي عبارة عن وعاء يشمل كل مظاهر الكون بمختلف أشكالها وألوانها ، فهو يتسع لعلم الجيولوجيا وعلم تطور الحياة وعلم النشوء والارتقاء وعلم الفلك ... الخ . وبذلك أصبح لكل علم صنف من هذه العلوم علماءؤه ومختصوه ومؤرخوه ، وأصبح للتاريخ مفهوم خاص يتعلق بالكائن البشري وما طرا عليه في الماضي من أحداث وتطور حضاري ومدني ، وغدت دراسة تاريخ العلم محبذا في مثل هذه الدراسة .

وطالما الأمر كذلك فإن للثقافات القديمة سمات متميزة تدل بوضوح على دور الإنسان الحضاري ، مثل ثقافة العصر الشيلي Prechellean ، أو الحضارة الشيلية أو الإثولية Acheullean أو الموستيرية Mousterian أو الأورنيانسية Aurgnacian ، وأخيرا ثقافة وحضارة العصر الحجري الحديث ، وما تلى ذلك العصر من ثقافات ، ولكل حضارة أو ثقافة مكان متميز في تحديد البدايات الأولى لما نسميه « شبه التاريخ » (٤) ، والذي اتضحت صورته عندما جنح الإنسان إلى الأساطير أو الخرافات « الميثولوجيا » Mythology ، وهي قصص وروايات عن الماضين وأخبارهم وأساطيرهم . وكان التاريخ يتضمن ، بهذه الصورة ، سلسلة من الحوادث المتعاقبة على شكل معلومات عامة يستفيد منها المؤولون والادباء والسناسة ، وكانت المعلومات التاريخية تعتمد على ثقات غايتهم الإلمام بحوادث الماضي ، والاحصاء العددي لها . وبدأ تدوين هذه الحوادث ، وبخاصة البارزة منها ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا دون أن يحاول الإنسان المؤرخ فهم هذه الحوادث فهما عقليا عميقا والتعرف على مدى تأثيرها على بني الإنسان ومسيرته .

وانطلاقا من محاولة تتبع الجهد الإنساني في ظهور علم التاريخ ، وما بذل بصدد تطور هذا العلم والرقى به ، يحاول الباحث القاء ضوء ، من خلال هذه الدراسة ، للتعرف على « علم التاريخ » كمحاولة لفهمه الفهم الصحيح ودراسته دراسة علمية تقود إلى نتائج يمكن الاستفادة منها في حاضرنا ومستقبلنا .

نشأة التاريخ وتطوره

ظهر التاريخ أول الامر ، وكمرحلة أولى من مراحل نشأته وتطوره ، بصورة بدائية ، على شكل قصص وأخبار كان الانسان القديم يرويها لابنائهم ، الى جانب ما يرتبط بهذه القصص من أساطير ومعتقدات دينية . وظهرت أهمية الاحساس لدى الانسان ببعض الحوادث التي تواجهه ، فعبر عنه بالرسم والنقش على جدران الكهف . وبذلك يمكن القول بأن التاريخ قد نشأ في مراحله الاولى على المستوى الفردي عن طريق الرواية . وعن طريق الرسم . وبذلك يكون التاريخ عبارة عن ممارسة فكرية عفوية وجدت بين الناس وانتقلت الى الابداء عن طريق الآباء ، حتى اذا اتسعت المجتمعات وظهرت القرى انتقل التاريخ من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي وأضحى عملية مستمرة يعبر عنها بالتسجيل المتوارث من جيل الى جيل .

ومن خلال تقدم المجتمعات وتطور الانسانية انتقل التاريخ الى التعبير عن سياسات ودول ، وتغير مفهومه المعبر عن الافراد الى مفهوم يعبر عن خبرة المجتمعات والظواهر العامة ، الى جانب الإبقاء على شخصية الفرد عندما يكون هذا الفرد ممن ينطبق عليهم تعبير (صانعو التاريخ) ، وهم أولئك الافراد الذين يؤدون لمجتمعاتهم أعمالاً فذة في مجال السياسة والحروب والثورات ... الخ . وأصبح التاريخ مادة علمية لا تقتصر دراستها على المؤرخين فقط بل شملت غيرهم من هواة وسياسيين وأدباء وباحثين اجتماعيين .

ويعتبر التاريخ قرين الحضارة ، فهو يبدأ مع الخطوات الحضارية الأولى للانسان الذي أخذ بسجل بشكل أو بآخر ما يعبر عن ماضيه ، ويستعيد من بين ذكرياته ما يصلح ان يكون نموذجاً لأعماله . وهذا العمل جهد انساني أدى في النهاية الى بداية العصر التاريخي (هـ) . فالتاريخ بدأ مع الكتابة . ومنذ اكتشاف الانسان الكتابة اتسع نطاق فكر الانسان كما ازدادت تجاربه عن طريق التأمل والتحكم فيما حوله وأخذ يواجه بيئته ويتفاعل معها من أجل الانتفاع بما تجود به عليه هذه البيئة من خيرات ، وللوقوف امام تضرعها ودرء أخطارها . وبتوصل الانسان الى الكتابة استطاع ان يسجل ثمرات تجاربه ومعلوماته وفكره ليشكل هذا التسجيل احساساً جوهرياً في سيرة الانسان الحضارية . وأصبح ما دونه الانسان سجلاً حافلاً بألوان من الاحداث والأفكار والأعمال .

كان لانسان الوطن العربي القديم الاسبقية المطلقة في هذا الاكتشاف العظيم ، ففي بلاد الرافدين اكتشف الكتابة التصويرية التي تطورت الى كتابة مسمارية ، أما في وادي النيل فقد استخدم الهيروغليفية ، كما استخدم انسان سورية مزيجاً من الكتابتين العراقية والمصرية . وارتبطت معرفة الكتابة ارتباطاً شديداً بالعقيدة الدينية وعبر عنها الانسان خير تعبير حيث ظهرت في كل ما حدث ويحدث له منسوبة الى الآلهة ، وأصبح للمعبد مكانته الاولى في المجتمع يسير اقتصاده ويوجه سياساته ويعلن الحرب او السلم . وتكونت لهذا المعبد القاعات الضخمة منافساً بذلك السلطة المدنية المتمثلة بالملك او الحاكم ، الذي سعى الى اضعاف قدسية خاصة على نفسه ، فاصبح الها مقدساً لدى قدماء المصريين ، او حاكماً يستمد سلطته من الآلهة كما حصل في بلاد الرافدين .

وبذلك يكون التاريخ قد دخل مرحلة دينية . وسطر الفكر الديني المعتزج بالاساطير على تفكير الانسان في منطقة الوطن العربي القديم ، فظهرت الملاحم والاساطير البابلية والفرعونية والكنعانية والفينيقية . وكذلك ظهرت الحوليات الدينية العادية ومنها القوائم النذرية والقوائم التي تسجل أسماء كهنة وكاهنات المعبد وسجلات الصدقات والندور . وهذه جميعها كتابات تعطينا صورة تتصل بالتاريخ في كثير من النواحي ، كما تعبر عن ألوان من الفكر . غير انه لا يمكن الاطمئنان الى هذا الفكر من الناحية التاريخية لانها لم تكن تعبر عن الانسان وجهده وانما كانت تعبر عن الآلهة وعلاقتها بالانسان . ومع ذلك يمكن ان نعتبرها ، الآن ، وثائق تاريخية تفيد الباحث في التعرف على تطور الفكر الديني وعلاقة الانسان بالآلهة ومزج الحقيقة بالاسطورة . وبمعنى آخر ، فان الانسان القديم لم يكن يعي شيئاً عن «فكرة التاريخ» ، كما ان الانسان الذي دون هذه الكتابات لم يكن صاحب «وعي تاريخي» او مدركاً للزمن او الحقيقة كما نفهم هذين التعبيرين الآن .

وعلى صعيد آخر ، فان للرواية الشفوية التي انتقلت عن طريق التواتر عبر القرون ، وحفظت لنا بعض الاخبار عن الماضي ، دورها في التعرف على أحوال العصور السابقة . وقد وجد المؤرخون في الرواية الشفوية مصدراً سهلاً وأيسر منالاً ، في التعرف على أحوال الغابرين ، وبخاصة اذا كانت كتاباتهم قد دونت أو نقشت بلغة لا يتقنها المؤرخ (1) .

اما المرحلة الثانية لتطور علم التاريخ فانها تتمثل في الكتابة عند الاغريق ،
حيث تتميز الكتابة عند مؤرخي الاغريق بأنها اتجهت اتجاهها عقليا ارتبط بالانسان
ونشاطاته المختلفة . ولم يخضع الفكر الاغريقي الانسان للارادة الالهية ، ومع ذلك فانه
ظل محتفظا بالاساطير الدينية ومعبرا عنها ، وقد عرف كتاب الاسطورة بالناشرين
اليونيين . وبذلك وضع المؤرخ الاغريقي التاريخ في اطاره المكاني واطاره الزمني مع
الاستشهاد بالملاحم الاغريقية التي تعبر عن اوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية .
بمعنى ان النثر الايوني لم يكتف بالوثيقة المكتوبة او بالرواية الشفوية المتداولة ، بل
درس العالم من حوله ليضع تاريخا يكون الاقرب الى الواقع الخالي من شوائب عناصر
الاسطورة والمبالغة .

وتميزت كتابات المؤرخين الاغريق بالاسلوب العلمي الذي يتناول الحدث
التاريخي بالتفصيل الدقيق . مع ابراز واضح للشخصيات التي كانت وراء الحدث .
وخير ما يعبر عن هذا الاسلوب كتابات هيرودوت Herodotus (٤٨٤ - ٤٢٢ ق.م)
والمؤرخ ثوكيديدس Thucydides (٤٧١ - ٤٠٠ ق.م) . الذي اكد على استخدام
الوثائق وضرورة الاعتماد عليها في البحث التاريخي ، وطبق هو نفسه هذا المنهج
باخلاص في كتابه عن الحروب البلوبونيزية الذي اشار فيه الى انه يكتب من اجل
الفائدة التي يمكن ان يحصل عليها من معرفة حقائق الماضي . ومن ثم يضع مقاييس
سليمة للاحداث المتشابهة والتي يمكن ان تقع مستقبلا وذلك وفقا وترتيباً على
الطبيعة المشتركة بين البشر . وهو بذلك يوضح لنا فوائد دراسة التاريخ واهدافه
والتي منها امكانية استنباط ما يشبه القوانين التاريخية .

ومن الكتاب الاغريق . بوليبيوس Polybius (٢٠٣ - ١٢٠ ق.م) الذي اكد
في آرائه على الهدف المادي للتاريخ . وأشار على المؤرخين توخي الدقة العلمية في
السعي نحو كشف الحقيقة المجردة والابتعاد عن الغيبيات . وهو بذلك يستند في
كتاباته الى الحقائق ويبرز دور الانسان الذي يصنع التاريخ (٧) . فالتاريخ عند
بوليبوس « يجب ان ينزه عن الاغراض التي تشوه الحقائق ، واذا ما وقف الانسان
موقف المؤرخ فعليه ان يتخلى رأساً عن جميع الاعتبارات كحب الانسان لصديقه
وكرهه لعدوه وعليه في بعض الاحيان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه .
وكما ان الانسان يفقد كل قيمته اذا انتزعت منه عيادته ، كذلك التاريخ يفقد كل
اهميته اذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى الا قصة لا قيمة لها » (٨) .

وفي نهاية العصر الإغريقي اتجه التفكير التاريخي الى أهمية التزام المؤرخ بوحدة موضوعية تربط بين مراحل التاريخ الزمنية ، وبذلك تميزت هذه الفترة بالعمومية في كتابة التاريخ التي تخطت المفهوم السابق المتمثل بتدوين التاريخ لمراحل متعددة . وقد بدأ هذا الاتجاه في أعقاب القرن الخامس قبل الميلاد ، حين ابتعد المؤرخ الإغريقي عن التقيد بالزمن وأصبح بإمكانه أن يكتب تاريخاً يمتاز بالوحدة الواضحة ، بصرف النظر عن مداها الزمني . مستعينا بالمادة العلمية لمن سبقه من المؤرخين .

أما المرحلة الثالثة لتطور التاريخ فتتمثل عند الرومان ، حيث شهد التاريخ تطوراً أصيلاً . فالى جانب الصيغة العمومية للتاريخ ، برز الاهتمام بالحقيقة التاريخية التي لا يرقى اليها الشك . وبذلك أصبح التاريخ لدى الرومان تاريخاً للعالم بأسره ، وذلك بعد أن أصبحت روما سيدة العالم ومجالاً للفخر والعظمة لدى الرومان الذين نظروا الى التاريخ على أنه دراسة اجتماعية تتناول تاريخ الإنسان ممثلاً في الشعب الروماني ، كما نظروا في الكون واعتقدوا بوجود قوى الهية مقدسة تعبر عن ارادة عليا وتدعم ارادة الإنسان الحرة ولا تتدخل في مجرى التاريخ أو توجهه توجيهاً جبرياً . فالآلهة الرومانية لم تكن أشخاصاً بل كانت قوى طبيعية ذات وظيفة معينة . مع ميل فيها لكي تتكون من مجردات (٩) . ويعتبر هذا الاعتقاد امتداداً لما كان عليه الإغريق . ومن هنا أضرت هذه النزعة بروح البحث العميق والنقد حيث أصبح للتاريخ قدسية التزم بها الكتاب والمؤرخون .

ويعتبر تيتوس ليفيوس من أبرز المؤرخين الرومان . وقد اعتبره الغرب « شيخ مؤرخي روما » ، فقد كتب ليفيوس التاريخ ليدون الأعمال العظيمة ويسجل المآثر المفيدة التي حققها الشعب الروماني ، من أجل أن يضع حقائق التاريخ أمام القارئ ليأخذ منها الصالح ويتجنب المثل السيء (١٠) .

أما المرحلة الرابعة لتطور التاريخ فتتمثل في العصر المسيحي وهو العصر الذي حدث فيه تغير كبير في مفهوم الكتابة التاريخية حيث خضع هذا المفهوم لتكييف جديد نجم عن الانقلاب الذي جاء في ركاب التفكير المسيحي ، وهو الانقلاب الذي تمثل في ادخال فكرتين أساسيتين هما :

١ - فكرة التفاؤل بالطبيعة الانسانية .

٢ - فكرة وجود قيم أبدية خالدة تكمن وراء عملية التغيير التاريخي .

لقد بدلت المسيحية الفكر البشري تبديلاً بالغ العمق ، ومن ثم طرأ تغيير على العديد من مفاهيم المنهج التاريخي التي شاعت في العهد الإغريقي والروماني وبخاصة حين حملت المسيحية معها ثورة جديدة من القصص والاحداث والحكم والامثال الواردة في التوراة . وفتحت المسيحية آفاقاً جديدة للتاريخ على أيدي رجالها البارزين ومنهم أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠ م) الذي أفسح المجال أمام تصور تاريخي جديد للكون يبدأ بالخلق كما جاء في التوراة وينتهي بيوم الحشر ، وبذلك يكون التاريخ هو تاريخ البشرية كلها . وأصبحت كتابة التاريخ تتميز بصفة العموم والشمول متضمنة أخبار الكنيسة وفكرة القدسية الموجهة لآحداث التاريخ ، وانصب الاهتمام على حياة المسيح حيث جعلها المؤرخون محور الأحداث ، حتى أن أسيدور الأشبيلي استحدث في القرن السابع الميلادي تاريخ ميلاد المسيح توقيتاً للآحداث التاريخية ، كما قسمت حياة المسيح إلى حقب وفترات لكل منها مميزات الخاصة بها .

أما المرحلة الخامسة فتتمثل في العصور الوسطى حيث اتسمت الكتابة التاريخية بسمات أدت إلى بعدها عن مفاهيم وأفكار العهد المسيحي الأول . ويمكن إيجاز هذه السمات على النحو التالي :

- الرجوع إلى الأسلوب الذي درج عليه المؤرخون بعد الإسكندر والمتمثل في الاعتماد على المصادر الوثائقية لاستنباط الحقائق .

- اتسمت الكتابة التاريخية بفكرة القومية والاعتزاز بها والصراع بين القوميات المختلفة .

- الاعتقاد بأن التاريخ يمضي بمشيئة الهية تنظم الأحداث كلها ، فأهمل العنصر البشري واختفى النقد والتحليل وتركز اهتمام المؤرخين في دراسة خصائص الذات العليا المقدسة وإقرار المشيئة الإلهية .

- ظهور التراجم التي تتناول سير القديسين لتكريمهم وتقديسهم ، مما نجم عنه ظهور نوع من الكتابة التاريخية التي تدون للأسر .

- بروز عدد كبير من المؤرخين من بين رجال الدين الذين استمروا يؤرخون

حتى القرن الخامس عشر ، حيث انتقلت مهمة التدوين الى رجال القانون الذين اعتمدوا على الوثائق الرسمية ، وخصوصا الصكوك والوصايا والعقود .

اما المرحلة السادسة من تطور التاريخ فتتمثل في العصر الاسلامي ، وهو العصر الذي ازدهرت فيه المعارف والعلوم ولعب فيه العرب دورا هاما في تطور مفهوم التاريخ وتقدم العلوم التاريخية ، فكان دورهم في عصورهم الذهبية يفوق بكثير دور الامم الاخرى . فمن طريق منهجية الحديث ادخلوا في التاريخ الاعتناء بالموضوعية والتأكد من صحة الاخبار المروية . فقد نبت التاريخ في تربة علم الحديث الذي يقوم على الدقة والتحري والضبط بالنسبة للحديث المروي ، وعلى نقد الرجال ، وهو علم الجرح والتعديل (١١) ، فيما يتصل برجال السند وهم قواعد الرواية وعمدها .

وحيث ان التحليل الدقيق لنشوء مدارس التاريخ الاسلامي مسألة دقيقة لا يمكن لهذا البحث ان يلم بها ، فاننا نستطيع القول بأن التاريخ الاسلامي قد اتصف بصفات منها الاصاله والاستقلال ، اذ جاءت به حاجات المجتمع ، فجاء ملبيا لتلك الحاجات ومتصفا بخصائص المجتمع الاسلامي . ويتضح ذلك من توجيه المؤرخين منذ القرن الثاني للهجرة عنايتهم الكلية الى التاريخ العربي منذ ظهور الاسلام ، ذلك ان التاريخ الاسلامي دخل منذ ولادة الرسول (ص) في مرحلة حاسمة تستحق ان تتخذ منطلقا لبحوثهم . ويضاف الى ذلك ان المؤرخين المسلمين اعتبروا علم التاريخ متما للعلوم الدينية وخاصة علم التفسير ودراسة اسباب التنزيل ، وكذلك متطلبات النظامين المالي والقضائي ، وتشجيع الخلفاء ، والنزاع السياسي ، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت للتاريخ عند المسلمين صفات خاصة ومميزات اقتضت على ماهية الكتابة التاريخية عند المسلمين ، وتفوقت بها على ما عند الشعوب الاخرى من مناهج ينتظم بها المنهج التاريخي . ولهذا فان مجال التاريخ عند المسلمين واسع شاسع شمل السيرة والمغازي ، والطبقات ، وفتوح البلدان ، وتواريخ البلدان ، والتراجم والتواريخ العامة (١٢) .

لقد شكلت مقدمة ابن خلدون(*) منعرجا حاسما في كيفية فهم الانسان لتاريخه وتقييمه له وما يرجو من كشف لا عن ماضيه فحسب بل عن تطور الجنس الذي ينتمي اليه ومصيره . وبذلك فتح ابن خلدون في مقدمته أبواب الاجتماع والاقتصاد

(*) ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) ، هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، من أبرز المؤرخين وعلماء الاجتماع ، اشتهر بكتابة « العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » .

والمؤسسات وضروب الثقافات والعلوم أمام التاريخ . ويذكر ابن خلدون في مقدمته : « حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني ، الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش والتأنيس والعصيان واصناف التغلبات للبشر بعضهم ببعض وما ينشأ عن ذلك من الدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران من الاحوال » (١٢) . فموضوع التاريخ اذن لا ينحصر بما حدث من الفتوحات والحروب ، وما توالى من الدول والملوك في الازمنة الغابرة بل يشمل كل ما حدث من التحول في الحياة الاجتماعية على اختلاف انواعها وفي المؤسسات الاجتماعية ، ذلك ان الاخبار المتعلقة بالاحوال الاقتصادية والصنائع والعلوم تدخل جميعها في نطاق موضوع التاريخ .

كما يقول ابن خلدون في مقدمته : « فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقبال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال . . . وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديهها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق » (١٤) . ويريد ابن خلدون بذلك القول ان يجعل من التاريخ اداة كشف عن سير الانسان وتطوره الاجتماعي، وعن خروج هذا الانسان من مرحلة « التوحش » الى « التأنيس » بفضل الصراع من اجل تخطي العقبات التي تعترض السبيل نحو انسياسة اكمل عن طريق الرقي المستمر الناشئ .

وبكل هذا يصبح التاريخ في رأي ابن خلدون استكشافا كليا لتطور الانسان ، وبالتالي سعيه للكشف عن العوامل الاساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الامم والدول (١٥) ، وبالتالي توصل الانسان الى فهم وضعه في هذا الكون ومحاولة ادراك مصيره العاجل والاجل . وهذا يؤدي الى ان يتناول علم التاريخ امور التطبيق والاسلوب والنظرية ، وعدم الاكتفاء بالمنهج فقط .

أما المرحلة السابعة فنستطيع القول بأنها المرحلة التي استعاد بها الغرب دوره القديم وذلك خلال عصر النهضة الاوربية (١٦) ، حيث تلمس تطورا هاما في علم التاريخ، اذ اتسم التاريخ في هذه المرحلة بعدة مميزات تجمع بين المناهج السابقة ومفاهيم حديثة متطورة . ويمكن ايجاز هذه المميزات على النحو التالي :

— بدأ التاريخ يفقد طابعه الديني ، وسيطر المذهب العقلي على الكتابات التاريخية

فاستبعدت المعجزات والخرافات ، وأصبح المؤرخ يعتمد على النقد والتحليل ، ويهتم بالتحقيق السياسي أكثر من اهتمامه بالقاء المواعظ . كما برزت الدراسات الوثائقية بكل وضوح ، فقد استطاع الراهبان فالأ ومايون بعد نجاحهما في دراسة الوثائق أن يفتحوا الباب على مصراعيه أمام دراسة أصول علم الوثائق ، الذي عرف باسم الباليوجرافيا Paleography ، ووظيفته دراسة الخطوط والكتابات القديمة ، وتفرع عنه علم النقوش المعروف باسم الإبيجرافيا Epigraphy ، ووظيفته دراسة النقوش والرسوم على الأحجار وغيرها ، وتفسيرها ، واستخراج المادة التاريخية منها ، ومن ثم أدى ذلك إلى وجوب معرفة أنواع المادة المستعملة في التدوين كالورق والرق وانبردي ، والمواد الأخرى كالخشب والقماش والزجاج والمعادن وغيرها . وقد ارتبطت حركة البحث عن الوثائق والعناية بها في أوروبا بنمو الشعور القومي (١٧) ، كما أدى الاهتمام بالبحث عن الماضي إلى ظهور علم الآثار Archaeology ، ووظيفته دراسة التركة الأثرية للإنسان عبر العصور الماضية ، وما تمثله هذه التركة من إبنية وأشياء مصنعة أو أدوات أو نقش ، وهي جميعها تعكس حياة الإنسان اليومية إلى جانب ما تحمله من فكر إنساني أعتنقه الإنسان ومارسه عبر مختلف العصور ، وبدرجات متفاوتة ، خلال تطوره الاقتصادي إلى الاجتماعي والسياسي والديني .

— تركز اهتمام التاريخ حول الدولة بوصفها المحور الرئيسي الذي ينبغي أن تدور حوله الأحداث ، وابتعدت الكتابات التاريخية بالتالي عن دراسة الكونيات . واستعان حكام الدول بالادباء لتدوين تاريخ دولهم . فبرز الأسلوب الأدبي في الكتابات التاريخية ، ولا سيما في إيطاليا التي سبقت الدول الأخرى إلى عصر النهضة .

— أهمل المؤرخون الشعب والجماهير كموضوع حقيقي للتاريخ ، وتركز اهتمامهم على بلاط الملوك والأمراء والحكام وعظماء الرجال ، وأصبح المؤرخون في الصفوف الأولى من رجال الدولة ، ومن هذه الأمثلة فولتير في فرنسا ، وكلاوندون بانكلترا .

ويلاحظ الباحث أن علم التاريخ قد خطا خطوات واسعة على امتداد هذه المرحلة ، من عصر النهضة حتى وصل إلى صورته الحالية في القرن العشرين .

وإذا انتقلنا إلى المرحلة الثامنة من تطور مفهوم التاريخ ، وهي المتمثلة في

عصرنا الحالي ، نجد أن علم التاريخ في العصر الحديث قد تميز باتصال المؤرخ اتصالا عفويا بالجماهير . ويمكن تتبع هذا التطور على النحو التالي :

أ - ظهور حركة « الاستنارة » أو « التنوير » في التاريخ The Enlightenment ونهضة البحث التاريخي خلال القرن الثامن عشر ، وقاد هذه الحركة أو المدرسة الجديدة في التفكير التاريخي فولتير ، وهيوم (١٨) . ويقصد بالاستنارة تلك الجهود التي اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر والتي استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية في كل ميادين الحياة الانسانية والتفكير ، وهي في واقعها ثورة على الدين الذي كان يعتبر قيذا على النشاط الانساني ، فهي جهاد ضد سيطرته وسلطانه ، وغايتها تحرير الانسان من كل قيد على فكره وتصرفاته . ويمكن ايجاز اهم مظاهر هذه المرحلة على النحو التالي :

- الالتزام بفكرة البحث التاريخي ، الذي أصبح مدخلا قويا للتاريخ العلمي .

- ظهور جماعة اليسوعيين في بلجيكا التي سعت الى تأريخ حياة القديسين على حقيقتها وتقويم الاساطير من خلال نقد وتحليل الوثائق والاصول . وقد شجع هذا الاتجاه على بروز جماعة « الباحثين » الذين وجهوا كل اهتماماتهم الى نقد الوثائق بحيث أصبح هذا النقد فنا له اصول وقواعد .

- انتشار النزعة العلمية في التاريخ في فرنسا وغيرها مما شجع الباحثين على زيادة اهتماماتهم بالوثائق وحفظها في اماكن خاصة في معظم اقطار اوروبا .

ب - ظهور كتاب ديكارت Discours de la Methode الذي أصبح منهجه قاعدة للباحثين ، وشجع المؤرخين بالتالي على استبعاد كل شواهد التاريخ القائمة على اساس العقيدة وحدها ، وأصبح الشك هو الاساس العام للدراسة والسبيل الوحيد للوصول الى المعرفة .

ومن مميزات هذه المرحلة ان أصبح المؤرخ يهتم بالاحداث من خلال الوثائق والظروف المحيطة بعد مناقشتها ونقدها ثم عرض نتائجها في أسلوب ادبي .

ج - ومنذ اوائل القرن الثامن عشر أخذ التاريخ يستقر على قواعد واصول فنية علمية خرجت به - شيئا فشيئا - من مجال الادب والفلسفة والتأملات واساطير القديسين ، ومدائح الملوك الى ارض العلم الصلبة ، وولد علم التاريخ في الغرب .

وقد ارتبط مولد علم التاريخ في الغرب بأسماء مشهورة منها : دوشن Duchesne الذي كتب تاريخا للكنيسة الكاثوليكية ، وبالوز Baluze ومابيلون Mabillon ومونفوكون Montfaucon . أما ادوارد جيبون Edward Gibbon ١٧٣٧-١٧٩٤ فيعتبر من أعظم المؤرخين واساتذة علم التاريخ على مر العصور ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن « تاريخ سقوط الدولة الرومانية » ، وقد عاصر فولتر ، ومونتسكيو (١٦) وجان جاك روسو (٢٠) وغيرهم من اعلام ذلك العصر ، ويرى العديد من المؤرخين أن جيبون صاحب مدرسة في التاريخ مثل رانكه ، وأنه ارتفع في التاريخ الى مستوى لم يعرفه الغرب من قبل . ومما هو جدير بالذكر أنه من المؤرخين الغربيين القلائل الذين قدروا التاريخ الاسلامي .

ومن اعلام المؤرخين في عصر التنوير آدم سميث ١٧٢٣ - ١٧٩٠ الذي يعتبر مؤسساً لعلم الاقتصاد بعد نشره كتابه المشهور « ثروة الامم Wealth of Nations » وهو كتاب تاريخي لفت فيه الانظار الى أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ ، حيث كشف عن أهمية العامل الاقتصادي في بناء الدول والجماعات ، وقد سبق كارل ماركس في هذا الاتجاه .

ان مؤرخي القرن الثامن عشر ، وعلى رأسهم جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤ م) قد لفتوا أنظار الناس الى أهمية دراسة التاريخ دراسة علمية موضحين قيمته الكبرى كدراسة انسانية أصيلة ، وبالرغم من ذلك فانهم لم يصلوا الى تثبيت اقدام التاريخ كعلم له اصول ومناهج بحث ، حتى ان جيبون نفسه كان يعتقد ان التاريخ ضرب من الادب ، وقال عنه انه . . « أشهر ضروب الادب The most popular of all Forms of Literature » وهي عبارة انكرها عليه مؤرخو القرن التاسع عشر أفكاراً شديداً . كما يؤخذ على مؤرخي القرن الثامن عشر عدم اهتمامهم بتطوير الانسان ومجتمعه ، وظلوا ينظرون الى انسان عصرهم وكأنه نفس انسان العصور القديمة دون التعرف على تطور عواطفه أو سلوكه . ولهذا فانهم لم يستطيعوا ان يصلوا بالتاريخ الى مرتبة العلوم التي تدرس في الجامعات .

أما في القرن التاسع عشر فبدأ المؤرخ اتصاله الجماهيري ، فلم يعد يركز على الدولة أو على طائفة معينة . كما اتصف البحث التاريخي بالموضوعية ، فحاول المؤرخ الوصول الى النتائج والحقائق بأسلوب علمي مبتعداً عن الروايات الفردية أو المثيرة ، أو الاكتفاء بسرد الوقائع ، وقد أدى ذلك الى ان يصبح التاريخ دراسة انسانية تتصل بالحياة البشرية عموماً في شتى مجالاتها وأنشطتها من خلال تناول الحياة اليومية للمجتمعات .

كما حدث تغير حاسم على وضع التاريخ والنظرة اليه في هذا القرن الذي تميز بتزاحم الاحداث الضخمة التي احدثت ثورة حقيقية في كل ميادين العلوم تقريبا ، فانتقل التاريخ من نطاق الهوايات او الآداب الى نطاق العلوم ذات الاصول والمناهج . وتتمثل ثورة التاريخ في القرن التاسع عشر في التطور الشامل في علم التاريخ التي تزعمها المؤرخون الالمان ، وتعرف بمدرسة برلين ، وقائدها ليوبولد فون راتكه (٢١) ، رغم انه سبقهم مؤرخون اوروبيون واشتهر منهم جيماباتيستا فيكو Gimabathista Vico ١٦٦٨ - ١٧٧٤ ، وهو من مشاهير عصر التنوير . وهو اول من نظر من علماء الغرب الى التاريخ العالمي نظرة فلسفية ، كما فعل ابن خلدون قبله بنحو ثلاثة قرون ، وقد قسم فيكو التاريخ الى حقبة ثلاث :

(١) **حقبة آلهية** : اي العصر الذي كان الناس فيه يردون كل الحوادث الى صنع الالهة .

(٢) **حقبة بطولية** : كان التاريخ فيها سردا لاعمال عظماء التاريخ .

(٣) **حقبة انسانية** : وقد انتبه المؤرخون فيها الى ان التاريخ الحقيقي هو الذي تصنعه الجماهير والشعوب (٢٢) .

ويعتبر المؤرخ يوهان جوتفريد هيردر Herder ١٧٤٤ - ١٨٠٣ مؤسس المدرسة الالمانية في علم التاريخ، وكان اديبا ولاهوتيا ،ومن اهم كتبه التاريخية « آراء في فلسفة تاريخ البشر Ideen zur philosophie der egeschichte der menschheit » ثم رسالته المسماة :

« Auch eine philosophie der geschichte zur bildung der menschheit »

وكذلك فلسفة التاريخ في بناء الانسانية (٢٣) .

اما في القرن العشرين فقد تقدمت المدارس التاريخية ، وتطورت مناهجها . ويعتبر هذا القرن ، الذي شهد التفجر الثقافي والتطور الكبير في جميع مجالات العلوم، احد المعالم الشهيرة في تطور التاريخ . ففي هذه المرحلة تبلور المفهوم العلمي للتاريخ ، وظهرت القوانين التاريخية ، كما اكتمل منهج البحث التاريخي بجميع عناصره ، منهايا بذلك الجدل الذي احتدم طويلا في القارة الاوربية ، وبخاصة في المانيا وانجلترا ، بين الفلاسفة والمؤرخين من مؤيدين ومعارضين للمبدا القائل بأن « التاريخ علم » .

انتقل علم التاريخ في هذه المرحلة من فرع ثانوي من المعرفة يمارسه بعض الكتاب والسياسيين كوسيلة للتقرب الى الله برواية اخبار الصالحين او التزلف الى الملوك

والزعماء بكتابة تراجمهم ، الى علم مستقل له اصوله ومنهجه وعلماءه ومختصوه ، كأحد اسس المعرفة الانسانية . كما انبثقت عنه علوم أخرى مكمله ، كالأثار ، والخطوط والكتابات القديمة ، وعلم النقوش ، وعلم الوثائق والمحفوظات ، وغيرها من العلوم التي احتلت مكانة خاصة بين العلوم الاخرى ، واصبح علم التاريخ يستعين بأحدث اكتشافات الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا ، كما انه في سبيل استخدام الاجهزة والعقول الالكترونية كي يمتد أكثر فأكثر في جميع مجالات المعرفة الانسانية .

ويعتبر كروتشه (٢٤) وكولنجوود (٢٥) ، وتوينبي ، وشبنجلر ، وماركس ، وهنري بيرين Henri Pirenne ١٨٦٢ - ١٩٣٥ ، من أشهر فلاسفة التاريخ في عصرنا ، فقد وصل التاريخ على ايديهم الى مرتبة العلوم ذات الوظيفة والشخصية المستقلتين ، اي ان التاريخ علم بالمنهج ، تنطبق على دراسته مناهج البحث العلمي من حيث استقصاء المادة ، ودراستها وتحليلها تحليلًا دقيقًا قبل استخلاص الحقائق التاريخية . وعندما قال : ب. بيسوري B. Bury « التاريخ علم ، لا أكثر ولا أقل History is a science, no more, no Less » فتح باب النقاش واسعا حول هذا الموضوع ، فقال بعض المؤرخين ان التاريخ لا يسير على قوانين ولكنه يسير على منطق ، فلكل حادث أسبابه وتطوراته ونتائجه المنطقية . وهذا يوحي بأنه ليس من غاية التاريخ تجريد نواميس Nomologique (قوانين) ، أي أنه ليس علما تجريبيًا ، كما يعني أن التاريخ لا تكرر فيه لانه علم الانسان قبل كل شيء وهو حركة مستمرة ، ولا يسمح بأن تكون له قواعد وقوانين مجردة كقوانين العلوم .

ولا يتسع المجال هنا لمناقشة جميع الآراء حول علمية التاريخ (٢٦) ، وانما يمكن الاكتفاء بالمحصلة النهائية لهذا النقاش الذي يقول : ان التاريخ وان لم يكن من العلوم الناموسية ، فليس معنى ذلك حتما انه ليس بعلم ، فهو علم بهدفه ، وهو ككل العلوم يسعى وراء الحقيقة ، وهو علم بمنهجه الذي لم يفتأ على مر العصور يتطور ويزداد احكاما . ومهما يكن الامر ، فانه ليس من الضروري كي يكون العلم علما ان يميظ اللثام عن كل خفية ودقيقة ، بل يكفي ان يبلغ الحقيقة بقدر الامكان .

اما عن ماهية القوانين التاريخية فان ماركس يرى ان التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الانساني ، وهذه القوانين حتمية ، اي انها تفرض نفسها لانها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه ، واذا أدرك الانسان هذه القوانين ، استطاع ان يقرر صورة مستقبل الجماعة الانسانية ، وان هذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة ، وانما هي حقائق متعلقة بطبيعة العمل والانتاج ، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين ، فالثروة تنتج عن العمل ، والعمل يقوم به من يعملون بأيديهم او بعلمهم ومواهبهم ، وان ثمرته لا بد أن تعود حتما على أولئك العاملين أنفسهم .

ويقول ماركس ان الاحوال أو الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها ، واذا أردنا أن نفهم نظام أي مجتمع ونطاقه السياسي ، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية ونتاجه الفني والفكري ، فلننظر أولا الى نظامه الاقتصادي ، وأساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه وأساليبه وطريقة استعماله أو توزيع ثمراته . والانتاج نفسه ، سواء أكان يدويا بدائيا أم آليا متطورا ، لا يظل دائما على مستوى واحد وأسلوب واحد ، فهو يتطور دائما ، أو على الأقل هو متطور باستمرار في أدواته وصورته وطريقة توزيعه . وهذا التطور للانتاج ، أي الوضع الاقتصادي ، مستمر مهما كان بطيئا ، وتطوره هذا هو الذي ينتج عنه تطور المجتمع الذي يقوم عليه ، وكل نظمته وقوانينه ، وما يقوم على ذلك كله من افكار وعقائد وآداب وفنون ، وكل ما يسميه الماركسيون المظهر الخارجي للمجتمع .

كما تتميز هذه المرحلة بتبلور فكرة « التاريخ الكلي » ، الذي يدعو الى دراسة العصر من كل نواحيه : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية والحضارية لتغطية جميع مجالاته التاريخية . ومن أبرز المؤرخين في هذا المجال المؤرخ هنري بيريـنـ *Henri Pirenne 1862 - 1935* ، والمؤرخ جورج ليفبـور *George Lefebore 1874 - 1959* ، فقد عني الاول بالناحية الاقتصادية كجزء من الاطار العام للحقائق التاريخية ، ويعتبر من افضل من طبق « التاريخ الكلي » . اما الثاني فقد سار على المنهج الدقيق الذي يلتزم الاصول بكل دقة ، وقد قال بأنه لا تاريخ بلا وثائق .

أما توينبي (٢٧) فهو يحتل مكانة بارزة بين مؤرخي هذا العصر ، فقد اثبت حقيقة استمرار التاريخ ، وان الماضي والحاضر يربطهما بالفعل رباط حقيقي لا شك فيه . كما انه يعتقد بدراسة عامة شاملة وصل كل منها الى قمته في صورة حضارية قائمة بذاتها ، فالتاريخ الاسلامي في نظره ، تجربة واحدة خلاصتها هي الحضارة الاسلامية ، فالحضارة لا التاريخ القومي هي وحدة الدراسة التاريخية (٢٨) .

لقد كان للعديد من المؤرخين الفضل في تطور التاريخ كعلم انساني يدرس الانسان في حاضره ، ويمتد لتجاربه في الماضي ، في ظل الزمان والمكان التي تمت فيه ، والقاء الاضواء عليه ، لعل معرفتنا بالماضي تمكننا من فهم الحاضر ، ومن ثم النظر للمستقبل من خلال دراسة موضوعية تساعدنا على التخطيط لمستقبل افضل . فقد كان لاولئك المؤرخين الفضل الاكبر في جعل التاريخ علما مستقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقة ، واثبتوا أن التاريخ هو من الدراسات الاساسية في المعرفة الانسانية ، وابعدها اثرا في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة .

كان للنهضة الاوربية اثر كبير في تطور جميع العلوم ، وقد حظي التاريخ بنصيب وافر من هذا التطور ، حيث امتزج التفكير العلمي بدراسة التاريخ ، مما ادى الى تطور مفهومه واسلوبه ومنهجه ، فاحتل في القرن الماضي مكانة مرموقة بين العلوم الاخرى ، واصبح العصر الحالي يتميز بعصر العلوم وبالعقلية التاريخية . لقد بذل المؤرخون جهدا شاقا في نقل التاريخ من حكايات واساطير الى دراسات وحركات فكرية ، فالتاريخ بمفهومه الحديث لا يقتصر على اخبار واساطير الماضين ، بل هو يدرس التجربة الانسانية ، او جوانب منها ، ولا يسعى الى فهم الانسان وطبيعة الحياة على وجه الارض . والانسان كل لا نفهمه ما لم نعتن بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية ، عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . فبيئة الانسان هي جميع مايحيط به ويؤثر فيه . وعلى الرغم من ان لكل كائن بيئته ، الا ان بيئة الانسان اكثر اتساعا من بيئة النبات والحيوان . فقد استطاع الانسان بذكائه وعلمه ان يوسع دائرة بيئته بفضل ما استخدمه من اساليب المواصلات الحديثة وتغلبه على ظروف البيئات التي لاتناسبه ، فقد سكن الارض من مناطقها الاستوائية الحارة الى قطبيها المتجمدين ، وخرج من نطاق الارض ليصل الى الكواكب الاخرى ، ويحاول الانتفاع بها الى اقصى حد ممكن .

حققت المعارف الانسانية في العصر الحالي ما يمكن ان نسميه ثورة في علم التاريخ ، تناولت مادته ومناهجه واهدافه ، وتبعها اتساع في فروع التاريخ ، فشملت تواريخ العلوم ، والفكر ، والفنون ، والتطورات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والتواريخ المقارنة وغيرها . كما ان التاريخ لم يعد ملكا للشعوب الحضارية القديمة فقد دخلت فيه جميع الشعوب . واستعان منهجه بالعديد من العلوم المساعدة ، منها الجغرافية ، والجيولوجيا ، والفيزياء . . . ، وبمعطيات العلوم والبحوث الجديدة ، ومعطيات العلوم التقنية ، واتخذ من الشعوب والبيئة والمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في حياة الانسان منطلقا وموضوعا .

ان حركة التجديد التي شملت مفهوم التاريخ ومناهجه قد اخرجته من المرويات واساطير الاولين ، واستخدمته كوسيلة للوعظ والتوجيه الفكري والسياسي ، وادخلت عليه مناهج البحث والاستقصاء ، ومدت نطاقه من الماضي ليشمل الحاضر والمستقبل ، وجعلت منه دراسات فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية . ولم تعد اهدافه تنحصر في العظة والعبرة ، انما اتسع ليشمل دراسة تطور حياة الانسان بمعناها الشامل ، والسجل الطويل للمجتمع الانساني للاستفادة من تجارب الانسان في الماضي ونتائجها في الحاضر ، ومن ثم المساعدة في التخطيط لمستقبل افضل .

ويعتبر التاريخ حوارا بين الماضي والحاضر ، حوارا بين الاجيال ، وحوارا بين الانسان والزمان ، وحوارا بين المؤرخ والقارىء . فالتاريخ بلا شك هو التجربة المدونة للجنس البشري ، والانسان يستطيع ان يستفيد من التجربة في اي ميدان من ميادين المعرفة .

فالتاريخ يدون حياة الامم وتجاربها وخبراتها التي هي ثمرة التفاعل بين الانسان وبيئته ، فهو يحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها ، كما يبرز التطور الذي طرا على حياة الامم من حيث مسبباته ووسائله ، والوقوف على الاسس التي تتحكم في تلك الظروف ويمهد السبيل للتغيرات المرتقبة ، كما ينشد معرفة الظروف التي تؤثر في الاتجاهات المختلفة التي تظهر في اوقات شتى . وهذا يتطلب دراسة ومتابعة التفاعل الدائم بين المجتمع والثقافة والمصادر الطبيعية ، والمجتمع بما يتضمنه من بشر في اطار من علاقات قومية واجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية ، والثقافة التي تتمثل في الجانب الذي صنعه الانسان من بيئته سواء اكان معنويا ام ماديا ، ثم المصادر الطبيعية التي تمثل جميع الظروف في البيئة من ارض وبحار وماء وشمس وهواء وحيوانات ونبات وثروات طبيعية . فالانسان في تفاعل مستمر مع بيئته في جميع مكوناتها المادية والاجتماعية او العقلية او النفسية التي تحيط به وتؤثر فيه ويتأثر بها ، فهو جزء منها ، وعليها تتوقف حياته ، فهو يستمد منها جميع مقوماته . ان التفاعل بين الانسان وبيئته مستمر لا ينتهي الا بنهاية حياته ، بل انه يستمر في الناحية المادية بعد نهاية حياته ولكنه لا يدخل في اطار خبرته (٢٩) ويقول سانتيا : « يجب الا نخلط بين معنيين للتاريخ : اولهما سياق الحوادث كما تقع فعلا وثانيهما مشهد هذه الاحداث الذي يلتقطه المؤرخ ويضمنه كتابه » (٣٠) . وبعبارة اخرى ينبغي التمييز بين « التاريخ History » كمسيرة للانسانية ، و « علم التاريخ Historiography » كفاعلية انسانية . فعندما نكتب التاريخ ، فاننا نسجل تجربة الانسانية ، وهذه التجربة لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، ونحن عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل ، فالتاريخ هو سجل الماضي ، وصورة الحاضر ، والمرشد الى الغد .

والتاريخ بمفهومه الحديث يكتبه اولئك الذين يعتقدون انه ليس قسما من « العلوم الادبية » ، وانه ليس مجرد قصة طريفة مفيدة مسلية ، بل هو « فرع من العلوم » . وهذا العلم كغيره من العلوم الحديثة ، هو نتاج نهضة القرن التاسع عشر الى حد كبير . فالتاريخ ليس احداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهود

تكويني يدون حياة الأمم وتجاربها وخبراتها ويحققها ويوضح الترابط والعلاقات بينها .

فمفهوم التاريخ قد تطور في وقتنا الحاضر تطوراً كبيراً ، فأصبح علماً له شخصية مميزة وغايات يسعى إليها ، وله مناهج البحث الخاصة به ، ويحتل مكانة مميزة بين العلوم الإنسانية ، فهو المرآة التي تخلص شخصيات الأمم والاسس التي يقوم عليها حاضرها ومستقبلها . وهو مجموعة الاحداث التي وقعت في الماضي وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتي نحصد نتائجها في الحاضر ، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوءه بما سوف يقع مستقبلاً .

ومتى ما استقر الرأي على أن التاريخ هو علم له شخصية مميزة وغايات يسعى إليها فإنه لا بد أن يكون لهذا التاريخ بناء منطقي يشمل عالم الإنسان . لذا فقد ارتبطت كل نظرية في التاريخ بنظرية الإنسان والزمان ، فالإنسان هو العنصر الاساسي في حركة التطور الشامل وما يجري من حوادث لن يكون لها من قيمة ما لم تتفاعل مع الفكر الانساني وتؤثر في وضع الإنسان وتوجه مصيره ، أما الزمان فهو تلك المرحلة التي يمر بها الإنسان فاعلاً ومتفاعلاً ، وبذلك أصبح للتاريخ سبل متشعبة ومسارات متفاوتة ومتى أصبح عمل الباحث الربط بين التأثير والتأثر وبين الاسباب والنتائج فإن التاريخ يبرز لنا خبرات انسانية متعددة ، فاكتمل الخيرة بحد ذاتها ، يتوقف على عدد من العوامل منها ذكاء الإنسان وقدرته على ادراك العلاقات ، أسلوب تفكيره ، شدة انفعالاته ، قوة دوافعه ... مضافاً الى ذلك كله تجاربه السابقة « المكتسبة » والظروف النفسية والاجتماعية المحيطة به .

مسارات التاريخ ومخاوره الرئيسية :

ان حركة التاريخ مستمرة ، وهي في تغير دائم ، سواء في حجمها او شكلها ، او آثارها ، او تأثيراتها ، او في زمانها ، كما أنها متعددة الخطوط والاتجاهات والاعماق ، ويتفاعل العديد من العوامل في صياغتها . فهل هذه الحركة تسير اتفاقاً في الكون ؟ وهل لها وتيرة واحدة ؟ وهل لها فلكها المحدود ؟ وما دور الإنسان والزمان في المسيرة التاريخية ؟ ومن يوجه هذه المسيرة ؟ هل هي الصدفة ؟ أم جدلية المتناقضات ؟ أم المثالية ؟ أم المادية ؟ أم الميتافيزيكية ؟ أم التحدي والاستجابة ؟ أم الهزات النفسية ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة تشكل جوهر الفلسفة التاريخية وقد حاول بعض المؤرخين تحديد فلسفة التاريخ في معان رئيسة ثلاث : اولها أنها تعنى بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالتيارات التحتية ، او القوى الاساسية للتاريخ باعتباره

حقيقة موضوعية (هي الماضي) ، وثانيها النظرة العامة الانسانية والمفاهيم الاساسية ايضا التي يأتي بها المؤرخ ، او تأتي بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التي يعالجونها متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث او مفهوم التقدم وما الى ذلك ، وثالثها انها تستعمل مرادفا على وجه التقريب للمنهج التاريخي Historical Methodology أي العملية الفعلية التي يسلك المؤرخ شعابها .

هذه هي المفاهيم الرئيسة او الافكار الرئيسة التي تناولها كبار المؤرخين والفلاسفة على مدى قرون طويلة تبلورت في القرن الاخير في مدارس متميزة واتجاهات فلسفية مختلفة . وبعبارة اخرى ، يمكن القول بأن أصل فلسفة التاريخ ترجع الى كيفية تفسير الاحداث التاريخية ، وعلاقة ذلك بالكون ، وكيفية التوصل الى القوانين التي تحكم تلك الاحداث ودور الانسان في كل ذلك .

وفي ضوء ما سبق يمكن ايجاز التطور الكبير الذي حدث في مفهوم التاريخ واسلوبه ومنهجه بمراحل حاسمة ثلاث ، اعتبرها البعض ثورة في علم التاريخ : ابتدأت المرحلة الاولى مع بداية العصر الاغريقي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، حيث حدث تغير كبير في مفهوم علم التاريخ ، وظهرت الفكرة التي تنادي بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، او ضرب من ضروب البحث العلمي بعد أن كان عبارة عن قصص واساطير ومعتقدات دينية ، ولقد استمر هذا الاتجاه في العصرين الاغريقي والروماني مبتعدا عن قيود الاساطير الدينية . فكان بمثابة « ثورة » تاريخية ، في مفهومه وكتابته ، والاعتماد على الوثائق في كتابة التاريخ وتدوين الاحداث .

اما المرحلة الثانية فقد حدثت في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، حيث خضعت فكرة التاريخ لمفهوم جديد نتيجة للانقلاب الكبير في مفهوم التاريخ الذي جاد في التفكير المسيحي .

وقد حدثت المرحلة الثالثة في عصر النهضة الاوربية واستمرت في مفهومه واسلوبه ومنهجه حتى اكتملت الصورة العلمية للتاريخ واصبح له مناهج بحثه الخاصة في العصر الحالي ، الذي تميز بالانفجار الثقافي وتطور العلوم في جميع مجالاتها .

وكيفما كان الحال فاننا سنفرد افكارا تلقي الضوء على منجزات أبرز المؤرخين والفلاسفة في مجال التاريخ ، وتطور اسلوبه ومنهجه ومن ثم ظهور المدارس التاريخية والفلسفية المختلفة في العصر الحديث .

الانسان وفلسفة التاريخ (٢١) :

ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات التاريخية لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الالهة وبين الطبيعة ، بما فيها القوى المادية والانسان ، في مسيرة التاريخ واقامة الحضارات . وبعبارة اخرى تحديد ماهية العلاقة بين الالهة والطبيعة في صنع التاريخ .

فالتاريخ هو علم الانسان في حياته واحواله الدائمة التغير ، فهو ينطلق من الماضي ، ويمتد في الحاضر ، ويرخي سدوله على المستقبل ، فهو علم تطور الانسان بلا انقطاع على مدى الزمان ، والتاريخ ليس أحداثا تعبر الزمن ، ولكنه ممارسة فكرية وجهد تكويني يتميز بميكانيكية العملية التاريخية التي تتصف بالشمول والاستمرارية في اطار المعرفة التاريخية وطبيعتها وحدودها .

ولكي نفهم الانسان يجب الاهتمام بحياته الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والسياسية والعقائدية والادبية والفنية والعقلية عامة ، وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته ، فالانسان هو محور فلسفة التاريخ ، وهو ليس مجرد مركب معقد من الكهرباء (الالكترونات) والبرتونات ، او جعبة نفسية مملوءة بالدوافع النفسية . ولكنه مخلوق معقد الى حد عجيب ولا يمكن تحليله تحليلا عمليا . لقد وجد الانسان في بيئة لا تفي بحاجاته جميعا مما حتم عليه العمل المستمر لتحسين احواله . ويرى العديد من الفلاسفة ان الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الانساني ، وغاية سعي البشر منذ القدم . ويرى محمد اقبال (٢٢) ان مهمة الانسان ، ان يسهم في اعمق مطامح الكون من حوله ، وان يقرر شكل مصيره هو ومصير الكون ، تارة بتكييف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته لصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق واهدافه (اي اهداف الانسان) وغاياته .

ان الذات الانسانية قد اوجدت نوعا من التوتر في تفاعلها مع المحيط المادي ، الذي كان ولا يزال يسيطر على فكر الانسان وارادته ، وجعل كثيرا من المفكرين يعتقدون ان البيئات المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الانسان ، ومن تزعّموا هذا الاتجاه : بكل راتسل Buchele Ratzel ، وكوميت (٢٣) Comete ، وسبنسر Spencer ، والان دريبر Alan Draper ، واخذوا يبحثون عن القوانين التي تحكم هذا الاتجاه بعيدا عن دور العنصر البشري في ذلك . وقد ادى تأكيدهم على العالم المادي الى تجرييد التاريخ من صفته البشرية . وهذه النظرية تستند الى حد كبير على النظرة الجغرافية للتاريخ التي ترى ان كل الاعمال التي يقوم بها الانسان ، افرادا

او جماعات ، طبقات او شعوبا انما يقومون بها دفاعا عن سعادتهم ، اي عن حياتهم . وحماية لانفسهم من الالم ، ولاجل بلوغ هذه الغاية لابد للانسانية من ان تبذل الكثير من الجهد ، وهذا يدفعها الى العمل فتقهر العالم المادي ، وبذلك تخطو خطوة الى الامام في طريق التقدم . ويرى محمد اقبال انه ينبغي في نفس الوقت ان يقترن هذا التقدم بسيطرة المبادئ الاخلاقية على قوى الطبيعة والتاريخ مليء بالامثلة التي تشير الى أن التقدم والقوة التي لا تقيدھا الاخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

ان صلة الانسان بالتاريخ وفهمه له تطور تطورا كبيرا منذ ذلك الوقت الذي لم يكن فيه سوى ضرب من الميثولوجية ، او قصص واساطير الاولين . فقد طرات تغييرات جذرية على العلاقة الجدلية التي تربط انسان اليوم بتاريخه ، حين أصبح المؤرخ يبحث عن اسباب الاحداث واسرارها الدفينة، مما ادى الى اهتمامه بالجماهير والظواهر التاريخية ، وجميع الظروف المحيطة بها بعد ان كان يقصر اهتمامه على القادة والاحداث البارزة .

الزمان وفلسفة التاريخ : اثار الفلاسفة عدة اسئلة حول مفهوم الزمان . ما المقصود بالزمن ؟ هل له بداية ؟ ما ابعاده ؟ وما نهايته ؟

ان اصحاب النظرات الدينية ربطوا الزمان بالخلق الاول ، وبمصر الانسان في الدنيا ، وبنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب ، ومن ابرز ممثلي هذا الاتجاه فيلون (٢٥ ق.م - ٥٠ م) بالنسبة لليهودية ، ثم القديس اوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م) بالنسبة للمسيحية (٣٤) وابن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ) بالنسبة للاسلام .

اما علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية ، وعلماء الحياة . ومن هذا حذوهم من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، فقد ربطوا الزمن بأحداث فلكية بمعزل عن كل المعاني الدينية . ومن ابرز ممثلي هذا الاتجاه رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) . وارنست هيجل (٣٥) (١٨٣٤ - ١٩١٩) . ويرى بعض المؤرخين ان التاريخ علم « متزمن » ، لان التاريخ علم تقوم قاعدته الاساسية على الزمن ، كما انه يسير في فلك ذي ثلاثة حدود يتمثل في الانسان ، والمكان ، والزمان . والانسان هو الكائن الوحيد الذي يعي الزمان (ماضي ، حاضر ، مستقبل) ، فالزمن التاريخي يتصف بديمومة متصلة الحركة تمتاز بالتغير المستمر والتنوع ، او ما يسمى بالحس التاريخي . فالتاريخ ، لانه صورة الانسان ، لا يرتبط بالزمن فقط بل ان ارتباطه بالمكان لا يقل عن ارتباطه بالزمان .

وتعتبر هذه الخطوة هامة في الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة ، في سرد الحوادث سردا قصصيا مع ذكر زمانها ومكانها الثابتين الى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر الحوادث تفسيرا منطقيا ويحاول فضلا عن ذلك ان يكشف القانون الذي ينظم هذه الحوادث ويحاول ان يجد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلا منطقيا ، وينير الحاضر ويضيء بعض جوانب المستقبل (٢٦) .

الفلسفة ومسار التاريخ ، حاول المؤرخون وفلاسفة التاريخ منذ القدم تفسير مسيرة التاريخ ، فاستعانوا بالماضي في محاولة لثقب حجب المستقبل ، وكان التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ من أقدم التفسير التي استندت الى عامل واحد من هذه العوامل ، وقد تطور هذا الاتجاه في العصور الوسطى في صورة التفسير اللاهوتي . كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ الذي يأخذ بعامل الفرد البطل الذي يقوم بأعمال خارقة في صنع التاريخ . ومن هذه الاتجاهات ايضا التفسيرات الطبيعية للتاريخ والتي تطورت الى الصورة التي عرفت (بالمادية التاريخية) التي تعرف بـ (العلمية) . ان معظم اجتهادات المذاهب والفلسفات لم تحدد الاجابة الكاملة عن العلاقة بين الآلهة والطبيعة والانسان في صنع التاريخ . فمنذ زمن بعيد بدأ الانسان يرفض فكرة اعتبار « المصادفة » قوة محركة في الكون ، واخذ يجتهد لكي يكتشف « القانون المسير » الذي يعبر هذا الكون عن وجوده تعبيرا ملموسا ، وقد خطا بذلك خطوات واسعة في تطوير فلسفة التاريخ .

وكانت الخطوات الاولى في محاولة المؤرخين الانتقال من مجرد تسجيل الحوادث تسجيلا بسيطا الى اسلوب تاريخي علمي بنوا فيه كل حادثة على أخرى ، كما شرحوا كل واقعة بواقعة أخرى ، وحاولوا تفسير وربط العلاقة بينها . الا ان هذا الاسلوب لم يوضح الا ظواهر منفصلة ، ربما تعتبر اجزاء من « قصة الكون » . ويقول محمد اقبال :

« ان هذا الكون كون قابل للاتساع والامتداد الى مدى غير محدود ، اذ ربما يكمن في أعماق كيانه حلم مولد جديد ، ان الكون ذو غاية ، بمعنى واحد فقط هو المعنى الذي يدل على انه انتخابي بطبيعته ، وان طريقه للاتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي . واطافة شيء اليه » (٢٧) .

ان الفلسفة حول علاقة التاريخ بالمستقبل ليست حديثة ، فقد ظهرت من اوائل القرن التاسع عشر ، وانتشرت واحتدمت قبل الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة ، وازدادت احتداما في السنوات التي تلتها . والسبب في ذلك هو القلق الذي اخذ يساور

مفكري الغرب عندما شعروا فجأة أن حضارتهم ليست في مأمن من أن يصيبها ما أصاب الحضارات السابقة ، وأن الغد ليس حتما مضمونا . ويمكن إيجاز أبرز الآراء التي تناولت مسار التاريخ على النحو التالي :

— **الاتجاه القائل بأن للتاريخ مسارا واحدا** ، أي النمط الخطي المسترسل التصاعدي أبدا كخط مستقيم ، وبروح مطلقة . ويعتبر هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فهو يرى أن للتاريخ مسارا واحدا ، ويسير وفق خطة معينة ، ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة ، وأن التاريخ هو تحقيق الغاية التي أرادها الله من وراء الخلق . ويتفق هيجل في ذلك مع ابن خلدون (وقد نبعت فلسفة كل منهما من تجاربه الخاصة في ظل الظروف التي عايشها) واعتمد تفسيره على الماورائية الفلسفية الدينية المسيحية .

يدلل هيجل على نظريته بنوع خاص من الجدل أو الحوار يسمى عادة باسم *Dialektik* وعن طريق هذا الجدل وصل هيجل إلى القول بأن « العقل » أو « الفكر الانساني » يسعى دائما نحو التقدم ليصل إلى « العقل أو العلم المطلق » الذي يعتبره مثالا يحتذى به (٢٨) . ومن هنا يوصف هيجل بأنه مثالي ، ويعتبر في طليعة المثاليين الألمان . وتتميز فلسفته بالصفاء والاستعلاء والقرب إلى المذهب الجماعي في الحكم . ويمكن إيجاز أفكاره في هذا المجال على النحو التالي :

— أن الجماعات الانسانية تسعى للانتقال من حالة الهمجية والوحشية إلى مستوى الدولة ذات النظام والقانون ، والذي لا بد أن ينتهي يوما إلى تحرر البشر جميعا وعيشهم في سلام في ظل القانون ، ويقوم التاريخ الصحيح على تأدية الامم للرسالة الانسانية ، فلا يكون تاريخ أمة جزءا من تاريخ العالم إلا إذا كانت تلك الأمة في أثناء تاريخها هذا تؤدي رسالة (٢٩) .

— على الذين أنشأوا الدولة أن يستعملوا القوة والعنف ليلزموا الناس بطاعة القانون قبل أن يصلوا إلى النظام والقانون من تلقاء أنفسهم ، ولا يستطيع جميع الناس أن يصلوا إلى ذلك في نفس الوقت .

— الإيمان بالفكر أو العقل المطلق الذي يسير الأحداث في الكون ، ويعتبره مثالا أو مثلا أعلى .

— أن فلسفة التاريخ هي التاريخ منظورا إليه بذلك .

— ان التاريخ ، بناء على ذلك ، انما هو عملية طويلة مقدرة بقدر Vorsehungs Prozesse يأخذ فيها كل حدث أو ظرف مكانه ومبرراته على ضوء مسار التاريخ في مجموعه .

وقد اهتم هيجل اهتماما خاصا بالتطور الانساني للدولة متفقا بذلك مع رانكه الذي قال ان الدول أفكار الله Gottes Gealanken ، ويريد بذلك أنها تقوم بتقدير الله سبحانه (٤٠) . ويقول هيجل ، ان الصيرورة ليست متروكة للمصادفة والاسباب العارضة بل هنالك « ارادة مخططة » وراءها ، وان هدف هذا الصراع والتوفيق انما هو تطوير « روح العالم » (٤١) ، التي تتجه دائما نحو غايتها ، الا وهي تحقيق الذات Self realization . كما يقول ان تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير . وان الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرفها تلك العواطف والعبقرات والقوى الفعالة ، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بخطة المشيئة العليا (٤٢) . وتتلور الفكرة الفلسفية حول البحث عن القوى العامة التي تحرك مسار التاريخ عند هيجل بالنظر الى التاريخ أو العملية التاريخية Geschichte Prozesse — كما سماها هيجل — على انها عملية صعود منطقي الى مستويات عقلية أو فكرية جدلية Dialektische Stufen تنتهي آخر الامر الى تحقيق ما تقصد اليه القوة العليا المدبرة لشؤون الكون Weltgeist من توحيد العالم في كل واحد Weltganz يعيش في حرية وأمان . كما يرى هيجل اننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم ان تطوره كان دائما صيرورة عقلية (حركة فكرية متقدمة نحو الاعلى) ، وان هذا التاريخ قد انشا الطريق المنطقي الضروري لروح العالم ، تلك الروح التي تكون طبيعتها دائما واحدة لا تتغير .

وتعرف فلسفة هيجل ايضا بفلسفة المتناقضات ، وتتلخص في ان التطور انما هو نتيجة صراع المتناقضات على اساس ان كل ظاهرة تحتوي تناقضا داخليا يدفعها الى الامام ويؤدي بها آخر الامر الى تحطيمها وتحولها الى شيء آخر . الا ان تحطم ظاهرة ما انما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة . ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة . وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي (٤٣) الى نظام آخر .

ويأخذ المؤرخون على آراء هيجل انها ترضي الفيلسوف ، أو العقل الانساني ، لكنها لا تعين الانسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ . كما ان هيجل وغيره من المثاليين يقولون ان الفكر هو الذي يوجه التاريخ ، لانهم هم انفسهم كانوا جزءا من

النظام القائم ، وكانوا قادة الفكر فيه ، وتفكيرهم كله تأييد له ولاوضاعه ، ومن العسير عليهم أن يتصوروا أنهم في حملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة . كما اشتهر هيجل بمناصرته للدول والنظم الرأسمالية التي سادت الغرب في أيامه .

الاتجاه القائل بأن الظروف المادية للمجتمعات هي التي تحرك التاريخ ، المادية التاريخية (Historical Materialism)

يعتبر كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) ابرز فلاسفة هذا الاتجاه ، ويرى أن الاوضاع المادية للمجتمعات ، واحوال الملكية ، وصراع الطبقات بعضها مع بعض ، هي العوامل التي تدفع حركة التاريخ كله . وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادي للتاريخ . كما ان ماركس يعترف بوجود عواطف الايثار ، والحماس الديني ، والوطنية ، وغيرها بين الخصال المثالية ، ولكنه يردّها بدورها الى الاوضاع الاقتصادية واثرها المباشر او غير المباشر على العقل الانساني .

ويعتبر العديد من المؤرخين ان المحاولة الماركسية من ابرز محاولات تفسير الافكار التطورية في محيط العلوم الاجتماعية ، وكان لها اكبر الاثر في كثير من النواحي ، في السياسة ، والاقتصاد ، والتاريخ ، والاجتماع ، والنقد الادبي ، وحتى في بعض العلوم الطبيعية . ومن اشهر الكتب في ذلك « المذهب المادي والنقد الاختباري والتجريبي » ، وهو كتاب اقرب الى مذهب اليقينية واللباقة الذهنية منه الى الاسهام في نشر المعرفة . وترى المدرسة المادية ان الانتاج المادي لجماعة ما هو الذي يحدد صورة نظامها الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة ، فليس وعي الناس هو الذي يحدد صورة حياتهم ومستواها الاجتماعي ، بل العكس هو الصحيح صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعي هما اللذان يحددان درجة وعيهم .

ويقول ماركس ان الاحوال او الاوضاع الاقتصادية لاي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها ، وكل مظاهر حضارتها في المجالات السياسية ، والدينية ، والفنية ، والفكرية ، وان اساس النظام الاقتصادي هو الانتاج ونوعه واساليبه ، وتوزيع ثرواته .

ويعتبر ماركس ، وفريدريك انجلز ، وسان سيمون ، وهم قادة المدرسة المادية ، ان التاريخ يتلخص في صراع مستمر بين العاملين (من زراع وصناع) - او بين ما يسمى بالطبقة الثالثة Tiers - etat والطبقتين المتنازعتين المستفيدتين من جهود العاملين ، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الاقطاع) ، وطبقة كبار رجال الدين او

الاكليروس ، وسان سيمون هو أول من تنبه الى ان صراع المصالح الاجتماعية ، أو مصالح الطبقات الاجتماعية ، هو السبب الرئيسي في الحركة التاريخية ، وهو أول من تنبه الى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير في حركة التاريخ . وقد ربط ماركس النظرية الهيجلية لتعاقب النماذج الحضارية مع الكفاح من أجل البقاء (٤٤) ، وكانت النتيجة تفسيره للتغيير في التاريخ على أساس تفرده المادية ، أي ان السيطرة على طرق الانتاج تقرر أية طبقة ، ومن ثم أية نماذج فكرية ، يمكن ان تسود في فترة ما . غير ان الصراع المستمر بين الطبقات يجب ان يوصل في النهاية الى انتصار البروليتارية (طبقة العمال) . وتتلخص فلسفة ماركس في ان الانسان يجب اولا ان يأكل ويشرب ويتخذ مسكنا ولباسا قبل ان يستطيع ان يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها . ويرى ان تاريخ المجتمع منذ وجد وحتى الآن هو تاريخ صراع طبقات ، بين الدهاقين والاقنان ، والنبلاء والعامّة ، وبين السادة والعبيد ، وبين ارباب العمل والصناع (٤٥) . وبكلمة واحدة بين ظالم ومظلوم . ويؤكد ماركس ان العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة ، وان كل الجوانب المختلفة من حياة البشر تتخذ شكلها وفقا للظروف الاقتصادية التي تكتنف فترة معينة ، وبذلك فهي مدينة بوجودها تماما الى العوامل الاقتصادية . وما المجتمع الاقطاعي والمجتمع البرجوازي « الطبقة الوسطى » الا امثلة لتلك النتيجة الجماعية نعقد العلاقات الانتاجية ، وكل منها يرسم خطوة هامة في التطور التاريخي للجنس البشري . ويرى ماركس ان التغيير المادي للاوضاع الاقتصادية للانتاج هو التغيير الاساسي ، وان هذا التغيير المادي تغيير حقيقي يمكن تقديره بدقة علمية . اما التغيير في الاشكال القانونية والايوضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية فهو تغير مظهري ، اي في الاشكال الظاهرية ، التي تسمى في مجموعها بأيدولوجية النظام القائم . وهي نتيجة لا سببا ، وطبقة علوية خارجية Super Structure وليست اساسا . وبصورة أخرى فان ماركس اهتم بالجانب المادي من الحياة والنظر الى المحيط كعامل في حوادث التاريخ ، ومن ثم اشراك العامة في موكب التاريخ ، وتعتبر آراء ماركس رد فعل معاكس ضد الآراء التي سادت قرونا طويلة وجعلت من بعض الافراد ، ملوكا وابطالا ، يغيرون وجه التاريخ .

وبعد ظهور الماركسية اترك بعض المؤرخين ان يكون للفرد دور حقيقي يذكر في التطور التاريخي ، وان الدوافع الحقيقية في ذلك التطور تكمن في الجماعات وما يحدث في حياتها من تغير . فالجماعات هي الاعماق التي تتكون في صلبها التعاريف العظمى التي تغير وجه الكون . والهزات التي يرتجف لها من حين لحين .

الاتجاه القائل بان التاريخ يسير على شكل دوائر يفضي بعضها الى بعض ،

ويعتبر فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه ، فقد أعطى فيكو تصورا جديدا للتاريخ العالمي يعرف بالمفهوم العالمي . وتتلخص آراء فيكو التي أثبتتها في كتابه « العلم الجديد » في قيام الدول وسقوطها ومحاولة البحث عن أسباب القيام والسقوط ، ويرد ذلك الى عوامل بيولوجية ، وهو بذلك يتفق مع ابن خلدون في تشبيهه للدول والحضارات بالنباتات والحيوانات ، بقوله ان لها اعمارا لا بد ان تمر فيها ، فالبيئة الاجتماعية من صنع الانسان وتصلح لتكون أساسا لفهم التاريخ ، ويؤخذ عليه انه اتسم بقبوله للخرافات وعكس ذلك على فهمه التاريخي (٤٦) .

وكان لامبرخت من أوائل من فكروا في البحث عن سر التاريخ ، عن طريق تحليل عدد من الحضارات والبحث عن العوامل التي سببت قيامها وهبوطها ، واستنباط المعاني من ذلك التحليل ، أو ما يسمى بدلالات التحليل الحضاري .

Kulturmorphologische Geschichts Deutungen

ويرى شاردان ان مصير كل حضارة الى فناء وزوال ، وهي وان بادت وزالت الا ان الانسان باق وهو في ارتقاء وتقدم من أجل بناء حضارة جديدة . وقد تساءل شاردان عن امكانية التعرف على غد الانسان عن طريق دراسة وفهم علم التاريخ .

الاتجاه القائل بان التاريخ يسير في دوائر مغلقة ، ويعتبر أوزفالد شبنجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٢٣) أبرز فلاسفة هذا الاتجاه . ويرى شبنجلر ان قيام الحضارات ونموها ووصولها الى القوة ، ثم انحدارها ، يشبه العملية البيولوجية للكائنات الحية من تطور عضوي *Naturhafte Prozesse* ، متفقا بذلك مع ابن خلدون حيث يقول ان الحضارة تمر بعصور انشاء ، ونضج ، وانحدار ، أي ان الاستجابة الابداعية تصل الى ذروتها ثم تتوقف ، بمعنى ان موت الحضارة لا مفر منه . ويعرف هذا الاتجاه بالنمط الدوري، على أساس أن للتاريخ حلقة أو جملة حلقات متناهية زمانا ومكانا ، منفصلة بعضها عن بعض ، تمثل كل حلقة منها حضارة ، من يوم نشوئها عند ابتداء الحلقة الى يوم نهايتها الحتمية عند انفلاق الحلقة ، أي تدهورها ، ومن ثم سقوطها . فكل حضارة اذن حلقة لها بداية ونهاية ، حلقة متناهية تمر بأطوار أربعة : التكوين ، فالنمو ، فالجمود ، فالانحلال ، والاضمحلال ، أي انها تشبه الكائنات الحية ، فهي تولد وتموت . وقد أصبحت فلسفة شبنجلر حافزا لبعض المؤرخين للاتجاه الى العمل العلمي في دراسة التاريخ وفقا للمنهج التاريخي دون البحث عن قواعد عامة في التاريخ ، لعل ذلك يساعدهم على الخروج بنتائج تكون أكثر فائدة بالنسبة للفكر الفلسفي من المحاولات المضنية لتقنين مسار التاريخ .

الاتجاه التجريبي في اطار النمط الدوري لتحديد مسار التاريخ ، ويعتبر ارنولد توينبي **Arnold Toynbee** ابرز فلاسفة هذا الاتجاه (٤٧) . فقد حاول من خلال فحص الحوادث لا أن يوصف الماضي . بل أن يستنتج منه عبرة وفلسفة ، وجملة من القوانين التي تسير الكون ، وتدفع التيار البشري ، وترسم الخط البياني لما سيكون عليه الغد . وقد وضع توينبي في صدارة دراسته العوامل الفكرية والروحية ، خلافا لما كان يفعله ماركس من تقديم العوامل المادية على غيرها . وهذا الاتجاه الذي يرسمه توينبي لا يعتبر جديدا في حد ذاته ، فهو يتفق في معظمه مع ابن خلدون . الا ان توينبي لا يكتفي بالملاحظة كي يصل الى نتائج تفرضها التجربة فرضا ، وتنتهي الى تصور عام لغاية التاريخ ومصير الحضارات (٤٨) .

لقد اتجه توينبي بالدراسات التاريخية اتجاها يتسم بالتوسع والشمول . واجتهد في أن يتحقق مما اذا كان للتاريخ مسار معين يمكن التعرف عليه ولو على وجه التقريب ، ومعنى ذلك أنه وجه اهتمامه الى ما يسمى أحيانا بما وراء التاريخ **Metahistory** أي البحث عن القوى أو العوامل أو المناهج التي تسير التاريخ (٤٩) .

يرى توينبي أن كل الحضارات التي درسها مرت بأطوار متشابهة في النمو واستمرار التقدم ، وزيادة القوة ، ثم تعقب ذلك مرحلة من المصاعب الداخلية والخارجية يليها تصدع العناصر التي قامت عليها قوة هذه الحضارة ، وربما انتهى الامر بتفككها أو تصدعها ، ويعقب ذلك تحوّلها الى دولة عالمية **Universal State** ، أي ان عناصر قوتها تتفرق في الشعوب التي كانت منها كما حدث مثلا بالنسبة لدولة الرومان .

كما يرى أن لا خير ولا شر في اضمحلال الحضارات ، لان تجاربها لا تذهب سدى بل تنتقل الى غيرها ، وتكون نقطة بداية لتجربة جديدة أو عنصر من عناصر قوتها . ويقول توينبي ان التاريخ لا يعرف حضارة تزول تماما ، وانما الذي يحصل في الغالب ان الحضارة بعد أن تتم دورتها على يد أمة من الأمم وتجمد أو تتحجر **Petrifies** تتفكك وتنتقل عناصرها الى أمة أو أمم جديدة لتقوم حضارة أو حضارات جديدة .

وقد استعان توينبي بفكرة «التحدي والاستجابة **Challenge and Response**» أثناء دراسته للأمم التي اختارها موضوعا لدراسته ، واعتبرها مفتاح نظريته العامة للتاريخ . ويرى أن المجموعات البشرية تفودها دائما جماعات من القادة أو اصحاب الرأي، وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة في استجابتها للتحدي ، ويحددون نوع هذه الاستجابة بحسب ملكاتهم . فاذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها والسير الى الامام كانت هذه

الجماعة موفقة ، وسار تاريخ الجماعة الى الامام ، لان استجابتهم كانت ابتكارية او ابتداعية Creative Reponse . ولا تزال الامة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية . فاذا عجزوا عن ذلك اخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف . وقال بعد ذلك انه من الممكن ان تستمر الحضارة في الحياة اذا استمرت في الاستجابة الابتداعية وانه بإمكان الانسان ان ينفلت من الجبر وأن يوجه تاريخه في الطريق المناسب .

ونموذج آخر يراد توينبي . كلما زادت قسوة الارض على ساكنيها زاد كفاح اهلهما للتغلب على صعابها(٥٠) .

الاتجاه الى البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ . نجد هنا ان الفلسفات التاريخية قد تعددت حول مفهوم هذه المسيرة التي تعتبر في حركة دائبة ، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ في تقدم مستمر ، ومنهم من اتجه الى وضع مسيرة التاريخ في دوائر مغلقة يفضي بعضها الى بعض ، ومنهم من يرى أن مسيرة التاريخ مرهونة بالارادة الالهية . فابن خلدون يرى أن القدرة الالهية هي التي تسير التاريخ ، ويقول بهذا الصدد : « ... وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ... »(٥١) . و « طبيعة الاحوال » هذه يعتبرها ابن خلدون القانون الذي بمقتضاه يسير التطور الضروري الذي هو سنة من سنن الله في الكون .

ومن فلاسفة التاريخ من اجتهد في البحث عن القوانين التي تحكم هذه المسيرة ، حيث يرى ماكس(٥٢) Max أن فلسفة التاريخ بدأت حول فكرة هي « أن التاريخ يحكمه قانون » حتى لو كانت المصادفة هي هذا القانون . وهنا يجدر القول بأنه عند الاخذ باعتبار المصادفة قانونا يحكم التاريخ ، فان فلسفة التاريخ لا مجال للبحث فيها ، ذلك لان حركة التاريخ لا تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيدتها نظام ، بينما النظم الفلسفية لها خطواتها واتجاهاتها واسلوبها نحو تطور الروح المطلقة التي تتوصل الى ادراك ذاتها بشكل فلسفة محددة في كل حقبة من حقبة التاريخ .

كما ان فكرة البحث عن قواعد وقوانين تحكم مسيرة التاريخ ما هي ، لدى بعض المؤرخين ، الا مسألة نسبية . وقد ظهر هذا الاتجاه في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي حيث نادى جورج زمل(٥٣) بالبحث عن تحديد مفهوم القوانين التاريخية ، وحاول التوصل الى هذا التحديد . وقدم في سبيل ذلك جهدا كبيرا يمكن ايراده بايجاز بأن القانون هو قضية تعبر عن العلاقة الثابتة بين مجموعة من الوقائع حدثت

فعلا ثم تتلوها بالضرورة وقائع لا تختلف عنها أبدا . ولتقرير هذه العلاقة لا بد من الفصل بين الوقائع السابقة والوقائع اللاحقة من ناحية . وبين طبيعة العوامل ومجرى الأحداث من ناحية أخرى . وإذا نظرنا الى الأحداث التاريخية وجدناها في غاية التعقيد والتركيب والاشتباك بحيث يصعب جدا استخلاص علاقات ثابتة تربط بين هذه الأحداث ، كما هو الحال في الظواهر الفيزيائية . وهذا يفسر أنه من المستحيل على المؤرخ أن يقرر وجود روابط أو علاقات ثابتة بين الأحداث التاريخية بحيث تقع النتائج بالضرورة كلما توفرت نفس الأسباب ، ولذا لا نجد في التاريخ حوادث متشابهة تماما ، والحدوث التاريخي الواحد لا يتكرر أبدا (٥٤) .

ويرى زمل أن هناك أسلوبين للتفسير العقلي للأحداث التاريخية ، يعتمد الأول على تحليل الحدث الى عناصره الأولى بحيث يقود هذا التحليل الى اعداد قواعد وقوانين للمسيرة التاريخية . أما الأسلوب الثاني فيأخذ بعملية التركيب بين المعاني والعناصر ، حتى يشكل هذا التركيب تركيبات أصلية وإضافات هي عبارة عن مجموعات تندرج فيها الأحداث وتبدو كأجزاء لا يمكن تحليلها لما هو أصغر منها ، أي أن عملية الاستقصاء والتحري تصل الى مداها (٥٥) .

ومع ذلك فهناك العديد من المسلمات والفرضيات التي يؤمن بها المؤرخون كبديهيات في خلفياتهم الفكرية ، دون أن يخضعوها للنقد أو التعبير عنها من وجهة النظر الأخرى . ومن النادر أن نجد باحثا من الباحثين في فلسفة التاريخ يناقش أيا من هذه المسلمات التي يمكن أن نشير الى بعضها على النحو التالي :

— وحدة الطبيعة البشرية من حيث التكوين ، فالجنسيات والقوميات لا ترسم بينها فروقا جوهرية ، كما أن الاختلاف بين البشر من حيث العرق أو الثقافة أو البيئة أو الاجتماع هي اختلافات أرجعها بعض النظريات الى جذور اقتصادية أو فكرية ...

— تعقد الطبيعة البشرية ، حيث أن وحدة الطبيعة البشرية ليست بسيطة التكوين فهي معقدة ، وهذا التعقيد لا يوازيه إلا تعقد التفاعلات التي تكون بينها وبين العوامل البيئية المؤثرة على طبيعة البشر . ومن محصلة هذه التفاعلات بين الإنسان وبيئته يتشكل منظور التاريخ ومجرياته .

— أن الاهتمام بدراسة تاريخ الإنسانية وتفهمه ، بما فيه من تجارب وأفعال وخبرات ، هو من المسلمات المقبولة كقاعدة لتشكيل المعرفة التاريخية .

— ثبات السنن الطبيعية وتطور الظواهر الحية في آن واحد ، أي ان هناك سننا في الكون لا بد وأن تبلغ غاياتها ، كما ان الكائنات الحية ، وبخاصة الانسان ، في تطور مستمر ، وبذلك فان ثبات السنن والتطور أمران مترابطان ومتزاوجان في نسق ومسيرة يأخذ بها معظم المؤرخين وان تفاوتت آراؤهم في تحديد تلك المسيرة . وهذه السنن والظواهر هي التي تحكم في النهاية الفعل التاريخي وتسهر أحداثه .

— الاخذ بعدة نظريات عند تفسير التاريخ منها نظرية صراع الطبقات ونظرية التحدي والاستجابة ، ويستند معظم المؤرخين في اعتبار مثل هذه النظريات قواعد عامة تؤدي الى تعميمات وتفسيرات . على نتائج الدراسات المقارنة لمختلف الحضارات الانسانية عبر مراحل العصور التاريخية .

وبعد هذا العرض في محاولة استنباط قوانين وقواعد تحكم المسيرة التاريخية ، وبعد التعرف على بعض المسلمات التي يأخذ بها المؤرخون وفلاسفة التاريخ . فهل من الممكن القول بوجود قانون فعلي ؟

ان الاجابة على مثل هذا التساؤل تعتبر من الامور الهامة ، فهناك فعلا قوانين تحكم الحوادث التاريخية ، فالكون والوجود يخضعان لادق وأعقد القوانين . قال الله تعالى : « وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » (٥٦) . وقال تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٥٧) ، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يزخر بها القرآن الكريم وكلها تدل على أن هذا الكون يخضع لنظام دقيق وقانون ثابت . ومن ثم فمن البديهي أن يشمل نظام الكون الدقيق حياة الانسان باعتباره جزءا من هذا الكون مع ما فضله الله به عن سائر الكائنات حيث جعله الله خليفة في الارض بعمرها ويطورها الى الافضل ، كما فتحت الآفاق امام عقل الانسان كي ينظر ويتدبر ويبدع . ومع ذلك فان التوصل الى قوانين راسخة في مجال البحوث الاجتماعية ما زال يمثل مشكلة بالنسبة للمؤرخين والفلاسفة وغيرهم من العلماء الباحثين في حياة الانسان الاجتماعية والتاريخية والفكرية . ويمكن تتبع بعض اسباب هذه المشكلة على النحو التالي :

- عدم توفر وحدة قياس للظواهر والعلاقات التاريخية .
- صعوبة بحث الحادثة التاريخية لغياب عناصر الاستمرار وعوامل التغير . ووضعها في صيغة واحدة .

— صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ والعلاقات الوظيفية والبنائية التي تؤدي إلى اخراج الوقائع التاريخية .

ومع ما يعترض الباحثين من صعوبات في التوصل إلى قوانين فإن هناك محاولات جمة بذلت في هذا الصدد (٥٨) ، واستطاع الباحثون وضع تصورات معينة تساعد في استنباط مثل هذه القوانين ، فنرى ابن خلدون يشير إلى قيام الدول ثم تماسكها بالعصبية ، وإلى ارتباط العمران بالاقتصاد ، وإلى تأثير الإنسان بالاقليم والظروف الجغرافية (٥٩) ، كما أشار جونسون إلى استنباط قانون الاستمرار والتعبير ، قانون التكامل وقانون حرية الاختيار (٦٠) .

ومن تلك المحاولات يمكن القول بإمكانية إيجاد قوانين تحكم مسيرة التاريخ ، غير أن هذا الأمر يتطلب المزيد من الدراسة والجهد مع الأخذ بالاعتبار أن مثل هذه القوانين لا بد وأن تكون مختلفة تماما عن القوانين المتعلقة بالعلوم التطبيقية والمجردة . فليس هنا ملاحظة تجريبية يمكن متابعتها وتدوين نتائجها . ومع ذلك يمكن اخضاع الملاحظات التجريبية باعتبارها جوهرية في المعرفة والعلم اللذين هما نتاج تفاعل بين التجربة والنظرية .

وخلاصة ما عرض له هذا البحث هو تعدد الآراء والاجتهادات حول تفسير مسار التاريخ وهي تفسيرات شملت الفكر اللاهوتي والمثالي والمادي والعلمي ، وغيرها من المذاهب ، إلا أن تفسير مسيرة الإنسان عبر مختلف العصور التاريخية يجب أن يتضمن الموازنة والادراك لمسيرة التاريخ الإنساني ، فالإسلام أضفى الكثير على القيم الروحية ولم يعتبر الممارسات الفردية للشعائر لاهوتيا بل هي قيم أخلاقية مرتبطة بحياة الإنسان اليومية كفرد عامل ضمن مجتمع بشري واسع يسعى إلى حياة أفضل .

لقد اهتم المسلمون بالتاريخ وتفسيره نتيجة لاحتساسهم بذاتهم الحضارية الخاصة في ظل عالمية الرسالة الإسلامية وقوة الروابط بين الشعوب الإسلامية ، وتصورهم لرسالتهم في المجتمع الإنساني ، وإقامة الحق والعدل في الأرض . وبداية يؤكد القرآن الكريم على الدعوة إلى العلم والبحث والتقضي والاعتبار والاستفادة بما حدث للأمم السابقة ، كما يتميز المنهج التاريخي للقرآن الكريم بتحقيق الرواية وتعليلها والتأكيد على دور الإنسان القائم على العلم والمعرفة ، وبهذا يكون الإنسان محورا وغاية ومركزا للنفع والعناية ، وقد سخر الله له الكون بما فيه من كائنات وظواهر طبيعية ، ويشير القرآن في هذا الصدد إلى فتح الآفاق أمام الإنسان لينطلق بفكره وعقله : « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر

لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار» (٦١) . وقال سبحانه وتعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (٦٢) . كما قرب القرآن الكريم بين الإنسان والطبيعة فلم يعد الإنسان يرهب أو يخاف من الظواهر الطبيعية ، فهي آيات الله في الكون وبرهان على قدرته ومجال للتدبير والتفكير ينتفع بها الإنسان كما أراد له الله ، فيكشف الأسرار ويتوصل الى ما يدرأ الاخطار ويجلب الخير والسعادة لبني الإنسان .

والمتتبع لمعالجة القرآن الكريم للأحداث التاريخية يلحس أن القصص القرآني تمثل قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين أوجه النشاط الإنساني ، وبذلك تعددت المحاور وزوايا الرؤية (٦٣) مع غياب تحديد الزمان والمكان لكثير من هذه الأحداث . وذلك لأن للخبر أو النبا في مضامين السور هدفاً اسمي وأرقى من مجرد الرواية ، فهو للعبارة والعظة واكتساب الحكمة والمعرفة . وينفي القرآن الكريم أن تكون رواياته وأخباره « أساطير » بل هي قصص وبلاغ وذكر . « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » (٦٤) ، « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » (٦٥) ، « وأن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين » (٦٦) ، « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً » (٦٧) . من هنا جاءت الروايات التاريخية متضمنة المادة العلمية كي يعي البشر الحكمة من وراء الحدث التاريخي وينهجون نهجاً سليماً في حياتهم وسلوكهم معتبرين بما حدث لأقوام سبقوهم كانوا مثلهم بل أقوى وأغنى منهم وعمرُوا الأرض أكثر مما عمروها : « أولم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٦٨) .

ويؤكد القرآن الكريم على الأسلوب العلمي في استقراء الأحداث والحصول على المعرفة واكتساب الوجود الثقافي ، وهذه أمور تتطلب أعمال الفكر بالنظر والتدبر لأحكام السيطرة على الطبيعة ومواردها التي هي في الأساس مسخرة من الله تعالى لصالح الإنسان وخدمته .

تلك محاولة أولوية لفهم علم التاريخ وتطوره ومنهجه أردت منها الاسهام في هذا المجال الهام من العلوم الاجتماعية ، فإن أصبت فذاك ما قصدت واستعنت بالله عليه : وان أخطأت فلنا أجر المجتهد الذي يحاول أن يداو بدلوه في مضمار العلم والمعرفة . والله الموفق .

الحواشي :

- (١) حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٢ .
- (٢) قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٢ .
- (٣) Sibree, The Philosophy of History, New york, 1900, p. 60
- (٤) صلاح الدين مدني ، المدخل الى التاريخ ، دمشق ١٩٦٧ ، ص ٢٤ .
- (٥) اصطلاح على تسمية المرحلة الزمنية السابقة على معرفة الكتابة بمرحلة ما قبل التاريخ ويمكن التعرف عليها من خلال التركة الاثرية للانسان المتمثلة بالادوات الحجرية والفخارية والعظمية والرسوم ... الخ .
- اما العصر التاريخي فيبدأ منذ معرفة الانسان للكتابة والتسجيل وهي مرحلة تبدأ في منطقة الوطن العربي القديم مع بداية الالف الثالث قبل الميلاد .
- (٦) Halphen, L' Introduction a l' Histoire , Paris, 1946, P. 53
- (٧) جوزف هورس ، قيمة التاريخ ، ترجمة نسيب وهيبه الخازن ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .
- (٨) Lewis , B. and Holt , P. : Historians of the Middle East , London 1962 , P. 75 .
- (٩) Fowler , Romans Ideas of Deities , London , 1914 , P. 94 .
- (١٠) البان ، ج. ويدجيري ، المذاهب الكبرى في التاريخ ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .
- (١١) انظر : السبكي ، قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ، تحقيق عبد الفتاح ابو غدة ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
- (١٢) السيوطي ، الشماخي في علم التاريخ، تحقيق محمد بن ابراهيم الشيباني ، الكويت (بدون) .
السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لن ذم التاريخ ، تحقيق القدسي ، بيروت ، ١٩٧٩ .
عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ .
قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ، بيروت ١٩٦٣ .
عبد الرحمن بدوي ، النقد التاريخي (مجموعة أبحاث مترجمة) ، بيروت ١٩٦٣ .
- (١٣) مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ص ٧ .
- (١٤) المرجع السابق ، ص ٧ .
- (١٥) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٧٠ . انظر ايضا محمد الطالبي ، منهجية ابن خلدون التاريخية ، بيروت ١٩٨١ ص ٢٧ .
- (١٦) ظهر العديد من المؤرخين الاوربيين في عصر النهضة الاوربية ، وكان من أبرزهم : ليوناردو برونسي Leonardo Bruni ١٣٧٤-١٤٤٤ ، ومن مؤلفاته كتاب فلورنسا Storia Florentihi ويعتبر من أفضل مؤلفات عصر النهضة ، نيكولو ميكافيلي Nicolo Machiavelli ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ، وفرانشيكو جيسارديني Francesco Guicciardini ١٤٨٣ - ١٥٤٠ والتر رالي Walter Raleigh وقد اشتهر بكتابه « تاريخ العالم » History of The World كما اشتهر عدد من الرهبان في الاديرة الذين اكبوا على دراسة الوثائق ومنهم : البندكيون في دير سان مور Saint Mour بفرنسا ، والراهب فلا Valla ١٤٠٧ - ١٤٥٧ الذي

اشتهر بنقد وتحليل وثيقة قسطنطين والرسول بطرس الزيفة ، والجزويت في بلجيكا وأهمهم
يوحنا بولاند Jean Bolland ١٩٥٦-١٦٦٥ ، وكذلك جمعية البولنديين Les Bollandistes
التي تعتبر من أكبر الجمعيات التاريخية .

(١٧) محمد الالوسي ، علم تحقيق الوثائق والدبلوماسية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ٣ .

(١٨) اشتهر فولتير بمؤلفه عن حياة وأعمال شارل الثاني عشر ملك اسكتلندا وحروبه مع الروس
Histoire de Charles سنة ١٧٢١ ، وتميز الكتاب بدراسته الوثائقية . كما ظهرت ملكة
فولتير التاريخية في كتابه البديع « خطابات فلسفية » Letters Philosophiques
وهو حافل بالآراء والملاحظات على مسار التاريخ وتصاريح الزمان ، ثم ظهر كتابه المشهور عن
عصر لويس الرابع عشر Le Siecle de Louis XIV الذي ابدع فيه في تحليل الاحداث
والاشخاص . ويميل كثير من المؤرخين الى اعتبار فولتير مؤسس العلم التاريخي بمفهومه الحالي
في الغرب ، رغم انه كان من هواة التاريخ ، كما يضعه العديد من المؤرخين على قمة الفكر
الغربي في عصر النهضة الاوربية ، على اعتبار انه فتح مدرسة جديدة في التفكير التاريخي تتسم
بالنظرة الشمولية . كما ان دراسته عن عادات الشعوب Essai Sur Les Moeurs
تعتبر بصفة عامة أول دراسة تاريخية بمصطلح التاريخ الحديث .

(١٩) مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) عاش في عصر التنوير وساهم في اشغال الثورة
الفرنسية ، واشتهر بكتابه « روح القوانين » ، أو « روح الشرائع » .

(٢٠) جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) عاش في عصر التنوير ، وساهم في اشغال
الثورة الفرنسية ، واشتهر بكتابة « العقد الاجتماعي » .

(٢١) رانكه Lepold Von Ranke (١٧٩٥ - ١٨٨٦) مسيحي بروتستاني ، ومثالي على مذهب
فيخته ، ويعترف بالجانب الانساني في التاريخ . قال بفكرة التطور العضوي للجماعات وكذلك
بأهمية العامل الفردي في توجيه الاحداث ، لكنه انكر استخدام التاريخ كعظة وعبرة ، وقال ان
التاريخ ينبغي أن يدرس لذاته لا كوسيلة للتعليم والتثذيب . ويعتبر رانكه رائدا للمدرسة
الالمانية . وتميز منهجه بالاهتمام بالوثائق التاريخية .

(٢٢) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ،
الكوبت ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .

(٢٣) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢٤) كروتشة Bendetto croce (١٨٦٦ - ١٩٥٢) من أبرز مفكري ايطاليا ، ومن أشهر فلاسفة
التاريخ في عصرنا ، له ٦ مؤلفا ، وأهم مؤلفاته :

History as The Story of Liberty . Theory and History of Aistoriograph.
History : Theory and Practice .

وقد اهتم بمقارنة فلسفات المادية والايجابية في التاريخ .

(٢٥) كولنجوود Collingwood ، من أبرز المؤرخين المعاصرين الممثلين للترعة التاريخية ويتفق
مع كروتشة في عدم صلاحية المنهج التجريبي لعلم التاريخ ، لان الواقعة التاريخية لا تخضع
لتجارب معملية من وجهة نظرهما ، كما هو الحال في العلم الطبيعي . له عدة كتب منها :
Roman Britain ١٩٢٦ ، وكتاب The Idea of History ١٩٢٤ .

- (٢٦) منذ القرن الثامن عشر والمناقشات تدور حول علمية التاريخ ، ويمكن الرجوع الى مجموعة من المؤلفات منها : « علم جديد » لفيكو ، « فكرة التاريخ العالي » لكانت ، « فلسفة التاريخ » لهيجل ، « المادية التاريخية » لانجلز ، « تفسير التاريخ » لماركس ، « دراسة التاريخ » لداناي ، « الايديولوجية الالمانية » لماركس وانجلز « عقم المذهب التاريخي » لكارل بوبر .
- (٢٧) ارنولد توينبي Arnold J. Toynbee (١٨٨٩ - ١٩٧٥) له مكانة سامية في التفكير المعاصر ، اشتهر بمنهجه التجريبي ، واتجه بالتاريخ اتجاها شاملا لتاريخ البشر ، ووجه اهتمامه الى العوامل او المناهج التي تسيره . وهو يؤمن بنظرية التحدي والاستجابة ، ويرى أن الحضارات تنمو وتتطور وتضمحل مثل الكائنات الحية . من أشهر كتبه « دراسة التاريخ A Study of History » انظر : فؤاد شبل ، منهاج توينبي التاريخي ، القاهرة ، ص ٧ .
- (٢٨) مهرجان توينبي : منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٩٧٩ ، ص ٧٠ .
- (٢٩) الدمرداش سرحان ، المناهج المعاصرة ، مكتبة الفلاح ، ١٩٨١ ، ص ٣ .
- (٣٠) جورج سانتيا ، مولد الفكر ، جامعة كولومبيا ، ١٩٦٨ ، مترجم ، بيروت ، ص ١١٩ .
- (٣١) انظر : Hans Meyerhoff , : The Philosophy of History in Our Time . Newyork, 1959.
- (٣٢) محمد اقبال (١٨٧٢ - ١٩٢٧) فيلسوف وصوفي وشاعر ، من أشهر كتبه « تجديد التفكير الديني في الاسلام » ترجمة عباس محمود العقاد ، القاهرة ، ١٩٥٥ . كما تتضمن قصيدته « حوار بين الله والانسان Message de l' Orient Camte » أبرز افكاره ، وترجمها عن الفرنسية ، محمد اشنا ، واسمها بالفارسية « بياض شرمه » .
- (٣٣) كوميت ، Augustine Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) حاول البحث عن قواعد وقوانين لسير التاريخ ، فانشأ ما يسمى بالإيجابية التاريخية La Positive ، أي التزام الدقة العلمية في كتابة التاريخ مع البحث الدقيق عن المنطق وراء كل حادث وتطور .
- (٣٤) عرض افكاره في كتابه The City of God
- (٣٥) رينان وهيجل من المؤرخين المتأثرين بالعلوم الفيزيائية والطبيعية ، شأنهم شأن علماء الفلك والانثروبولوجيا الفلسفية وعلماء الحياة بالنسبة لفهوم الزمن في التاريخ وربطه بأحداث فلكية وكونية بعيدا عن المعتقدات الدينية .
- (٣٦) Max Madau , The Interpretation of History , P. 44 .
- (٣٧) محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٥٥ - ٢٢٤ .
- (٣٨) استخدم هيجل مصطلحا خاصا عن العقل والفكر Der Geist الذي يعني بالعربية « الروح » وبالانجليزية Spirit وفي الفرنسية Esprit ، ولا يقصد بذلك العقل والفكر الإنسانيين العاديين ، وانما هو العقل الاعلى الذي يوجه الكون * ونبتت فكرته هذه عن ايمانه الوثيق بالسيحية الذي يرى فيه اجتماع العنصرين الالهي والانساني ، أي الروح والبدن ، الكنيسة والدولة ، والعبادة والحياة ، والتقى والفصيلة ، واتهما تجتمعا ، في روح أو فكر واحد يعتبر القوة التي تحرك كل شيء ، وهذا هو العقل المطلق . وقد شرح فكره في كتابه عن روح المسيحية Das Christliche Geist
- (٣٩) عمر فروخ ، كلمة في تحليل التاريخ ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢ .
- (٤٠) Fritz Stern , The Varieties of History , 1956 , P. 61 - 62 .

- (٤١) الروح الحركة للعالم ، وهي الله ، أو الروح المطلقة كما يتصورها بعض الفلاسفة .
- (٤٢) J. Sibree, Hegel' s. Philosophy of History. P. 14.
- (٤٣) يقصد هيجل بالنظام الفلسفي Philosophic System الحقائق والاسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطورية معينة من التاريخ .
- (٤٤) في رسالته الى Kugelmann عام ١٨٦٨ يقول ماركس ان دياكتيكية هيجل هي الشكل الاساسي للديالكتيكات ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز اسلوبه » ، انظر : صديقي ، تفسير التاريخ ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٨٩ .
- (٤٥) المرجع نفسه ، ص ٩١
- (٤٦) عمر فروخ ، كلمة في تحليل التاريخ ، ص ١٩ .
- (٤٧) احدث كتابه A Study of History ضجة كبرى قبل الحرب العالمية الثانية ، وهو كتاب من عشر مجلدات ، واعيد طبعه واختصاره عدة مرات . فقد اختصره سومرويل Sommerwell عام ١٩٤٧ كما اختصره جليمارد Gilimard تحت عنوان « التاريخ » في باريس عام ١٩٥١ .
- (٤٨) Meyerhoff. op. cit. pp. 101 - 102.
- (٤٩) حسين مؤنس ، « التاريخ والمؤرخون » عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول الكويت ١٩٧٤ ، ص ١٠١
- (٥٠) Hans Meyerhoff : op. cit, p. 144.
- (٥١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، ص ٢٣ وما بعدها .
- (٥٢) ماكس فيبر Max weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠)
- (٥٣) جورج زمل (١٨٥٨ - ١٩١٨) من انصار فكرة « نسبية المعرفة التاريخية » ، ومن أبرز مؤلفاته: مشكلات فلسفة التاريخ .
- (٥٤) عبد الرحمن بدوي ، « احدث النظريات في فلسفة التاريخ » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الاول ، الكويت ١٩٧٤ ، ص ٢٢٢
- (٥٥) جورج زمل ، مشكلات فلسفة التاريخ ، ص ١٠٨ .
- (٥٦) الانبياء ، آية ٢٢ .
- (٥٧) يسن ، الايات ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠ .
- (٥٨) انظر : هنري جونسون ، تدريس التاريخ ، ترجمة أبو الفتوح رضوان ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- عبد الرحمن بدوي ، المرجع السابق . شاكر مصطفى ، « التاريخ هل هو علم » مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ع الاول الكويت ١٩٧٤ .
- (٥٩) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة كتاب الشعب ، القاهرة ، ص ١١٩ .
- (٦٠) جونسون ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .
- (٦١) ابراهيم ، آية ٢٢ ، ٢٣
- (٦٢) لقمان ، آية ٢٠
- (٦٣) عبد العزيز كامل ، « القرآن والتاريخ » عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٢ ، ص ٢٣ .
- (٦٤) يوسف ، آية ٢
- (٦٥) ابراهيم ، آية ٤٥
- (٦٦) الصافات ، الايات ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩
- (٦٧) الكهف ، آية ٨٢
- (٦٨) الروم ، آية ٩

بَعْضُ مَلامِحِ لَاتِجَاهَاتِ الرَّئِيسَةِ فِي الاسْتِشْراقِ

د. أحمد درغام
جامعة دمشق

نقول : شرق : اتجه الى الشرق وأشرق الشمس طلعت وأضاءت والشرق
ج أشراق نقطة الافق التي تطلع فيها الشمس في بدء الربيع والخريف وبالتوسع جهة
الافق التي تطلع منها الشمس على مدار الايام . المشرق والمشرق والمشرق ج مشارق
مكان أو جهة شروق الشمس . والمشرقان والمغربان مشرقا الصيف والشتاء والمشارق
والمغارب اختلاف مواضع شروق الشمس وغروبها لأنها تشرق كل يوم في موضع
وتغرب في موضع الى انتهاء السنة . المستشرق العالم باللغات والآداب والعلوم
الشرقية والاسم : الاستشراق .

خلفية تاريخية

ارتبطت حركة الاستشراق بشكلها الثقافي مع حركة الاستشراق بشكلها
السياسي العسكري ، حيث كانت الحملات الصليبية نواتها الاولى . وهذه الحملات
وان قامت تحت راية الدين شكلا فان مضمونها الاقتصادي والسياسي والعسكري
عبر عن التوجه الاوربي لاستغلال الشرق العربي ونهبه . غير ان الصلة بين الثقافة
العربية الاسلامية والثقافة الاوربية كانت قد انعقدت قبل الحركة الصليبية ، وذلك

من محاضرة القيت في كلية الاداب بجامعة دمشق .

اثناء الحروب العربية - البيزنطية ، وخلال الوجود العربي في كل من الاندلس وصقلية ، الامر الذي ميز حركة الاستشراق منذ الغزوات الصليبية للشرق بظاهرتين :

اولاهما أنها أصبحت على اتصال مباشر بالاصول التي لم تكن قد انتقلت قبل ذلك الى الغرب الاوروبي .

والثانية انها أخذت تندفع بمهماتها على خطين متوازيين ومتشابكين : خط سياسي استعماري ، وخط آخر يتصل بما تركته المدارس الصقلية والاندلسية ، لدى المثقفين والمفكرين والعلماء الاوربيين . من رغبة في الاطلاع على المزيد من مصادر الحضارة العربية ومنجزاتها في مختلف فروع المعرفة ، حيث ازدهرت حركة التثقيف الاوربي ، وعلى مدى نحو قرنين (١٠٩٧ - ١٢٩١ م) بالثقافة العربية ، وحركة نقل منجزات هذه الثقافة الى اللاتينية ، وتأثر المدارس والمذاهب الفلسفية الاوربية بالفلاسفة العرب ، كالكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد

بدا نشاط الدراسات الاستشرافية الغربية لتراثنا الحضاري بشكل واضح وناشط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وازداد فاعلية في الربع الاول من القرن العشرين ، مع ان حركة الاستشراق كان قد مضى على ظهورها زمن يعد بالقرون كما ذكرنا منذ حين . ان هذا الواقع مرتبط بظروفه التاريخية واسبابه المعينة ، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية على عتبة التحول الى عصرها الجديد ، الى تطورها الى أعلى مراحلها : مرحلة الامبريالية ، اي عتبة تحول نظام المنافسة الحرة الى نظام تركز الاحتكارات الذي دفع بالرأسمالية الى التطور نحو شكلها الجديد ، واعادة تقسيم العالم . والصراع بين الدول الامبريالية من اجل اعادة التقسيم الذي يضمن لتلك الاحتكارات مواطن خارجية لتوظيف الرساميل المالية ، ومصادر للخامات وأسواقا للتصريف . ان مقدمات هذا التحول الرأسمالي كانت تشتد بروزا وحدة في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، وحدث التحول فعلا في مستهل القرن العشرين . في هذه الظروف ذاتها وللأسباب ذاتها كانت الامبراطورية العثمانية المتداعية - بما تحتويه ضمن سيطرتها من أقطار عربية - احد مدارات هذا الصراع بين الدول الامبريالية ، لما يتمتع به الوطن العربي من خصائص ومزايا فعلية وواعدة مثيرة لشهوات الاحتكارات الامبريالية وملائمة لاستراتيجياتها الاقتصادية والسياسية .

في سياق هذا التحول نحو عصر الاقتسام الجديد للمستعمرات القديمة والتسابق للاستيلاء على معسكرات جديدة في ركاب الاحتكارات الكبرى ، بدأت حركة

الاستشراق اتجاهها الجديد نحو الدراسات العربية - الإسلامية . وفي رأينا أنه لا يجوز الفصل بين اشتداد نشاط الدراسات الاستشراقية ومطلع عصر الامبريالية . فاذا نظرنا الى هذه الدراسات منعزلة عن بدايتها التاريخية مجردة عن الظروف الاجتماعية الاقتصادية في بلدان أصحاب هذه الدراسات ، نكون قد وضعنا المسألة وضعا تجريديا لا علميا .

فمما لا ريب فيه أن التوجه الامبريالي نحو السيطرة على الوطن العربي يتطلب توجيهها تابعا له يسير في خطه نحو السيطرة على الثقافة العربية ، أي التحكم باتجاهاتها الحديثة على نحو يضمن سيطرة الامبرياليين سياسيا واقتصاديا وفكريا على الوطن العربي والمجتمع العربي . فأخذت حركة الاستشراق وفق مضمونها هذا تفسر التاريخ والتراث العربي تفسيرا غيبيا وقدريا واسطوريا، معتمدة الرؤية المثالية الذاتية في تحليل الظواهر الاجتماعية وتفسيرها بهدف دعم السيطرة الامبريالية بقواعد فكرية وايدولوجية ، ومكونة « مجموعة » من المفكرين والمثقفين العرب من أصول برجوازية واقطاعية تولت مهمة ترسيخ هذه القواعد في البنية العقلية للمجتمع العربي . ولئن استمرت حالة الاندهاش والانبهار الحضاري والتقليد في أساليب البحث بين اوساط المثقفين العرب فترة من الزمن وفق قانون التطور المتفاوت ، والذي يعني أن الأكثر حضارة يفرض ملامح وجوده وشروطه على الاضعف ، فان لفيفا من المثقفين العرب تجاوز مرحلة الاندهاش الى مرحلة الممارسة .

ولعل د. طه حسين وأحمد أمين واسماعيل مظهر وغيرهم أجرا من اقدم على الخروج على الطرائق الوصفية الانشائية ، على الرغم من أنهم لم يخرجوا عن اطار الفكر المثالي حسب المنهج الاستشراقي .

ابرز اتجاهات الاستشراق الرأسمالي أو مواقف المستشرقين

أولاً - الاتجاه القائم على نظرية الجنس ، أي دراسة الحضارة والتراث من وجهة نظر عرقية . وهذا يعني النظر الى العرب بوصفهم شرقيين في مقابل الغربيين . ويتضمن هذا الاتجاه أن الشرقيين عموما والعرب خاصة محكومون بالقصور العقلي . أو أن عقليتهم غير قادرة على التفكير التحليلي أو التركيبي ، وبصورة عامة تتحرف آفاقهم النظرية بالروحيات بمعناها الغيبي الاسطوري... الى غير ذلك من الافتراضات اللاعلمية في تصنيف شعوب العالم وتمييز بعضها عن بعض ، على أساس القابليات المعرفية بحكم التكون الطبيعي .

يمثل هذا الاتجاه الوجه الايديولوجي الاكثر عدا لتطور الشعوب والاكثر تمثيلا للمطامح الامبريالية عدا عن كونه معاديا للعلم وللواقع الفعلي لحركة التطور الاجتماعي على المستوى العالمي . ويحرص هذا الاتجاه على وضع جدار قدري جبري مغلق لا منفذ فيه امام الشعوب المستعمرة كي تغير واقعها المتخلف الى واقع متقدم موحيا اليها بأن هذا الجدار القدري الجبري تجسيد لطبيعتها القاصرة والعاجزة ابديا عن تجاوز واقعها .

يتجلى هذا الاتجاه في الدراسات الاستشراقية بأشكال مختلفة نذكر منها : أبحاث المستشرق الالماني البرجوازي هنريش بكر (١٨٨٦ - ١٩٣٣ م) والفيلسوف الفرنسي ارنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) حيث وضع نظرية الجنس كأساس مباشر لاحكامه المعروفة على « الفلسفة العربية » وخرج بنظريته القائلة : بأن الجنس السامي أدنى مرتبة من الجنس الآري . ويقصد بالجنس السامي العرب تحديدا ، وبالآري الاوربي . وغني عن القول ان نظرية الجنس هذه أصبحت فيما بعد الاساس النظري والايديولوجي للنازية الهتلرية المعادية للعلم وللانسان وللحضارة البشرية .

ان تقسيم البشر على اساس الجنس والخصائص العنصرية مسألة أصبح بطلانها من بدهيات العلم المعاصر (معروف ان الصهيونية العالمية تبني ايديولوجيتها على اساس الجنس او العرق) .

ثانيا - الاتجاه القائم على نظرية مركزية الفلسفة في الغرب دون الشرق . وربما كانت هذه شكلا آخر لنظرية الجنس ، ولكنه شكل متميز . فان نظرية مركزية الفلسفة ترجع من حيث جذورها المعرفية الى ما هو ملحوظ اثناء دراسة تاريخ الثقافة البشرية ، من أن وحدة هذه الثقافة تظهر بأشكال تبدو متناقضة ، لذا يسهل جدا اضافة الطابع المطلق على الخصائص المميزة لكل الثقافات ، واضفاء الطابع المطلق ايضا على الفوارق بين هذه الثقافات بحيث يمكن أن تبنى على هذا الاساس نظرية كاملة . ووفق هذا يجعل انصار « المركزية الاوربية » صفة التناقض بين التفكير الشرقي والتفكير الغربي قائمة ، ويهملون طابع الوحدة في طرق التفكير البشري ويضعون فوارق كائنة بينها فعلا . (ان الحديث الآن أيضا يجري عن مركزية غربية تشمل اوربا الراسمالية وأمريكا الراسمالية) .

ان نظرية المركزية تقوم على جذور طبقية اي على اساس ايديولوجي . ذلك ان الراسمالية المتطورة تحتاج الى تبرير فكري ايديولوجي لسيطرتها في آسية وافريقية . اذ يجد الاوربي العقلاني او الامريكي البراغماتي تبريرا لسيطرته على الآسيوي

اللا عقلاني أو الزنجي الذي لا يمكن أن تقوم فيه « روح طيبة » كما يقول بعض المستشرقين الاستعماريين .

ثالثاً - الاتجاه الثالث للدراسات الاستشراقية اتجاه رجعي محافظ يقصر عنايته على الجوانب الأكثر محافظة ورجعية في موضوع التراث ، وهو الأكثر اغراقاً في الغيبيات وفي عالم المطلق ، مع طمس الجوانب ذات النزعات المادية أو إخفاء الأبعاد الاجتماعية الكامنة حتى في الأشكال الغيبية ، كآثار التصوف الفلسفي عند أمثال الحلاج والسهروردي الشهيد ورابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي . بل لقد حاول الكثير من هؤلاء المستشرقين توجيه المنظومات الفلسفية لامثال الفارابي وابن سينا وابن رشد توجيهها بصرفها عن أبعادها المادية ويفرغها من هذه الأبعاد ، لتصبح منظومات صوفية أو إشراقية أو دينية . فنجد مثلاً المستشرق كارادي فو يحاول أرجاع فلسفة الفارابي العقلانية إلى فلسفة صوفية ، ونجد المستشرق ماسينيون بحسب الكندي والفارابي وابن سينا في عداد المتصوفة، ويعتبر المستشرق جيلسون ابن سينا مؤسساً لنظرية الإشراق .

إن الجمع بين الشرق والغرب على الفكر الغيبي اللا علمي هو الأمر الجوهرى ايدولوجيا للامبريالية ، كما أن التمييز المطلق بين الشرق والغرب هو الأمر الجوهرى ايدولوجيا للرأسمالية ، بمعنى أن هذا الجمع وهذا التفريق يلبيان مطامح ومصالح قوى اجتماعية معينة في مرحلة تاريخية معينة ، إن الهدف الأساس من هذه المواقف كلها إخفاء كل ما يشير إلى علاقة ما في الأعمال الفكرية بواقع الصراع الطبقي كمؤثر لاتجاه التطور الاجتماعى ومحدد اياه .

ونحن لا ننكر أن الحضارة العربية ، ولا سيما شكلها الفلسفى ، كانت ذات مظاهر دينية . فالواقع أنها ارتبطت بالتاريخ الدينى كغيرها من حضارات القرون الوسطى . ولكن هذه الميزة الواقعية لا تخفى النزعات العقلية الواقعية . وقد استطاع فلاسفة القرون الوسطى أن يبرزوا ميولهم الفكرية والفلسفية من خلال الأشكال الدينية على نحو واضح حيناً وعلى نحو مرموز أحياناً أخرى .

رابعاً - الاتجاه الرابع وهو الاتجاه الإيجابى ، أو الاتجاه الموضوعى أو العقلاني في الدراسات الاستشراقية لتراث الشرق . لقد سيطرت الاتجاهات الثلاثة السابقة على هذه الدراسات ولكن لا بد من الاعتراف بأن سيطرتها لم تكن مطلقة . فثمة مباحث استشراقية مهمة عالجت التراث من مواقف هي إلى النظر الموضوعى أقرب منها إلى الإنسياق مع النظر الحزبي المتأثر باتجاهات الايدولوجية الامبريالية .

ويتصف بعض هذه المباحث بمنهجية علمية وبنظرة تاريخية سليمة . بين هؤلاء الباحثين مستشرقون برجوازيون ومستشرقون ماركسيون .

يقول العالم الفرنسي بول ماسون - أورسيل في دراسته لفلسفة الشرق معارضا فكرة « نظرية مركزية الفلسفة » : « لا يوجد في هذه الأيام انسان يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوربة في العصور الوسطى والحديثة هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي . ففي جهات أخرى من الانسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد وظهرت أشعتها جليا وانتشرت في أنحاء العالم . وبما أن هذه المواطن لم تكن منفصلة بعضها عن بعض كما ظن في الماضي فيجب الاعتراف بأن تفكير الغرب لا يكفي بنفسه ، فتفسيره التاريخي يتطلب إعادة وضعه في وسط انساني واسع النطاق لان التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العالمي » (بول ماسون - أورسيل « الفلسفة في الشرق » ص ١٦) .

وحاول عالم الاستشراق الكبير هاملتون جب حول التفكير العربي والعقلية العربية تلمس بعض التفسيرات الواقعية للتاريخ الاسلامي في مثل قوله « ظهرت للاسلام ملامح مختلفة في مختلف الأزمنة والامكنة بتأثير العوامل المحلية : الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه » (جب ، دراسات في حضارة الاسلام ص ٣) .

ويبرز اسم المستشرقة الفرنسية غواشون من حيث الموقف حيال التراث العربي ايجابيا بوصفها باحثة فلسفية دقيقة الاستيعاب لنصوص الفلسفة العربية الاسلامية، فتكتب عن ابن سينا : « انه ليس عند ابن سينا من حقيقة الا في الوجود فالماهيات التي لم تستقبل الوجود بعد هي باطلة في ذاتها » و « ان عقل ابن سينا العظيم قد وضع نفسه في نقطة يظهر فيها انتاجه كلا واحدا متماسك الاجزاء » وانه « انتاج بعيد جدا عن أن يكون مجرد نقل لنظريات أرسطية الى اللغة العربية » . (غواشون « فلسفة ابن سينا » ص ٤٩ - ٥٠ - ٥٤) .

الدراسات الاستشرافية الماركسية

انطلق المستشرقون الماركسيون في دراساتهم الاستشرافية من أساس مادي تاريخي من حيث المنهج ، وعلى أساس الاشتراكية العلمية من حيث الايديولوجية . الامر الذي لا نجد في دراساتهم لتراثنا تلك الوجوه السلبية الجوهرية التي وجدناها

لدى المستشرقين والباحثين الذين شكلوا أو كانوا « ورشة عمل » لدى الدوائر الاستعمارية الامبريالية .

يتخذ المستشرقون الماركسيون الموضوع الماركسية أساسا لدراساتهم ، والقائلة بأن تاريخ تطور المجتمع البشري مرّ ويمرّ بمراحل يحدد كل مرحلة منها شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية الممثلة لانماط من الانتاج المادي تتعاقب وتتداخل في خط تصاعدي متعرج . وذلك بناء على ان علاقات الانتاج المادي هي العامل المحدد لسير العملية التاريخية ، من عصر العلاقات المشاعية البدائية الى عصر العلاقات العبودية ، فعصر العلاقات الاقطاعية فالعصر الرأسمالي ، ثم عصر الاشتراكية فالشيوعية العليا . وهذا ما يعبر عنه بموضوعة **التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية** .

ويمكن القول : ان مختلف الدراسات الماركسية في موضوع التراث يتفق مع الخط العام للتوجهات التقدمية والديمقراطية لحركة التحرر العربية في مرحلة تطورها الحاضرة ، ومع ايدولوجية القوى الطليعية لهذه الحركة . ذلك بعد أن كانت السيطرة المطلقة في مجال معرفة التراث للدراسات الاستشرافية الرأسمالية التي يتعارض معظمها ويتناقض مع هذا الخط .

* * *

إيلاف قرش

ملاحظات حول عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام

د. صالح دراركة

الجامعة الاردنية

تحاول هذه الدراسة التعرف على عوامل السيادة الملكية قبل الإسلام مع التركيز على دور الإيلاف ضمن هذا الإطار ، إذ من الصعب الحديث عن الإيلاف بمعزل عن العوامل الأخرى لما بين هذه العوامل من تداخل .

يحتل الإيلاف بين العوامل الملكية أهمية خاصة ، ذلك أن الإيلاف اختراع قرشي هيا لك القوة المادية اللازمة . ورغم هذه الأهمية لم يحظ من الدارسين بالاهتمام الذي يستحقه ، ففي الغرب لم تدرس هذه الظاهرة التاريخية دراسة وافية اللهم إلا ما كان من إشارات مفيدة ، أشار إليها ج. كستر في معرض حديثه عن مكة والحيرة وصلتهما بالقبائل العربية (١) . وما كتبه لامانس (٢) عن الإيلاف لا يعط الصورة المطلوبة . وحاول محمد حميد الله (٣) تلافي هذا النقص ، ومع اعترافه بجدارة الموضوع بالبحث ولومه الباحثين الغربيين على تقصيرهم ، لم يصل إلى تحقيق الغرض المطلوب الذي يشفي غلة الباحث .

وفي المشرق العربي ظهرت هنا وهناك مقالات حول الإيلاف (٤) توجهت وجهات مختلفة ، وكان في هذه المقالات الكثير من الفائدة ، إلا أن الحاجة لدراسة جادة للإيلاف ما زالت قائمة .

الايلاف عند المفسرين واللفويين

قبل أن نمضي في استعراض نشأة الايلاف ودوره في السيادة المكية علينا أن نعرف شيئاً عن معاني الايلاف .

اختلف القراء في قراءة « الايلاف » ، فمنهم من قرأها « لالاف » بغير ياء بعد الهمزة ، ومنهم من قرأها بياء ساكنة من غير همزة « ليلاف » ، ومنهم من قرأها بهمزتين مخففتين بكسر الاولى وتسكين الثانية على وزن « لعلان » ، وقرأها الباكون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل : « ليعلاف » (٥) .

ويرى ابن جرير الطبري أن الصواب من القراءة : « لايلاف قريش ايلافهم » بآثبات الياء فيهما بعد الهمزة من آلت الشيء أولفه ايلافاً ، لاجماع الحجة من القراء عليه ، وللعرب في ذلك لغتان : آلت ، وآلت (٦) .

لقد أورد المفسرون واللفويون معاني متعددة للأيلاف ، نورد المشهور منها :

آلت : وتعني المؤالفة (٧) .

آلت : من الإلف والتأليف أي الجمع والتقريب (٨) .

وقيل أنها مشتقة من الالف أي الاعتياد على الرحلتين أو مؤالفة الإقامة والاجتماع بمكة في جوار الحرم (٩) .

وقيل في معاني الأيلاف : الأجارة ، فيؤلف : يجير ، ولذلك سمي أبناء عبد مناف ، بالمجيرين كما سموا بالالاف ، وهم هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل (١٠) .

وذهب بعضهم إلى أن الايلاف الوارد ذكره في القرآن الكريم يعني : الاحلاف والاتفاقات والعهود ، وبالتوسع في المصطلح يعني الميثاق (١١) . وفي رواية لابن عباس أنها تعني : العهد والذمام (١٢) ، وزاد أصحاب المعجم الوسيط على ما تقدم القول : أنها الامان والعهد يؤخذ لتأمين خروج التجار من أرض إلى أرض (١٣) . ويرى بعض الباحثين المحدثين أنها تعني الحماية أي الحلف الذي يضمن الامن (١٤) .

ان هذا التفاوت في معاني الايلاف إنما يرجع إلى التفاوت في فهم المعنى العام

للأيلاف كظاهرة عملية لقريش ، أو فهم المعاني اللفظية من حيث علاقتها بنعمة الاستقرار والاجتماع في حرم الله ، والاعتیاد على القيام بالرحلات التجارية بأمن وطمأنينة بفضل الاحلاف أو العصم أو الحبال (١٥) التي أخذها سادة قريش من زعماء الدول المجاورة ، ومن رؤساء القبائل النازلة على طرق القوافل . ويتضح من خلال هذه الدراسة المعنى العملي المقصود بالأيلاف .

* * *

ان ظاهرة الايلاف وليدة عوامل طبيعية وتاريخية ، فمن الناحية الطبيعية كانت مكة ولا تزال منطقة صحراوية لا يمكن لأهلها الاعتماد على الزراعة في عيشهم ، وذلك بعكس يثرب ، فلا بد والحالة هذه من الاعتماد على التجارة أو أية حرفة أخرى لتأمين معاشهم . اما ما يتعلق بالعوامل التاريخية فيقصد بها نشوء مكة حول مساء زمزم وتطورها وعلاقة الكعبة بذلك . فموقع مكة على الطرق التجارية وقداستها باحتضانها أول بيت أقيم للناس ، وما نشأ عنه من تنظيمات جعلها عرضة لاطماع القبائل المتجولة في المنطقة .

فقد استوطنتها جرهم وتفاضت رسوما مقابل الدخول اليها (١٦) ، وقصدها الزوار من كل فج ، وفيهم الملك والامير والشيخ ، ومعهم الهدايا والقرايين (١٧) . ولعل هذه الزيارات كانت المقدمة التي قامت عليها علاقات مكة الخارجية فيما بعد . وبعد جرهم استولت عليها خزاعة . وبقيت خزاعة سيده المكان حتى اخرجتها قريش بقيادة قصي بن كلاب (١٨) . وتعتبر فترة قصي المكية الاساس الذي قامت عليه عظمة حفيده هاشم بن عبد مناف صاحب الأيلاف . ولقد نسبت التنظيمات المشهورة في مكة ابتداء لقصي مثل : الندوة ، والسدانة والسقاية والحجابة . ثم تبع ذلك نظام الحمى ، ولا شك ان لهذه التنظيمات غايات اقتصادية ، ويفهم ذلك من الهدايا والرسوم التي كانت تقدم أو تجبى من الزائرين أو العابرين لمكة ، بالإضافة الى دور العوامل السابقة في احترام القبائل العربية لمكة وسكانها قريش . وهذه العلاقة بدورها مهدت لنجاح قريش في تأمين سبيل القوافل التجارية .

وكان لنظام الحمى (١٩) اثره في تمتين الروابط القرشية مع القبائل العربية الاخرى واظهار قريش بمظهر متميز في بلاد العرب . وشاع قريش في تحميسها لطقوسها وتمايزها فريق من العرب يرون ما تراه قريش ، بل ان بعضهم أعلن استعدادهم للذود عنها وعن طقوسها ، وتطوع للدفاع عن ذلك ، كما فعل الفريق الذي تزعمه صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم (٢٠) . ولما قررت غطفان ان تنشى حرمًا كحرم مكة ، هاجمهم زهير بن جناب الكلبي وحطم حرمهم (٢١) .

ان تضافر مجموعة العوامل السابقة وما نتج عنها جعل من مكة محور حركة بشرية تمخضت عن حركة تجارية محلية في البداية ، تطورت مع الزمن وبفعل الظروف الدولية المواتية أيضا . فقد خلف تجار قريش تجار اليمن في الوساطة التجارية العالمية بعد احتلال الاحباش لليمن ، واستفادت قريش من العلاقات العدائية بين الفرس والروم فنهجت نهجا حياديا في تعاملها مع المعسكرين ، الامر الذي مكنها من الاتجار مع العراق والشام (٢٢) .

ولا يغيب عن الذهن انه لم يكن يسمح للتجار الاجانب بالدخول داخل الامبراطوريتين لان الفرس والروم لم يكونوا يثقون بهم ، لذلك اقتصر دخول تجار مكة على اسواق معينة ، مثل الحيرة وبصرى وغزة على اطراف الدولتين (٢٣) .

ولذلك كان على التجار العرب ان يقدموا تضحيات كثيرة ، كدفع الضرائب الباهظة والمستمرة ، والضرائب الحدودية في ارض القبائل ، كما كان عليهم احيانا ان يسلموا الرهائن . وفرضت مكة بدورها ضرائب ورسوم مماثلة (٢٤) .

لقد استدعت هذه الاوضاع ان يعمل زعماء قريش على تأمين وصول قوافلهم بأمان الى كل الاسواق العالمية الممكنة ، وبخاصة تلك المحيطة بجزيرة العرب كسورية والعراق والحبشة ومصر . وقد تحقق لقريش هذا الحلم على يد هاشم بن عبد مناف الذي كان عهده نقطة تحول في تاريخ مكة . ولعل عظمة قريش الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تحققت جعلت من عمرو بن مناف « هاشم » مثالا أعلى افاضت الروايات في ذكر شمائله ، ويهمننا واحدة من هذه الشمائل ، وهي « الايلاف » .

تذكر المصادر العربية ان سنوات من الجذب أصابت مكة ، ذهبت بالاموال . فخرج هاشم الى الشام واظهر من الكرم وحسن المعاملة ما افاضت به اخباره حتى بلغت قيصر - ولعله أحد حكام الروم في سورية - فأمر باحضاره وأعجبه صورة هاشم وحديثه فأظهر له ودا ومحبة . ولما ايقن هاشم من ود الحاكم الروماني ، أخبره ان قومه قريش هم تجار العرب ، وطلب اليه ان يكتب لهم امانا بدخول بلاد ، يبيعون فيها ادم الحجاز وثيابها فيكون ارضى بيعا للروم ، فكتب الحاكم الروماني امانا لمن يقدم من التجار القرشيين الى بلاده . واقبل هاشم بذلك الكتاب ، وجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام يأخذ من اشرافهم ايلافا . والايلاف ان يأمنوا عندهم في ارضهم بغير حلف ، وانما هو امان الطريق (٢٥) . وكانت قوافل التجار قبل ذلك تتخفر بالحرس والادلاء من القبائل المجاورة ، وكان هؤلاء بدورهم ادلاء للقوافل يعرفون مواقع الآبار والعيون ، ويتقاضون مقابل خدمتهم اجورا يتفق عليها (٢٦) .

وبحسب الروايات العربية يكون هاشم بن عبد مناف أول من أخذ الأيلاف ، ثم أخذه المطلب ثم عبد شمس ثم نوفل أصغرهم (٢٧) .

أخذ أبناء عبد مناف الأيلاف من رؤساء القبائل لأسباب منها ، أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الفارات وطلاب الغوائل كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدرا ، كبنى طيء وخثعم وقضاعة ، وسائر العرب يحجون للبيت ويدينون بالحرمة له (٢٨) . ومنها أن الأساليب السابقة للأيلاف لم تكن كافية للحفاظ على أمن القوافل . وتطلق المصادر العربية على الأمان الذي أخذه هاشم من ملك الروم وإشراف قبائل العرب إيلافا تارة ، وتارة أخرى عهدا أو ميثاقا أو حبلا أو عصما (٢٩) .

يذكر أبو علي القالي بوضوح أن هاشما أخذ عهدا من قيصر وإيلافا من شيوخ انقبائل ، ويعني بإيلاف القبائل أن يأمن التجار في أرضهم بغير حلف (٣٠) . والعهد هي المعاهدات والاتفاقيات ، إذ إن رعاية التجارة المكية فيها كسب لقريش التجار وللدول المعاهدة ، ولو لم يكن فيها كسب للدول المعاهدة لما سمحت للتجار بدخول بلادها .

وتأليف القبائل عملية ترويض كبيرة تتطلب جهدا وخبرة طويلة . فقريش التي خبرت طبائع الناس - وبخاصة طبائع البدوي - من خلال الاحتكاك الدائم في المواسم الدينية والاقتصادية ، هي وحدها القادرة على ابتكار الأسلوب الأفضل للتعامل معهم . وقد نجح أبناء عبد مناف في تأليف القبائل على طول الطرق التجارية نحو الشام واليمن والعراق ، وبعد أن كانت هذه القبائل تغير على القوافل وتنهب ما تحمله . أصبحت عنصر الأمان ، تجوز بالقوافل حتى تبلغها مأمنا .

ولم يكن هذا الأمان بدون مقابل « أي غير مشروط كما ذهب بعض الباحثين المحدثين » (٣١) فقد اشركت قريش القبائل في تجارتها ، فحملت لرؤسائها البضائع وكفتمهم حملانها ، وأدت اليهم رؤوس أموالهم وربحهم . وحقق هاشم بهذا الأسلوب العملي الأمان للقوافل ، واستفاد رؤساء القبائل باشراكهم في المشاريع التجارية المكية « فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظا كما يقول الجاحظ » (٣٢) .

وكان تحقيق الأمان مطلباً عزيزاً في منطقة الحجاز وبلاد العرب ، وتحقق هذا المطلب بالإيلاف ، فانطلقت السفارات التجارية في كل اتجاه وازداد حجم القوافل وتنوعت السلع ، كل ذلك بفضل الأمان الذي أحرزه المكيون للتجار . فحق لله سبحانه وتعالى أن يمن على قريش بقوله : « أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء » (٣٣) .

وتذكر المصادر أن أخوة هاشم فعلوا مثله بأخذ عهود الأمان لتجارة قومهم من دول أخرى غير سورية، فأخذ عبد شمس بن عبد مناف عهداً من صاحب الحبشة، وأخذ المطلب بن عبد مناف عهداً من ملوك اليمن ، وأخذ نوفل بن عبد مناف عهداً من ملوك العراق . وكان كل واحد منهم يأخذ الأيلاف من رؤساء القبائل ما بين مكة والجهة التي أخذ العهد من حاكمها (٣٤) .

يسمى البلاذري (٣٥) عهود أبناء عبد مناف بالعصم ، ومعناها المنع ، وعصمه تعني منعه مما يوبقه (٣٦) . ويسمى الطبري (٣٧) بدوره هذه العهود المأخوذة من الملوك والرؤساء : حبلاً ، ومفردها حبل : وهو الرباط ، وجمعها أحبل وأحبال وحبال وحبول ، والحبل : العهد والذمة والأمان (٣٨) . وبعض المصادر تسمي هذا حلفاً أو ميثاقاً ، والحلف العهد يكون بين القوم ، وحالفه أي عاهده ، والميثاق (٣٩) : العهد . والعهد كما هو واضح يفيد المعاني السابقة أي الميثاق والأمان ، واليمين يستوثق بها من الطرف الثاني .

والمعاني السابقة التي استخدمتها المصادر العربية ، تفيد عقد اتفاقيات بين أبناء عبد مناف ورؤساء الدول التي ذكرناها سابقاً . وذكرت بعض المصادر أن أبناء عبد مناف أخذوا العهود من حكام مصر وبلغت تجارتهم أنقرة (٤٠) . وتحقق هذه الاتفاقيات منفعة متبادلة تشبه في غاياتها وأهدافها المعاهدات بين الدول في العصر الحاضر .

أما أيلاف القبائل فيعتمد بالدرجة الأولى على خبرة الفرشيين بالطبائع البدوية وتأنيسها وتأليفها ، بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من الطبائع المكتسبة، أي أن الأيلاف عملية تأليف واعتياد على وضع جديد ، نجح أبناء عبد مناف في إيجاده حتى أصبح لدى القرشيين والقبائل الأخرى عادة يصعب الخروج عليها . وقد دعي أبناء عبد مناف بالمؤلفين وأصبح التأليف فضيلة ومنقبة ، فهذا الجاحظ يقول : « خير الناس ألفهم للناس » (٤١) ولعل هناك علاقة ما بين هذا القول وفعل قریش في الأيلاف، ومن ثم في السياسات القرشية المتبعة ، وربما كانت منها سياسة المؤلفة قلوبهم فيما بعد . ويبدو من حديث هاشم لقيصر أن الجلود والثياب الحجازية هي السلع المهمة في التجارة المكية مع سورية ، ويبدو أيضاً أنه حتى عهد هاشم ابن عبد مناف كانت التجار نشاطاً فردياً ، واستمر هذا النشاط الفردي ولم ينقطع حتى بداية العهد الإسلامي ، وذكر عدد من الصحابة في عداد من كان يقوم بتجارته الخاصة .

فقد اشتهر عبد الله بن أبي ربيعة بالتجارة بالعطير اليمني ، وكان يبعث إلى أمه

في مكة من هذا العطر حيث كانت بدورها تبيعه نقدا او دينا ، واذا باعت دينا كتبت مقدار الدين في كتاب (٤٢) . وكان دحية بن خليفة الكلبي يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام (٤٣) ، وكان حكيم بن حزام يتجر بالبر الى اليمن وبلاد الشام ، وعمرو بن العاص كان تاجر ادم وعطر يختلف الى مصر (٤٤) . وبعد ايلاف هاشم واخذه عهد الامان من حاكم سورية ، انطلقت المشاريع التجارية الكبرى من مكة ، ونظمت الرحلات في الصيف والشتاء . وفد يستدل من طلب هاشم لآمان قيصر الروم ان تاجر قریش كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل رجال الحكم الروماني . ولعل هؤلاء التجار كانوا يعالجون مشاكل القبائل البدوية بطرقهم الخاصة ، ولم تكن هذه المعالجة سهلة ، فلربما كانت تكلفهم غالیا ، ولا تكون بعد ذلك النتائج مضمونة ، وبقي هذا الحال حتى نظم أبناء عبد مناف العلاقات التجارية مع رؤساء القبائل بشكل حاسم ودائم .

وذكر ابن سعد أن قيصر كتب مع كتاب آمانه لهاشم كتابا آخر للنجاشي طلب اليه فيه أن يأذن لتجار قریش بدخول بلاده (٤٥) .

والراجع من خلال مقارنة الروايات حول ايلاف هاشم ، أن سفارات أبناء عبد مناف الى البلدان المذكورة آنفا ، انما كانت بعد عودة هاشم من سورية . ويرجع ذلك قول بعض المصادر بأن اخوة هاشم انما قاموا بعملهم - أي اخذ عهود الامان - بعد وفاة هاشم (٤٦) . كما ان هاشما لم يطلب مقابلة الحاكم الروماني لتحقيق هذا الغرض وانما جاء اللقاء مع الحاكم الروماني محظ صدفة ، وان هاشما استغل هذه المقابلة بذكاء . واغلب الظن أن هذا التحول التجاري الكبير انما حصل في مطلع القرن السادس الميلادي . لان هاشما - على الاغلب - توفي في هذه الفترة . بدليل تصريح بعض المصادر بأن هاشما كان معاصرا لقباذ الملك الفارسي . والحاتر ابن عمرو الكندي اللذين عاشا في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٧) . ومن الحوادث الثابتة في التاريخ لقاء عبد المطلب لأبرهة الحبشي عام الفيل . وهو العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتفقت المصادر أن هذا الحدث الكبير كان سنة ٥٧٠ م . وتذكر المصادر أن عبد المطلب كان حينذاك شيخا وقورا ، أي أن عمره ما بين ٦٠ - ٨٠ سنة ، وهذا يرجع صواب ما ذهبنا اليه في تحديد تاريخ ايلاف هاشم في مطلع القرن السادس الميلادي (٤٨) .

وظاهرة الايلاف ابتكار قرشي نقل تجار مكة من تجار محليين الى وسطاء عالميين وبسياسة متوازنة وواضحة في محيط العلاقات الدولية . وبتظيم نقابي مكّي ، ومع القبائل العربية في الشمال أولا ، ثم تطورت لتضم معظم القبائل العربية داخل الجزيرة وخارجها (٤٩) . ولم يكن بالامكان نجاح هذا النظام لولا الاصلاحات التي بدأها قصي بن كلاب .

ومما يجدر ذكره ان هاشما مات بغزة والمطلب مات بردمان من ارض اليمن ، ونوفل مات بسلطان جهات فارس ، ولم يمت في مكة سوى عبد شمس بن عبد مناف (٥٠) . مما يشير الى توسع دائرة التجارة المكية في عهد أبناء عبد مناف . ومما ساعد في توسع دائرة التجارة المكية ان فارس كانت تفرض الضرائب المرتفعة لمروور الحرير والتوابل أيام السلم ، وينقطع مرور السلع أيام الحرب فلا يبقى أمام تجار هذه السلع الا الطريق الغربي الذي يصل اليمن بسورية برا (كان يطلق على الطريق الجنوبية المحاذية للبحر العربي ، طريق البخور ، وتتصل هذه بالطريق السابقة) (٥١) .

وقد أدرك المكيون دورهم ازاء هذا الطريق فاستخدموه بكفاية عالية وفق سياسة الحياد التي اتبعوها ، ووفق مصالح متبادلة مع الدول المجاورة . وحرص المكيون على مبدأ الإدارة الجماعية ممثلة بالملأ (مجلس دار الندوة) الذي قاد قريش في المجالات الاقتصادية والدينية والاجتماعية والسياسية .

وكانت قريش تعلق على ايلاف القبائل أهمية أكبر مما تعلقه على عهود الدول . لذلك نهجت سياسة ترضية مع أبناء القبائل المقيمة على طول الطرق التجارية . ولعل في قصة أبي ذر الغفاري يوم اعتدى عليه القرشيون لاعلان اسلامه ، ما يوضح هذه الحقيقة ، فقد صاح العباس بن عبد المطلب بالمعتدين على أبي ذر قائلاً : « ويلكم الستم تعلمون انه من غفار وانه من طريق تجارتكم الى الشام » فترك القرشيون أبا ذر وشأنه لما سمعوا مقالة العباس (٥٢) .

لقد كافح القرشيون طويلاً ليخرجوا من محيط التجارة المحلية ، الى دائره التجارة العالمية ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحوا أساتذة في فن التجارة يضرب ببراعتهم الامثال ، ويستدلون ذلك من قول عبد الرحمن بن عوف : « لو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً وفضة » (٥٣) . واتخذ القرشيون على الطرق التجارية المحطات والبيوت لا يدخلها احد غيرهم ، ويحطون بها وهم في طريقهم الى اليمن والشام والعراق . فقد ذكرها الطبري في تفسيره للآية : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٥٤) .

وساعد حلف قريش مع تميم كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة على تأمين سير القوافل القرشية ، ذلك أن تميماً من أكبر التجمعات القبلية الشمالية ، تمتد منازلها شرقاً من وادي الرمة - عقدة المواصلات شمال الجزيرة - وحتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب . وهذا يعني أن بطون تميم كانت تتحكم بطرق المواصلات التجارية ما بين مكة والحيرة (٥٥) . ومما زاد من أهمية

تميم في محيط العلاقات السياسية والاقتصادية أن الرداقة - منصب ينوب فيه الردف عن ملك الحيرة - في الحيرة كانت لاحد بطون تميم (٥٦) . وهكذا نجد أن تميما أصبحت شريكة ادارية في الحيرة ومكة ، ولو أن طبيعة العلاقات بين تميم وقريش كانت تقوم على أسس أقوى وأمتن . ونظرا لأهمية تميم أصبحت القبائل في المنطقة تطلب ودها وتعقد المحالفات معها .

وكانت تميم على حلف مع قبيلة كلب ، أخطر القبائل العربية على تجارة قريش، لان مواطنها انتشرت ما بين أعالي الحجاز الى بادية الشام (٥٧) . ويبدو أن كلبا ارتبطت بقريش وحافظت على هذا الارتباط ، لاننا نجد كلبا تقف في وجه الدعوة الإسلامية وتحاول التضييق على الرسول (ص) اقتصاديا ، عن طريق التعرض للتجار الانباط الذين كانوا يحملون الدقيق والزيت للمدينة ، والحق الاذى بهم لمنعهم من ايصال بضائعهم الى المدينة ، مما اضطر الرسول (ص) أن يجهز حملة في السنة الخامسة للهجرة لتأديبهم (٥٨) . كذلك كان تحالف تميم مع أسد وطى يخدم التجارة القرشية . اذ تمكنت قريش من ارسال قوافلها آمنة في منطقة مكة .. الحزن (٥٩) ونحو دومة الجندل (٦٠) الى العراق .

وقد أدركت قريش أهمية تميم في المعادلة القبلية فأشركتها في الادارة المكية ومنحتها بعض امتيازاتها ، كإشراكها في الإشراف على الإجازة والافاضة ، كما أسند لتميم دور الحكومة في سوق عكاظ (٦١) . وكانت قريش حليفة قديمة لبني كنانة وبني بكر . كما كانت على علاقات ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق التجاري نحو الشمال، مثل جهينة ومزينة وغطفان .. وكانت غطفان مع أسد حليفين، وأسد مع تميم ، وتميم مع قريش ، وكذا أشجع وسليم وبني أسد ، وكان لها مع هذه القبائل حلفاء يعيشون في مكة ويعتبرون انفسهم من القبيلة القرشية جريا على النظام القبلي (٦٢) . وأقامت غطفان وهوازن وهلال محالفات مع إشراف قريش أساسها العلاقات الاقتصادية (٦٣) . كذلك كانت قبائل عامر بن صعصعة تنزل بين ديار هوازن وسليم وثقيف . وكانت ثقيف على صلة دائمة بقريش ، اذ ان الطائف كانت مصيف رجال مكة الذين يملكون فيها الحدائق والاطيان ، وكانت خزاعة في مر الظهران (٦٤) ولها علاقة مماثلة مع قريش (٦٥) .

وكان لقبيلة عذرة صلات قديمة مع قريش لا بد وأن توطدت بالايلاف ، فكان لعذرة حلف مع جهينة ، جعل الاخيرة تحترم المصالح المكية وتسهل مرور القوافل التجارية في منطقة المدينة ، ويمكن القول نفسه على قبائل بلي وبقيّة بطون قضاة النازلة على طول الطريق التجاري من مكة الى الشام (٦٦) .

نظرت فريش الى طريق العراق بأهمية لا تقل عن طريق الشام ، لصلة هذا الطريق بطريق الحرير القديم ، حيث كان التجار العرب المكيون يحصلون على جرير الصين وقوايل الهند . وكان الجزء الشرقي من هذا الطريق تحت النفوذ الفارسي . بينما كان الجزء الغربي خارج هذا النفوذ . وحاول الفرس مرارا السيطرة على هذا الطريق الى مكة ، ولعل حادثة البراض وقيام حرب الفجار كانت من المحاولات لتحقيق هذا الغرض ، علاوة على المحاولات الأخرى التي قامت بها فارس للسيطرة على بلاد العرب بعامة والطريق التجاري الى مكة بخاصة (٦٧) . وكذلك استمر الروم في محاولاتهم للسيطرة على الطريق التجاري الغربي بين اليمن والشام عبر الحجاز (٦٨) .

وكانت بطون جذام تنزل على طول الطريق التجاري بين الحجاز والشام ومصر . ولم تذكر المصادر أن جذاما ناصبت القوافل القرشية العداء . وقد حالف بعض رجال قبيلة سليم زعماء مكة واستغلوا معا مناجم المعادن الواقعة في ديار بني سليم (٦٩) . وكانت تنزل مع سليم قبيلة هوازن النوية ، وكان لها حلف مع ثقيف ، كما كانت سليم على صلات حسنة مع يهود يثرب الذين كانت صلاتهم وثيقة بقريش (٧٠) .

وحول مكة وجهات البحر كانت تنزل بطون كنانة مثل : القين وغمار وبكر وبلحارث ومدلج وضمرة بن بكر وليث بن بكر والدليل بن بكر ، وذلك في المنطقة ما بين مواطن هذيل وأسد بن مدركة ، وهذه البطون على صلة قوية بقريش بحكم الانتماء المشترك الى كنانة مثل بني عامر بن ثوي ، وبني فهر (٧١) .

ومن الجدير ذكره أن قريش الظواهر كان لها دورها في حماية المصالح المكية فكانت تغزو وتغير دفاعا عن قريش البطاح ، التي كانت تسميهم «الضب» للزوم الحرم ، ودخل قسم منهم مكة مثل بني حسل بن عامر ، وصاروا مع قريش البطاح وهم رهط سهيل بن عمرو وأخوته . فأما من دخل في العرب من قريش فليسوا من هؤلاء . وتفخر قريش الظواهر من قريش البطاح لظهورهم للعدو ولقائهم المناسر « طلائع الجيش » (٧٢) ، وإلى الجنوب من مكة كانت تتناثر قبائل عدة على طول الطريق الى اليمن ، ففي تباله تنزل خثعم ، وفي نجران بنو الحارث بن كعب . وكان لمكة في هذه المواطن عيون كثيرة (٧٣) كما كانت هذه القبائل ترتبط بعلاقات حسنة مع قريش ، وكانت مراكز التجار ترسو في ميناء الجار حاملة الطعام من مصر الى الحجاز (٧٤) . وكان لقريش لأغراض الأمن محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة ، لكي تعاون قريش في الحروب اذا داهمتها . وسمي هؤلاء الإحلاف « بالاحابيش » (٧٥) .

ويحكم موقع مكة ودورها التجاري وتوسطها القبائل العربية أصبحت سوقا دائمة للتبادل التجاري ، تحصل القبائل القريبة منها على حاجياتها (٧٦) ، هذا علاوة على سيطرة مكة على الاسواق الثلاثة التي تقوم قريبا : عكاظ ومجنة وذئ المجاز ، كما كان لها مراكزها التجارية في بصرى وأذرع على طريق الشام (٧٧) .

وعلاوة على المصالح الاقتصادية المشتركة بين قريش والقبائل ، فقد امنت قريش في تعزيز هذه الروابط عن طريق التزاوج مع هذه القبائل . وتشير جريدة النساء التميميات اللواتي تزوجن رجالا من أسر قرشية شريفة الى هذه السياسة القرشية بوضوح (٧٨) . وتأثر شيوخ القبائل بقريش وأخذوا يشاركون في الرحلات التجارية ويتفخرون بالاسفار وزيارة البلدان ودخول المدن والارياف ومقابلة الملوك والامراء (٧٩) . وقد ارتقت حرفة التجارة في نظر العرب واعتبرت من اشرف المهن ، وأصبحت قريش بتجارها تضارع شهرتها في المجال الدولي شهرة حمير وفارس والحبشة . ففي رواية أنه وجد مكتوبا على بعض الآثار : « لمن ملك ذمار ، لحمر الاخيار ، لمن ملك ذمار ، للحبشة الاشرار ، لمن ملك ذمار لفارس الاحرار ، لمن ملك ذمار لقريش التجار » (٨٠) .

كانت مكة ملتقى الطرق البرية العالمية ، وقد استعملت هذه الطرق وجلبت من مختلف الاطراف السلع التجارية المطلوبة ، فعرفت طريق الهند والصين ، وحصلت من سوق الصين الرئيسي في « سرنديب » على الحرير وخشب الصندل كما جلبت من الهند التوابل ، وكانت هذه السلع أكثر ما تباع لسكان الامبراطورية الرومانية ، ولذلك كان الروم يحرصون على ضمان وصولها اليهم ، كما كانت منتجات الصين والهند تصل بلاد العرب ثم الامبراطورية الرومانية عن طريق البحر من سيلان عبر المحيط الهندي الى السواحل الغربية للبحر الاحمر . وقد ظل هذا الطريق اiban العصور المتوالية متصلا بالتجارة المصرية ، خاصة في عصر النفوذ الروماني حيث كان وسيلة الاتصال الأكثر أهمية بين الشرق والغرب وذلك حتى بداية القرن السادس الميلادي (٨١) .

وكان النشاط التجاري يتحول من طريق الى آخر حسب تطور الاحوال السياسية في المنطقة التي غلب عليها الصراع بين الفرس والروم بغية توسيع رقعة النفوذ لتشمل فيما تشمل بلاد العرب ، ومن ثم السيطرة على محاور المواصلات العالمية لضمان وصول السلع المطلوبة . ومما زاد هذا الصراع ضراوة أن الفرس كانوا يفرضون على السلع المارة ببلادهم ضرائب باهظة ، وكان الرومان يشترون هذه السلع باثمان عالية لأن التجار يضيفون هذه الضرائب الى اسعار السلع .

وحاول الرومان تركيز طرق المواصلات التجارية بطريقتين الاولى : طريق الفرات حيث كانت السفن القادمة من الشرق عبر المحيط الهادي والخليج العربي تفرغ حمولتها عند نهاية هذا الخليج ثم تحمل برا عبر الطريق البرية داخل سورية والبحر الابيض المتوسط ومصر ، وقد قامت على هذ الطرق محطات تحولت مع الزمن الى مدن مزدهرة مثل الحيرة والبتراء وتدمر . وقد ازدهر هذا الطريق في الفترة السابقة على ازدهار التجارة المكية اي حتى مطلع القرن السادس الميلادي تقريبا (٨٢) .

وتضاءلت اهمية هذا الطريق بعد انفجار الصراع بين الدولتين الساسانية والرومانية ، فأخذ الرومان يبحثون عن بديل له ، وتعاونوا مع الاحباش لتحقيق هذه الغاية ، فكان من محاولات الاحباش للسيطرة على اليمن ما هو معروف ومشهور . وعلى اثر الاحداث التي وقعت بين الفرس والروم والاحباش واليمن ازدهر الطريق التجاري البري من اليمن الى الشام عبر الحجاز ، واضحى هذا الطريق الشريان الرئيسي للتجارة بسبب وصله بين اكبر سوقين استهلاكيين في المنطقة ، اليمن وما يتصل بها من بلاد ، وسورية وما يتصل بها من بلاد . وهذا التحول حول مكة من محطة صغيرة يقدم اهلها الخدمات للحجاج الى امبراطورية تجارية يطلب ودها الملوك والامراء . ويذكر ابن حوقل (٨٢) ان لهذا الطريق فرعين أحدهما يمر بتهامة والآخر عبر البوادي قبل أن يلتقيا في مكة . وكان هذا الطريق يمر بأكثر من عشرين محطة منها : تبالة وبيشة وجرش وصعدة (مدينة الجلود) وأخيرا صنعاء (٨٤) .

وأما الطريق الى الشمال من مكة فيتكون من مرحلتين أساسيتين : الاولى . حجازية تنتهي عند يثرب التي تأتي بعد مكة من حيث الاهمية الاقتصادية في الحجاز . اما المرحلة الثانية فتتمتد من يثرب الى بصرى ، وفيه أيضا محطات تختلف في المسافات الفاصلة فيما بينها . وهناك طريق ثالث هام يصل مكة بالخليج العربي يقطع اليمامة ويصل الى موانئ الخليج ، والبحرين وجرها . ومن المراكز المهمة في هذا الطريق دومة الجندل التي كانت تعتبر عقدة مواصلات المنطقة الشرقية التي تتلقى بضائع الهند والبلاد الشرقية . وكان يقام بدومة الجندل سوق موسمية تعرض فيها منتوجات البلدان المختلفة ، المحلية والاجنبية . ومن السلع المحلية المشهورة في سوق دومة الجندل : اللبان والمر والالادن والعقيق من اليمن ، والعطور والذهب والعاج وخشب الابنوس والرقيق من افريقيا الشرقية ، والقمح في بعض الاحيان من مصر ومن اليمامة . وكانت هذه البضائع تصل مكة أولا ثم يقوم التجار بتسويق جزء منها في الاسواق العربية (٨٥) .

ومن الشام كان التجار يجلبون الى مكة زيت الزيتون والقمح (من حوران

(والبلقاء) والخمور والجواري والمواد المصنعة كالأسلحة والمنسوجات (٨٦) .

وكانت المنتوجات المصرية تصل مكة عن طريق ميناء النجار . وقد أطلق المقدسي على هذا الميناء « خزانة مصر » (٨٧) . وكان يصل إلى جزيرة العرب من فارس المسك والعنبر والجواهر (٨٨) . ومما ساهم في ازدهار التجارة المكية التعاون بين مكة والطائف التي كان بها عدد من الصناعات كدباغة الجلود والأسلحة والآلات الزراعية وأدوات الصيد (٨٩) . وكان العود الهندي والمسك والعنبر والقرقة (سيلان) من الاطايب المفضلة واستمرت كذلك في الإسلام ، فقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « عليكم بالعود الهندي » (٩٠) كما ورد المسك في القرآن في سورة المطففين ، وختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٩١) .

يذكر محمد حميد الله نقلا عن ابن الكلبي ان القرشيين كانت لهم رحلتان في كل عام ، واحدة الى اليمن في الشتاء ، وأخرى الى سورية في الصيف ، وشيئا فشيئا بدا لهم ذلك شاقا . ويتساءل حميد الله ، هل كان ذلك لان القرشيين أصبحوا أغنياء أم لان سفراءهم أصبحوا كبارا في السن ؟! وحينذاك بدا سكان تبالة وجرش . وكذلك سكان بعض المناطق المحاذية لليمن يتولون نقل بضائعهم حتى مكة ، فكان تجار البر يحملون بضائعهم حتى المحصب جنوب مكة ، والتجار البحريون يحملون بضائعهم حتى جدة (٩٢) . ان ما أورده حميد الله يتعارض مع استمرار الرحلات القرشية ، ويكفي ان نذكر ان معركة بدر كان من اسبابها اعتراض المسلمين واحدة من هذه الرحلات ، كما انه من المعروف ان الغرباء كانوا لا ينقطعون عن دخول مكة تجارا أو وكلاء تجار ، ثم ان شهرة قريش بالرحلتين لا تعني انهم لم يكونوا يرحلون الا رحلتين ، اذ كان تجارهم يضربون في الآفاق معظم أيام السنة (٩٣) . كان من نتائج تزايد الثروة لدى تجار مكة عنايتهم بفقراء المدينة حتى أصبح البحث عن الفقراء واشراكتهم في المشاريع التجارية جزءا لا يتجزأ من النشاط الاقتصادي العام . وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أن « لأيلاف قريش » تعني تراحم قريش وتواصلهم (٩٤) . وقد بدأ هذه العملية الجريئة هاشم بن عبد مناف ، ولعله أراد تمتين أواصر المجتمع المكي بتأليف قلوبهم وجعلهم جميعا شركاء في صنع المستقبل لتنجح سياسته في إيلاف القبائل . وقد أشار الشاعر مطرود بن كعب الخزاعي (٩٥) لهذه الصفة عند أبناء عبد مناف فذكرها بقوله :

والخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

تذكر بعض المصادر ان ظاهرة اجتماعية سلبية ظهرت في مكة قبل الإيلاف بفعل

الفقر والجوع عرفت باسم « الأعتفاد » ويعنى انه اذا اصاب إحدى العائلات المكية صيق وجوع ، يخرج أفراد هذه العائلة الى الصحراء ويضربون على أنفسهم الاخبية بالتناوب حتى يموتوا دون ان يعلم بهم الناس (٩٦) . واستمرت هذه الظاهرة حتى زمن هاشم بن عبد مناف ، الذي أوضح لقومه سوء هذه العادة وعواقبها الخطيرة على المجتمع المكي ، وبين أن الأعتفاد لا يتناسب مع شرف قریش وسمعتها الطيبة بين العرب ، وطلب الى قومه قطعها بالتوسيع على المحتاجين واشراكهم بمشاريع التجارة حتى يصبح الفقير غنيا (٩٧) كما هو واضح من شعر مطرود الخزاعي السالف الذكر (٩٨) .

يذكر الجاحظ أن قریش اخصبت بفعل الإيلاف وانها خير الشام واليمن والحبشة ، فحسنت حالها وطاب عيشها (٩٩) . وابلغ تعبير عن الوضع الجديد الذي حققه الإيلاف لأهل مكة قول الله سبحانه وتعالى : « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (١٠٠) يعنى الضيق الذي كان به أهل مكة قبل أن يسكن لهم هاشم الإيلاف . ويقصد بالخوف ذلك الذي كان يحقق بتجارهم بين العرب خشية العدوان عليهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « تخافون أن يتخطفكم الناس » (١٠١) .

لقد ذهب كستر الى أن فكرة مخالطة الفقير على الغني كانت المثل الأعلى في المجتمع الجاهلي وقد قررها الشعر ، وهي تقليد هام في المثل الجاهلية انعكس في العناية بالأسر المحتاجة ، على أن اعتناق الاسلام اعتبر انحرافا عن هذا المثل (١٠٢) .

ان ما ذهب اليه كستر هو صحيح باستثناء ما جاء في العبارة الأخيرة حيث أورد رواية فيها لوم لأحد أبناء الأغنياء المطعمين لاعتناقه الاسلام وتتهمه بأنه هدم ما بنى أبوه باتباعه محمد (١٠٣) . وما ذهب اليه كستر يخالف المعروف والمألوف في المجتمع العربي إبان الدعوة الإسلامية ، فقد جاءت الدعوة لصالح الفقراء والمحرومين ونحن في غنى عن إيراد الآيات والاحاديث في هذا المعنى ، كما أن ما أخذ على محمد صلى الله عليه وسلم في حينه ، أن اتباعه من الفقراء والموالي والعبيد . ولعل كستر لم يوفق في فهم العبارة السالفة الذكر والمراد بها لوم نعيم بن عبد الله باعتناقه الاسلام وخروجه على جماعة قومه الذين يتزعمهم والده ويجمعهم حوله ، وكان التقليد الجاهلي يحكم بأن يخلف الابن أباه في مآثر الزعامة وإطعام الطعام لا الخروج عليه .

وكما قرر المجتمع المكي محاربة الفقر فقد قرر أيضا محاربة الظلم . ومن أجل هذه الغاية كان حلف الفضول ، حيث تعاقدت خمسة بطون قرشية أن لا تدع مظلوما بمكة الا وتنصره . وكان مما تعاقدوا عليه أيضا مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم (١٠٤) . ومن الواضح أن حلف الفضول جاء بعد مماثلة في صفقة

تجارية بمكة ، وهو بأهدافه وغاياته الاقتصادية يقع ضمن سياسة الإيلاف .

وكانت الشراكة المكية تتم بالتراضي ، وغالبا ما تقسم الأرباح مناصفة ، أي أن صاحب المال يتقاضى نصف الأرباح والتاجر الذي يسافر بالأموال يأخذ النصف . وكان الكل منهمكا بزيادة ثروته (١٠٥) . وجلبت هذه الحركة معها أعمال الصيرفة ، وتكدست في مكة العملات المتداولة ، ومهر الصيارفة بمعرفة أنواعها وأوزانها وأصالتها وزيفها ، والأماكن التي ضربت بها (١٠٦) . وأغلب العملات المستعملة كانت الدينار الرومي والدرهم الفارسي والحميري (١٠٧) . وكذلك مهر القرشيون بالأعمال التجارية ، وعرفوا أساليب الوساطة والمضاربة والسمسرة والمقايضة والتأمين ، وتلأبنوا بالربا الفاحش ، ونجد صدى ذلك في آيات من القرآن الكريم حملت على جشع التجار المكين وذمت الربا والتعامل به ، ثم حرم الإسلام الربا واعتبره من الكبائر (١٠٨) .

وكان من أثر التجارة على المجتمع المكي شيوع الفنى والترف والاسراف . فقد ذكرت الروايات أن عبد الله بن جدعان مثلاً كان يشرب بكأس من الذهب ويأكل في صحاف الفضة ، كما ذكر الكثير عن رؤوس أموال التجار ، من أمثال عبد الرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهم كثير (١٠٩) .

ويستفاد من القرآن أن الترف قد شاع في الأوساط المكية وأصبح هم الناس متاع الدنيا وشهواتها . ومصدق ذلك قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١١٠) .

وعلى الرغم مما أخذ على بعض المكين من اسراف وترف وقسوة في التعامل مع المسلمين الأوائل فإن الإجراءات المكية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية السابقة للإسلام حققت تكوين قاعدة متينة للانطلاقة المكية التي حصلت في عهد هاشم بن عبد مناف ، واستمرت في تعاضدها في ميادين المعرفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وتوج هذا التعاضد بانفجار الإسلام من مكة ليعم ضياؤه أنحاء المعمورة على أيدي رجالات مكة .

الهوامش :

(١) ج كستر ، الحرة ومكة ، وصلتهما بالقبائل العربية ، ترجمة الدكتور يحيى الجبوري ، بغداد ١٢٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

واصل هذا الكتاب بحثان :

(a) Al-Hira, Same note on its relations with Arabia, Arabica V. 15 (1968) Leiden.

(b) Macca and Tamim, Aspects of their relations, Journal of the Economic and Social.History of Orient, V. 8 (1963). Leiden.

(2) H. Lammens, La Mecque a la veille de l'Hegire,(extract from melange Univ . St. Joseph, Beirut, ix ., Fasc.

— H. Lammens, Enc. of Islam « Macca ».

(3) Muhammad Hamidullah, AL - Ilaf, ou les Rapports Economiques - Diplomatiques de la Mecque pré-islamique,(extrait des melanges Louis Massignon, Inst. Français de Damas, 1957.

(٤) ظافر القاسمي ، الايلاف او المعونات غير المشروطة ، مجلة المجمع العربي - دمشق مجلد ٢٤ ، نيسان ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٥ . و ابراهيم بيضون ، الايلاف القرشي ، بحث في التكوين الاقتصادي لمكة قبل الاسلام ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، عدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٢٥ . وعدد ٤٣ أيار ١٩٨٢ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٥) القرشي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن علي الجوزي البغدادي (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) زاد السير في علم التفسير ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، ط ١ ١٢٨٨ هـ - ١٩٦٨ م تفسير « سورة قرش » ص ٢٤١ وما بعدها .

(٦) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠ هـ) جامع البيان عن تأويل القرآن المشهور باسم تفسير الطبري ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، ١٩٧/٣٠ وما بعدها .

(٧) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان العرب ، دار صادر بيروت مجلد ٩ ، مادة « الف » .

(٨) ن . م

(٩) انظر تفسير « سورة قرش » في تفاسير : الطبري ، وابن كثير ، والبغوي ، والصابوني ، وسيد قطب . وبقية التفاسير لا تخرج عن ذلك .

(١٠) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٢٥٢/٢ . والزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ٤٦٧ - ٥٢٨ هـ ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الاقاويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ٢٢٥/٢ .

(١١) انظر بن حبيب ، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ / م ٨٥٩) الحبر رواية أبي سعيد بن الحسين السكري ، باعتناء الدكتورة ايلزه ليختن شتيتز ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ١٦٢ . وقارن حميد الله ، الايلاف ص ٢٩٩ .

(١٢) تفسير الطبري « رواية ابن عباس » تفسير سورة قريش ١٩٧/٢ وما بعدها .

(١٣) ابراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، اشرف علي طبعة عبد اسلام هارون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية ، طهران ، مادة « ألف » .

(١٤) انظر H. Birkeland, THE LORD GUIDETH, Oslo, 1956, P. 106-110. وقارن كستر م . ج « الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية » ترجمة يحيى الجبوري ، جامعة بغداد ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م ، ص ٤٧ - ٤٨ . وقد اعتمد بيركلاند فيما ذهب اليه على رواية أبي حيان في البحر المحيط ، تفسير سورة قريش ٥١٥/٨ .

(١٥) انظر تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .

(١٦) ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، (ت ٢١٣ ، ٢١٨ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ ، ١١٢/١ .

(١٧) انظر العيني ، شرح البخاري ص ٣٦٥ . يعلق حميد الله على خبر زيارة الاسكندر لمكة فيقول : « واذا كان المقصود به الاسكندر فان المصادر اليونانية لا تفيدنا في ذلك ، على الرغم من ان سفره من مصر الى الهند لا يلقي الامكانية النظرية لزيارة هذا المكان ، فهو ملك وثني ذو اعتقادات نظرية » الايلاف ص ٢٩٤ . وانظر ايضا الازرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد ، اخبار مكة المشرفة ، رواية أبي اسحق بن احمد بن اسحق بن نافع الخزاعي نسخة مصورة من الطبعة الهندية ١٢٧٥ هـ ، ٨٤/١ . والحموي ، الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت مادة « مكة » . وابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ت ٢٢٨ هـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر « رواية العتبي ٥٩/٢ - ٦٠ » .

(١٨) ابن هشام ١٢٦/١ ، ويذكر ان هذا الشعر لحذافة بن جمع ، انظر : (١) من المصدر السابق .

(١٩) انظر اللسان مادة « خمس » وابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت ٢٢٣ هـ ، الطبقات الكبرى ، دار بيروت - دار صادر ، بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، ٧٢/١ . وانظر من الخمس : ابن هشام ١٩٩/١ وما بعدها ، والازرقى ١١٩/١ - ١٢٣ ، والحبر ١٧٨ وما بعدها والجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٢٥ هـ / ٨٦٩ م ، كتاب البلدان ، نشر وتطبيق صالح الطي ، مستل من مجلة كلية الآداب - بغداد ١٩٧٠ م ص ٧٢ وما بعدها ، والقيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق (٢٩٠ - ٤٥٦ هـ) ، المعتمد في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ دار الجيل - بيروت ١٩٧٢ م ، ١٩٧/٢ وما بعدها الزردي ، أحمد بن محمد بن الحسن ، الامكنة والبقاع ، حيدر آباد ١٣٢٢ هـ ، ١٦٦/٢ وما بعدها ، السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) ١١١٤ / - ١١٨٥ م ، الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، ومعها السيرة النبوية لابن هشام ، بعناية : طه عبد الرؤوف سعد « مكتبة الكليات الازهرية ، ٢٢٩/١ والافغاني ، سعيد ، أسواق العرب

في الجاهلية والإسلام ، دار الفكر ، ط ٢ بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ص ٧٥ وما بعدها ، وكستر ، ص ٦٢ وما بعدها .

(٢٠) انظر الإصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، ت ٢٥٦ هـ / ١٩٧٦ م ، كتاب الأغاني ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٥/١٩ وما بعدها ، وكستر ٦٣ - ٦٤ .

(٢١) ن . م .

(٢٢) انظر حول ذلك : ابن حبيب ، المنق في أخبار قريش - تحقيق خورشيد أحمد فاروق طبعة الهند ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ص ٢١ - ٢٢ . اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري ت ٢٨٤ هـ تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ٢١٢/١ . الجاحظ ، البلدان ، ص ٤٧ . الأزرقى ١٠٤/١ ، ١٠٧ . تفسر الطبري ١٩٩/٢ - ٢٠٠ « تفسر سورة قريش » . القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم ، ذيل الإمالي والنوادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٤ . والسهيلي ٢٢٥/١ . حميد الله ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ . م . وات ، محمد في مكة ، تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ص ١٨ . الإفغاني ص ٧٥ . واحمد إبراهيم الشريف ، الندوة الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية - الرياض .

(٢٣) لاماس ، ص ٤٢٨ .

(٢٤) ن . م .

(٢٥) القالي ، ذيل الإمالي ص ٢٠٤ .

(٢٦) بليبيف ، العرب والإسلام والخلافة العربية ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢٧) الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري ٣٥٠ - ٤٢٩ هـ ثمار القلوب في المضاف والنسوب ، القاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢٨) ن . م ص ٨٩ وحول هاشم وأخذه الأيلاف ، انظر : ابن هشام ١٣٦/١ ، ابن سعد ٧٥/١ - ٧٦ ، والأزرقى ٦٧/١ وما بعدها والسهيلي ١٦١/١ ، والطبري ، تاريخ ٢٥٣/٢ ، وابن أبي الحديد ، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ت ٦٥٦ هـ ، شرح منهج البلاغة ، دار الفكر - بيروت ١٩٥٦ م ، ٤٥٨/٢ .

(٢٩) انظر ابن هشام ١٣٦/١ . والبلاذري ، أحمد بن يحيى ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م أنساب الأشراف ، ج تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م . ٥٩/١ . والمسعودي ، أبو الحسن علي ابن الحسين ت ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ٥٩/٢ - ٦٠ . والقرطبي ، أبو عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن « تفسر القرطبي » ط ١ ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م ، ٢٠٤/٢ ، وتفسر الزمخشري ٢٣٥/٢ ، والقالي ، ذيل الإمالي ٢٠٤-٢٠٥ ، والمنق في أخبار قريش ص ٢١ وما بعدها ، والمخير ١٦٢ .

(٢٠) ذيل الإمالي ص ٢٠٤ .

(٢١) انظر ظافر القاسمي ، الأيلاف ، ص ٢٥٥ .

- (٣٢) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوبي ص ٧١ ، وثمار القلوب ص ٨٩ ، وذيل الامالي ٢٠٤ .
- (٣٣) سورة القصص ، آية ٥٧ . وانظر حول ذلك تفسير القرطبي ٢٠٩/٢ « تفسير سورة قريش » .
- (٣٤) انظر حول اليهود والايلاف لابناء عبد مناف ، المحبر ص ١٦٢ ، والنمق ٢١ - ٤٠ ، وذيل الامالي ص ٢٠٤ وما بعدها ، والبلاذري ، أنساب ٥٩/١ ، واليعقوبي ، تاريخ ١ / ٢١٣ .
- (٣٥) أنساب ٥٩/١ .
- (٣٦) اللسان « عصم » .
- (٣٧) تاريخ ٢٥٢/٢ .
- (٣٨) اللسان « حبل » .
- (٣٩) اللسان « خلف » ، وثق .
- (٤٠) انظر الجاحظ ، البلدان ص ٤٧٢ ، وابن سعد ٧٥/١ .
- (٤١) البلدان ص ٤٦٦ .
- (٤٢) الاغانى ٦٤/١ ، وجواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٩٢/٧ .
- (٤٣) ن . م .
- (٤٤) ابن بكار ، أبو عبد الله الزبير (١٧٢ - ٢٥٦ هـ) جبهة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مكتبة العروبة ، القاهرة ١٣٨١ هـ ، ص ٢٦٧ رقم ٦٤٤ . والكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بعناية رفن كست ، مطبعة الإباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨ م ، ص ٦ - ٧ .
- (٤٥) الطبقات الكبرى ٧٨/١ .
- (٤٦) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - من كتاب فضل هاشم ص ٧٠ .
- (٤٧) ابن سعيد الاندلسي ، أبو الحسن علي بن موسى ٦١٠ - ٦٨٥ هـ ، نشوة الطرب في تاريخ جاهليه العرب ، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، عمان ١٩٨٢ « رواية البيهقي » ص ٢٢٧ . وانظر صالح درادكة ، الردافه ، ملحق (١) .
- (٤٨) حول مقابلة عبد المطلب لابرهة الحبشي، ومولد الرسول الكريم، انظر ابن هشام ٩٤/١، والبلاذري، أنساب ٦٧/١ ، والطبري ، تاريخ ١٢٣/٢ - ١٢٤ .
- (٤٩) انظر بيضون « المقالة الثانية » ص ٢٨ .
- (٥٠) ابن هشام ١٢٦/١ - ١٢٩ . المحبر . مروج الذهب ٩٠/٢ . تاريخ الطبري ٢٥٢/٢ .
- (٥١) م . وات ص ٢٣ .
- (٥٢) البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، دار الجيل ، بيروت ٥٩/٥ . ابن حجر المسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢ هـ ١٤٤٩ م « الاصابة في تمييز الصحابة » دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٤٢٨ هـ ، ٤ / ٦٢ رقم (٢٨٤) .

- (٥٣) ابن سعد ٢ / ١٢٦ .
- (٥٤) سورة النور ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر تفسير الطبري للآيتين السابقتين .
- (٥٥) انظر G. Levidelle vida, Tamim, E. I. (1) 1964. vol.II,P . 643 - 644.
- (٥٦) انظر صالح درادكة ، الردافة ص ٢٢ وما بعدها .
- (٥٧) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني للهجرة ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، مصر ١٩٦٨ م ص ١٠ . وكستر ص ٥٨ .
- (٥٨) انظر الواقدي ، محمد بن عمر ت ٢٠٧ هـ كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز مصورة عن طبعة اكسفورد ١٩٦٦ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ١/٢٠٢ - ٢٠٣ . ابن سعد ٢/٦٢ - ٦٣ ، الخبر ١١٤ « غزوة دومة الجندل » وياقوت « دومة الجندل » . اتخذت كلب ضمنها «ود» في دومة الجندل . انظر ابي الكلب ، ابي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبسي ، كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٢٤٣ هـ - ١٩٢٤ م ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٢٨٤ هـ - ١٩٦٥ ص ١٠ .
- (٥٩) موقع قريب من الكوفة من أجل مرابع العرب - ياقوت - حزن يربوع .
- (٦٠) المزروقي ، الامكنة ٢/١٦٢ ، كستر ٥٨ .
- ودومة الجندل حصن قرب جبلي طيء بين تيماء ووادي القرى ، وهو حصن أكيدر الملك الكندي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد غزاه في السنة الخامسة للهجرة كما وجه اليه خالد بن الوليد من تبوك سنة ٩ هـ . ياقوت « دومة الجندل » .
- (٦١) كستر ص ٧٦ .
- (٦٢) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص ٢٢ . وانظر الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ت ٢١٠ هـ ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة - الرياض ١٢٨٨ هـ - ١٩٦٨ . ص ٦١ « الحليفان أسد وطيء » .
- (٦٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) - نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مصر ١/٢٤٥ .
- (٦٤) مر الظهران : الظهران واد قرب مكة . وعنده قرية يقال لها « مر » ياقوت « مر الظهران » .
- (٦٥) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .
- (٦٦) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ٢٨٤ - ٥٦١ هـ جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٢٩١ - ١٩٧١ م . ص ٤١٩ - ٤٢٠ . وابن دريد ، أبو بكر محمد ابن الحسن ٢٢٣ - ٢٢١ هـ ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السند المحمدية ، ١٢٧٨ - ١٩٥٨ م ، ص ٢٢٠ . أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز ، ص ١٠ .
- (٦٧) من بين المحاولات الفارسية السيطرة على سواحل الخليج العربي ، ثم سيطروا على اليمن ومنها محاولة السيطرة على مكة عن طريق نشر الزندقة في عهد قباز والهارث بن عمرو الكندي ثم حادثة البراض . انظر ابن هشام ١/١٨٤ وما بعدها ، واليعقوبي ، تاريخ ٢/١٢ ، ونشوة الطرب ص ٢٢٧ .

- (٦٨) استمرت محاولات بيزنطة منذ حملة ايليوس غالوس ٢٤ ق.م على اليمن الى تنصير وتنصيب عثمان ابن الحويرث القرشي ملكا على مكة . انظر ابن هشام ٢٢٤/١ « عثمان بن الحويرث » . والزبيري ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ١٥٦ - ٢٣٦ هـ ، كتاب نسب قريش بعناية ١ . ليفي بروفسال ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، والزبيري بن بكار ص ٤٢٥ ، ونشسوة الطرب ص ٢٥٠ .
- (٦٩) الشريف ، دور الحجاز ص ١٢ .
- (٧٠) ن . م .
- (٧١) ن . م .
- (٧٢) انظر البلاذري ، انساب ٣٩/١ - ٤٠ .
- (٧٣) اليعقوبي ، البلدان . مطبوعات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ص ٧٥ .
- (٧٤) ن . م .
- (٧٥) الاشتقاق ص ٢٨٢ ، ابن سعد ٤٧/٢ ، ٧٠ ، وابن حزم ٢٦٢ .
- (٧٦) ابن الاثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ ، الكامل في التاريخ المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٢٨٤ هـ ، ٢٤١/١ ، والشريف ، دور الحجاز ص ٤٥ . وابن كثير ، أبو الفداء دمشقي ت ٧٧٤ هـ ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف - بيروت - ومكتبة النصر - الرياض ، ط ١ ١٩٦٦ ، ٤٥/٢ .
- (٧٧) جواد علي ٢٠٦/٧ وما بعدها .
- (٧٨) كستر ص ٨٩ - ٩٢ .
- (٧٩) جواد علي ٢٠٦/٧ .
- (٨٠) انظر ابن هشام ٧٠/١ ، والهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٥٠ - ٣٦٠ هـ ، كتاب الاكليل ، ج ٨ تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مطبعة الكاتب العربي دمشق ١٢٩٩ - ١٩٧٩ م ، ٢٢٩/٨ .
- (٨١) بيضون ، المقالة الاولى ص ٢٣ .
- (٨٢) ن . م .
- (٨٣) ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي ، صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت . ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٨٤) ن . م وانظر اليعقوبي ، البلدان ٢١٧ وما بعدها (ط . ليدن) وابن خرداذبة ، الممالك والممالك ١٣٦ - ١٣٤ ، والاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، المعروف بالكرخي ، كتاب مالك الممالك ، نشر دي جوج ، ١٩٧٢ م . ص ٢٣ وما بعدها .
- (٨٥) انظر ابن شبه ، أبو زيد عمر بن شبه الخيري البصري ١٧٢ - ٢٦٢ هـ ، تاريخ المدينة ط ٢ تحقيق فهم شلتوت ، دار الاصفهاني للطباعة بجدة ، على نفقة السيد حبيب محمود محمد ١٤٠٢ هـ ، ٢٥/٢ « ذكر أن اليمامة كانت تزود مكة بالقمح » . وانظر جواد علي ٢٢٠/١ .
- (٨٦) اليعقوبي ، تاريخ ٢٧٠/١ .
- (٨٧) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي جوج ، بريل ١٩٠٦ ص ٩٧ . بيضون المقالة الثانية ص ٢٦ .
- (٨٨) الافغاني اسواق العرب ص ٢٥١ .

- (٨٩) لاماس الطائف ص ١١٩ ، وبيصون المقالة الثانية ص ٢٦ .
- (٩٠) البخاري ١٦١/٧ * جواد علي ٢٣٧/٧ .
- (٩١) الآية ٢٦ . وحول السلع التجارية انظر الجاحظ ، التبصرة بالتجارة ص ٢٤ وما بعدها واليعقوبي ، بلدان ص ٥١ (ط . التجف) . ثمار القلوب ص ٤٢٣ . جواد علي ٢٢٧/٧ وما بعدها .
- (٩٢) الايلاف ص ٢٠٠ .
- (٩٣) مما يشير الى أن الرحلات التجارية كانت لا تنقطع . فقد خرج المسلمون بعد هجرتهم عدة مرات في سنة واحدة لاعتراض القوافل التجارية بين الشام ومكة . انظر مغازي الواقدي ٩/١ وما بعدها ، وابن هشام ٥٩٠/١ وما بعدها ، وابن سعد ٥/٢ وما بعدها وابراهيم شعوط ، اباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ٢٤ .
- (٩٤) انظر تفسير سورة قريش عند السيوطي ، الدر المنثور ٣٩٧/٦ *
- (٩٥) انظر ذلك في البلاذري ، انساب ٦٠/١ ، الاذرقى ٦٨/١ ، والديار بكري ، حسين بن محمد ابن الحسين ، الخميس في احوال النفس نفيس ، المطبعة الوهبية ، مصر ١٢٨٣ هـ ، ١٥٦/١ .
- (٩٦) انظر تفسير القرطبي ٢٠٤/٢ - ٢٠٥ ، السيوطي ، جلال الدين ت ٩١١ هـ ، الدر المنثور في التفسير المأثور ، دار المعرفة ، ١٣٧٧ هـ ، ٣٩٧/٦ ، الشامي ، محمد بن يوسف الصالحي ت ٩٤١ هـ ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ٢١٧/١ ، كستر ص ٥٠ .
- (٩٧) ن . م .
- (٩٨) ن . م .
- (٩٩) الجاحظ ، الرسائل ، جمع السندوبي - فضل هاشم - ص ٧٠-٧١ ، وانظر ثمار القلوب ص ٩٠ .
- (١٠٠) سورة قريش آية ٤ *
- (١٠١) سورة الانفال ، آية ٢٦ .
- (١٠٢) كستر ٥١ - ٥٢ .
- (١٠٣) انظر ابن هشام ١٤١/١ ، وكستر ٥٢ .
- (١٠٤) لاماس ٤٣٩ .
- (١٠٥) ن . م .
- (١٠٦) ن * م ٤٤١ .
- (١٠٧) ن . م . ٤٤٠ .
- (١٠٨) انظر على سبيل المثال ، سورة البقرة ، الايات : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ . وسورة آل عمران ، آية ١٣٠ ، وسورة النساء ١٦١ ، وسورة الروم ٣٩ .
- (١٠٩) انظر مروج الذهب ٢٤١/٢ ، وانظر ترجمة عبد الله بن جدعان في نشوة الطرب ٢٥٢/١-٢٥٥ ، وفي الاوسى ، محمود شكري ، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، مصر ١٣٤٢ هـ ٨٧/١ وما بعدها ، وتراجم الصحابة الاخرين في ابن سعد ٥٢/٣ ، ١٠٠/٣ ، ٢١٤/٣ - ١٢٤/٣ .
- (١١٠) آل عمران ، آية ١٤ .

أَوْضَاعُ الْفَلَاحِينَ فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ

د. نجدة ضماش

جامعة دمشق

اهتم الخليفة الراشدي الثاني ، عمر بن الخطاب ، بإحلال الحق والعدل والمساواة في كل منطقة وصل إليها المد الإسلامي ، بتطبيق النظم الإسلامية ومراقبة ولايته مراقبة دقيقة صارمة ، إلا أن أوضاع كل منطقة وتقاليدها الاجتماعية والإدارية السابقة ، والعوامل السياسية في العصر الأموي وما نجم عنها من ظروف اقتصادية ، أوجبت نوعاً من التمايز بين عصر وآخر ، كما سيتبين من دراستنا لأوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الإسلام .

كانت جل أراضي السواد ، الذي أصبح مرادفاً للعراق (١) ، مستغلة زراعياً ، لأنها منطقة سهول لا عوائق فيها ولا شواهد تشينها ولا مفاوز موحشة تحول دون تواصل العمارة فيها ، والانهار مطردة من رساتيقها وبين قراها ، مع قلة جبالها وأكامها (٢) ، هذه المنطقة كانت تكاد تخلو من الوجود الفارسي ، فالفرس الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة في البلاد ، إداريين وملاكين وجنود ، تمركز سكنهم في مناطق معينة من العراق ، وكان استقرارهم أكثر ما يكون في شرق دجلة خاصة بالقرب من المدائن وعلى ضفاف نهر ديبالى ، كما كانت لهم حاميات على حدود العراق الغربية . على شكل مسالح ، كان أهمها في عيون الطف والأيلة والخريبة وبناتقيا واليس والحيرة والعذيب وعين القمر والأنبار ، أما المنطقة بين دجلة والفرات فكان عامة سكانها من

النبط (٣) . ويظهر هذا في اخبار الفتح ، فبعد انتصار خالد على المسالحيين الفارسية غرب الفرات ، أخذت غارات قواده وغارات المثنى بن حارثة من بعده تصل الى نهر دجلة دون أية مقاومة فارسية تذكر ، ولا نجد ذكرا لمعاهدات صلح سوى التي عقدها خالد ، في خلافة ابي بكر ، مع الحيرة ، وقريات من السواد هي بانقيا وأليس (٤) ، كما ان سعد بن ابي وقاص بعد انتصاره في القادسية وصل المدائن دون ان يلقي مقاومة لهروب كثير من السكان وخاصة الدهاقين واصحاب الملكيات (٥) .

تشعر الروايات ان الفلاحين في السواد كانوا في وضع من العبودية للدهاقين واصحاب الملكيات ايام الحكم الساساني ، ولهذا فقد اعتبروا تبعا لهم (٦) . ويذكر ابن الكلبي في اشارته الى ابتداء الدهقنة « فجعل لكل قرية دهقانا وجعل أهلها له خولا وعبيدا والبسهم لباس المذلة وأمرهم بطاعته » (٧) ويذكر سيف قول احد الدهاقين لسعد بعد سبي جماعات من الفلاحين ، انما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجرؤوا عليك ، فدعهم حتى يفرق الله لكم الراي (٨) . ذلك ان الفلاحين كانوا تابعين للأرض ومجبرين على السخرة وعلى الخدمة العسكرية كمشاة « فكانت كثرتهم العظمى تسير وراء الجيوش كأنها ذاهبة الى اذلال ابدى وبغير أجر يحفرها ولا مكافآت أخرى » (٩) وكانت الجزية تفرض عليهم . وعلى العامة من سكان المدن كذلك ، الا ان حالة العامة من سكان المدن كانت أحسن نسبيا لانهم ، وان كانوا يدفعون الجزية ، فقد كانوا معفيين من الخدمة العسكرية (١٠) .

سار المسلمون بالفلاحين الذين لم ينهضوا بقتال في العراق هذه السيرة التي اصر الخليفة الأول على ان يلتقيها خالدا ويحمله عليها ، ولذلك سار خالد في هؤلاء الفلاحين ما كان أبو بكر قد تقدم اليه فيهم ، « لم يحرك هو وأمرأؤه احدا منهم في شيء من فتوحهم وسبي اولاد المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمر الإعاجم ، وأقر من لم ينهض من الفلاحين وجعل لهم الذمة » (١١) . وفي رواية أخرى لسيف بعد معركة المذار ان خالدا اقر الفلاحين ومن اجاب الى الخراج من جميع الناس بعد مادعوا وصارت أرضهم لهم (١٢) . وحصل أثناء الفتح وبعد معركة القادسية ان قامت القوات العربية ، أثناء ملاحقتها للفلول الفارسية ، بسبي جماعات من الفلاحين غربي دجلة قبل دخول المدائن (١٣) ، فقام سعد بارجاعهم الى قراهم عن طريق الدهاقين (١٤) . وفي كور دجلة والأهواز كانت عمليات السبي أكثر منها في السواد كما يظهر ، لان الوجود الفارسي في هذه المنطقة يختلف عنه في السواد ، فقد كانت الأهواز تحوي مدنا فارسية وقلاعاً وحصونا فتحت عدة مرات ، ولكن عمر كتب اليهم ان لا طاقة لكم بعمارة الأرض فطسوا ما في أيديكم من السبي واجعلوا عليها الخراج (١٥) .

بعد معركة القادسية سنة ١٤ هـ لحق كثير من أهل السواد بالمدائن ، فبعث سعد بن أبي وقاص رسائل الى عمر بن الخطاب يسأله رأيه في أهل السواد ، فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ، ولم يقاتل أو استسلم ، « فانا بأرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل ، وقد كثر أهل صلحنا وان اعمر لنا وأوهن لعدونا تألفهم » مكان جواب عمر « اما من اقام ولم يجبل وليس له عهد فلهم ما لأهل العهد . بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك ، وكل من ادعى ذلك فصدق فلهم الذمة » (١٦) . كما امره بتخليفة سبيل الفلاحين الذين سبوههم وأن لا يتعرض لهم بأذى (١٧) .

ونحن نعلم ان الفقهاء جميعا يجمعون على ان السواد فتح عنوة ، واذا كان بعض علوج السواد أو الفلاحين قد شارك في القتال ضد العرب ، فانما فعل ذلك مجبرا مساقا . أما كثرتهم الكثيرة فقد كان اعتصامها بأرضها هو موقفها ، واستطاعت ان تجد في سيرة العرب بالأرض اسس هذه المسألة والقناعة . ونجد هذا الموقف في بعض حوادث الفتح : فكانوا اذا اغار عليهم المسلمون تقبوا عليهم تقيبا منهم فوجهوا الى خالد أو المثنى ، أو غير خالد والمثنى من القواد ، ليصالح عنهم ويضمن السلامة لهم (١٨) . أما طبقة الدهاقين ، فهي التي تولت مقاومة الحركة الاسلامية . فقد حارب الدهاقين المسلمين ، فلما أقرهم المسلمون على بعض عملهم ارتضوا حكمهم وتعاونوا معهم ، وترك المسلمون لملك الأرض ارضهم فأسلموا لهم قيادهم . فلما أثارهم الفرس قبل القادسية وأطمعوههم بالامارة وقالوا من سبق الى الثورة فهو امير ، ثاروا وانتقضوا (١٩) . انهم كانوا يدورون مع الحفاظ على نفوذهم حركة وسكونا ، مداراة بالصدقة أو مجاهرة بالعداوة . وهم الذين ثاروا على المثنى بعد خالد ، وعلى سعد بعد المثنى ، ولذلك فان العرب لم يكونوا مرتبطين معهم بصلح أو بأية التزامات ، بل وضعوهم موضع من قاوم الفتح واعتبروا اراضيهم أرض عنوة ، ومن ثم طلب العرب من سعد بن أبي وقاص ان يقسم السواد بينهم ، ولكنه أبى ان يتخذ هذا الاجراء قبل ان يستشير عمر الذي ارتأى بدوره ، بعد ان استشار عددا من المهاجرين والانصار ، ان يقر أهل السواد في ارضهم ويضرب على رؤوسهم الجزية وعلى ارضهم الخراج (٢٠) .

لا يوجد بين ايدينا روايات تشير الى ما فرض من الجزية والخراج في السواد ، قبل التنظيم الضريبي الذي تم عام ٢١ هـ ، سوى رواية السري عن شعيب ، ان المسلمين أخذوا أهل السواد بخراج كسرى ، وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في ايديهم من الحصة والاموال (٢١) ، وان الناس ألزموا الجزية في عهد كسرى ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهوابذة

والكتاب ، ومن كان في خدمة الملك ، وصيروها على طبقات اثني عشر درهما وثمانية وستة وأربعة دراهم في الشهر كقدر اكنار الرجل واقلاله ، ولم يلزموا الجزية من كان اثنى له من السن دون العشرين او فوق الخمسين ، وكانت هذه الجزية تجبى في ثلاثة أنجم كل نجم أربعة أشهر (٢٢) . وفي رواية أبي عبيد أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان وسهيل بن حنيف وانهما قلجا الجزية على أهل السواد ، على كل انسان أربعة دراهم في كل شهر ، ثم حسب أهل القرية وما عليهم الدهقان كل قرية وقالوا : على قريتك كذا وكذا فاذهبوا وتوزعوا بينكم ، فكانوا يأخذون الدهقان بجميع ما على أهل قريته (٢٣) . وفقا لهذه الرواية ، نجد أن متوسط ما كان على الفلاح أن يدفعه كان (٤٨) درهما في السنة ، وهي جزية مرتفعة بالقياس الى ما طبق بعد التنظيم ، الا اذا اعتبرنا أن هذا المبلغ يتضمن ما يجب أن يدفعه الفرد من جزية عن رأسه وخراج عن أرضه ، استنادا الى رواية يوردها البلاذري عن مصر ، بأن أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين ، فالزم كل رجل أربعة دنائير فرضوا بذلك (٢٤) .

نتيجة لقرار عمر عاد الفلاحون في السواد الى أرضهم ، وصالح العرب الدهاقين ورؤساء الطساسيج على الجزاء والذمة (٢٥) ، وحافظ الدهاقين والفلاحون برجعهم على ملكية أراضيهم ، ولما كان العرب المسلمون قد فرضوا الجزية على أهل الذمة كافة بغض النظر عن مستواهم الاجتماعي ، فإن عددا كبيرا من الدهاقين دخلوا في الاسلام بعد الفتح ، وكان جلهم من دهاقين الكور والطساسيج (٢٦) ، فضمن لهم دخولهم الاسلام وضعهم الاقتصادي والاجتماعي ، اذ انهم اعفوا من الجزية وفرض لهم في شرف العطاء ، وأشار عمر الى علو شأن هؤلاء حين ادخلهم في الديوان فقال : « قوم اشراف احببت أن أتألف بهم غيرهم » (٢٧) .

وقد تبين لنا من رواية أبي عبيد أن العرب كانوا يأخذون الدهقان بجميع ما على أهل قريته ، أي أن الدهاقين كانوا مسؤولين عن جمع الضرائب من السكان في المرحلة الاولى وقبل تحديد الضرائب على الأرض والسكان سنة ٢١ هـ . وكان لأجراء المسح وتحديد ضريبة كل فلاح أن يساعد على تحرير الفلاح من سيطرة الدهقان ، الذي أصبح في ظل الإدارة العربية جابيا فقط الى جانب الجباة العرب . واصبح الفلاح هو المسؤول أولا وأخيرا عن دفع ما عليه من خراج أرضه وجزية رأسه ، لاسيما وأن العرب اعتبروا الفلاحين احرارا لا رق عليهم (٢٨) . ففي رواية سيف عن الشعبي أن بعض الناس يزعمون أن أهل السواد عبيد ، « ولو كانوا عبيدا لما اخذ الجزاء منهم ، فقد اخذ السواد عنوة ، فدعوا الى الرجوع ، فرجعوا ، وقبل منهم الجزاء ، وصاروا نعمة ، وانما يقسم من الغنائم ما تغنم ، فأما ما لم يغنم

وأجاب أهله إلى الجزاء من قبل أن يتغنم فلهم حرث السنة بذلك » ، وفي رواية سيف عن مسلم مولى حذيفة أن المهاجرين والأنصار تزوجوا في أهل السواد ، يعني في أهل الكتابيين منهم ، ولو كانوا عبيدا لم يستحوا ذلك ولم يحل لهم أن ينكحوا أماء أهل الكتاب (٢٩) .

وبالرغم من أنه اتفق مع السكان في البداية أن يقوموا بإصلاح الطرق والجسور والقناطر وسد البثوق « فكان الفلاحون للطرق والجسور والأسواق والحرث والدلالة ، مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم ، وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة وعلى كلهم الإرشاد وضيافة ابن السبيل من المهاجرين » (٣٠) ، فإن العرب أصبحوا هم المسؤولين ، بعد التنظيمات التي تلت الفتح ، عن حفر الأنهار وبناء القناطر والجسور وسد البثوق حين الحاجة إلى ذلك على نفقة بيت المال (٣١) .

وراعى الخلفاء الراشدون حالة الأرض والسكان في تقدير الخراج والجزية ، إذ أن عمر بن الخطاب أمر ، بعد التنظيم ، أن يوضح على الدهاقين الذين يركبون البراذين ويتختمون بالذهب على الرجل ثمانية وأربعين درهما وعلى أوسطهم من التجار على رأس كل رجل أربعة وعشرين درهما في السنة وعلى الأكره وسائر من بقي منهم على الرجل اثني عشر درهما (٣٢) . أما فيما يتعلق بالخراج فإن الروايات التي يوردها البلاذري والتي تنسب إلى عهد عمر بن الخطاب كلها تشير إلى أن الخراج فرض على كل جريب حسب نوع المحاصيل (٣٣) ، كما أن الروايات المتعلقة بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد كلها تظهر اختلاف مقادير الخراج على الجريب الواحد من المحصول نفسه ، وقد يعود ذلك إلى اختلاف خصوبة الأرض من مكان لآخر ، وبعد المناطق عن الأسواق وقربها منها . ولما كانت الدولة في العهد الراشدي تجبي ضرائبها من الزرع بالنقد والعين ، أي أنها كانت تأخذ مع النقود منتجات عينية ، فإن هذا كان يخفف عن الفلاحين بعض الأعباء فلا يضطرون إلى بيع منتجاتهم بأسعار رخيصة كي يحصلوا على نقود لتسديد الضرائب .

هذا ما كان من أوضاع الفلاحين في العراق في العصر الراشدي ، فإذا انتقلنا إلى الشام نجد أنها ، كالعراق ، منطقة تحتم جغرافيتها أن تكون حرفتها الأولى الزراعة كذلك ، إلا أن أراضيها الزراعية ليست متصلة اتصال أرض السواد ، فهناك سهول ساحلية وأخرى داخلية تفصل بينها الجبال والوهاد ، وقد انتشر الروم ومرتزقتهم في مدن الساحل (٣٤) ، وفي المدن الداخلية كإلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وبما أن المدينة ذات الحكومة المحلية (Municipality) كانت مسؤولة عن الأراضي والقرى والصياع التابعة لها ، وكانت الأساس في البناء

المالي العائد لعهد ديوكليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) ، فاننا نلاحظ كثرة المعاهدات التي عقدها القادة العرب في الشام ، وكل هذه المعاهدات تنص بوضوح على وجود جزية وخراج ، وتميز بوضوح بينهما ، كما تنص على أن المدن صولحت بالرغم من مقاومتها في بادئ الأمر ، وأن الأرض أخذت عنوة . ولذلك نجد الفقهاء يؤكدون على أن مدن الشام والجزيرة فتحت صلحا ، وبأقي الأرض ، أي الريف ، عنوة (٢٥) . ويطلق المؤرخون على الفلاحين في الشام كما أطلقوا على الفلاحين في السواد اسم العلوج أو النبط ، ولم يكن وضعهم بأفضل من وضع اخوانهم في العراق ، فقد استنتج (فرديناند لوت Ferdinand Lot) من دراسته للقوانين الواردة في مدونة جستنيان وفي سنوات مختلفة وأماكن مختلفة أن ضريبة الرأس أصبحت بعد القرن الرابع الميلادي تجبى فقط من الفلاحين ، وغدت سمة لهذه الطبقة من المجتمع (٢٦) . ودلالة على المذلة كما يتبين من التعبير *Plebaie Capitationis* . ومما يؤكد ذلك أن الروايات التي تتحدث عن جبلة بن الأيهم ، بالرغم من اختلافها في بعض النقاط ، فانها تتفق بأن عمر عرض الاسلام على جبلة مع اداء الصدقة أو البقاء على دينه ودفع الجزية ، فأئف منها (٢٧) لأنه عربي والجزية لا يدفعها الا العلوج ، وهذا دليل على أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي .

وكان من أهم التطورات التي نجمت عن نظام الضرائب الذي فرضته دولة الروم - نظرا لغداحة ما استتبعه من اعباء ، ولانتشار نظام الحماية ، ثم لحرص الدولة على توفير الأيدي العاملة في وقت كان عدد السكان فيه يتناقص - أن تحوّل الفلاحون الى أرقاء للأرض (٢٨) مقيدين بها ، واصدرت الدولة التشريعات اللازمة لاجبارهم على الإقامة .

انتشر العرب بالفتوح في بلاد الشام كلها ، الا أنهم لم يتعرضوا لجماعات القرى بأي اذى أو ضرر ، كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة ، فكانت خطتهم منذ البداية قائمة على عدم الاضرار بالفلاحين ، بل ان قادة العرب بذلوا جهودهم لبعث الطمأنينة في نفوسهم وابقائهم في الأرض ، كما لا نجد ذكرا لهرب ، أو سبي ، جماعات من الفلاحين في الشام ، الذين اعتبروا احرارا بالرغم من أن أرض الريف أخذت عنوة ، لأن عمر بن الخطاب رفض أن يقسم أرض الشام وما فيها من شجر وزرع (٢٩) على المقاتلين العرب . وكان من رأيه تركها لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فيئا للمسلمين « المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم » (٤٠) .

كانت الجزية في بادئ الأمر في الشام جريا ودينارا على كل جمجمة (٤١) ثم

عدلت بعد التنظيم فجعلها عمر أربعة دنائير على أهل الذهب وأربعين درهما على أهل الورق ، وجعلها طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط ، وتتفق رواية عمرو الناقد عن أسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حماد بن أبي حنيفة عن أسلم مولى عمر ، أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، على أهل الورق على كل رجل أربعين درهما وعلى أهل الذهب أربعة دنائير ، إلا أن الرواية الأولى تضيف وأن عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل إنسان بالشام والجزيرة ، وجعل عليهم ودكا وعسلا . أما في الرواية الثانية فتذكر أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام (٤٢) . ويبدو أن الأرزاق فرضت على أهل الريف فقط دون أهل المدن لأن الأرض لهم وبإمكانهم دفعها ، فيذكر أبو يوسف : « أنهم إنما فعلوا ذلك لأن أهل الرساتيق هم أصحاب الأرضين والزرع وأهل المدائن ليسوا كذلك » (٤٣) ، ولعل هذه الأرزاق كانت تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة ، وبما أن الروايات المتعلقة بما فرض من خراج بعد ذلك غير متوفرة ، فإننا نستنتج ، استنادا إلى ما ذكره الماوردي من أن عمر بن الخطاب راعى في كل أرض ما تحتمله في الشام (٤٤) . واستنادا إلى التعديل الذي حدث في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ) ، نستنتج أن الإجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق ، من مسح للأراضي ، واختلاف فيما فرض على الأرض باختلاف نوع الحاصل وطريقة الري والبعد والقرب من الأسواق . وتلاحظ رفق عمر بن الخطاب بالفلاحين مما ورد في صلح إيلياء « أن لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم » . وفي الرواية التي يوردها أبو عبيد عن أبي مسهر بن سعيد بن عبد العزيز عندما سأل عمر بن الخطاب عامله سعيد بن حديم (والي حمص سنة ٢٠ هـ) عن سبب تباطئه في إرسال الخراج ، فبين له أنه إنما يؤخرهم إلى غلاتهم ، فقال عمر : « لا عزلتك ما حييت » ، قال أبو مسهر ، ليس لأهل الشام حديث في الخراج غير هذا ، ويعلق أبو عبيد ، وإنما وجه التأخير إلى الغلة الرفق بهم ، ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتا من الزمان غير هذا (٤٥) .

وكانت الضريبة في الشام كما في العراق تجبى عينا وتقدا ، فكان أهل الذمة إذا جاؤوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، يؤخذ منهم بالقيمة ، ولم يكن يؤخذ منهم في الجزية مئة ولا خنزير ولا خمر (٤٦) ، لأن عمر بن الخطاب كان قد نهى عن أخذ ذلك منهم في جزيتهم ، وطلب من أهل الذمة أن يولوها أربابها لبيعها ، وأن يأخذ عامل الخراج ائمانها إذا كان هذا أرفق بأهل الجزية (٤٧) .

أما في العصر الأموي ، فنلاحظ هذا الاتجاه في جباية الضرائب نقدا من جهة

والتشديد في اوزان الدراهم التي تجبى من جهة ثانية ، فقد فرض يزيد بن معاوية الخراج على أرض السامرة بالاردن وجعل على رأس كل منهم دينارين ، وفرض الخراج على أرض السامرة بفلسطين وجعل على رأس كل منهم خمسة دنانير ، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد صالحهم على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم ، مقابل ان يكونوا عيوناً وأدلاء للمسلمين (٤٨) . وكان عمر بن الخطاب قد قسطن الخراج في العراق ورقاً وعينا والدراهم تؤدي فيه عدداً ، ففسد الناس ، فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم أربعة دوانق (كل دائق قيراطان ونصف) ويستبدون بالوافي ووزنه مثقال (مثقال الفضة في العراق ١٢ قيراطاً) (٤٩) . فلما ولي زياد بن أبي سفيان ، طلب أداء الوافي فشق ذلك على الناس (٥٠) . وبالرغم من أن عبد الملك فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم العربية إلا أن ولاية العراق كما يبدو كانوا يطالبون أثناء تحصيل الضرائب عملات ذات وزن معين بدلا من العملات المتوافرة لدى الأهالي ويستولسون على فروع النقد . كما أن الولاية ، رغبة منهم في دفع الفلاحين إلى الزراعة ، كانوا قد عمدوا إلى فرض الخراج على الأرض المزروعة وغير المزروعة ، وعادوا لأخذ هدية النيروز والمهرجان ، لأنه كان من عادة الفرس أن يتقدموا إلى العمال والأمراء بالهدايا ، وبلغ من تأصل هذه العادة أنها كانت جزءاً من النظام المالي في الإمبراطورية الساسانية . ولهذا نلاحظ في العراق شيئاً لم نلاحظه في الشام ، يتقدم الفلاحون أو الدهاقين بالهدايا إلى خالد أو أبي عبيد أو المثني أو إلى أمرائهم (٥١) ويحار هؤلاء القواد والأمراء ماذا يفعلون بها ، أيردونها على أصحابها أم يحتفظون بها . . ؟ . ويكتبون بذلك إلى الخليفة ، ثم يستقر بهم الأمر أن يتقبلوها على أنها من بعض الجزاء المفروض ، فيكتب أبو بكر إلى خالد : « ان تقبلها منهم واحتسبها من الجزاء إلا أن تكون من الجزاء » (٥٢) . هذه الهدايا أصبحت في العصر الأموي ، كما يبدو ، تعتبر حقاً لهم في أعناق هؤلاء الناس وواجباً في ذمتهم . فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز كتب إلى واليه على العراق ، أن لا يحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وأن لا يأخذ من الخراب إلا ما يطبق ولا من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، كما أمره إلا يأخذ في الخراج إلا وزن سبعة ليس لها أس ولا أجور الضرائب ولا اذابة الفضة ولا هدية النيروز (٥٣) .

ونلاحظ في العراق كذلك ظاهرة لم نلاحظها في الشام ، وهي ظاهرة هجرة الفلاحين من الريف إلى المدن . والسبب في ذلك أن انتشار الإسلام في العراق كان أسرع من انتشاره في الشام ، ولن نتطرق في هذا البحث إلى الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام في العراق ، فهذا موضوع يستحق أن يفرد له بحث خاص ولكننا نستطيع أن نشير إلى الأسباب الخاصة التي تميزت بها هذه المنطقة . فمن

المؤكد أن القلق الديني الذي كان قد استحوذ على الفرس خلال الفترة السابقة للإسلام ، وتباين النظرات الدينية ، وتعدد المذاهب بين زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وتطاحن هذا التطاحن الشديد ، كان عنصرا مساعدا في سرعة انتشار الإسلام بعد غلبة المسلمين ، ومن المؤكد أن الفرس كانوا أهل حكم وسياسة ، وكانت لهم تقاليدهم في الإدارة وحظوظهم من السلطان ، فلما وجدوا أنهم غلبوا على أرضهم خافوا كذلك أن يغلبوا على سلطانهم . أما العامة ، فقد يكون ما غلب عليها هو الدين ، أو غلبت عليها سماحة الحرية التي أتاحها الإسلام ، وفرصة الانقاذ التي منحها لها . وأما الخاصة ، من الذين كانوا يلون السلطان والإدارة من مثل الاساورة والدهاقين ورؤساء المقاطعات ، فقد انقوا أن تستلب منهم سيطرتهم هذه التي يعيشون بها ولها ، ولذلك حبيب اليهم ، بعضهم أو أكثرهم ، أن يستجيبوا للإسلام ، وربما كان ذلك يعني بالنسبة اليهم الاسهام في هذا النظام الجديد الذي يقيمه المسلمون الغالبون ، والمشاركة فيه ، والابقاء على ما كان من حظوظهم في الحكم والإدارة .

ولعلنا نفهم من هنا فرق ما كان بين الفرس والروم ، فقد كان الروم يحاربون في غير أرضهم ، ولذلك انصرفوا عنها ، وكان هذا وما تبعه من حروب الثغور هو الصورة التي كيفت علاقاتهم بالمسلمين . أما هنا ، مع الفرس ، فقد كان للمساءلة وجه آخر ، كان الفرس يحاربون في عقر دارهم ، فلما غلبوا عليها لم يكن في وسعهم أن ينصرفوا عنها كما فعل الروم ، لأن العرب استطاعوا بعد استيلائهم على المدائن عاصمة الفرس أن ينساحوا فيما وراء ذلك في كل اتجاه وأن يقضوا على الدولة الساسانية ويسيطروا على كل المناطق التي كانت خاضعة لها ، ولذلك فإن الكثرة المطلقة من الناس لم تكن تملك إلا أن تتلاءم مع الوضع الجديد بأن تتبنى الإسلام أو أن تستتر وراءه كاتمة ميولها وعواطفها ، وهذا ما أدى إلى وجود أعداد كبيرة من الموالي في العراق ، والذين بلغ عددهم في الكوفة فقط في خلافة معاوية (٢٠) ألفا (٥٤) . ولا شك أن هذه الأعداد ازدادت بازدياد انتشار الإسلام ، لأن الإدارة العربية لم تحافظ على النظام الاقطاعي الساساني المحكم الذي كان يسيطر على الفلاحين ويجبرهم على البقاء في أرضهم ، كما أن التشريع المالي الاسلامي كان واضحا كما يبدو فيما يتعلق بأرض العنوة ، فمن أسلم فهو حر مسلم وتطرح الجزية عن رأسه (٥٥) ، أما الأرض فيبقى الخراج عليها لأنها فيء للمسلمين ، وله الخيار في أرضه أن شاء أقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي ، وأن شاء تركها فقبضها الامام للمسلمين مع ما في يديه مما كان في أيدي أهل فارس ، فإن شاء أنفق الامام عليها من بيت مال المسلمين واستاجر من يقوم بها ويكون فضلها للمسلمين ، وإن شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عند المسلمين (٥٦) . غير أن الواقع العملي اختلف عن التشريع النظري ، فالاحداث في العراق وما يذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق كلها تدل على أن من أسلم رفعت

الجزية عن راسه وله الخيار في ارضه ، ان شاء اقام فيها يؤدي ما كانت تؤدي ، وان شاء تركها وصار ما بيده من الارض بين اصحابه من اهل قريته يؤدون عنها ما كان يؤدي من خراجها ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه ، ولا يرون انه وان اسلم اولى بما كان في يديه من ارضه من اصحابه من اهل بيته وقرايته ولا يجعلونها صافية للمسلمين . كما نفهم من نص يورده ابن عساكر ان القرية كانت مسؤولة عن دفع مبلغ الخراج متضامنة ، فاذا اسلم الذمي اسقطت الجزية عن راسه وبقيت الارض لاهل القرية يقومون بزراعتها ودفع الخراج عنها (٥٧) وبما ان انتشار الاسلام بين اهل القرى في الشام كان بطيئا ، فان الفلاحين لم يشعروا بازدياد الاعباء عليهم كما حدث في العراق ، حيث حدثت هجرة واسعة من الفلاحين الى البصرة والكوفة ادت الى الاضرار بالاراضي الزراعية ، التي حرمت من الايدي العاملة ، فنقص انتاجها . وازدادت اعباء من ظل في الزراعة من الفلاحين ، الامر الذي كان يدفعهم بدورهم الى مغادرة اراضيهم او تحمل حياة صعبة مضيئة .

ويبدو ان هذه المشاكل وصلت حدا خطرا زمن الحجاج بن يوسف الثقفي فاضطر الى اصدر امره بارجاع من كان لهم اصل في القرى الى قراهم ، عندما كتب اليه عماله «بأن الخراج قد انكسر وان اهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالامصار» (٥٨) . وقد دفع عمل الحجاج هذا الى اتهام البعض له بأنه اخذ الجزية ممن اسلم ، بينما نرى ، وفقا للرواية السابقة ، وهي رواية عراقية ، ان ارجاع الفلاحين الى قراهم جاء بطلب من العمال لانكسار الخراج نتيجة اسلام اهل الذمة ولحاقهم بالامصار ، اي ان قلة الايدي العاملة في الاراضي الزراعية كانت وراء هذه الشكوى التي تحمل في طياتها عدم قدرة الدهاقين على جمع الأموال المطلوبة من اراضيهم ونواحيهم نتيجة لذلك . وقد كان بإمكان الحجاج ان يعتمد الى احصاء الموالى في البصرة والكوفة وان يستوفي الجزية منهم ، وهو امر لم يحدث ولم يشر اليه مصدر من المصادر ، مما يدل على ان غاية هذا الاجراء هي تعمير الريف واستيفاء خراجهم ، وهنا لا بد من كلمة بحق الحجاج ، وهي دقته في جباية الاموال واستيفائها حتى من كبار اشراف العرب . ففي سنة ٧٨ هـ قدم عليه المهلب بعد ان فرغ من حرب الازارقة ، وكان عزم على ان يوليه خراسان ، فحاسبه قبل ان يبعثه واخذه بألف ألف درهم من خراج الاهواز . هذا بالرغم من المكانة الكبيرة التي كانت للمهلب عند الحجاج واکرامه له ولابنائه (٥٩) . وعندما خرجت بعض الاراضي من ايدي اهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك واصبحت عشية ، عاد الحجاج فصيرها خراجية ، وهو عمل لا يخالف الشرع لان الخلفاء الراشدين كانوا يعارضون فكرة شراء المسلمين للاراضي الخراجية كرها او طوعا ، لانهم كانوا يفضلون بقاءها وفقا على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين وقوة على جهاد من لم يظهر عليه (٦٠) .

وجه الحجاج اهتمامه للزراعة والفلاحين بعد أن تم القضاء على الخوارج الأزارقة والصفورية ، وعلى ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٨٥ هـ ، فاسلف المزارعين ألفي ألف درهم (١١) . وإذا كانت المصادر تذكر أن خراج العراق في عهد عمر بن عبد العزيز بلغ المائة والعشرين ألف ألف درهم ، وذلك بعدله وعمارته ، وهو أكثر مما جنى في عهد الحجاج (١٢) ، فإن ذلك يعود ولا شك إلى الإجراءات الكثيرة التي كان الحجاج قد اتخذها بعد استتباب الأمن في العراق ، من حفر للأنهار والقنوات وإقامة القناطر والجسور واستصلاح للمغايض والآجام ، وتجفيف لمساحات واسعة من أرض البطائح ، وهذه ولا شك قد أعطت أكلها في خلافة عمر بن عبد العزيز (توفي الحجاج سنة ٩٦ هـ وأصبح عمر بن عبد العزيز خليفة سنة ٩٩ هـ) .

وإذا كانت هناك روايات تشير إلى بعض الأعباء الإضافية التي ربما أثقلت كاهل الفلاح في العراق ، فإن الوضع في الشام كان مختلفا ، فسياسة معاوية المالية التي أصبح على الولايات بموجبها إرسال الفائض من الأموال إلى بيت المال المركزي ، أدت إلى تدفق الأموال على الشام ، بالإضافة إلى أخماس الغنائم التي كانت ترسل إليها ، مما أدى إلى انتعاش الشام وتمتع أهلها كافة بمميزات خاصة ، فنحن مثلا لانجد ذكرا لضرائب إضافية في الشام كتلك التي أشير إليها في العراق ، مما ساعد على ازدهار الزراعة في الشام وبقاء الفلاحين في أرضهم ، على عكس ما حدث في العراق في العصر الأموي ، أو في الشام زمن هارون عندما ترك بعض أهالي فلسطين أراضيهم من كثرة الخراج (١٣) ، أو عندما اشترك عدد كبير من الفلاحين في ثورة البرقع اليماني سنة ٢٢٧ هـ في فلسطين والأردن ، إذ يشير الطبري إلى أن أتباعه كانوا قوما من فلاحي تلك الناحية وأهل القرى وأنهم كانوا في حدود مائة ألف (١٤) .

وتدل الإشارات التي ترد في مصادرنا ، أو التي توصل إليها علماء الآثار إلى اهتمام الأمويين بالزراعة في الشام ، هذا الاهتمام الذي كان ينعكس بدوره على الفلاحين الذين كانت لهم كلمتهم المسموعة كما يبدو ، والدليل على ذلك أن نهر يزيد كان نهرا صغيرا يجري فيه شيء يسير يسقي ضيعتين في الغوطة لقوم يقال لهم بنو فوقا ، ولم يكن لأحد فيه شيء غيرهم ، فماتوا في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ولم يبق لهم وارث ، فأخذ معاوية ضياعهم وأموالهم ، فلم يزل كذلك حتى مات معاوية ، وولي ابنه يزيد ، فنظر إلى أرض واسعة لا يسقيها سوى نهر صغير ، فأمر بحفره فمنعه من ذلك أهل الغوطة ودافعوه ، فلطف بهم على أن ضمن لهم خراج سنتهم من ماله ، فأجابوه إلى ذلك (١٥) . وكانت المياه توزع عن طريق الأقنية وما يسمى المواصي ، كما كانت هنالك أنهار عديدة متفرعة عن بردى ، فكان الخليفة يأمر بأن توزع المياه بالعدل على هذه الأنهار عندما تقل المياه في بردى ، وقد بلغ عدد الأنهار المتفرعة عنه في عهد هشام بن عبد الملك ما يزيد على ثلاثة عشر نهرا (١٦) .

ان الروايات المتناثرة القليلة بين أيدينا لا تسمح لنا بإعطاء صورة مفصلة دقيقة عن أوضاع الفلاحين ، الا أنها توضح أمرا بالغ الأهمية ، وهو أنه كان من الأصول الكبرى التي قام عليها الفتح العربي تحرير الأرض في الأقطار المفتوحة وانقاذها من سيطرة الطبقة الحاكمة العليا ، وترك زمامها للفلاحين العاملين عليها واستنقاذهم من ألوان الاضطهاد أو الضغط أو الاحتكار . كما ألحقت كتب الصلح على ان الجزية مقابل المنعة ، يمنع المسلمون الفلاحين ، ويحمونهم ويمكنونهم من أرضهم في زراعتها واستثمارها واقتطاف خيراتها ، فيستحق المسلمون لذلك هذه الجزية يتقوون بها على أمورهم ، فاذا لم تكن منعة لم تكن الجزية . وإذا أضفنا الى ذلك المساواة بين الجميع في تحمل العبء ، والغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها طوائف معينة كانت تعفى من ضريبة الرأس أو غيرها ، كالطبقات الارستقراطية في الشام ، وأهل البيوتات والعظماء والهوابذة والأساورة والكتاب في العراق والمناطق الشرقية ، أمكننا القول أن الادارة الاسلامية خففت أعباء الفلاحين من جهة ورفعت مكانتهم الاجتماعية ، وصان لهم التشريع الاسلامي حريتهم وكرامتهم بعد ان كانوا ادنى طبقة اجتماعية ، سواء في العراق ام في الشام .

* * *

الهوامش :

- (١) البلاذري ، فتوح ص ٢٤٢ ، الماوردي ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ص ١٠٤ ، ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
- (٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة السواد .
- (٣) ابن منظور ، لسان العرب مادة نبط ، الخطيب البغدادي ، ح ١ ص ٥٧
- (٤) الطبري ح ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ص ٢٤٥ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٤٥ *
- (٥) الطبري ح ٤ ص ٥ .
- (٦) المصدر السابق ح ٢ ص ٥٢٢ ، ح ٨ ص ٧١ .
- (٧) المصدر السابق ح ١ ص ٣٧٩
- (٨) المصدر السابق ح ٤ ص ٥ ، ابو يوسف ص ١٢٨
- (٩) كريستنن ، ايران في عهد الساسانيين ص ١٦٨ ، ٢٠٦ نقلا عن امين مارسيلين
- (١٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .
- (١١) الطبري ح ٢ ص ٢٥٠ .
- (١٢) المصدر السابق ح ٢ ص ٢٥٢ ، ٢٥٤ .
- (١٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ح ١ ص ١١٢ ، الطبري ح ٤ ص ٥ ، ٢٠ .
- (١٤) الطبري ، ح ٤ ، ص ٥ .
- (١٥) البلاذري ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .
- (١٦) الطبري ح ٢ - ٥٨٤ - ٥٨٦ *
- (١٧) المصدر السابق ح ٤ ص ٥ ، ٢٠ ، ابو عبيد ، كتاب الاموال - ٢٠٠ - ٢٠٦ يحيى بن آدم ص ٤٨ .
- (١٨) الطبري ، ح ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
- (١٩) المصدر السابق ح ٢ ص ٤٤٩ .
- (٢٠) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ١٢ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٨ ، الطبري ح ٢ ، ص ٥٨٦ .
- (٢١) الطبري ح ٢ ، ص ٥٨٦ .
- (٢٢) المصدر السابق ، ح ٢ ص ١٥١ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٧١ .
- (٢٣) ابو عبيد ، الاموال ص ٧٤ .
- (٢٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٢١٨ .
- (٢٥) الطبري ح ٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ح ٤ ص ٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، خليفة ابن خياط ح ١ ص ١٢٩ .

(٢٦) كان الدهاقين يتخرجون في المركز ما بين دهقان كورة ودهقان طسوج ودهقان قرية ، ويذكر كريستنسن أن الدهاقين انقسموا الى خمسة اقسام يتميز بعضها عن بعض بملابس مختلفة ، وأحيانا كان الدهاقين هم الرؤساء وملاك الاراضي والقرى وأحيانا لم يكن الدهقان نفسه الا أول فلاح الناحية ، وفي هذه الحال لم يكن له قبيل الفلاحين ما للسادة مالكي الارض من الارستقراطية الرفيعة ، وانما كان ممثل الحكومة امام حراثي الدولة :
(كريستنسن ص ١٠٠) .

(٢٧) اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٣ ، المقدسي ، بدء ، ح ٥ ص ١٦٩ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٣٦٤ .

(٢٨) الطبري ج ٢ ص ٥٨٧ ، أبو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٦ .

(٢٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٨٨ .

(٣٠) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢ ، البلاذري ، فتوح ص ٢٧٨ .

(٣١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٤٥ ، البلاذري فتوح ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٣٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٣٥) البلاذري ، فتوح ص ١٢٣ ، ١٢٢ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٢ ص ٦٢٧ ، أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٢ ، أبو عبيد ، ص ٤٠٠) .

(36) Daniel Dannette, Conversion and the poll - tax in early Islam, pp. 54 - 55.

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, trans. Jaan Hussy, P. 34.

(٣٧) البلاذري ، فتوح ص ١٤٢ .

(38) M. Baynes, The Byzantine Empire, pp. 102-105

Ostrogorsky, OP. CIT., p. 38.

(٣٩) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للمهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٣٧١ .

(٤٠) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٠ .

(٤١) البلاذري ، فتوح ص ١٢١ ، ١٢٠ ، الطبري ، ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٤٢) البلاذري ، فتوح ، ص ١٢١ ، أبو عبيد ، الاموال ص ٥٥ .

(٤٣) أبو يوسف ، ص ٤٨ .

(٤٤) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٤٨ .

(٤٥) أبو عبيد ، ص ٦١ .

(٤٦) الصولي ، ادب الكاتب ص ٢١٥ .

- (٤٧) أبو يوسف ، ص ٦٩ .
- (٤٨) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
- (٤٩) ولترهينتس Walter Hintz ، المكايل والاوزان الاسلامية وما يعادلها بالنظام المتري ، ترجمة الدكتور كامل الصلي ، ص ٩ .
- (٥٠) أبو هلال الصكري ، الاوائل ، ح ٢ ص ٢٢ .
- (٥١) الطبري ح ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ .
- (٥٢) المصدر السابق ح ٢ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .
- (٥٣) ابويوسف ، الفراج ، ص ١٢٠ ، أبو عبيد ، الاموال ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، اليعقوبي ، تاريخ ح ٢ ص ٣٠٥ .
- (٥٤) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٨٨ .
- (٥٥) يحيى بن آدم ، ص ٧ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .
- (٥٦) يحيى بن آدم ، ص ٧ ، أبو يوسف ، ص ٧٥ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .
- (٥٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الاولى ، ص ٥٩٢ .
- (٥٨) الطبري ، ح ٦ ص ٢٨١ .
- (٥٩) المصدر السابق ح ٦ ص ٣١٩ ، ٣٢١ .
- (٦٠) ابن عساكر ، المصدر السابق ، المجلدة الاولى ص ٥٩٤ .
- (٦١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ص ١٠٥ .
- (٦٢) الموردي ، الاحكام السلطانية ص ١٦٧ .
- (٦٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
- (٦٤) الطبري ، ح ٦ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .
- (٦٥) ابن عساكر ، المصدر السابق ، المجلدة الثانية ، القسم الاول ، ص ١٥٢ .
- (٦٦) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

* * *

ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التَّخُوم في الدور العباسي الأول

د. نبيه عاقل
جامعة دمشق

لعل أصعب ما واجه الإدارة العباسية في الدور الأول من أدوار حياتها ، قضية الحكم في المقاطعات التي كانت تقع على أطراف دولة الإسلام ، والتي يمكن تسميتها بمقاطعات التَّخُوم ، ولها خصوصيات جغرافية وبشرية فرضت على الدولة سلوكية إدارية ، نحاول في الصفحات التالية الكشف عن بعض خصائصها ، وبيان الأساليب التي اضطرت الإدارة العباسية الفتية لاتباعها ، لضمان استمرار سيادتها على هذه المقاطعات .

وتتناول هذه الدراسة مقطعتين اثنتين من هذه المقاطعات ، كمثالين ، هما : خراسان ، في الشمال الشرقي ، وإفريقية في الغرب . وكان اختيارنا لهذين المثالين بسبب تماثل بعض ظروفهما ، ففي كلا المقاطعتين نجد حدودا مفتوحة ، فهي بالتالي عرضة لهجوم خارجي عليها . كما أن هذه الحدود لم تكن مجرد خط مرسوم على الخريطة ، بل هي مزيج مما يمكن تسميته بـ « الحدود الداخلية » التي تفصل بين مساحات تدين بالولاء للدولة ، وأخرى لا تدين بمثل هذا الولاء ، وفي خراسان كما في إفريقية ، كانت هناك شعوب محلية حريصة على استقلالها ، متشبثة بتقاليدها الموروثة وتنظيماتها الاجتماعية . على أن هذا التشابه لم ينف وجود تمايز في مجالات أخرى . فسكان الإمارات الجبلية في خراسان كانوا مختلفين في نواح

عديدة مع المجتمع البربري الافريقي ، الامر الذي اضطر السلطة العباسية لأن تتعامل مع كل منهما بما يناسب أوضاعها ، وما تتطلبه هذه الأوضاع من ترتيبات ادارية مناسبة . وقد انعكس هذا الوضع الخاص على حرية الدولة في انتقاء الأشخاص الذين يمكن ان توسد اليهم المسؤولية الادارية ، وحد من حرية اختيار الولاة ، بقدر ما حد من نوعية الصلاحيات التي يمكن لهؤلاء الولاة ان يتمتعوا بها .

ففي خراسان مثلاً ، كان لابد ان يكون الوالي مقبولا من الحامية العباسية المحلية ، دون ان يلقي اختياره معارضة من الزعماء المحليين . وفي افريقية . كان على الوالي ان ينتصر أو يسيطر على العنصر البربري المحلي . وان يتمكن من كسب ولاء الجند المحليين الذين كانوا حريصين على الدوام على الاحتفاظ بمكانتهم المتميزة . وقد ادى هذا الى جعل اختيار الولاة محصورا في فئة من الرجال لهم جذور أو صلات بالمقاطعات ، أو سواهم ممن يستطيعون ان يستقطبوا الولاة المحلي ويجتذبوا الاتباع الذين تعتمدهم السلطة في تثبيت وجودها . وحين يتسلم الوالي سلطاته ، كان لا بد له من السير بحذر في ادارته شؤون الولاية ، لأنه سيواجه بأمور ومشكلات ان لم يكن قادرا على التعامل معها فستطرح به ، أو بهيبة من يمثله . فاذا ما كان كعبد الجبار الأزدي، الذي ولي خراسان للمنصور (١٤٠ هـ) . والذي كان شديد الاستجابة للضغوط المحلية ، فسيجد نفسه خارجا على سلطان الدولة ثائرا عليها (ثورة الأزدي عام ١٤١ هـ) . اما اذا اراد ان يفرض اوامر الدولة دون أن يأخذ بالاعتبار الظروف والحاجات المحلية ، فسيجد نفسه معزولا من منصبه كما كان الحال مع محمد العكي والي افريقية زمن الرشيد . وكان على الوالي ، في الوقت نفسه ، أن يراقب بحذر كبير « الجبهة الداخلية » ، وأن يرفع شؤونها . فعلي بن عيسى بن ماهان الذي استطاع ارضاء فئة « الابناء » والخليفة معا ، آل أمره الى الفشل لأنه لم يفلح في استرضاء بعض العناصر المحلية المتنفذة . وطبعي ايضا ان الامور كانت تختلف من ولاية الى أخرى ، وذلك حسب طبيعتها الجغرافية وتركيبها السكاني ، ودورها في الحياة العامة للدولة . فأحداث خراسان مثلا كان لها صداها في جميع أصقاع الدولة ، كما كان لها أثرها في رسم سياسة الخلافة بوجه عام . اما افريقية التي كانت تظهر على الدوام ميولا انفصالية ، فقد كان ما يجري فيها لا يؤثر على مجريات السياسة العامة ، وذلك لبعدها عن العاصمة من جهة ، ولما كانت تسعى اليه على الدوام من انفصال عن جسد الدولة . ويتضح ما ذكرناه بصورة جلية في الفترة التي تلت وفاة الخليفة هارون الرشيد ، فخراسان ، وللمرة الثانية خلال قرن واحد من الزمن ، تربعت مكان الصدارة وغدت في موضع القلب من جسد الدولة . ترسم سياستها وتلعب الدور الاهم في الاحداث وتستقطب أبرز الرجال ، ويلجأ اليها

انخليفة المأمون ليقوم فيها ردحا من الزمن . في حين ان افريقية ذات النزعة الانفصالية كما أسلفنا ، لا تلبث بعد موت الرشيد ان تستقل تحت حكم الاسرة الاغلبية ، وتبتمد رويدا رويدا عن مركز السلطة العباسية .

وعلى الرغم من هذين المسارين المتمايزين اللذين أخذتهما الحياة والاحداث في خراسان وافريقية بعد فترة غير طويلة من قيام حكم بني العباس ، فان الباحث يجد العديد من وجوه الشبه بينهما ، مما يجعل المقارنة مجدبة لالقاء الاضواء على مشكلة نمط الحكم في ولايات التخوم في الدور العباسي الاول .

خراسان

كانت خراسان احدى اكبر مقاطعات خلافة بني العباس ، وتشكل الحد الشمالي الشرقي للدولة . كما كان لها مكان فريد في التاريخ العباسي . ففي خراسان شهدت الحركة العباسية مولدها ، وكان لما يجري فيها من أحداث اثره البالغ على بقية أرجاء الدولة . ويمكن ايضاح ذلك بالقول انه اذا ما قامت مشكلة ما في مصر مثلا ، فان هذه المشكلة لن تتعدى آثارها حدود مصر ، ولن تعتبر هماً الا لوالي مصر ، ولن تترك بصماتها على بقية ولايات الدولة . اما اذا قام ما يماثل ذلك في خراسان فان الدولة بأسرها ستتأثر بما حدث في هذا الاقليم . ولربما كان ذلك بسبب اتساع رقعتها ، وانها تأتي الثالثة من حيث أهميتها الاقتصادية وما يدخل من وارداتها الى بيت مال الدولة ، اذ كان لا يفوقها في مقدار ما تدفعه من ضرائب الا السواد ومصر . ولعل اهم ما يجعلها على هذا المقدار من الخطورة والنفوذ انها كانت موطن الغالبية العظمى من الجند الذين تعتمدهم الدولة في عملياتها العسكرية . وقد كان الجند الخراسانية ، على الرغم من سكناهم في العاصمة بغداد ، يولون أهمية كبرى لما يجري في موطنهم الاصلي خراسان ، ويتابعون ما يجري فيه ويتأثرون بأحداثه اشد التأثر .

ان اهم ظاهرة تلفت النظر في اقليم خراسان هي ظاهرة التنوع ، ولا سيما على الصعيد الجغرافي ، فهذا الاقليم الذي كان يمتد على رقعة واسعة من الارض تبلغ من الري الى سمرقند ما يعادل الف ميل ، يتصف بتنوع كبير في المظاهر الجغرافية ، ويمكن تقسيمه الى ثلاث مجموعات طبيعية هي :

أولا : مناطق الواحات ووديان الانهار . وتضم زرقشان ، وواحة مسرو ، وخوارزم في دلتا نهر سيحون (Oxus) ، ومدنا كبرى كنيسابور والري وما كان فيهما من نظام للاقنية على جانب كبير من التقدم . وتتصف هذه المناطق بازدهام السكان من جهة ، وبنشاط زراعي واسع من جهة اخرى .

ثانيا : المناطق الجبلية ، كمنطقة جبال الهندوكوش التي تقع جنوب نهر سيحون ، وجبال كيش والختل بين نهر سيحون وزرقتشان ، ومنطقة فرغانة التي تقع الى الشرق من سمرقند .

ثالثا : المناطق الصحراوية والتي تضم صحارى كراكوم Karakum وكيزيل كوم Kizil kum التي تجاور اسفل نهر سيحون (oxus) وتعزل المناطق المأهولة عن بعضها وتجعلها مزقا لا تواصل بينها .

وطبيعي ان هذا الاختلاف في البيئة الجغرافية سيؤدي الى قيام بنى اجتماعية وسياسية متباينة . ففي المدن الكبرى التي قامت في الواحات تمتعت الدولة بسلطان كبير ، اذ سكنها العرب الفاتحون وسيطروا على الحياة العامة . وخير مثال على هذا النوع من المدن : مرو ، وبلخ وهرات ونيسابور وسمرقند . وقد ادت السيطرة العربية على هذه المدن الى ضعف سلطان الحكام الايرانيين المحليين ، واضطرارهم للتخلي عن هذا السلطان الى العرب الوافدين . ولا بد من الملاحظة في هذا المجال ان الطبقة العليا من السكان الايرانيين المحليين حافظت في ظل السيادة العربية على شيء كثير من ثروتها ومكانتها الاجتماعية البارزة . وكان بعضهم يعيش في قلاع حصينة ، ولا سيما في منطقة بخارى ، التي يذكر احد المؤرخين (١) انها كانت تضم سبعمئة قلعة لوجهاء ايرانيين يتمتعون بالسلطان والنفوذ .

اما الحال في المناطق الجبلية فكان مختلفا . اذ ان الطبيعة الجغرافية لهذه المناطق سمحت باستمرار وجود بقايا النظام القديم وبعض رجالاته ، في حين اختفى هذا النظام كليا من المناطق السهلية . ففي ممالك الوديان الصغيرة في اعالي نهر سيحون ، ك : اشروسنة ، التي تقع في الجبال التي تطل على وادي فرغانة ، والاجزاء النائية من بادغيس ، استمرت بعض الاسر الحاكمة ، كاسرة الافشين واجداد الطاهريين ، في الحفاظ على سلطتها ومكانتها في المناطق التي تقيم فيها ، ولم يكن للعرب فيها الا بعض مظاهر السيادة الشكلية . ويصح الامر نفسه على خوارزم . التي استطاعت الحفاظ على استقلالها عن النفوذ العربي على الرغم من كونها منطقة واحات ، ولم تتسرب اليها الا قلة قليلة من العرب . وكان اقتصاد غالبية هذه المناطق اقتصادا رعويا فقيرا . ويتضح فقر هذه المناطق . اذا ما قورن بمدن السهول الغنية ، مما تورده لنا المصادر حول عائدات الضرائب التي كانت تجبى من هذه وتلك ، ففي حين كان مجموع الضرائب التي تجبى من هرات (١٥٩٠٠٠) درهم . ومن نيسابور (١٠٨٠٠٠) درهم ، كانت ضرائب اشروسنة لا تتجاوز ال (٥٠٠٠) درهم ، وضرائب صغنيان (Saghaniyan) (٨٠٠٠) درهم ،

أما بميان فكانت ضرائبها لا تتجاوز (٥٠٠٠) درهم (٢) . ولكن هذه المناطق على فقرها كانت مهمة بالنسبة للخلافة ، لأنها كانت مصدرا مهما لتمويل جيش الخلافة بالرجال ، على الرغم مما كان يحمله هؤلاء الرجال من حقد وكراهية للدولة العباسية وحرص على استقلال بلادهم عنها ، مما جعلهم في كثير من الأحيان مصدر خطر على سيادة الدولة .

لقد لعب حكام خراسان دورا هاما في تاريخ الدولة العباسية في الدور الاول من ادوار حياتها . وعلى الرغم من أن الجغرافيين العرب يقدمون لنا قوائم طويلة بأسماء هؤلاء الحكام والقبائل (شاه ، اخشيد ، خاقان ... الخ) ، فإنهم يقلون في الحديث عن منجزاتهم والاحداث التي جرت في زمنهم . ولعل افضل وصف لآعمال وحياة حاكم من حكام هذه الامارات يمكن أن يستخلص من وصف محاكمة الافشين ، حاكم اشروسنة ، الذي كان من القواد البارزين في بلاط المعتصم ، والذي اتهم بالعصيان زمن هذا الخليفة ، وبالارتداد عن الاسلام ، الامر الذي يستوجب انزال عقوبة القتل اذا ثبت عليه مثل هذه التهمة . كما كان من بين التهم التي وجهت للافشين قيامه بأعمال وممارسات مخالفة للاسلام ، منها انزاله العقوبات ببعض الاشخاص لانهم كانوا يقومون بالدعوة للاسلام ويحاولون نشره بين السكان المحليين في امارته ، وأنه عقد اتفاقا مع ملوك الصفد يعمل بموجبه معهم على منع انتشار الاسلام في تلك الاصقاع ، واحتفظ ببعض الكتب الدينية الوثنية التي كانت متداولة بين السكان المحليين قبل الفتح الاسلامي لبلادهم ودخولهم في الاسلام ، وأنه كان يطلب من اتباعه أن يعتبروه الها وان يخاطبوه بهذه الصفة .

ويبدو من هذه المعلومات التي نستقيها من اخبار محاكمة الافشين حول السياسة التي اتبعها في ادارة مقاطعته ، وما وجه اليه من تهم توضح ممارساته المعادية للاسلام ومحاولته الوقوف في وجه انتشار هذا الدين ، أن الافشين ، وقد يكون العديد من حكام مقاطعات خراسان سواء ، كانوا يجهدون لان يعطوا حكمهم صفة دينية مستوحاة من الاديان المحلية السابقة للاسلام ، وذلك كجزء من محاولاتهم للانفصال عن جسد الخلافة في بغداد ، والاستقلال بما تحت ايديهم من ارض . وتذكر المصادر القابلية عديدة لهؤلاء الحكام ، ولكن اللقب الاكثر شيوعا هو لقب « دهقان » ، و سنعتمد هذا اللقب في دراستنا هذه .

وطبيعي ان ينجم عن الانقسامات الاجتماعية والجغرافية صراعات سياسية ، وهذه الصراعات هي التي أدت بالنهاية الى قيام الثورة العباسية والحرب الاهلية . ومما يؤسف له أننا لا نملك الكثير من المعلومات حول الحياة السياسية في خراسان في

هذه الفترة ، اذ لم يصل اليها اي من التواريخ المحلية التي عالجت أحداث الدور العباسي الاول في هذه المقاطعة ، ولا بد للباحث من ان يتسقط المعلومات والاخبار مما يتوافر له من مصادر متأخرة ، وغالباً ما تكون هذه المعلومات متضاربة ومشوشة ولا ترسم الصورة الحقيقية الواضحة لأحداث الفترة التي هي موضوع بحثنا . ولهذا فان جل ما نعرفه عن هذه الفترة يعتمد على الظن والتقدير والتخمين ، ولكن لا بد لنا من ان نبذل كل جهد مستطاع لاستخدام هذه المعلومات ، على قلتها ، وتوظيفها في محاولتنا لتقصي أخبار هذه المقاطعة ودراستها دراسة معمقة ، لما كان لخراسان من دور رئيسي في حياة خلافة بني العباس في الدور الاول من ادوار حياتها .

كانت اهم المشكلات التي تواجه الخلفاء في هذا الاقليم مشكلات ثلاث ، هي :
١ - مشكلة اختيار الولاة ونوعية الصلاحيات التي يمنحونها ، ٢ - مشكلة الثورات المحلية والعلاقات مع الدهاقين ، ٣ - مشكلة الحدود الشرقية . وواضح ان هذه المشكلات الثلاث مرتبطة بعضها ببعض الاخر ، وسنحاول فيما يلي دراسة كل منها دراسة مستقلة .

ولعل اول ما يجب ان نشير اليه في هذا المجال ان مساحة ولاية خراسان كانت تختلف من فترة الى أخرى . ففي زمن أبي مسلم الخراساني كان والي خراسان يحكم غالبية ايران ، بما في ذلك منطقة فارس (Fars) . ولا تدخل في ولايته همذان أو أذربيجان أو السند . وبعد مقتل أبي مسلم تقلصت مساحة الولاية الى حد كبير ، ولكنها ظلت تمتد من مدينة الري الى أقصى الحدود الشمالية الشرقية . وكان حكام المقاطعات التي تقع وراء نهر سيحون (OXUS) يعتبرون اتباعاً لولاة خراسان . أما سستان (Sistan) فكان امراً غير ثابت . ففي زمن أبي مسلم كان حكام سستان من اتباعه وهو الذي يعينهم . ولكن حين آل الامر الى معن بن زائدة عام ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ، فقد كان الخليفة هو الذي يعين حكام سستان (٢) . ومنذ ان آل الامر الى الخليفة المهدي ، عاد امر تعيين حكام سستان الى والي خراسان الذي كان يعتبر المسؤول عن هذه المقاطعة . وكان مركز الحكومة ، حتى قيام الحرب الأهلية ، في مدينة مرو ، وذلك فيما عدا فترة السنوات العشر حين كان المهدي يحكم من الري ، وذلك بين ١٤١ - ١٥١ هـ / ٧٥٨ - ٧٦٨ م . ويبدو ان المهدي كان يتولى المسؤولية كاملة في مقاطعات المشرق ، وكان يولي خراسان من يدبر شؤونها نيابة عنه .

ومنذ مقتل أبي مسلم ، وحتى آل امر الخلافة الى هارون الرشيد ، كانت العادة ان يولي خراسان ولاه من الاسر العربية الخراسانية التي كانت معروفة بولائها

للعباسيين منذ قيام دعوتهم وثورتهم ، ، وبالتالي كانت تربطهم بالبيت العباسي روابط وشيجة . ويمكن هنا أن نطرح قضية أحد ولايات خراسان المشهورين ، ألا وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، فقد كانت علاقة عبد الجبار بالعباسيين قديمة وتعود الى الفترة التي سبقت ثورتهم . وحين آل الامر اليهم سماه الخليفة العباسي الاول أبو العباس السفاح صاحباً بشرطته ، واستمر كذلك زمن خليفته المنصور . وبسبب هذا الماضي الذي لا تشوبه أية شائبة شعر المنصور أنه خير من يولى على خراسان عام ١٠٤ هـ . ولم تمض سنة على تعيينه حتى أعلن العصيان على الخليفة . ولا نعرف بدقة السبب الذي دعاه لاتخاذ هذا الموقف ، والذي يبدو أنه قرر ان يكون على رأس الجماعة التي كانت تريد زعزعة السلطان العباسي في خراسان ، واتخذ من قضية قديمة ، كانت تثار منذ أيام بني أمية ، ذريعة لهذه الثورة . وتتلخص هذه القضية بأن بعض الزعامات المحلية كانت ترى أن الضرائب التي تجبى من خراسان يجب أن تصرف في خراسان لا أن ترسل الى العاصمة . فتذرع عبد الجبار بهذا الامر ، وأضاف عليه ذريعة أخرى حين طلب منه الخليفة المنصور أن يرسل بعضاً من أفراد جيشه لينضموا للجيش العباسي في معاركه مع الامبراطورية البيزنطية ، فرفض طلب الخليفة مدعياً بأن الترك المقيمين قرب الحدود الشرقية لولايتهم يقومون بتحركات مريبة ، وأنه لذلك لا يستطيع أن يلبي طلب الخليفة . وأراد الخليفة أن يتحقق من صدق دعواه ، فعرض عليه أن يرسل له جيشاً يساعده ضد الترك ، ولكن عبد الجبار رفض عرض الخليفة بحجة أن الموسم في خراسان سيء وأنه لا يستطيع أن يتكفل باطعام الجيش القادم من العاصمة ، وطبيعي أن كل هذا لم يكن يرقى إلى حد إعلان العصيان ، ولكنه أثار في ذهن الخليفة مخاوف وشكوك جعلته يعمم التفكير في أمر هذه الولاية . فخراسان بالنسبة للمنصور ، لم تكن سوى ولاية من ولايات الدولة لا تختلف عن سواها : ضرائبها تعود الى بيت مال العاصمة ، وجيشها يشكل جزءاً من جيش الخلافة يتحرك بأمر الخليفة وينفذ كل ما يطلب منه من مهام . أما عبد الجبار ، فكان يرى في خراسان ، على ما يبدو ، مقاطعة متميزة لا بد وأن تعامل معاملة خاصة ، وأن يكون لها ما يشبه الاستقلال (٤) .

ودون أن ندخل في تفاصيل ثورة الأزدي ، يمكننا القول أن المنصور سحق هذا العصيان بعد أن كلفه ذلك دماء كثيرة ، الامر الذي حدا به لأن يفكر في أسلوب جديد في إدارة شؤون خراسان . لذا أرسل ابنه المهدي الى الري وسلمه مسؤولية إدارة الجزء الشرقي من دولته (٥) . وقام المهدي من جانبه بتعيين ممثلين له في مرو من بين القادة العسكريين العرب الخراسانيين . وقد كان لهذا الاجراء محاسن عديدة أهمها أن سلطة الدولة لم تعد ممثلة بالخليفة القابع بعيداً في بغداد ، بل بابنه المقيم في الري . كما أن خراسان حصلت على ما يمكن تسميته بـ « الوضع الخاص » ، دون أن يهدد

هذا الوضع وحدة الدولة ككل . وقد سارت الامور في خراسان بعد تعيين المهدي على ما يرام ، اذ ان وجوده في خراسان اكسبه خبرة في الحكم من جهة ، وجعله على صلة وثيقة بعامة الناس هناك من جهة اخرى . على ان هذا التدبير لم يتح له ان يعيش طويلا ، اذ انه بعد عودة المهدي الى بغداد ليتسلم الخلافة بعد وفاة أبيه ، سمي حميد بن قحطبة ، واليا على خراسان . وكان حميد هذا ، سليل احدي أعرق الاسر العربية ، وعادت خراسان ولاية كبقية الولايات تتبع الخليفة المقيم بعيدا في بغداد ، ويحكمها الجند العرب الخراسانيون . لكن لا حميد بن قحطبة ، ولا من تلاه من السلافة ، راودتهم احلام الانفصال ، ولم نعد نسمع عن ثورات يقوم بها حكام المقاطعات .

واستمر حال خراسان على هذا المنوال حتى العام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، حين قرر الخليفة هارون الرشيد تعيين الفضل بن يحيى البرمكي واليا عليها . قال برمك ينتمون الى طبقة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي كان ينتمي اليها اسلافهم في الولاية : فهم ايرانيون من جهة ، ومن فئة الدهاقين من جهة اخرى . وقد قرر الفضل بن يحيى خلال فترة ولايته القصيرة ان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع جماعة الدهاقين . ويتضح ذلك من الحملات العسكرية التي وجهها ضد بعض المقاطعات . فقد هاجم كابول وانضم اليه في هذا الهجوم أمراء ودهاقنة طخارستان ، ومن بينهم حاكم باميان الذي اعاده الفضل الى عرشه . كما قام بحملة اخرى ضد اشروسنة وتوصل الى اتفاق مع ملكها الذي كان يرفض من قبل مقابلة اي وال مسلم . ورأى الفضل ان يقوم في ولايته بأعمال تذكر له فيما بعد ، فقام باشادة عدد من الابنية وبنى عددا من القلاع والحصون على الحدود ، وقدم المساعدات لمسجد بخارى . وبالإضافة الى ذلك جند ما يقارب الخمسين ألف جندي من رجال خراسان ، سمّاهم بـ « العباسية » ، أرسل منهم عشرين ألفا الى بغداد ، وأبقى ثلاثين ألفا في خراسان (١) . وأغلب الظن ان غالبية هؤلاء الجنود كانوا من بين فئة الدهاقين واتباعهم . ويذهب البعض الى القول بأن البرامكة ارادوا ان يجعلوا من الجند الذين ارسلوهم الى بغداد جيشا خاصا بهم يحميهم ويأمر بأمرهم ، ولا سيما وانهم كانوا في هذه الفترة في أوج قوتهم ولا بد لهم من جند يكون ولاؤهم خالصا لهم . كما انهم ارادوا ان يجعلوا منهم السد الذي يقف في وجه الفئة الاخرى من الجند ، وهي الفئة التي كانت تعرف باسم « الخراسانية » الذين كانوا معروفين بعدائهم لآل برمك واشياعهم . ويبدو ان من تبقى في خراسان من الجند الذين جندهم الفضل بن يحيى قد سرحوا زمن ولاية علي بن عيسى على هذا الاقليم ، كما ان بعضهم انضم الى جيش رافع بن الليث والمأمون .

وقد أعقب ترك الفضل لولاية خراسان ومغادرته اياها في العام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ،

فترة من القلق والفوضى استمرت عاما . وخلفه في الولاية بعد ذلك علي بن عيسى ابن ماهان ، الذي كان من خصوم البرامكة والذي كان يعيش بعيدا عن أجواء السلطة منذ وفاة الخليفة الهادي . ويعتبر تعيين علي بن عيسى واليا على خراسان انقلابا كاملا في السياسة الداخلية للدولة في هذه الفترة . وعلى الرغم من أننا لا نعرف تفاصيل الوضع الذي أدى الى هذا الانقلاب في السياسة الداخلية للدولة ، إلا أنه من الجائز أن يكون للضغط الذي مارسه الجند الخراسانية دور كبير في هذا التغيير ، لا سيما وأن الخراسانية قد ساءهم ازدياد نفوذ البرامكة في خراسان ، وأن الخليفة الرشيد كان يشعر شعورا مماثلا تجاه هذه الاسرة ويعد العدة لنكبتها المشهورة .

وبصعب على المؤرخ أن يقدم تقويما دقيقا لفترة ولاية علي بن عيسى على خراسان . فعلى في العديد من المصادر شخص ذو مطامح انانية وصفات تجعله أقرب الى الطاغية (٧) ، وهو كذلك أيضا بالنسبة لباحثين محدثين من أمثال بارتولد ومتحدة ، اللذين يقللان هذا الوصف (٨) . على أنه لا بد لنا من أن نذكر أن المصادر التي نعتمدها في دراستنا كتبت كلها بعد الحرب الأهلية التي قتل فيها علي وشهر به وبسياسته . ويضاف الى ذلك أيضا أن هذه الصورة التي تعرضها المصادر عن علي تكونت في زمن كانت فيه خراسان تحكم من قبل أسر الدهاقين من أمثال الطاهريين والسامانيين وسواهم ، ممن لا نتوقع منهم انصافا لشخص كعلي بن عيسى بن ماهان الذي جاء بعد البرامكة .

وأيضا كانت حقيقة علي بن عيسى وصفاته ، فانه حين سمي واليا على خراسان سار على سياسة تتلخص في مهاجمة سلطة الدهاقين ومكانتهم المتميزة . ويحدثنا الطبري عما قام به من أعمال للنيل من مكانة وجهاء خراسان واشرافها ، كما أن انجشباري يذكر أنه قتل العديد من وجوه هذه الولاية وملوكها . ويقيم الجهشباري مقارنة بين سياسة الفضل بن يحيى التي كانت تقوم على الاعتماد على الزعماء المحليين ، وسياسة علي بن عيسى الذي سار بالاتجاه المعاكس ، وصب جام غضبه على هذه الفئة المتنفذة وحاول حرمانها مما كان لها من امتيازات وجباية ما كان يتوجب عليها من ضرائب ، الأمر الذي أدى الى ازدياد واردات خزانة الدولة عما كانت عليه في السابق . ويقدم لنا الطبري مثالين عن شخصيتين من شخصيات خراسان هدهما علي بن عيسى بالموت لتأمرهما عليه : أحدهما هو الحسين بن مصعب حاكم بشتنج Bushang الذي هرب من تهديد علي والتجأ الى الخليفة الرشيد ، الذي كان في مكة ، فمنحه الخليفة حمايته . أما الثاني فهو هشام بن قرخسرو Farkhusrow الذي كان من كبار ملاك الأرض في مرو ، والذي لم يتخلص من سيف علي بن عيسى إلا بتظاهره بالاصابة بالشلل (٩) (By feigning poralysis) ولهذين المثالين اللذين

يقدمهما لنا الطبري أهمية فائقة ولا سيما فيما سيلي من أحداث في هذه الولاية إذ أن طاهر بن الحسين بن مصعب ، وعلي بن هشام بن فرخسرو كانا من أوائل الذين انضموا للمأمون وساندوه في صراعه مع أخيه الأمين أبان ما يعرف بالحرب الأهلية .

وقد استطاع علي بن عيسى ، بما كان له من تأييد ودعم في الجيش المتواجد في خراسان ، أن يتغلب على الضغوط التي كان يتعرض لها من بغداد والتي كانت تهدف إلى إقالته من منصبه . كما أنه استطاع بهذا الدعم أن يواجه المعارضة التي قامت ضده في خراسان . وقد حاول البرامكة ، ما وسعته المحاولة ، أن يقتنعوا الرشيد بإقصائه عن منصبه ففشلوا (١٠) . وقد لجأ علي إلى اغداق الهدايا على الخليفة ، والتقى به مرتين (في العام ١٨٣ هـ والعام ١٨٩ هـ) ليبرر له مواقفه ويؤكد ولاءه (١١) . ولم تفلح كل الضغوط التي مورست على الخليفة في بغداد لعزله ، وإنما جاء عزله نتيجة للاضطرابات التي قامت في خراسان نفسها ، إذ أن الرشيد على ما يبدو كان مستعدا للتفاضي عن كل ما يقال عن ممارسات علي في خراسان ومعاملته لوجهائها لايمانه بولائه له . ولكن حين قامت في العام ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م الثورة العارمة في سمرقند ، والتي قادها رافع بن الليث ، حفيد نصر بن سيار آخر ولاة بني أمية على خراسان ، اضطر الرشيد لأن يرضخ للأمر الواقع ويبعد علياً عن هذه الولاية . وقد يبدو غريباً أن الثورة العباسية لم تضع حداً لنفوذ أسرة نصر بن سيار ومكانتها، إذ أن الليث بن نصر بن سيار وقف إلى جانب السلطة العباسية لقمع ثورة المقتنع الخراساني خلال حكم المهدي ، وكان لابنه رافع قصر منيف في سمرقند (١٢) .

وطبيعي أن شخصية من نوع رافع ، بنفوذها وثروتها ، ستكون موضع سخط وشكوك علي بن عيسى ، ولهذا وفي العام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م حاول سجنه بتهمة الزنا . ولكن رافعاً تحدى الوالي . وساندته في عصيانه أهل سمرقند وأعلنوا ولائهم له (١٣) . وماكاد رافع يعلن ثورته حتى استقطبت هذه الثورة ولاء جميع المناوئين للسلطة العباسية، وأخذت جماعات المناوئين لعلي بن عيسى في جميع مناطق ما وراء النهر تتقاطر على رافع وتنضم إليه . وكان بين الذين انضموا إليه بعض الدهاقين كحاكم الشاش وعنجيف بن عنبسة وسواهم ممن لعب دوراً بارزاً في ثورة رافع (١٤) . وقد أدى هذا التأييد العارم الذي لقيته الثورة إلى نجاحها ، ولم تفلح محاولات علي بن عيسى في قمعها . وقتل الثوار ابناً لعلي ، مما جعل الرشيد يشعر أن لا مكان للسلام والهدوء في خراسان ما دام علي فيها، ولكن لا بد من إيجاد الوسيلة لإبعاده عنها دونما سفك دماء . لهذا لجأ الرشيد إلى إخلاء معاونيه وقادته ، هرثمة بن أعين ، فأرسله إلى خراسان بحجة مساعدة علي على قمع ثورة رافع . قام هرثمة بعد وصوله إلى خراسان باتصالات مع زعماء المعارضة ، من أمثال طاهر بن الحسين وسواه . بقصد

طمأنتهم واقناعهم بالتوقف عن تأييد رافع . وحين شعر بالاطمئنان الى موقف زعماء المعارضة الداخلية ، التفت الى علي وواجهه بكتاب من الخليفة بعزله وتوليته عوضا عنه . ثم ما لبث ان قبض عليه وأرسله الى بغداد (١٥) .

ولم يؤد عزل علي الى اخماد ثورة خراسان على الفور ، وكان لا بد لهرثمة من ان يقنع العديد من أتباع رافع بالتخلي عنه . كما ساعد على ذلك ايضا انضمام عَجِيْف بن عَنبَسَة واهل الشاش وفرغانة الى جانب السلطة العباسية . واستطاع هرثمة ان ينقل الحرب الى سمرقند ، وهكذا لم يعد رافع الخطر الداهم الذي يهدد خراسان بكاملها (١٦) . على ان هذا كله لم ينه حالة الاضطراب التي كانت تعيشها هذه المقاطعة . اذ ان رافعا لم يقض عليه قضاء نهائيا ، كما ظل مستقبل خراسان السياسي غير واضح او محدد ، ولا سيما على المدى الطويل . وكان اهم ما يشغل البال هو : هل لا بد لحكم خراسان من قائد عسكري كعلي بن عيسى ، أم أنه من الافضل ان تحكم برجال من نوعية البرامكة ، أو هرثمة بن أعين نفسه الذي كانت له صلات وثيقة مع الارستقراطية المحلية المتمثلة بالدهاقين ؟! ومن اجل هذه المعضلة ، فقد قرر هارون الرشيد عمل ما لم يعمله اسلافه ، من الخلفاء الامويين أو العباسيين ، الا وهو زيارة هذه الولاية بنفسه وتقييم الامور على الطبيعة . ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق اليها ، وادت وفاته بطبيعة الحال الى ترك الامور دونما حل .

اما المشكلة الكبرى الثانية التي واجهت السلطة العباسية في خراسان فكانت الثورات والتحركات التي كانت تقوم بين بعض الجماعات غير العربية التي تقطن هذه الولاية . وكان بعض هذه الثورات يأخذ طابعا دينيا ، كأن يدعي زعيمها النبوة مثلا . على أنه لا بد لنا من ان نذكر ان العديد من افراد هذه الجماعات كانوا يعتقدون ان لحكامهم صفات قدسية ، كما توضح لنا احداث ومجريات محاكمة الافشين التي جرت زمن الخليفة المعتصم . فقد كان الافشين مسلما ، ولا يوجد في مصادرها ما يجعلنا نشك بأنه كانت له تطلعات لزعامة دينية . وعلى الرغم من ذلك ، فان جماعته من اهل اشروسنة كانوا ينظرون اليه نظرة تقديس وصلت الى حد تأليهه (١٧) . ولا بد من التنبيه هنا الى انه الى جانب الاطر الدينية التي كانت تنتظم بعض هذه الثورات ، فانه لا بد لنا من اعتبارها مظهرا من مظاهر الاحتجاج على ما حاوله الحكم العربي من ادخال تغييرات على طرق الحياة التقليدية ، وما اعتبروه اعتداء على حقهم في تسيير امورهم على النحو الذي اعتادوه . كما لا بد من التوضيح ان غالبية هذه الحركات لم تكن حركات انفصالية تود الاستقلال عن السلطان العباسي ، بل كانت في غالبيتها ردة فعل محلية على محاولات مد السلطان السياسي والاجتماعي والديني للدولة الى مناطق لم يكن قد وصلها هذا السلطان في السابق .

أولى هذه الثورات كانت ثورة استاذسيس سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م . فقد كان استاذسيس هذا حاكما مستقلا في ولاية باذغيس الجبلية البعيدة ، منذ عام ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م ، أو ربما قبل ذلك بكثير . وتذكر بعض المصادر أنه ادعى النبوة ، كما تذكر أخرى أنه كان من اتباع المصلح الزردشتي بها قريد Bihafarid . ويصف الطبري الجيش الذي أرسل لقمع ثورة هذا المتمرّد بأنه جيش « مسلم » مما يوحي بأن استاذسيس لم يكن كذلك في نظر الطبري . أما المؤرخ المسيحي اغابوس ، فيدعي أن هذه الثورة كانت احتجاجا على محاولات السلطة العربية السيطرة على مناجم الفضة الموجودة في المنطقة ، والتي كانت تدر خيرات كثيرة عليها (١٨) .

وقد وقع الصدام بين جماعة استاذسيس والعرب القاطنين في مَرُورُوذ التي كانت اقرب منطقة يسكنها عرب، وانتهت هذه الصدامات بانتصار جماعة الثوار . وقد اضطر الخليفة المنصور اثر ذلك أن يرسل تعزيزات من سورية وخراسان بقيادة خازم بن خزيمه ، فتحوّلت هزيمة العرب الى نصر ، واستطاعت السلطة الحاكمة أن تفرض سيادتها على المنطقة .

ومن هذا القبيل أيضا موقعة كبيرة جرت على الطريق بين نيسابور وهرات ، اجبرت فيها القوات العباسية المتمردين على الهرب عائدين الى مناطقهم الجبلية التي انحدروا منها . ويمكن القول أن الدولة في معالجتها لهذا النوع من الاضطرابات كانت تلجأ الى الحكمة والمصالحة ، الى جانب لجوئها للقوة والقمع . فمثلا بعد أن هزمت الجيوش العباسية استاذسيس واستسلم اتباعه لها ، عفت عنهم وسمحت لثلاثين ألف رجل منهم بالعودة الى بلادهم ومنحتهم بعض الهدايا والاعطيات . ويذكر اليعقوبي أن استاذسيس أرسل الى بغداد حيث أوقعت به عقوبة القتل ، ولكننا لا نجد في المصادر الأخرى ما يؤكد هذا الزعم . حتى أن بعض الروايات تذكر أن استاذسيس هو والد مراجل التي تزوجها الرشيد وانجبت له ابنه الخليفة المأمون (١٩) . وإذا صح هذا الخبر فيمكن تأويله على أنه محاولة من الرشيد لائتلاف أهل باذغيس . كما أنه يفسر لنا السر في العلاقة الطيبة التي كانت تربط المأمون بالطبقة الارستقراطية في خراسان .

وفي العام ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م قامت ثورة يوسف البرم التي لانعرف عنها الكثير، والتي يبدو أن مركزها كان بخارى . ويعتبرها المؤرخ اليعقوبي حركة احياء ديني . والبرم من أصل غير عربي ، وقد لاقت حركته تأييد الصفد وفرغانة ، ولكن الثورة لم يكتب لها أن تعيش طويلا ، فقد استطاع القائد يزيد بن مزيد أن يهزم البرم وأن يقوده الى بغداد حيث لقي حتفه . وعلى الرغم من أن المصادر لا تزودنا بتفاصيل

وافية عن هذه الثورة ، الا أننا نستطيع القول انها لم ترفع شعارات معادية للاسلام ، كما كانت الحال بالنسبة للعديد من الثورات التي قامت في هذه الولاية ، في هذه المرحلة من تاريخها (٢٠) .

ومن هذه الزمرة من الاضطرابات يمكن ان نذكر ثورة ثانية قامت في منطقة تختلف كلياً عن المنطقة التي نشبت فيها ثورة البرم ، الا وهي الثورة التي قامت في جبال كَش بخارى . فقد كانت كَش في الدور العباسي الاول مملكة مستقلة ، وكان زعيم الثورة التي اشتعلت على ارضها شخصاً غريباً عنها تسميه بعض المصادر (هاشم) ، وتسميه أخرى (حكيم) ، وكان يلقب بـ « المقنع » لأنه كان يستتر وجهه بقناع ، ولا يرفع هذا القناع حتى امام أتباعه . ويقال أن والد المقنع جاء من بلخ ، وأن المقنع كان يعمل في خدمة أبي مسلم الخراساني ، كما كان على صلة وثيقة بعبد الجبار الأزدي . وحين فشلت ثورته اقتيد الى بغداد ، حيث بقي لبعض الوقت ، وأطلق سراحه بعدها . ولكنه لم يكتف بما قام به ، اذ مالبت بعد اطلاق سراحه ان عاد الى مرو وادعى النبوة . ويبدو أن أهل مرو لم يتأثروا كثيراً بأفكاره التي كانت خليطاً من آراء بعض الشيعة الفلاة ومن الافكار المعادية للاسلام ، الأمر الذي لا يجد قبولا كبيراً في بلد كمرو التي كانت من أهم مراكز استيطان العرب في خراسان . لهذا لجأ المقنع الى ارسال دعائه الى بعض المناطق الإيرانية كالصفد وكَش وبعض قرى بخارى ، حيث لقيت دعوته تجاوباً أكبر ، ولهذا أيضاً ترك المقنع نفسه مرو وأقام في قلعة بناها في جبال كَش ، في موقع لا يسكنه عرب ولا يعرف انهم ترددوا اليه كثيراً من قبل (٢١) .

وقعت أولى أحداث ثورة المقنع في مرحلتها الثانية هذه في بخارى ، اذ ان ابن أمير بخارى (٢٢) كان من الذين اجتذبتهم دعوة المقنع وأفكاره ، واعتبر ان هذه الحركة قد تكون السبيل الذي يوفر له التخلص من الحكم العربي . ففي عام ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م قامت جماعة من أتباع المقنع بذبح المسلمين في إحدى قرى واحة بخارى . ولكن الحاكم حسين بن معاذ منع الثوار من الاستيلاء على المدينة ، وصمد في وجههم لمدة أربعة أشهر وصلت بعدها امدادات وتعزيزات من سمرقند . وهكذا نجت بخارى من شرور جماعة المقنع ، ولكن سمرقند نفسها مالبت ان وقعت فريسة الخطر ، اذ ان المقنع وحليفه خاقان أتراك خزلوق قاموا بالهجوم عليها ، ووقعت سمرقند فريسة سهلة بيد المقنع . وكان هذا الحادث من أشد ما تعرض له عرب خراسان سوءاً ، وكادت معنويات بعض الزعماء العرب المحليين ان تنهار ، لولا ان تغييراً في القيادة أجري في العام ١٦١ هـ / ٧٧٨ ، وعين معاذ بن مسلم حاكماً على خراسان . قام معاذ باتخاذ اجراءات صارمة ، واستطاع ان يطهر الطرق من العصابات

وقطاع الطرق الاتراك الذين كانوا ينتشرون فيها . كما استطاع بمساعدة سعيد الحرشي ، نائب حاكم هرات ، ان يشن هجوما على قلعة كش نفسها . وكان الفضل لسعيد هذا في اجبار المقنع على الانتحار في معقله الحصين في الجبال وذلك في العام ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م .

وهكذا انتهت هذه الثورة التي اقلقت الدولة لفترة من الزمن . وعلى الرغم من اننا لا نستطيع الجزم فيما اذا كانت كش قد عادت للسيادة العربية ام لا ، فانه يمكن القول ان الحال في المنطقة عموما عادت الى سابق عهدها ، وتوطد السلطان العربي في المدن والسهول المأهولة بالسكان . اما ابن امير بخارى ، فقد قتل في مقره بعد ثلاث سنوات من اخماد الثورة ، بتدبير من الادارة العربية . ويبدو ان ذكرى المقنع ظلت حية لبعض الوقت بعد موته ، واعتبره بعض الغلاة من اتباعه نبيا حقيقيا .

وتعتبر ثورة المقنع من اخطر الثورات التي قامت في خراسان ضد الحكم العباسي في هذا الدور الاول ، وتلتها بعض التحركات والانفاضات التي كانت تعبر عن البرم بالحكم العربي . وقد ازدادت حدة هذه التحركات بعد العام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م حين عين علي بن عيسى حاكما على خراسان . ففي نسا (Nasa) ، وهي موقع في الشمال الغربي من خراسان ، قامت ثورة ابو الخصيب التي استمرت بين مد وجزر لمدة اربع سنوات ، وانتهت بمقتل ابي الخصيب في العام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م (٢٢) . كما ان سيستان خرجت نهائيا من السيادة العربية ، اذ انه منذ العام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م كانت هذه المقاطعة تحت سيطرة حمزة بن الازرق - وهو زعيم خارجي من اصل فارسي - الذي استطاع ان يمد سيطرته على عاصمة المقاطعة التي كانت تعرف باسم زرتيج ، وتمكن من منع علي بن عيسى والي خراسان من تعيين حاكم لهذه المقاطعة . وقد قام حمزة بغارات وحشية على المناطق الجنوبية من خراسان حول هرات وباذغيس ، ولم تثمر الجهود المكثفة لردعه عن اية نتيجة (٢٤) .

وعلى الرغم من ان هاتين الثورتين قامتا في الريف ، ولم تصل اي منهما لمد سلطانهما على مدن خراسان ، فانهما اعاقتا عملية جمع الضرائب . واضعفتا من سلطان علي بن عيسى على بعض مناطق ولايته . كما ان هاتين الثورتين تظهرا بوضوح الميول الانفصالية التي ما زالت حية في نفوس بعض سكان المناطق النائية من خراسان ، وان بعض الزعماء المحليين استغلوا كل ذلك لاثارة النقمة ضد السلطان العباسي . وطبيعي ان هذا لا يعني ان ضعفا حقيقيا اصاب سلطان بني العباس في خراسان ، اذ ظلت المناطق الهامة في هذه الولاية تدين بالولاء لهم ولاسيما مناطق الري ، ونيسابور ، ومرو ، وهرات ، وبلخ . وحتى المناطق التي تعرض السلطان العباسي فيها لهزة مؤقتة اثناء ثورة المقنع ، كبخارى وسمرقند ، فان القضاء على

هذا الثائر جاء ليؤكد من جديد أن الدولة قادرة على كبح جماح الخارجين عليها وبالتالي عادت لتنضوي تحت لواء خلافة بغداد .

وهكذا ، وعلى الرغم من ضعف نفوذ الدولة في بعض المناطق النائية ، فإن السلطة العباسية كانت تنظر بارتياح الى مجمل الأوضاع في خراسان .

ولعل أعقد المشاكل التي واجهتها خلافة بغداد هو التحديد الدقيق لحدودها الشمالية الشرقية في خراسان . ففي حالة الحدود مع الامبراطورية البيزنطية مثلا ، كانت هناك منطقة تخضع للنفوذ الاسلامي ، واخرى تخضع للنفوذ المسيحي ، وبينهما منطقة فاصلة اشبه بما يعرف اليوم بالمنطقة العازلة . أما في خراسان فقد كانت هناك بعض المناطق النائية ، كبلخ وسمرقند ، وتخضع لسلطان الدولة بشكل كامل ، في حين أن مناطق اخرى ، كبادغيس وكش ، قريبة من مركز الخلافة ، وليس للدولة سلطان عليها . وبالإضافة الى ذلك كانت هناك قبائل تركية ، ما تزال على البداوة ، تقيم في السهوب الواقعة بين مرو وبخارى ، وليس لبغداد أي سلطان (٢٥) عليها ، وكانت في كثير من الاحيان تقوم بقطع الطريق بين هاتين المدينتين الهامتين . كما انه ليس من السهل تحديد المقاطعات التي كانت تخضع للخلافة ، أو التي لا تخضع لها . فكابول مثلا ، هي بالنسبة للجغرافي الشهير ابن خرداذبة من مقاطعات خراسان ، في حين كانت كابول ، في واقع الحال ، تحكم من قبل أمراء وملوك محليين ، وكل صلتها بالخلافة أنها كانت تدفع الجزية لبيت المال في بغداد في بعض الاحيان .

هكذا يمكن القول أن الخليفة العباسي كان بالنسبة لبعض المقاطعات الحاكم الاسمي ، وأن الحكم الفعلي كان للأمراء المحليين ، مما يجعل سلطان الدولة الحقيقي مقتصرًا على مساحات أصغر من المساحات التي وصل اليها الفاتحون المسلمون في عصر الفتوح وما تلاه باتجاه الشمال الشرقي .

وبين الفينة والفينة كان حكام خراسان يرسلون الحملات الى الشرق ، بقصد تثبيت عهد الولاء ، التي كان يقطعها الأمراء المحليون للسلطة العباسية ، كما كانوا يهدفون الى جباية الجزية ممن يتأخر منهم في دفعها . ولم تستطع هذه الحملات ان تضمن للسلطة العباسية السيطرة المطلقة على مناطق الشرق . ففي العام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م قاد حميد بن قحطبة الذي كان واليا على خراسان حملة على كابول (٢٦) . وفي نهاية خلافة المنصور ، أرسل الخليفة مولاه ليث ، ليخضع فرغانة . وقد استطاع الليث أن يهزم ملك فرغانة ويجبره على دفع مبلغ كبير من المال مقابل ضمان أمنه وسلامته (٢٧) . وفي خلافة المهدي ، قام أحد قادته ، أحمد بن أسد ، بهجوم آخر

على فرغانة وأخضع بعض الاراضي للسلطان العباسي ، بما في ذلك حاضرة المقاطعة . ويقدم لنا المؤرخ اليعقوبي لائحة بأسماء الامراء الذين أعلنوا ولاءهم للخليفة ، ومن بينهم ملوك كابول وطبرستان والصغد وطخارستان وبميان وفرغانة وأشروسنة وسستان ، كما يذكر ان الترك وبعض ملوك التبت والسند والصين والهند وسواهم ، كانوا من بين الذين أعلنوا هذا الولاء . وكما ذكرنا آتفا ، فقد قام الفضل بن يحي اثناء ولايته على خراسان بارسال حملة الى كابول . وقد رافق قائد هذه الحملة ملوك ودهاقين طخارستان وملك بميان الذي كان الفضل قد عينه في هذا المنصب قبل ذلك . كما ان الفضل الذي كان يتبع سياسة وفاق ومصالحة مع الحكام المحليين ، أقام علاقات ودية مع ملك أشروسنة (٢٩) .

ويبدو انه حين عزل الفضل من منصبه توقف العمل بهذه السياسة الودية . اذ ان علاقة علي بن عيسى مع الامراء المحليين لم تكن طيبة ، ولكنه لم يقم بحملات ضدهم لان همه الاول كان توطيد الامن في الداخل . ويعود امراء المقاطعات الى الظهور على مسرح الاحداث السياسية في الدولة ، وذلك خلال ثورة رافع بن الليث وفي النزاع بين الامين والمأمون ، الذي وقف فيه هؤلاء الامراء الى جانب المأمون .

وقد وصل التوتر في خراسان اوجه بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد . وخلال النزاع بين الامين والمأمون . اذ ان الامين كان معروفا بصلاته الوثيقة بفئة الابناء وبأهل بغداد ، الامر الذي اتاح الفرصة لدهاقين خراسان ان يكون لهم دور في هذا النزاع . فقد استطاع الفضل بن سهل ان يضمهم الى صف المأمون ، وهكذا سارت جيوش خراسان غربا لتسقط الحكم في بغداد وتشارك في قتل الخليفة الامين .

افريقية

اتخذ الفتح العربي لشمال افريقية ، كما هو معروف ، شكل الفارة السريعة التي لم تؤد في بادئ الامر الى السيطرة العربية الكاملة على الارض الافريقية المفتوحة . وقد حقق هذا الفتح فيما حقق انتهاء الحكم البيزنطي المتمركز في قرطاج ، والذي كانت له السيادة على السهول الساحلية لمدة قرن ونصف ، وذلك منذ ان قام الامبراطور البيزنطي جستنيان بحملته على شمال افريقية ليعيدها للسيادة البيزنطية ، كجزء من مخططة المعروف ، والذي كان يهدف الى استعادة الاراضي التي كانت تخضع للامبراطورية الرومانية وانفصلت عنها بعد ان آل الحكم الى الامبراطورية البيزنطية . وكانت هذه السهول الساحلية تشكل نواة الجزء الذي وقع تحت حكم العرب المسلمين في شمال افريقية ، كما كانت في السابق الجزء الذي سيطرت عليه

الامبراطورية البيزنطية . أما المناطق الجبلية والصحراوية التي تحد بهذه السهول ، فقد ظلت غالبيتها في وضع يمكن تسميته بالحكم الذاتي ، الزعامة فيه للقبائل البربرية المحلية . وكانت هذه القبائل ذات نزعة استقلالية شديدة ، الامر الذي جعلها تتصدى بشراسة لكل محاولة لاختضاعها ، او اجبارها على دفع الضرائب ، كما فعل اقباط مصر مثلاً ، او سكان العراق المحليين ، بعد أن آلت السيادة الى الفاتحين العرب . وقد تبدت مظاهر المقاومة البربرية بالثورات والحروب المحلية ، وبالمعارك الضارية التي قام بها البربر ، وشاركت فيها بعض العناصر الاخرى من بقايا الجماعات النصرانية او اليهودية التي كانت تقيم في افريقية قبل الفتح العربي . وقد آل امر هذه الثورات الى الفشل ، ولعل اشدها ثورة الكاهنة التي استطاع العرب القضاء عليها في العام ٧٨ هـ / ٦٩٧ م .

بعد القضاء على هذه الثورات الطاحنة استطاع العرب مد سلطانهم على هذا الجزء من البر الافريقي ، ونشروا دينهم ، كما جبوا الضرائب واخذوا الاسلاب والاماء ، حتى أن بعض هاته الاماء غدون أمهات لشخصيات بارزة ، من بينهم الخليفة المنصور ، وعبد الرحمن بن معاوية (عبد الرحمن الداخل) اول أمير أموي حكم الاندلس . ولعل أهم صفات هذه الفترة المبكرة من تاريخ الحكم العربي في شمال افريقية هي ضعف هجرة القبائل العربية الى افريقية بقصد الاستقرار فيها ، اذ كانت الحملات العربية الاولى لا تضم أعدادا كبيرة من الجند ، وكانت غالبيتهم تفضل العودة الى المشرق ، او الاستقرار في بعض المناطق الاسبانية الغنية (٢٠) . أما من استقر منهم في افريقية فقد أثر أن يسكن في المدن الجديدة التي أقامها الفاتحون كالقيروان وتونس وبعض الحصون العسكرية المتقدمة . وفي نهاية حكم الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك بدأت الامور تأخذ منحى جديدا ، اذ أن موجة جديدة من المقاومة البربرية اخذت بالظهور ، وكان يقود حركة المقاومة هذه بعض من رجالات الخوارج الذين تسربوا من المشرق . وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بأن الحركة الخارجية التي قامت في المشرق بعد معركة صفين ، ما لبثت ان انقسمت الى فرق متعددة اشهرها الازارقة والصفرية والاباضية . وقد لاقت هذه الحركة مقاومة عنيفة من السلطة الاموية ، واستطاعت خلافة دمشق أن تكيل للخوارج ضربات موجعة ادت الى كسر شوكة الازارقة والصفرية بشكل خاص ، وانتهى الامر بالفرقة الاباضية التي كانت أكثر اعتدالا ، الى قبول نوع من التعايش مع البيت الاموي الحاكم ، وتجمعت غالبيتهم في مدينة البصرة حيث امتعن العديد منهم التجارة ، وغدت لهم اتصالات تجارية مع العديد من بلدان العالم المسلم آنذاك .

وبعد موت الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، تغيرت سياسة الامويين

تجاه الخوارج واشتدوا في طلبهم، الامر الذي اضطر هؤلاء لان يفتشوا عن مراكز جديدة لنشاط دعوتهم بعيدا عن أعين السلطة في الشام والعراق . ولذا توجه دعائهم الى عمان في المشرق ، والى بربر شمال افريقية ، حيث وجدوا تجاوبا كبيرا وترحيبا حارا . ويبدو انه كان بين اباضية البصرة وبربر شمال افريقية علاقات تجارية سهلت مهمة الدعاة وساعدتهم على نشر افكارهم . ولا بد من التنويه هنا ان الحركة الخارجية في نهاية فترة الحكم الاموي ، كانت تعني أشياء قد تختلف باختلاف المكان . ولكنها تتفق اينما وجدت على رفضها دفع الضرائب للدولة . وهذا ما كان عليه رأي البربر أيضا . كما ان الخوارج كانوا يبشرون بالمساواة بين جميع المؤمنين ويقولون ان الامامة حق لكل مؤمن تتوافر فيه شروطها دون النظر الى عرقه او جنسه او نسبه ، او ما شابه . وفي هذه الآراء ، كما هو متوقع ، ما يروق للبربر الذين ظنوا انهم غدوا . بعد الفتح العربي ، مواطنين من الدرجة الثانية في دولة عربية .

ومنذ العام ١١٧ هـ / ٧٣٥ م ، اخذ الدعاة الخوارج يظهرون في افريقية . وكانوا اول الامر من اتباع الفرقة الصفرية . ثم تلاهم اتباع الفرقة الاباضية . وقد لاقت دعوتهم رواجا كبيرا بين البربر ولا سيما من كان منهم يقيم في المنطقة الواقعة جنوبي طرابلس وغربي تونس ، مما أدى في العام ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م الى قيام ثورة كبيرة ضد الحكم الاموي ، وذلك بتحريض من الدعاة الخوارج الصفرية (٢٩) . اما الثورة العباسية فلم يكن لها اي اثر في الاحداث في شمال افريقية ، اذ انه في العام ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م وقعت هذه المنطقة تحت سيطرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، على الرغم من انه لم يكن مخولا من قبل السلطة الاموية بالولاية او الحكم . وجاءت الاحداث التي كانت تعصف بمشرق الدولة والصراع على السلطة بين بني امية وبني العباس . لتساعد على تثبيت سلطة عبد الرحمن هذا . وبعد ان حسم الصراع لصالح بني العباس ، وكانت خلافة المنصور ، كتب الخليفة الى عبد الرحمن يطلب منه الدخول في الطاعة . وكان رد عبد الرحمن على طلب الخليفة ان ارسل اليه بعض الهدايا وعهدا بالولاء ، ولكنه افهمه انه يود الاحتفاظ باستقلاله (٣٢) . وطبعي ان يكون رد فعل المنصور على هذا الموقف ردا غاضبا . وتشاء الظروف ان ينشب صراع بين عبد الرحمن وبعض افراد أسرته ، وأن ينتهي هذا الصراع بمقتل عبد الرحمن ١٢٧ هـ / ٧٥٥ م ، فخلفه في الامارة ابنه حبيب بن عبد الرحمن (٣٣) .

وقد استغل البربر هذا الصراع . لا سيما وان عبد الرحمن كان شديد البطش بهم ، فقاموا بثورة عارمة ضد الحكم . وكان الخوارج على رأس هذه الثورة . فقد قاد ورتجومة الصفري جماعة من رجاله ، واستولى على نفزة (Nafza) التي تقع جنوب شرقي القيروان ، واستطاع ان يقتل العديد من الرجال العرب . على انه

لم يتح لثورة ورفجومة الصفري أن تعيش طويلا ، وذلك بسبب الاوضاع الداخلية المتردية . وقامت بعدها ثورة أجبتها بعض القبائل الاباضية في نفوسة وهوارة جنوب طرابلس ، وقادها امامهم ابو الخطاب الاباضي . واستطاع الاباضية في العام ١٤٠ هـ / ٧٥٨م أن يستولوا على القيروان وبقية الجزء الغربي من المغرب . وثبتت ابو الخطاب نفوذه في طرابلس ، وعهد بحكم القيروان الى احد اصدقائه الخلف ، عبد الرحمن ابن رستم ، وهو من اصل فارسي (٢٤) .

ان نجاح هذه الثورة كان يعني ان الفتح العربي لشمال افريقية قد أصيب بطعنة قاسية ، وذلك لان الحكام الجدد كانوا مسلمين بربر (غير عرب) يتبعون المذهب الخارجي ، وبالتالي لا تربطهم اية رابطة بالخلافة . ولذا كان لا بد للعباسيين ، الذين كانوا حتى الان يقفون موقف المتفرج من هذا الصراع ، ان يولوا شمال افريقية عناية لم يولوها اياها في الماضي . ولهذا الغرض جهزوا حملة قوامها اربعون الف جندي من الخراسانيين بقيادة القائد المشهور محمد بن الاشعث . وهزم ابو الخطاب ورجاله هزيمة منكرة ، وتربع ابن الاشعث على كرسي الولاية في القيروان ، وهرب ابن رستم وبقايا الجيش الاباضي باتجاه الغرب الى تاهرت ، حيث اقام لنفسه ولاية مستقلة . وقد استقرت القوات الجديدة في القيروان التي دعمت دفاعاتها ، واصبحت تونس نواة الجند الذين سيكون لهم الدور البارز في شؤون المقاطعة . وبالإضافة الى ذلك ، فقد عين الحاكم الجديد احد اتباعه ، وهو خراساني من اصل عربي واسمه اغلب بن سليم ، حاكما على تبننة في الزاب (Zab) ، حيث يستطيع من موقعه هذا ان يراقب تحركات بربر جبال الاوراس (Aurés) (٢٥)

ولم تكن مهمة الحاكم الجديد مهمة سهلة ، وذلك لان البربر رفضوا الخضوع للسلطة الجديدة ، كما ان الجند الذين شعروا بأهميتهم عملوا على تقوية مركزهم من جهة ، وعلى تأمين اعطياتهم من جهة اخرى . وقد نجح ابن الاشعث في قمع تحركات البربر ، ولكنه فشل في اقامة علاقات طيبة مع الجند ، لاسباب لا نجد تفصيلا لها في المصادر . وفي العام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م قامت جماعة منهم على رأسها عيسى بن موسى الخراساني بثورة عليه واجبروه على ترك الولاية قال امرها الى عيسى بن موسى . ولم يطل الامر بعيسى ، حتى ثار عليه اغلب بن سليم وحل محله ، وعاد محمد بن الاشعث الى المشرق ، حيث قتل في العام التالي (١٤٩ هـ) اثناء معركة مع الجيش البيزنطي (٢٧) .

وعلى الرغم من ان اغلب خرج من بين صفوف الجند الذين ثاروا على ابن الاشعث وكان ذا شعبية كبيرة بينهم ، الا ان الوقت لم يطل حتى بداوا يتدمرون منه

ویشرون القلاقل ضده . ولم يمض عامان على تسلمه السلطة حتى أجبر على قيادة حملة ضد أحد زعماء الصفرية يدعى أبو قرّة ، كان يقيم في تلمسان ويهدد أفريقية . وقد استطاع أغلب أن يدحر أبا قرّة ورجاله ، وتابعهم من تلمسان حتى طنجة . ويبدو أن جيش أغلب لم يكن شديد الحماس لهذه الحرب ، لا سيما وأنهم دحروا أبا قرّة ووجدوا أن لا ضرورة للملاحقة وفضلوا العودة إلى بيوتهم . وهكذا تفرق جيشه وانقض من حوله ، الأمر الذي أدى إلى سنوح الفرصة للقائد حامية تونس ، حسن بن حرب الكندي ، لأن يسير على رأس فئة من رجاله وأن يحتل القيروان . وحين عاد أغلب مع القلة المتبقية من جنده إلى القيروان ، أملا أن يطرد منها الكندي ، كان نصيبه القتل على يد حاميتها وذلك في شعبان من العام ١٥٠ هـ / ٧٦٨ م (٢٨) . وهكذا أظهر الجند مرة أخرى أنهم العامل الأهم والذي لا بد من أخذه في الحسبان من أجل استقرار الولاية وحكمها .

وبعد موت أغلب ، أرسل الخليفة المنصور عمر بن حفص كحاكم على أفريقية . ويعتبر عمر هذا أول ممثل لآل المهلب الذين سيتاح لهم حكم أفريقية والسيطرة على الحياة السياسية فيها خلال ربع القرن الذي تلا . وقد وصل عمر إلى مقر ولايته في العام ١٥١ هـ / ٧٦٨ م ومعه حوالي خمسمائة من الجند . ورافق وصوله بدء مرحلة اضطرابات جديدة ، إذ أقام زعماء الخوارج في هذا العام (١٥١ هـ) ، تحالفا فيما بينهم بقصد القضاء على الحكم العباسي في أفريقية .

ويقدم لنا ابن عذاري وصفا لتشتيت شمل الثائرين نستطيع أن نستخلص منه بعض المعلومات حول قوة كل من الفئات المتصارعة (٢٩) . فالصفرية الذين كان يقودهم أبو قرّة التلمساني كانوا أكبر هذه الفئات . وقد حاول أغلب قبل وفاته أن يهاجمهم ويقضي عليهم ، ولكن حلمه لم يتحقق لأن جماعة كبيرة من الخوارج الإباضية انضمت إليهم وساعدتهم على الوقوف في وجهه . وكان على رأس الجماعة الإباضية ابن رستم ومعه خمسة عشر ألفا من رجاله من تاهرت . كما انضم إليهم أبو حاتم الذي خلف أبا الخطاب في زعامة خوارج طرابلس ، ومعه خلق كثير ، وعاصم السدرتي (AL - Sadrati) ومعه ستة آلاف من رجاله ، ومسنور الزناتي ومعه عشرة آلاف ، وسواهم . وبمواجهة هذا الحشد المعارض ، لم يستطع عمر بن حفص أن يجمع أكثر من خمسة عشر ألفا من الجند ، فحوصر في ثبنة ، ولكنه تمكن من أن يجبر جماعة أبو قرّة من الصفرية أن يعودوا إلى ديارهم ، وأن يغلب ابن رستم في موقعة مشهورة وأن يعود إلى القيروان . ولكن ذلك لم يضع حدا لمناعبه ، إذ أنه ما لبث ، بعد أن عاد إلى القيروان ، أن حوصر من قبل قوات أبي حاتم التي كانت تفوق قواته عددا . وفي نهاية العام ١٥٤ هـ / ٧٧١ م قتل أثناء محاولته الهرب من

المدينة ، واستبيحت القيروان من قبل جند أبي حاتم (٤٠) ، وعادت السيادة البربرية على المقاطعة .

ووقع الاختيار على رجل جديد ليقود حملة إعادة الاستقرار في المقاطعة ، وكان هذا الرجل ، كسلفه ، من أفراد أسرة المهالبة ، الا وهو يزيد بن حاتم الذي كان من بطانة الخليفة المنصور . ويحدثنا ابن عذاري أن الخليفة كان عليما بأمور إفريقية ، وأنه أرسل رجلا من أخلص رجاله ليعالج الوضع المتدهور في ذلك الاقليم . وكان يزيد يتمتع بمزايا عظيمة ، وقد سبق له أن ولي اذربيجان ومصر . ولم يكن هذا وحده السبب في توليته إفريقية في هذا الجو العاصف . ويبدو أن آل المهلب ، بما كان لهم من صلات وثيقة مع اوساط التجار في البصرة ، ولا سيما من كان منهم على مذهب الإباضية ، كانوا خير من يستطيع تولي الامر في هذه الفترة التي كان الإباضيون فيها قوة كبرى يحسب لها ألف حساب في الميدان الإفريقي .

وصل يزيد الى إفريقية ومعه جيش لا يقل تعداده عن ستين ألفا من الرجال . وهو أكبر قوة ترسل من مشرق الخلافة الى مغربها (٤١) . وضم هذا الجيش رجالا من خراسان والعراق وسورية . وكانت ليزيد تجارب سابقة في هذا النوع من التوطين ، وذلك حين شجع البصريين على الاستقرار في اذربيجان ابان ولايته عليها (٤٢) . وكانت أولى مهامه أن يهزم ابا حاتم قرب طرابلس ، وفي ذلك ايدان بانتهاء السيطرة الإباضية ، لا في منطقة طرابلس فحسب ، بل في إفريقية عامة . وقد انضم بعض الإباضيين المتحمسين الى جيش ابن رستم في تاهرت ، في حين بقي آخرون منهم في المقاطعات الشرقية ، وفي القيروان نفسها . واستطاع يزيد بحنكته وسياسته ، أن يصلح ما بينه وبينهم وأن يضمهم الى صفه . وأظهر مهارته في الميدان التجاري منذ الأيام الأولى لتوليه الولاية ، إذ قام بتنظيم أسواق القيروان وشجع العمليات التجارية ، الامر الذي سر به الإباضيون ورحبوا به .

وتعتبر فترة السنوات الخمس عشرة التي حكم فيها ، فترة استقرار وسلام ، تم خلالها الكثير من المنجزات ، كإعادة اعمار مسجد عقبة وتزيينه بأجمل الزينات ، والاهتمام بالمرافق العامة في المدينة ، وسواها من الامور العمرانية . وكانت سياسته في إدارة المقاطعة تتلخص في أنه اعتمد في حكم الأقاليم على رجال من أسرته ليضمن ولاء هذه الأقاليم . لذا كان من الطبيعي أن يعهد الخليفة الى أخيه روح بولاية إفريقية بعد موته في العام ١٧١ هـ / ٧٨٨ م .

كان روح أكبر سنا من أخيه يزيد ، ولكنه لم يكن على مثل دهائه وحنكته .

وقد ساعدته سمعة أسرته في أن يمضي سنوات حكمه الثلاث بهدوء وسلام ، والا تشهد الولاية أية اضطرابات ذات بال (٤٣) وعندما مات في العام ١٧٤ هـ / ٧٩١ م حاول ابنه قبيصة أن يتولى الأمر بعده ، ولكن الجند لم يوافقوا ، وطلبوا الى الخليفة هارون الرشيد أن يوكل أمر الولاية الى مهلب آخر . وهكذا آل الامر الى نصر بن حبيب دونما معارضة كبيرة . وكان نصر هذا صاحب شورى يزيد بن حاتم ، حين كان واليا على مصر ، ثم حين ولي إفريقية . وقد جعله هذا المنصب على صلة وثيقة بالجيش ، في حين أن روح وأولاده لم يكونوا معروفين في إفريقية . وكان لروح ابن آخر هو الفضل ، الذي كان يلي حكم منطقة الزاب الاستراتيجية حين توفي والده ، وقد ساءه أن يرى أسرته تبعد عن الحكم وأن الامر يؤول الى سواهم . ولهذا غادر الزاب الى بغداد ، وقابل الخليفة الرشيد وأقنعه بعزل نصر وتوليته هو . ووافق الخليفة على ذلك ، ويبدو أن البرامكة لعبوا دورا هاما في إيصاله الى ولاية إفريقية ، وانهم قصدوا من وراء ذلك جعل إفريقية تخضع لسلطان الدولة وسيادتها المباشرة .

كانت بداية ولاية الفضل بداية حسنة ، ولكنه ما لبث بعد فترة قصيرة أن قامت بينه وبين الجند مشاحنات ومنازعات . وكانت بداية هذه الاضطرابات في تونس حيث ولي الفضل ابن أخيه المغيرة حاكما . ولم يتقبل أمراء الجند في تونس هذا التعيين ، وكتب زعيمهم عبد الله بن الجارود رسالة الى الفضل يعلمه فيها بسلوك المغيرة ويطلب اليه عزله . ولم يكن في الرسالة أي تهديد أو تلميح الى عصيان محتمل . ولكن الفضل اعتبر ذلك اهانة له ، وآثر أن يقف الى جانب ابن أخيه . وهكذا بدأ نزاع جديد انتهى بمقتل الفضل بعد أن تخلى عنه جنوده ، وذلك في العام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنة (٤٤) . ويعتبر موت الفضل نهاية حكم المهالبة في إفريقية . وواضح أن سقوط امرة هذه الاسرة يعود الى عوامل عدة ، من بينها الصراع بين أفرادها على السلطة ، ولكن أهمها السياسة الخاطئة التي اتبعها الفضل والتي تتمثل بمخاصمة الجند ، علما بأن جلهم كان من الذين أحضرهم يزيد بن حاتم معه ، ولولاؤهم لال المهلب غير مشكوك فيه ، برهنوا عليه في أكثر من مناسبة .

ولم تحاول حكومة بغداد أن تعين مهلبيا آخر . ولم تكن صلة الرشيد بالمهالبة متينة كصلة المنصور والمهدي بهم . يضاف الى ذلك أن البرامكة ، الذين كانوا يتولون مقاليد الأمور في بغداد ، كانوا يحرصون على ألا يتولى حكم المقاطعات أسرة قوية ، قد تغدو في المستقبل مصدر خطر عليهم . هذا فضلا عن أن نفوذهم بالنسبة للجند لم يكن نفوذا كبيرا . ولذا بدأوا بمفاوضات مع ابن الجارود ، الذي كان يعرف أيضا باسم عبدويه ، وأقنعوه بالقدوم الى بغداد ، حيث استقبل استقبالاً حسناً ، وعومل معاملة لائقة . وهكذا كان النصر في ولاية إفريقية الى جانب الجند .

وحاول البرامكة أن يقلبوا الامر لصالحهم ، وأن يضمّنوا ولاء افريقية لهم ، ولهذا عينوا هرثمة بن أعين حاكما على افريقية . وكان هرثمة من أهم الشخصيات العسكرية التي ترتبط برباط وثيق مع البرامكة ، وتحت امرته ثلاثون ألف رجل كان الفضل بن يحيى البرمكي قد جمعهم من خراسان ، وأرسلهم غربا حيث قاموا بنهضة الامور في فلسطين ، وانتقلوا منها الى مصر باتجاه افريقية فوصلوها في العام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م . ولم يكن وصول هذه الحملة الجديدة الى افريقية موجة هجرة جديدة ، كما حدث زمن يزيد بن حاتم ، اذ ان هرثمة استخدم هؤلاء الجند في تثبيت دعائم السلطة العباسية في الولاية ، وبنى الرباط المشهور في مونستير (Monastir) الذي مازال موجودا حتى يومنا هذا . ولم يكن هرثمة راغبا في البقاء في افريقية وطلب الى الخليفة أن يعيده الى المشرق ، فوافق الخليفة على ذلك ، فعاد الى بغداد حيث اتبع له أن يلعب دورا بارزا في الاحداث التي جرت خلال السنوات العشرين التي تلت .

بعد عودة هرثمة ، عين البرامكة رجلا آخر من اتباعهم ليلى افريقية ، هو محمد ابن مقاتل العكي . وكان العكي شابا ، وليس له اية خبرة ادارية سابقة ، هذا فضلا عن أنه لم تكن له اية جذور في افريقية . وكانت حكومة بغداد في هذه الفترة تعاني ضائقة اقتصادية ، وانخفاضا في جباية الضرائب ، الامر الذي جعل العكي يخفض رواتب الجند . وطبيعي أن هذا التدبير سؤدي الى تدمير هذه الفئة الهامة . وقد زاد في تدميرهم معاملته السيئة لهم واستعلاؤه عليهم . ولم يمض على ولايته سنتان حتى قامت عليه ثورة انتهت بعزله ، وذلك في العام ١٩٣ هـ / ٧٩٩ م . وقد قاد الثورة علي العكي قائد حامية تونس تمام بن تميم التميمي . ففساد تونس التي طرابلس ، ولم يستطع التميمي ان يسيطر على الامور في القيروان ، اذ ثار عليه ابراهيم بن الاغلب ، وطرده من القيروان بحجة اعادة الوالي الشرعي محمد العكي الى ولايته . ولكن شعبية العكي لم تكن كبيرة ، ولهذا كاتب ابراهيم الخليفة هارون الرشيد وطلب منه أن يولييه افريقية . وهكذا غدا ابراهيم بن الاغلب (من الأسرة الاغلبية) واليا على افريقية عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م (٤٥) .

ويعتبر ابراهيم بن الاغلب اول حاكم مستقل لافريقية ، ولم يعد للدولة العباسية منذ تسلمه الحكم اي سلطان في تعيين ولاية هذا الاقليم ، او عزلهم . وقد استفل ابراهيم دعم الخليفة له ، فادعى الشرعية في مطاردة تمام التميمي والقضاء عليه . وتم له ذلك ، فانتقل بعدها لتمتين صلته بالجند ، والحد من سلطان الخوارج بين الفئات البربرية ، مما امن له استقرارا داخليا لم تعهده الولاية من قبل .

كان ابراهيم مؤهلاً لشغل هذا المنصب ، فقد كان أبوه الاغلب قد انتخب من قبل الجند ليخلف ابن الأشعث ، وبعد وفاته في العام ١٥٠ هـ / ٧٩٠ م غادر ابنه ابراهيم إفريقية الى مصر حيث لم يبق طويلاً . وفي العام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م عاد الى الزاب حيث استغل فترة الاضطرابات زمن حكم المهالبة ليثبت مركزه ويرفع من شأنه بين السكان المحليين ، حتى غدا سيد المنطقة بلا منازع . ولما وصل هرثمة بن اعين ليهديء الأمور وينشر الاستقرار ، سالمه ابراهيم ، وأصبحت الزاب منطقة مستقلة يعود أمرها الى بغداد مباشرة وليس الى والي إفريقية . وفي هذه الفترة قدم ابراهيم خدمة جليلة للرشيدي اذ دبر أمر دس السم لادريس بن عبد الله ، الشخصية الشيعية المعروفة ، المناوئة للرشيدي . وبذلك زادت حظوته عند خليفة بغداد . واستغل ابراهيم ثورة الجند ضد محمد العكي ، كما أسلفنا ، فغدا الطريق مفتوحاً أمامه للوصول الى منصب الوالي بشكل شرعي . وكان ابن الاغلب سليل أسرة عريقة في سلك الجندية ، كما كان قائد أهم حامية حدودية في إفريقية . وقد زكاه القائد هرثمة ، فاعتمده الرشيدي في مؤامراته ضد ادريس بن عبد الله . وسار في حبك خيوط مؤامراته شوطاً أبعد ، اذ قام بعقد صفقة مالية مع الخليفة تنص ، لا على استغناء ولاية إفريقية عن المعونة المالية التي كانت تدفع لها من ولاية مصر فحسب ، ومقدارها مئة ألف درهم سنوياً ، بل وعد الخليفة أن يمد خزانة الدولة في بغداد بمبلغ سنوي لا يقل عن أربعين ألف درهم . وهكذا شعر الخليفة أنه وقع على الشخص المناسب لهذا المنصب الذي كان مصدر قلق له . ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، حذراً ، فعينه والياً دون أن يكون له حق توريث المنصب لأولاده من بعده ، أو أن تكون له أية حقوق تميزه عن سواه من حكام الأقاليم .

وماكاد الأمر يؤول الى ابراهيم حتى شدد قبضته على الولاية ، فأنشأ حرساً خاصاً قوامه خمسة آلاف من العبيد السود يدينون له بالولاء الشخصي ، وأقام لنفسه قلعة محصنة سماها « العباسية » قرب القيروان ، حيث نقل اليها جميع الادارات والمؤسسات التي تساهم معه في حكم البلاد . أما علاقاته بالجند فكانت دقيقة ، ففي العام ١٨٦ هـ / ٨٠٢ وقف الجند الى جانبه حين قامت عليه ثورة في تونس ، ولكن هذه العلاقات مالبت أن تدهورت في العام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م ، اذ أنه زاد في استيراد العبيد لحرسه الخاص ، كما تأخر في دفع مرتباتهم . الأمر الذي حدا بهم الى الثورة عليه في ذلك العام . ووجد ابراهيم نفسه مضطراً للاستعانة بالخليفة الأمين ، الذي قدم له المساعدة اللازمة . واستطاع ابراهيم أن يتغلب على ثورة الجند ولكنه لم يقسو على زعمائهم بل اكتفى بنفيهم من الزاب .

وتوفي ابراهيم في العام ١٩٦ هـ / ٨١٢ م ، وكان بمقدور الخليفة العباسي أن

يتخلص منه ومن أعقابه بتعيين وال جديد ، ولكن الظروف الداخلية في الدولة العباسية في فترة النزاع بين الأمين والمأمون لم تسمح بذلك . وقبل الأمين أن يتولى ابنه عبد الله بن إبراهيم الولاية مقابل وعده بتقديم العون للأمين في صراعه مع أخيه . وبعد وفاة عبد الله ، ولي كرسي الإمارة في إفريقية ابن ثان لإبراهيم ، هو زيادة الله ، وذلك في العام ٢٠١ هـ / ٨١٧ م ، دونما موافقة من خليفة بغداد . وقد حكم زيادة الله مدة اثنين وعشرين عاما مما أدى الى تثبيت دعائم الحكم الأغلبي ، وحين أراد المأمون ، بعد أن صفا الجوله ، أن يمد بصره الى إفريقية ، وجد أن هذه الولاية قد خرجت عن الطوق العباسي .

يتضح مما تقدم من عرض لأنماط الحكم في ولايتين من ولايات التخوم من الدور العباسي الأول ، أن مسيرة الحكم في كل من الولايتين كان مختلفا . فقد أدى النصر في الحرب الأهلية وحكم الأسرة الطاهرية الى ضم خراسان وتوثيق ارتباطها بالعالم الاسلامي . وقبل الأمراء المحليون بالتخلي عن عزلتهم ومكانتهم الخاصة التقليدية والاندماج في جسد الدولة أكثر من ذي قبل . أما إفريقية ، فقد غدت على النقيض قوة متوسطة مستقلة ، وغدت القيروان المركز الثقافي والفكري للشمال الإفريقي المسلم . وفي كلا الحالتين ، بدأ هذا التطور في البروز ، والولايتان مازالتا في حضان الدولة العباسية ، وجزءا لا يتجزأ منها . ويظل الأمر المهم ، أنه في حالة هاتين الولايتين ، كانت الخلافة العباسية في بغداد لا تتمتع بنفوذ كبير ، كما كانت سلطة الإدارة المركزية شبه مفقودة ، والخليفة شخصية رمزية أكثر منه شخصية فاعلة . وكان الخليفة وواليه على كل من هاتين المقاطعتين يتعثران على الدوام بالصدامات التي فرضت عليهم من القوى المحلية ، وما كان الحكم العباسي يستطيع البقاء لولا لجوء الخلفاء الى الصبر والأناة واستعدادهم للقبول بالحلول الوسط والمظاهر الشكلية للسلطة فحسب .

* * *

الهوامش :

- (١) Narshakhi, The history of Bukhara, trans. R.Erye (Cambridge, Mass 1954) pp.62 - 63.
- (٢) انظر ، ابن خرداذبة ، « مسالك » ص ٢٤ - ٢٩ حيث تجد تفصيلات أوفى حول موضوع الضرائب .
- (٢) الطبري ، دي خوية ، ص ٣٦٨ . وانظر أيضا :
C.E.Bosworth, Sistan under the Arabs, ed . Rome,, 1968.
- (٤) انظر ، الطبري ، دي خوية ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٤ - ١٢٥
- (٥) المصدر السابق، ص ١٢٤
- (٦) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٩ ، ٦٣١ - ٦٣٧ ، ٦٣٨ . وانظر ايضا اليعقوبي ، ط . هوتسما ،
ليند ١٨٨٢ ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .
- (٧) انظر مثلا ، الطبري ، ج ٢ ص ٧١٢ - ٧١٨ ، والجهشياري « كتاب الوزراء » ط . السقا ،
القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٢٨ .
- (8) Barthold, V., Turkestan down to the Mongol invasion, London, 1928,
p.203 ; Mottahedeh, R. , the Abbasid caliphate in Iran, Cambridge
History if Iran, vol.4, pp.70 - 71.
- (٩) انظر التفاصيل في : الطبري ، ج ٢ ، ص ٧١٣ - ٧١٨ . وانظر ايضا : الجهشياري ، « وزراء » ،
ص ٢٢٨ ، والاصفهاني ، « كتاب الاغاني » ط . دار الكتب ، ج ٥ ، ص ٣١٢ .
- (١٠) انظر ، الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٧٥ ، والجهشياري ، وزراء ، ص ٢٢٨ .
- (١١) انظر التفاصيل في : الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩ ، ٧٠٤ .
- (١٢) ابن الاثير ، « الكامل في التاريخ » ط . تورنبرغ ليند ١٨٦٦-١٨٧٧ ، ج ٦ ، ص ٢٦ .
- (١٢) اليعقوبي ، (تاريخ) ، ط . هوتسما ، ليند ١٨٨٢ ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ .
- (١٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ٧١٢ ، ٧٢٢
- (١٥) انظر التفاصيل في الطبري ، ج ٢ ، ص ٧١٩ - ٧٢٧ ، واليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ .
- (١٦) الطبري ، ج ٢ ، ص ٧٢٢ .
- (١٧) انظر ما يذكره E. G. Brown في كتابه Literary History of persia
حول محاكمة الافشين والنقاش حول موضوع الوهيته .
- (١٨) انظر الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٥٤-٣٥٨ ، اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ - ٤٥٨ . وقارن ذلك بما جاء عند:
اغابيوس النيجي ، « كتاب العنوان » ، ط فازيليف ، ص ٥٤٤ ، في :
Patrolgia orientalis, V111, Paris, 1911.

- (١٩) انظر المسعودي « مروج الذهب » ط. بيروت ١٩٧٢ ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ .
- (٢٠) انظر اخبار هذه الامة وردة في : الطبري ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، واليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٧٨ .
- (٢١) انظر الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٤ وانظر أيضا : Barthold, V. , op. cit. , pp. 199 - 200.
- (٢٢) كان امير بخارى يعرف بلقب « بخارى خدا » .
- (٢٣) الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ .
- (٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٨ ، ٦٥٠ . وانظر أيضا : ابن الاثير ، ط. تونبرغ ، ج ٦ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ .
- (25) Nashakhi, op. cit. ' pp. 71 - 72.
- (٢٦) انظر : الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
- (٢٧) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .
- (٢٨) المصدر السابق ، ص ٤٧٩ .
- (٢٩) انظر : الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٢١ .
- (30) Talbi, M.,L' Emirato Aghlabide, ed Paris, 1966 , pp. 12 - 22
- (31) Talbi, op. cit. , pp. 37-41 .
- (32) Talbi, op. cit. ' pp. 35-37.
- (٣٣) ابن عداري « البيان المغرب » ج ١ ، ط. كولن وليفي بروفنسال ، ١٩٤٨ ، ص ٦٧-٧٠ .
- (٣٤) ابن عداري ، ج ١ ، ص ٧٠-٧١ .
- (٣٥) البلاذري « فتوح » ، ص ٢٧٥ .
- (٣٦) ابن عداري « البيان » ج ١ ، ص ٧٢-٧٣ .
- (٣٧) الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .
- (٣٨) ابن عداري « البيان » ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .
- (٣٩) المصدر السابق ، ص ٧٥ .
- (٤٠) ابن عداري ، ج ١ ، ص ٧٥-٧٨ .
- (٤١) الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ابن عداري ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .
- (٤٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ .
- (٤٣) انظر اخبار فترة ولايته في : ابن عداري ، ج ١ ، ص ٨٤ - ٨٥ .
- (٤٤) ابن عداري ، ج ١ ، ص ٨٥ - ٨٨ .
- (٤٥) ابن عداري « البيان » ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٢ .

الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوربي في القرن التاسع عشر

د . عبد الكريم رافو
جامعة دمشق

يعد القرن التاسع عشر نقطة تحول هامة في تاريخ الوطن العربي، مشرقه ومغربيه، على حد سواء، بسبب شدة المجابهة بينه وبين النول الأوروبية الصناعية، التي تحولت الى استثمار اقطاره، مخضعة اقتصاده لخدمة مصالحها الرأسمالية.

وفي المجال الاقتصادي، الذي يعنى به هذا البحث، تبادت المجابهة على صعد متعددة، أهمها التجارة والصناعة. وكانت ردود الفعل المحلية هامة لانه، رغم شدة المجابهة، لم تستسلم الفعاليات المحلية للتصدي الأوربي، بل طورت انشطتها الاقتصادية للتأقلم مع الواقع الطارىء. ونتج عن ذلك فرز اجتماعي وطبقي جديد، فظهرت البورجوازية المحلية المرتبطة بالغرب، وحدثت تبدلات موازية على المستويين السياسي والفكري.*

* للباحث بحثان يمتان بصلة لهذا البحث، نشر الاول بعنوان: «مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني»، مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع، نيسان ١٩٨١. والثاني احد الندوة التي انعقدت في استراسبورغ بفرنسا (١ - ٥ تموز ١٩٨٠) حول الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر حتى اوائل القرن العشرين) وهو باللغة الانكليزية، وقد نشر في الكتاب التالي: (عنوان البحث واسم الكتاب).

«The impact of Europe, on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 » in *Economie et Sociétés dans l' Empire Ottomane (fin du XVIIIe - début du XXe siècle)*, eds. Jean - Louis Bacqué - Grammont et Paul Dumont, Editions CNRS, Paris, 1983.

التبدلات التجارية

تمتعت مدينة حلب بموقع تجاري ممتاز في القرنين الاولين من الحكم العثماني ، اذ انفتحت امامها اسواق الامبراطورية العثمانية ، وبخاصة مناطق الاناضول المجاورة (١) . وكانت مركزا هاما لتجارة المرور بين اوربا من ناحية وايران والشرق الاقصى من ناحية اخرى ، بطريق العراق والخليج العربي . ويشهد على نشاط حلب التجاري ما بني فيها من اسواق وخانات لتصريف البضائع محليا او لشحنها الى ما وراء الحدود ، وكان مينائها الطبيعي الاسكندرونة ، كما استخدم ميناء طرابلس في نقل البضائع منها واليها . ونظرا للدور التجاري الهام الذي لعبته حلب محليا ودوليا اقامت الدول التجارية الاوربية ، وبرزها انكلترا وفرنسا ، ممثلين تجاريين فيها . واتخذ هؤلاء الصفة السياسية كقناصل لدولهم . ومن ذلك اقامة الانكليز مركزا لشركة بلاد المشرق (ليفانت) في حلب في عام ١٥٨١ ، الى جانب المراكز الرئيسية الاخرى لهذه الشركة في استانبول وازمير . وكان لهذه المراكز مراسلات تجارية ودبلوماسية مع مركز الشركة الرئيسي في لندن . واستمرت هذه الشركة في العمل الى ان قضت عليها منافسة شركة الهند الشرقية ، وتوقفت في عام ١٨٣٥ (٢) .

واقام الفرنسيون ممثلين تجاريين - دبلوماسيين لهم في حلب في اواخر القرن السادس عشر ، وتعود رسائلهم الى عام ١٦٠٠ ، وهي محفوظة في غرفة تجارة مرسيليا التي كانت المسؤولة عنهم والموجهة الرئيسية للتجارة الخارجية لفرنسا . وتمتع التجار الاجانب بامتيازات تجارية وقانونية بموجب نظام الامتيازات الذي بدأ في عام ١٥٣٦ واستمر حتى النصف الاول من القرن العشرين .

ولم تكن دمشق بمثل اهمية حلب في المجال التجاري ، فنشاطها في تجارة المرور لم يتعد نطاق بغداد والحجاز ومصر . وحتى في هذا النطاق ، كانت خطوط تجارتها تحت رحمة القبائل البدوية التي تسيطر على معظم هذه الطرق . ولكن دمشق افادت الشيء الكثير من كونها مركز تجمع قافلة الحج الشامي التي كان ينضم اليها الحجاج من المناطق الشمالية والشرقية ، وتبلغ اعدادهم في كل سنة ما يقرب من خمسة عشر الى عشرين ألف حاج ، يتجمعون في دمشق ، ويحملون البضائع منها واليها ، من بلادهم الاصلية ومن الحجاز . لذلك كانت قافلة الحج الشامي على جانب كبير من الاهمية التجارية بالنسبة لدمشق ومنطقتها (٣) . ونظرا لعدم اهمية دمشق بالنسبة لتجارة المرور الاوربية ، بالمقارنة مع حلب ، لم يكن للاجانب فيها ممثلون او قناصل الى ان سيطر عليها محمد علي باشا والي مصر عام ١٨٣١ . وكان

تعامل التجار الاجانب مع دمشق وريفها قبل ذلك ، يتم بوساطة وكلائهم فيها ، او عن طريق ممثليهم من القناصل ونوابهم في المدن الساحلية ، وبخاصة صيدا .

وقد تضررت تجارة المرور في حلب ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، حين احتلت روسيا ، في عهد القيصر بطرس الاكبر ، المناطق المنتجة للحرير في شمالي بلاد فارس ، وذلك في عامي ١٧٢١ - ١٧٢٢ ، وانقطع بذلك تدفق الحرير الفارسي الى حلب وعبرها الى اوربا . ورافق ذلك في الوقت نفسه تردي الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس واستئناف القتال بين الفريقين ، وبخاصة في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، حين سيطر نادر شاه على الحكم في بلاد فارس وانهى حكم السلالة الصفوية فيها . وكان لهذا الوضع اثره الكبير على تحجيم النشاط التجاري بين حلب واصفهان والخليج العربي وما ورائه .

وصادف في تلك الاثناء ازدياد الاهتمام الفرنسي التجاري ببلاد الشام الجنوبية ، اذ استغلت البورجوازية التجارية الفرنسية معاهدة اوترخت عام ١٧١٣ ، التي اتمت بالسلام لفرنسا وامنت خطوط مواصلاتها في المتوسط ، فوسعت من نشاطها التجاري الخارجي بدعم من الملكية الفرنسية . واشتدت منذئذ المنافسة التجارية بين فرنسا ، التي ركزت اهتمامها على بلاد الشام الجنوبية ، وبين انكلترا التي تركزت اهتمامها على حلب (٤) .

ومما حد ايضا من تجارة حلب اشتداد منافسة الشركة الانكليزية - الموسكوفية لشركة الليفانت ، بعد ان منحت الاولى حق المتاجرة مع بلاد فارس . وادى ضعف الدولة العثمانية ، واضطراب الامن في الطرق الرئيسية بين حلب ومينائها الطبيعي الاسكندرونة ، التي كثر فيها قطاع الطرق ، الى الحاق ضرر كبير بتجارة حلب . وتضاءل اهتمام اوربا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، بشراء المنتجات المحلية بطريق المفاضلة ، لان المنتجات الاوربية الصناعية بدأت تفرض نفسها بمقابل المال . ووجد القطن المحلي ، الذي كانت تستورده اوربا من حلب والاناضول ، منافسا قويا له في قطن البنغال الاجود والارخص ، بالنسبة للصناعة الاوربية .

ونتيجة عن الثورة الصناعية الاوربية انازدادت منتجات اوربا ، واتسعت السفن التجارية التي اخذت تسهر بقوة البخار ، واصبحت الحاجة ملحة للبحث عن مواني كبيرة تتسع لهذه السفن وحجم البضائع التي تحملها . ولم تكن المواني القائمة حينذاك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، لتفي بهذا الغرض ، لذا بدأ انشاء ميناء بيروت الذي طغى على ما حوله منذ القرن التاسع عشر . وافادت دمشق الشيء الكثير من نمو هذا الميناء وتدفق بضائعه ، عبرها ، الى الداخل وما ورائه .

وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون يهتمون ببيروت، وباقامة ممثلين لهم فيها . ولهذا ، سمى القنصل الفرنسي في حلب ، في أواخر عام ١٨١٩ ، وكيلًا مؤقتًا في بيروت التي وصفها « بأنها اليوم الميناء الناشط لدمشق » (٥) . وفي عام ١٨٢٣ وافقت سلطات باريس على تسمية السيد جان باتيست بودان (Jean Batiste Beaudin) للوكالة القنصلية في دمشق ، المرتبطة بالقنصلية العامة في حلب . وقد وصل السيد بودان الى دمشق في أواخر شباط ١٨٢٤ ، وبدأ بممارسة أعماله في الاول من اذار . ولكن والي دمشق رفض الاعتراف به رسميا ، ومع ذلك ، سمح له بالبقاء في دمشق ريثما يحصل على فرمان من استانبول يعترف به « كوكيل لطائفة الفرنسية » . وهكذا ، لم يتم تعيين قنصل رسمي لفرنسا في دمشق حتى ٨ تموز ١٨٣٩ حين أصدر ملك فرنسا قرارا بإنشاء قنصلية في دمشق . وكان اول قنصل بريطاني في دمشق قد عين قبل ذلك بست سنوات (٦) . وسرعان ما أصبح للدول الاجنبية الاخرى ، مثل بروسيا والولايات المتحدة الامريكية ، والنمسا ، واليونان ، قنصليات في دمشق .

وشجع النشاط التجاري الاوربي في بلاد الشام آنذاك الامتيازات التجارية الواسعة التي منحتها الدولة العثمانية لبريطانيا ، ثم للدول الاخرى . فقد عقدت اتفاقية تجارية ، بين الدولة العثمانية وبريطانيا في عام ١٨٣٨ ، سرعان ما طبقت بنودها على دول اوربية اخرى ، ونصت على ألا تتجاوز الضرائب الجمركية التي تتلقاها الدولة العثمانية على البضائع الاوربية المستوردة خمسة بالمائة . وقد زاد هذا الى حد كبير من النشاط التجاري الاوربي ، ومن استيراد البضائع الاوربية الى الدولة العثمانية . وطبقت نصوص هذه الاتفاقية في بلاد الشام بعد انسحاب قوات محمد علي باشا منها . وبالمقابل ، كانت التجارة الداخلية ، في الدولة العثمانية ، تخضع لنسبة من الضرائب الجمركية أعلى بكثير ، مما اضربها واطغى منافستها للبضائع الاوربية المستوردة .

وكان محمد علي باشا ، ابان حكمه في بلاد الشام ، بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، قد فتح الباب على مصراعيه للوثرات الاوربية على اختلاف أنواعها . وتدقت البضائع الاجنبية واخذت تنافس ، بصورة جدية ، البضائع المحلية . وقد جاء في التقرير الذي رفعه جون باورينغ (John Bowring) الى وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون ، بتاريخ ١٧ تموز ١٨٣٩ ، وتناول فيه احصاءات وتفاصيل تجارية واجتماعية حول بلاد الشام ، ان مجموع الدكاكين التي تباع البضائع الانكليزية بالفرق ، في دمشق ، بلغ مائة وسبعة دكاكين يقدر مجموع رؤوس الاموال التي وظفها اصحابها في اعمالهم بمبلغ يراوح بين ١٦٠.٠٠٠ و ٢١٠.٠٠٠ قرش . و اضاف التقرير ان

التجار المسلمين والمسيحيين واليهود قد شاركوا ، على حد سواء ، في المتاجرة مع أوربا وفي تسويق بضائعها . وبلغ مجموع المؤسسات ، أو البيوتات التجارية ، التي كان يملكها مسلمون في دمشق وتاجر مع أوربا ، ستة وستين ، يراوح مجموع رؤوس أموالها بين عشرين وخمسة وعشرين مليوناً من القروش . ومن هذه البيوتات ثمانية يزيد رأسمال كل منها على المليون . وهناك مؤسستان تجاريتان يملك أحدهما عبد الرحمن هاشم ، وثانيتهما محمد سعيد أغا البغدادي ، وكانتا تتاجران مع بغداد ، يبلغ رأسمال كل منهما بين مليون ونصف ومليونين من القروش . ويبلغ رأسمال مؤسسة أخرى ، يملكها الحاج حسين جرتقجي ، مابين مليونين ومليونين ونصف . والمؤسسات الكبرى تتاجر عادة مع أوربا وبغداد ، في حين تتاجر المؤسسات الأصغر مع استانبول وازمير . وهناك حوالي اثنتي عشرة مؤسسة تتاجر مع القاهرة والاسكندرية ، ومؤسسة أو اثنتان تتاجر مع مكة والمدينة ، وقلة منها تتاجر مع القدس ونابلس وأجزاء أخرى من فلسطين . وهناك مؤسسة واحدة امتد نشاطها التجاري الى جزر الهند الشرقية . ويبلغ وسطي رأس مال هؤلاء التجار المتعاملين مع الخارج حالي أربعة آلاف ليرة استرلينية ، أي ما يعادل ٤٠٠ ألف قرش (٧) .

ويبلغ عدد التجار المسيحيين في دمشق الذين يتعاملون في التجارة الخارجية تسعة وعشرين ، يراوح مجموع رؤوس أموالهم بين أربعة ملايين ونصف المليون وخمسة ملايين ونصف مليون قرش . وكان أغنى هؤلاء التجار على الإطلاق السيد حنا عنجوري ، الذي بلغ رأسماله بين مليون ونصف ومليونين من القروش . وكان يتاجر مع بغداد وفرنسا وإيطاليا ، كما أنه ينتج البضائع الدمشقية ، ويشارك معه في التجارة الخارجية عدد من أفراد أسرته . وكانت النسبة الأكبر من التجار المسيحيين تتعامل مع بريطانيا ، ولكنهم كانوا ، على وجه العموم ، أقل ثراء من التجار المسلمين واليهود . ويتراوح وسطي رأس مال الغالبية العظمى من التجار المسيحيين ما بين ٢٥ و ١٠٠ ألف قرش (٨) .

وكان التجار اليهود في دمشق من أغنى التجار المتعاملين مع الخارج . ويبلغ عددهم أربعة وعشرين ومجموع رؤوس أموالهم ما بين ستة عشر وثمانية عشر مليوناً من القروش ، أي بمعدل ستة آلاف الى سبعة آلاف ليرة استرلينية لكل منهم ، ويعادل ذلك ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ألف قرش . ومن بين هؤلاء تسعة تجار على الأقل يتراوح رأسمال كل منهم ما بين مليون ومليون وثلث من القروش . ويعتقد أن أغنى تاجر من اليهود كانا مراد فارحي ونسيم فارحي وتزيد ثروة كل منهما على مليون قرش ونصف المليون . وكانت معظم المؤسسات اليهودية تتاجر مع بريطانيا (٩) .

ومما شجع هؤلاء التجار الدمشقيين على التعامل بالبضائع الأجنبية تسهيلات

الدفع التي منحهم اياها التجار الاجانب . ومعظم هؤلاء التجار هم من تجار الجملة ، يستورودن البضائع اولا ثم يدفعون قيمتها بعد ذلك ، في حين كان تاجر المفرق يبيعها نقدا في الغالب . ولم تكن دمشق السوق الوحيدة لهذه البضائع ، فكان تجار القوافل يحملونها الى الداخل والخارج ، ويمنحون بدورهم تسهيلات في الدفع من قبل تجار الجملة الدمشقيين ، بحيث يسددون ثمن البضائع عند عودتهم في العام التالي . وضم تجار القوافل اناسا من العراق وفارس والمناطق الى الشرق منها . وكانوا في الغالب على درجة كبيرة من الامانة في التعامل والدقة في دفع ما يستحق عليهم من مال .

وازاء هذا النشاط التجاري وحسن التعامل ، نشطت المتاجرة بالبضائع الاجنبية ، وبدأ البحث لايجاد تسهيلات اكثر ، في التعامل وفي المواصلات ، لتصرف هذه البضائع بشكل اوسع (١٠) .

وقد وجدت في دمشق ، ابان الحكم المصري ، محكمة تجارية مهمتها النظر في الخلافات الناجمة عن الاعمال التجارية ، وكانت تتألف من اثني عشر عضوا منهم تسعة من المسلمين ، ومسيحيان ، ويهودي واحد . وكانت هذه النسبة تتفق واعداد الطوائف المختلفة آنذاك ، ولا تؤثر بأي حال على قرارات المحكمة بالنسبة للمتقاضين على اختلاف مذاهبهم (١١) . وقد توقفت هذه المحكمة عن العمل ، كما يبدو ، بعد انسحاب المصريين من بلاد الشام وحل مكانها ديوان التجار للنظر في القضايا التجارية ، وله حق اصدار الاحكام ، التي سمح للمتقاضين باستئنافها الى مجلس شورى الشام العالي (١٢) .

وفي عام ١٨٥٠ أنشئت في دمشق ، من جديد ، محكمة تجارية تضم اربعة عشر عضوا . وفي حين ان المحكمة الاولى ، التي كانت قائمة ابان الحكم المصري ، لا تعرف كيفية تعيين اعضائها ، فان نصف اعضاء المحكمة الجديدة كان يعين من قبل الحكومة العثمانية ، ونصفهم الاخر يعينه القناصل من بين التجار الاجانب . وهذا دليل على ازدياد حجم التجارة الاجنبية في الشام ، وكذلك على ازدياد نفوذ القناصل الاجانب وتدخلهم في القضايا الاقتصادية المحلية . وضم الاعضاء السبعة الذين عينتهم السلطات العثمانية اربعة مسلمين ، ومسيحيين ، ويهوديا واحدا . واذا كانت نسبة الاعضاء في المحكمة الاولى تتوافق والنسبة العددية للطوائف ، كما ذكرنا ، فان نسبة ممثلي الطوائف ، فيما يتعلق بنصف اعضاء المحكمة الجديدة ، تدل على نسبة مساهمة كل طائفة في النشاط الاقتصادي وفي التعامل بالتجارة الاجنبية (١٣) . وبعد خمس سنوات ، أي في عام ١٨٥٥ ، أنشئت محكمة تجارية في حلب (١٤) .

واقترضى ازدياد حجم التجارة بين دمشق والدول الاجنبية ، الاهتمام بتحسين طرق المواصلات ، وبخاصة بين دمشق وبغداد . ونظرا لسيطرة البدو آنذاك ، من قبائل العنزة ، على البادية السورية ، وتحكمهم في طريق دمشق - بغداد وفرضهم الاتاوات على المسافرين وعلى البضائع مقابل حق الطريق ، فقد لجأت القوافل التجارية ، سواء منها القادمة من الشرق الاقصى بطريق الخليج العربي وبغداد ، او الداهية الى تلك الجهات من دمشق ، الى سلوك الطريق الاطول والاكثر امانا ، عبر الموصل وحلب (١٥) . فالقافلة التي تسير من بغداد الى دمشق ، بطريق الموصل وحلب ، يقتضي وصولها الى دمشق من شهرين ونصف الى ثلاثة اشهر (١٦) . اما القافلة التي تنطلق من بغداد الى دمشق ، عبر البادية ، فيقتضي وصولها حوالي خمسة وثلاثين يوما (١٧) . ووجدت محاولات في الشرق الاقصى لارسال البضائع من كلكوتا الى دمشق عبر البحر الاحمر وخليج السويس وغزة (١٨) . ولكن هذه المحاولات فشلت بسبب صعوبات الطريق وكلفته ، وبقي طريق دمشق - بغداد ، عبر البادية . ناشطا في نقل البضائع رغم اخطار البدو . وحين ازداد حجم التجارة الخارجية التي سلكت هذا الطريق في اعقاب انشاء طريق دمشق - بيروت البري ، اضطر التجار الاجانب وممثلو الشركة التي انشأت هذا الطريق الى التعامل مباشرة مع القبائل البدوية وشراء صداقتها بالمال ، لتأمين سلامة البضائع ومرورها عبر البادية . وكان ذلك بداية التعامل بين الدول الاوربية الصناعية ، وبخاصة بريطانيا وفرنسا ، وبين القبائل البدوية ، بعد ان فشلت جميع المحاولات لايجاد البديل عن خط بغداد - دمشق المباشر .

وحدث في عام ١٨٥٩ ، مثلا ، ان هاجم البدو القافلة التجارية المتجهة من دمشق الى بغداد ، فاضطرت الى قطع الطريق بثلاثة وخمسين يوما . ومن شأن ذلك ان يتلف المنتجات السريعة العطب ، كما انه يزيد في مصاريف النقل . ولم يتمكن تجار دمشق ، او تجار بغداد ، على السواء ، من ايجاد تسوية مع البدو المجاورين للطريق ، وحتى البعيدين عنه ، الذين يهاجمونه بسبب عدم قدرة الدولة العثمانية آنذاك ، وخوف البدو من نكوث التجار بوعدهم ، باعطائهم ما الفوا ان يأخذوه من الخوة ، التي هي بمثابة حق الطريق . وحين ازدادت مصلحة التجار الفرنسيين والانكليز في استتباب الامن وحماية القوافل التجارية بين دمشق وبغداد ، عمدوا من التقرب من هذه القبائل التي أصبحت صديقة لدولة او لآخرى . وذكر في عام ١٨٦٦ ان قبائل ولد علي والشمر والقدعان ، وبني صخر والموالي ، وبعض افخاذ السبعة ، كانوا مواليين للفرنسيين ، في حين ان قبائل الرولة وبعض افخاذ السبعة والقبائل التي تسيطر على البادية في الجانب العراقي من نهر الفرات ، باتجاه بغداد ، كانت موالية للانكليز . وبالإضافة الى الفوائد المادية التي جنتها القبائل ، من ذلك ، فانها في كل

مرة نشب فيها الخلاف بينها وبين السلطات العثمانية كانت تلجأ الى قنصل الدولة التي تتعامل معها ليتدخل لدى هذه السلطات لصالحها (١٩) .

ومن المحاولات التي جرت لايجاد بديل عن خط بغداد - دمشق ، تلك التي حدثت في عام ١٨٧٠ حين بدأ نقل البضائع بين بغداد ومسكنة بواسطة السفن التجارية في الفرات . ومن مسكنة كانت البضائع تنقل برا الى حلب التي تبعد عنها بحوالي خمسين كيلومترا . وكانت تسير رحلة واحدة - في الاتجاهين - كل اسبوعين . واستغرقت الرحلة النهرية من مسكنة الى بغداد ثلاثين ساعة ، في حين أن الرحلة من بغداد الى مسكنة اقتضت تسعة ايام ، لانها كانت تسير ضد مجرى المياه . وقد فشلت هذه المحاولة بدورها (٢٠) .

وكان من انجح خطوط المواصلات التي تمت آنذاك خط بيروت - دمشق البري . وقد اعطي امتيازاه في الاساس الى الفرنسي (الكونت دو برتويس (de Perthuis) في ٢٠ تموز ١٨٥٧ ، فأوجد شركة عثمانية مغلقة براسمال قدره ثلاثة ملايين فرنك موزعة على ستة آلاف سهم . وبدأ العمل في هذا الطريق في تشرين الثاني في عام ١٨٥٩ ، وشارك حوالي الف الى الف وخمسمائة عامل في انجاز الجانب اللبناني منه ، وبعد اربعة اشهر تم تعبيد اربعة وعشرين من اصل مائة وثمانية كيلومترات من الطريق . وكان مقدرا للعمل أن ينتهي في عام ١٨٦١ ، ولكن الطريق دشن فعلا في الاول من كانون الثاني عام ١٨٦٣ (٢١) . وبلغ عدد المسافرين الذين استخدموا هذا الطريق في عام افتتاحه ٥٨٠٩ ، وارتفع هذا العدد الى ٨٤١٨ مسافرا في العام التالي ، وبلغ ٩٥٠٩ في عام ١٨٦٩ . وبلغت العائدات الاجمالية لهذا الطريق ٥٥ ألف فرنك في عام ١٨٦٣ ، ثم ارتفعت الى ٩٨ ألف فرنك في عام ١٨٦٦ . واتصل ممثلو الشركة المسؤولة عن الطريق بالبدو في البادية السورية لتسهيل نقل البضائع بين بيروت وبغداد عبر دمشق (٢٢) . وذكر أن كمية البضائع التي نقلت بواسطة طريق بيروت - دمشق ، في عام ١٨٦٣ ، بلغت ٧٣٠ طنا ، وارتفعت في عام ١٨٩٠ الى ٢١٤٠٠ طن . وزاد ذلك من عائدات الاسهم التي بلغت ٤٢ فرنكا في عام ١٨٧٢ ثم ارتفعت الى ٨٠ فرنكا في عام ١٨٨٢ . ولعب هذا الطريق دورا رئيسيا في حياة بيروت الاقتصادية ، وفي حياة المناطق المحيطة به ، ولاشك أنه كان عاملا هاما في استمرار بيروت كأهم ميناء على الساحل السوري (٢٣) . ولا ادل على اتساع نشاط ميناء بيروت خلال القرن التاسع عشر من الارقام التالية : بلغت زنة البضائع التي استوردت أو صدرت عن طريق هذا الميناء في عام ١٨٣٥ ، ١٢٨٠٦٣٥ طنا ، منها ٧٨٠٤٦٣ طنا من الواردات و ١٧٢٠٥٠٠ من الصادرات (٢٤) ، في حين كان مجموع البضائع التي تعامل معها ميناء بيروت ، استيرادا وتصديرا ، ٨٠٥٢٠ طنا في عام ١٨٩٥ (٢٥) .

وحين عارضت الحكومة العثمانية تمديد امتياز الشركة المشرفة على طريق بيروت - دمشق ، أو زيادة فعاليتها التي كانت تكفي لاستخدام ألف من الخيول والبغال في عمليات النقل ، بدأ التفكير لدى الشركة في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، بربط بيروت بدمشق بخط حديدي . وتم انشاء هذا الخط في عام ١٨٩٥ على يد شركة أخرى فرنسية باجيكية عثمانية . ولكن الخط الحديدي هذا مني بخسائر كبرى الى ان فرض الانتداب الفرنسي في ١٩٢٠ على سورية ولبنان ، وعندئذ أخذت عائدات الخط بالازدياد (٢٦) .

وازداد تدفق البضائع الاجنبية الى دمشق بنتيجة التسهيلات في عمليات النقل بينها وبين بيروت ، ويتبين ذلك من الاحصاءات التالية :

جدول ببيان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق والمصدرة منها بالفرنكسكات الفرنسية

السنة	البضائع المستوردة	النسبة	البضائع المصدرة	النسبة	الاجمالي
١٨٣٣	١٣ر٢٤٢ر١٢٥	٪٥٤	١١ر٢٤٨ر٢٥٠	٪٤٦	٢٤ر٤٩٠ر٣٧٥ (٢٧)
١٨٥٩	١٥ر٣١٨ر٢٥٠	٪٦٠	١٠ر٤١٨ر٠٠٠	٪٤٠	٢٥ر٧٣٦ر٢٥٠ (٢٨)
١٨٦٢	٢٠ر٢١٤ر٤٢٠	—	—	—	— (٢٩)
١٨٨٣	١٤ر٩٥٣ر٢٢٨	٪٥٧	١١ر٢٧٥ر٤٤٤	٪٤٣	٢٦ر٢٢٨ر٧٣٢ (٣٠)
١٨٨٤	١٥ر٠٠٧ر٠٠٠	٪٦٥	٨ر١١٣ر١٧١	٪٣٥	٢٣ر١٢٠ر١٧١ (٣١)
١٨٨٥	١٤ر٣٦٧ر٠٠٠	٪٦٣	٨ر٣٢٠ر٥٠٠	٪٣٧	٢٢ر٦٨٧ر٥٠٠ (٣٢)
١٨٨٧	١٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٪٦٣	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٪٣٧	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠ (٣٣)

يتبين من الجدول اعلاه ان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق خلال نصف قرن تقريبا راوحت قيمتها بالنسبة للقيمة الاجمالية للبضائع الاجمالية المستوردة والمصدرة ما بين ٪٥٤ و ٪٦٥ . في حين ان البضائع المصدرة منها تفاوتت نسبتها بين ٪٤٦ و ٪٣٧ . ويلاحظ ان قيمة البضائع المصدرة من دمشق كانت في تناقص في حين ان البضائع المستوردة كانت في ازدياد ، اي ان نسبة العجز في الميزان التجاري كانت بازدياد مستمر ، وقد بدأت هذه النسبة في الجدول بمقدار ٪٩ ثم بلغت بعد نصف قرن

٢٦٪ . ويعزى ذلك ، بدرجة كبيرة ، الى افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، التي حولت جزءا كبيرا في تجارة المرور بين الشرق الاقصى واوروبا عن دمشق ، ثم الى تزايد نقل الحجاج الى الحجاز بالطريق البحري ، وكذلك الى الخسارة التي منيت بها البضاعة الدمشقية بفعل منافسة البضائع الاجنبية .

وادى فتح قناة السويس وتحول قسم كبير من الحجاج لاستخدامها الى تحول قسم اكبر من البضائع التي كانت ترافق قافلة الحج عن دمشق . ولكن فتح القناة زاد من ناحية اخرى ، في حجم العلاقات التجارية بين دمشق ومصر . وكانت هذه العلاقات تقوم في السابق على المتاجرة بالتبغ ، الذي كان يستورد من بلاد فارس ويصدر الى مصر . واستوردت دمشق البضائع المصرية . وبخاصة الكتان ، الذي كانت له سوق رائجة في بلاد الشام (٢٤) . كما ان وجود تجار مصريين مقيمين في دمشق ، وبالمقابل وجود تجار من اهل الشام في مصر ، شجع مثل هذه العلاقات التجارية . ومما يجدر ذكره ان وجود الجالية المسيحية الشامية ، التي بدأت بالهجرة الى مصر منذ اوائل القرن الثامن عشر ، قد زاد من اتساع العلاقات التجارية بين البلدين (٢٥) .

وقد ضمت قوائم البضائع التي استوردتها دمشق في عام ١٨٢٣ السلع التي استوردتها من مصر ، وشملت الكتان ، والبن من مخا ، والنيلة ، والحناء ، وجوز انهند ، والاصبغة والجلود ، وانياب الفيلة ، والرز ، والسكر ، والقبعات ، والكرابييج ، والحصير ، والبلح . وبلغت قيمة هذه البضائع آنذاك ٦٣١٢٥٠ فرنكا ، اما صادرات دمشق الى مصر في تلك السنة فضمت الفواكه المجففة ، والتفاح ، والاحذية ، والمنسوجات ، والتبناك ، والشال الكشمير ، وسيوف فارس (٢٦) .

وكان لاستعمال الحجاج ، وبخاصة حجاج الاناضول والبلقان ، للطريق البحري الى الحجاز ، اثره الكبير في تناقص حجم التجارة التي كانت تفيد منها دمشق كمركز لقافلة الحج الشامي . فقد افادت دمشق الشيء الكثير من تجارة الحج قبل ذلك . وكان يؤمها عادة ، كل سنة ، حوالي ١٥ الى ٢٠ الف حاج ترافقهم بضائع كثيرة ، الى الحجاز ومنه . وينفق هؤلاء الحجاج الاموال الكثيرة في دمشق للتزود بالمؤن ، واستئجار الجمال ، وشراء السلع (٢٧) . ولا ادل على اهمية البضائع التي تحملها قافلة الحج الشامي من استعراض البضاعة التي حملتها معها ، مثلا ، قافلة الحج العائدة من الحجاز الى دمشق في ١٥ صفر ١٢٥٨ / ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء ، وزن ٢٢٥٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، ويقدر ثمنها بـ ١٢٠ الف قرش فضة (ما يعادل ٣٠ الف فرنك فرنسي) ، و ٤٠ حملا من بن مخا (كانت في الاصل تسعين فقد منها في الطريق خمسون حملا) ، وزن ٤٠٠٠ رطل ، ثمنها ١٤٠

الف قرش ، و ٢٠ حملا من نسيج هندي للعمائم ، كل حمل من بالتين ، تحتوي كل منهما مائة قطعة ، ثمن كل قطعة ٢٠٠ قرش ، مجموع ثمنها ٨٠٠ الف قرش . وقد رت الجواهر التي حملتها القافلة بما ثمنه ١٠٠ الف قرش . وبلغ سعر ريش النعام الذي حملته هذه القافلة ١٧٠ الف قرش ، والعطور ١٦٠ الف قرش ، والسلع المتنوعة ٦٠ الف قرش . وكان مجموع ثمن البضائع التي حملتها القافلة ما يعادل ٢٠٠.٨٥٠ ر١ قرش (٢٨) .

وهكذا اخذت اعداد الحجاج المسافرين عن طريق دمشق بالتضاؤل التدريجي في القرن التاسع عشر . فقد اشتملت ، مثلا ، القافلة العائدة الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٤٥ على حوالي ستة الاف حاج ، الفين منهم من لاعجام ، والفين من الاتراك ، والبقية من العرب . ورغم هذا العدد المتواضع للقافلة فان الحجاج احدثوا حركة تجارية ناشطة في دمشق ، وقد رت مشترياتهم منها بحوالي ستة ملايين قرش (٢٩) .

وقد بدا الحجاج الاتراك ، منذ اوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر بالسفر ، على نطاق واسع ، بطريق البحر الى الحجاز ، بواسطة السفن التجارية التي شاع استعمالها ائذاك (٤٠) . وكانت اشهر شركتين تسييران مثل هذه البواخر في المتوسط هما : المساجيري امبريال (Messageries Imperiales) والشركة الروسية (Compagnie Russe) ويصل الحجاج الى بور سعيد او الاسكندرية ثم يتابعون سفرهم ، من الاولى في القنال ومن الثانية في القطار ، الى السويس حيث يستقلون باخرة اخرى الى جدة . ويعود اختيار الحجاج للطريق البحري الى كونه اكثر امنا من الطريق البري ، الذي اخذ يعج بقطاع الطرق ، وكذلك الى كونه اقل كلفة (٤١) .

وكان بعض الحجاج الاتراك يستخدمون الطريق البري في الذهاب والطريق البحري في الاياب ، حين يكونون محملين بالبضائع . وضمت القافلة التي عادت الى دمشق من الحجاز في ٧ آب ١٨٦٢ الموافق ٢٢ صفر ١٢٨٠ ، مائتين وخمسين حاجا فقط . اما الباقيون فقد عادوا بطريق البحر . وكان يرافق هؤلاء الحجاج الى دمشق ٦٥٠ عبدا من الجنسين ، وجه مئتان منهم الى حلب وبيع الباقيون في دمشق ، على الرغم من وعود الباب العالي ومحاولات الدول الاوربية منع المتاجرة بالرقيق (٤٢) . وزاد في تناقص الحجاج المسافرين بطريق دمشق ان الحجاج من العجم اخذوا يستقلون منذ عام ١٨٧٠ ، الطريق البحري من الخليج العربي الى جدة (٤٣) .

وقد علق نعمان القسطللي ، صاحب كتاب الروضة الفناء في دمشق الفيحاء ،

والذي عاصر تلك التحولات ، على تناقص حجم التجارة المرتبطة بقافلة الحج بقوله : « وأول نكبة دهمتها (أي دمشق) تسببت عن سير سفن التجار في البحار فخرست تجارتها البرية مع الاستانة والروم ايلي وبر الاناضول وغيرها وتحول ذلك الى المواني البحرية وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظيى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها فخرست جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها ذهابا وايابا حيث كان ياتيها كل سنة ثمانية الاف ونيف ويتجهزون منها للحجاز وفي اياهم يتجهزون منها الى بلادهم ويأخذون البضائع والاقمشة اما هدايا او للتجارة واذا انفق كل حاج . ٥ ليرة يكون ما ينفقه الحجاج سنويا اربع مئة الف ليرة ولا يخفى كم كانت تنتفع دمشق من هذه المبالغ وقد كان كثيرون من اهلها من ذوي العيال الكبيرة الذين لا ثروة عندهم يتعيشون من البيع بالامانة للحجاج او من انزال البعض في بيوتهم . وقد كملت في هذه السنة اضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لان ما بقي لها من تجارة العراق فتح له طريق على السويس فتحول الى مواني سوريا » (٤٤) .

وادی تضرر دمشق التجاري هذا الى تضرر الاسواق الريفية التي تتعامل معها ، وبخاصة القرى في حوران وغيرها ، التي كانت تؤجر الاف الجمال لنقل الحجاج ومؤونهم والقوات العسكرية المرافقة لهم . واشهر تلك الاسواق سوق المزيريب (وتبعد مسيرة يومين عن دمشق) ، حيث كان يتجمع الحجاج استعدادا لانطلاقهم الى الحجاز . وكان يقام في المزيريب كل سنة ثلاثة اسواق كبيرة اشبه بالمعارض ، اثنان منها بمناسبة ذهاب قافلة الحج وعودتها ، وثالثها في الربيع لخدمة مصالح الفلاحين والبدو والتجار من مراكز المدن (٤٥) .

وكانت المزيريب سوقا رائجة لتجارة الخيول التي ياتي بها بدو العنززة وبدو نجد . واهتم الاوربيون بشراء الخيول من سورية نظرا لجودتها ، ولاستخدامها في تحسين نسل خيولهم ولاستعمال حرسهم الملكي (٤٦) وقد ادت كثرة شراء الفرنسيين والاتكليز للخيول والبغال (التي استخدمت في النقل) من سورية ، الى تضرر المواصلات المحلية والحد من انتقال البضائع والسلع (٤٧) .

مناهضة البضائع الاوربية للبضائع الشامية

لاحظنا ان تدفق البضائع الاجنبية ، وبخاصة النسيجية منها ، الى بلاد الشام قد بدأ يلفت النظر ابان الحكم المصري ، نظرا للتسهيلات الكبيرة التي منحها ذلك الحكم للمصالح الاجنبية . ثم كانت معاهدة ١٨٣٨ بين الدولة العثمانية وبريطانيا ،

والتي تلتها معاهدات أخرى من هذا القبيل مع دول أوربية متعددة ، فازداد تدفق البضائع الأوربية إلى ولايات الدولة العثمانية ، بفعل الضرائب الجمركية المتدنية التي تقاضتها الدولة العثمانية عنها . وكانت الثورة الصناعية في أوربا في أوجها ، وتبدت بصورة خاصة في صناعة النسيج التي أخذت تكتسح العالم برخص منتجاتها وجودتها في الوقت ذاته . ولم تتمكن المنتجات الحرفية المحلية ، التي اعوزتها حماية الدولة العثمانية ، من منافسة البضائع الأجنبية .

ولم يكن أثر هذا الوضع مقتصرًا على أصحاب الحرف ، وبالتالي على الاقتصاد المحلي التقليدي ككل ، بل بدل في بنية المجتمع وافرز فئات وسيطة غير منتجة ، لعبت دور الوسيط بين المستهلك المحلي والمنتج الأوربي ، وكونت إحدى دعائم البورجوازية الجديدة . كما أن هذا الوضع ساعد ، بالنتيجة ، على ظهور أنماط جديدة من الإنتاج المحلي والتعامل الاقتصادي ، في محاولة للتأقلم مع هذا المد الأوربي . وإذا ما تذكرنا أن حوالي خمس عمال دمشق كانوا يعملون في الصناعة النسيجية ، فإن أثر المنافسة الأوربية للبضائع المحلية انعكس إلى حد كبير على البنية الاجتماعية أيضا .

وقد سوقت المنسوجات الأجنبية في دمشق في دكاكين خاصة بها في الأسواق الرئيسية ، مثل سوق الخياطين وسوق باب البريد . وأشار الأهلون إلى هذه البضائع على أنها أجنبية . وإذا ما اشتهر نوع منها فعندئذ يذكر بلد المنشأ إلى جانب اسم البضاعة ، كأن يقال (جوخ انكليزي) . وادت المنافسة بين البضائع الأجنبية في السوق المحلية إلى تدني أسعارها بدرجة أكبر ، الأمر الذي جعل منافستها للمنتجات المحلية أشد من ذي قبل . ويذكر ، مثلا ، عام ١٨٥١ ، أن مؤسسة تجارية يونانية استوردت إلى دمشق كمية كبيرة من الكتان النمساوي ، وطرحته في السوق بأسعار تقل عن أسعار مثيله الفرنسي ، مما أضر بهذا الأخير (٤٨) .

وعمدت البضائع الأجنبية إلى تقليد الأنماط النسيجية المحلية ، مما زاد في ترغيب السكان المحليين باقتنائها . وكمثال على ذلك تقليد الصناعة النسيجية السويسرية لأنماط الكتان الدمشقي ، ثم تصديره إلى دمشق ومنافسته للكتان المحلي في عقر داره (٤٩) .

وطبيعي أن المنافسة الأوربية لم تقتصر على بضائع دمشق فحسب ، بل شملت بضائع المدن الأخرى ، ففي حلب مثلا ، قلدت منسوجات مدينة ليون الفرنسية منسوجات حلب ، وفعلت ذلك منسوجات بريطانية وبلجيكا وسويسرا وألمانيا ، مما أشاع أعمالها بين السكان المحليين لرخص أسعارها (٥٠) . وكانت البضائع الألمانية

قد اخذت في غزو السوق المحلية بعد عام ١٨٧٠ ، أي بعد اكتمال الوحدة الالمانية ، وانطلاق المانيا الى التوسع التجاري والاستعماري . وقد علق القنصل الفرنسي في دمشق على دخول المنسوجات الالمانية ميدان المنافسة مع البضائع الالمانية في السوق المحلية فقال انها تغزو اكثر فأكثر سوق دمشق (٥١) .

ومما أضر بمنتجات دمشق ان المراكز التقليدية لتصريف هذه المنتجات ، سواء المدن والارياف السورية ، أم الاناضول والعراق ومصر ، قد انخست هي الاخرى بالبضائع الاجنبية ، التي نافستها فيها . وقد ادى تحول قسم من الاهالي عن الزي المحلي الى الزي الالوي الى التخلي عن البضائع المرتبطة بالزي المحلي ، وزواج البضائع المناسبة للزي الالوي .

ولم تكن الحكومة العثمانية لتهتم بالمصير الذي آلت اليه الصناعة المحلية لولا ظهور افلاسات بين التجار المحليين الذين يتعاطون التجارة بالاقمشة المحلية ، والى اضطراب اوضاع الحرف ، وبخاصة النسيجية منها ، مثل حرف فتالة الحرير ، والصباغين ، والقصارين ، والطباخين ، والدقاقين ، والالاجاتية ، والقطنية ، مما افقر اصحابها ، وادى بالتالي الى تعذر جباية الضرائب المفروضة عليها . ووضح مثال على ذلك الطلب الذي تقدم به أحد كبار ملتزمي الضرائب في دمشق ، ويدعى عبد القادر آغا خطاب ، الى السلطات المسؤولة في دمشق بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١/١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، يلتمس فيه تخفيض قيمة الضرائب من العام السابق نظرا للخسارة التي لحقت بالمشتغلين بالاقمشة المحلية من جراء منافسة البضائع الالوية . وكان عبد القادر هذا قد التزم في عام ١٢٦٠ ضريبة دمغة منسوجات القطني والالاجه والصلواتي والديما ، بمبلغ قدره (١٤٥٠٠) قرش . وحين طرحت تلك الضريبة في المزاد العلني في مطلع العام التالي بدأت المزايدة ب ٣٠٠٠٠ قرش وبلغت ١٣٠٠٠٠ قرش . تقدم بها عبد القادر خطاب بالنيابة عن ابنه ، ثم تقدم هو بنفسه بمبلغ العام السابق . والجدير بالذكر ان جميع المزايدين كانوا من كبار اعيان دمشق . والتزم عبد القادر خطاب قلم المنكنا (تستعمل في كبس الانسجة القطنية) بمثل ما التزمه به في العام السابق . ويقدر بمبلغ ٦٠٠٠٠ قرشا . وفعل مثل ذلك بالنسبة لالتزام دق القطني ، الذي التزمه بمبلغ ٤٧٢٠٠ قرش ، والتزم حوالي ١٢ قيراطا من دق الالاجه بمبلغ ٢٧٠٠٠٠ قرش ونصف . وكان مجموع المبلغ الذي انتزم به عبد القادر خطاب هو ٢٧٩٣٥٩ قرشا ونصف . وذكر عبد القادر خطاب انه خسر في عام ١٢٦٠ في التزام هذه الاقلام مبلغ خمسين الف قرش و اضاف : « واذا لم صدقتم مبلغ الخسارة فاستحضروا السيد مخي الدين كاتب سوق الدق وباقي كتاب الاقلام واطلعوا على اندفاتر يظهر لحضراتكم صدق تقريرنا ففي هذه السنة (أي ١٢٦١ هـ) بحسب حالة

الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الاجنبية فالاقمشة الشامية كمالها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم وليس له تدبير فان تحسن يصير التبصر بما أعرضناه لاجل ملاحظة حال دعجيتكم ورفع المغدورية عنه الموصلة لخراب الحال حيث هذه الاقلام بالاقيام السابقة لا تستطيع على تأدية حالها . وبمذاكرة السلطات المعنية بالطلب رأت « انه بخصوص توقف بضائع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الاجنبية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقير الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضائعها التي هي القطني واللاجة والديما(٥٢) فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكور لسبب تدقير بضائعها مقبول ولكن لا يصوغ الرخصة من تنقيص الاموال الميرية على قياس تدنيها في الماضي فقد تتزايد في المقابل بحسب تواجد البضائع» (٥٣). ومع ان عبد القادر خطاب قد رفض طلبه بتخفيض مبلغ التزام هذه الضرائب فانه قبل الالتزام نظرا لما كان يتوقعه من فائدة ولانه كان هو بالذات ممتثلا لهذا الالتزام وغيره . وحصل مع ذلك على تسهيلات في دفع الضرائب ، اذ اعفي من دفع اي مبلغ في الاشهر الثلاثة الاولى من سنة الالتزام على ان يقسط كامل المبلغ على الاشهر التسعة الباقية ويدفع قسط كل شهر في نهايته(٥٤) .

ومما يجدر ذكره ان عبد القادر خطاب هذا حين توفي بعد سنوات قليلة وحسرت ثروته من قبل القسام العربي بتاريخ منتصف ربيع الاول ١٢٦٥ / (٨ شباط ١٨٤٩) ، تبين ان مجموع ثروته هو ٤٠١٩٥ قرشا ، بعضها كان ديونا لقاء ثمن جمال وكدش لم يستوفها ، وبعضها ديون مدفوعة له ، وبعضها ثمن امثلة وممتلكات اخرى . وحين اقتطعت الرسوم والنفقات المترتبة على وفاته والبالغة ١٦٦٥٦ قرشا وثلاثة ارباع القرش ، بقي من ثروته ٣٨٤٥٣٨ قرشا ونصف القرش . وقد حجزت خزينة الدولة كامل هذا المبلغ لان تركة المتوفي مغرقة بالديون الميرية للدولة . ولم تستفد نساؤه الاربع واولاده من ثروته ، ولكن بقيت الدار المقدرة قيمتها بـ ١٠٠ الف قرش بين الورثة(٥٥) .

ونجم عن شدة منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية وتحول التجار الاجانب عن اسلوب المقايضة في السلع ، الذي اعتمدوه قبل قيام الثورة الصناعية ، الى بيع منتجاتهم بالعملة الذهبية(٥٦) ، ومعظمها اوروبي ، وانهيار قيمة العملة المحلية الفضية وكثرة فرض الضرائب على الاهلين من قبل السلطات الحاكمة ، ان عمت الفوضى في الحياة الاقتصادية المحلية لصالح الرأسمالية الاوربية .

وكانت كثرة انواع العملات المتداولة في دمشق ، من محلية واجنبية ، وذهبية

وفضية ونحاسية ، واختلاف اسعارها ، عامل فوضى في التعامل التجاري . فالوحدة المحلية المتداولة كانت القرش الفضي الذي يوصف بأنه صاغ وصحيح وميري ، ويقسم الى اربعين مصرية ، او بارة ، اما العملات الاخرى فبعضها من بقايا الحكم المصري وبعضها الاخر عثماني يحمل اسماء بعض السلاطين ، وبعضها اوروبي متنوع يشار اليه باسم الدولة التي اصدرته او بالعلامة التي يحملها ، وباستعراض قيمة بعض العملات المتداولة الرئيسية ، من اجنبية ومحلية ، خلال سنتين ، يتبين مدى ازدياد قيمة العملات الاجنبية منها بالنسبة لوحدة التعامل الرئيسية ، وهي القرش الفضي الصحيح الميري .

السنة ليرة مجيدية ليرة مصرية ليرة فرنساوية ليرة انكليزية ليرة موسكوفية

١٢٧٤ هـ / (٥٧) ١١١ قرشا	١٢٥	٩٥ر٥	١٢٠	٩٧ر٥	
١٨٥٧					
١٢٧٦ هـ / (٥٨) ١١١ر٥	١٢٦	٩٨ر٥	١٢٤	١٠٠	
١٨٥٩					
قرانصة	ريال	ريال	ريال	ريال	بشلك
	شوشة (٥٩)	سينكو (١٠)	مجيدى	فنس	
١٢٧٤ هـ / ٥٧ر٥	٢٦ر٥	١٤ر٢٥	٢٢ر٥	١٩ر٥	٥ر٥
١٨٥٧					
١٢٧٦ هـ / ٥٧ر٥	٢٥ر٧٥	٢٤ر٥٠	٢٢	١٩ر٥	٥
١٨٥٩					

نلاحظ من هذه القائمة انتشار العملات الذهبية الاجنبية وارتفاع اسعارها بالمقارنة مع العملات العثمانية والمحلية ، وكذلك ارتفاع سعر الليرة الانكليزية بالنسبة للعملات الاخرى . وهذا دليل على سيطرة الراسمالية الاوربية ، وبخاصة البريطانية ، على السوق المحلية . وبلغ من الثقة بالعملات الاجنبية ان معظم تركات المتوفين الميسورين ، اذا ما احتوت على نقود ، كانت معظم تلك النقود بالعملات الاجنبية . ومن الطبيعي ان يحدث هذا نظرا لكثرة العملات العثمانية والمحلية المتراكمة من عهود مختلفة ، كما يستدل من اسمائها ، وتبدل اوزانها ، والتلاعب فيها ، وانعدام الثقة بها . وكانت اسعارها اما ثابتة او بتراجع مما لا يشجع على اقتنائها وادخارها ، بالمقارنة مع العملات

الاجنبية . وضمت القائمة الاولى من عام ١٢٧٤ / ١٨٥٧ بالاضافة الى ما ذكرنا ، فئات النقود التالية المتداولة : ذهب عتيق ٦٠ قرشا ، التنك ٦٥ ر٠ ، قمریات ؟ . وفي القائمة الثانية من عام ١٢٧٦ / ١٨٥٩ ذكرت العملات الاضافية التالية : دبلون ٤٠ قرشا ، قرانصة مربع ٢٥ ، حجر ٥٦ ر٥ ، بيشلي قديم ٢٠ ، عامود (١١) ٢٧ ر٥٥ ، ربع فنس ٧٥ ر٤ ، قروش وخمس مصريات او بارات ، فرنك ٤ قروش وخمس مصريات ، ربع فرنك ٣ ر٥ ، جهادي صحيح وازنه ١١٢ ، نصف جهادي طري ٥٠ ، نصف جهادي يابس ٣٩ ، غازي قديم وازن ٣٧ ، معدوحي وازن ٢٨ ، ربعية جنزلية ١٥ ، ليرة مجيدية مبخوشة ١٠٩ ، مجيدي مبخوش ٢١٥ .

واذا ما اجرينا مقارنة بين نسبة ازدياد قيمة الليرات الاوربية خلال سنتين (١٢٧٤-١٢٧٦ / ١٨٥٧-١٨٥٩) ، والتي بلغت حوالي ٣٪ ، ونسبة ازدياد قيمة العملة العثمانية الذهبية بالنسبة للقرش الفضي ، لتبين لنا انخفاض قيمة القرش بالنسبة للذهب . ونظرا لاختلاف تسميات العملات بين فترة واخرى ، نأخذ مثال الغازي القديم ، الذي يبدو ان تسميته لم تتغير . فقد ضرب الغازي القديم عام ١٢٢٣ / ١٨٠٨ - ١٨٠٩ في عهد السلطان محمود الثاني ، وكان عيار ذهبه ٢١ ر٢٥ قيراطا ، وسعره ٢١ ١/٢ قرشا . وسعر رسميا في دمشق في ١٨ نيسان ١٨٨٣ ، ابان الحكم المصري ، بما يساوي ٢٠ قرشا وخمس بارات (١٢) . واصبح سعره في عام ١٢٧٦ / ١٨٥٩ ما يعادل ٣٧ قرشا ، اي ان سعره ازداد خلال واحد وعشرين عاما ١٦ قرشا وخمس وثلاثين بارة . وهذا دليل على انهيار قيمة الوحدة النقدية الفضية ، وهي القرش بالنسبة للذهب ، بنسبة تقدر بحوالي ٥٤٪ .

ومما زاد في الضائقة المالية لدى افراد الشعب فرض الدولة ضرائب اضافية ، اهمها ضريبة الاعانة التي فرضتها الدولة في عام ١٨٣٤ . وجببت الاعانة من دمشق بفرضها جماعيا على كل ثمن من اثمان المدينة . وكذلك فرضت جماعيا على القرى . وجببت الاعانة من الافراد الذكور حسب وضعهم المالي ، واعفي منها ، كليا او جزئيا ، من ثبت فقره . وطولب الافراد بدفع الاعانة في اماكن اقامتهم لا في محلات عملهم . واعفي من الاعانة بعض الفئات ، مثل العسكريين وملتزمي الضرائب ، وسكان القرى الخربة . ومن الامثلة المتوافرة لدينا ، نلاحظ ان مبلغ الاعانة قد راوح ، في حوالي عام ١٨٤٥ ، ما بين مائة وخمسمائة قرش على الفرد الواحد ، ولجأ البعض الى الاحتماء بالقنصليات الاجنبية لتحاشي دفع الاعانة (١٣) . وهناك ارتباك في المصادر حول التمييز بين ضريبة الاعانة وضريبة الفردية . فمن المصادر ما يستخدم الاعانة في مكان الفردية ، التي سبق ان استعملها المصريون اثناء حكمهم كضريبة على الافراد ، ثم عاد فظهر استعمالها زمن العثمانيين . ومن المصادر ما يجعل الفردية غير الاعانة . وقد زيد مبلغ الفردية على الشخص الواحد في عام ١٨٤٥ الى ٥٠٠ قرش ، في حين انها خفضت على

الفقراء الى حدود ١٥ الى ٣٠ قرشا(٦٤). ويدل هذا التباين في الضريبة على اتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء، وكان ذلك احد عوامل الاضطرابات الاجتماعية - الطائفية التي حدثت في حلب في عام ١٨٥٠ ، وفي جبل لبنان ودمشق في عام ١٨٦٠ ، والتي استفلها اصحاب المصالح ، من فئات محلية وقوى اجنبية ، لصالحهم .

واناخ التجنيد الاجباري بثقله على الاهلين وعطل من فعاليات شبابهم الاقتصادية . وحسب الاوامر الصادرة في عام ١٨٥٠ ، فقد زيد عدد المجندين من سورية عشرة آلاف . ويشكل المجندون ، حسب الاحصاءات المقدرة آنذاك ، نسبة واحد الى احد عشر من الشبان الذين تراوح اعمارهم ما بين ٢٠ و ٢٥ سنة . وفيما يلي بعض اعداد المجندين من المناطق السورية في عام ١٨٥٠ : دمشق ١٦٨٥٤ مجندا ، حلب ٢٦٣٧٤ ، صيدا ٢٤٣٣٤ ، طرابلس ١٦٤٠٥ مجندا . وهرب عدد كبير من الشباب من دمشق الى الجبال لتحاشي التجنيد (٦٥) .

وقد نتج عن هذه العوامل . وفي طبيعتها العامل الاقتصادي الذي تجلى بسيطرة الرأسمالية الاوربية على السوق المحلية ، ازدياد حالات الافلاس بين صغار التجار والحرفيين على حد سواء . ولفتت الافلاسات في مدينة دمشق النظر منذ السنوات الاخيرة من الحكم المصري في بلاد الشام . ومن الذين افلسوا ايضا ملتزموا الضرائب الجمركية الذين وقعوا في عجز في عام ١٨٣٩ قدر بمائتي الف قرش(٦٦) . وقد وقف القضاء الى جانب المفلسين الذين ثبت عجزهم عن الدفع ، الى حد دفع بعض المراقبين الاجانب الى القول ان تسامح القضاء مع المفلسين شجع على الاكثار من حالات الافلاس(٦٧) .

وتوضح الامثلة التالية بعض حالات الافلاس وطرق معالجتها من قبل السلطات . فقد تقدم السيد ابراهيم المالح بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٦١ / ١٩ اذار ١٨٤٥ بالمعروض التالي: « نعرض لسعادتكم بانه غير خافي المراحم العلية بالاصناف وتأخير احوالهم فعبدكم رجل دكنجي برقبته اطفال وعيال من قلة الحركة متأخر عليه جانب عن ثمن بضاييع لاربابها واربابها ما هم صابرين مرادهم كل من له شي يأخذه بالتمام وهذا شي ما هو متوقع مع عبداكم وما له قدرة عليه ومرادهم كسر سبب عبداكم ومن ذلك يحصل على عبداكم غدر وتتعطل احواله واذا تعطلت احواله فهلك عياله نرجوكم احالت المادة الى ديوان التجار ومن بعد الوقوف يعملوا لعبداكم رابطة موافقة لاداء المطلوب بالذي يمضي به الحال من دون مغدورية على احد واغتنام دعانا والامر امركم افندم » . وفي التقرير الذي قام به محمد بك عظمة زاده ، بمعرفة التجار ارباب الديون ، تبين له وللسلطات حقيقة امر المستدعي « فعمومهم قرروا بعجزه وتأخير حاله فحصل جرد دكانه بحضور

بعض دياناته فوجد له موجودات بديكاته مع جارية سودة كانت بداره وضعها مع الموجودات وحررنا قائمة بالديون التي عليه وتخمين موجوداته فبلغ القرش نصف عبارة عن عشرين بارة فاقتضى تحرير هذا الخطاب لكي نستعلم من الديانة عن الذي يقبل اخذ النصف الموجود ويسمح بالباقي كما ذكر واما يأخذ النصف ويعطي مهلة بالنصف المتأخر مدة ستة سنين عن ستة اقساط يدفع قسط واحد وابتدا تناوله بعد سنتين من تاريخه حيث ما بقي بيده مال يستعين منه الوفا وصارة يده فارغة من الرسمال فينبغي تحرير المجاوبة عما ذكر لنعرض كيفية الجواب لطرف المجلس حسب الاصول . وقد اجاب ارباب الديون بانهم يقبلون قبض النصف ويبقى النصف الاخر ، باستثناء دائن واحد قبل قبض النصف وسمح ، اي تنازل ، عن النصف الباقي ، وقبلت السلطات بذلك وخيرت بقية الدائنين الذين لم يحضروا بان يحذواحدو هؤلاء والا ترتب عليهم اقامة البينة على يسار صاحب المعروض . وحسمت القضية على هذا الشكل بتاريخ ٤ شعبان ١٢٦١/٦ تشرين الاول ١٨٤٥ (٦٨) .

والجانب الهام في هذه القضية هوية الدائنين ، الذين ضموا ، حسب تسلسل ورود اسمائهم ، حنا زريقة ، فتح الله طراد ، الحاج محمد ابو رشيد ، السيد محمد الادلبي ، السيد ابراهيم الدقر ، جرجس عنحوري ، محمد انيس قصاب حسن ، الحاج سليم اغا (الذي سمح بالنصف الباقي) ، الياس مخشن ، الشيخ سعيد متولي قطنا ، السيد صلاح القتلان ، الخواجة نقولا خباز ، وابراهيم التركرتي . ولم تذكر مبالغ الديون التي كانت لكل واحد من هؤلاء ولا نوعيتها ، او فائدتها او مدتها . وكان السيد ابراهيم المالح قد اشار في معروضه الى ان الديون التي بدمته هي ثمن بضائع لاربابها ، مما يدل على ان هؤلاء الدائنين هم من التجار الذين قدموا ، كما يرجح ، البضائع للسيد ابراهيم المالح على ان يدفع ثمنها فيما بعد . وليس هناك دليل على نوعية البضائع التي تعامل بها المدين والدائنون . ولكن وجود اربعة من المسيحيين بين الدائنين ، وربما خامس هو فتح الله طراد ، الى جانب ثمانية ، او تسعة ، من المسلمين امر له دلالة ، لانه يظهر القاسم المشترك الذي جمع هؤلاء في التجارة وغيرها ، وكذلك التعامل على قدم المساواة في عقد الديون وتحمل نتائجها . ويتبين ايضا من كون اثنين من الدائنين حملا لقب « الحاج » وآخر « الشيخ » ، وثلاثة لقب « السيد » ، وربما كانوا من الاشراف ، ان طائفة التجار لم تكن مقتصرة على فئة معينة من الناس ، وان مهنة التجارة صهرت وقربت بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومستوياتهم الاجتماعية .

وفي قضية اخرى نظرت السلطات في الديون المترتبة على احد الصنائع ، وربما كان يعمل في اعداد مواد البناء . وبالاتفاق مع دائنيه قرر معظمهم اخذ ربع ما هو مدين

به لهم وأبرأوا ذمته من الباقي ، في حين أبرأ البعض ذمته من الدين كاملا (٦٩) .

وهناك عدة قضايا تدل على الازمات التي أخذت تعاني منها ، بخاصة ، الحرف التي كانت تساهم في تصنيع الاقمشة . من ذلك معروض حسن بن حسين الصباغ الى السلطات في دمشق ومضمونه : « يعرض عبدكم اني صباغ وأبي صباغ وجدي صباغ ولنا قدمه بصبغ نيل وأحمر وأخضر والان ظهر بصمجية متعلقين على صباغ الاحمر من نحو عشرة سنوات ولم احد مانعهم والان يريدوا يمنعونا من كارنا وكار ابونا وجدنا ونحن فقرا واصحاب اعيال وعلينا مال مكسور الى أربابه ويقولوا لنا شاركونا وبطل شغل النيل والا لم يخلونا نشتغل والامر امركم » . وقد رأت السلطات بتاريخ ١٦ جمادى الثانية ١٢٦١ / ٢٢ حزيران ١٨٤٥ « ان مقدم المعروض رجل فقير الحال ومعارضته وممانعته من تعاطي أسبابه غير موافق لكون أن اليد الواحدة ممنوعة بالوجه الشرعي والعرفي فيقتضي عدم المعارضة في تعاطي أسبابه » (٧٠) . ويتبين من هذه القضية أن أحد أساسيات العمل الحرفي ، وهي توزيع العمل والتخصص فيه . قد انتهكت آنذاك حين سلب احدهم الصباغة باللون الاحمر لعدة سنوات ، وأريد سلبه بعد ذلك الصباغة باللون النيلي ، من قبل أناس ليسوا من المهنة (متعلقين) . وهذا الاعتداء على التخصص يدل على أن مرباح هذه المهنة لم تعد كافية ، لذا عمد البعض الى تجميع أكبر عدد ممكن من التخصصات الحرفية في أيديهم . وجاءت السلطات لتدعم تقاليد العمل المتعارف عليها .

وفي قضيتين أخريين ، احدهما تقدم بها اليهود من طائفة غسالي القماش ، والثانية رفعها طباع فقير « يطبع القماش » في عام ١٢٦١ / ١٨٤٥ ، برز خلاف بين المعلمين والصناع في هاتين الحرفتين حول أجور الصناع . ولم تقف السلطات الى جانب أي من الفريقين ، بل تركت لكل حرفة حل خلافاتها بنفسها (٧١) . وهذا دليل ، من ناحية ، على استقلالية الطائفة المهنية تجاه الدولة ، وعدم تدخل هذه الأخيرة في شؤونها . ومن ناحية ثانية ، فإن إثارة الخلافات حول الاجور بين المعلمين والصناع ، في هذه الطوائف الحرفية بالذات التي عملت في تصنيع الاقمشة ، دليل آخر على الضائقة التي أخذت تعاني منها الاقمشة المحلية التي تعرضت لمنافسة البضائع الأجنبية . والمعروف أن المعلمين في الحرفة ، وهم الذين يحق لهم افتتاح الدكاكين والمشاغل ، يحاولون في أوقات الضيق الاقتصادي أن يقللوا من أجره الصناع لتلافي الخسارة ، أو لتفادي التقليل من أرباحهم . وليس هذان المثالان الا شاهدين على حالة عامة من الشقاق ضمن الطوائف الحرفية ، وبخاصة منها التي تتعاطى صناعة الاقمشة التي تهددت مصالحها بفعل المنافسة الأوروبية . وقد أشار الياس قدسي ، الذي كتب

في عام ١٨٨٣ عن الحرف الدمشقية ، الى « الثورات التي تحدث من الفعلة على المعلمين بطلب تزييد الاجرة (ويعبرون عنها بقولهم « الكار قالع » أي ثائر) » (٧٢) .

ونستدل من هذا ان الضائقة المالية التي لحقت بالحرف قد ازمت العلاقة بين الصناع والمعلمين الى الحد الذي وصف به احتجاج الصناع بأنه ثورة . وفي هذا ملامح صراع طبقي في مجتمع بدأت تتسرب اليه الرأسمالية الغربية وتهز أسسه التقليدية المتوازنة وتسهم في ايجاد الفوارق في الثروة بين المنتجين والمستهلكين . ولم يكن ، في الاقتصاد الحرفي التقليدي ، تباين كبير في الثروات بين المعلمين في اية مهنة ، أو بينهم وبين الصناع . ويلاحظ في تصنيع الاقمشة مثلا ان المشاغل كانت فردية ومتواضعة ، ولم يزد عدد الانوال في أي منها ، كما يتبين من معظم سجلات الوثائق الشرعية ، عن أحد عشر نولا . وضم معظمها بين نولين وأربعة أنوال . ومردود هذه الانوال المعتدل يوزع بشكل مقبول أرباحا للمعلمين وأجورا للصناع . ولكن المجابهة مع الصناعة الاوربية لم تضعف الصناعة المحلية فحسب بل زادت من التناقضات الاجتماعية حتى داخل الحرفة الواحدة ، وأصبح الحرفيون الفقراء عنصر عدم استقرار سياسي واجتماعي في دمشق .

ومن الامثلة البارزة التي تجلى فيها الاثر المدمر للاقتصاد الاوربي على الاقتصاد المحلي التقليدي ما حدث لانتاج قماش الالاجه الفاخر في دمشق . وكانت الالاجه ، الى جانب قماش القطني ، اهم نسيجين في دمشق . وتختلف نسبة الحرير في كل منهما ، ولكنهما يشتركان في انتاج النسيج المقلّم ، وفي تسويق هذا القماش على شكل قطع او اثواب ، طول الثوب منها في الغالب ، كما قدر في حوالي ١٨٦٣ (٧٢) ، (٦٠ ر٥) امتار ، بعرض (٧٠) سم . وقدر مصدر آخر طولها بتسعة اذرع او تسعة وربع ، وذلك قبل غسلها ودقها وكبسها (٧٤) . ولا يعرف هنا بدقة طول الذراع المستخدم ، ولا يمكن حسابه على اساس التقدير بالامتار لان عمليات الغسل والشدق والكبس ستعدل من الطول المذكور ، وكان ربع كل ثوب من الالاجه والقطني مصنوعا من الساتان ، وبقية الثوب في القطني مصنعة من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى . اما ثوب الالاجه فبقية الثوب مصنعة من القطن في اللحمة ومن الحرير في السدى ، اي ان نسبة الحرير فيه هي الغالبة (٥٧) ، وبالتالي كان سعره مرتفعا ، ولا يتمكن من شرائه الا القادرون .

وقد قدر عدد الانوال التي كانت تنسج قماش القطني في دمشق عام ١٨٥٠ بـ ٦٥٣ نولا تستخدم ٦٥٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وبلغ عدد انوال الالاجه آنذاك ١٠١٣ نولا تستخدم ١٠١٣ رجلا وحوالي ١٣٠٠ ولد . وانتجت هذه الانوال بمجموعها ما يقرب

من (٢٢٠ الى ٢٣٠) الف ثوب في السنة (٧٦) . وتظهر اعداد الانوال هذه ، وكذلك انتاجها ، عام ١٨٥٠ ، تراجعاً كبيراً عما كان عليه عدد الانوال وانتاجها في اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ابان الحكم المصري . فقد قدر عدد الانوال التي انتجت القطني والاوجه آنذاك ب ٤٠٠٠ نول ينتج كل منها في الاسبوع ما بين اربعة الى خمسة اثواب (٧٧) . أي ان انتاجها السنوي يقدر ، على هذا الاساس ، بحوالي ٨٣٢ الف الى ١٠٤٠ الف ثوب .

ويدل هذا التراجع في الانتاج على شدة منافسة البضائع الاوربية للبضائع الشامية في السوق المحلية . ونظراً لان الاقتصاد المحلي ، بمواده الخام والمصنعة ، أصبح يدور في فلك الاقتصاد العالمي ، فان اية تبدلات في هذا الاقتصاد الاخير من شأنها ان ترمي بظلالها على الاقتصاد المحلي . وقد حدث مثلاً ، في عام ١٨٥٦ ، ان أصيب انتاج الحرير في اوربا وتركيا بكوارث طبيعية ، فتضاعف سعر الحرير في بلاد الشام ، وأفادت من ذلك صناعة الاقمشة الحريرية المحلية فزادت من أنوالها ، وبالتالي من انتاجها . وبلغ عدد الانوال في ذلك العام ٢٨٠٠ نول انتجت حوالي ١٢٠ الف ثوب من القطني و ٢١٠ الف ثوب من الاوجه ومن نسيج آخر مشابه ، عرف بالصوراتي . وسوق نصف هذه الاثواب في حلب وازمير واستانبول وآسيا الصغرى ، وسوق ثمنها في بغداد ومكة ، ومثل ذلك في دمشق وصيدا (٧٨) .

الا أن صناعة الاقمشة الحريرية والقطنية في دمشق لم تلبث ان انتكست ، وخلال اربع سنوات ، من جديد . فقد ازداد سعر الحرير عالمياً بمعدل ٥٠ ٪ ، كما زادت الحكومة العثمانية من الضرائب الجمركية على الاقمشة المحلية وموادها الاولية . ففي العهد المصري لم تفرض اية ضريبة على المواد الاولية الداخلة الى دمشق من القرى المجاورة ومن لبنان ، كما ان الانسجة الحريرية لم تدفع ضريبة حين تصديرها من دمشق . وبعودة الحكم العثماني فرض على الحرير عند دخوله دمشق ضريبة قدرها ١٢ ٪ من قيمته ، كما توجب على الاقمشة المصدرة منها ان تدفع حوالي ٥ الى ٦ ٪ من سعر القطعة . وعلق القنصل الفرنسي في دمشق على ذلك ، في اوائل عام ١٨٦٠ ، انه نظراً لهذه الاحوال فقد توقف عدد كبير من الانوال عن العمل (٧٩) .

وكانت الكارثة الرئيسية التي المت بصناعة النسيج في دمشق وانقصت انتاجها الى النصف تقريباً ، الاضطرابات الاجتماعية التي حدثت في عام ١٨٦٠ . فقد احرق او تعطل انتاج عدد كبير من الانوال ، وقدر عدد ما بقي منها في اواخر عام ١٨٦٢ بحوالي ٣٠٠ نول (٨٠) . ثم عادت الحركة الصناعية في دمشق الى الانتعاش حين عاد

اليها عدد كبير من الحرفيين المسيحيين الذين لجأوا الى لبنان (٨١) ، في حين استوطن الباقون بيروت والقاهرة والاسكندرية واسهموا في تطوير اقتصاديات هذه المدن .

وتنعكس الازمات التي مرت بها الصناعة الدمشقية ، وبخاصة صناعة الاقمشة ، في ارتفاع ثمن الانوال وانخفاضها ، وتكرار بيعها في اوقات الكساد . وكانت أكثر الانوال طرحا في السوق انوال الالاجه نظرا لكلفة انتاجها المرتفعة وصعوبة تسويق اثوابها الفاخرة بين الاهالي الذين كانوا يزدادون فقرا بغالبيتهم العظمى . ويرتبط بالانوال مصير المشاغل التي اقيمت فيها ، وكذلك مصير الدكاكين التي سوقت انتاجها . ولذلك طرحت للبيع أيضا المشاغل والدكاكين التي تنتج او تسوق الالاجه باكثر من غيرها . وعلى غرار اسعار الانوال ، تبدلت اسعار شغل هذه المشاغل والدكاكين ، ارتفاعا أو انخفاضاً ، بحسب السوق . واستعملت كلمة « كدك » التركية للتعبير عن عدة الدكان ، من انوال او خزائن او رفوف ، وغير ذلك . واستعملت كلمة « خلو » العربية للتعبير عن المال الذي يدفع لاشغال المكان ، وهو ما زال ساريا ومتعارفا عليه حتى يومنا هذا . وحين تذكر الكلمتان معا ، كان يقال ان فلانا اشترى كدك وخلو الدكان ، فان ذلك يعني أنه اشترى العدة وحق استعمالها في مكان تواجدها ، أي حق اشغال ذلك الدكان واستعمال العدة فيه . ويلاحظ انه يمكن بيع أجزاء من الكدك والخلو تقدر بالقيراط ، ووفي هذه الحال يكون البائع قد ورثها ، كما ان النساء كثيرا ما تملكن الكدك والخلو حيناً عن طريق الوراثة . وحيناً بتوظيف المال المتجمع لديهن ، حين يكون الكدك والخلو لدكان ما ، او مشغل ، مربحا ، أي ان السلعة التي يبيعها الاول ، او يصنعها الثاني ، رائجة . والقائمة التالية (٨٢) المبينة على سجلات محاكم دمشق الشرعية توضح لنا أسماء مالكي وبائعي الكدك والخلو ، وأماكن تواجد المشاغل والدكاكين ، وأسعار بيعها .



نماذج من عمليات بيع وشراء أدوات وأماكن الإنتاج والتسويق والخدمات

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المبيعة والسملة	الموقع	التمن بالقروش
٢٩ ربيع ١ / ١٢٥٧	شمعون الشطاح	الشيخ عبد الله الهندي	بالتراء من التتري	جميع دكان الصباغة بمحلة الخراب	٤٥٠٠	
٢١ ايار ١٨٤١	اليهودي	الطبي		(بناء ودوات)		
١٥ ذو القعدة ١ / ١٢٥٧	الحاج محمد الطبي	السيد مصطفى القسماي	بالارث	جميع كدك وخطو خان المخزن داخل خان العماسنة	٦٥٠	
١٧ كانون اول ١٨٤١		بالوكالة عن حرمه				
١١ جمادى ١ / ١٢٥٨	المعلم جريس شريفية	جريس اللبان	بالارث	جميع كدك الدكان	٢١٥٠	
٢٠ حزيران ١٨٤٢	النعماني بالوكالة من العمرة تقيلا	خليل حشيش	بالتراء في	بخان الكرجية فيها بواليب للعتالة		
٨ ربيع ١ / ١٢٥٩	السيد عمر الرهونجي	خليل حشيش	بالتراء في	جميع كدك وخطو الدكان	٢٠٢٠	
٨ نيسان ١٨٤٢	بالوكالة عن ابنه القاصر			بخان الدببس وفيها ١١ نول الاجه		
١٢ ربيع ١ / ١٢٥٩	السيد حمزة شعادة	الحاج عرابي ابن السيد يوسف	بالتراء في	جميع الدكان داخل	٢٥٠	
١٢ نيسان ١٨٤٢			١٢٥٨ و	الخان وفيها نولان لتسج المتاشف		
٦ رمضان ١ / ١٢٥٩	عبد الله النديم النعماني	حنا جبارة وشركاه	بالارث	جميع كدك وخطو الدكان	٢٠٠٠	
٢٠ ايلول ١٨٤٢	بالوكالة من ولده القاصر			بطلع القبة وفيها دولايان للمتالة		

التاريخ	المشتري	كيفية تملك	البائع	البائع	الحصة المباعة	الموقع	التمن
بالتقروش	بالتقروش	بالتقروش	بالتقروش	بالتقروش	بالتقروش	بالتقروش	بالتقروش
٢٨ شوال ١٢٥٩ / ١٨٤٢	الحاج حوري العمري	السيد عبد النبي جبري	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢١ تشرين اول ١٨٤٢	الحاج حوري العمري	السيد عبد النبي جبري	بالارث	الوكيل عن حرمة	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٥ محرم ١٢٦٠ / ١٨٤٤	المعلم باروخ القريش	الشيخ احمد المنجد	بالشراء في ١٢٥٧	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢٦ كانون ثاني ١٨٤٤	اليهودي	المعلم الياس شحبة وكيل	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢٧ رجب ١٢٦٠ / ١٨٤٤	التولي على وقف	بالوكالة	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
١٢ آب ١٨٤٤	ديبر صينليسا	بالوكالة	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢٨ جهادي ١ / ١٢٦١	السيد حسن جبني	احمد وحسن ولدي	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٤ حزيران ١٨٤٥	بالوكالة	بالوكالة	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢١ ربيع ٢ / ١٢٦١	الحاج عبد الفتاح	الحاج عمر الاسماوي	من تميمه	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢٩ نيسان ١٨٤٥	الحاج علي	بالوكالة عن زوجته	من تميمه	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
١٢ شوال ١٢٦٢ / ١٨٤٧	الحاج محي	الحاج محي	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠
٢٣ ايلول ١٨٤٧	العمري	بالوكالة	بالارث	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠	جميع الدكان بزقلاي محلة ملاينة النعم ١٠٠

التمن	الموقع	الحصة المباعة	كيفية تملك	البائع	المشتري	التاريخ
-------	--------	---------------	------------	--------	---------	---------

بالقروش

٥٠٠	جميع كدك وخطو بمحلة الجورة	١٢٦١	بالشراء في	الحاج محمد الرضاوي	الحاج حسين الانقود	١٢٦٤ / غرة جمادى ١ ١٨٤٨ نيسان
	الدكان وفيها ٦ انوات داخل خان					
	الاوجه					
٢٥٠٠	جميع الدكان وفيه بمحلة باب مهلى	١٢٦١	بالشراء في	الحاج محمد الرضاوي	احمد افندي الاسلامبولي عبيد افندي الكردى	١٤ رجب ١٢٦٥ / ٥ حزيران ١٨٤٩
	٨ انوات الاجه					
٥٠٠	١٢ قيراط من جميع بمحلة طالع اللبنة	١٢٧٢	بالشراء في	الخواجه ابراهيم صيناوي	الخواجه ميخائيل الطوى	غرة ربيع ١٢٧٢ / ٢٠ تشرين ١٨٥٦
	كدك وخطو الدكان داخل خان الصمام					
	وفيها ٧ انوات لتسج					
	الاوجه والكريشة وفيها					
٢٥٢٠٠	جميع عمارة وبناء خان عيسى	١٢٦٨	بالشراء في	السيد حامد جلي	الخواجه ميخائيل الطوى	ختم ربيع ١٢٧٥ / ٧ تشرين ١٨٥٨
	الدكان وفيها ٥ انوات القاري					
	الاوجه					
٤٦٠٠	جميع عدة دكان اللتالة محلة الخراب بخان	١٢٦٨	بالشراء في	الخواجه ابراهيم الزبال	السيد درويش الروماني	١ القعدة ١٢٧٥ / ٧ حزيران ١٨٥٦
	وفيها ٢ دوايب وتوابهم الجاموس					
٧٥٠	الحصنة ١٢ قيراط من بمحلة باب توما	١٢٧٠	بالشراء في	الخواجه يوسف البيطار	الخواجه حنا اللتسال	٢٧ شوال ١٢٧٧ / ٨ ايار ١٨٦١
	جميع كدك وعدة بخان بين الصمانين					
	الدكان وفيه ٢ دوايب					
	لتقل الحرير					

نلاحظ في هذه القائمة اثباتها هوية كل من البائع والشاري ، وكذلك انتقال السلع بين مختلف الطوائف . وضمت القائمة مبيعات تتعلق بغير صناعة الاقمشة . للمقارنة بين اسعار مختلف الخدمات والبضائع في مدى عشرين عاما . وتظهر القائمة كذلك اماكن تواجد الفعاليات الاقتصادية وحجمها وتوزعها على مختلف احياء المدينة وخاناتها . ويدل هذا على عدم وجود مناطق صناعية تختص كل منها بانتاج نوع معين من السلع ، اي ان انتاج السلع كان يتم غالبا في خانات ودكاكين متفرقة في انحاء المدينة .

وبينت القائمة كيفية تملك البائع للمرفق المبيع ، وما اذا كان قد آل اليه عن طريق الارث او بالشراء . ولو ذكرت الوثائق سعر الشراء الذي دفعه المالك ، الى جانب تاريخ حجة البيع التي ذكرت في حالات كثيرة ، لامكننا معرفة نسبة سعر المبيع الوارد في القائمة الى سعر الشراء . ويلاحظ ورود اسماء بعض النساء والقاصرين بين الشارين بواسطة وكلاء عنهن ، واوصياء عنهم ، مما يدل على توظيف اموال النساء والقاصرين في عقارات او مصالح تجارية .

ان كثرة طرح انوال الالاجه للبيع ، خلال السنوات العشرين التي غطتها القائمة، وبيع بعض مالكيها لها بعد سنوات قليلة من شرائها ، يبين المصاعب التي اعترضت تسويق هذا النسيج ، بالمقارنة مع غيره من المنسوجات الارخص ، كالقطني مثلا .

وقد لخص مراقب فرنسي يدعى غوستاف روبان (Gustave Robin) في تقرير له من دمشق بتاريخ ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩ (٨٢) ، الوضع التجاري والصناعي في المدينة ومقدار ما عانته الصناعة الدمشقية والشعب ، تحت تأثيرالراسمالية الاوربية بقوله: ان الصناعات التي اسهمت في السابق في غنى دمشق وشهرتها قد اندثر بعضها ، وبعضها الاخر في طريق الاندثار ، والاهالي الذين يزدادون فقرا كل يوم لا يطلبون من اوربا الا منتجاتها السيئة ، ويغلقون اسواقهم في وجه معظم المستوردات الفرنسية . وربما تجدر الاشارة هنا الى سيطرة البضائع الانكليزية وغيرها من البضائع الاوربية . وفي قائمة الواردات والصادرات التي ارفقها غوستاف روبان بنهاية تقريره، جاء ان وزن الاقمشة التي نقلت من بيروت الى دمشق في عام ١٨٦٨ بلغ ٢٥٢ر٨٢٤ اوقية (الاوقية تعادل آنذاك ١ر٢٨٢ كغ) اي ما يعادل ٤٥٢ر٣٢٠ كيلو غراما ، في حين كان وزن ما نقل من دمشق الى بيروت ١٠٩ر٣٠٥ كغ . واحتلت الاقمشة المرتبة الثالثة ، بعد الرز والسكر ، في قائمة المستوردات من بيروت الى دمشق ، وشغلت المرتبة الرابعة في قائمة الصادرات بعد الدقيق والصوف والاصبغة ، مع النظر بعين الاعتبار الى الفارق الكبير بين الكميتين .

موقف الصناعة الدمشقية من التصدي الاوربي

ادت منافسة البضائع الاوربية للبضائع المحلية الى حدوث تطورات هامة في التمويل والتصنيع وفي العلاقات التجارية المحلية . وقد قاومت بعض الصناعات المحلية اي تغيير في بنيتها ، ولم تستطع المنتجات الاوربية ان تحل محلها ، بتأثير العادات الاجتماعية المرتبطة بها . وكمثال على الصناعات المحلية التي لم تندثر صناعة فوط الحمامات التي ظلت رائجة مادام استعمال الحمامات قائما (٨٤) .

ولما كان الاقتصاد التقليدي يقوم ، في الغالب ، على المبادرة الفردية في العمل ، والمشاغل والدكاكين التي تحوى الانوال او أدوات الانتاج الاخرى في ملكية الافراد ، فقد حدث تطور جديد تحت ضغط المنافسة الاوربية تجلّى في الشركة ، او الشراكة ، في العمل . والهدف من ذلك زيادة رأس المال الموظف للتمكن من انتاج سلعة جيدة بسعر معتدل . ومثال ذلك ما رواه نعمان القساطلي الدمشقي في اواخر السبعينات من القرن التاسع عشر بقوله : « أما الآن فقد تكبت صنائع دمشق اعظم نكبة ولاسيما صناعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الاورنجية مع عدم متانتها . وهذا مما دعا الحاذق السيد عبد المجيد الاصفر ان يقلد الاوجه بالفضل ليتمكن ابناء الوطن من استعماله ولضيق ذات يده انضم الى السيد حسن الخانجي فامده . وبعد الجهد نال مراده وراج عمله بين الخاص والعام واقتدى به بعض العملة وزادوا عمله اتقاناً فاضحى نسيج الديما صناعة مهمة يتعيش بها الوف » (٨٥) .

وقد شاع هذا الاتجاه نحو (الشراكة) في العمل بغية تأمين رأسمال اكبر لمقاومة المنافسة ، المحلية والاوربية ، وتحقيق الجودة في الانتاج ، والحصول ، في الوقت نفسه ، على ارباح اكبر . ومن مزايا هذه الشراكة انها لم تكن مغلقة طائفا بل ضمت اناسا من مختلف المذاهب .

وفي ميدان الشراكة المساهمة في الانتاج فقد ذكر القساطلي ان بعض اعيان دمشق اجتمعوا في عام ١٨٦٠ واقاموا كرخانة* تدير آلاتها المياه لغزل القطن ، وانفقوا عليها مالا كثيرا . وبعد صعوبات كثيرة ، توقف خلالها الانتاج لعدم حسن الغزل ، عادت الكرخانة الى العمل . وكانت تغزل في كل يوم نحو ستين رطلا من القطن (٨٦) .

* التعبير مشتق من الكلمتين التركيتين الفارستى الاصل كار (kar) وتعني حرفة ، وখানে (hane) وتعني المكان . وتعنيان معا المشغل او العمل .

وحاولت صناعات محلية كثيرة التأقلم مع المؤثرات الاجنبية ، فظهرت عدة صناعات يظهر فيها اللون المحلي والاثر الاوربي في آن واحد . ومنها ما نجح في تقليد البضاعة الاوربية ووصل الى حد التفوق عليها . وقد ذكر القساطلي ان رجلا من بيت مرتضى استنبط « شكلا جديدا منقوشا نقشا جميلا فراج كثيرا ثم تبعه السيد درويش الروماني وقلد القلاووظ الافرنجي المعرق بمساعدة الخواجة جرجي ماشطة على ان النساء آيين لبسه لانه غير مشرف بوسام افرنجي فعدل عن عمله » (٨٧) . ويظهر هذا المثال كيف ان المستهلكين المحليين أخذوا يرتبطون تدريجا بالازياء الاوربية ويمحضونها ثقتهم . وكان هذا تحديا كبيرا للصناعة المحلية التي وجب عليها ان تحافظ على مستوى مناسب من الجودة وان تتأقلم مع الازياء الجديدة لتحظى بثقة المستهلك .

وقد نجح نسيج الديما المحلي في الحصول على ثقة المستهلك ، وفي التأقلم مع الازياء المستجدة . وقد استوعب ادخال تعديلات عليه ليتفق ولبس البنطلون (الكلمة مأخوذة عن الفرنسية وهي ايطالية الاصل) . وكان صاحب المبادرة في ادخال هذه التعديلات الخواجة يوسف الخوام الذي راي « انصباب القوم على لبس البنطلون واحتياجهم الى نسيج خفيف يناسب الصيف فغير وزاد في نول الديما واتى بنسيج احسن من النسيج الافرنجية وارخص فنال ثناء الجميع » (٨٨) . ومن منطلق الحرص على الصناعة المحلية ورواجها ، علق القساطلي ، بروح من الالتزام بالمصلحة الوطنية ، على عمل يوسف الخوام بقوله : « ولو اهتم جميع الصناع اهتمامه في اصلاح صنائعهم لفازوا واغنوا البلاد عن النسيج الافرنجية في برهة وجيزة » (٨٩) .

ولم تقف الصناعات الدمشقية عند تقليد الصناعات الاوربية والتلاؤم معها ، بل املت في تصدير منتجاتها الارخص سعرا الى اوربا لمصلحة المستهلكين من ذوي الدخل المحدود . لقد استورد عبد الله بولاد الدمشقي ، قبيل عام ١٨٦٠ ، نولا من فرنسا لصناعة « الجاكار Jacquard » ، باستطاعته ادخال الوان متعددة ومتشابهة في النسيج . والتسمية بالنسبة الى الفرنسي J. M. Jacquard (١٧٥٢ - ١٨٣٤) الذي اخترع هذا النول . وبعد سنوات من التجربة اثبت فيها النول المستورد مقدرته على انتاج النسيج بأشكال متعددة ، استورد عبد الله بولاد نولين آخرين ، مما مكنته من زيادة الانتاج بأشكال وحجوم مختلفة . ولكن اضطرابات عام ١٨٦٠ أدت الى حرق انواله مما أدى بالسيد بولاد الى اليأس . وذكر ان عشرة انوال من النوع نفسه كانت تعمل في دير القمر في الوقت ذاته ثم تناقص عددها (٩٠) . وبالرغم من ان تجربة عبد الله بولاد انتهت الى الفشل في دمشق ، الا انها كانت تجربة رائدة في استخدام الانوال الاوربية في الصناعة المحلية لمواجهة المنافسة الاوربية بمثل مستواها .

ومن الصناعات الدمشقية التي قاست من انتشار الازياء الاوربية صناعة العقادين ، وكان يعمل فيها آنذاك (حوالي عام ١٨٦٣) نحو خمسمائة صانع وخمسين معلما . والعقاد ، كما يقول القاسمي (٩١) ، « من يحترف في خيطان الحرير والصوف والقطن والشرايط وغيرها » . وتسوق هذه المنتجات في المدن والارياف على حد سواء . ولكن المنتجات الاجنبية المشابهة اصبحت تباع في دكاكين المعلمين من العقادين الى جانب المنتجات المحلية . وضمت المنتجات الاجنبية « الكراكر » ، و « الزنانير الحريرية » ، و « السيم المقصب » ، و « شلل الخيطان » ، واكياس حريرية مقصبة للدراهم وامثالها (٩٢) . ونظرا لمنافسة المنتجات الاجنبية في العقادة للمنتجات المحلية ، اخذت اعداد العقادين تتضاءل وانتاجهم يخف . ولكنهم وجدوا سوقا رائجة لمنتجاتهم في الحجاز (٩٣) .

ومن الصناعات الهامة التي حققت نجاحا كبيرا في دمشق صناعة النجارين . فقد « ضارعوا الاعمال الاوربية وفاقوها اتقاناً » (٩٤) كما اشتهرت صناعة الدباغين . والسراجين ، وصناعة الفواكه المجففة .

وباجراء مقارنة بين ما انتجته دمشق من مختلف السلع ، في مدى ست عشرة سنة ، كما ورد في ثلاثة تقارير فرنسية ، مؤرخة على التوالي في ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، تبين لنا الصناعات التي تطورت وتلك التي انحطت في تلك الفترة . فقد جاء في التقرير الاول بتاريخ ٥ آذار ١٨٦٣ (٩٥) انه قبل احداث عام ١٨٦٠ استهلكت دمشق ٣٠٠ كنتال (حوالي ٨٠٠٠ كغ) من الحرير المستورد من جبل لبنان ، ومائة كنتال من حرير الشام والحرير المستورد من بروسه ، وجيورجيا (بلاد الكرج) وفارس . وقدر التقرير ما استهلكته صناعة دمشق من الحرير في عام ١٨٦٢ بحوالي نصف الكمية السابقة . ويفسر هذا التناقص بسببين : اولهما هجرة المسيحيين في اعقاب الاضطرابات ، وكانت لهم الاسبقية في صناعة الحرير ، وثانيهما منافسة بضائع حلب ، في الاسواق الخارجية ، وبخاصة مصر ، لبضائع دمشق الحريرية التي اضعفتها الاضطرابات .

وقد انتجت دمشق ، في عام ١٨٦٢ ، ٢٤ الف ثوب من الانسجة التي تستخدم الحرير والقطن ، وهي الالاجه والقطني . وبيع منها الف ثوب او قطعة محليا ، وصدر الباقي الى روميلية وآسيا الصغرى ومصر وازمير وحلب ، وكان سعر قطعة الالاجه (٦٠ سم x ٧٠ سم) بين ٢٠ و ٢٥ فرنكا . وهناك نوع آخر منها ارخص ثمنها يراوح بين ٩-١٣ فرنكا . وبلغ مجموع الانوال التي صنعت هذه الانسجة ١٧٠٠ نول .

ووجد ٥٥٠ نولا تنتج اقمشة قطنية يلبسها الصناع والعمال ، انتجت في عام

١٨٦٣ ما مجموعه ٢٩٧ ألف ثوب طول واحدهما ٦٣٠ امتار وعرضه حوالي ٧٥ سم . وبيع الواحد منها في مطلع عام ١٨٦٣ ما بين ٤ و ٥ فرنكات ، ثم ارتفع سعره في العاصم نفسه الى ٦-٧ فرنكات بسبب ندرة القطن . ونظرا لغلاء اسعار انتاج هذه الانوال فقد توقف اكثر من مائتي نول منها عن العمل . وكان يعمل في تصنيع هذا النسيج قسم كبير من الجالية الجزائرية بدمشق .

وكان يعمل في صناعة المشالغ ذات الالوان المتعددة ٣٠٠ نول . وصنع منها ٣٥ ألف مشلح في عام ١٨٦٣ ، استخدم نصفها محليا ، وصدر الباقي الى انحاء سورية ومصر .

ووجد ٣٠٠ نول تنسج كتانا ابيض ، خفيفا ومعتلا يسمى مبروم ، وله سوق رائجة في مصر . وقد صدر اليها ٣٠٠ ألف قطعة منه عام ١٨٦٢ . وينسج المبروم بكامله من قبل النساء . وعانى هذا النسيج آنذاك من ندرة القطن ، وتعطل نصف انواله . وتنسج مائة نول آخر نسيجا مشابها ولكنه اكثر سمكا واكتنازا ، يستخدم كملايس داخلية للقرويين ، ويشهد التقرير الفرنسي ان هذا النسيج احسن واكثر صلابة من الكتان القطني المستورد من اوربا ، وبخاصة انكلترا .

وينسج ٥٠ نولا الشالات التي تقلد برسومها شالات فارس ، واللحمة فيها من الحرير والسدى من القطن . وطول الشالة (٢٨٠) مترا وعرضها متر واحد ، وسعرها يراوح بين ١٠ - ١٢ فرنكا للنوع العادي و ٢٠ - ٢٢ فرنكا للنوع الممتاز الذي يدخل الحرير في سديه . ومن الشالات ما هو مصنوع بكامله من القطن لاستعمال الطبقة الفقيرة وسعر القطعة منه بين ٦ - ٧ فرنكات . وثلاثة ارباع الشالات يصدر الى استانبول ومصر وازمير . وقد انتج منها ، عام ١٨٦٢ ، اكثر من ٤٠ ألف شالة .

واستعمل في صناعة الكوفيات (الكوفية قماش مربع طول طرفه بين ٧٥ - ١٠٠ سم) (٣٠) نولا ، تخصص نصفها بانتاج الكوفية الحرير ، والنصف الآخر بصناعة الكوفية القطن . ويصدر قسم من النوع الاول ، ويستخدم الباقي منه الميسورون . اما الكوفيات القطنية فتباع الى البدو والفلاحين . وسعر الكوفية من النوع الاول يراوح بين ٢٠ و ٣٠ فرنكا ، ومن النوع الثاني ٣ الى ٤ فرنكات .

ويعمل في دمشق ٦٠ نولا تنتج قماش الكريب الحريري على نوعين ، احدهما خيطه مبروم ومن الوان متعددة والاخر انعم بكثير ويصنع من الحرير الابيض او البني . ويعرف هذا النسيج باسم بامبازار ، وابعاد قطعه (٦٥) امتار طولاً و (٧٥

سم (عرضاً ، وتباع الواحدة بين ٢٠ و ٣٠ فرنكا . وانتاجه يصدر بمجموعه تقريبا الى الداخل ، وبخاصة الى نابلس ويافا والقدس وبغداد . ووجد ٥٠ نولا تصنع السجاد والمخدات واقمشة الديوان وغيرها ، وتستخدم الصوف والقطن .

وهناك ٥٠ صائفا يتعاطون صناعة الفضة ، وقد صنعوا ١٠٨٠ اوقه (١٣٨٤ر٥٦٠ كغ) في عام ١٨٦٢ ، اشترى الفلاحون تسعة اعشارها ، ويتعاطى ثمانية صياغ تصنع الذهب . وقد صنعوا في عام ١٨٦٢ حوالي ٤٠ اوقه من الذهب (٥١٢٨٠ كغ) . ويعمل خمسة صياغ في الاحجار والمجوهرات . وتأتي الجواهر في الغالب من استانبول حيث تصنع باتقان .

وتستورد الواح النحاس بكاملها من انكلترا ، وتصنع منها الصحون والطناجر والقناديل وادوات المطبخ . ووجد في دمشق ٦٠ الى ٧٠ نحاسا و ٦٠ مروبصين . وقد صدروا في عام ١٨٦٢ ما قيمته ٥٠٠٠٠٠ قرش (١٢٥٠٠٠ فرنك) ، الى داخل سورية بما في ذلك الى البدو . وتمتاز دمشق بتطعيم النحاس بالفضة ، ولكن اصحاب هذه الحرفة تضاعل عددهم ، ومن بقي منهم طلب اجورا عالية .

ومنذ ان بدأت اوربا بتصدير الادوات الحديدية الى سورية تضاعلت اهمية الحدادين المحليين وقل عددهم ، ولم يبق منهم في دمشق اكثر من مائة حداد ، يصنعون السكك والقووس والمجارف والمسامير . واكثر الحدادين عملا اولئك الذين يصنعون نضوات (نعال) الخيل ، وبالرغم من استيراد كميات من هذه النضوات من لبنان ، فان عدد ما صدر منها الى الداخل قدر سعره ب ٢٠٠٠٠٠ قرش (٥٠٠٠٠ فرنك) ، ويؤكد القساطلي انحطاط مهنة الحدادة بقوله : « واما الحدادون فاعمالهم متأخرة » .

وكان يعمل في مهنة السروجية في دمشق حوالي ٥٠٠ صانع ، يصنعون عدة أنواع من السروج واللجم والرسن والحياصات . وقد بلغت هذه الصناعة حدا كبيرا من الاتقان ، وتشكل منتجاتها قسما كبيرا من صادرات دمشق . وكانت قيمة ما صدر منها في عام ١٨٦٢ تزيد على ١٨٠٠٠٠٠ قرش (٤٥٠٠٠٠ فرنك) . وقدرت الكميات التي بيعت داخل ولاية سورية ، وللبدو ، بأكثر من ١٢٠٠٠٠٠ قرش .

ووجد في دمشق اكثر من الف صانع للاحذية (كندرجي) . وقسم من الجلد الذي يصنعونه ينتج في دمشق ، وكان من نوعية ممتازة ، والباقي يستورد من انطاكية ومدن اخرى في اسيا . وازدهرت صناعة القباقيب التي تستعملها النساء داخل البيوت . وللخروج في الجو السيء . وكان يعمل بها ٢٠٠ صانع يصدر نصف انتاجهم الى مصر ، وحلب . وقدر ثمن ما صدر منها عام ١٨٦٢ ب ١٢٠٠٠٠٠ قرش .

وفقدت صناعة السلاح الابيض التي اشتهرت بها دمشق في السابق ، الكثير من

اهميتها . فوجد معلم واحد يصنع نصال السيوف العادية ، وبعض الصناع الذين يصنعون الخناجر . وقد صنع ٢٠٠٠٠ ر. خنجر عام ١٨٦٢ ، يراوح سعر الواحد منها بين ٥ - ٢٠ قرشا . ونظرا لمنع تصدير هذه المنتجات الى بقية انحاء سورية ، في عام ١٨٦٣ ، تضاعف عدد الصناع في هذه الحرفة . ومع ذلك تسرب ثلاثة ارباع هذه المنتجات الى خارج دمشق تهريبا .

ووجد في دمشق ٦٠ معلما لصناعة الاثاث ، يرصعون خشب الجوز والزيتون والشوح بالفضة والصدف . وباستثناء معلمين او ثلاثة ، كان هؤلاء المعلمون على درجة كبيرة من الابداع والاصالة في صناعتهم . ويبيع معظم انتاجهم محليا . ولم تتجاوز قيمة الصادرات ٢٥٠٠٠٠ ر. قرش تقريبا .

وكان يوجد في دمشق معملان للزجاج يتبعان الطرق التقليدية ، وينتجان الزجاجات (القناني) والمصابيح والكؤوس . ولم تصل هذه الصناعة الى الجودة ، وانتاجها لا يصدر الى الخارج .

ومن الصناعات الرئيسية في دمشق صناعة (الراكيل) التي تلقى سوقا رائجة في الخارج ، وتصدر الى حلب والقدس ومصر ، وتقدر صادراتها بحوالي ١٠٠٠٠٠ ر. قرش (٢٥٠٠٠٠ فرنك) وتتبعها صناعة (البرابيش) التي يُمص بواسطتها الدخان ، وكانت تزخرف بالحريز والخيوط الذهبية ، وتلون بألوان جميلة . وتتراوح قيمة (البرابيش) بين ٢٥ و ٤٠٠ ر. قرش (٦ - ١٠٠ فرنك) .

وكانت دمشق تمتاز بصناعة الفواكه المجففة ، وبخاصة المشمش ، واستخدمت هذه الصناعة ، عام ١٨٦٢ ، ١٢٢٥ كنتالا من السكر (٣١٤٩٠ كغ) . وصدرت منها ما قيمته مليون ونصف مليون قرش تقريبا ويتراوح سعر الرطل منها (٢٥٦٤ ر. كغ) ، بين ٢٥ و ٢٥٠ قرشا . وكان رطل السكر يباع ب ١٥ - ١٨ قرشا .

واشتهرت دمشق بصناعة ماء الورد وماء الزهر ، وكذلك العطور . وكانت تنتج حوالي ٢٠٠٠٠ ر. كنتال من الصابون تصدر ثلثها . وينتهي تقرير ١٨٦٣ عن صناعات دمشق الى ان فن تزيين البيوت اخذ بالانحطاط نظرا لفساد الثروات . ولا يوجد من الصناع من هو على مستوى القدامى في هذا الفن .

ويشير التقرير الثاني الذي كتب من دمشق في ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩ الى ان صناعة الاسلحة البيضاء متأخرة جدا ، ولهذا تباع في دمشق النصال المستوردة من

فارس أو لبيج أو صولينجن . أما صناعة الاثاث فقد فقدت الكثير من رونقها وما يصنع منها ، مثل الصناديق والطاولات الصغيرة ، فهو خشن وضخم ، ويشتربه عادة الفلاحون .

وينطبق الشيء ذاته على صناعة الزجاج التي لم تتطور . وما زالت (شيشة الاركيلة) الزجاجية تستورد من أوروبا ، وبخاصة بوهيميا ، كما تستورد الشيشة النحاسية من ألمانيا . والحفر على النحاس متأخر بدوره . كما أن الصياغة في انهيال ، ويعزى ذلك الى هجرة الصناع المسيحيين اثر احداث ١٨٦٠ .

ولكن الاقمشة الصوفية والحريرية المصنعة في دمشق احتلت المرتبة الاولى في التصدير . ومن هذه الاقمشة الديما التي يعمل فيها نحو الفين من الصناع ينتجون ١٥٠٠٠ ثوب في السنة يصدر معظمها الى استانبول والاناطول ومصر وبغداد .

وكان طول الثوب الواحد ١٢ ذراعا (تعادل ٨ر١٦ مترا) وعرضه ٥١ سم* وكانت خيوط الديما تستورد من انكلترا وتصبغ في دمشق . واللوان هذا القماش الرائجة كانت الازرق الملقم بالاحمر او الاخضر او الاصفر ، وكذلك الاحمر الغامق الملقم بالابيض او الاصفر او الازرق .

وكان يعمل في نسيج الالاجه في عام ١٨٦٩ حوالي ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ صانع ينتجون حوالي ١٠٠ ألف ثوب سنويا ، تصدر ثلاثة ارباعها . ويسجل هذا الانتاج زيادة كبيرة على انتاج عام ١٨٦٢ الذي قدر بـ ٢٤ ألف ثوب من الالاجه والقطني . وتفسر هذه الزيادة الكبيرة في الاستفراار الاجتماعي في دمشق وعود كثير من الصناع المهاجرين اليها ، الذين اشتهروا بصناعة الحرير .

ونظرا لازدياد الانتاج من اقمشة الديما والالاجه والقطني ، في عام ١٨٦٩ ، فقد استهلكت هذه الصناعات ما زنته ١٢ر٨٠٠ كغ من حرير لبنان و ٣٣ر٢٨٠ كغ من حرير فارس ، وذلك بزيادة كبيرة عما استهلكته قبل احداث عام ١٨٦٠ .

وقد عمل في انتاج الكوفيات الحريرية ١٠٠ الى ١٢٥ عاملا وكان معظمها يصدر الى الخارج . ويشكل هذا زيادة كبيرة على صناعة الكوفيات في عام ١٨٦٢ .

أما صناعة المشالح فيبدو انها تضاعلت عما كانت عليه في ١٨٦٢ ، فقد بلغ عدد

* وبذلك يكون طول هذا الذراع ٦٨ سنتمترا .

المشتغلين فيها في عام ١٨٦٩ حوالي ١٩٠ صانعا . واستخدم هؤلاء خيوط الصوف الانكليزية للمشالح الممتازة ، وخيوط الصوف المحلي للمشالح الادنى .

وفيما يتعلق بالعقادين ذكر تقرير عام ١٨٦٩ ان انتاجهم يستهلك بكامله محليا ، في حين ان تقرير عام ١٨٦٣ ذكر ان العقادين يقاسون من بيع سلعهم بسبب تبدل الازياء ، وان اعدادهم في تناقص ، ويحاولون ايجاد سوق بديلة في الحجاز . ويبدو ان اعدادهم قد تناقصت ، وبالتالي انتاجهم ، عام ١٨٦٩ ، الى حدود استيعاب السوق المحلية .

ومن السلع التي صنعتها دمشق واستمرت في تصديرها السروج والحبال ، وكانت في غاية الاتقان . وفي حين كانت اسعار السروج معتدلة فان اسعار الحبال كانت مرتفعة مما حال دون تصديرها الى اوربا . وكانت تصدر في الغالب الى بقية انحاء سورية ، والى بغداد .

واستمرت دمشق في تصدير منتجات المشمش الى ازمير واستانبول ومواني سورية وآسية الصغرى . وكانت مراكب شركة (مساجيري امبريال) تحمل هذه المنتجات بين المواني السورية والتركية .

وصدرت دمشق بزر المشمش الى مرسيليا وليفورنة ، وبلغ ما صدرته اليهما منه في عام ١٨٦٩ ما يزيد على ٣٠٠ ألف كغ .

وجاء في التقرير الثالث من دمشق بتاريخ ٢٤ نيسان ١٨٧٩ ان دمشق صدرت من بزر المشمش في ذلك العام ٥١٢٨٠٠ كغ . وهذا يدل على ازدياد مردود هذا الانتاج .

ويذكر التقرير بالنسبة لنسيج الالاجه ان حوالي ١٢٠٠ صانع يعملون في نسيج الالاجه ، وينتجون سنويا ما بين ١٠٠ و ١٢٠ ألف ثوب . وبالمقارنة مع تقرير سنة ١٨٦٩ ، الذي يذكر ان حوالي ١٥٠٠ - ١٦٠٠ صانع الالاجه انتجوا حوالي ١٠٠ ألف ثوب في السنة ، نستدل ان هذه الصناعة قد حافظت على مستوى متقارب في الانتاج بكلفة اقل من السابق ، لان عدد الصناع نقص بما يقرب من ٣٠٠ - ٤٠٠ صانع . اما الديما فقد ازداد عدد صناعها عن السابق ، اذ راوح في عام ١٨٧٩ بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ ، وتضاعف انتاجهم كذلك فبلغ ٣٠ ألف ثوب .

بالنسبة للكوفيات ، ذكر التقرير الثالث ان حوالي مائة صانع يعملون فيها ، انتجوا في السنة ١٣ ألف كوفية . ولكن ليس هناك من تفصيل عن نوعية الكوفيات

واماكن تصريفها او تصديرها . وانتج من قماش المبروم ، بموجب هذا التقرير ، ٣٠٠ ألف قطعة ، في حين ذكر التقرير الاول ، لعام ١٨٦٣ ، ان ٣٠٠ ألف قطعة من هذا النسيج صدرت الى مصر في عام ١٨٦٢ . ويدل هذا على تناقص انتاج المبروم في عام ١٨٧٩ .

وهكذا ، ومن هذه التقارير الفرنسية الثلاث لاعوام ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، يتضح انه بالرغم من تناقص عدد الانوال النسيجية عما كانت عليه في الماضي فان الانتاج ، بوجه عام ، قد اخذ بالازدياد في اواخر الستينات وبخاصة في السبعينات من القرن التاسع عشر ، عما كان عليه في اوائل الستينات وقبلها بقليل . ومن العوامل التي تفسر هذه الزيادة ركود النشاط التجاري العالمي في السبعينات ، وبخاصة الازمة التي حلت بالصناعة الفرنسية ، وخففت من اثر منافستها في الخارج . يضاف الى ذلك الفناء بعض الضرائب الجمركية على انتقال المواد الاولية المنتجة محليا كالقطن والصوف والحريير .

ويرسم نعمان القساطلي صورة مشابهة لما ذكرته التقارير من ان عدد الانوال في دمشق قد تناقص ولكن الانتاج قد ازداد في السبعينات . ويقول : « اما انوال النسيج فقد قل عددها في وقتنا الحاضر عما كان في بداءة هذا الجيل وما بقي منها فهو ١٦٠٠ نول الاجه و ٦٥٠ نول قطني و ٢٣٠٠ ديما و ١٥٠ شالات حريير وشالات غزل ، و ٢٥٠ كفيات حريير وكفيات غزل ، و ٥٠ زنار طرابلسي حريير و زنار طرابلسي غزل و ٥٠ فوط وملاية حريير وغزل وبوشيه ١٠٠ الخ و ٢٠٠ كريشة وهرمزي وسلطانية ومجتمع هذه الانوال ٥٢٥٠ نولا » (٩١) .

يتبين من الاحصاءات السابقة ان الصناعات الدمشقية الاساسية ، بالرغم من كل الازمات ، قد اثبتت وجودها الى جانب الصناعات الاوربية المستوردة ، ولكنها لم تتطور الى الدرجة التي كان يمكن ان تصل اليها لو لم تتدفق البضائع الاجنبية . ويلاحظ في بعض الصناعات النسيجية التي مر ذكرها ، مثل الديما والمشالح ، ان الخيوط القطنية في الاولى ، والصوفية في الثانية ، كانت تستورد من انكلترا . وهذه ضربة أخرى موجهة للصناعة المحلية ، اذ انها ، عوضا من استخدام الخيوط المصنعة محليا ، عمدت الى استيراد موادها الاساسية من الخارج ، وبذلك غدت مرتبطة بالسوق العالمية لهذه المواد من حيث توافرها ، وبصورة اخص اسعارها ، التي فرضت من الخارج وتحملها المستهلك المحلي على شكل زيادة في اسعار السلع . وكانت معظم المواد الاولية للصناعة الاوربية تستورد من الخارج ، بما في ذلك بلاد الشام ، باسعار تفرضها السوق الدولية التي تسيطر عليها الرأسمالية الاوربية ، ثم يعاد تصديرها خيوطا او

بضائع ، وفق الاسعار التي تفرضها الدول الصناعية المصدرة . وبهذا يكون انتاج المواد الاولية في بلاد الشام قد ارتبط بدوره بعجلة الرأسمالية الاوربية وأصبح تابعا لها .

وقد صدرت دمشق الى الخارج ، في عام ١٨٨٢ ، ما مجموعه ٤٢٠ ألف كغ من الصوف ، وهو من خمسة انواع : الناعم ومصدره الجولان حوالي ١٠٠ ألف كغ ، والبلقاوي من البلقاء في متصرفية نابلس ١٠٠ كغ ، وصوف المرج والبحيرة ٨٠ ألف كغ ، وصوف عجلون ٦٠ ألف كغ والصوف الجبلي ومصدره جبل الدروز وحوران ٨٠ ألف كغ .

ويدوم موسم الصوف خمسة اشهر تبدأ في ايار وتنتهي بنهاية تشرين الاول . وقد تم تصدير هذه الكميات ، بطريق بيروت ، الى مرسيليا وجنوه وليفورنه وتريستا وليفربول (١٠٠) . والجدير بالذكر ان هذه الكمية من الصوف المصدر تعادل تقريبا كمية الصوف التي صدرتها دمشق عبر بيروت الى الخارج في عام ١٨٦٨ والتي بلغت حوالي ٤١٦ ألف كغ (١٠١) .

ومما تجدر ملاحظته ان القطن لم يذكر في اي من فوائم الصادرات من دمشق الى اوربا عبر بيروت . وباستعراض ما صدرته منطقتا حماه وحمص في عام ١٨٧٨ نجد ان قيمة صادرات حماه من الصوف بلغت ٦٢٥ ألف فرنك . وكانت وجهة التصدير بيروت بطريق طرابلس . اما حمص فقد صدرت الى بيروت ، بطريق طرابلس ، صوفا بلغت قيمته ١٢٥ ألف فرنك . ولم تصدر أي من المدينتين قطنا ، بل استوردتا في الواقع خيوط القطن من فرنسا وانكلترا (١٠٢) . ونستدل من غياب القطن في صادرات كل من دمشق وحماه وحمص ان محصوله لم يكن كبيرا يسمح بالتصدير ، او ان نوعيته لم تكن لتتلاءم مع الصناعة الاوربية . وقد جرت محاولة في عام ١٨٥١ لادخال زراعة القطن الامريكي ، من ولاية لويزيانا ، الى سورية بسبب نوعيته المتميزة ، ولكن المحاولة فشلت (١٠٣) .

ولم تفد بلاد الشام من تعطل زراعة القطن الامريكي ابان الحرب الاهلية الامريكية في الستينات ، في تطوير انتاج القطن وتصديره الى اوربا التي انقطع القطن الامريكي عنها . والمعروف ان مصر افادت الشيء الكثير من توجيه زراعتها نحو القطن آنذاك . والامر الوحيد الذي خلفته الحرب الامريكية في بلاد الشام ان سعر القطن فيها زاد ثلاثة اضعاف ، وارتفعت بنتيجة ذلك اسعار الاقمشة القطنية . وذكر احد المراقبين في عام ١٨٦٢ (١٠٤) انه كان يمكن توسيع زراعة القطن في بلاد الشام لو عملت الحكومة العثمانية على توفير الامن في الريف ورد اعتداء القبائل البدوية التي كانت تفرض ضرائب على المزارعين لا تقل عن ضرائب الحكومة ذاتها .

وبنتيجة هذه التطورات مجتمعة ارتبط الاقتصاد الدمشقي بالاقتصاد الرأسمالي الاوربي ، ونشأت في دمشق طبقة بورجوازية ، من التجار والصناعيين ورجال المال ، مرتبطة بأوروبا ، وأصبح لها قواعد وارتباطات في بيروت التي كانت مركز التجارة العالمية في المنطقة . وعلى غرار الصناعة ، شاعت الشراكة في ميدان التجارة واتخذت طابعا رأسماليا . وجنت البورجوازية المحلية ، بالمشاركة مع البورجوازية الاوربية ، الارباح الكثيرة من المستهلكين ، ولكنها تعرضت ، شأن الرأسمالية الاوربية ، الى الازمات وحالات الافلاس ، والمنافسة الشديدة فيما بينها ، والتقاضي امام المحاكم . وتعج سجلات المحاكم التجارية والمحاكم المختلطة ، منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، بتفاصيل هذه القضايا .

ونظرا للازمات الاقتصادية التي مرت بها الصناعة المحلية ، والتباين في الثروات بين الاثرياء الذين ازدادوا عددا وثروة ، وبين الطبقات الدنيا التي ازدادت أعدادها وزاد فقرها ، وظفت الرأسمالية ، المحلية والاجنبية ، بعض رأسمالها في عقد الديون التي لجأ اليها عدد كبير من الناس ، سواء في المدينة أم في الريف ، لمجابهة الازمة الاقتصادية . وزاد ذلك من ارتباط سكان الريف ببورجوازية المدن عن طريق التبعية المالية . وبالتدريج فقد عدد من سكان الريف ممتلكاتهم للوفاء بالتزاماتهم المالية .

وكانت نسبة الفائدة التي تقضها المرابون عالية تقارب في الواقع ٢٥٪ في السنة ، في حين أن الفائدة الرسمية قد حددتها الدولة في عام ١٨٥٢ بـ ٨٪ . وأشارت بعض وثائق المحاكم الشرعية الى الفائدة باسم المربحة أو الربح . ولكنها في الغالب ، لم تشر اليها صراحة . وكان الغطاء الذي استخدم للفائدة هو الشراء الوهمي لكمية من الصابون ، وذكر الى جانب قيمة الدين . وأكد استخدام الصابون لهذا الغرض تقرير القنصل الفرنسي في دمشق عام ١٨٥٢ (١٠٥) . والجدير بالذكر أن الادارة المالية والادارة العسكرية في دمشق كانتا مدينتين ، عام ١٨٦٣ ، بمبلغ قدره ٦ ملايين فرنك عدا رواتب الجند المتأخرة . وكانت الفائدة على هذا الدين ، ومعظمه للتجار الاجانب ، تقدر من ٢ الى ٢٥٪ شهريا ، أي بين ٢٤ الى ٣٠٪ سنويا (١٠٦) .

ولم تكن الطبقة البورجوازية المحلية ، التي لعبت دور الوسيط للرأسمالية الاوربية ، مقتصرة على فئة من السكان دون غيرها ، بل شارك فيها الجميع ، بدلالة الثروات الكبيرة التي ذكرت تفاصيلها في سجلات الشركات . وتوضح تفاصيل هذه انثروات طرق التعامل التجاري وتنوع توظيف المال ، سواء في الديون أو في الصناعة أو الزراعة ، وكذلك هوية الطبقات الاجتماعية الدائنة والمدينة . وخير مثال على ذلك موجودات تاجر دمشقي هو السيد غازي بن الشيخ محي الدين بن شيخ المحيا ،

المختل العقل الذي لا قدرة له على تعاطي مصالح نفسه . وتتألف ثروته من ثلاثة بنود : (١) بيان الذمم الموجود أربابهم بدمشق : ذمة الخواجه متري قسطون ، خليل مصابني ، اسحاق يهودي سمكري ، الخواجه نقولا صايغ ، مجموع ذلك ٢٤١ر٢٩ قرشا ونصف . (٢) بيان الذمم المترتبة للمختل في الجهات خارج دمشق الشام : ذمة الخواجه يوسف علام بالجبل ، اولاد زخور بحمص ، الخواجه متري زمريتا في ازمير . بيت سبرطلي الفريدي باللوندرية ، الحاج محمد آغا زراييلي في بروسة ، محمد رزق في طرابلس ، حسين السيوفي في طرابلس ، مجموع ذلك ٨٩ر٢٩٠ قرشا ونصف . (٣) موجودات اموال واشياء في الشام ، مستكة ، كافور ، قهوة ، باذنجان ، قماش كرمسوت . المجموع ١١٢٤٩ قرشا ونصف . ويبلغ مجموع الثروة ٥٨٠ر٧٩٦ قرشا (١٠٧) .

ويستدل من المواد التي يتعامل بها هذا الشخص انه كان تاجر عطارة . ومع ذلك فان مصدر ثرائه الرئيسي كان تعاطي الديون وما تدر عليه من فوائد . وتبلغ نسبة الذمم التي كانت له في دمشق والخارج حوالي ٩٨٪ من ثروته . ومما يلفت النظر تعامل هذا الشخص مع بيت تجاري في لوندرة (لندن) .

نستنتج مما سبق ان البورجوازية المحلية في دمشق اصبحت تدور في فلك الراسمالية الاوربية التي تنامت ابعادها الى حد كبير في أعقاب الثورتين التوأمين . الفرنسية والصناعية . وقد ضمت البورجوازية المحلية في بداياتها خليطا من كبار الملاك ، ورجال المال والصناعة . ثم بدأ الفرز بين هذه العناصر يظهر بالتدرج حين حاولت البورجوازية ان تلعب دورا سياسيا ، تماما كما فعلت البورجوازية الاوربية . وفي هذا الوسط ظهرت اتجاهات فكرية كثيرة ، منها الاتجاه القومي ، والاتجاه القطري . والاتجاه الديني ، والاتجاه العلماني . والاتجاه الاشتراكي . وتبنى كل اتجاه فئة اجتماعية او اكثر . ولفهم واقع كل اتجاه ، واسباب فشله او نجاحه ، وارتباطه بفئة دون أخرى ، يجب البحث في الاسس الاجتماعية والاقتصادية لكل فئة ، وهي وحدها التي تفسر لماذا تبنت هذه الفئة اتجاها معينا وقاومت اتجاها آخر (١٠٨) .

الهوامش :

- (١) انظر البحث التالي :
André Raymond, « La Conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes : le cas du Caire, de Damas et d'Alep », *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, 1 (1979), pp.115 - 134.
- (٢) حول شركة بلاد المشرق ، انظر :
Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company*, London, 1935.
- (٣) انظر بحثنا : « قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية » ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٦ ، تشرين الاول ، ١٩٨١ .
- (٤) انظر حول هذه التطورات كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed. , Beirut, 1970, pp. 73ff.
- (٥) انظر :
Archives du Ministère des Affaires Etrangères (AE), Paris, Correspondance Commerciale (CC), Alep, vol.25, le 25 novembre 1891.
- (٦) انظر :
AE, CC, Alep, vol.27, 14 octobre 1823, 30 mars 1824; AE, CC, Damas, vol, 1, (Paris, 17 juillet 1839), vol. 2, 20 janvier 1846.
- (٧) انظر :
John Bowring, *Report on the Commercial Statistics of Syria*, London, 1840, reprinted, New York, 1973, p.94.
- (٨) المصدر السابق ، ص ٩٤
- (٩) المصدر السابق ، ص ٩٤ .
- (١٠) المصدر السابق ، ص ٩٢ .
- (١١) المصدر السابق ، ص ٩٢ .
- (١٢) سجلات دمشق (مجلس الولاية) ، رقم ١١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، القضية ذات التاريخ : جمادى الاولى ١٢٦١ / (١١ ايار ١٨٤٥) .
- (١٣) انظر :
AE, CC, Damas, vol. 3, 28 mai 1850.
- (١٤) انظر :
AE, CC, Alep, vol. 31, 31 mai 1855.
- (١٥) سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، ١٢ شعبان ١٢٦١ / (١٧ آب ١٨٤٥) .

- (١٦) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 3 mai 1859.
- (١٧) انظر : AE, CC, Damas, vol. 2, 14 juin 1846.
- (١٨) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 1 octobre 1851.
- (١٩) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1866.
- (٢٠) انظر : Archives Nationales, Paris, F. 12, 7191, Paris, 28 juillet 1870; AE, CC, Alep, vol. 34, 22 juin 1870.
- (٢١) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1860, 12 juin 1863.
- (٢٢) انظر : AE, CC, Damas, vol. 5, 29 avril 1870.
- (٢٣) انظر حول أهمية الطريق بالنسبة لبيروت والمناطق اللبنانية على اطرافه الكتاب الهام التالي :
Leila Tarazi-Fawaz, *Merchants and Migrants in Nineteenth - Century Beirut*, Harvard, 1983, pp. 68-69.
- (٢٤) انظر : Rowring, p. 53.
- (٢٥) انظر : Tarazi-Fawaz, p. 123.
- (٢٦) انظر : Ibid., pp. 69-71.
- (٢٧) انظر الكتاب التالي :
Henri Guys, *Esquisse de l'état politique et commerciale de la Syrie*, Paris , 1862, pp. 202-206.
- (٢٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 10 janvier 1860.
- (٢٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 9 juillet 1863.
- (٣٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.6, 8 février 1884.
- (٣١) انظر : AE, CC, Damas, vol.6, 15 mai 1886 .
- (٣٢) انظر : Ibid
- (٣٣) انظر : AE, CC, Damas , vol.6, 25 janvier 1889 .
- (٣٤) انظر : AE, SS, Damas, vol.3, 1 octobre 1851.
- (٣٥) حول هجرة المسيحيين من بلاد الشام الى مصر في القرن الثامن عشر ودورهم التجاري البارز فيها،
André Raymond, *Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle*, Damas, 2 vols, 1973-4 , vil.1, pp. 483-501.
- (٣٦) انظر : Guys, pp. 202, 205.
- (٣٧) للحصول على دراسة وافية لقافلة الحج الشامي ، انظر كتابنا :
The Province of Damascus , pp. 53-76.

- (٢٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.1, 30 mars 1842.
- (٢٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.2, 16 mars 1847.
- (٤٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 25 septembre.
- (٤١) انظر : AE, CC, Damas , vol.4, 16 octobre 1862, vol.5, 19 janvier 1870.
- (٤٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 21 août 1863, vol.5, 1 mai 1872.
- (٤٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 19 janvier 1870 .
- (٤٤) ص ١٢٤-١٢٥ من كتاب القساطلي ، طبعة بيروت ، ١٨٧٦ ، اعاد تصويره وقدم له عيسى فتوح ، مكتبة السائح ، بيروت (دون تاريخ) .
- (٤٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 13 octobre 1851, vol.5, 5 juin 1856.
- (٤٦) انظر : AE, CC, Damas , vol.2, 12 mai 1847, 3 juin 1874.
- (٤٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 1 août 1855.
- بيعت الخيول السورية لعدد من الدول الاوربية ، مثل روسيا واطاليا ، وفرنسا التي استخدمتها لحاجاتها الداخلية ، وفي تحسين نسل الخيول في الجزائر الخاضعة بها ، وكذلك في العمليات العسكرية . وكان شراء الخيول يتم خلال فترة معينة من العام ، في نيسان وايار وحزيران وتموز ، بعد عودة البدو من البادية الى مشارف المدن . وكان البدو يستقلون مجيء الاوربيين خصيصا لشراء الخيول فيرفعون من اسعارها . ولذلك تحاشى هؤلاء الاتصال مباشرة بالبدو وعمدوا الى تكليف التجار والوكلاء الوطنيين شراء الخيول لحسابهم باسعار معتدلة . وكانت المهر مرغوبة اكثر من غيرها لرخص ثمنها ، الذي راجح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قرش للمهرة الواحدة ، ونظرا لرخص الملق في بلاد الشام عمد المشترون الاوربيون الى ابقاء المهر المشتراة في البلاد سنة ، ليتأكدوا من نوعيتها وصلاحياتها ، والا اعادوا بيعها محققين ربحا اضافيا .
- انظر حول هذا : AE, CC, Damas, vol. 4, 16 oct. 1962.
- (٤٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.2, 2 novembre 1851.
- (٤٩) انظر : AE, CC, Alep, vol.31 (Paris, 20 janvier) .
- (٥٠) انظر : AE, CC, Alep, vol.35, 30 mai 1871.
- (٥١) انظر : AE, CC, Damas, vol.5, 11 janvier 1873.
- (٥٢) اثبتنا العبارة كماوردت في النص الاصلي ، وهو باللهجة الدمشقية العامة ، وتعطي فكرة عن انحطاط لغة القضاء آنذاك .
- (٥٣) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٨-١٠٠ ، ٥ محرم ١٢٦١ / (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .
- (٥٤) لمقارنة مقدار التزام عبد القادر خطاب لهذه الاقلام المتعلقة بصناعة النسيج بدمشق بالقيمة الاجمالية للضرائب المستوفاة من المدينة في تلك السنة (١٨٤٤/١٢٦٠) ، انظر :
- AE, CC, Damas, vol. 2, « Etat du Revenue du Pachalik de Damas pendant l'année 1844 » , joint à la lettre de Damas le 16 janvier 1845.
- (٥٥) انظر سجلات دمشق الشرعية مجلد ٤١٢ ، ص ١٦٢-١٦٦ .

- (٥٦) انظر : Bowring, p. 59
- (٥٧) انظر: سجلات دمشق الشرعية، مجلد ٤٩٤، ص ١١٢ ، ختام محرم ١٢٧٤ / (٢٠ ايلول ١٨٥٧) .
- (٥٨) انظر : سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٥١٠ ، ص ٤ ، ١٤ جمادى الثانية ١٢٧٦ / (١٠ كانون الثاني ١٨٥٩) .
- (٥٩) كلمة ريال مأخوذة اصلا من ريال ماريا تيريزا . ولم يتبين لنا معنى كلمة شوشة . ولكن وجد في غزة في الفترة ذاتها نقد عرف باسم ريال فرانسة شوشة ، انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٢ - ١٢٧٧ / ١٨٥٧ - ١٨٦١ ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ٨٨ .
- (٦٠) سينكو ، او سنكو او شنكو ، كلمة مشتقة من الايطالية وتعني خمسة . انظر : الاب انستاس ماري الكرمليني البغدادي ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ١٤١ .
- (٦١) لعلة النقد ذاته الذي ذكر في غزة باسم ريال فرانسة عامود ، وكان سعره ٢٢ قرشا ، انظر : غزة ، ص ٨٧ ، واشير اليه كذلك باسم « ابو مدفع » .
- (٦٢) انظر : Bowring, p.95.
- (٦٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,1, 30 novembre 1843, 8 décembre 1843.
- (٦٤) انظر بحثنا باللغة الانكليزية وعنوانه :
« Land Tenure Problems and their Social Impact in Syria around the Middle of the Nineteenth Century », in **Land Tenure and Social Transformation in the Middle East** ed. Tarif Khalidi, American University of Beirut, 1984, pp. 384-385.
- وانظروا ايضا : AE, CC, Damas, vol.2, 16 avril 1845, 20 mai 1845.
- (٦٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 29 juin 1840.
- (٦٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.1, 1 décembre 1839.
- (٦٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.1, 28 décembre 1839.
- (٦٨) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
- (٦٩) المصدر السابق ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
- (٧٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .
- (٧١) المصدر السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٢٨٢ .
- (٧٢) الياس بن عبده بك قدسي (قنصل دولة هولاندة بدمشق) ، « نبذة تاريخية عن الحرف الدمشقية » . قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٢ ، وقد نشرت في :
Carlo Landberg, **Actes du VIe Congrès des Orientalistes**, t.2, Leiden, 1885, p.15.
- (٧٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,4, 5 mars 1863.

- (٧٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية ، جزآن ، الجزء الاول تأليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تأليف جمال الدين القاسمي و خليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر دار موتون وشركاه ، باريس لاهاي ، ١٩٦٠، ج١ ، ص ٢٩ .
- AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863. (٧٥) انظر :
- AE, CC, Damas, vol.3, 20 janvier 1850. (٧٦) انظر :
- (٧٧) انظر : Bowring, p. 20; Charles Issawi (ed.) , The Economic History of the Middle East, 1800 - 1914, Chicago, 1966, p. 224.
- AE, CC, Damas, vol.4,21 octobre 1856. (٧٨) انظر :
- AE, CC, Damas, vol.4,10 janvier 1860. (٧٩) انظر :
- AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862, cf. 11 mai 1863. (٨٠) انظر :
- AE, CC, Damas, vol.4, 5 mars 1863, 30 avril 1863. (٨١) انظر :
- (٨٢) تفاصيل القائمة مبنية على القضايا المعروضة على محاكم دمشق الشرعية حسب تواريخها ، وذلك وفق السجلات والصفحات التالية، دون مراعاة التسلسل لانه يوجب تكرار ارقام السجلات :مجلد رقم ٢٧١ ، ص ٢ ، ص ٢٨ ، رقم ٢٧٢ ، ص ٢٢٧ ، رقم ٢٧٤ ، ص ٢٢١ ، رقم ٢٧٦ ، ص ١٥ ، ص ١١١ ، ص ٢٩٤ ، ص ٢٧٦ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧ ، ص ٢٧٦ ، رقم ٢٧٧ ، ص ٢٥ ، رقم ٢٧٩ ، ص ١٦٤ ، رقم ٢٨٦ ، ص ٢٢٢ ، ص ٢٠٥ ، رقم ٢٨٦ ، ص ١٤٠ ، رقم ٢٩٨ ، ص ٦٢ ، ص ١٥٢ ، رقم ٤٠٤ ، ص ٢١٩ ، رقم ٤١٢ ، ص ٤٩٩ ، رقم ٤٨٦ ، ص ١٨٦ ، رقم ٤٩٢ ، ص ٢٧٧ ، ص رقم ٥٠٢ ، ص ٢ ، رقم ٥٠٤ ، ص ٢٢ ، رقم ٥٠٧ ، ص ٢٢٩ ، رقم ٥٢٣ ، ص ٢ .
- (٨٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869, « Situation Commerciale et Industrielle de Damas ».
- (٨٤) انظر : Dominique Chevallier, « Un exemple de resistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles », Syria, 30 (1962).
- (٨٥) القساطلي ، الروضة الفناء ، ص ١٢٢ ، وانظر ايضا القاسمي ، ج ١ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
- (٨٦) القساطلي ، ص ١٢٤ .
- (٨٧) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
- (٨٨) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
- (٨٩) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
- AE, CC, Damas , vol.4,5 mars 1963. (٩٠) انظر :
- (٩١) « قاموس الصناعات الشامية » ، ص ٢١٢ .

- (٩٢) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .
- (٩٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.
- (٩٤) القساطلي ، ص ١٢٥ .
- (٩٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.
- (٩٦) يذكر التقرير بعد سطرين من ذلك (ص ١١٠) ان الكنتال يساوي ٢٥٦ كغ و ٤٠٠ غ ، ولهذا فان ٢٠٠ كنتال تساوي ٧٨٠٠ كغ .
- (٩٧) ص ١٢٤ .
- (٩٨) انظر : Roger Owen, The Middle East in World Economy 1800 - 1914, London, 1981, p.171 .
- (٩٩) ص ١٢٢ .
- (١٠٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,8 juillet 1883.
- (١٠١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869.
- (١٠٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,31 juillet 1879.
- (١٠٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,2 novembre 1851.
- (١٠٤) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862.
- (١٠٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,12 janvier 1852.
- (١٠٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 30 avril 1863.
- (١٠٧) سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٢٩٧ ، ص ١٢ ، ١٧ اربيع الاول ١٢٦٢ / (١٥ اذار ١٨٤٦) .
- (١٠٨) انظر الدراسة الهامة التالية حول الدور السياسي لآعيان دمشق بين ١٨٦٠ و ١٩٢٠ وجلوهرهم الاجتماعية :
- Philip S. Khoury, Urban notables and Arab nationalism, the politics of Damascus 1860 - 1920, Cambridge University Press, 1983.



مِنْ خَفَايا السِّيَاسَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ
خِلالَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى

الْمَكْتَبُ الْعَرَبِيُّ فِي الْقَاهِرَةِ قِرَاءَةُ الْوُثَائِقِ الْبَرِيطَانِيَّةِ

د . ضَرِيَّة قَاسِمِيَّة

مع نشوب الحرب العالمية الأولى ركزت السياسة البريطانية على أهمية البلدان العربية الشرقية بالنسبة لمتابعة العمليات الحربية . وكانت وزارتنا الخارجية والحربية البريطانيتان مسؤولتين عن الأمور السياسية والعسكرية في تلك البلدان ، وخاصة في مصر وفلسطين ، في حين كانت حكومة الهند مسؤولة عن الأمور السياسية والعسكرية في العراق والخليج العربي وعن . وكان هناك خلاف في الرأي بين الجهتين حول الإجراءات الإدارية والسياسية في كلا المنطقتين ، رغم اتفاقهما على أهمية البلدان العربية الاستراتيجية . ففي حين دعت الأولى وهي التي سميت (بالدرسة المصرية) الى التعاون مع العرب وكسب القوات العربية في الجيش التركي ، ومهاجمة الدولة العثمانية عن طريق ثورة عربية في هذه المنطقة ، ومنح العرب استقلالاً محدوداً تحت رقابة بريطانية مستترة ، رأت الثانية ، وقد أطلق عليها اسم (الدرسة الهندية) ، أن

* يعتمد البحث بصورة رئيسية على وثائق وزارة الخارجية البريطانية الموجودة في دار الوثائق العامة في لندن Public Record Office ونقع في مجموعتين :

(أ) المراسلات بين وزارة الخارجية والسلطات البريطانية في مصر وفلسطين وهي مصنفة تحت رقم F.O. 371

(ب) أوراق المكتب العربي في القاهرة Arab Bureau Papers وهي مصنفة تحت رقم F. O. 882

بإمكانها الانتصار في الحرب دون الاستعانة بالعرب ، او اطماعهم بعودة استقلالية .
وقد انتصرت (المدرسة المصرية) التي تقدر قيمة الفوائد التي يمكن أن تنجم عن
صداقة العرب ، اثر فشل زحف القوات البريطانية في العراق (نيسان/ ابريل ١٩١٦) ،
وتطور الاحداث في بلاد الشام ، وتسارع المفاوضات البريطانية مع الحسين للقيام
بثورة تتعهدا بريطانيا بالسلاح والمال (١) .

يمثل « المكتب العربي » Arab Bureau الذي أنشئ في شباط / فبراير
١٩١٦ في القاهرة (المدرسة المصرية) . وتم احداثه بإيعاز من (مكماهون) المندوب
السامي البريطاني في مصر ، وبالتشاور مع ريجنالد وينجيت (الحاكم العام للسودان
والمندوب السامي فيما بعد ١٩١٧ . ورونالد ستورز (السكرتير الشرقي في دار المندوب
السامي - المعتمدة سابقا) ، وجلبرت كلايتون رئيس قلم الاستخبارات المدنية
والعسكرية في مقر القيادة العامة للقوات البريطانية) وعهد الى الاخير بمهمة رئاسة
هذا الجهاز المستقل في دار المندوب السامي ، الذي أصبح احدا هم الاجهزة المنفذة
للسياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى .

وضم المكتب جماعة من الخبراء في شؤون المشرق العربي ، ممن كانوا يعملون في
دائرة الاستخبارات في القيادة العامة ، او من الموظفين السياسيين في دار المندوب
السامي (المعتمدة سابقا) ، وهم من الرحالة وعلماء الآثار والمستشرقين والضباط
العسكريين ، وقد سبق لهم وتعرفوا على المنطقة العربية عن كثب من خلال اقامتهم
وجولاتهم ودراساتهم قبل الحرب ، وجميعهم من ذوي الخبرة ، المشهود لهم بالمهارة
في فنون الدبلوماسية الشرقية ، ومن بين هؤلاء جورج هوغارت ، و. ت. ا . لورنس ،
ورونالد ستورز ، وجرتروود بل ، واورمسبي غور . وعمل بعضهم مستشارين وخبراء
لقوات الثورة العربية ، وادعوا « صداقة العرب » ، التي كانت تنبع في الحقيقة من
صميم المصلحة البريطانية .

وقد تولى خبراء « المكتب العربي » خلال الحرب رفع التقارير والمذكرات الى
وزارة الخارجية ، او وزارة الحربية (دائرة الاستخبارات العسكرية) في لندن . كما
اشرفوا على اصدار نشرة ملحقه سرية اسمها النشرة العربية Arabe Bulletin
لمعالجة كل الاحداث السياسية المتعلقة بالبلاد العربية والدولة العثمانية والحركة
العربية (٢) . ولم يكن الخلاف الذي بدا احيانا في وجهات النظر بين رجال المكتب
العربي في القاهرة وبين الاجهزة المختصة في لندن نابعا عن الزعم القائل بأن « اصدقاء
العرب » كانوا يجهلون نوايا حكومتهم ، بل ، لكونهم اقرب الى مواقع الاحداث واكثر
خبرة بشؤونها ، كانوا يبدون بعض الآراء التي قد تتناقض أحيانا مع آراء مخططي
السياسة البريطانية في لندن .

كان أمرا طبيعيا أن تحتل مسألة فلسطين مكانا بارزا في تقارير «المكتب العربي» وأعداد نشرته السرية ، نظرا لموقع فلسطين ، ولاحتوائها الأماكن المقدسة ، ولوجود مطالب متداخلة ، ومصالح معقدة لمعظم الدول المشتركة في الحرب ، وكذلك لحرص بريطانيا على عدم السماح لاية قوة أخرى بالتواجد على الشاطئ الشرقي لقناة السويس بحيث تهدد حكمها في مصر وتهدد القناة ، وأخيرا لأن الاستيطان الصهيوني في فلسطين كان يشكل ، قبل الحرب ، جزءا من السياسة البريطانية في المشرق . وقد زادت الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب من الاهتمام البريطاني بفلسطين ، وخاصة حين أصبحت فلسطين هي المنطقة التي يجب أن توجه منها بريطانيا الضربة الأخيرة للدولة العثمانية . وتمهيدا لنقل فلسطين الى منطقة النفوذ البريطاني زاد تعزيز الحكومة البريطانية للحركة الصهيونية التي انتقل مركز نشاطها الدبلوماسي الى لندن ، وزاد ضغطها للتأثير على الحكومة لاصدار تصريح بالعطف على المطامع الصهيونية في فلسطين .

وتناولت تقارير «المكتب العربي» وموضوعات نشرته السرية جملة قضايا تتعلق بالمسألة الفلسطينية ، قبل اصدار تصريح بلفور وبعده : قبل التصريح لرسم صورة واضحة أمام المفاوضين البريطانيين مع ممثلي الحركة الصهيونية (في وقت كان العرب يدخلون فيه في تحالف مع الدولة صاحبة التصريح) ، وبعد التصريح لرفض ردود الفعل العربية ولمحاولة تخفيف الشكوك حرصا على استمرار التحالف البريطاني العربي والتوفيق بين المصلحة الصهيونية والأمان العربية .

أ - القضايا المتعلقة بفلسطين التي تناولتها تقارير المكتب العربي ونشراته

((قبل تصريح بلفور))

١ - عمليات التجسس الصهيوني لحساب القوات البريطانية وراء الجبهة الفلسطينية المصرية :

كشفت أوراق «المكتب العربي» عن شبكة تجسس صهيونية عرفت باسم مجموعة نيلي Nili نظمتها هارون أرونسون في مستعمرة زخرون يعقوب . وكان أرونسون مديرا لمركز التجارب الزراعية قبل الحرب في بلدة عتليت على الشاطئ الفلسطيني وعهدت له السلطات العثمانية بتنظيم حملة عملية لمكافحة الجراد الذي هاجم فلسطين سنة ١٩١٥ (٢) . وأعطاه هذا حرية التنقل التي استخدمها في عمليات

المخابرات لصالح بريطانيا (٤) . وبعد رحيل ارونسون الى لندن عرض خدماته على وزارة الخارجية البريطانية ، معتمدا على معرفته بفلسطين وبالوضع العسكري فيها .

وعمل ارونسون لدى هيئة الاستخبارات العامة في مصر وقام بتزويدها بالمعلومات المحلية عن توضع القوات التركية والامانية شمال وشرق الجبهة المصرية ، من خلال مجموعته التجسسية (قبل ان يكشف امرها في خريف ١٩١٧ (٥)) . وعن طريق صلاته برجال « المكتب العربي » (كلايتون وديديس وغيرهما) كسب بعض الدبلوماسيين البريطانيين في الشرق الادنى للمسألة الصهيونية (أهمهم الماجور اورمسي غور الذي أصبح وزيرا للمستعمرات خلال الانتداب) . كما تمتع بدعم النبي (القائد العام للحملة المصرية) ووينجيت (المندوب السامي الذي خلف مكماهون) . وأصبح ارونسون محور نشاط صهيوني كبير . وفي تموز / يوليو ١٩١٧ تولى سكرتيرية لجنة صهيونية للإشراف على المصالح الصهيونية في مصر وفلسطين ، كما تعهد نقل الاموال الى فلسطين لمعونة اليهود . وكان المسؤول عن حملة دعاية صهيونية عالمية استغلت عملية اخلاء الاثراك للمناطق الساحلية في فلسطين لتصوير مظالم الترك ضد اليهود (٦) . وتشير مذكرة « للمكتب العربي » في ١٩١٧/٢/٥ بعنوان « المسألة اليهودية » (٧) الى أن الهدف السياسي من تقديم الصهيونيين خدماتهم للقوات البريطانية في العمليات ضد الترك في فلسطين هو جعل هذه الخدمات أساسا لدعواهم في (الوطن القومي) والقول بأنهم شاركوا في عملية « تحرير البلاد » .

٢ - النشاط الصهيوني في فلسطين :

أشارت تقارير « المكتب العربي » الى النشاط الصهيوني العملي في فلسطين قبل الحرب . وقدرت « النشرة العربية » في ١٩١٧/١/١٩ (٨) أن الصهيونيين قد امتلكوا حتى عام ١٩١٤ (١٣٠) هكتار ، منها (٩٠) استوطنت فعلا (٤٠) مستوطنة (تقريبا) تشمل أحسن الاراضي في فلسطين ، وأنه قد بذلت جهود لتدريب اليهود على الاساليب الزراعية وتأمين المساكن لهم ، كما أنشئ مركز للتجارب الزراعية في عتليت ، وقعزو « النشرة » التقدم الملحوظ في هذه المستوطنات ، الى جانب المساعدات الخارجية ، الى الامتياز الذي يتمتع به المستوطن اليهودي عن الفلاح المواطن ، لكونه قادرا على مقاومة جامع الضرائب التركي . وقد أجمعت تقارير « المكتب العربي » على معاناة جميع فئات الشعب في سورية خلال الحرب وسوء الاوضاع الاقتصادية وانتشار الجوع والمرض وقسوة الحكم التركي وما رافقه من نفي وسجن واعدام ومصادرة ، في حين أكدت هذه التقارير أن حالة اليهود كانت أفضل من أية فئة أخرى . وأنهم لاقوا عناية أكثر (٩) ، وأن الترك لم يوقعوا باليهود نفس القدر من

الاضطهاد الذي اصاب مجموع السكان في فلسطين وسورية خلال الحرب . وهو امر اكدته برقية كلايتون لوزارة الخارجية البريطانية في ١٩١٧/١١/٢١ (١٠) اثر زيارة تفقدية قام بها مع النبي للمستوطنات اليهودية الواقعة جنوبي يافا . وأشارت مذكرة « المكتب العربي » في ١٩١٧/١/١٢ (١١) الى ان النشاط الصهيوني لشراء الاراضي وانشاء المستوطنات لم يتوقف خلال الحرب . وان المنظمة الصهيونية استطاعت الحصول على (٤٠٠٠٠) هكتار من أجود الاراضي لاستيطانها بعد انتهاء الحرب .

وتعزو تقارير « المكتب العربي » هذا الوضع المتميز لليهود الى الاهتمام الامريكي الذي يعود للفترة السابقة للحرب (١٢) ، وكذلك الى اصدقاء الصهيونيين في البلاط العثماني من يهود سالونيك والدونمة (١٣). وترى « النشرة العربية »، ١٩١٧/١٢/٤ (١٤) في مقال عن « الحركة الطورانية والعرب » ان اليهود والدونمة ، نظرا لنفوذهم في الدولة العثمانية وميولهم الالمانية، هم المسؤولون عن دفع تركيا للحرب، وانهم لعبوا الدور الموجه في فكرة الحركة الطورانية وتطويرها كما يظهر في كتابات (تكين الب) ، والذي تسميه النشرة « دكتور كوهين » . وتضيف النشرة « ان الحركة الطورانية لا تهدف الى مصلحة الترك بل يراد بها مصلحة الالمان واليهود الذين يرون ازدهارهم في المستقبل مرتبطا ببقاء الدولة العثمانية . والتقوا بذلك مع مطامع المانية في تطلعها نحو الاشراف على حزام تركي متماسك عبر آسية الوسطى » . وقد حاولت الدوائر الصهيونية الموالية للحلفاء في مصر (ادجار سوارس أحد رجال الاعمال اليهود في الاسكندرية وهارون ارونسون) نفي كل صلة للصهيونيين بالمانية ، وكذلك نفي اي عطف سياسي لليهود نحو دول الوسط ، بل واتخذت تلك الدوائر الاهتمام الالمانى بالصهيونية حجة للتأثير على الحكومة البريطانية للاسراع بمنح تأكيدات بالاعطف على الالمانى الصهيونية (١٥) .

٣ - مستقبل فلسطين :

اكدت مذكرة « للمكتب العربي » في ١٩١٧/٢/٥ (١٦) الى ان « تسوية مستقبل فلسطين سوف يثير قضية معقدة ودقيقة تقلق امن ذلك البلد التعيس » . ومع ذلك تشير المذكرة نفسها الى ان دول الحلفاء لو أعلنت عن رغبتها بدعم الاستيطان والتغفل الاقتصادي اليهوديين في فلسطين فان ذلك كفيل بجعل الصهيونية تميل الى جانب الحلفاء ، والا فانها ستزعم بثقلها الدولي ضدهم . وتشير المذكرة الى فقرة من كتاب وضع ١٩١٦ بعنوان « الصهيونية ومستقبل اليهود » ، توضح الاهمية التي يوليها الصهيونيون للربط بين الشعب اليهودي ، « تراثا وحضارة » ، وفلسطين ، ومحاولاتهم تغليف مخططاتهم بتطلعات مثالية . واكد ارونسون هذه الفكرة في مذكرته

« للمكتب العربي » أوائل ١٩١٧ (١٨) حول الاوضاع العامة في فلسطين بقوله « ان اليهودي الهارب من الاضطهاد يتطلع نحو الاستيطان في فلسطين ليعيش حياته الخاصة حسب تقاليد وراثته وآماله وثقافته » .

ويرى « المكتب العربي » ان الصعوبة الكبرى التي تواجه المشروع الصهيوني هو تفوق العرب العددي ، ورغم الادعاء الصهيوني بإمكانية العيش بانسجام بين الشعبين ، الا ان الهدف الحقيقي للحصول على التفوق اليهودي والاستئثار بالبلاد لم يكن خافيا على « المكتب العربي » وترى النشرة العربية في ١٥/١/١٩١٧ (١٩) ان « الغالبية العظمى للصهيونيين لا تزال تعتبر الاستقلال الذاتي هدفا بعيدا ، وأن ما يبحثون عنه هو سياسة الباب المفتوح والحصول على أكبر قدر ممكن من الاراضي في فلسطين واستيطانها ، ثم التقدم بعد ذلك بأساليبهم الزراعية المتطورة وسندهم المالي وشعورهم القومي وكرم الدولة الحامية نحو الوصول الى الهدف السياسي النهائي » .

٤ - عرب فلسطين والثورة العربية :

حاول ارونسون في تقاريره « للمكتب العربي » ان يبين ان فلسطين تفتقر الى مقومات الثورة بسبب اوضاع البلاد القاسية وحرمان البلاد من رجالها ، وكذلك فان النبي ، لعدة اسباب ، لم يرغب بوجود قوات عربية تعمل في جبهته (٢٠) . ولم يسمح الا لبعض العرب بمعالجة القضايا المحلية او المتعلقة بالاسرى . مع ذلك فقد بينت تقارير « المكتب العربي » اسهام العرب باحداث الحرب . فالجنود العرب الذين كانوا يفرون من الجيش التركي عبروا الصحراء للانضمام الى قوات فيصل على الجبهة الشرقية ، ومن بقي في فلسطين تعاون مع بريطانيا . وتشير « النشرة العربية » في عددها ١٢/١/١٩١٧ الى ان نشاط الاهالي ضد الاتراك والعمل من اجل قضية الحلفاء حتى في المناطق التي لا يوجد فيها مستوطنات يهودية ، قد ادى الى اضطهادهم بالنفي او الاعدام ، ففي غزة اعدم المفتي وابنه ، كما نفي واعدم كثير من زعماء نابلس بسبب هذا الموقف ، ووضعت بعض عائلات القدس تحت الشبهة بسبب مشاعرها الموالية لبريطانية ، كما ان بدو منطقة بئر السبع عملوا مع قوات الشريف او مع قوات حليفته بريطانيا (٢١) . وقد حرصت القوات البريطانية على كسب الراي العام العربي وراء خطوط القتال ، وتولى « المكتب العربي » وضع المنشورات وتوزيعها في فلسطين ، والتي تتولى الدعاية للشريف حسين وتشير الى ان الجيش العربي في الحجاز يعمل بالتعاون مع القوات البريطانية . ومن اجل ذلك اتهم الصهيونيون بعض العاملين في « المكتب العربي » بدعم قضية القومية العربية ، ووصف ارونسون في

تقريره السابق في مطلع ١٩١٧ العرب « بالخداع والسلبية والجهل » . ولام بريطانيا لسياستها « الخطرة والمؤسفة » في تبني الثورة العربية لانها « بعثت في الفلسطينيين حلما بأن يصبحوا جزءا من المملكة العربية المستقلة » . ونقلت « النشرة العربية » في ١٩١٧/٩/٢٧ رأي أحد زعماء الحركة الصهيونية حول الثورة العربية ، الذي عرأ موقف اليهود الحيادي في الصراع العربي التركي الى عدم ثقتهم بالثورة العربية . وتوعد العرب بعدم استغلال هذا الموقف الحيادي بالهجوم على اليهود وممتلكاتهم لان هذا لن يخدم القضية العربية ذلك ان « حسن ارادة اليهودية العالمية ضروري لتحقيق الاهداف العربية » .

هـ - المقاومة العربية للصهيونية في فلسطين :

رغم هيمنة احداث الحرب على مسرح السياسة الداخلية في فلسطين منذ صيف ١٩١٤ والظروف القاسية التي عاناها شعب فلسطين اثناء الحرب ، وتجمد الموقف العربي بسبب اساليب القمع التي اتبعت ضد رجال الحركة العربية ، الا ان ذلك لم يصرف انظار عرب فلسطين عن اخطار الصهيونية وضرورة مقاومتها . ولما كانت الحكومة البريطانية تدرك طبيعة المشاعر العربية بشأن مستقبل فلسطين ، ولم تكن تجهل المعارضة العربية للصهيونية فقد حاولت ان تحول دون البحث بموضوع الصهيونية اثناء سنوات الحرب . وفي ١٨ آب / اغسطس ١٩١٦ / ١٨ شوال ١٣٣٤) وردت اشارة عابرة في العدد الثاني من جريدة القبلة (التي تصدر في مكة) عن الصهيونيين واطهارهم في فلسطين ، اثارت مخاوف مارك سايكس (مستشار الشؤون الشرقية للحكومة البريطانية ، والموجه الرئيسي للسياسة البريطانية في المشرق العربي) . وبايعاز من سايكس بعث مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في ١٩١٦/١١/٢١ (٢٢) تعليماته الى كلايتون مدير « المكتب العربي » يطلب منه التدخل لدى اصدقائه العرب « ومنهم الشريف حسين » بتحذير خطير وشخصي بعدم الخوض في هذا الموضوع الخطير لانه « يثير عدااء القوى الحيادية الآن ، والتي لو اثرت فانها كفيلة بتحطيم الآمال » .

ونظراً لقرب العاملين « بالمكتب العربي » من المنطقة العربية ، وامكان اتصالهم بالاجواء العربية ، فقد بدأوا بجمع كل المعلومات المتاحة عن مدى المعارضة العربية للنشاط الصهيوني في فترة ما قبل الحرب ، وظروفها ودوافعها ، لوضعها امام المفاوضين في لندن . وفي مذكرة اورمسي غور في ١٩١٧/١/١٢ (٢٣) عن الاوضاع السياسية في فلسطين تحليل لاسباب المعارضة العربية للصهيونية ، والتي يعزوها الى اهداف الصهيونية الحديثة السياسية ، والتي تهدف لانشاء دولة يهودية مستقلة

ذاتيا واقصاء السكان تدريجيا . ويرى غور ان المسلمين في القدس خاصة يميلون نحو المسيحيين وهم ضد اليهود ، وبشكل ادق ضد الصهيونيين ، وهم يقاومون النمو المتزايد للمستوطنات اليهودية ، في العدد والنفوذ ، وشراء الاراضي وتجريد السكان من ممتلكاتهم . وفي مذكرة المكتب العربي ١٩١٧/٢/٥ (٢٤) اشارة الى انه نتيجة للمعارضة العربية تشكلت جمعيات من الاعيان والمثقفين لمقاومة الاستيطان اليهودي .

وقد بدأت السلطات البريطانية في مصر تشعر بحرجة موقفها في صيف ١٩١٧ بعد ازدياد الدعاية الصهيونية في مصر (اثر زيارة سايكس للمنطقة) (٢٥) ، بطريقة تجاوزت رقابة تلك السلطات . و اشار كلايتون في برقيته الى الخارجية في ايار/مايو ١٩١٧ (٢٦) الى ان ذلك قد يؤثر على سير العمليات العسكرية في فلسطين . ونصحت الخارجية البريطانية كلايتون بعدم التدخل لان المسائل الكبرى لا تزال مطروحة على مجلس الوزراء (كانت المفاوضات المطولة بين اللجنة الصهيونية في لندن والحكومة البريطانية اواخر ١٩١٧ تتقدم بصورة متوافقة مع سير العمليات العسكرية وانتهت باصدار تصريح بلفور (١٩١٧/١١/٢) .

ب - القضايا المتعلقة بفلسطين التي تناولتها تقارير المكتب العربي ونشرااته

((بعد تصريح بلفور))

١ - ردود الفعل الاولى لتصريح بلفور :

كان يهم « المكتب العربي » ، كسائر الدوائر البريطانية في مصر ، ان لا يتأثر التحالف العربي البريطاني ، في وقت لم تكن القدس فيه قد وقعت بيد القوات البريطانية . وعلى اثر القلق العام الذي اخذ يسود المنطقة العربية بعد الكشف عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو و صدور تصريح بلفور (٢٧) ، حاول كلايتون في برقيتين وجههما الى مارك سايكس ، في ٢٦ و ٢٨/١١/١٩١٧ (٢٨) . لفت انتباهه الى العواقب التي يمكن لتصريح بلفور ان يتركها على مستقبل العلاقات العربية البريطانية . ووضع كلايتون عدة اقتراحات حول الخطوط العامة للسياسة البريطانية في المشرق العربي ، وهي كفيلة ، بنظره ، بتهدئة الشكوك . وفي اعتقاده ان بواعث الشكوك وعدم الثقة التي تراود العرب هو عدم وجود تأكيد ينفي ضم سورية ، و صدور تصريح بلفور الذي كان له انطباع سيء على العرب لتخوفهم من احتمال وقوع فلسطين ، وحتى سورية ، بيد اليهود . وقد يتيح هذا ، برأيه ، المجال للدعاية المانية تركية تعد

بالاستقلال تحت السيادة التركية . وينصح كلايتون بعدم منح الصهيونية امتيازات أخرى ، والاكتفاء بالتصريح ، لانه من الخطر في هذه المرحلة ، وبسبب الموقف العسكري ، السماح باستيطان يهودي في فلسطين .

٢ - السياسة التوفيقية بين العرب والصهيونيين :

على ضوء المعلومات التي قدمها كلايتون أخذ سايكس بوضع الخطوط العامة التي يراها مناسبة لانقاذ الموقف ، بعث بخلاصتها الى كلايتون وهي : ان في المنطقة مكانا « للقوميتين العربية واليهودية » كي تعمل معا لحياء الشرق ، مع الوعد بإمكان تحقيق الكثير لو حدث التحالف مع الصهيونية ، والتحذير من عواقب معاداتها . وفي برقيته الى كلايتون في ٣٠/١١/١٩١٧ (٢٩) ، اشار سايكس الى انه حث الصهيونيين في لندن لتبني اتجاه موال للعرب ، وانه ، اي سايكس ، قد وضع صيغة قرار سوف يتخذ في اجتماع صهيوني ضخمة « تصل اصداؤه الى الشرق » ، ويأمل من كلايتون ان يستطيع تهيئة الجو بالتأثير على العرب وخاصة الزعامة السورية في القاهرة ، ويقترح عليه ان يشرح لتلك الزعامة اهمية التعاون بالنسبة للمستقبل العربي ، وان « التحالف مع الصهيونية هو ضمان للاستقلال العربي وللازدهار ، وان معاداتها تعني ركودا عربيا وسوريا » .

وبدا كلايتون بالدعاية حسب الخطة التي اقترحها سايكس ، فحاول كسب ثقة بعض العناصر السورية في مصر . ودبر لقاء بين اعضاء لجنة الاعانة السورية في القاهرة والزعيم الصهيوني موسيري . ولكن لم يكن لدى كلايتون تفاؤل سايكس ولم يتوقع نجاحا كبيرا لسياسته ، نظرا لمشاعر القلق والتخوف عند الزعماء السوريين بشأن تقدم الحركة الصهيونية خطوات تهدد مصالحهم ، ولان تحالفا عربيا يهوديا يبدو تجربة غريبة . ولذا فقد نصح كلايتون بأن تجري العملية بحذر شديد « فالدعاية العنيفة ستثير المشاعر التي يتوجب تهدئتها ، ويبدو المستقبل مظلما يستحيل التنبؤ به (٣٠) » . وكان كلايتون يخشى من حدوث ما يؤثر على علاقات العرب بالحلفاء بعد ان ترك التصريح اثرا كبيرا في الاوساط العربية ، حتى « الجهات المؤيدة للانجليز لم تخف المرارة » . وهذا السبب هو الذي حمل كلايتون على التحفظ بشأن اقتراح تقدمت به الخارجية اثر احتلال القدس في ١١/١٢/١٩١٧ (٣١) بارسال بعثة صهيونية تعمل كجهاز استشاري للسلطات البريطانية فيما يتعلق بأحوال اليهود وانشاء الوطن القومي . وكانت وجهة نظر كلايتون ، وهو ايضا راي السلطات العسكرية في مصر ، ان الوضع العسكري الحالي لا يسمح لاي شخص بالتوجه نحو فلسطين (٣٢) .

٣ - التأثير على الشريف حسين :

اتجهت خطة سايكس ، الى جانب محاولة اقناع الزعامة السورية بأهميته التعاون العربي مع الصهيونية ، ، الى الاتصال بالملك حسين كي يضمن قبوله ، ولم يكن كلايتون متفائلا بتلك المساعي كما جاء في برقيته الى سايكس في ١٢/١٧/١٩١٧ (٢٣) . واستقر الرأي اخيرا على ارسال هوغارت (أحد رجال المكتب العربي ، ومن علماء الآثار المستشرقين) كمبعوث شخصي لدى الحسين في محاولة للتأثير عليه . ووضعت الخطوط الرئيسية للمباحثات مع الحسين في القاهرة . وارسلت الى الخارجية في ٣١/١٢/١٩١٧ (٢٤) . وبتوجيه من سايكس اضيف لها صيغة اخرى لضمان موافقة الحسين فيما يتعلق بفلسطين : اذ بالاضافة الى تأكيد الوعود التي قطعها مكماهون ، اقترح سايكس ضمانات بشأن الاماكن المقدسة وضمان « حقوق الشعب الحالي الاقتصادية والسياسية » مع التأكيد على أهمية اليهودية العالمية والتي تعني دعم كل الدول التي يوجد لليهود نفوذ فيها ، والاشارة الى ان زعماء الحركة الصهيونية عازمون على تحقيق النجاح والتعاون مع العرب وصادقتهم (٢٥) .

وكي تضمن وزارة الخارجية البريطانية مزيدا من التأثير على الحسين بعثت برسالة الى كلايتون باللغة العربية في ١٥/٢/١٩١٨ كي يبلغها للحسين ، والرسالة هي من لجنة تطلق على نفسها « اللجنة العربية والسورية المدافعة عن النهضة العربية وصديقة الدولة البريطانية » . تدعو الحسين لقبول الامر الواقع الذي هو لمصلحة العرب نظرا لما للصهيونيين من نفوذ ومال ، وتقنعه بعدم جدوى معارضة ما يرمي له الصهيونيون (٢٦) . الا ان موقف الحسين لم يكن مشجعا من وجهة نظر كلايتون في رسالته الى سايكس في ٤/٢/١٩١٨ (٢٧) ، واتهمه بالعناد وبتحريف كل شيء لمصلحته . ولكن كلايتون ظل يعتقد بضرورة ابقاء الحسين على المسرح رغم انه بدا بالتركيز على الامر فيصل الذي اخذ يلوح في الصورة بعد نجاحاته العسكرية ليحقق ما فشل الحسين في تحقيقه . وأمر كلايتون الى سايكس خبرا مفاده انه أوعز الى لورنس للقيام بالتأثير على فيصل لدفعه الى الاتفاق مع اليهود بحجة انها « فرصته الوحيدة لاعطاء الحركة العربية ثمارها » .

٤ - الدعاية في أوساط شعب فلسطين :

بعد أن قطعت العمليات العسكرية في فلسطين شوطا كبيرا بدأت السلطات البريطانية تمهد لنقل خطة سايكس الى فلسطين خاصة بعد ان أعلن سايكس في مطلع

١٩١٨ عن قدوم بعثة صهيونية لوضع تفاصيل سياسة التعاون . وبدأ أولا بتنظيم ادارة فلسطين مستقلة عن مصر . واوكل الى الجنرال كلايتون القيام بمهمة الضابط السياسي الرئيسي للجنرال اللنبي (القائد العام للحملة المصرية) على ان يتلقى كلايتون تعليماته من وزارة الخارجية مباشرة في الامور السياسية المتعلقة بفلسطين . ووجهت له تعليمات بتأسيس فرع جديد « للمكتب العربي » تحت اشرافه في فلسطين بهدف القيام بالدعاية ، على ان يصبح كورنواليس مديرا « للمكتب العربي » في القاهرة (٢٨) . وخشية حدوث مصاعب مع « السكان المحليين » ارسلت الخارجية الى كلايتون الخطوط العامة للسياسة البريطانية المقبلة ، وتعلق بضممان المساواة الدينية لجميع فئات السكان واستخدام الموظفين من الاجهزة المحلية وابقاء الصهيونية في « الاتجاه الصحيح » الذي لا يسيء الى أمن الاماكن المقدسة ، مع تقديم التسهيلات الكاملة لاعادة بناء وتأسيس المستوطنات اليهودية .

وفي ١٩١٨/٢/٤ بعث كلايتون الى سايكس باطباعاته الاولى من القدس (٢٩) ، حيث لمس صعوبة التوصل الى التعاون العربي لان الشعور في القدس قوي ضد اليهود ، فالعرب يخشون من ان يسيطر اليهود على المدينة المقدسة ، وعلى جميع فلسطين . ولذا فان كلايتون يتطلع الآن الى وصول « بعثة وايزمان » .

٥ - البعثة الصهيونية في مصر :

منذ وصول البعثة الى الاسكندرية . ١٩١٨/٣/٢ (٤٠) . بدأت مشاوراتها السياسية حسب الخطة الموضوعة . ورافقها الماجور اورمسي غور من « المكتب العربي » ممثلا للحكومة . وفي مقال كتبه كورنواليس (مدير المكتب العربي في القاهرة) في النشرة العربية ١٩١٨/٤/٣ تحت عنوان «الصهيونيون والسوريون في مصر» (٤١) . أشار الى الانطباع العام الذي أحدثته زيارة اللجنة في اذهان الزعماء السوريين في مصر . فقد تخوف الزعماء من أن هدف اليهود لا يقتصر على تولي زمام الحكم بل تجريد السكان من ممتلكاتهم . وطردهم من البلاد تدريجيا . ويقر كورنواليس أن جهد المسؤولين البريطانيين في تهدئة مخاوفهم كان شاقا . ونقل كورنواليس ما تحدث به وايزمان للزعماء السوريين حول اهداف الصهيونيين ، وانهم يتطلعون فقط الى انشاء وطن يتيح لليهود الحياة القومية ومشاركة السكان الحقوق المتساوية . وأشار وايزمان الى نيته في تحسين المستوطنات القائمة والاعداد لاستقبال المهاجرين الجدد على اراضي الدولة والاراضي البور ، كما أكد حرصه على الاماكن المقدسة وتحدث بعطف عن الثورة العربية . ويعلق كورنواليس على هذا اللقاء بقوله ان « موقف الزعماء السوريين قد تحول من معارضة متصلبة الى تعرف تدريجي على

انقوى الكامنة وراء الصهيونية وقبول كاره بأن اغراضها ليست قائمة كما صورت ،
وانه في ظروف معينة قد يستفيد السكان من الغزو اليهودي » . ويأمل كورنواليس
بزوال بقية الشكوك لو استمرت اللجنة في موقف الاسترضاء الحالي .

٦ - البعثة الصهيونية في فلسطين :

لم تكن اخبار فلسطين مشجعة فقد صورت رسائل هوغارت من القدس الى
« النشرة العربية » في ١٩١٨/٣/٢٧ و ١٩١٨/٤/٧ (٤٢) حالة القلق السائد الذي لن
يعمل على تخفيفه موقف اليهود العدواني . ويرى هوغارت أن تخوف الجميع
من المستقبل وغموض تصريح بلفور يعرقلان العلاقات مع « السكان غير اليهود » .
ويشير الى تكون الجمعيات الاسلامية المسيحية لحماية الارض كرد فعل طبيعي لهذا
التخوف . ويتوقع هوغارت أن يصبح التخوف العربي أكثر حدة مع وصول البعثة
الصهيونية ، ولذا فانه يقترح نشر سياسة البعثة الصهيونية على اوسع نطاق .
والتي تتلخص بمعارضة الاستقلال وتجريد السكان من الارض والاشراف السياسي
اليهودي والتركيز على الاستفادة من امكانيات الاراضي البور والمستنقعات لاستيطان
اعداد ضئيلة من اليهود .

وبعد وصول البعثة الصهيونية الى يافا في ٤ ابريل/نيسان ١٩١٨ حيث اقامت
مكتبا لها في تل ابيب ، بدا اورمسي غور بارسال التقارير حول المشاكل التي واجهت
البعثة في فلسطين ، ومساعي السلطات العسكرية البريطانية في التمهيد لاجتماع البعثة
بشخصيات عربية (٤٣) . وفي احد هذه الاجتماعات بحث وايزمان مع تلك الشخصيات
القضايا التي تثير مخاوف العرب . وقد نفى وايزمان هدف انشاء دولة ، وتجريد
الفلاحين من ملكيتهم ، وابدى تلهفه لاقامة ادارة تمكن العربي واليهودي من العمل
بانسجام لتطوير البلد على اساس المساواة والعدالة لان في فلسطين متسعا لليهودي
والعربي . الا ان الانطباع المتفائل الذي نقله اورمسي غور في تقريره للخارجية نفته
« النشرة العربية » في عددها الصادر في ١٩١٨/٤/٣٠ (٤٤) ، واتفقت في ذلك مع رأي
رونالد ستورز الحاكم العسكري للقدس (٤٥) . وقد صورت « النشرة » الانطباع
المعادي والسلبى الذي أحدثته البعثة في القدس وتخوف المسلمين والمسيحيين المتزايد
من المسألة الصهيونية وأنهم لا يشعرون بالاطمئنان على مستقبلهم ويخشون التعدي على
حقوقهم ويندفعون لتأسيس جمعيات للسهر على مصالحهم . وفي تقرير الى مارك
سايكس في ١٩١٨/٤/١٦ (٤٦) عبر وايزمان عن قلقه الذي يتعارض والتوقعات التي
يأملها ، وبرايه أن الجو السياسي لا يتلاءم مع التطور الذي رسمه تصريح بلفور .

وفي ١٩١٨/٥/٧ رفع كلايتون الى وزارة الخارجية تقريراً أعده ستورز ٢ حاكم القدس العسكري (٤٧) حول وقائع احتفال كان قد أعده في القدس كي يتيح للبعثة الصهيونية فرصة أخرى لشرح الاهداف الصهيونية لزعماء القدس العرب . وجاء في تعليق كلايتون على التقرير « بأن السياسة الصهيونية قد عملت الكثير لازالة شعور عدم الثقة والشك الذي كان يعتمل في نفوس الطائفتين الاسلامية والمسيحية تجاه الاماني الصهيونية » . وبايعاز من كلايتون تم نشر خطاب وايزمان في الاحتفال على اوسع نطاق وباللغات الثلاث . مع ذلك فقد ظل كلايتون مصراً على رايه بأن الاعتبارات العسكرية تجعل من المستحيل القيام بمشاريع واسعة كما يقترح وايزمان .

هذه المصاعب التي واجهتها البعثة الصهيونية في فلسطين دفعت السلطات البريطانية في مصر الى ارسال لجنة من بعض الزعماء السوريين للتعرف على الحالة السياسية والاقتصادية في البلاد . وأشارت « النشرة العربية » في ١٩١٨/٦/٤ (٤٨) الى ان شاغل اللجنة كان مقاومة التخوف الطبيعي الذي يشعر به السكان تجاه الاهداف الصهيونية . ولم يكن هذا يعني موافقة الزعامة السورية على فصل فلسطين عن سورية ووضعها تحت الاشراف الصهيوني . وهذا ما أكده فارس نمر أحد زعماء الكتلة السورية في لقائه مع هوغارت (« النشرة العربية » في ١٩١٨/٦/٢٤) . ومن وجهة نظر « النشرة العربية » فان الزعماء السوريين قد يقبلون بالحماية البريطانية . ولكن ليس بالصهيونية (٤٩) .

٧ - مقترحات المكتب العربي بشأن الادارة العسكرية في فلسطين :

في رسالة وجهها وايزمان الى بلفور (وزير الخارجية البريطاني) في ١٩١٨/٥/٣٠ (٥٠) شكاً ما تواجهه البعثة الصهيونية من مصاعب في فلسطين ، كما وجه انتقاده للادارة المحلية التي لا تتلاءم بنظره مع خطط الصهيونية لتحقيق الوطن القومي اليهودي . ورفع كلايتون تقريراً وافياً عن الوضع الراهن في فلسطين الى بلفور ، في ١٩١٨/٦/١٦ . لتوضيح الموقف ولرد على انتقادات وايزمان (٥١) . فوجود البعثة انصهونية بنظر كلايتون « هو بحد ذاته دليل على الدعم الذي منح للحركة الصهيونية وهو امر اثار انتقاد الفئات الاخرى التي حرمت من وجود منظمة مشابهة للدفاع عن مصالحها » . ويرى كلايتون أن العرب ينظرون بشك بالغ الى اي تحرك ، ولذا يشير بالتخفيف من الدعاية العدائية بين العرب . وباعتقاد كلايتون ان العداء العربي يرجع الى عوامل اجتماعية اقتصادية وليس الى الشعور القومي ، ولذا يرى ان المعارضة سوف تختفي حين يعود التطور الناجم عن تنفيذ البرنامج الصهيوني بفوائد على

غالبية السكان . ويقترح كلايتون برنامج العمل البريطاني المقبل في فلسطين لمصلحة الصهيونية ، وهو برنامج لا يمكن أن يتقيد بقوانين وأعراف الحرب الخاصة بإدارة المناطق المحتلة (والتي تفرض الحفاظ على الأوضاع القائمة في الأراضي المحتلة) ، لأن ذلك سوف يؤدي ، بنظره ، الى خيبة أمل الصهيونية ، وقد يدفع الى رحيل البعثة الصهيونية . وهو أمر يعتبره كلايتون ضربة « لهيبة بريطانيا » . ولهذا فهو يقترح بدلا من ذلك اعطاء السلطات المحلية قدرا معقولا من حرية العمل لاحداث تعديلات بسيطة ترضي الراي الصهيوني وتتفادى الاساءة الى مشاعر الطوائف الاخرى .

اما فيما يتعلق بالمقترحات التي تقدمت بها البعثة الصهيونية وردود الفعل التي يمكن أن تحدثها ، فان كلايتون لا يرى مانعا من البدء بمشروع (الجامعة العبرية) ، اما المشروع الزراعي الواسع الذي سوف يستصلح ٢٥٠.٠٠٠ هكتار من اراضي الدولة والاراضي البور ، فهو كفيل باثارة مخاوف السكان ، كما يعتقد كلايتون . ومن الوجهة السياسية لا يحبذ البدء بمشروع واسع يتعهد به يهود ، ويقترح غطاء بارعا للمشروع وذلك باعطائه صفة عسكرية ، ودعوة بعض المستثمرين العرب للمشاركة فيه تحت اشراف السلطات العسكرية . ويتوقع كلايتون حدوث مصاعب بالغة بشأن ملكية حائط المبكى والاراضي المجاورة له ، والتي قد تستغلها دعاية « العدو » . ويخلص كلايتون من الاوضاع الراهنة التي عرضها في تقريره الى أن أي تطور للأفكار التي تكمن في تصريح بلفور يقضي بتوسيع المعاملة التمييزية لليهود ، وهذا ما سيثير استياء وقلق « الفئات الاخرى » وهو ما قد تستفيد منه دعاية « العدو » . ولذا فهو يشير باتباع اسلوب « التمييز الحكيم والتوفيق الحريص بين مصالح جميع الفئات لان ذلك سوف يعمل على التقليل من الخطر » . لقد كان هدف كلايتون في تقريره الى بلفور تحديد المدى الذي يجب أن يبلغه تطوير السياسة الصهيونية في فلسطين في المرحلة الراهنة ، وتوجيه التعليمات الخاصة بالخطوط العريضة التي يتوجب على الإدارة اتباعها . وهكذا ، ورغم كل تقدير واعجاب بلفور بوايزمان وتعظيمه له ، جاءت رسالته الى وايزمان في ١٩١٨/٧/٢٦ ، ردا على مطالب الأخير ، متحفظة ، مشيرة الى أن قضيتي حائط المبكى والاراضي معقدتان لا يمكن البدء بتنفيذهما « (٥٢) » .

٨ - لقاء وايزمان فيصل :

كان كلايتون متخوفا من انتقال شعور الاستياء من فلسطين الى القوات العربية التي تقوم بعملياتها العسكرية شرقا بقيادة فيصل ، والتي يهيم تركيا أن تكسبها الى جانبها ، وهذا ما يهدد الوضع العسكري في الشرق كما صور ذلك في رسالته الى

بلغور في ١٦/٦/١٩١٨ (٥٣) . ونوه تقرير «المكتب العربي» في تموز / يوليو ١٩١٨ (٥٤) بضرورة توجيه الانظار الى منطقة ابعد الى الشرق ورسم خطة جديدة بتدبير لقاء بين الحركة الصهيونية والقائمين على قيادة الثورة العربية (الجناح الايمن للقوات البريطانية) « فالمصلحة البريطانية تقتضي بقاء هذا الجناح مصدر قوة » . وكانت برقية كلايتون الى وزارة الخارجية قد سبق واكدت في ٢٦ مايو / ايار بأن موقف كل من ملك الحجاز والامير فيصل المتعاطف سوف يتجح كثيرا في عملية التنسيق بين السياستين الصهيونية والعربية لتجنب حدوث صدام متوقع يهدد المصالح البريطانية » .

وقد جرى بحث تجديد التوجه السياسي للبعثة الصهيونية تجاه الحركة العربية في مؤتمر حضره كلايتون ومساعداه ديديس ولورانس وأورمسبي غور وايزمان (٥٥) . . وانطلق هذا التوجه من فرضيات ثلاث : الاولى : ان مركز ثقل الحركة العربية هو المثلث القائم بين مكة ودمشق وبغداد ، او بمعنى ادق سورية الشرقية (بعد ان اخذت الاضواء تتركز على فيصل) . الفرضية الثانية : ان المسألة الفلسطينية يمكن عزلها في حالة قيام حلف سياسي مع قادة الحركة العربية في الشرق . وأخيرا ، ان مسألة العلاقات مع الشعب الفلسطيني هي اقتصادية بحتة ويمكن الوصول الى حل لها بتحسين الاوضاع الاقتصادية . وقد مهد لهذه السياسة مساع سابقة تولاهها كلايتون وهوغارت ولورانس لدى الملك حسين والامير فيصل للتحقق من مشاعرهما تجاه الصهيونية . ولم يكن موقف الحسين بالنسبة للبرنامج الصهيوني واضحا في نظر كلايتون ، فالحسين على استعداد للاعتراف بحقوق اليهود كمواطنين لاية دولة عربية يمكن ان تقوم فيما بعد . ولذا فان كلايتون يفضل التوجه الى فيصل ، وذلك بالتمهيد للقاء بينه وبين وايزمان للحصول على موافقته ، وبالتالي التأثير على والده .

وفي ٢٦ ايار / مايو بعث كلايتون ببرقية من القدس (٥٦) تفيد بأن وايزمان برفقة أورمسبي غور سوف يغادران السويس في ٢٨ منه باتجاه العقبة للقاء الشريف فيصل في مقر قيادته . وتوقعت « النشرة العربية » (٥٧) ان يتمكن لورنس من لقاء وايزمان عند وصوله العقبة ليقوم بتقديمه للامير . وفي ٢٧ ايار / مايو ١٩١٨ بعث كلايتون ، من مقر القيادة العامة في القدس رسالة الى فيصل يعرف فيها وايزمان كأحد زعماء الحركة الصهيونية ، حضر للعمل على تنمية التعاون الكامل بين العرب واليهود ، لان التعاون والعطف المتبادلين كفيلا ، بنظر كلايتون ، بتحقيق النجاح ، كما انه بالامكان بحث القضايا السياسية ذات الاهمية الحيوية .

وتم اللقاء بين فيصل ووايزمان في ٤ حزيران ١٩١٨ في معسكر الاول قرب العقبة وحضره الليفتنانت كولونيل جويس (الضابط السياسي في العقبة) مترجما ، وغاب لورنس عن الاجتماع ، وكذلك حال المرض دون حضور أورمسبي غور . وبعث جويس بتقريره الى « المكتب العربي » في ثمانية نقاط (٥٨) ورد تلخيص لها في « النشرة العربية » في عددها الصادر في ١٨ حزيران / يونيو ١٩١٨ . وصور جويس انطباعه الشخصي بنتائج اللقاء في رسالة مفصلة بعث بها الى كلايتون من العقبة في ٥ حزيران / يونيو ١٩١٨ (٥٩) . ومن وجهة نظر جويس فان اللقاء ليس له قيمة من الناحية الرسمية اذ لا يتوقع أن يصدر فيصل تصريحاً علنياً . ولكنه يعتقد أن فيصل قد رحب « بالتعاون اليهودي » اذ يعتبره جوهرياً بالنسبة للتطلعات العربية في المستقبل . ويؤكد جويس أن فيصل سوف يقبل بفلسطين « اليهودية » ضمن حدود ، لو استطاع بواسطتها بلوغ توسع عربي أوسع الى الشمال .

وكان تفاؤل كلايتون كبيراً من نتائج اللقاء اذ عمل على « تعزيز عطف وتفاهم متبادلين بين وايزمان و فيصل » . كما أدى الى « تخفيف دعاية العدو بين أعوان الشريف لاثارة الشكوك بالاغراض الصهيونية (٦٠) » . وشرح كلايتون في رسالة مفصلة الى الخارجية ١ تموز / يوليو ١٩١٨ (٦١) أهداف الطرفين من اللقاء : ففصل يتطلع الى دعم بريطانيا العسكري كي يهزم الترك ويصبح حاكماً على سورية ، ولكنه يأمل بدعم الصهيونية الاقتصادي والسياسي نظراً لنفوذها وامتداداتها العالمية ، ومن وراء الصهيونية يعتمد على بريطانيا التي يضع ثقته فيها . وبالنسبة لوايزمان فيعتقد كلايتون أن فلسطين « اليهودية المقبلة » يتوجب ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالدول المحيطة بها من أجل وجودها وتطورها . ولذا يبدو حيوياً أن تعمل مع الحركة العربية المجاورة . ويرى كلايتون في لقاء الحركتين وتعاونهما المتبادل حلاً للمشكلة التي تواجهها الحكومة البريطانية بشأن تنفيذ وعودها للطرفين . ومن أجل مزيد من التعاطف والتنسيق بين السياستين الصهيونية والعربية يقترح كلايتون تهيئة لقاء مشابه مع الحسين . ومع أن الحسين قد يبدو كارهاً للبرنامج الصهيوني إلا أنه يمكن ، برأي كلايتون ، اقناعه بأسلوب مناسب وذلك بشرح مدى تأثير البرنامج الصهيوني على المطامح العربية في سورية فهو ، أي الحسين ، قد يرحب ، كما يقول كلايتون ، بأية سياسة تمكن فيصل من تحرير سورية وتقليده أميراً حاكماً عليها .

وانتهى كلايتون الى القول بأنه لا يمكن للحركتين الصهيونية والعربية أن تعملتا معاً حسب الخطة التي اقترحت في لقاء وايزمان فيصل اذا ما ظلت اتفاقية سايكس بيكو سارية المفعول . والتقى كلايتون بذلك مع اقتراح تقدم به وايزمان الى الخارجية البريطانية من أجل التأثير على الحسين وضمان الحصول على اعترافه بالاماني

الصهيونية في فلسطين لقاء الاعتراف بالحسين زعيما للحركة العربية والتعهد بأن يدعم الصهيونيون اقامة مملكة الحجاز ، وكذلك دعم التطلعات السورية (١٢) . واعتبر سايكس ان الاقتراح الصهيوني قد تجاوز الحد المرسوم بشكل بدأ يؤثر على المصلحة البريطانية فيما يتعلق بعلاقاتها مع فرنسا ، وانه لابد من حصر النشاط الصهيوني في فلسطين وحدها ، وكان سايكس يعتبر ان الاتفاقية التي تحمل اسمه لا تزال قائمة ووفقا للاتفاقية فان سورية هي خارج نطاق النفوذ البريطاني ، عدا فلسطين التي تسعى سايكس لابقائها مفتوحة حتى يتم التوصل الى تسوية بشأنها مع فرنسا ، وكان يهمه قبل هذه التسوية ان يزيع من اذهان العرب فكرة ضم فلسطين الى سورية (١٣) .

٩ - اتساع المعارضة العربية للصهيونية :

سعت السلطات البريطانية الى استخدام وسائل الدعاية في فلسطين للتدليل على فوائد الاحتلال البريطاني لشعب فلسطين ، في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ولتخفيف مشاعر التخوف لدى أبناء فلسطين من فكرة اقامة دولة يهودية بالتركيز على الضمانات التي قدمها تصريح بلفور . ووجدت السلطات المحلية في قدوم لجنة التطوع العربية الى فلسطين للحصول على متطوعين لقوات فيصل ، فرصة لاقامة الاحتفالات والقاء الخطب ، وكان اهمها احتفال القدس في ٤ تموز / يوليو ١٩١٨ في مقر المكتب العربي . وبعث كلايتون صورة من الخطب التي القيت في الاحتفال الى بلفور الذي اوعز له بالتالي ضرورة نشرها على اوسع نطاق ممكن (١٥) .

مع ذلك فقد اتسعت المعارضة العربية للصهيونية ، وأكدت جميع تقارير المكتب العربي صعوبة الموقف مع قرب انتهاء العمليات العسكرية . وفي تقرير اعده وارلند (احد رجال المكتب العربي) في تموز / يوليو ١٩١٨ (١٦) اشارة الى « ان سياسة الحلفاء الصهيونية في فلسطين قد اضافت الكثير الى التعقيدات الشائكة للوضع الراهن في المشرق ، وانها قد نفرت المسلمين والمسيحيين على السواء » . وكان وارلند عديم الثقة بجميع اللقاءات التي قام بها وازمان مع الزعماء العرب ، واعتبرها اشبه « بسوق الضحية الى المذبح » . وكذلك أكد هوغارت في مذكرته الى الخارجية في ٢/٨/١٩١٨ (١٧) المصاعب التي تحيط بالقضية العربية ، فهو لا يتوقع « قبول الغالبية (غير اليهودية) للتغلغل الصهيوني او قبول المعاملة التفضيلية للصهيونية » . وينصح هوغارت بأن يتولى « العنصر الشريف » او ما يطلق عليهم اسم « البدو » السيادة من اجل ضمان قبول التغلغل الصهيوني بأقل صعوبة ممكنة حيث يمكن عقد صفقة مالية بنظره ، والا فانه « يتوجب فرض التعهدات البريطانية للصهيونيين

بالقوة . وينقل هوغارت ما أسره الزعماء الصهيونيون بأن «الوطن القومي اليهودي» يعني بنظرهم أن تكون فلسطين كلها تحت السيطرة اليهودية سياسيا ، وهذا لن يحدث ، كما يقر هوغارت الا « باكره السكان وليس برضائهم الحر او السلمي » .

وأقر رئيس تحرير جريدة « الكوكب » في تقريره الى المكتب العربي في ٢٩/٩/١٩١٨ (١٨) ، اثر جولة قام بها في فلسطين بأن جهوده في « النصيح والارشاد » لم تنجح في تبديد سوء الفهم الواقع بين الشعب والحكومة بسبب المسألة اليهودية . وقد لاحظ أن الشعور المؤلم قد ازداد بعد أن تمادي الصهيونيون في إيذاء مشاعر الناس بالاعتماد على تصريح بلفور ، كما لاحظ أيضا أن الاتراك قد استغلوا المسألة الصهيونية كسلاح ضد بريطانيا في المناطق التي لا تزال تحت سيطرتهم حيث أن السكان هناك أخذوا يفضلون استمرار الحكم التركي على توقع وصول القوات البريطانية وذلك خشية فرض اليهود كحكام عليهم .

وظلت مسألة مطالبة البعثة الصهيونية بملكية حائط المبكى مشكلة معقدة للسلطات البريطانية في فلسطين . واقترح كلايتون في رسالته ٣١/٨/١٩١٨ الى الخارجية (٦٩) ضرورة تجنب تلك السلطات أي اجراء قد يعطي انطباعا بأنها تمارس ضغطا في هذه المسألة . ويضيف كلايتون أن الامر « يلاقي معارضة اسلامية لانه يعتبر نقطة انطلاق لتعدييات يهودية اخرى قد تؤدي الى التعدي على منطقة الحرم بأكملها » . وقد تحقق كلايتون في رسالة اخرى الى الخارجية في ١/١٠/١٩١٨ (٧٠) ، أن جميع المغريات لم تثمر في تعديل موقف المسلمين ، بل بلغ الامر الى خوف خطر . ورأى انه من غير المرغوب فيه ، أن لم يكن من الخطورة بمكان ، التقدم خطوة اخرى بشأن مسألة حائط المبكى . خاصة وأن اسهام القوات العربية في الحرب قد زاد من توثيق العلاقات العربية البريطانية ، ويرى أن القضية الأكثر إلحاحا في هذه المرحلة هي المفاوضات للتوفيق بين المصالح العربية والفرنسية في سورية . ولذا فالوقت الراهن غير ملائم كلية للقيام بنشاط صهيوني خاص حتى يتم التحديد النهائي لوضع البلد واسلوب إدارته . ويحذر الصهيونيين من إثارة مزيد من التخوف باذاعة تصريحات طائشة عن سياستهم ومطالب متطرفة تثير عداوة مستمرا مما يؤثر على نجاحهم ويجعلهم عرضة للاتهام بأنهم يسعون لتحقيق اهدافهم بالقوة . ولم يكن تخوف كلايتون نابعا من حرصه على المصلحة العربية ، بل ، كما أوضح في رسالته ، لان عدد اليهود في فلسطين لا يتجاوز ٦٦ الفا يقابلهم ٥٧٣ الفا من « غير اليهود » ، ولذا

لا يمكن تحقيق المطامح الصهيونية الا بالصبر وبإظهار مشاعر التعاطف نحو الغالبية الكبرى من السكان ، لان الصهيونيين لو تقدموا بالقوة فان مشروعاتهم ، بنظره ، سيقام على أساس غير راسخ .

وفي مطلع تشرين اول / اكتوبر ١٩١٨ دخل النبي الى دمشق للقاء فيصل وابلاغه بالترتيبات العسكرية الادارية المؤقتة التي اتخذتها القيادة العامة بشأن ادارة اجزاء سورية التي اعتبرت « بلاد العدو المحتلة » . وشكلت فلسطين المنطقة الجنوبية منها ، بينما شكلت حكومة دمشق العربية المنطقة الشرقية . ورافق النبي في زيارته كل من كلايتون (الضابط السياسي الرئيسي في مقر القيادة العامة ، والمشرف على المكتب العربي في القدس) وكورنواليس (مدير المكتب العربي في القاهرة) .

وبتوقف العمليات الحربية في تشرين ثاني ١٩١٨ انتهت مهام « المكتب العربي » وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي .



الحواشي :

- (١) أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ص ٨٠ - ٨٤ .
- (٢) كان وليام بيل ، ممثل وزارة الخارجية الامريكية في المشرق لتغطية أحداث الحرب العالمية الاولى ، قد تمكن بطريقته الخاصة من الحصول على النشرة السرية للمكتب العربي واستخدمها في تقاريره التي بعث بها الى وزارة الخارجية الامريكية « دائرة شؤون الشرق الأدنى » ، والتي بلغ عددها (٢٤) تقريراً منذ تشرين أول / أكتوبر ١٩١٧ وحتى اعلان الهدنة في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ * وقد سبق لوليام بيل أن عمل وكيلاً لشركة ستانفورد أويل الامريكية في القدس ١٩١٥ - ١٩١٧ .

(3) Aaronson, AL. , with the Turks in Palestine , London. 1917
p. 75.

والمؤلف هو شقيق هارون أرونسون .

(4) F. O. 882/14. pa/17/16. Arab Bureau Papers.

كان وولي عالم الآثار ومدير مكتب المخابرات البريطانية في بور سعيد ، يتولى الاشراف على عملية المخابرات في الساحل الفلسطيني بالاتفاق مع مجموعة « نيلي » عند شاطئ منطيت . وحين قام وولي شخصياً بمهمة الاتصال بالمجموعة فجرت السفينة التي كان عليها واعتقلته السلطات العثمانية . التفاصيل في كتاب Engle, A. , The Nili Spies, London 1959 .
والمؤلفة تروي الاحداث المتعلقة بشبكة تجسس « نيلي » من خلال وثائق عائلية أرونسون .

(٥) روى عزيز بك ، وكان يعمل في المخابرات العثمانية ثم تولى مديرية الامن العام في الدولة العثمانية تفاصيل مثيرة في مذكراته « الاستخبارات والجناسوسية في الدولة العثمانية ، تعريب فؤاد الميداني ونشر جريدة الاحرار البيروتية ١٩٢١ » ، عن كيفية الكشف عن شبكة التجسس في زخرون يعقوب واعتقال افرادها وانتحار سارة شقيقة هارون أرونسون ، وكانت قد تولت ادارة الشبكة بعد رحيل شقيقها .

(٦) بدأت الحملة بنشر خبر في جريدة (جوش كرونكل) في لندن في ٤ ايار/مايو ١٩١٧ تحت عنوان « اليهود في فلسطين - تقارير محزنة - اعتداءات وحشية - تهديد بمذابح جماعية » . وكان مصدر الخبر برقية بعث بها مارك سايكس من القاهرة الى وزارة الخارجية . وقد حصل سايكس على التفاصيل من هارون أرونسون الذي طلب عدم الإشارة الى مصدر الخبر .

(7) F. O. 882/14 . pa /17/6. Arab Bureau Papers.

(8) F. O. 882/26 Arab Bulletin .

مقال عن المستعمرات اليهودية في فلسطين .

(٩) وقد أكد وليام بيل ذلك في تقريره الى الخارجية الامريكية ونقله السفير البريطاني في واشنطن في ١٢ تموز / يوليو ١٩١٧ :

F. O. 371/3050/ 158286.

(10) F. O. 371/3055 / 221243 / 87895 F.

(11) F. O. 882/14. Pa /17/2. Arab Bureau Papers.

(١٢) كان السفراء الأمريكيون الثلاثة الى عاصمة الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى من اليهود المتعاطفين مع الصهيونية وهم ستراوس ومورغنتاو وايلكوس . وقد زاد الاهتمام الأمريكي مع نشوب الحرب وانسحاب ممثلي الحلفاء من الدولة العثمانية ، فاصبحت الولايات المتحدة بذلك الحامية الرئيسية لليهود في فلسطين .

(١٣) كان نفوذ اليهود والدونمة (فرقة من يهود سالونيك اعتنقوا الاسلام ظاهريا) قويا في جمعية الاتحاد والترقي . وقد لعبوا دورا هاما في الانقلاب العثماني ١٩٠٨ ، واحتل بعضهم مراكز ذات نفوذ في الدولة ، ومنهم جاويد بك وزير المالية (دونمة من سالونيك) وقهره صو (المحامي اليهودي الذي كان مع الوفد الذي ابلى السلطان عبد الحميد خبر خلع .
Arab Bulletin 26. 9. 1916.

(14) F. O. 882/26 Arab Bulletin.

(١٥) من تقرير أرونسون الى المكتب العربي في مطلع ١٩١٧ .

F. O. 882/14.pa /17/14. Arab Bureau Papers.

وكذلك من مذكرة ادجار سوارس (من يهود مصر) الى السلطات البريطانية في القاهرة في ١٩١٦/١٠/١٩ .

F. O. 882/14 pa 16/1 Arab Bureau Papers.

(16) F. O. 882 / 14. pa / 17 / 6 Arab Bureau Papers.

(17) **Zionism and the Jewish Future**, ed. ted by Sacher H., London, 1916.

(18) F. O. 882/14. Pa /17/ 14 Arab Bureau Papers.

(19) F. O. 882 / 26 vol. II. No. 39.

مقال « المستعمرات اليهودية في فلسطين » ص ٢٠ وما يليها .

(20) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

(21) F. O. 882 / 26 Arab Bulletin.

وايضا :

F. O. 882 / 14 . Pa 17 / 2 Arab Bureau Papers.

(22) F. O. 882 / 14 . Pa 16 / 15 Aarb Bureau Papers.

(23) F. O. 882 / 14 . Pa / 17 / 2 Arab Bureau Papers.

(24) F. O. 882 / 14 . Pa / 17 / 6 Arab Bureau Papers.

(٢٥) وصل مارك سايكس الى القاهرة في نيسان / ابريل ١٩١٧ ممثلا لبريطانية في البعثة الانجليزية الفرنسية التي ألحقت بالقائد العام للقوات البريطانية في مصر . وكان من مهامها دراسة الوضع في الشرق العربي وضمان قبول الزعامة العربية للخطط البريطانية في المنطقة العربية .

(26) F. O. 371 / 3053 / 162458 / 84173.

(٢٧) جورج أنطونيوس ، بعثة العرب ، لندن ١٩٢٩ (مترجم) بيروت ١٩٨٠ ، طبعة سادسة ، ص ٣٥٢ - ٣٥٤ ، وفيه تفاصيل ردود الفعل العربية لاتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور .

(28) F. O. 371 / 3054 / 225623 / 86526..

(29) F. O. 371 / 3398 / 27647.

من برفية كلايتون الى وزارة الخارجية في ١٩١٨/١٢/١ .

(30) F. O. 371 / 3054 / 235780.

(31) F. O. 371 / 3054 / 235200 / 84173.

(٣٢) برفية كلايتون الى الخارجية في ١٩١٧/١٢/١٤ الوثيقة السابقة .

F. O. 371 / 3054 / 235780.

(٣٤) من برفية وينجيت (المندوب السامي البريطاني في مصر) الى الخارجية .

F. O. 371 / 3054 / 245810.

(٣٥) هذه الصيغة هي خلفية ما يعرف برسالة هوغارت الى الحسين . وكانت التعليمات الموجهة الى هوغارت هي ابلاغ الحسين رسالة شفوية ، الا ان الاخير دونها ، واطلع عليها انطونيوس فيما بعد . ولم تنشر الحكومة البريطانية وقائع ما دار بين هوغارت والحسين حتى كان مؤتمر المائدة المستديرة (سان جيمس) حول قضية فلسطين في لندن ١٩٢٩ ، حيث نشرت مع تقرير اللجنة الخاصة التي كلفت ببحث مراسلات الحسين مكماهون :

Cmd. 5957 , Mis . No. 3, 1939.

وايضا جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٣٦) تشير الرسالة في آخرها الى « عدم ضرورة نشر أي شيء منها في الصحف نظرا لما ينتج عنها من ضرر » .

(37) F. O. 371 / 3388 / 14557.

(38) F. O. 371 / 3388 / 14557 / 2070.

(39) F. O. 371 / 3388 / 14557.

(٤٠) جاء في المقطم ١٩١٨/٤/١ نقلا عن المجلة الصهيونية في القاهرة ان أعضاء البعثة الصهيونية ، بالإضافة الى وايزمان رئيسها ، هم « جوزيف كوين من أعضاء مجلس ادارة الشركة اليهودية للاستعمار ومجلس شركة انجلو فلسطين وكان من أكبر اعوان هرزل ، وليون سيمون من موظفي الحكومة البريطانية ومن المختصين بقضايا التعليم العبراني ، واسرائيل سيف وكيل رئاسة

المؤتمر الصهيوني في إنجلترا وعالم في قضايا جغرافية واقتصاد فلسطين ، سلفان ليفي استلا
اللفة السنسكريتية في كلية فرنسا ، والدكتور ادر مندوب جمعية الاراضي اليهودية . وكان
الماجور اورمسي غور يصحب اللجنة كممثل للحكومة يساعده الكاتب جيمس روتشلد ابن
البارون ادموند روتشلد » •

(41) F. O. 882 / 27 Arab Bulletin.

(42) Arab Bulletin 27. 3. 1918 , p. 91

Arab Bulletin 7. 4. 1918, p. 92.

وايضا :

وايضا رسالة هوغارث في ١٩١٨/٤/٢

F. O. 882 / 14 Pa / 18 / 5 Arab Bureau Papers.

(٤٣) من تقرير اورمسي غور ضابط الارتباط البريطاني المرافق للبعثة الى بلفور في ١٩١٨/٤/١٩ .

F. O. 371 / 3395 / 11053.

(44) Arab Bulletin , 30 . 4 . 1918.

(٤٥) كان رونالد ستورز قد عين حاكما عسكريا على القدس في ١٩١٧/١٢/٢٨ ، وتربطه باليهود صلات
وثيقة منذ أن كان السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي (المعتمدية سابقا) حتى ان
الاحتفال بتعيينه حاكما عسكريا في القدس جرى في كنيس الاسكندرية . مع ذلك فقد اصبح
ستورز موضع اتهام وايزمان بحجة عدم مسايرته الاهداف الصهيونية التي يتضمنها تصريح
بلفور ، اي مع الوسائل التي يمكن بها تنفيذ الوطن القومي اليهودي .

Storrs, R. , Orientations , London. 1937, p. 379.

(46) F. O. 371 / 3398 / 92392.

(47) F. O. 371 / 3395 / 98470 / 11053.

(48) Arab Bulletin, 4. 6. 1918.

(٤٩) سعت الزعامة السورية في القاهرة الى التاكيد من نوايا بريطانية في المستقبل بالنسبة للمنطقة
العربية ، فتقدم سبعة من أعضاء الجمعيات العربية السياسية في القاهرة بمذكرة الى وزارة
الخارجية عبر المكتب العربي . وكان جواب الخارجية الى السبعة في مذكرة عرفت باسم التصريح
الى السبعة في ١٦ حزيران / يونيو ١٩١٨، سلمها لهم وارلوند أحد أعضاء المكتب العربي في التصريح
عبارات غامضة عن سياسة الحكومة البريطانية تجاه البلاد العربية الداخلة في الحدود المرسومة
لمراسلات الحسين مكماهون : الاعتراف باستقلال المناطق العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل
الحرب او التي حررها العرب بانفسهم ، أما المناطق التي لا تزال تحت حكم الاتراك او التي
استولى عليها الحلفاء فالتصريح ينص على أن سكانها سيفوزون بحريتهم واستقلالهم وسيكون
نظام الحكم فيها مبنيا على رضى الحكومين :

Cmd. 5964 , 1939.

وايضا : أنطونيوس ، ص ٢٧٨ - ٢/١٢ .

(50) F. O. 371 / 3395 / 125475 / 11053.

(51) F. O. 371 / 3395 / 130342.

(52) F. O. 731 / 3395.

(53) F. O. 371 / 3381 / 123868 / 1467.

(54) F. O. 882 / 14. pa 18/14 Arab Bureau papers.

(٥٥) جاء هذا الخبر في وقائع الاجتماع السابع عشر للبعثة الصهيونية ٢٩ حزيران / يونيو ١٩١٨ .
وأرسلت نسخة منها الى الخارجية قبل ان ترفع الى مكتب المنظمة الصهيونية في لندن .

F. O. 371 / 3395 / 137853.

(56) F. O. 882 / 14 Arab Bureau papers.

(57) Arab Bulletin 4. 6. 1918.

(58) F. O. 882 / 14 . pa 18 / 10 Arab Bureau papers.

(٥٩) الوثيقة السابقة .

(٦٠) من برقية كلايتون الى الخارجية في ١٢/٦/١٩١٨ .

F. O. 371 / 3398 / 105824 / 27647.

وكذلك رسالة كلايتون الى الخارجية في ١٦/٦/١٩١٨ .

F. O. 371 / 3395 / 105824 / 27647.

(٦٢) نقل الاقتراح وينجيت (المندوب السامي) في رسالته الى بلفور ٢٥ تموز / يوليو ١٩١٨ .

F. O. 371 / 3381 / 123868 / 146.

(٦٣) جاء ذلك في تعليق سايكس على رسالة وينجيت . وقد رفع سايكس فحوي التعليق في مذكرة الى « اللجنة الشرقية » المختصة ببحث شؤون الشرق العربي وكانت تتبع مجلس الوزراء مباشرة.

F. O. 371 / 3381 / 123868.

(٦٤) كانت السلطات العسكرية البريطانية في مصر فشرف على اصدار جريدة فلسطين (النسخة العربية من Palestine News) ، وكذلك على جريدة الكوكب ، للقيام بمهمة الدعاية لبريطانية .

(65) F. O. 371 / 3409 / 137855.

ووردت خلاصة الكلمات الخطابية في Arab Bulletin 16. 7. 1918

(66) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

(67) F. O. 371 / 3381 / 146256.

(68) F. O. 882 / 14 Arab Bureau Papers.

ويضيف رئيس التحرير - محمد القلقيلي - الى ان تقريره ينبع من ولائه للحكومة البريطانية ولل قضية المشتركة ، وان سوء الفهم لو ترك دون تصحيح قد لا يؤدي سمعة بريطانية وحدها بل يكون مدعرا للحركة العربية ايضا *

(69) F. O. 371 / 3395 / 167915

(70) F. O. 371 / 3395 / 177513

مِنْ وَثَائِقِ التَّارِيخِ الْإِجْتِمَاعِيِّ لِلْقَطْرِ الْعِرَاقِيِّ شهادة عُيَانٍ عَلَى فَوَاجِعِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى

د . عبد النبي امصطيف
جامعة دمشق

مقدمة :

تشير داينا وود - غريم جونز الى ان ((التاريخ كما يمكن ان يلاحظ الباحث بتململ ، هو ورق في مجمله ... والسجلات الرسمية بمن قال ، وما قال ، ومتى ، ونصوص المعاهدات والقوانين ، ونقاشات البرلمان ، ووقائع جلساته ، أمثلة واضحة عما يمكن أن يسمى بأوراق عامة)) (١) .

ولكن ثمة الى جانب هذه الاوراق العامة اوراق أقل عمومية تشتمل مذكرات صانعي قرارات الدولة بعد لقاءاتهم ومباحثاتهم ، ومسودات المعاهدات والقوانين ، والرسائل الخاصة لاصدقاء هؤلاء الصانعين للقرارات وأسرهم، واليوميات التي ربما حوت آراء مخالفة تمام المخالفة للموقف الرسمي ، وغيرها .

وكتابة التاريخ مهما اختلف الشأن فيها مدينة في نهاية الامر الى نوعية المصادر التي ينهل منها المؤرخ ويعمل ، محكومة بها عمقا وشمولا ، لان المصادر التي تستخدم هي التي تساعد على تحديد التوكيدات التي نهوضها ضمن الكل المعقد للعملية

(١) انظر ،

Diana Grimwood - Jones, Guide to Private Papers Collection, Mansell, London, 1979, P. 37

التاريخية (٢) . من هنا كان هذا الالحاق الدائم والجهد الدائب لاستقصاء المصادر بمختلف أنواعها الشغل الشاغل للمؤرخ الجاد .

وليس ثمة من يماري في أن تاريخ العرب الحديث لا يمكن أن يكتب الكتابة الحقة ما لم يأخذ المؤرخ العربي بعين الاعتبار جميع المصادر المتوفرة عن المنطقة العربية عامها وخاصها ، وما لم يحاول استقصاءها حتى يستوعب الجوانب المختلفة للعملية التاريخية المعقدة . وإذا ترافق انبثاق الكيانات العربية القطرية الحديثة مع احتكاك الوطن العربي بالقوى الغربية ومواجهته المتعددة الأبعاد لها ، فإنه من الأهمية بمكان أن ينظر المؤرخ المعني بدراسة تاريخ المنطقة العربية في وقائع هذه المواجهة كما سجلها كلا الجانبين ، وأن لا يكتفي بالعام منها بل يقرنه بالخاص أيضا .

أن المكتبات الأوربية المختلفة تحتفظ بجملة معتبرة من هذه الأوراق الخاصة التي تلقي ضوءا متفاوت أهميته بتفاوت نوعيتها وحجمها ، ومن الضروري أن يكون الباحث العربي على وعي بها عندما يمارس الكتابة والبحث في تاريخه الحديث وفي مجمل التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مر بها وطنه .

وربما كانت المجموعة التي يملكها مركز الشرق الأوسط Middle East Centre التابع لكلية سانت أنتوني St. Antony's College إحدى كليات جامعة أكسفورد المعروفة ، واحدة من أغنى هذه المجموعات وأهمها رغم أنه لم يمض على البدء بجمعها أكثر من ثلاثة عقود .

والواقع أن باحثي الشرق الأوسط مدينون للأستاذ الكبير البرت حوراني والسيدة اليزابيث مونرو بالبدء بهذه العملية والتي استهدفت جمع الأوراق الخاصة (الرسمية والشخصية) للرعايا البريطانيين ممن عملوا في الشرق الأوسط كممثلين للحكومة البريطانية ، أو في الجيش البريطاني ، أو كان الشرق الأوسط جزءا من اهتماماتهم كرحالة أو رجال أعمال ومصرفيين ، أو كأعضاء في بعثات إرسالية تبشيرية .

ومنذ عام ١٩٦١ والمجموعة تنمو بالتدريج ، إذ أصبحت تضم الآن أوراق ما ينوف على ٣٠٠ شخص من بينهم جون فيلبي وجورج أنطونيوس وآخرين ، وتغطي الفترة التي تلي عام ١٨٠٠ ، وهي متاحة للباحثين من جامعيين وكتاب وصحفيين من مختلف أنحاء العالم .

(٢) انظر ،

Albert Hourani, the Emergence of the modern Middle East, University of California Press, 1981, P. 37

ومما يميز المجموعة غنى مادتها المتعلقة بفلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني ، فهي تضم جميع اوراق المفوضين السامين الذين تعاقبوا على فلسطين ، وجملة صالحة من التقارير والمذكرات واليوميات وتقارير شهود العيان لاشخاص مارسوا مهنا مختلفة ووظائف متنوعة ، تشمل مفوضية المنطقية ، والامن الداخلي ، والصحة والتعليم ، والارساليات التبشيرية .

وكذلك فان ما تحويه من مواد عن المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج العربي في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى يتمتع بأهمية خاصة . وكذا الشأن فيما يتعلق بسورية ولبنان في العقود الخامس والسادس والتاسع من القرن الماضي ، وفي فترة الحرب العالمية الثانية .

والمجموعة غنية ايضا بالمواد المتعلقة بتاريخ العراق في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، وذلك اضافة الى المواد المتعلقة بعلمن في الاربعينات والسبعينات من هذا القرن وبمصر بشكل عام في القرنين الاخيرين .

وتضم الاوراق الخاصة المعنية بالقطر العراقي ما يقرب من ثلاثين مجموعة تغطي الفترة ما بين ١٨٤٠ و ١٩٧٠ ، من بينها اوراق السير جون فيلي وجورج انطونيوس وهمفري ارنست بومن Humfhrey Ernest Bowman (١٨٧٦ - ١٩٦٥) الشيقة والهامة .

وحتى ابين للقارئ العربي اهمية هذه المواد التي تحتويها هذه المجموعة الخاصة فاني اقدم تحقيقا لاحدى الاوراق التي تمثل شهادة عيان على ما حل بالموصل من مجاعة وبؤس زمن الحرب العالمية الاولى . وقد عثر على هذه الشهادة ضمن اوراق بومن مدير التربية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٠ .

ولكن من هو بومن هذا ؟

ولد السيد بومن في عام ١٨٧٦ ودرس في كلية ايتن Eton بين عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٨ ثم في كلية « نيوكوليج » New College في جامعة اكسفورد بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٠ ، حصل بعدها على اجازة في التاريخ الحديث ، ثم عمل محاضرا في كلية كلم Culham لادتي التاريخ والادب الانكليزي بين عامي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ . وانضم بعد ذلك الى وزارة التعليم في مصر فشغل وظيفة مساعد لمدير المدرسة التوفيقية الثانوية حتى عام ١٩٠٥ عندما اختير محاضرا في دار المعلمين في القاهرة .

وعمل بين عامي ١٩٠٦ و ١٩٠٨ مساعداً مفتشاً للتعليم ثم رقي الى مرتبة مفتش في نهايتها ، واستمر في عمله هذا حتى ١٩١١ .

وأعير في عام ١٩١١ الى قسم التربية في الحكومة السودانية ليكون مفتشاً للمدارس هناك حتى عام ١٩١٣ عندما عين مديراً للطلبة المصريين في بريطانيا . ولكنه مالبت ان استدعي ليعمل في الجيش البريطاني في المملكة المتحدة وفرنسا والهند والشرق العربي حتى تسريحه برتبة رائد عام ١٩٢٠ . وقد عمل في أثناء ذلك مديراً للتربية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢٠ وصحب البعثة العربية لنجد والكويت الى انكترا . هذا وأنفق بومن الفترة الطويلة الممتدة بين عام تسريحه من الجيش وعام تقاعده (١٩٢٠ - ١٩٣٦) مديراً للتربية في فلسطين عاد بعدها الى وطنه حيث توفي عام ١٩٦٥ .

ومن الجدير بالذكر ان اوراقه الخاصة تضم .

- مجموعة مراسلاته الخاصة بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ .
- مجموعة مراسلاته واوراقه الرسمية بين عامي ٩١٧ و ٩٢٣ .
- مجموعة محاضراته ومقالاته واحاديثه الاذاعية المعنية بشؤون المنطقة التعليمية بشكل خاص .
- يومياته بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٣٧ .

كما وتضم مجموعته البوما ضخماً للصور يحتوي على اكثر من ٣٠٠ صورة لبغداد والبصرة والموصل ومدارس الحكومة ، والاحداث الرسمية في العراق بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ . وسلسلة من الصور الجوية للمدن الرئيسية في العراق تعود الى العشرينات من هذا القرن مأخوذة من قبل سلاح الجو الملكي البريطاني .

هذا وتعود شهادة العيان المحققة التي أضعها بين يدي القارئ العربي الى الفترة التي خدم فيها بومن مديراً للتربية في العراق . وهي مهداة من السيد خير الدين الفاروقي ، المواطن العربي العراقي ، الذي كان مع علاقة - لم أتمكن من معرفة مداها وطبيعتها - بالسيد بومن ، وأرادها سجلاً لوجه من وجوه فواجع الحرب في منطقة الموصل في القطر العراقي . وقد لفت انتباهي الى وجودها الأنسة جيليان غرانت G. Grant ، قيمة مجموعة الاوراق الخاصة في المركز المذكور ، التي وضعت مشكورة ((اوراقها الخاصة)) تحت تصرفي وسهلت بالتالي كتابة هذه المقدمة التي أمل ان تكون ، وشهادة العيان ، بعض عون لدارسي التاريخ العربي الحديث وخاصة ما اتصل بجوانبه الاجتماعية والتعليمية .

4-

(الظلم لا يدوم وان دام دمر)

جاءت الأيام على هذه الامة المظومة وكفقرت تحت اعباء السنين الخوالي (١)
الدرج ولوسيا في السنة الأخيرة للحرب التي ادت الفريب واجرت الصيون
عيوناً فقط الفرد البشري الى دركات الهوان والذل بصورة لم يفصل
التاريخ ولم تتركها عين الحقيقة .

نعم إن الحرب قد ظهرت بنظاهشتي فان بعض الممالك المتخارية كانت
لتنشر بوجور الحرب الدفيلة ولكن سكان الحدباء قد رأوا عاراً من
الاهوال التي شاء لا الطفل الرضيع واسود لإدجه المدينة .

أجل يطول احصاء المصائب والويلات التي امطرتها سحب الحرب والظلم المتكاثفة
على سكان هذه البلدة التعيسة . فلقد كان الخلق من مهاجرين وفقراء وأطفال يأكلون
جيف الكلاب والدواب ، ويجمعون الدماء ويجمدوننها ويأكلونها . كل ذلك جرى نصب
أعيننا ، ونحن متبلهون حائرون ، لا نجد لهذه الفوادم راداً ، ولا لهذا البلاء دواء .
اذ كانت المصيبة عامة والدواء ممنوع (١) .

كانت الحكومة مشغولة بنزع الاسباب الحياتية من ايدي الناس ، فقيرها
وغنيها (٢) وذلك باسم اعاشة الجند ، ولكننا كنا نرى ، والقلب ينقطع أسفاً ، ان (٣)
الجيش ايضا بدا يموت من الجوع في خنادق الحرب ، وكانت الذخائر المفضوبة من
الاهالي تمر على هاوية تسمى « المنزل » و « الانبار » ، وهناك تتلاعب بها ايدي
الظلمة ، فيأخذون ما يأخذون ويسرقون ما يسرقون ، حتى ان هذه الحالة ادت الى

الارقام على هامش الصفحة تشير الى ارقام الصفحات الاصلية من الوثيقة

زكري لجنا ب الكائين يوم نأظر المار ف زانظر المارني
آذا الفاروق
| آذا الفاروق
خالد الدنكي

الصفحة الاولى من الرسالة

اعتراف اولي الامر بوقوع الارتكابات ، والقبض على بعض الاشخاص الذين لهم علاقة بتلك الجنايات ، ولكن المسئلة (٤) كانت لا تصطليح بقتل شخص او اعتقال غيره ، بل انما كان المصاب قد عم ، وليس من الامكان الوقوف امام تلك الاحوال .

فحينما كان الخلق ملقون على الشوارع والطرق ، يتضرعون جوعا ، كان كبار الامراء يشتغلون بمعاقرة بنت الحان ، والمقامرة طول لياليهم ، غير مكترئين بما يجري من تلك الوقائع المؤلمة . فكنت ترى النساء والاطفال مطروحين على الرصيف مكشوفين (٥) العورة ، يقاسون آلام الموت والجوع والبرد ، وكان ولاية الامور وقوادها يمرون شامخي الرؤوس يتبخثرون بملابسهم الذهبية ، وبأيديهم السياط الفضية . يهزونها كبرا وغرورا ، وكأني بهم يخاطبون المارين من الشوارع ، منكسفين البال ، ناكسين الرؤوس (٥) (هل رأيتم اقتدارنا وهممنا ونتائج اعمالنا ، هلم (٦) فانظروا هذه الاموات ، فانكم أيضا محكومون بذلك ، ولكن الويل لكم ان فهتم ببنت شفة ، فان عقباكم تكون اتعس منهم) .

سبحانك اللهم ! ما هذا الفرور ، ما هذا الجبروت ؟ ان العزة لله جميعا .

نعم ، مضت علينا ايام سود حالكة مميتة مبكية قتالة ، وليس الذي استخلص (٣) حياته من تلك الظلمات الا من اهل السعادة .

كنت ارى من اللازم على كل محرر ، او كاتب ، او اديب ، او شاعر ان يسجل بينانه ما سطرته يد المظالم على طرس البشرية التعيسة من السطور السوداء ، لتكون موعظة كبرى للأخلاف ، وعبرة لاولي الالباب . لذلك كنت كلما رايت او سمعت عن ثقة منظرا مؤلما ، او حادثا محزنا ، أسطره كذكرى يتناقلها الخلف عن السلف . ولكني كنت احاذر ان تقع اوراقي المبعثرة بين يدي أولئك الظالمين فتكون علي شاهدا ، ويعود

علي بالبؤس والشقاء . اذ الحق قد بطل ، والباطل قد حكم ، واذ كانت النتائج امامنا ، معلومة لدينا ، كنت اكتب او لا ابالي ، وراقب كل ما يقع .

لم يكن الظلم سائدا فقط ، بل كان الجنون ، والعماء (٧) المبرح ايضا قد غشى (٨) على الابصار والبصائر ، فكنت ارى بعض الذين يراسون الامور لا يفتأون (٩) من ان يحبذوا مسير تلك الادارة ومجريها (١٠) ، فكان كلما سمعوا شيئا مؤلما قالوا : هذا كذب ، لا حقيقة له ، ومن هنا يخطر لي حادثة جرت امامي وهي :

ان رجلا من مهاجري الاكراد اعطى معروضا قال فيه [ان البلدية قد منعت اكل لحوم الحيوانات المائنة ، ونحن معشر المهاجرين اكثرنا نتقوت بتلك اللحوم فنسترحم ان تأمروا برفع هذه النوعية ، او اعطائنا اقواتا غير ذلك] .

فدار المعروض على دوائر شتى ، ذي علاقة ، او غير علاقة ، ثم جاء لاحدى الدوائر التي هي متكلفة بأرزاق المهاجرين فكتبوا عليه هذا الجواب .

[ان اكل لحوم المائنة من الدواب لا يقبله المنطق والعقل وعلى هذا فان المدعي مجنون او شبه مجنون ، فيلزم اخذه تحت المشاهدة الطبية] .

فيا ليت شعري ، هل كان صاحب المعروض مجنونا ، ام تلك الدائرة ؟

ثم رأيت ذلك المتهم بالجنون متورم الوجه والارجل ، وبعد قليل ، قيل انه مات وهذا امر طبيعي .

تلك مضحكات الدهر ومبكياته . ولم تقف المصائب عند هذا الحد فقط ، بل شاع احدى الايام ان احد الاشخاص المسمى عبود بن فتحي جاويش(*) ، قد ارتكب امرا فظيحا (١١) ، الا وهو اكل لحوم البشر ، وعليه اجريت التحريات في بيته ، بعد ان فرّ ، وألقي القبض على ابنته الصغيرة وامراته ، فاعترفتا بالجريمة ، ووجد في بئر البيت تسعة رؤوس (١٢) صفار واحشاء وعظاما كثيرة انسانية ، وقد شاهدت بعيني احدى تلك الرؤوس وقد ربطت بهذه الورقة عكسهم الشمس (١٣) .

فهاجت (١٤) الخلق وماجوا ، واضطربت الانحاء ، فلم يتمكن المرقوم من الفرار بين تلك الامواج المتلاطمة غيظا وحنقا عليه ، فاعتقل من طرف البعض من الاهالي ،

(*) ان المرقوم من اهالي السليمانية اصلا .

واتي به الى دار الحكومة ، وحيث ان المرقوم شخص قد تمايز بعمله القبيح على امثاله (٥) من الجناة ، احببت ان اراه واكلمه ففعلت .

فكان المرقوم غير مكترث بما يصب عليه من جامات الغضب ، ووابل الشتم ، هادىء البال ، ساكن الجأش ، فكان يتكلم ببداهة غريبة ، وكلما بادته بسؤال ، كان يتكلم بسكينة عجيبة ، ثم يعطي اجوبة مقنعة تشفع له عند مخاطبيه لانه كان يقول :

نعم انا بنفسى كنت ادور الشوارع والتقط الاطفال الذينهم (١٥) في حالة الموت ، واثني (١٦) بهم الى بيتى ، اذبحهم ، ثم آكل لحمهم . فابتدرته بالسؤال الآتي :

— أنت بشر ؟

فاجابني متهمكا :

— كما ترانى .

فقلت له : اما كنت تتألم من ذبح تلك الاطفال المعصومة ، او ما كان ضميرك يواخذك ؟ فقال متضاخكا :

الضمير . يا للعجب ، فان الذي يحس بوخس (١٧) الضمير هو الذي عنده بطن ممثلة ، وقلب لا يرتجف من الجوع ، وشيء من القوت يأكله . فأسئلكم (١٧) يا سادتي ان كنت انا مجرما ، فاني لا ارفض الجزاء ، بل اني حاضر لاستقبال الحبل الذي يلتف على عنقي ، ويرفع روحي الى ربي ، كي اتخلص من هذه الروح التعيسة ، ولا ارى وجوها كوجوه ارباب دولتكم الذين اوقعوا البشرية الى هذه الدركة من الدل .

ناشدتكم الله ، لو كنت جئت اليكم قبل هذا وقلت لكم اني قد اكلت لحوم الكلاب ولحوم الدواب ، وحفرت القبور ، واخرجت الجناز ، واكلتها جوعا ، ليس جناية على نوعي ، وتوسلت اليكم ان تسعفوني بما يقيتني مع امراتي وطفلي ما كان يكون جوابكم ؟

كنتم تقولون ان هذا مجنون وتطردوني ، او تعطوني كسيرات من الخبز من فضلات طعام خدامكم . لذلك لم اقبل ذل سؤال عظمائكم المنغمسين بالشبهوات (٦) التاركين الخلق في ديجور هذه المظالم ، واقترفت جناية ، لم يفعلها غيري .

إذا يجب على الحكومة الجائرة أن تفعل ما عليها من الوجائب الظاهرية ، أي تأمر بقتلي قصاصا ، وهذا حق مشروع . ولكنني أقول لكم بأن قتلي لا يكون سببا لاصلاح (١٨) ما عبثت به أيدي الجور والظلم . فان اعطاء الجزاء لا يكفي لردع الفضائع (١٩) ، بل يجب على المجازي أن يتحرى عوامل تلك الجرائم وأسبابها ويقمعها كي لا تعود بمثلها . فان جريمتي أكل لحم البشر ، وأما سببها فالجوع ، وسبب الجوع الغلاء ، وسبب الغلاء الظلم ، فان كنتم تريدون خيركم ، فاقمعوا الظلم ، والا فان قتلي لا يسمن ولا يغني من جوع . بل يكون سببا لخلاصي من هذه الحياة المنكودة ، وتلك عندي من أعظم السعادة .

يمكن أن القارئ يظن أن هذا الكلام مختلق ، ولكن ذلك الوحش الضاري قد فاه بهذه المقاصد ، لا حرفيا بل ضمنا ، وكان لسان حاله يصرخ قائلا :

ألا فليمت الظالمون .

وكان الحكم عليه ، وعلى امراته بالصلب ، فصلبا وهالك صورتها .

كنت حاضرا حين الصلب ، فلما ارتفعت جثتهما (٢٠) متدليتان (٢١) على الحبل ، ارتفع الى عنان السماء هتاف وتصفيق حاد ، اقشعر له بدني فسئلت (٢٢) أحد الواقفين قائلا :

فقال : انهم يهتفون للعدالة ويصفقون لها .

فقلت .

(٧

يا هذا ! ان هذه فجيرة بشرية ، ولم اعهد الهتاف يكون للفجائع والمصائب . فان الايام التي تكون فيها الغابات (٢٣) مأكلة للمشائق يكون العدل فوق التابوت . لان المشنقة والعدالة ضدان قلما يجتمعان .

فحدجني بنظرة ، ملئها (٢٤) الازدراء والانفعال وتباعد عني .

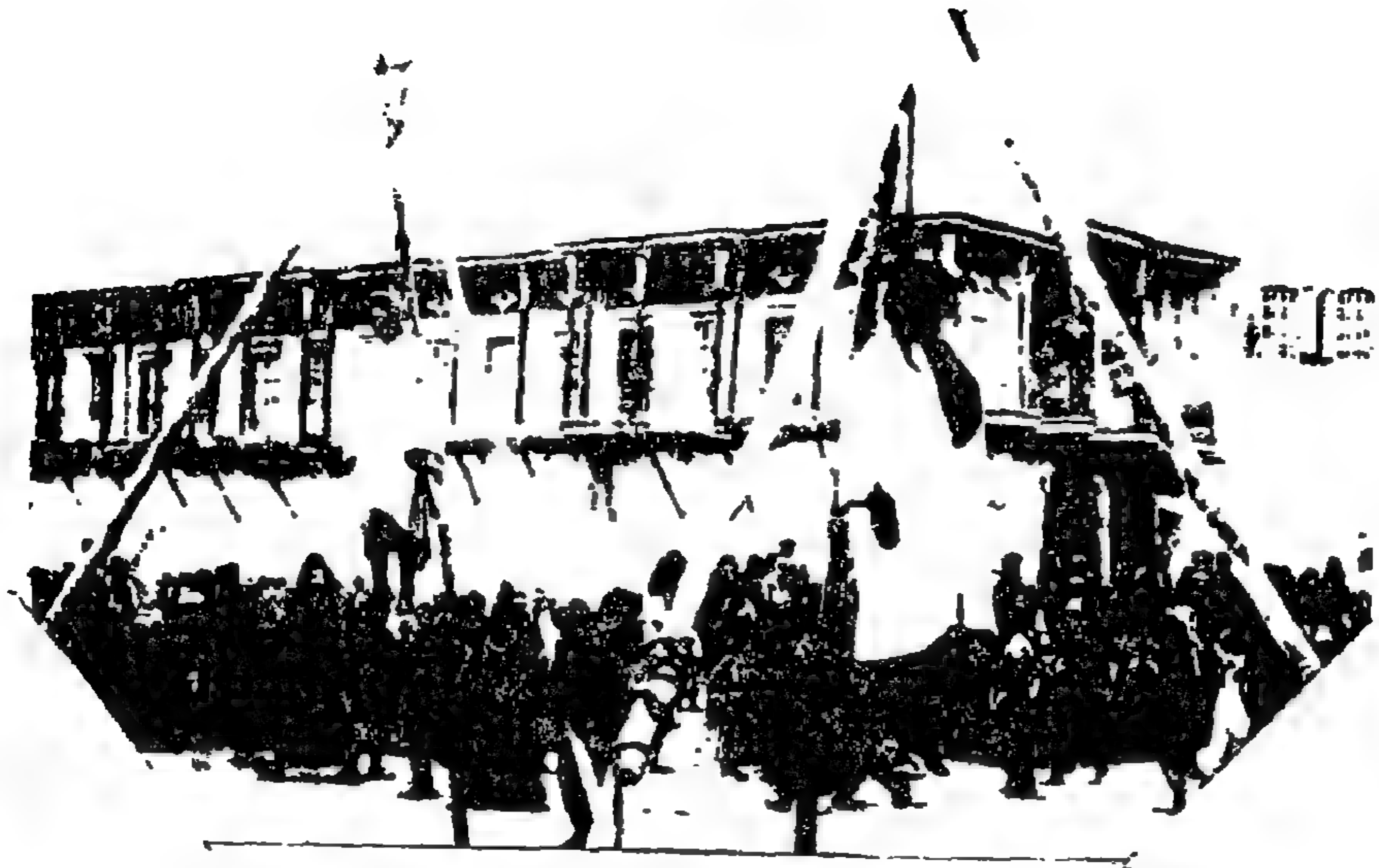
فقلت اللهم ! انظر الى هذه البهائم الناطقة المنتشرة في هذا الميدان ، انهم يعززون الفجائع بالهتاف لها ، فكنت أريد أن الاكف التي احمرت بالتصفيق بصلب هذا المنكود وامراته لا تسقط تحت رأس مطأأ أمام الظلمة ، بل تذهب وتقبض على اعناق الظالمين وترمي بهم الى الحضيض مثلما القوا الناس في حضيض المذلة ، ولكن يا بعد ما أتمناه .

د. عبد النبي اصطيف

فكنت ترى بذلك الميدان مصلوبين محيط بهما جيش عرمرم من بهائم الناس
وامراء مبتسمين متضاحكين ، وفوقهم الكابوس الاعظم وهو الظلم والخوف قد احنى
اظهرهم .

خير الدين الفاروقي

١٣٣٧ / ١٩١٩



عبود بن فتي ياديش وامرأته على الشقة
في ميدان باب الحرب في الموصل في ١٩١٩

هوامش المحقق

- (١) كذا في الاصل ، والصحيح « ممنوعا »
 - (٢) كذا في الاصل ، والصحيح « فقيرهم وغنيهم »
 - (٣) كذا في الاصل ، والصحيح « ان »
 - (٤) كذا في الاصل ، والصحيح « مسألة »
 - (٥) كذا في الاصل ، والصحيح « مكشوفي » و « منكسفي » و « ناكسي »
 - (٦) كذا في الاصل ، والصحيح « هلموا »
 - (٧) كذا في الاصل ، والصحيح « والعمى »
 - (٨) كذا في الاصل ، والصحيح « غشي » دون حرف الجر « على »
 - (٩) كذا في الاصل ، والصحيح « يفتؤون » لانها تعامل معاملة الهمزة المتوسطة
 - (١٠) كذا في الاصل ، والصحيح « مجراها » ، والمبارة مجراها ومرساها مقتبسة من القرآن
 - (١١) كذا في الاصل ، والصحيح « فقلبا » ، وربما كان سبب استبدال الصاد بالظاء ، ان الناس في القطر العراقي يقلبون الصاد ظاء
 - (١٢) كذا في الاصل ، والصحيح « رؤوس »
 - (١٣) يقصد صورتها الشمسية
 - (١٤) كان الاولى به ان يقول « فهاج الخلق وماجوا »
 - (١٥) كذا في الاصل ، والصحيح « الذين هم »
 - (١٦) كذا في الاصل ، والصحيح « واتي »
 - (١٧) كذا في الاصل ، والصحيح « بوخر » و « فاسالكم »
 - (١٨) كذا في الاصل ، والصحيح « لاصلاح »
 - (١٩) كذا في الاصل ، والصحيح « الفلتاح » وانظر الهامش رقم « ١١ »
 - (٢٠) كذا في الاصل ، والصحيح « جشاهما »
 - (٢١) كذا في الاصل ، والصحيح « متدليتين »
 - (٢٢) كذا في الاصل ، والصحيح « فسالت »
 - (٢٣) كذا في الاصل ، ولعله يقصد « الفايات »
 - (٢٤) كذا في الاصل ، والصحيح « ملؤها »
- ومن الجدير بالذكر ان الكاتب كان يضع فوق كل الف ممدودة - متلوة بهمزة - مدة ، متألرا فيما يبدو باحكام التجويد المتعلقة بالد على نحو خاص .

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د . شاكرا الفحام رئيس التحرير : ناظم كلاس

العدد التاسع عشر والعشرون ، نيسان - تموز ١٩٨٥

لجنة كتابة تاريخ العرب : رئيس جامعة دمشق د . محمد زياد الشويكي ،
رئيس قسم التاريخ د . عادل زيتون ،
د . عادل الموا ، د . نبيه عاقل ، د . محمد
حرب فرزات ، د . خيرية قاسمية ،
ناظم كلاس .

هيئة الاشراف على المجلة : د . شاكرا الفحام ، د . محمد خير فارس ،
د . نبيه عاقل ، د . عبد الكريم رافق ،
د . احمد بدر ، محمد محفل ، ناظم كلاس .

المراسلات :

لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او ما يعادلها

للأفراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او ما يعادلها

تضاف اليها اجور البريد الجوي او العادي

حسب رغبة المشترك

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة

في السنوات السابقة بالقيمة نفسها

في هذا العدد

- المؤتمر الاسلامي العام في القدس ١٩٢١
محاولة للبحث عن نصير
د. خيرية قاسمية
- من تاريخ سورية الحديث - العلاقات السورية - التركية
د. عبد الكريم رافق (١٩١٨ - ١٩٢٦)
- الحياة الفكرية في الاندلس
من خلال النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر بالله
د. احمد بدر
- القبائل العربية في بلاد الشام
وموقفها من حركة الفتح الاسلامي
د. محمد ضيف الله البطاينة
- دور جذام في الفتوح الاسلامية
د. صالح الحمارنة
- عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي القديم
(حتى نهاية القرن الثامن ق. م)
د. محمد حرب فرزات
- الصلات التجارية بين مصر وسورية
منذ عصر ما قبل الاسرات حتى نهاية الدولة القديمة
د. محمود عبد الحميد احمد
- الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام
من خلال الوثائق العثمانية
علي يوسف البلخي

تنويه

- ☐ ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية.
- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

دراسات تاريخية

٢٠/١٩

تقديم

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد قطعت شوطا اساسيا في انجاز الخطوط الرئيسية لمشروع كتابة تاريخ العرب على صعيد الاعداد الفكري الاول، وعلى الصعيد العملي ، رأت ان تحقق خطتها للعام الحالي نقلة نوعية على درب هذا الهدف العلمي والقومي النبيل ، تتجاوز مرحلة التهيئة والتحضير الى مرحلة التنفيذ . وفي سبيل ذلك دعت اللجنة الى ندوة تعقد في رحاب جامعة دمشق ، تضم مؤرخين وباحثين ومفكرين من جامعات ومراكز بحث علمي عربية متعددة ، في الفترة الواقعة بين ١٢ - ١٤ تشرين الاول ١٩٨٥ ، من اجل عرض ما تم انجازه حتى الان ، ولتدارس الخطوات التنفيذية اللازمة والاجراءات العملية الضرورية للسير قدما على درب تحقيق هذا المشروع واخراجه الى حيز الوجود .

ان لجنة كتابة تاريخ العرب تعود فتؤكد ما اعلنته مرارا عن قبل ، من انها على قناعة تامة بان اسهام المؤرخين والباحثين والمفكرين العرب ، في كل مكان ، ومشاركاتهم مشاركة كاملة في انجاز هذا المشروع الجليل ، مطلب اساسي ، وشرط ضروري من شروط نجاحه ، وظهوره النور في اكمل صورة واتم وجهه . وانها ، اذ تتقدم بالشكر للاخوة الزملاء الذين لبوا دعوتها وشاركوها مسيرتها ، تعود فتجدد الدعوة للذين لم يشاركوا بعد كي ينضموا الى الركب ، يحذوها الامل ان تلقى دعوتها ما تستحق ، لما عرف عنهم من غيرة قومية والتزام جاد بالمنهجية العلمية ، ومن مساهمات مشكورة في

خدمة امتنا العربية المجيدة . وهي ترحب كل الترحيب بآية مشاركة مهما كان نوعها وميدانها ، وتتقبل بالشكر كل مقترح وراي ينير طريقها ويسدد خطاها .

في الصفحات التالية ، هدف المشروع ومبادئ العمل فيه ، وحلقاته الرئيسية، وبعض توجيهات عامة .

مشروع كتاب تاريخ العرب

١ - هدف المشروع :

اعادة كتابة تاريخ العرب في موسوعة كاملة واحدة تؤكد الوحدة العريقة للامة العربية وغزارة ما قدمت للحضارة الانسانية ، وتكون وسيلة بين ايدي الاجيال العربية الجديدة لفهم الحاضر (الواقع) العربي في جوانبه المضيئة وجوانبه المظلمة وفي امكاناته الواعدة ، ولتزويد هذه الاجيال بالثقة بنفسها وبأمتها وبالقدرة على استيعاب منطق التقدم نفسه وبالوعي التاريخي الذي يحرر الماضي من اقاله ويمنحه وزنه الحقيقي، والذي يعمل على تكوين بعد اساسي من ابعاد الشخصية العربية .

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبع من حاجة قومية قائمة وملحة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقتها لصنع التاريخ الجديد ، ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب من كتابة التاريخ العربي من جديد ان يبرز خصائصه الكبرى ومنها :

١ - انه يحتفظ في جميع مراحلته بنزوع عميق الى ترسيخ وحدة الامة العربية . فهو يرسم خطا متصلا على الرغم من التعرجات والالتواءات التي فرضتها عليه التحديات الخارجية وعوامل الوهن الداخلي . فأمراض التخلف والتجزئة التي

لحقت أحيانا بجسد الأمة العربية لم تحرف روحها الدفينة عن أمانيتها الثابتة .
وذلك يؤكد ان الأمة العربية لا تملك تاريخا واحدا فحسب ، ولكنها تنعكس في
تاريخ وحدوي أصيل .

٢ - ان التوق الى العدل في صوره الفردية والاجتماعية ، سمة بارزة من سماته :
تجسد ذلك في الفترات التي كان العرب فيها سادة أنفسهم ، كما بقي ، في الفترات
الآخري ، مخزوننا في ضمايرهم ، يكشف عن نفسه في حركات القلق المتمرد وفي
جملة نتائجهم الروحي .

٣ - ان الحرية بكل معانيها ملازمة للوجود العربي في الزمان والمكان ، فهي من مقدسات
الأفراد والجماعات لدى العرب ، يدافع عن بقائها ويعتز بها حين تكون ، ويجاهد
في سبيل استردادها حين تزول .

والعبرة هنا ليست في أشكال الحرية التي تحددها مقتضيات العصور وظروف
النمو ، وإنما في معناها الراسخ القائم على رفض السيطرة والظلم ، وعلى
الإيمان بأنها قانون الحياة الإنسانية .

٤ - ان العرب لم يتخلوا مطلقا عن حمل رسالة إنسانية ، فهم متفتحون على كل ماهو
خير عند الأغيار ، قادرون على الأخذ والعطاء وعلى التفاعل الخصيب مع الإنجازات
البشرية ، بل ان القيم الكبرى التي تحدوهم للنضال لم يعتبروها حكرا لهم او
مقصورة عليهم بمقدار ما اعتبروها حقوقا طبيعية للجماعات الإنسانية كلها .

٥ - ان رابطة حية تجمع بين مظاهر الحياة العربية ، فأحداث السياسة لا تنفصل
عن نتاج الفكر والوجدان ، ولا عن نزعات الشعب الدائمة . لذلك يجدر بالتاريخ
العربي ان يؤكد الصلة بين تجلياته المتعددة بحيث يبرز ما فيها من تأثير متبادل ،
ومن تعبير موحد في الوقت نفسه .

٦ - ان التاريخ العربي الذي يكشف عن روح الأمة العربية لا يمكن ان يفسر بهذا
العمل وحده او ذاك ، وإنما يفهم في ضوء مجموع العوامل المتآزرة حينا والمتناقضة
حينا آخر ، بحيث يتضح دور كل من البيئة والتطور الاقتصادي والمؤثرات
الأجنبية ، والتحديات والضعف الداخلي ، وغير ذلك ، الى جانب الإرادة المصممة
على تحقيق القيم المعنوية والرسالة الإنسانية .

٢ - مبادئ العمل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي : المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بأسلوب البحث العلمي .

أ - ينطلق العمل من الايمان العميق بوحدة الامة العربية بمر العصور من جهة وفي مختلف اقاليم الوطن العربي من جهة اخرى . والمنطلق الوحدوي يقتضي :

- كشف وحدة التيارات التاريخية والحضارية في مختلف العصور .
- اظهار ترابط الاقطار العربية وخاصة عند تعرضها للاخطار الخارجية التي تستهدف الوطن العربي او جزءا منه .
- تأكيد استمرار العطاء الحضاري العربي للانسانية بمر العصور ، وفاعلية هذا العطاء وقيمه الانسانية الرفيعة .
- تجنب مزالق التعصب العنصري ، ومشاعر التفرقة والعصبية الدينية او الطائفية .

ب - اما الفهم الحضاري للتاريخ فيهدف الى ابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب ، واعطاء هذه الامة قيمتها الحضارية بين الامم . لهذا يؤكد على :

- ضغط التفاصيل السياسية والاحداث الهامشية قدر الامكان . وبالمقابل يجري التركيز على ابراز الاحداث الحضارية من اجتماعية وفكرية واقتصادية وفنية .
- تخفيف ما اعتاد المؤرخون من قبل ابرازه من ادوار الافراد في التاريخ ، ليرز بالمقابل دور الشعوب والقواعد الجماهيرية الواسعة .
- النظر الى التطورات التاريخية على انها تطور مجتمعات ذات روح حضارية واحدة وحركة ذاتية متصلة واتجاه لا ينقطع نحو الاسمى .
- كشف ما قدمه العرب من اسس حضارية للانسانية وبيان استمرارية هذه الاسس وفعاليتها .

ج - واما التقيد بأسلوب البحث العلمي فهو يقتضي :

- اتباع المنهج التاريخي في اغنى صوره ، من حيث اعتماده على مختلف العلوم المساعدة وعلى المصادر الاصلية ، وعلى التوثيق الدقيق .
- عرض الآراء المختلفة عند الضرورة عرضا موضوعيا .

- تحليل الاحداث والوقائع في تطورها الحي وليس سردها المتسلسل السكوني .
- بحث الاحداث في جذورها الاقتصادية والاجتماعية واظهار دور العوامل الروحية ، وذلك بحسب ما تقتضيه الفترة التاريخية وطبيعة الاحداث .
- عدم اهمال الصلات العالمية تأثيرا وتأثرا في مختلف العصور ، بمعنى ان يكون المنظور العالمي الشامل حاضرا في الذهن عند التحليل والتفسير .
- اعتماد القيم الاساسية في الثقافة العربية لتقويم الاحداث الهامة والاشارة الى النقائص والاطفاء .
- الاهتمام الدائم بشرائط العرض التاريخي من حيث التماسك الداخلي ووضوح العبارة وسلامة الاسلوب .

هذا وان الهدف الاول من مبادئ العمل كلها ان تكشف الموسوعة عن روح الامة العربية وعبقريتها الذاتية ، وان تتخذ الاحداث الكبرى دلالات قومية وانسانية بحيث تفصح عن معنى الوجود العربي ونمائه في التاريخ .

٣ - حجم مؤلف (تاريخ العرب) وحدوده الزمنية واقسامه :

ينقسم (تاريخ العرب) الى خمس حلقات او مراحل كبرى :

اولا - الاصول (في مجلدين) :

- ١ - جغرافية الوطن العربي .
- ٢ - الوطن العربي مهد الحضارات الاولى .
- أ - التاريخ القديم لبلاد الشام وما بين النهرين والجزيرة العربية .
- ب - تاريخ مصر القديم .
- ج - تاريخ المغرب القديم .

يتم التركيز على التفاعل بين الحضارات القديمة في الوطن العربي والسمات المشتركة بين هذه الحضارات وآثرها في تكون الامة العربية .

٣ - الجذور التاريخية للامة العربية (الحضارة العربية قبل الاسلام) .

ثانيا - الدولة العربية (في خمسة مجلدات)

- أ - عهد الرسول ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الاموية ، والعصر العباسي الاول .

ب - الجناح الغربي من الوطن العربي : المغرب والاندلس وصقلية حتى قيام الخلافة في الاندلس .

ثالثا - تفكك السلطة المركزية (في ثلاثة مجلدات) :

أ - سيطرة الجند التركي والبويهيين والسلاجقة ، وقيام الدويلات في الخلافة العباسية .

ب - قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ومصر وبلاد الشام .

ج - الخلافة في الاندلس .

د - ازدهار الحضارة العربية في المشرق والمغرب .

رابعا - التحديات والصمود (في اربعة مجلدات) :

أ - غزو الصليبيين والمغول للوطن العربي :

ب - ردود الفعل العربية في عهد الاتابكة والايوبيين والمماليك والمرابطين والموحدين ..

- السلالات الاقليمية في المغرب والاندلس .

ج - ابراز المظاهر الحضارية والتأثيرات المتبادلة بنتيجة الصراع بين الامة العربية والغزاة .

د - احتلال العثمانيين معظم اقطار الوطن العربي في القرن السادس عشر .

هـ - الثورات العربية على العثمانيين منذ القرن السادس عشر .

و - ظهور الحكم المحلي في المشرق والمغرب العربيين في القرن الثامن عشر .

خامسا - اليقظة القومية العربية (في مجلدين) :

أ - الوعي القومي في القرن التاسع عشر : عوامله ومظاهره .

ب - التدخل الاستعماري الاوربي .

١ - التدخل الاوربي في الوطن العربي ..

٢ - الاحتلال الاوربي لاقطار الوطن العربي .

ج - حركة النضال العربي :

١ - دور القوى التقليدية (الدينية والاقطاعية) .

٢ - دور الاحزاب ذات الاهداف الوحدوية والاجتماعية .

توجيهات عامة

أ - عند كتابة مرحلة الاصول يستحسن مراعاة الامور التالية :

١ - ابراز الوجه الحضاري للامة العربية قبل الاسلام والالحاق على اظهار المنجزات الحضارية والثقافية للامة العربية في هذه المرحلة من تاريخها، ودحض الاتجاه الذي يحاول تصوير هذه المرحلة بانها فترة مظلمة خلت من كل تقدم وعطاء وقيم .

٢ ابراز التشابه في بعض المظاهر الحضارية بين مختلف الحضارات التي قامت على ارض المشرق العربي في (الدين ، المنجزات العمرانية ، المظاهر الفكرية ، بعض التشريعات والقوانين والاعراف والتقاليد ، الاوضاع الاجتماعية) مع مراعاة ما ادى اليه التماس مع بعض الحضارات غير العربية من اختلاف في هذه المظاهر في منطقة دون اخرى .

٣ - التاكيد على ان الاسلام لم يكن مقطوع الصلة بالقيم والجوانب الايجابية في المجتمع العربي قبل الاسلام ، وابرار بعض المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والقيم الاخلاقية ، التي كانت سائدة في المجتمع العربي قبل الاسلام، لتكون المرتكز في تاكيد ذلك .

٤ - بيان الصلة القائمة بين العروبة والاسلام ، بالمقارنة بين علاقة الاسلام بالتاريخ العربي وعلاقته بتاريخ الشعوب الاسلامية الاخرى .

ب - وعند كتابة مرحلة الدولة العربية يستحسن مراعاة الامور التالية :

١ - التاكيد على ان الاسلام عطاء عربي ورسالة انسانية تمثل القيم العربية ، حملها العرب الى العالم ، مع ابراز الملامح الجديدة للمجتمع العربي بعد قيام الاسلام والتغيرات التي دخلت عليه .

٢ - ابراز دور الاسلام القومي في توحيد العرب واقامة الدولة العربية .

٣ - التأكيد على الوجود العربي في المناطق المفتوحة قبل الفتح ، و اظهار ان الفتح لم يكن عملية غزو عسكري ، و ابراز أهمية العامل العقائدي في الفتح او دحض نظرية العامل الاقتصادي كسبب اساسي للفتح ، والتركيز على كل الاحداث التي تبرز الدافع القومي في الفتوح في مواجهة الفرس والروم .

٤ - ابراز أهمية ظهور فكرة الدولة المركزية ذات الهدف الواحد والعقيدة الواحدة في توضيح الصراعات التي قامت بين النظرية القبلية ونظرية الحكم من المركز زمن الراشدين ، وبين الدولة العربية والقوميات التي خضعت لها في العصرين الاموي والعباسي (موالى ، شعوبية .. الخ) .

٥ - اظهار دور العاملين الاقتصادي والقومي في شرح احداث العصرين الاموي والعباسي .

٦ - ابراز أهمية تمازج الثقافات في العطاء الحضاري والثقافي في العصرين الاموي والعباسي .

٧ - ابراز الوجه العربي للعصر الاموي وشرح اسباب انحسار النفوذ العربي عن المسرح السياسي بدءا من القرن الثالث الهجري وما بعد ، وتحول الثقل الى بعض القوى التي تنتمي الى قوميات غير عربية ، (بويهيون ، سلاجقة .. الخ) ، والاعتماد في هذا الشرح على بعض العوامل مثل : (العامل الجغرافي ، الجيش ، الاسباب الاقتصادية والاجتماعية وما دخل من تغيير على حياة العرب) .

ج - وفي كتابة تاريخ المغرب والاندلس في العصور الوسطى يستحسن مراعاة ما يلي :

١ - في عرض النزاعات في ظل الامارة الاموية في الاندلس لا يتم ابراز الجانب الديني في هذه النزاعات على حساب الجوانب الاخرى ، كالجانب الحضاري والثقافي والاقتصادي والقومي .. الخ .

٢ - اعتبار الحلقات المتلاحقة لتاريخ المغرب خطوات متتابعة على طريق تكوين الشخصية الحضارية الواحدة للمغرب والمشرق على السواء ، أي عكس ما تسير عليه المؤلفات الحديثة المتأثرة بالكتاب الفرنسيين ، والتي تجعل روحه المحركة للصدام بين المغرب كوحدة ، مع المشرق كوحدة ، اسفر اخر الامر عن انفصاله التام .

والاهتمام بدحض التفسيرات ذات النزعة الاستعمارية الواضحة لبعض المؤرخين الفرنسيين .

٣ - إبراز وحدة المصير بين المغرب والمشرق منذ الفترات التي سبقت فتحه (وحدة السلطات السياسية المسيطرة - الدور العالمي المتماثل للطرفين قبل الفتح - جزء من التجزئة العامة - الاخطار الخارجية الواحدة والحملات الصليبية خاصة وإبراز الترابط العضوي بين المغرب والمشرق ، وتبيان اثر ضعف الجناح الغربي على الجناح الشرقي - دور جزر المتوسط - تدهور السيادة العربية على الشواطئ الاطلسية واثره في تهديد الشواطئ العربية في المشرق حتى الخليج) .

٤ - توجيه الانتباه في دراسة التيارات المذهبة التي سادت في المغرب الى اعتبارها مظهرا من مظاهر الوحدة والتركيز على جذورها الاقتصادية والاجتماعية لا على الفكر المذهبي واختلافاته مع المذاهب الاخرى التي بالغ فيها مؤرخونا القدماء (مسألة الخلافة والامامة - الخوارج والشيعة) .

٥ - اعادة النظر في تقويم موضوع انسياح القبائل البدوية العربية في المغرب وعدم الانسياق مع الاتجاهات المفرضة لبعض المؤلفات الحديثة وخاصة الاوربية فيه (توضيح مفهوم ابن خلدون لكلمة العرب - دورهم في الاضطراب السياسي والاقتصادي) .

٦ - معالجة تاريخ الاندلس في جميع الفترات على انه « تاريخ العرب في الاندلس » وليس « تاريخ اسبانيا الاسلامية » الذي درجت المؤلفات الاوربية على استخدامه .

٧ - إبراز اعتبار الاندلسيين لانفسهم جزءا من ديار الاسلام الواحدة والتماثل بين المشرق والمغرب في مختلف نواحي الحياة الادارية والاقتصادية والثقافية .

د - ومع اخذ الملاحظات السابقة المتعلقة بكتابة تاريخ المغرب والاندلس بعين الاعتبار، يستحسن عند كتابة مرحلة تفكك السلطة المركزية مراعاة مايلي:

١ - شرح بعض الاحداث السياسية الداخلية والحركات الثورية والدينية في القرن الرابع وما بعد (قرامطة - زنج - عيارون وشطار . .) من منظور اقتصادي واجتماعي وبشري .

٢ - إبراز العطاء الحضاري والثقافي في الادوار العباسية المتأخرة ودحض المعارف عليه من تسميتها بعصور الانحطاط .

٣ - التمهيد لشرح اسباب ومبررات الصدام بين الشرق والغرب من واقع الدولة العربية بدءا من القرن الرابع الهجري ، ومع واقع العلاقات الدولية في المرحلة والاضاع الداخلية في دول الغرب .

وعند كتابة مرحلة **التحديات والصمود** تؤخذ الملاحظات السابقة المتعلقة بتاريخ **المغرب** بعين الاعتبار ، ويستحسن مراعاة مايلي :

١ - التركيز على ردود الفعل الوطنية في المشرق والمغرب على حد سواء وفي جميع الاقطار العربية ضد مختلف اشكال الغزو الاجنبي .

٢ - مع شرح العوامل الاقتصادية التي ادت الى قيام الحملات الصليبية ، من المفيد ايضا اثر الانشقاق الكبير في الكنيسة وشرح استغلال التعصب الديني في الدعوة الى هذه الحملات .

هـ - وعند كتابة مرحلة **اليقظة القومية العربية** يستحسن مراعاة مايلي :

١ - من المفيد عدم المبالغة في اثر حملة نابليون في اليقظة القومية العربية على نحو ما يذهب اليه البعض من انها اوجدت هذا الوعي القومي من الفراغ ، والتركيز على ردود فعل الشعب العربي عليها وعلى اثرها باعتبارها تحديا للامة العربية وكونها اول شرارة او اول احتكاك مع الحضارة الغربية كشفت عن فساد اساليب الحياة القديمة وتفسخ الحكم العثماني .

٢ - التركيز على ان الدعوة الوهابية باعتبارها دعوة الى العودة الى المنابع الاصلية للدين هي اول تحد ديني عربي للزعامة الدينية العثمانية وعدم التركيز على الجوانب الاخرى من الدعوة الوهابية .

٣ - التركيز بالنسبة الى عهد محمد علي على تعريب الدولة وتحديثها - ظهور فكرة الدولة العربية ، وهي اول محاولة في التاريخ الحديث لاعادة تكوين الدولة العربية في المشرق والمغرب وتحدي السلطة العثمانية ووقوف جميع القوى الكبرى في ذلك العصر ضد قيام دولة عربية قوية في المنطقة .

٤ - دراسة تيار الجامعة الاسلامية في مصر وسائر الاقطار العربية في افريقيا ومقارنته بالتيار القومي العربي في المشرق .

- ٥ - يتم إبراز البذور الاولى للفكر التقدمي الاشتراكي في الفكر العربي في الفترة المنتهية بنهاية الحرب العالمية الاولى .
- ٦ - يتم التركيز على شرح السياسة الاستعمارية في ترسيخ التجزئة وفي خلق الدعوات الاقليمية (البربرية في المغرب ، الفرعونية في مصر ، القومية السورية في بلاد الشام) وردود الفعل العربية على هذه الدعوات .
- ٧ - في دراسة الحركة الصهيونية وتحالفها مع الاستعمار يجب الا يهمل إبراز المصلحة المشتركة بينهما في اقامة حاجز يفصل المشرق عن المغرب وبحول دون قيام الوحدة العربية .
- ٨ - يتم التركيز على شمولية ردود الفعل على الحركة الصهيونية لجميع اقطار الوطن العربي .

المؤتمر الإسلامي العام في القدس ١٩٣١

مُحاوَلَةٌ لِلْبَحْثِ عَنْ نَصِير

ر. فخرية قاسمية

جامعة دمشق

مقدمة :

اتخذت فلسطين وضعاً متميزاً منذ نهاية القرن التاسع عشر ، حين أصبحت هدفاً للحركة الصهيونية ، وخلال الحرب العالمية الأولى التقت على أرض فلسطين المصلحة البريطانية والصهيونية لإيجاد الوطن القومي اليهودي ، وجاءت قرارات سان ريمو ١٩٢٠ لتحكم عليها بنظام الانتداب البريطاني الذي تكفل بإنشاء الوطن القومي اليهودي فيها . ولم تنفرد فلسطين بهذه الظاهرة الاستعمارية ، فقد خرج عدد كبير من الاقطار العربية الاسلامية من الحرب وهو يروح تحت صور مختلفة من اشكال النفوذ الاجنبي ، واخذ يسعى لازالة السيطرة الاجنبية ولتيسل الاستقلال التام . وفي فلسطين تعقدت المهمة ، لان الحركة الصهيونية كانت ذات طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة اي احتلال اجنبي او اية قضية استعمارية اخرى ، ((فهي عاملة بكل الوسائل لاستئصال الوجود العربي من فلسطين ، بل من كل المنطقة العربية التي تتناولها مخططاتها)) (١) . وكذلك لانها كانت تخظى بتأييد اجماعي من الدول الغربية الاستعمارية .

وكان توازن القوى بين عرب فلسطين من جهة ، وتحالف الامبراطورية البريطانية مع الصهيونية العالمية خلال فترة الانتداب ، من جهة اخرى ، مفقوداً . ولم يغب عن ابناء فلسطين ، وهم يواجهون الخطر المزدوج البريطاني - الصهيوني ، ان يوسعهم مقاومة سياسة الانتداب والصهيونية بنجاح اكبر لو التقوا مع قوى وطنية اخرى ،

عربية واسلامية ، تعمل على تحرير بلادها من الوجود الاقتصادي والسياسي الذي تعتبر الصهيونية اخطر اشكاله . وقدم قادة الحركة السياسية الفلسطينية قضيتهم على انها جزء من تحد عام للعالمين العربي والاسلامي (٢) : فلسطين جغرافيا وتاريخيا قطعة من الوطن العربي بل صلة الوصل بين شطري الوطن العربي ، الاسيوي والافريقي . والحركة الصهيونية تمثل خطرا على الوجود العربي تهدف لانتزاع اقليم هام له مكانته الخاصة في الوطن العربي ، والوقوف حاجزا في وجه الوحدة العربية . والقُدس ، وطن الاسراء ، تلي الديار الحجازية في المقدسات ، تمثل القبلية الاولى للاسلام وفيها ثالث الحرمين الشريفين . وفلسطين مثوى علماء المسلمين وشهداءهم ومئات من الصحابة .

وعقدت الحركة الوطنية الفلسطينية الامل على عمل عربي عام ، وربطت بين اماني البلاد العربية الاخرى واماني فلسطين ، فكانت قضية فلسطين من اكثر العوامل في تعميق الوعي القومي ، كذلك ادرك العاملون في الحركة الوطنية اهمية استنهاض العالم الاسلامي من اجل القضية الفلسطينية ، والحاجة الى تأييد دول هذا العالم وشعوبه لمواجهة الصهيونية العالمية في غزواتها على الديار المقدسة ، والرد على الدعاوي الصهيونية الدينية في البلاد ، ودعم المسيحيون في فلسطين موقف المسلمين ، وكان التعاون وثيقا بينهم لان الخطر الصهيوني على الاراضي المقدسة يهددهم ايضا (٣) .

وكان الاتجاهان القومي والديني يشكلان نسيجاً متماسكا داخل الحركة الوطنية ، للتصدي للحكم البريطاني ولل قضاء على سياسة الوطن القومي . ويعد المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس ١٩٣١ جسرا ما بين الاتجاهين ، مع انه ظاهريا يمثل اوج الجهد الذي بلغه مسعى الفلسطينيين للتأكيد على اهمية فلسطين للمسلمين في جميع انحاء العالم ، ومسؤولية كل المسلمين في الحفاظ على المقدسات الاسلامية فيها .

بدايات الفكرة :

بدأت فكرة استنفار العالم الاسلامي وضرورة تعبئته الى جانب قضية فلسطين مع بدايات ظهور زعامة الحاج أمين الحسيني ، بعد ان عين في مطلع العشرينيات في مركزين اتاحا له التمرس بدور على جانب من الاهمية في سياسة بلده ، احدهما منصب مفتي القدس (٤) (واصبح يدعى المفتي الاكبر) ، والثاني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى (٥) ، وتجاوزت مكانة المركزين حدود الدوائر الدينية . ورغم وجود المؤسسات الصغيرة المتمثلة في المؤتمرات الوطنية واللجان التنفيذية المتعاقبة والمنتخبة في المؤتمرات الوطنية (٦) ، اصبح الحاج أمين القاعدة الاساسية للحركة الوطنية وزعيم البلاد ، والعنصر الموجه في المحيط العربي ، بالاضافة الى الدور العظيم الذي كان يقوم به في

مضمار الشؤون الاسلامية المحضة (٧) ، كما أصبح المجلس الاسلامي الاعلى وما يتبعه من دوائر واجهزة مركز الثقل في النضال ضد الوطن القومي وضد سلطات الانتداب ، رغم وجود اساليب ومستويات اخرى للتعبير . وكان للحاج امين يد طولى في تنشيط المواسم الدينية (كموسم النبي موسى) ، بما كان له من سلطة على الشؤون الاسلامية ، لاذكاء الروح الوطنية وجعلها فرصة للتوعية القومية (٨) ، وحول المجلس الاسلامي الاماكن المقدسة الى رموز سياسية والى نضال للحفاظ على التراث الاسلامي التاريخي في فلسطين ، وهي مسألة لا تؤذي مشاعر المسيحيين الفلسطينيين لانهم يتخوفون على سلامة الاماكن المقدسة في حال استيلاء الصهيونيين على البلاد (٩) . وتولى الحاج ، بوصفه رئيسا للمجلس الاسلامي الاعلى ومفتي فلسطين الاكبر ، تنفيذ خطة جمع كلمة المسلمين حول فلسطين ، واحرز نجاحا كبيرا تمثل في مبادرة العديد من زعماء المسلمين ومؤسساتهم الى ارسال التبرعات لاصلاح المسجد الاقصى واعماره (١٠) ، وفي قيام وفود فلسطينية ، بزيارات متابعة الى عدد من البلدان العربية والاسلامية لتعزيز اهتمامها بوجود مشكلة فلسطين . واتصلت الوفود الفلسطينية الى الحجاز بالحجاج من جميع انحاء العالم واعلنت للعالم الاسلامي ان الاماكن المقدسة في خطر عظيم من الاعتداء الصهيوني . وانه « لو تحققت اطماع واماني الصهيونية في فلسطين ، لا قدر الله ، كانت وبالا على المسلمين » (١١) . واخذ الحاج امين يحوز الاحترام من الشخصيات السياسية والدينية في كل العالم الاسلامي فراس وفودا الى مصر ١٩٢٣ والعراق والكويت والبحرين وجنوب ايران ١٩٢٤ ، ويادر للتوسط في الصلح بين ابن سعود والحسين في حرب الحجاز ، واتصل بحكام العرب المسلمين بهذا الشأن (١٢) ، وحضر المؤتمر الاسلامي في القاهرة ١٩٢٦ (١٣) . وانشغل المجلس الاسلامي بشكل علني في السياسة بعد عام ١٩٢٨ مع نشاط الحركة الوطنية وواخر العشرينيات اثر ظهور مشكلة البراق (١٤) ، ورعى المجلس (جمعية حراسة الاقصى والاماكن المقدسة (١٥)) ، وادار القضية الاسلامية التي قدمت امام اللجنة الدولية لتحقيق بمسألة البراق واستطاع حشد عدد من محامي العالم الاسلامي المشهورين في الدفاع عن حقوق المسلمين في البراق الشريف (١٦) واكد المجلس على ان مسلمي فلسطين هم فقط سدنة الحرم الشريف باسم كافة المسلمين ، وان التعدي على حقوق العرب المسلمين في فلسطين سوف يكون له ردود فعل في جميع انحاء العالم الاسلامي (١٧) . ووصل هذا الجهد اوجه في المؤتمر الاسلامي الذي دعا له الحاج امين ١٩٣١ .

ولم يكن مؤتمر ١٩٣١ المحاولة الاولى لعقد مؤتمر اسلامي في العصر الحديث ، ويشير رشيد رضا في صفحات المنار (١٨) الى ان عددا من كبار اصحاب الراي من المسلمين منذ اواخر القرن الماضي فكر بشدة الحاجة الى الاجتماع للبحث في اسباب

ضعف امتهم وما يجب من معالجته واعادة مجدهم السابق بما تقتضيه حالة هذا العصر من علم وعمل والى تأليف جمعية ذات فروع كثيرة ، وان اعظم هؤلاء المفكرين جمال الدين الافغاني . ويذكر رشيد رضا بمقال له كتبه اواخر القرن الماضي عنوانه « الاصلاح الديني المقترح على مقام الخلافة الاسلامية » (١٩) وان « هذا الاصلاح يتوقف على تأليف جمعية اسلامية تحت حماية الخليفة يكون لها شعب اعظمها في مكة . . ويكون اهم اجتماعات الشعبة في موسم الحج » . . ويضيف رضا ، الى انه قد تبين في تلك المقالة مايجب ان تقوم به الجمعية من الاصلاح لجمع كلمة المسلمين والقيام بمصالحهم العامة (٢٠) ، والى ان الكواكبي في كتابه ام القرى هو « اوسع شرح لمشروع اعظم مؤتمر اسلامي للاصلاح العام » . وفي القرن العشرين ، وبالإضافة الى مؤتمري الحج في مكة آب/اغسطس ١٩٢٢ ويوليو / تموز ١٩٢٤ ، عقد مؤتمران اسلاميان عام ١٩٢٦ - ولا علاقة بين الاثنين - الاول مؤتمر الخلافة في القاهرة (٢١) والثاني المؤتمر الاسلامي العام في مكة (٢٢) . وشارك عدد من ابناء فلسطين في المؤتمرين ، وكان مفتي فلسطين احد كبار الحضور في المؤتمر الثاني .

الدعوة الى عقد المؤتمر الاسلامي العام في القدس ١٩٣١ :

تعود فكرة عقد مؤتمر اسلامي في فلسطين يشترك فيه مندوبون وزعماء من مختلف الاقطار العربية والاسلامية الى ما قبل ثورة البراق ١٩٢٨ ، ذلك انه لمواجهة القوة السياسية والاقتصادية الصهيونية عبر العالم كان لابد للعرب من اللجوء الى قوة لايقاف الانحياز البريطاني تجاه اليهود ، وتوصل الحاج امين الى حلها باللجوء الى قوة العالم الاسلامي مستندا الى مكانته الدينية . ويقول عزة دروزة في مذكرات غير منشورة (٢٣) ان الفكرة قد انبثقت في ذهن الحاج امين والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي (٢٤) الذي جاء الى فلسطين قبل ثورة البراق بمدة وقام بينه وبين الحاج امين وبعض المستغلين بالقضية الوطنية ، ومن جملتهم دروزة ، انسجام وصداقة وثيقة . وتجددت الفكرة للدعوة الى مؤتمر اسلامي عام في القدس بعد تفجر احداث ١٩٢٨ من اجل اثارة اهتمام الراي العام الاسلامي العالمي وكسب عطفه وتأليف جبهة اسلامية قوية تستطيع الوقوف في وجه الصهيونية العالمية ، « فالعاطفة الدينية الاسلامية هي من اقوى الاسلحة التي يمكن استخدامها للدفاع عن حقوق العرب في فلسطين ، اذ انها قادرة على التأثير على مئات الملايين من الناس المنتشرين في جميع انحاء العالم وعلى خلق مشاكل سياسية خطيرة لبعض الدول الغربية ولاتكلترا بنوع خاص (٢٥) . . » وحال اقدام الحكومة البريطانية على تشكيل لجنة البراق دون الاستمرار في تنفيذ الفكرة لعقد المؤتمر . ولا صحة للادعاء القائل ان عقد المؤتمر التبشيري في القدس

نيسان/ابريل ١٩٢٨ (٢٦)، او عقد المؤتمر الصهيوني في زوريخ ١٩٢٩ (٢٧) ، كان دافعا لعرب فلسطين لعقد مؤتمر مماثل (٢٨) .

ومن المحتمل ان تكون الفكرة عادت فتجددت مرة اخرى بمناسبة قضية البراق وشهادات ممثلي الاقطار الاسلامية امام لجنة البراق ١٩٣٠ وراى الحاج امين في هذا الجو من التعاطف على القضية الفلسطينية انه من المفيد اشراك المسلمين جميعهم في « همّ فلسطين العظيم وقضيتها » على حد قول دروزة في مذكراته غير المنشورة . وكان قرار عقد المؤتمر قد سبق واتخذ قبل توجيه رسالة مكدونالد (الكتاب الاسود) الى وايزمان في ١٣ فبراير / شباط ١٩٣١ (٢٩) ، وقبل صدور توصيات اللجنة الدولية للتحقيق بمسألة البراق في يونيو / حزيران من نفس العام (٣٠) ، ولم يكن للوثيقتين الدور الحاسم ولكن كان لهما اهميتهما في الجو الذي رافق الاعداد للمؤتمر (٣١) . وقد فاتح الحاج امين الزعيم التونسي الثعالبي بذلك فحبه ، وكان الثعالبي قد عاد الى فلسطين في اواسط ١٩٣١ بنية المكوث فيها مدة طويلة وهياً له الحاج امين بيتا قرب الحرم وصار يلتقي مع رجالات الحركة الوطنية في المجلس الاسلامي وفي مناسبات متعددة (٣٢) .

ولاقت الفكرة موافقة الزعيم الهندي شوكت علي (٣٣) ، وبدأت الاستعدادات الحثيثة لعقد المؤتمر قبل اشهر من انعقاده . ويقول عزة دروزة في مذكراته ، غير المنشورة ، « ان الحاج امين والثعالبي اتفقا على بقاء الجهد في سبيل ذلك سرا ، الى ان تلوح بوادر نجاحه وعلى ان يرسل الحاج امين بصفته رئيس المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى رسائل الى بعض الشخصيات الاسلامية الشهيرة . . لفاتحتهم بالفكرة واستطلاع رأيهم فيها (٣٤) » ، وورد عليه ردود مشجعة . وحينئذ دعا المفتي عددا من اخوانه واصدقائه من رجال الحركة الوطنية ، وكان دروزه منهم ، وشرح لهم الفكرة بحضور الزعيم التونسي الذي ايدها وحبها فوافقوا عليها . وتألفت لجنة تحضيرية للدعوة وتهيئة اسباب نجاح المؤتمر ماديا ومعنويا (٣٥) . وفي منتصف اكتوبر / تشرين اول ١٩٣١ ارسلت الدعوات باسم رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ومفتي (الديار القدسية) ، الى عدد من رجالات العرب والمسلمين من زعماء سياسيين ورجال دين وعلماء وادباء ، في مصر والعراق وسورية ولبنان وجزيرة العرب وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والهند وجاوا وماليزيا وايران وافغان وسيلان وتركيا وتركستان والبشناق في يوغسلافيا . وجاء في نص الدعوة ان الهدف من المؤتمر هو من اجل « البحث في حالة المسلمين الحاضرة ، وفي صيانة الاماكن المقدسة الاسلامية من الايدي الممتدة اليها الطامعة بها ، وفي شؤون اخرى تهم المسلمين جميعا (٣٦) » . وحدد مكان وموعد المؤتمر في جوار المسجد الاقصى في ليلة الاسراء المباركة في ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠

وفق ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١ . ولم تتضمن الدعوة جدولا محددا بالمسائل التي ستبحث في المؤتمر المقبل الا التاكيد على الطابع الاسلامي البحت للمؤتمر (٢٧) . وبدأت الاجوبة ترد من شخصيات بارزة في مختلف الاقطار تعلن عزمها على القدوم والمشاركة في المؤتمر ، واخذت اللجنة التحضيرية توالي اجتماعاتها لاعداد جدول اعمال المؤتمر واسباب اقامة راحة المدعويين ، « ولما اخذت جدية المؤتمر تبدو بدأت الدسائس حوله وحول القائمين به في فلسطين وخارجها » (٢٨) .

العشرات في سبيل عقد المؤتمر :

لم تحل العمومية الشاملة في الدعوة للمؤتمر دون فهم السلطات البريطانية ، وكذلك الصهيونية ، المقصد الرئيسي للمؤتمر ، فالحكومة البريطانية كانت تتخوف منذ قيام قضية فلسطين ان يتدخل مسلمو العالم في هذه القضية لانها كانت تخشى ان تقوم حركات في الاقطار الاسلامية تأييدا لقضية فلسطين وشعبها تتطور تلقائيا الى حركات ضد الحكم البريطاني في تلك الاقطار . كما انها كانت تدرك مدى الضرر الذي يستطيع العالم الاسلامي ان يلحقه بالحركة الصهيونية التي كانت بريطانيا تتبناها اذا هو ناصر الفلسطينيين ، ولذا دأبت تعمل بشتى الوسائل لابعاد مسلمي العالم عن قضية فلسطين وعزلها عن العالم الاسلامي (٢٩) . ولا شك ان عقد مؤتمر اسلامي في القدس ليكون بمثابة مظاهرة للاعلان عن تضامن المسلمين مع الفلسطينيين قد اثار شكوك الحكومة البريطانية . واخذت الدعايات تبث لتشكيك العالم الاسلامي ببراءة فكرة عقده ، واشيع ان المؤتمر سيبحث مسألة الخلافة واختيار خليفة جديد ، وكتب الحاج امين حول ذلك في رسالة الى شوكت علي في لندن اشار فيها الى اتهام المفتي والثعالبي وشوكت علي بان غايتهم « ان يؤتى بالخليفة عبد المجيد وينصب خليفة على المسلمين في القدس الشريف . وقد قصدوا في نشر هذه الارجيف ان يضرب الرأي العام الاسلامي في جميع الاقطار » (٣٠) . واجرى المسؤولون البريطانيون اتصالات هامة رسمية بالحكام العرب والمسلمين وبعض اقطابهم وزعمائهم يحضونهم على رفض دعوة المفتي لعقد المؤتمر ، ويعاولون اثارة مخاوفهم من اجتماع المؤتمر (٣١) . ونجحت الاتصالات التي اجراها المفتي مع سائر حكام الاقطار الاسلامية وقادتها في ازالة الشكوك التي اثارها في اوساطهم المساعي الاجنبية فقرروا تأييد المؤتمر وتشجيعه (٣٢) .

واخذت حملة المعارضة للمؤتمر في مصر شكلا اوسع ، ذلك ان « الملك فؤاد او اولياؤه ظن ان المؤتمر قد يتناول موضوع الخلافة الاسلامية والبت فيها » (٣٣) ، واثارت صحف مصر احتمالات بحث موضوع الخلافة في المؤتمر المزمع عقده في القدس ، فسارع الحاج امين الى نفي ذلك ، « والتوكيد على ان المؤتمر هو من اجل القضية

الفلسطينية» (٢٤) . كذلك بدأ الطعن في المؤتمر بمقالات ينشرها بعض كبار شيوخ الازهر في الصحف انتقل الى تاليف مظاهرات من جميع المعاهد الدينية التابعة له في القطر . ويظهر ان رجالات الازهر فهموا الدعوة الى المؤتمر والاستعانة به على انشاء مدرسة اسلامية جامعة في فلسطين انما يراد به ان تكون هذه الجامعة معارضة للجامعة الازهرية ومضادة لها ، وصار موضوع الحوار بين الناس في هذا المؤتمر ان الغرض منه «مقاومة سياسة الحكومة الملكية المصرية وازهرها» (٢٥) . وبدأ رشيد رضا حملة توعية للدفاع عن اهداف المؤتمر واعتبر ان « نصر دعوة المؤتمر واجبة لانه مصلحة اسلامية ضرورية في احباطها مضار كثيرة عامة » (٢٦) . ورد على منتقدي المفتي بقوله « . . بان الرجل قد ثبت عنده وعند من شايعه وساعده على الدعوة الى هذا المؤتمر انه ضروري لتعزيز مركز فلسطين تجاه مطامع اليهود ومحاربة الدولة البريطانية لهم ولتقوية مركز المجلس الاسلامي الشرعي فيها ومركزه هو فيه . . . والامر الضروري الذي لا بد منه لاستئثار فيه احد وانما الواجب الادبي الذي تقتضيه المصلحة والدوق ايدان المسلمين بالدعوة وطلب عطفهم ومساعدتهم » (٢٧) . ودعا رشيد رضا الحاج امين الى الاسراع الى مصر لتلاقي الفتنة مع الحكومة المصرية ومشيخة الازهر (٢٨) .

وخلال شهر نوفمبر / تشرين ثاني . تلقت وزارة الخارجية البريطانية سيلا من الاعتراضات والاستفسارات في بعض الدول الاجنبية عن المؤتمر المزمع عقده : ففي تركيا اثير الموضوع في المجلس الوطني ووصف المؤتمر بالرجعية وكان اهتمام المجلس منصبا على موضوع احياء الخلافة . واعلن وزير الخارجية توفيق رشدي انه تلقى تأكيدات من الحكومة البريطانية بعدم اثار اية مسائل سياسية ذات سمة معارضة للمصالح التركية في المؤتمر (٢٩) . واكد الوزير ان بريطانيا لم تعمل على رعاية وتشجيع عقد المؤتمر ، كما اعلن ان الحكومة التركية تعارض بقوة اية حركة تستغل الدين للاغراض السياسية (٣٠) . وبعثت الحكومة اليوغسلافية استفسارا الى لندن بشأن المؤتمر لان عددا كبيرا من رعاياها المسلمين كان يزعم المشاركة فيه (٣١) . وكانت الاحتجاجات الإيطالية اكثرها عنفا ، ذلك ان الحكومة الإيطالية كانت تخشى ان تثار الحملات ضد سياستها في ليبيا ، واوضحت الحكومة الإيطالية في مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية ان عقد المؤتمر قد يكون له « وقع غير موات على العلاقات الانجلو ايطالية » (٣٢) .

ونتيجة لهذه الاحتجاجات عقدت الحكومة البريطانية عدة اجتماعات على مستوى عال بين موظفيها في وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات وحكومة الهند في ١٦ نوفمبر / تشرين ثاني . وكانت وجهة نظر موظفي وزارة الخارجية وجوب منع انعقاد المؤتمر ، على ان ترفع مسؤولية ذلك المنع الى عصبة الامم من خلال اقتراح تتقدم به ايطاليا .

وكان لابد من استشارة السلطات البريطانية في حكومة فلسطين ، وكان امام تلك السلطات خياران : الاول ضمان عدم ذكر شيء في المؤتمر قد يؤدي من وجهة نظرها حساسيات الدول الاجنبية ، وبمعنى آخر عدم اثاره مسألتي الخلافة والسياسة الإيطالية في ليبيا ، وانذار الحاج امين بالعزل من منصبه كرئيس للمجلس الاسلامي الاعلى اذا لم يتعهد بذلك . اما الخيار الثاني فهو منع عقد المؤتمر بحجة « الحفاظ على الامن العام والعلاقات الاجنبية » (٥٢) . ونظرا لاهمية الموضوع كان لابد من عقد اجتماع اخر بين رجالات الاجهزة البريطانية في ٢٠ نوفمبر / تشرين ثاني ، راسه وزير الدولة للمستعمرات ، ولم يكن قد تلقى بعد جوابا من القدس ، ولكنه كان يتوقع عدم موافقة المندوب السامي البريطاني واكهوب على منع عقد المؤتمر . وقد يكون هذا سبب اتخاذ قرار في الاجتماع اكتفي ببلاغ السلطات البريطانية في فلسطين بوجوب عدم اعطاء اية مساعدات او تسهيلات للمؤتمر ، والتأكيد على صفة المؤتمر غير الرسمية (٥٤) . وقامت السلطات البريطانية في فلسطين ببلاغ رئيس المجلس الاسلامي الاعلى عدم موافقتها على عقد مؤتمر يجري البحث فيه بامور خارجية او داخلية تمس احدي الدول الصديقة ، وطلبت منه ان يوافيها ببيان عن الموضوعات التي سيتناولها المؤتمر بالبحث فوافيها بالبيان المذكور (٥٥) .

وكان الصهيونيون ايضا حانقين من عقد المؤتمر ، وقد قيل انهم بذلوا اموالا طائلة بغرض التشويش على المؤتمر ، واصدرت الوكالة اليهودية بيانا مطبوعا ابان الاستعداد للمؤتمر ، جاء فيه ان المفتي عمد الى دعوة المؤتمر لتحويل تيار (المعارضة) ضد سلطته واعماله ، « وليس من شك في ان الصهيونيين كانوا خائفين اشد الخوف من حركة المؤتمر وما ينطوي عليه من دعاية واسعة في العالم الاسلامي ضدهم » (٥٦) .

وكان ما يمكن ان يضيفه المؤتمر على الحاج امين من مزيد من المكانة والنفوذ قد اثار حفيظة خصومه السياسيين الفلسطينيين ايضا (٥٧) ، ، ففي الوقت الذي كان الحماس للمؤتمر يزداد تصاعدا حركت الحكومة هؤلاء الخصوم بقيادة آل النشاشيبي الذين نظموا انفسهم في حزب خاص لمقاومته (٥٨) . « وهب المعارضون الى تشويشه سمعة المؤتمر والطعن في مقاصده لصد المسلمين عن اجابة الدعوة اليه . . . غرضهم من المعارضة منع عقد المؤتمر او الحيلولة . . دون جعله معززا لمركزه (أي المفتي) ومقويا لنفوذه في البلاد » ، واشاعوا كذلك ان الحكومة البريطانية اخذت عهدا على الحاج امين الا يبحث في المؤتمر السياسة البريطانية والا يجرى التعرض لصك الانتداب (٦٠) ، واخذوا يثنون هذه النقاط في الصحف الموالية لهم مثل (فلسطين) و (مرآة الشرق) و (الصراط المستقيم) وبين انصارهم « حتى كادوا يحولون مجرى المؤتمر الى مجال نزاع وتنافس شخصي ومحلي وحزبي » (٦١) . ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة

عن محاولة اللجنة التحضيرية تلافي الامر بضم بعض المعارضين الى اللجنة فلم يستجيبوا ، ولم يقبلوا الدعوة التي ارسلت اليهم ، لانهم « ظلوا على يقينهم ان الحاج امين سيستغل المؤتمر لشخصه اعظم استفلال » (٦٢) . وحاول الزعيم الهندي شوكت علي والدكتور عبد المجيد سعيد (رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر) والشيخ التفتازاني (من علماء الازهر) التوسط وتسوية الامور بسبيل اشتراكهم في المؤتمر وعدم التشويش عليه ، ووجهة نظر الوسطاء هي « ان الصلح خير من الخصام بنص القرآن واتفاق جميع الناس وانه لا ينبغي ان يؤلف مؤتمر في فلسطين لاجل مصالح المسلمين وجمع كلمتهم على مايمكن من المنافع العامة واهلها في شقاق وخصام يمنع من اشتراك جميع احزابهم فيه » (٦٣) ، وظهر الحاج امين استعدادة لقبول ما يقترحه الوسطاء ولكن جهودهم اخفقت (٦٤) . وظلت جبهة المعارضة على رفضها للاشتراك في المؤتمر وعلى سوء ظنها بالحاج امين والتشويش عليه عبر المؤتمر ، وانتهى بهم الامر الى عقد مؤتمر اخر منافس له اسموه « مؤتمر الامة الاسلامية الفلسطينية » (٦٥) . ولكن الحركة المناوئة والشهيرة (بالمعارضة) فشلت هذه المرة لكونها قد جعلت للمنافسة السياسية الداخلية وللحاقاد الشخصية مكان الاولوية على القضية الوطنية العامة وفي مناسبة لا يجوز فيها السؤال اصلا ايها اولى (٦٦) .

افتتاح المؤتمر :

اخذت الوفود تفد قبل ليلة الاسراء التي تقرر ان يكون افتتاح المؤتمر فيها ، وجاءت الوفود غير الرسمية من ٢٢ قطرا مختلفا (الاردن ، سورية ، لبنان ، العراق ، مسلمو البشناق ، الهند ، سيلان ، جاوا ، افغان ، تركستان ، القفقاس ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب الاقصى (٦٧) وارسل امام اليمن مندوبا عنه من وزرائه (٦٨) ، ولم يات من السعودية احد (٦٩) ولا تكمن أهمية المؤتمر في عدد اعضائه (بين ١٤٥ - ١٥٠) (٧٠) بمقدار ما كانت تكمن في نوعية الاعضاء . فقد اجتمع حشد من كبار علماء الدين ورجال العلم والرأي ومن الشخصيات السياسية وجميعهم من البارزين في بلادهم علميا او سياسيا او وطنية او اجتماعيا او اقتصاديا (٧١) ، كان من تلك الشخصيات المجتهد الكبير محمد الحسين ال كاشف الغطاء (العراق) وضياء الدين الطباطبائي (رئيس وزراء ايران السابق في عهد الملك القاجاري الذي اطاح بعرشه انقلاب البهلوي) ، وعبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي ، ومحمد اقبال الشاعر الهندي ، والزعيم شوكت علي الهندي والعلامة الشيخ رشيد رضا والشيخ التفتازاني (الازهر) ومحمد علي علوبة (وزير الاوقاف السابق في مصر ومن حزب الاحرار الدستوريين) ، وعبد الحميد سعيد (رئيس جمعية الشبان المسلمين مصر) وعبد الرحمن عزام (حزب الوفد) والامير سعيد الجزائري (حفيد الامير عبد القادر وكان يقيم في دمشق

ويرأس لجنة الدفاع عن الخط الحجازي) ومحمد المكي الناصري ومحمد بنونة من المغرب الأقصى وبشير السعداوي من ليبيا ، ومحمد علي بيهم ورياض الصلح (لبنان) وشكري القوتلي وسعد الله الجابري (سورية) (٧٢) . كما شهد المؤتمر نحو خمسة وعشرين من رجالات فلسطين بالاضافة الى اعضاء اللجنة التحضيرية ..

ويصف شاهدا عيان (٧٣) حفلة افتتاح المؤتمر وما رافقها من مشاهد على غاية من الروعة والفخامة حيث ازدانت ساحة الحرم الواسعة بالاضواء الكثيرة والاعلام الاسلامية واحتشد آلاف الناس مع اعضاء المؤتمر في الساحة وداخل المسجد الأقصى الكبير . وكان قد وفد على مدينة القدس كثير من اهل المدن والقرى الفلسطينية لحضور حفلة الافتتاح واتفق ان كان يوم الاحد ٢٦ رجب يوما شديدا مطرا ، مع ذلك كان المنتظرون في المسجد قبل المغرب يعدون بالالوف ، وعندما حضرت صلاة المغرب قدم الحاج امين كبير مجتهدي الشيعة محمد حسين آل كاشف الغطاء ف صلى اماما بالناس ، ويقول رشيد رضا « كان لهذا التقديم تأثير عظيم ووقع حسن في انفس اعضاء المؤتمر وغيرهم من المسلمين الذين يشعرون بشدة الضرورة الى التآليف بين اهل السنة والشيعة والقضاء على هذا التفرق والتعادي الذي طال عليه العهد ، وكان فسادا وضرره على الاسلام وشعوبه ودوله عظيما . وبعد صلاة المغرب قرا بعض القراء آيات من اول سورة الاسراء وتلاههم الشيخ حسن ابو السعود فقرا رسالة في شمائل الرسول وما جاء به من الاصلاح العام للبشر الم فيها بمعجزة الاسراء . ودعي الشيخ رشيد رضا الى القاء كلمة في معنى الاسراء وفضل المسجد الأقصى واختيار هذه الليلة الشريفة لافتتاح المؤتمر الاسلامي (٧٥) .. وبعد صلاة العشاء بامامة الاستاذ آل كاشف الغطاء افتتح المفتي المؤتمر بخطبة (٧٦) اشار فيها الى « ان اكثر الاقطار الاسلامية قد فقدت عزها وسلطانها واصيب جميعها بمحن وكوارث عديدة اثقلت كاهلها ولكن فلسطين هذه البلاد المقدسة التي قامت بالدعوة الى هذا المؤتمر اصيبت زيادة على ذلك بمصيبة خطيرة تهدد كيانها بانشاء وطن قومي صهيوني في هذه البلاد العربية الاسلامية المقدسة » . ووضح السبب الرئيسي للدعوة الى المؤتمر بقوله « .. ولما كانت هذه البلاد تهم المسلمين جميعا لما لها من الموقع الديني والجغرافي العظيم ، ولان فيها هذا المسجد الأقصى المبارك .. فقد راينا عملا بقوله : (وامرهم شورى بينهم) وبقوله عليه الصلاة والسلام (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا) ان ندعو الى هذا المؤتمر العظيم من كافة الاقطار الاسلامية للبحث في هذا الامر الجلل وفي الشؤون الاسلامية التي تهم المسلمين جميعا .. » . واكد المفتي في ختام كلمته ان القصد من وراء المؤتمر ليس « الاعتداء على امة من الامم او مهاجمة دين من الاديان او مخاصمة احد في هذا العالم ، وانما القصد ان يعمل المسلمون لصالحهم يدا واحدة

وصفا واحدا » . وكان من المتحدثين في جلسة الافتتاح الدكتور عبد الحميد سعيد وضياء الدين الطباطبائي والشاعر محمد اقبال والامير سعيد الجزائري ومصطفى الفلاييني من ادباء بيروت ، ورياض اسحق مندوب المسلمين في روسيا ، وعبد القهار مذكر مندوب جاوا ، وبهجت الاثري من علماء العراق ، والشيخ نعمان الاعظمي رئيس مدرسة دار العلوم في بغداد (٧٧) .

وكانت كلمة الثعالبي في حفلة الافتتاح (٧٨) تأكيداً للمبادئ السامية التي عمل الثعالبي من اجلها طيلة حياته ، والتي لا تقتصر على العمل السياسي بل تركز على العمل الاسلامي الثقافي لمواجهة الفزو الثقافي الاجنبي ، وتدعو الى اصلاح واليقظة من اجل استرجاع المكانة التي كانت للحضارة العربية الاسلامية في الماضي (٧٩) . وقد بين الثعالبي في كلمته اهمية عقد المؤتمر من اجل دفع فكرة الوحدة الاسلامية . « .. ومن المدهش الغريب ان المسلمين ، ودينهم دين الاتحاد والاخوة والتعاون واحكام الصلات الاجتماعية بين معتنقيه ، افرادا وجموعا ، لم يقدر لهم فيما سلف ان يعقدوا اجتماعا يلهمون به شعثهم ويجمعون فيه اشتاتهم كما تم لهم في هذه الليلة .. » ثم استعرض التاريخ منذ ظهور الاسلام وتلاقى قوته حيث « .. طوى في برديه الشرق والغرب ووجد امم العالم القديم ، ونظم منه وحدة دينية سياسية من امم كانت متنافرة متشاكسة في العنصريات واللغات والاديان والسياسة ، فكانت قوة نشرت في العالم الهدى والنور والسلام والتمدن » الى الحالة التي وصل اليها اهله اليوم ، « من ضعف التماسك في الاقوام الاسلامية وتلاشي دولهم وذهاب ربحهم واستسلامهم لسلطات المغيرين عليهم بحيث لا توجد ممالك في اية قارة من القارات الخمس لها تاريخها ولها مدنيته ولها نظامها نهبا للطامعين مثل الممالك الاسلامية » . وما يثير استغراب الثعالبي ان بلاد المسلمين لديها كل مقومات الوحدة في الجغرافيا واللغة « .. فقد اصطلحوا بسائق من الدين على جعل العربية لغة التفاهم والتخاطب . بدليل ما نشاهده في هذا المؤتمر فقد اجتمعت فيه امم الشرق الواقعة بين المحيطين الباسفيك والاطلنطيك وكلهم يتفاهمون ويتباحثون بهذه اللغة الشريفة كانهم من سلاسل القحطانيين ، وهي اكبر قوة لنا في العالم نستطيع ان نلعب بها اكبر دور في مقدرات البشر » . ويتساءل عن اسباب الوهن ولدى المسلمين كل المؤهلات للتفوق « .. اقطارنا خصبة التربة معتدلة الجو وافرة المياه كثيرة المعادن مكتظة باسباب الارتزاق قابلة للزراعة وتربية الحيوان وانشاء المصانع بكثرة ما فيها من الوقود ، حراج وزيتون وفحم حجري ، تحيط بها البحار من سائر الجهات .. وفي سكانها من اعتدال المزاج وحدة الذهن وسرعة الخاطر وقوة الذكاء ما يخولهم التفوق في العلم والصناعة والسياسة وسائر مواد الحضارة ومقومات التمدن » ، وهو يرى اننا « ورثة حضارة عريقة ، واسلافنا في الشرق هم الذين ملكوا قياد العالم في أزمنة مختلفة مديدة ، وهم

الذين اوجدوا المثل العليا لاسمى مبادئ الفضائل والسيادة ، مع ذلك فقد وقعنا تحت قبضة الاجنبي ، ونستمطر الرحمة والعدالة ممن كنا نعدهم من موالينا » ، وهو اذ يدق في عناصر المدنية الحاضرة التي يفخر بها الغربي على الشرقي يجد كل مصادره انبئة شرقية لا اثر للغرب فيها « فالشرق هو مفجر ينبوع الايمان ومبتكر اصول الشرائع وكاشف ناموس التطور في الحياة وملهم العقل لاكتشاف سر الحق في الوجود وباني المجتمعات البشرية ومستنزل روح الاديان ، والخلاصة هو مشرق النور والعظم » .

ويعصور الثعالي كيف انتقلت مدنية الشرق للغرب واستنام الشرق للمكاره واستطاب عيشة الذل والخضوع للاقوياء » . . . وبذلك سلم الواجبات التي كانت ملقاة على عاتقه في السيادة العالمية لغيره من امم الغرب التي تغلبت عليه . ويبحث الثعالي عن سبل انقاذ الشرق من محنته واعادة شعوره بالكرامة فلا تكون الابان « نلتفت لانفسنا وندرس ادواءنا وامراضنا حتى نهتدي الى معالجتها وازالتها . . . ونحن اذا شعرنا بانحطاطنا وادركنا اسباب اعتزالنا للحياة . . . امكننا ان نعالج انفسنا علاجاً شافياً . . . » . ويعضي الثعالي الى مناشدة المجتمعين بالتخلي عن البكاء والاسترحام والاستجداء والشكوى « . . . فكلها مظاهر ضعف يجب ان نتلافها . مضى ما مضى ولا عتب على الماضي وعلينا ان نبادر بتلافي الاخطاء التي استمرها سلفنا وكانت السبب المباشر في اسرنا ووقوعنا في الهلاك . . »

مناقشات المؤتمر :

كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر قد اخلت له بمدرسة روضة المعارف الاسلامية التابعة للمجلس ووضع فيها من الورق والاقلام والدفاتر والمحابر والكتبه والخدم ومنهم سقاة الشاي والقهوة اليمانية الامامية (٨٠) وقد اعد في المدرسة (٨١) قاعات وغرف للجان المؤتمر ، كما خصت قاعة لنشر اخبار المؤتمر على الصحف ولتزويدها بها وقاعة اخرى لتنظيم شؤون المؤتمر وتلبية طلبات وحاجات الاعضاء . وجرى في الجلسة الاولى اختيار المكتب لادارة جلساته واعماله وتم الاتفاق بالترشيح والموافقة على ان يكون الحاج امين رئيساً للمؤتمر (٨٢) ، وتألفت في المؤتمر ثماني لجان لبحث الشؤون التي عرضت عليه وتقديم تقارير وافية عنها ، وهي لجنة الدستور ، ولجنة الدعاية والنشر ، ولجنة المالية والتنظيم ، ولجنة الثقافة وجامعة المسجد الاقصى ، ولجنة السكة الحديدية الحجازية ، ولجنة الاماكن المقدسة والبراق الشريف ، ولجنة الدعوة والارشاد ، ولجنة المقترحات (٨٣) . يقر رشيد رضا (٨٤) ان نظام جلسات المؤتمر كان حسناً لم يستطع اعداؤه الطعن فيها الا ان اكثر اوقاتها ضاعت بالقاء الخطب والمناقشات العديدة مع كثرة التكرار في الموضوع الواحد والخطبة الواحدة ،

وانتقد طريقة تاليف اللجان حيث ابيح لكل عضو ان يدخل في اللجنة التي يختار العمل فيها « فكان العضو الواحد يكتب اسمه في لجنتين او ثلاث بحسب ما يهوى لا بحسب استعدادة للعمل فيها كلها » (٨٥) .

ويذكر عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة ان المؤتمر اخذ يتلقى برقيات ورسائل تأييد ورسائل فيها اقتراحات متنوعة من جميع انحاء العالم الاسلامي ، ومن الذين دعوا وتخلفوا لاسباب قاهرة ومن شخصيات اسلامية بارزة حتى صار المؤتمر « في من شأده وفي من ايده وفيما ورد عليه من مقترحات وفي مائير فيه من مواضيع يسمو سموا كبيرا ويظهر بذلك ما كان من حاجة المسلمين الى مثل هذا المؤتمر العام الاسلامي في سياق كفاحهم مع المستعمرين وما طرا عليهم من قطيعة وما يتعرض له الاسلام من مؤامرات وما تحفزهم اليه النهضة المواتية الحديثة من اسباب التواصل وعوامل التجمع والتعاون . ومما هو جدير بالذكر ان مسيحيي فلسطين العرب شكلوا وفدا عنهم يضم بعض رؤساء الدين فيهم ، وزار الوفد المؤتمر الاسلامي في ساحة الاقصى حيث كان ينعقد المؤتمر واكد للمجتمعين تأييد النصارى للمؤتمر وترحيبهم بدخول مسلمي العالم فريقا مباشرا في قضية فلسطين » (٨٦) .

وكان من ابرز الاقتراحات التي انهالت على المؤتمر : انشاء جامعة اسلامية في القدس ، ومحاربة الاستعمار مهما كان شكله وكل مسلم يؤيد الاستعمار يعتبر خارجا عن الاسلام والمسلمين . وبعث الامر شكيب ارسلان من جنيف باقتراح مقاطعة بضائع كل دولة ترهق المسلمين عسرا وتاليف لجان للمقاطعة ، وكذلك مقاطعة المسلم الذي لا يتقيد بمقررات المقاطعة (٨٨) . وكان من المقترحات مؤازرة قضية انتخاب بطريك عربي للارثوذكس (٨٩) . كما عرض على المؤتمر بيانات او تقارير مطبوعة منها تقرير طويل من جمعية الشبان المسلمين تعرض فيه على المؤتمر ما تراه من الاصلاح الاسلامي ، وتقرير محمد علي علوبة في الاصلاح اللغوي بوضع معجم عربي للعلوم والفنون والاصطلاحات العصرية ، وتقرير لجنة البراق الدولية ، وتقرير في اعمال دعاة النصرانية ، (٩٠) وتقرير لجنة الدفاع عن سكة الحديد الحجازية (٩١) . ووزعت على اعضاء المؤتمر بعض المواد الاعلامية التي تعالج الوضع في طرابلس ، والمغرب الاقصى والاتحاد السوفييتي (٩٢) . ويلاحظ ان المسائل ذات الطابع السياسي قد اجلت الى الجلسات الاخيرة . ويعلل عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة ذلك بقوله « . . . شعر الحاج برغبة القوميين في تقديم اقتراحات بشأن الاستعمار فبذل جهده لتأخير تقديمها الى اخر جلسة حتى لا يكون حرج عليه وعلى المؤتمر من جانب السلطات الانكليزية في فلسطين » . وشغل موضوعا الاصلاح الاسلامي والثقافة الاسلامية حيزا كبيرا في ابحاث المؤتمر ، وكان للشيخ رشيد رضا وجمعية الشبان المسلمين الاسهام الاكبر في الموضوعين .

وقد سبق للحاج أمين ان اقترح على رشيد رضا قبل عقد المؤتمر وضع تقرير في الاصلاح الاسلامي ليطرح في المؤتمر اثناء انعقاده ويكون مدارا لما يقرر في هذا الشأن (٩٢) ، ولكن رضا اثر ان يعرض ما يراه من الاصلاح في جلسات المؤتمر عند الحاجة اليها . وقد راس لجنة الدعوة والارشاد في المؤتمر (٩٤) ، وقدم لاعضاء اللجنة تعريفا بمشروع الدعوة والارشاد على انه « اعظم مشروع اسلامي لاصلاح المسلمين في انفسهم ولتجديد هداية دينهم ومجده ، وهو يتوقف على تعليم جديد وتربية جديدة في مدرسة خاصة ، وعلى جمعية كالجمعية التي سبق تاسيسها في مصر ، وعلى مال كثير لذلك وللدعاة والمرشدين الذين يتخرجون في المدرسة ولا يتم غرسه ونباته واثماره الا في سنين كثيرة » (٩٥) .

وفي جلسة المؤتمر العامة تقدم رضا بتقرير لجنة الدعوة والارشاد وهي ملخصة من عدة مقترحات (٩٦) ، اهمها تاليف جمعية باسم (جمعية الدعوة والارشاد الاسلامية) على المنهج الذي كانت عليه الجمعية التي الفت بهذا الاسم في القاهرة يكون لها مدرسة كلية خاصة تكون احدى كليات الجامعة الاسلامية التي قرر المؤتمر السعي لانشائها في بيت المقدس لتخريج طائفتين من العلماء احدهما تخصص لارشاد المسلمين على اختلاف اجناسهم الى حقيقة الاسلام بالتعليم النظامي السهل والتربية الدينية العملية الموافقة لحالة العصر ، والثانية لاجل دعوة غير المسلمين الى الاسلام . ويستعان على انشاء الجمعية والمدرسة بما وضع للجمعية السابقة ومدرستها من نظام ومناهج وتجربة . وطالبت مقترحات اللجنة تكليف بعض العلماء بالكتاب والسنة ومسائل الاجماع والمذاهب الاسلامية تاليف رسائل في عقائد الاسلام وادابه وفضائله وعباداته وتاريخ نشاته ، تكون الوسيلة لحياء روح الدين ومقاومة الالحاد والزندقة في هامة المسلمين وتحقيق الاخوة الاسلامية على اكمل وجه ممكن ، ويتوخى فيها ان تقتصر على المسائل الاجتماعية عند جميع اهل المذاهب الاسلامية لتكون مقبولة عند جميع المسلمين وتمهيدا لجمع كلمتهم وان تكون في منتهى السهولة في العبارة والاسلوب وان يكون الكلام في آداب الاسلام وفضائله مقرونا بما لها من التأثير في الاعمال النافعة من شخصية ومنزلية واجتماعية ، وان يقتصر في العبادات على الكليات المجمع عليها ، كما طلبت المقترحات من المؤتمر الاستعانة باعضائه ثم بلجانه التي تؤلف له ثم بجمعيات الشبان المسلمين وغيرها من الجمعيات الاسلامية على نشر هذه الرسائل في جميع الشعوب الاسلامية بعد ترجمتها بلغاتها الراقية . وكان من اخر مقترحات اللجنة مطالبة المؤتمر باتخاذ الوسائل التمهيدية لتعميم اللغة العربية في جميع الشعوب الاسلامية لما في ذلك « من توقف فهم الدين ووحدته عليها ، واشتداد الحاجة في هذا العصر الى هذه الوحدة التي تجمع قوة هذه الامة المؤلفة من ٣٥٠ مليوناً الى ٤٠٠ مليون لحفظ حقيقتها

واعلاء شأنها ودفع ضروب العدوان عن دينها ودنياها... فلا يتم لنا احياء هداية الاسلام بانواعها ولا وحداته المتقدمة ولا فائدة مؤتمراته الا باحياء لفته الجامعة» (٩٧). وقد القى الشيخ رشيد رضا خطابا على هيئة المؤتمر العامة في الاخطار التي تهدد العالم الاسلامي من امراضه الذاتية العامة لجماعته والشخصية في افراده والخارجية وما يجب على مثل هذا المؤتمر من السعي لدرء الاخطار ومعالجة الامراض (٩٨) ، وهي تؤكد اراء رضا التي تبناها منذ نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تابع فيها رأي استاذيه الافغاني وعبدّه ، حول ضرورة الاصلاح وعلى اهمية الاسلام لتحقيق التقدم الذي اثبت الماضي امكان تحقيقه .

وتناولت كلمة جمعية الشبان المسلمين الى المؤتمر الاسلامي العام (٩٩)، بالإضافة الى مسألة الثقافة ، قضيتين هامتين : الاولى الاماكن المقدسة ، والثانية مسألة سكة الحديد الحجازية . وبعد مقدمة طويلة دعت الكلمة فيها الى اللفة بين المسلمين اقترحت على المؤتمر «... ان يقرر وجوب تنظيم طرق التعارف بين الشعوب الاسلامية وازالة الجفاء بين جماعاتهم ذلك ان الاشتراك بين المسلمين حاصل في الاصول ، وقائم على جميع الاركان » . واهم ما يشترك به المسلمون اشتراكهم جميعا في عبادة الله عزوجل ، وبالتالي اشتراكهم في بيوت الله واماكن الاسلام المقدسة «... وكلهم مكلفون بحفظها وصيانة حوزتها ودفع السوء عنها » ، وتنتقل الكلمة الى مسألة الاماكن المقدسة في فلسطين فتشير الى قرار اعلنه مؤتمر مجالس ادارة جمعيات الشبان المسلمين في ١١ يوليو/تموز ١٩٣٠ / (١٥ صفر ١٣٤٩) والذي نص على تمسك المسلمين العام بمكان البراق الشريف الذي هو حق مقدس لهم لا ينازعهم فيه الا ظالم او معتد وان كل مساس بذلك الحق الذي لاشبهة فيه يترك في نفس كل مسلم جرحا عميقا ، ويذهب بكل ثقة له بالعدالة التي تنادي بها جمعية الانم والتي ينبغي ان تكون بعيدة عن مشار العواطف السياسية والاطماع . وتعلن كلمة الجمعية باعتزاز « ان مسلمي فلسطين هم جبهة الدفاع الاسلامية عن جميع الاماكن المقدسة في فلسطين ومن وراء هذه الجبهة اربعمائة مليون قلب تخفق بالايمان وتؤيد سكان فلسطين من اتباع محمد (صلعم) في كل ما يضطرون اليه من وسائل الاحتفاظ بحق الاسلام كاملا على مقدساته في هذه الديار » ..

وتناولت الكلمة مسألة سكة الحديد الحجازية التي اشتركت في الانفاق على تاسيسها بقاع الوطن الاسلامي الاكبر ، وهذه السكة وقف اسلامي عام « فمن الاعتداء على حق المسلمين في ادنى الارض واقصاها ان يدار بأيدي غير المسلمين ، وان يستغل لغير مصلحة المسلمين وان يظل اكثر من عشر سنين معطلا عن وظيفته الاولى وهي

الوصول الى المسجد النبوي الطاهر » . وطالبت الكلمة بحصول المسلمين على ادارة خطهم الحجازي ووضع ريعه في صندوق تحت ايديهم يستعملونه في ارجاع هذا الخط الى ما كان عليه قبل الحرب العظمى كما طالبت بان تقام في كل قطر اسلامي لجنة تتصل بلجنة دمشق للدفاع عن الخط الحجازي .

وكان الموضوع الاخير الذي تعرضت له كلمة الجمعية خاصا بثقافة النشر للمسلم وما تتعرض له من اخطار من طريق الثقافة والدعاية والنشر « ولعل المسلمين افقر امم الارض في المدارس التي تصلح لانشاء ابنائهم انشاء يتفق مع عقيدتهم وهدايتهم وآدابهم وحاجاتهم الروحية والمعنوية » ، ومن اجل انشاء جيل جديد كفؤ للنهوض بحاجة المسلمين المادية والروحية تتقدم الكلمة باقتراح مزدوج احد شقيه « مقاومة دعايات الالحاد في داخل المدارس الموجودة الان وفي عالم الطباعة والنشر ، والثاني ايجاد مدارس جديدة تكون مستوفية الشروط من وجهة النظر الاسلامية ومعاونة وسائل النشر الاسلامية على السير في طريق الرقي حتى تتمكن من اظهار محاسن الاسلام للملا ، وعرض حقائقه بالاساليب المحبوبة عند الجماهير » . وأشارت الكلمة بأسى الى ان « جميع طوائف البشر لهم مدارس خاصة بطوائفهم ، ووسائل نشر تؤيدها من ورائها ، ما خلا المسلمين فانهم فقراء في المدارس وفي وسائل النشر حتى صارت البيوت العريقة في التقوى تنشأ فيها الناشئة الملحدة او على الاقل الناشئة الغريبة عن الاسلام وتاريخه ومحاسنه » . وهي تحث اهل الاختصاص في التعليم والتهديب على ايجاد مناهج محكمة للثقافة الاسلامية كما تدعو اغنياء المسلمين ان يكونوا كاغنياء غير المسلمين في العمل على تأسيس مدارس اسلامية جامعة لجميع الشروط ، وتحيي جمعية الشبان المسلمين اول من فكر في السعي لتأسيس جامعة اسلامية في فلسطين « ياوى اليها شباب هذه البلاد والمحتاجون الى مدارس عليا تعدهم للكفاح في ميادين الحياة وتهيئهم ليكونوا رجالا في عالم العمل » . وكانت جمعية الشبان المسلمين قد قامت بتوزيع تقرير عام على اعضاء المؤتمر عنوانه (النهضة الاسلامية عن طريق الثقافة والنشر) (١٠٠) ، شرحت فيه بالتفصيل وجهة نظرها بالنسبة لمسألة الثقافة فتناولت تعرض النشر الجديد للغزو الثقافي الاجنبي بسبب تفريط المسلمين في مقوماتهم الاجتماعية ، وعالجت سبل نهضة العالم الاسلامي لمواجهة هذا التحدي على اساس الدين والعلم . ورات ان تأسيس جامعة مدنية اسلامية في فلسطين ليس دافعه فقط الرغبة في مقاومة الاثر الصهيوني للجامعة العبرية « . هذا مبرر من غير شك ومبرر كبير لكنه ليس المبرر الوحيد ، انما هو من المبررات التي تدعو الى تأسيس تلك الجامعة ، او بالاحرى هو المبرر لجعل مركز الجامعة المدنية الاسلامية هنا في فلسطين وفي القدس لا في غيرها من بلاد الاسلام » . اما التأسيس نفسه « تأسيس جامعة مدنية اسلامية

تعلم العلوم الكونية التي حض القرآن في نحو ربع آياته على طلبها وتعليمها فمبرره اسلامي عام والحاجة اليه قائمة منذ غربت شمس الاسلام عن الاندلس واندثرت المدرسة او بالاحرى الجامعة النظامية التي اسسها نظام الملك في بغداد .

وكان من بين المتحدثين عن الجامعة الاسلامية (١٠١) التي يراد انشاؤها في القدس الشاعر الهندي محمد اقبال وكيل المؤتمر وقد خطب فيه خطابا شائقا وقال أنه يجب ان تكون جامعة يؤمها الشبان المسلمون من جميع انحاء العالم (١٠٢) ، وكذلك القى الطباطبائي خطابا قيما عن الثقافة والجامعة الاسلامية فاحاط بالموضوع احاطة تامة وقد ساعده على ذلك انه يقيم في سويسرا من ثماني سنوات فتسنى له في خلال هذه المدة الوقوف على نظم التعليم في أوروبا ودرسها دراسة وافية (١٠٣) .

وتجدر الإشارة الى ان « الوحدة الاسلامية » كانت ترد على لسان كثير من المتحدثين دون ان يخصص لها موضوع مستقل في مناقشات المؤتمر (١٠٤) . والوحدة كما تصورها المتحدثون لا تتجسد بالضرورة في شكل دولة اسلامية واحدة بل كانت صدى بعيد لافكار تلامذة الافغاني بضرورة قيام جبهة متحدة متجهة نحو غرض واحد هو القيام في وجه السيطرة الغربية المرهقة وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الامم الاسلامية من قبول السلطة الاوربية السياسية (١٠٥) ، كما كانوا يعنون جوهريا بالتراث المشترك القائم لا على وحدة الدين فحسب بل على الثقافة والعادات والطباع وبالاخص رابطة اللغة ، وقد اكد المتحدثون على ان اللغة العربية هي وحدها لغة التقوى والعقيدة والشريعة ايئما وجد الاسلام (١٠٦) .

واجلت مناقشة موضوع الاماكن المقدسة حتى الجلستين الثامنة والتاسعة اي يومي ١٢ و ١٣ ديسمبر / كانون اول ، نظرا للوقت الذي استغرقته اللجنة في اعداد الموضوع ، او ربما لتخوف المسؤولين عن المؤتمر من البدء بمثل هذا الموضوع الحساس (١٠٧) . وقام رئيس اللجنة محمد الحسين آل كاشف الغطاء بقراءة مقترحات اللجنة وسط هتاف وترحيب اعضاء المؤتمر ، وقدم للمقترحات ببيان مفصل حول النوايا الصهيونية بالنسبة لفلسطين والاماكن المقدسة (١٠٨) . وبلغ الحماس اقصاه بعد خطاب سعيد ثابت ضد الصهيونية تلته دقيقتا صمت حدادا على ارواح الشهداء الذين سقطوا في سبيل قضية الاراضي المقدسة . وكانت اكثر الخطب حماسا تلك التي القاها عوني عبدالهادي الذي لم يهاجم فقط الخطط الصهيونية حول الحرم الشريف بل اثار مسألة الانتداب البريطاني بمرمتها ، وقدم اقتراحا للمؤتمر ينص على طلب الغائه ، فعارضه شوكت علي طالبا استبعاد الاقتراح ، فانبرى وياض الصلح وحمل على شوكت علي قائلا: « يظهر لي ياسيدي انك تجهل تاريخ الجهاد في بلاد العرب . ان

الانتداب منشأ كل هذه البليات في هذه البلاد . وهو الذي جزأ سورية هذه التجزأت، معاهدة كان او حماية هو الاستعمار بابشع صوره «(١٠٦) ، كما حمل عوني عبد الهادي بدوره على شوكت علي(١١٠) .

وكانت الجلسة العاشرة التي عقدت في ١٣ ديسمبر / كانون اول جلسة الانتداب، فانهاالت فيها الاحتجاجات على الانتداب البريطاني . وفي الجلسة الخامسة عشر في ١٦ ديسمبر/ كانون اول تقدم عدد من القوميين باقتراحات بشأن الاستعمار وافق عليها المؤتمر ، وتكلم في اثناء ذلك غير واحد من اصحاب الاقتراحات منددين باحتلال الدول المحتلة لتلك البلاد وتصرفاتها(١١١) ، ووقف بشير السعداوي في نهاية الجلسة طالبا الاحتجاج على الاعمال الاستعمارية العنيفة في طرابلس وبرقة ، والقي عبد الرحمن عزام كلمة حماسية حمل فيها على اعمال ايطاليا في طرابلس ، قرر المؤتمر على اثرها وقف الجلسة دقيقتين حدادا على استشهاد عمر المختار(١١٢) . واحتج قنصل ايطاليا على ما اثير في المؤتمر ضد سياسة بلاده ، فأمرت السلطة البريطانية عزام بمغادرة فلسطين فورا(١١٣) . ويقول دروزة(١١٤) « كانت السلطة البريطانية قد اخذت موقفا حياديا من المؤتمر الى ان بدأ المؤتمر يبحث في مسائل الاستعمار والمستعمرين فتدخلت في الامر » .

قرارات المؤتمر :

- جاءت قرارات المؤتمر في مجموعتين : الاولى عامة ، تتناول قضايا دينية ثقافية لا علاقة لها بالاستعمار والصهيونية(١١٥) وهي :
- ا - تنمية التعاون بين المسلمين على تعدد مواطنهم ومذاهبهم ، ونشر الثقافة والفضائل الاسلامية ، واذكاء روح الاخوة الاسلامية العامة .
 - ب - حماية المصالح الاسلامية وصيانة المقدسات من كل تدخل وسيطرة .
 - ج - مقاومة المساعي والحملات التبشيرية بين المسلمين .
 - د - انشاء جامعات ومعاهد علمية تعمل على توحيد الثقافة الاسلامية وتعليم اللغة العربية للناشئة الاسلامية ، وان يبدأ ذلك بانشاء جامعة في بيت المقدس تسمى جامعة المسجد الاقصى تغذيها وترعاها مؤسسة المؤتمر وتشكيلاته(١١٦) .
 - هـ - تأليف دائرة معارف باسم القاموس الاسلامي، (١١٧) .
 - و - ادرك المؤتمر أهمية الدعاية وخطورتها دفاعا عن المصالح والثقافة الاسلامية ونشرا لغايات المؤتمر ، وذلك بتأسيس مكتب رئيسي للدعاية في القدس ومكاتب فرعية في البلدان التي بعثت بمندوبين لهذا المؤتمر .
 - ز - اتخذ المؤتمر قرارا عاما بالعمل على ترقية الصناعات في الاقطار الاسلامية

- والقيام بمسح عام للعالم الاسلامي متضمنا احصاءات دينية تعليمية اقتصادية .
- ح - دعا المؤتمر الى تحييد فكرة انشاء جمعيات الشبان المسلمين في الاقطار الاسلامية وفي ديار المهجر .
- ط - اعتبر المؤتمر قضية العرب الارثوذكس جزءا من القضية العربية الكبرى ولفت نظر الحكومة الى وجوب تمكينهم من انتخابات بطريرك عربي لهم ، كما قدم الشكر لمسيحيي فلسطين وشرق الاردن على عواطفهم التي ابدوها نحو المؤتمر ، وحيا المؤتمر العربي الارثوذكسي المنعقد في يافا .

المجموعة الثانية من القرارات وهي التي تناول عددا من القضايا السياسية المحددة :

- ا - تأسيس شركة اسلامية كبرى لاتقاذ الاراضي في فلسطين من خطر انتقالها لليهود يشارك فيها العالم الاسلامي كله (١١٨) .
- ب - في صدد البراق قرر المؤتمر انه مكان اسلامي عام مقدس عند جميع المسلمين ، وقرر استنكار كل تبديل او تغيير في حالته وصفته ، كما اعلن استنكار قرار لجنة البراق الدولية (١١٩) .
- ج - وفي صدد قضية فلسطين الاصلية ، قرر المؤتمر ان فلسطين ، باعتبارها اولى القبلتين وفيها ثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الاسلام ، هي مقدسة عند جميع المسلمين وان من حقهم وواجبهم حفظها اسلامية ومنع كل مطمع وعدوان عليها ، وطالب باستقلالها وقيام حكم فيها باكثرية اسلامية لان المسلمين هم الاكثرية الكبرى فيها ، وقرر رفض وعد بلفور وصك الانتداب وبطلان كل ما جرى نتيجة لهما ، وطالب بمنع الهجرة اليهودية الى فلسطين وانتقال الاراضي العربية لليهود وبعدم محابة اليهود في الوظائف والقوانين والمشاريع والامتيازات (١٢٠) .
- د - استنكار الاستعمار بجميع انواعه وفي اي قطر من الاقطار الاسلامية وذلك لان الاستعمار لا يتفق مع الحق العام ومبادئ الدين الاسلامي القويم ، وبالتحديد ، يستنكر المؤتمر السياسة البريطانية الاستعمارية في فلسطين ، وكذلك في مصر والسودان وبعض اقطار الجزيرة العربية ، ويستنكر المظالم التي ينزلها الطليان في طرابلس وبرقه والفرنسيون في سوريا ولبنان والمغرب (١٢١) .
- هـ - يطالب المؤتمر بتسليم خط السكة الحديدية الحجازية الى ادارة اسلامية لانه ملك اسلامي قام باموال اسلامية لاغراض اسلامية ، ويطالب المؤتمر بالتقيد بصك الانتداب بشأن عدم التعرض للاوقاف الاسلامية ، وتنفيذ ما اعترفت به معاهدة لوزان من كون الخط وقفا اسلاميا (١٢٢) .

و - استنكار الظهير الفرنسي البربري (القانسون القاضي بتنصير مسلمي البربر في المغرب العربي ، الصادر في ١٩٣٠) ، « فالمؤتمر يحتج بشدة ويطالب بالغاء الظهير والكف عن تلك الاساليب الخطيرة (١٢٣) » .

ز - استنكار المعاملة السياسية التي لقيها زعماء طرابلس وبرقة ومجاهدوهم وسائر قبائلهم من تقتيل وتشريد وسلب املاك ، « ان المؤتمر يرجو باسم العدل والمدنية والشرائع السماوية والارضية ان تتدخلوا او تحولوا دون استمرار تلك الفظائع » (١٢٤) .

وفي سبيل العمل لانشاء منظمة اسلامية دائمة قرر المؤتمر وضع دستور باسم (دستور المؤتمر الاسلامي العام) وعهد برئاسة لجنة صياغته لمحمد علي علوبة (كان دروزة سكرتيرا لها) . وقد اقر المؤتمر مواد الدستور (من ١٧ فقرة) وكان من مقتضاها ان المؤتمر مؤسسة اسلامية دائمة ينعقد كل سنة في بلد اسلامي يعين في آخر كل دور انعقاد ، وان له تشكيلات ومكاتب في كل انحاء العالم الاسلامي لمساعدته في الجباية وفي تنفيذ القرارات (١٢٥) . ونص دستور المؤتمر على انتخاب لجنة تنفيذية من ٢٥ عضوا لتمثيل المؤتمر في فترة عدم انعقاده وملاحقة تنفيذ قراراته والاشراف على تشكيلاته وتهيئة انعقاد دورته التالية ، على ان تجتمع مرة واحدة كل شهر ، ونص على ان يكون لها مكتب مؤلف من رئيسها وسكرتيرها وخمسة من اعضاء آخرين منها يكون دائم العمل . وكانت اللجنة التي انتخبت ممثلة لجميع الاقطار الاسلامية العربية وغير العربية التي شهد المؤتمر وقود منها (١٢٦) .

وفي حفلة ختام المؤتمر ١٧ ديسمبر / كانون اول كرر الخطباء تأييد بلادهم لفلسطين وقضيتها واماكنها المقدسة والبراق ، واعتبار انفسهم وبلادهم شركاء اصليين في كل ذلك ، واعدوا ببذل كل جهد في تنفيذ قرارات المؤتمر وديمومته . واقيم في الليل حفل ديني في المسجد الاقصى ، دعا المؤتمر بنصر المسلمين وبلاد المسلمين وحماية فلسطين المقدسة من اخطار الاستعمار والصهيونية وكبت اعداء الاسلام والمسلمين (١٢٧) . ثم اجتمعت اللجنة التنفيذية والفت مكتبها حسب الدستور من الحاج أمين رئيسا ، والسيد الطباطبائي سكرتيرا عاما ونبية العظيمة مساعدا له ، ومن الزعيم الثعالبي ورياض الصلح وسعيد شامل اعضاء ، ومحمد علي علوبة امينا للمال (١٢٨) . وسار العمل انما بنشاط كبير . « وكان جيشان المؤتمر وروحه مايزالان مؤثرين » (١٢٩) . ووضع الطباطبائي ونبية العظيمة بعض الانظمة والتعليمات بسبيل تشكيل لجان فرعية في المدن الفلسطينية والمدن الاسلامية الاخرى ، كما وضعا نظام جباية وتبرع ، وبشرت بعض مدن فلسطينية العمل وفقا لذلك بسرعة (١٣٠) .

تقيم عام للمؤتمر :

لا شك ان المؤتمر الاسلامي الاول في القدس كان الميدان الواسع الذي عبر ابناء العالم الاسلامي فيه عن اهتمامهم بالقضية الفلسطينية ، وقمة الجهود التي بذلها الفلسطينيون لمناشدة عطف البلدان العربية والاسلامية ودعمها ، وقد شعر قادة الحركة الوطنية في فلسطين بالقوة الجبارة للعالم الاسلامي وما يمكن ان يحققه التحالف الوثيق معها من نتائج مشرعة ، كذلك فقد دل المؤتمر للعالم ان الشعوب الاسلامية أصبحت تشعر بان الحاجة ماسة الى تضامنها وتكاتفها ، وان لا سبيل لها الى تحقيق كثير من اغراضها الا باتحادها وتعاونها ، وكان اهم ما انجزه المؤتمر هو جمع ذلك العدد الكبير من كبار رجالات المسلمين من مختلف الاقطار الاسلامية في صعيد واحد لمناقشة قضاياهم واستعراض مشاكل بلدانهم والتعرف على الاوضاع السائدة في سائر الاقطار الاسلامية ، واقتراح ضروب العلاج التي تسفر عنها احاديثهم ومناقشاتهم .

لم يقتصر نجاح المفتي على توجيه انظار العالم الاسلامي نحو قضية فلسطين ، وتنبيهه الى ما يحيط بها من اخطار وخلق رأي عام اسلامي يساند القضية الفلسطينية في السنوات التالية ، بل ترتب على هذا العامل نتيجة اخرى ، هي تحقيق مجد شخصي له وتعزيز مركزه ونفوذه في انحاء العالم الاسلامي ، فتخطت شخصيته الحدود بعد ذلك المؤتمر واصبح شخصية اسلامية يعتد بها ، بل اصبح خلال الثلاثينات وخاصة بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٠ وكاظم الحسيني ١٩٣٤ ، من ابرز الشخصيات في العالم العربي (١٢١) . واذا كان المؤتمر قد قصر عن تحقيق نتائج سياسية حاسمة فلا يعود ذلك الى فساد او وهن في اعماله ، بل الى ان معظم البلدان التي شاركت في المؤتمر كانت تفتقر الى الثقل الدبلوماسي الكافي ضد بريطانيا وسائر الدول الاوربية الاخرى ، والظاهرة الاستعمارية كانت لا تزال في اوجها في مرحلة ما بين الحربين ، وجاء نقص التمويل عاملا اخر ااحباط عدد من المشاريع الواسعة التي اقراها المؤتمر . ولا يمكن فصل هذا العامل عن الجو العام الذي كان يسود اقطار العالم الاسلامي سياسيا واقتصاديا .

في اعقاب المؤتمر :

عاش عرب فلسطين يحدوهم الامل بتنفيذ قرارات المؤتمر ، على ان امور المؤتمر لم تستمر على ما يرام ، فلم يباشروا المكتب عمله كما يجب وذهب الطباطايني بعد اسبوعين الى اوربا ، كذلك لم تدع اللجنة التنفيذية الى الاجتماع وتحولت الى هيئة فخرية غير فعالة (١٢٢) . ويضيف عزة دروزة في مذكراته غير المنشورة سببا آخر اذ

«... لم تبدر أية بادرة في البلاد الاسلامية العربية وغير العربية في صدد تأسيس فروع للمؤتمر وتنظيم الجباية وتنفيذ القرارات . وكان هذا مما وضع على عاتق رجال المؤتمر في هذه البلاد التي كانت منشغلة بهمومها حيث كانت كلها تقريبا تحت الاحتلال والسيطرة الاجنبية وتعاني من ذلك ما تعاني وينشغل اولئك الرجال بذلك اكثر مما ينشغلون في امور المؤتمر وكان قدومهم اليه مبادرة شخصية وفردية وهذا فضلا عن التخلف العظيم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي كان يلف بلادهم وسكانها...».

وكان تحقيق الوعدين ، الوعد بانشاء الجامعة (١٢٢) ، والوعد بانشاء الشركة الزراعية لاتقاذ الاراضي ، بحاجة الى اموال ، فشرع مكتب المؤتمر بجمع المال من الخارج ، وسافر الى الهند وفد مؤلف من الحاج امين الحسيني ومحمد علي علوبة ، وانضم اليه هناك الشاعر محمد اقبال ، فلقى نجاحا كبيرا وانهالت عليه التبرعات ، (مليون روبية من نظام حيدر اباد ، ونصف مليون من سلطان البهرة)... وبينما كانت التبرعات تنهال والوفد يزداد اطمئنانا لنجاح مهمته ، وصلت رسالة من الحكومة في لندن الى وندفتون نائب الملك في الهند تطلب منه عرقلة مساعي الوفد والحيلولة دون تحويل الاموال الى خارج الهند . ولم يكن صعبا على نائب الملك تنفيذ الاوامر بطبيعة الحال ، وبالتالي لم يعد صعبا على اعضاء الوفد وكبار الاعضاء في المؤتمر الاسلامي ان يروا بالعين المجردة لا بعين الخيال ، الحدود الضيقة التي وضعها الاستعمار امامهم لا يتخطوها ، فالاقطار العربية والاسلامية كلها كانت تعاني من ضغط استعماري ، والاستعمار سواء اكان بريطانيا او فرنسا او ايطاليا يبقى استعمارا متضامنا وموحدا في مجابهة الاماني التحررية والقومية والتقدمية لدى الشعوب المستعمرة (١٢٤) . وكانت فكرة جمع الاموال في العالم الاسلامي فكرة هزت بريطانيا وقلقتها ، فانشاء جامعة في القدس تهيب سبيل العلم للعرب تحاربه بريطانيا ، وانشاء شركة زراعية تمول من مسلمي العالم ، وتوفر لها القدرة المالية لن يجد اليهود بعدها شيئا يسيرا لهم في التملك والانشاء والانماء (١٢٥) . ولم تنجح فكرة المؤتمر حتى في مقاطعة البضائع اليهودية لدى المسلمين ولم ينقطع سيل التصدير من الشركات اليهودية في فلسطين والبيوت الصهيونية في العالم الى مختلف انحاء العالم الاسلامي الذي كان محكوما ببريطانيا وفرنسا وايطاليا ، ولم يكن لسكانه رأي في هذا الميدان بقدر ما لهم رأي في حكم بلادهم (١٢٦) . ولربما كان وفد السلام من المؤتمر الاسلامي العام برئاسة الحاج امين لحل الخلاف المسلح بين اليمن والسعودية على الحدود هو الانجاز الوحيد الذي حققه المؤتمر في تلك الفترة . وجرت المفاوضات بين الطرفين باشراف ورقابة الوفد وانتهت بعقد معاهدة صلح وتحالف بين البلدين . فقد اعتبر مكتب المؤتمر النزاع ضربة للوحدة الاسلامية وهذا ما برر التدخل ، وعزز ذلك مكانة الحاج الدولية وخلق جوا من حسن

النية امكن ان يستخدمه فيما بعد وهو يبحث عن دعم السعودية واليمن في الثلاثينات (١٣٧) .

ويذكر دروزة في مذكراته غير المنشورة ان هذه المبادرة قد منحت المؤتمر دفقة جديدة من الدم والحياة الا انها لم تبعث فيه حياة مستمرة ، « وظل الحاج امين يتحرق على اعادة الالاء لشمس المؤتمر » ، واستطاع ان يقنع الطباطبائي الذي كان في اوربا بالعودة الى فلسطين واستلام المكتب وانعاش حركة المؤتمر ، فعاد فعلا في اواخر سنة ١٩٣٣ واخذ يضع الخطط لذلك . واستطاع الحاج امين ان يقنع الزعيم الثعالبي ايضا بالعودة والاقامة الى جانب الطباطبائي في سبيل ذلك ايضا . وفي هذه الاثناء ورد خبر من حكومة فلسطين بوصول الحوالة بتبرع نظام حيدر اباد مشروطا دفع قيمتها . وشجع الخبر (الثلاثي الحاج والطباطبائي والثعالبي) على السير في مشروع جامعة المسجد الاقصى دون ان ينتبهوا الى ان المبلغ ليس سنويا ، وانه لا يمكن انشاء بناء كبير به للجامعة ، فضلا عن ما تحتاج اليه الجامعة من نفقات باهظة سنويا . فألفوا لجنة علمية واخرى دعائية واخذوا بوضع الخطط المتنوعة ، وانهمك الزعيمان الطباطبائي والثعالبي في ذلك مدة عامين وبدا عملهم باحضار مهندس من مصر (١٣٨) كلفوه بوضع مخطط لبناء جامعة ذات كليات عديدة يتم انشاؤها مرحلة بعد مرحلة ، ثم فطنوا الى ان المال الذي في يدهم لا يكفي انشاء كلية واحدة فضلا عن تجهيزها . فراوا ان يقتصر عملهم على عمارة فندق الاوقاف الكبير لاقامة كلية او كليتين ، والحاج امين الذي الح بدوره على المجلس حتى استصدر قرارا بالموافقة على تخصيص العمارة للمشروع ، ثم تنبها الى ان المشروع يحتاج الى مبالغ كبيرة ليست متيسرة ، وان من الممكن تدبير اماكن مناسبة من البنايات والمدارس الوقفية الملحقة بالحرم بدون اجر او باجر رمزية . وكان عزة دروزة حينذاك قد تولى مديرية الاوقاف وطلب منه المجلس ابداء الرأي ، وبعد تقليب الرأي قال دروزة ان العمارات التي حول الحرم مشغول اكثرها ولو امكن اخلاء او تخصيص بعضها فانه يحتاج الى مبلغ كبير ، ومجمل القول ان المشروع يحتاج اولا الى مبلغ جاهز لاعداده ثم الى ريع ثابت كاف لادامته حياته فضلا عن تنميته ، ولا يجوز ان يعالج معالجة متسرة ، وسلموا بما قال دروزة واخذوا يخططون لمدرسة صناعية او مصنع يتعلم فيه الطلاب ، ولكن هذا ايضا بقي في نطاق الكلام وهكذا قضا « سنتين في فراغ » (١٣٩) .

خاتمة :

ان تقلص قرارات المؤتمر لا يعني فشل فكرته في البحث عن القوة الدينية لدعم النضال الوطني ، ولا يعني كذلك غياب زعامة الحاج ولكن اخذ كل منهما منحى اخر :

فالجبل الماضي من دعاة الجامعة الاسلامية والذي كان يشدد على الطابع الاسلامي للقومية العربية اخذ يحل محله جيل جديد يرى الاولوية في الرابطة القومية والوحدة العربية دون ان ينفي أهمية التعبير الديني عن الشاعر السياسية او البعد الاسلامي للقضية الوطنية ، وهذا اتجاه عام كان يجري في ثلاثينات القرن الحالي في كثير من البلدان العربية ، بظهور احزاب تعبر عن عقيدة قومية اشد ترابطا والنظر الى الاسلام كحضارة او كخالق للامة العربية ومستودع لثقافتها وموضوع عزتها المشترك . وكان الشاعر محمد اقبال بعيد الرؤية عندما عبر بهذه الكلمات قبل مغادرته فلسطين « انني اعتقد ان مستقبل الاسلام متوقف على مستقبل العرب ، ومستقبل العرب متوقف على وحدة العرب ، فاذا تمت وحدتهم ، علا شأن الاسلام » (١٤٠) . وكانت كتلة القوميين العرب داخل المؤتمر الاسلامي ، كما يصفهم دروزة في مذكراته غير المنشورة ، اقوى الجبهات من حيث التفاهم ووحدة الافكار ، وكادوا يكونون الروح الذي سيرته في مناقشاتهم ومقترحاتهم ونشاطهم ، وكان عدد غير قليل منهم من ابناء جمعية الفتاة وعهد فيصل من القوميين العرب يحملون وجهات نظر قومية عربية اكثر منها اسلامية ، فراوا في اجتماعهم فرصة لتجديد العهد والميثاق في سبيل الحركة القومية . وقد تكون القيود التي فرضتها السلطات البريطانية على المؤتمر الاسلامي (١٤١) قد حملت عددا من هؤلاء على اغتنام فرصة انعقاد المؤتمر للدعوة الى عقد مؤتمر عربي قومي في القدس ، فاجتمعوا قبل انتهاء المؤتمر في بيت عوني عبد الهادي ليلة ١٣ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣١ ، وانضم اليهم اخرون من الشباب العرب ورجالاتهم القوميين ، من القدس وفلسطين وخارجها ، ممن شهدوا المؤتمر الاسلامي او كانوا حوله . وبلغ عدد المجتمعين نحو خمسين من مختلف اقطار العرب الاسيوية والافريقية ، وتداولوا في ما صارت اليه البلاد العربية وما تعانيه من تجزئة واحتلال واستعمار وصهيونية ومشاكل اقليمية ، وقرروا وضع الميثاق التالي :

١ - ان البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وكل ما طرأ عليها من انواع التجزئة لا تقره الامة العربية .

٢ - توجه الجهود في كل قطر من الاقطار العربية الى جهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي الى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والاقليمية .

٣ - لما كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الامة العربية وغايتها فان الامة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها . ووضح المؤتمر في الوثيقة العواقب السياسية الوخيمة لانقسام العالم العربي وتشرذمه وقرروا مكافحة

الاستعمار والنضال في سبيل استقلال جميع الاقطار العربية وتوحيدها . وانبثقت لجنة تنفيذية مهمتها نشر الميثاق القومي وتعميمه والاعداد لمؤتمر عام يضم مندوبين من جميع الاقطار العربية للبحث عن الوسائل والخطط اللازمة لتنفيذ الميثاق على مستوى شعبي في البلاد العربية كلها .

وفيا يتعلق بزعامة الحاج فان الهالة الدينية ، التي اخذت تكبر وتكبر حتى تكرست في المؤتمر الاسلامي العام ، بدأت تتراجع لتحل محلها الزعامة السياسية اولا ، واخذت الحركة السياسية في فلسطين بصورة عامة تنهج منهجا مختلفا ، وتتخلى عن ضرورة وجود الزعامة الدينية كعنصر هام من عناصر قيادتها ، ولم تقم الاحزاب السياسية التي ظهرت في فلسطين في الثلاثينات على اساس ديني ، ولم تعد تعتبر ان للمكانة الدينية التي يتمتع بها الحاج الافضلية في الميدان السياسي . ومن هنا اخذت الاحزاب السياسية تخاطبه كرجل سياسي اولا وثانيا (١٤٤) . ولا يعني هذا ان الحاج قد فرط بالهالة الدينية التي تحيط بشخصه او انه بدأ يتجاهل القوة الهائلة للعالم الاسلامي من اجل تعبئته الى جانب قضية فلسطين ، بل ظل يدرك اهمية العامل الديني في خدمة الاهداف السياسية ، ومما يذكر في هذا المجال الحملة التي قادها المفتي ضد بيع الاراضي ، والتي وصلت اوجها عام ١٩٣٤ باصدار الفتاوى الدينية بتكفير البيع والبائع ، والسعي الى استنقاذ الاراضي في فلسطين من خلال تحويلها الى وقف وحظر بيعها (١٤٥) . وظل المجلس الاسلامي الاعلى يشغل مكانة معنوية عالية بين أبناء فلسطين واستمر في ممارسة نفوذه في السياسات الفلسطينية المحلية حتى ابعاد المفتي . وكان تعاظم مكانة المفتي كزعيم له شهرة في العالم الاسلامي هي التي حملت بريطانيا ، وهي تخطط لابعاد المفتي عام ١٩٣٦ عن فلسطين ، الى محاولة التاكيد من الاثار السيئة التي يمكن ان تعقب عملا من هذا النوع ، وذلك بالتشاور مع ممثليها المنتشرين في الهند ومصر والعراق والجزيرة العربية (١٤٦) .

الحواشي :

(١) خدوري ، عبد المجيد ، عرب معاصرون ، ادوار القادة في السياسة بيروت ١٩٧٢ (مترجم) ص ١٥٩ من رسالة المفتي الى المؤلف .

(٢) Lesch Ann Mosely , Arab Politics in Palestine , 1914 - 1939 London, 1949, p. 132

(٣) الفوري ، اميل ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ، ١٩٧٢ جزء (١) ، ص ٢١٥ .

(٤) كان منصب الافتاء قد شفر بوفاة كامل الحسيني اذار / مارس ١٩٢١ . وجرت العادة في العهد العثماني ان يختار عدد من العلماء يمثلون مختلف المقاطعات في البلاد ثلاثة رجال تختار السلطة احدهم لمنصب المفتي وورشع الحاج امين نفسه فكانت تتوفر فيه المؤهلات المطلوبة (وهو شقيق المفتي الراحل) . وعارضت ذلك اسرة النشاشيبي (وهي احدى العائلات المنافسة التي انتقلت اليها رئاسة البلدية بعد الحرب) ، وضمنت ترشيح ثلاثة من اسر اخرى ذات نفوذ . ووفقا لقانون انتخاب الافتاء العثماني والذي طبقته السلطات البريطانية كان يحق لتصرف القدس (والمندوب السامي يعتبر نفسه قد حل محله) ان يختار واحدا من الفائزين الثلاثة لتولي المنصب . ومن اجل الحفاظ على التوازن بين العائلات المنافسة اقنعت السلطات البريطانية احد المرشحين الثلاثة بالانسحاب ليفسح المجال امام الحاج ويصبح المرشح الثالث واختير بعدها مفتيا للقدس . (كان عدد المفتين في فلسطين كلها سبعة الا ان مفتي القدس كان اكثرهم اهمية فقد كان يجري اختياره من بين ثلاثة مرشحين انتقاهم كبار علماء فلسطين ، بالإضافة الى قيامه بدور رئيسي في النشاط الاسلامي والسياسي) .

(٥) في العهد العثماني كانت السلطة التشريعية هي المرجع الرئيسي الذي يصدر عنه التشريع والقوانين في كل ما يختص بالمحاكم الشرعية والادارات الاسلامية ، وبعد الإنتداب أصبح من الضروري إيجاد صيغة اخرى لتنظيم الشؤون الاسلامية وادارتها . وبعد التشاور مع عدد من العلماء والاعيان وموظفي الحكومة ، تم انشاء المجلس الاسلامي الاعلى في اذار / مارس ١٩٢١ للإشراف على الشؤون الشرعية الاسلامية وادارتها من محاكم شرعية وادارات ، وجرت الانتخابات الاولى لاختيار الهيئة العليا للمجلس (رئيس واربعة اعضاء) على طريقة الانتخابات لمجلس النواب العثماني وفاز بالرئاسة في الانتخابات ١٩٢٢ الحاج امين الحسيني . وقد اثارت الانتخابات التنافس بين العائلات ولعبت العصبية المحلية دورها ، ودخل المجلس الاعلى في لعبة التوازن بين قوتين سياسيتين متنافستين اطلق عليهما فيما بعد « المجلسيون والمعارضون » .

نوهض الحوت ، بيان ، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨ بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٢٠٥ - ٢١٠ .

(٦) عقد عرب فلسطين في الفترة بين ١٩١٩ و ١٩٢٨ سبع دورات للمؤتمر العربي الفلسطيني ، ويعد هذا المؤتمر في بلد حرم ابناءؤه العرب ممارسة حق الانتخاب ، مؤسسة وطنية تشبه المجلس النيابي ولها اهدافها الواضحة وبرامجها المحددة . ولم يتم اختيار المندوبين الى دورات هذا المؤتمر وفق قاعدة واحدة بل تم من خلال الجمعيات واهمها « الاسلامية المسيحية » والهيئات الاخرى ، او بعرائض ومضايقات انتخابية تقدمها المؤسسات والمدن والقرى . وراوح عدد المندوبين بين ٢٨ و ١٢٧ مندوبا من مختلف مدن فلسطين واقصيتها . وكانوا من العاملين في الحقل السياسي ومعظمهم من الذين تولوا مناصب عالية او ممن كانوا اعضاء في الجمعيات السياسية في العهد العثماني وعدوا

فيما بعد اعضاء في الجمعيات الوطنية الفلسطينية . وكان هدف المؤتمر وضع الخطوط السياسية لحركة النضال الوطني وبث الدعاية لها في الخارج ، وقد انبثق عن كل مؤتمر لجنة تنفيذية اتفق على ان تكون الناطقة باسم عرب فلسطين وتتولى الاشراف على تنفيذ قرارات المؤتمر وقيادة الحركة الوطنية وتوجيهها . وقد ظل موسى كاظم الحسيني يتولى رئاسة اللجنة التنفيذية حتى وفاته ١٩٢٤ وكان ذلك نهاية لوجود اللجنة نفسها وانتهاء لعهد المؤتمرات العربية الفلسطينية ، وستتولى قيادة الحركة الوطنية فيما بعد اللجنة العربية العليا برئاسة المفتي نفسه ممثلة لجميع الاحزاب الفلسطينية التي برزت في مطلع الثلاثينات .

(٧) القوري ، اميل ، ص ٨١

(٨) الشقري ، احمد ، اربعون عاما في الحياة العربية والدولية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٨ .

(٩) Peters, Rudolph, Islam and Palestinian national movement 1918 — 1940 , a paper submitted at the 8 th congress of the Union Européenne des Arabisants et Islamisants, Amsterdam, p.11.

وفي الثلاثينات شن المسيحيون حملة مماثلة في العالم المسيحي :
كيالي ، عبد الوهاب ، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ - ١٩٢٩ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٩ نداء من مسيحيي فلسطين الى العالم المسيحي لانقاذ الاماكن المقدسة من الخطر الصهيوني .

(١٠) القوري ، اميل ، ص ٢٠٥ . في نهاية ١٩٢٤ بلغت الهبات ١٧.٠٠٠ استرليني ، ووصلت ١٩٥.٠٠٠ استرليني في منتصف ١٩٢٨

Political Report, Sep. 1924 , CO 733 / 74 Chief Secretay dispatch , August 30, 1928 C.O 733/160/57527.

وردت في كتاب : Lesch. p.137

(١١) اوراق اكرم زعيتر ، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٢٩ ، بيروت ١٩٧٩ ، وثيقة ٩٧ « نداءات الوفد الفلسطيني الاسلامي للحجاز الى الامم والدول العربية الاسلامية ١٩٢٢ » .
وقد يكون هذا هو الذي دفع الحكومة البريطانية الى الالحاح على الوفود الفلسطينية التالية التي ذهبت الى الحج ١٩٢٢ و ١٩٢٤ بالامتناع عن اي نشاط سياسي .

Political Report June 1923, CO 733/47

High Commissioner telegram Sept 26 1929 CO 733/44

وردت في كتاب : Lesch P.138

(١٢) ارسلان ، شكيب ، السيد رشيد رضا و اخاه اربعين سنة ، دمشق ١٩٢٧ ، ص ٢٨ .

(١٣) انظر الحاشية (٢٢) عن المؤتمر الاسلامي ١٩٢٦ .

(١٤) ساحة البراق هي المكان الذي تتحدث الروايات الاسلامية انه البقعة التي ربط فيها الرسول الكريم فرسه - البراق - ليلة اسرائه من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وفي جوار هذه البقعة حائط المبكى وهو جزء من جدار المسجد الأقصى . وفي عيد الفطران عند اليهود ايلول/سبتمبر ١٩٢٨ تدفق جموع اليهود على المدينة القديمة في طريقهم الى حائط المبكى في مظاهرة شبه عسكرية وكانت تقاليد اليهود الى ذلك العهد قاصرة على البكاء والدعاء ، ولكنهم في ذلك اليوم تجاوزوا - الستاكو - فنغخوا في الصور ووضعوا الطاولات واقاموا الستائر ورفعوا اصواتهم ، وكانت حركاتهم آية في التحدي والاستفزاز . ولم تكن الطاولات والستائر والابواق ذات أهمية بذاتها ، لولا

ما كان العرب يحسونه من الخطر الصهيوني على المسجد الأقصى والقدس الدينية عامة ، بل على فلسطين بأسرها ، وخاصة تلك التصريحات اليهودية عن إقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . فاهتاجت المشاعر وابتدأ الصدام في القدس القديمة ، فتصدى الشعب بطريقها للمسييرة اليهودية في القدس القديمة ، وتصدى رجال الشرطة للجماهير العربية وسقط القتلى والجرحى بالآلاف ، وعم الاضطراب جميع مدن فلسطين وبلغ اوجه في اب / أغسطس ١٩٢٨ ووقع الاصطدام بين القرى العربية والمستعمرات اليهودية ونشطت السلطات البريطانية في الاعتقالات وعلان الاحكام العرفية واصدار احكام الاعدام وساد البلاد جو مشحون بالقلق والاضطراب. وبعثت الحكومة لجنة تحقيق برلمانية عرفت باسم رئيسها (ولتر شو) تشرين اول اكتوبر ١٩٢٩ لدراسة الاسباب التي ادت الى الاضطرابات ولتقديم التوصيات لمنع تكرارها .

(١٥) بعد تفجر مسألة البراق عقد مؤتمر اسلامي تشرين اول / اكتوبر ١٩٢٨ في القدس حضره سبعة من فلسطين والاقطار المجاورة طالب الحكومة باصدار تصريح عن تعهداتها بحفظ حقوق المسلمين في البراق ، وتمخض المؤتمر عن ولادة « جمعية حراسة الأقصى والامكن المقدسة » وكان للحاج امين ودوائر المجلس الاسلامي دور كبير .

(١٦) في اواخر ايار / مايو ١٩٣٠ وفدت على البلاد لجنة البراق الدولية لدرس الخلافات حول هذا المكان بين العرب واليهود ، وكان ذلك مما اوصت به (لجنة شو) ووضعت كل الطوائف والكفالات بين يدي الحاج امين بوصفه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى . وتناحست الوفود من كل انحاء العالمين العربي والاسلامي للمثول امام اللجنة الدولية للدلاء بشهاداتها وارائها حول ملكية المسلمين لحائط البراق وما حوله . ولم تكن القضية صعبة من الناحية القانونية فقد كانت وثائق المحاكم الشرعية وسجلات الاوقاف كفيلا بان تثبت حق المسلمين . وجاء تقرير اللجنة الدولية فاعلن الملكية للمسلمين واعطى اليهود حق الزيارة في اضييق الحدود .

(١٧) Falastin, Englisf edition. Jun, 28, 1930, p.2

وردت في كتاب : Lesch , pp.139 - 140

(١٨) المنار ، ج ٢ ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٣٢ ، ص ١٢-١٤

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر اخذت تحوم في مختلف ارجاء العالم الاسلامي افكار تبحث في اسباب تخلف البلدان الاسلامية، وطرق مواجهة تحدي الغرب ، وانتشرت الافكار الاصلاحية على يد تلامذة الافغاني تدعو الى الاصلاح بقبول المدنية الجديدة بالقدر الكافي لاستعادة العالم الاسلامي قوته وهيبته مع الحفاظ على الدين الاسلامي والقيم الاسلامية .

حول هذه المواضيع انظر : Hourani , Albert , Arabic thought in Liberal age 1798 — 1939. Oxford University Press, 1970, Chap. V.VI,VII

(٢١) بعد الفاء تركية للخلافة ١٩٢٤ يقول شكيب ارسلان « بادر العقلاء والفكرون من المسلمين الى النظر في هذا الموضوع حتى لا يبقى الاسلام بلا خليفة » وكان هو قد اشار بمعالجة هذه المسألة في مؤتمر اسلامي عام فصادفت هذه الفكرة قبولا في جميع الاندية الاسلامية ، وانعقد مؤتمر الخلافة في مصر ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٦ م. ويضيف ارسلان « وبعد ان تذاكروا مليا في الموضوع لم يجسدوا مملكة اسلامية في هذا الوقت فقد ان تقوم بشروط الخلافة سوى مصر ولكن الاحتلال الانجليزي وعدم تمتع المملكة المصرية بتمام استقلالها يومئذ جعل سبيلا للاعتراض على جعل الخلافة في مصر وكان اكثر المتراضين هم من مسلمي الهند والجاوى » .

- (٢٢) إرسال شكيب ، السيد رشيد رضا وإخاء اربعين عاما ص ٢٥٢
- مؤتمر مكة ١٩٢٦ دعا له الملك عبد العزيز آل سعود بعد استيلائه على مكة وحضرته وفود رسمية وجمعيات اسلامية من عدة بلدان اسلامية ، ولم تبحث فيه مسألة الخلافة . وكانت مسألة النزاع حول العقبة ومعان بين الحجاز وشرق الاردن مثار بحث وكذلك مسألة الخط الحديدي الحجازي واعتبر انه وقف اسلامي . وكان من المقرر ان يجتمع المؤتمر سنويا على ان يمتد نطاقه ليشمل كل القضايا الاسلامية .
- (٢٣) كان عزة دروزة احد الذين واكبوا الحركة السياسية منذ مطلع هذا القرن وخلال سنوات الانتداب كان في خضم الحركة الوطنية في مواجهة خطر الانتداب والصهيونية ولعب دورا محركا في الاحداث دون ضجة او اثار . ومنذ ان تولى امانة سر المؤتمر السوري العام الذي اعلن استقلال سوريا ومملكة فيصل ٨ آذار / مارس ١٩٢٠ سيتولى عزة دروزة امانة سر المؤتمر الاسلامي ١٩٣١ ومؤتمر بلودان ١٩٣٧ .
- (٢٤) بعد ان غادر الثعالبي ارض تونس في ٢٦ تموز / يوليو ١٩٢٢ متجها الى الشرق استقر في فلسطين واستقبلته القدس ابنا بارا بقضية العروبة ، مبشرا مؤمنا بها واستمعت اليه محاضرا واسع المعرفة جذاب الحديث واعتبرته مناضلا منها ولها . وعمل فيها كما كان يعمل في مسقط رأسه لا يفرق بين تونس والقدس بل ربما اولى هذه ما لم يوله تلك لانه يعلم انها مهددة بخطر الفتح من الخطر المحيط بتلك ولانها ثاني القبلتين ترتاح روحه للصلاة في الصلوات .
- الجندي ، سامي ، عبد العزيز الثعالبي - تونس الشهيدة - ترجمة - بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٠ ، من المقدمة . وقد سعى الثعالبي للتوسط بين الاحزاب الفلسطينية المتنافسة ١٩٢٤ للتعجيل بعقد المؤتمر الفلسطيني السابع ووجه دعوة لعقد مؤتمر مصالحة في ١٩٢٤/٦/٢٤ في مدرسة دار الايتام الاسلامية بالقدس وذلك للسعي في كل سبب يفضي الى سوء التفاهم بين عناصر الفكرة الوطنية المكونة للوحدة الفلسطينية .
- خلة - كامل ، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ نقلًا عن الجزيرة (يافا) ١٩٢٤/٢٦ .
- (٢٥) صدقة ، نجيب ، قضية فلسطين ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .
- (٢٦) عقد في القدس على جبل الزيتون نيسان / ابريل ١٩٢٨ المؤتمر التبشيري العالي وكان خاصا بالجمعيات التبشيرية البروتستنتية ورئيس المؤتمر جون موط وغرضه المشاورة في نشر الرسالة المسيحية في جميع انحاء العالم . ونشر تقرير عن المؤتمر في ثمانية مجلدات وكان القسم الخاص بالاسلام والبلاد الاسلامية ضئيلا ، ولم يمثل في المؤتمر أي مندوب عن المسيحيين العرب . وقد اثار المؤتمر موجة من الاستنكار والاحتجاج ، كما قامت المظاهرات والاضطرابات وعقد مؤتمر في يافا قرر على اثره تأسيس جمعيات الشبان المسلمين في فلسطين .
- (٢٧) انعقد المؤتمر الصهيوني السادس عشر في زوريخ تموز - آب / يوليو - اغسطس ١٩٢٩ ونقلت وكالات الانباء خطب زعماء الصهيونيين التي تكشف عن اهدافهم التوسعية والعنوانية ، واعلنت قرارات المؤتمر فاذا بها تدعو الى مزيد من الهجرة اليهودية وشراء الاراضي ودعم المؤسسات العسكرية والمالية وتقوية الوكالة اليهودية .
- (٢٨) Kupferschmidt , Uri , The general Muslim Congress of 1931 in Jerusalem . Asian and African Studies, Haifa, Vol. , 12 , No.1 March 1974 , pp.125,132

(٢٩) تحركت الحكومة البريطانية ١٩٣٠ امام الدراسات العلمية والتحقيقات العادلة بعض الشيء، في تحقيق مطالب العرب فكان الكتاب الابيض تشرين اول / اكتوبر ١٩٣٠ وكان خطوة على الطريق نص على انشاء مجلس تشريعي ووضع قيود على الهجرة وبيع الاراضي ولم تكن هذه كل المطالب الوطنية ولكن كان العرب في حاجة الى وقف « النمو » الصهيوني ، ولكن الصهيونية غضبت واستقال وايزمان من قيادة الحركة احتجاجا وقامت الصهيونية بضغوط عالية انتهت باصدار الحكومة البريطانية في شباط فبراير ١٩٣١ بيانا ايصاحيا تراجعت فيه عن الكتاب الابيض في لهجة كلها اعتذار للحركة الصهيونية ، وجاء البيان في صيغة رسالة الى وايزمان اطلق عليها العرب اسم (الكتاب الاسود) .

(٣٠) انظر الحاشية رقم ١٦ .

(٣١) يذكر Gibb ان القرار الحقيقي لعقد المؤتمر اتخذ بعد يونيو / حزيران ١٩٣١ ومعنى ذلك انه قد ربطه بالتطورات السياسية المذكورة سابقا .

Gibb , H. A. R., The Islamic Congress of Jerusalem in December 1931 , In, Toynbes , Arnold, Survery of International Affairs, 1934 , London , 1935, p.100.

(٣٢) دروزه ، عزة ، مذكرات غير منشورة . ويصف دروزه الثعالبي بقوله : « . . وكان في الحق رجلا ناضجا رصينا واسع الثقافة الاسلامية والعربية والعربية طلق اللسان طويل النفس في الكلام والتقرير بارعا في الالقاء والخطابة يستعمل الكلام الجدل الفصيح النافذ » .

(٣٣) محمد علي وشقيقه شوكت علي زعيمان من زعماء مسلمي الهند السياسيين وهما المؤسسان لجمعية الخلافة هنالك . وكانت الصلة بين مسلمي الهند وفلسطين قديمة فقد بعث الحاج امين الحسيني باول وفد فلسطيني الى الهند ١٩٢٢ للاتصال بقادتها لنصرة القضية ولجمع الاموال لاصلاح الحرم الشريف . كما اجتمع الحاج مع الاخوة علي في مكة خلال الحج ١٩٢٤ ومؤتمر مكة ١٩٢٦ كما جرت مراسلات بين الحاج والاخوان علي ، تطلب رفع المسلمين في الهند احتجاجات ضد الخطط اليهودية على الاماكن المقدسة ، ولاقت احداث ١٩٢٩ صداها في الهند وظهر مسلمو الهند تضامنهم مع عرب فلسطين . وشارك وفد هندي في الثول امام اللجنة التولية للبراق ، وكان محمد علي احد المتحدثين باسم الجانب الاسلامي امام اللجنة .

FO 371/16001, CO 733/173- (67314) CO 733/179 - (77013) .

وردت في مقال : Kupferschmidt , p.129.

وقد نقل جثمان محمد علي بعد وفاته ١٩٣١ (وكان يحضر مؤتمر المائدة المستديرة الخاص بمشكلة الهند) نقل الى القدس بدعوة من الحاج امين الحسيني ، ودفن في حجرة من الحجر التابعة للمسجد الأقصى الذي كان يدافع عنه .

النار ج ٧ ، م ٣١ ، ١٨ فبراير ١٩٣١ ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .

وتذكر بعض المصادر ان شوكت علي هو اول من طرح فكرة عقد مؤتمر في القدس للبحث في الشؤون الاسلامية التي تهم المسلمين وافصى بالفكرة الى الحاج امين لما قام بنقل جثمان شقيقه لدفنها في الحرم بعد ان رأى الخطر المحيى بالاماكن المقدسة في فلسطين .

الهلل جزء ٢ ، مجلد ٤٠ اول يناير ١٩٣٢ ص ٢٤٩ .

(٣٤) كان العلامة الشيخ رشيد رضا احد هؤلاء الذين استمزع الحاج امين رايبهم بعقد المؤتمر . وقد نشر رضا على صفحات النار ج ٢ م ٣٢ فبراير ١٩٣٢ نص الدعوة الخاصة التي كان قد تلقاها من

المفتي والتي تفيد بفرض المؤتمر وهو البحث في القضايا الاسلامية العامة التي تتعلق بفلسطين على الخصوص بعد ان بات من الضروري الاستعانة برأي العالم الاسلامي في تقرير الخطة التي ينبغي اتخاذها ، ويطلب المفتي من صاحب المنار عناوين ارباب الكائنة والزعماء والفكر والقيادة من المسلمين في جميع الاقطار ليعت لهم بالدعوة . وتعود صلة الحاج امين برشيد رضا الى ما قبل الحرب العالمية الاولى حين كان يتردد على منزله خلال اقامته في القاهرة لتلقي العلم كما كان يتردد على دار الدعوة والارشاد التي اسسها رضا قبل الحرب .

(٢٥) كان في اللجنة التحضيرية عشرون عضوا جميعهم فلسطينيون عدا الثعالبي وكان الحاج امين وامين التميمي هما العضوان الوحيدان من المجلس الاسلامي الاعلى .

(٢٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ نقلا عن اوراق نبيه العظيمة الخاصة (المحفوظة في مؤسسة

الدراسات الفلسطينية بيروت) . وايضا المنار ، ج٢ ، مجلد ٢٢ فبراير ١٩٢٢ ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢٧) كان شوكت علي قد اكد ذلك في حديث خاص مع السلطات البريطانية في لندن ٢٩ سبتمبر/

ايلول ١٩٢١ لضمان موافقة تلك السلطات على عقد المؤتمر .

F.O 371/15282

Kupferschmidt, p.135 وردت في مقال :

(٢٨) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٢٩) الفوري ، اميل ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٤٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٢٤ نقلا عن اوراق نبيه العظيمة الخاصة ويشير رشيد رضا في المنار

ج٢ ، مجلد ٢٢ ، فبراير ١٩٢٢ ص ١٢٠ انه « كان قد ذاع وشاع ان (مولانا شوكت علي) احد

مؤسسي جمعية الخلافة في الهند لترويج سياسة الخلافة العثمانية التركية هو الذي اقترح على

السيد محمد امين الحسيني عقد هذا المؤتمر وان اهم غرض فيه مبايعة عبد المجيد اخر سلاطين

الترك بالخلافة » .

(٤١) الفوري ، اميل ، ص ٢٠٥ .

(٤٢) المصدر نفسه ص ٢٠٦ .

(٤٣) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) المنار ج٢ ، ٢٢م فبراير ١٩٢٢ ، ص ١٢١ . ويبدو ان هناك تخوف اخر بالاضافة الى مسالتي

الخلافة والازهر ، وهو امكانية حضور خديوي مصر السابق عباس حلمي المؤتمر للحصول على دعم

لطالبته بعرش سوريا .

F.O 371/15282

Kupferschmidt, p.127 وردت في مقال :

(٤٦) المنار ج (٢) ، ٢٢م ، فبراير ١٩٢٢ ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤٨) وصل المفتي الى القاهرة فزاره اركان حزب الوفد المعارض برئاسة مصطفى النحاس مؤيدين ثم

كانت مقابلة الحاج مع رئيس الوزراء مقنعة للجميع ، واثار المقابلة ارسل الاول للثاني رسالة

خاصة اكد فيها على ان الابحاث في المؤتمر ستكون بعيدة كل البعد عن ان تمس الشؤون المصرية

البحثية من سياسية وقومية ، او ان يتعرض للازهر الشريف ووضح ان الجامعة في القدس يقصد

منها خدمة مسلمي فلسطين ، ثم نفى الاشاعات حول البحث في الخلافة .

النار جزء ٢ ، ٢٢م فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢٦ - ١٢٧

FO 371/15284

(٤٩)

وردت في مقال : Kupferschmidt, p.136

(٥٠) غنيم ، عادل ، المؤتمر الاسلامي العام ١٩٢١ ، شؤون فلسطينية ، سبتمبر / ايلول ١٩٧٥ ، ص ١٢١ .
نقلا عن Jewish Chronicle 11.12.1931 ويشير المقال الى ان بعض الاتراك الكماليين قد
حضروا المؤتمر مثل رضا توفيق الفيلسوف التركي والوزير السابق ، بينما منع من حضور المؤتمر
الشيخ مصطفى صبري شيخ الاسلام السابق وكان في اليونان (نقلا عن الاهرام ١٢/١٢/١٩٢١)
وكان العلم التركي مرفوعا مع اعلام البلاد المشتركة في المؤتمر لكنه سحب من القاعة بعد تدخل
قنصلية تركيا في القدس (نقلا عن وادي النيل ١١/١٢/١٩٢١) .

F O 371/15282

(٥١)

Kupferschmidt, p.137

وردت في مقال

(٥٢) الاحتجاجات الإيطالية على الحملة الصحافية المعادية لإيطاليا في فلسطين في الوثيقة رقم :
FO 371/15334

وردت في المقال السابق ص ١٢٧

FO 371/15282

FO 371/15283

(٥٣)

وردت في المقال السابق ص ١٢٨

FO 371/15282

(٥٤)

وردت في المقال السابق ص ١٢٨

وقد كرر في نفس الاجتماع التأكيد على رفض السماح للخليفة السابق عبد المجيد بالدخول الى
القدس قادما من مقر اقامته في نيس .

(٥٥) غنيم ، عادل ، ص ١٢٦ نقلا عن الشعب (القاهرة) ١٩٢١/١١/٢٠ (بيان اللجنة التحضيرية في
المؤتمر) . ووفقا للوثائق البريطانية التقى المندوب السامي (واكهوب) بالفتي فاكد الاخير على
عدم بحث الامور السياسية المتعلقة بموضوع الخلافة او السياسة الإيطالية في طرابلس او
الاعتداءات اليهودية على الاماكن المقدسة . وأشار واكهوب الى ان منع المؤتمر لم يوضع في
الحسبان وان وزارة المستعمرات قد قبلت بنصيحته . مع ذلك فقد ظل واكهوب متيقظا واستدعى
الفتي ثانيا بعد ان تلقى بيانا حول جدول اعمال المؤتمر وجدد الفتى تأكيداته السابقة .

FO 371/ 15283

Kupferschmidt, p.139

وردت في مقال :

(٥٦) دروزة ، عزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، صيدا ١٩٥١ ، الجزء الثالث ، ص ٧٧ .

(٥٧) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديثة ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٦٧ .

(٥٨) يشرح رشيد رضا في النار جزء ٢ ، ٢٢م ، فبراير ١٩٢٢ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ خلفية التناحسات
العائلية بين اسر القدس الوجيهة . قال الحسيني توارثوا منصب الافتاء في حين توارث آل الخالدي
اعمال القضاء والمحاكم الشرعية . وبعد انشاء المجلس الاسلامي الاعلى ، ورئيسه مفتي القدس من
آل الحسيني ، صارت المحاكم الشرعية تابعة لرياسته فكان هذا سببا لقوة التنافس بين الاسرتين .
ووجد راجب النشاشيبي ، رئيس البلدية وعميد آل النشاشيبي ، (وهي ايضا من الاسر
الوجيهة) ، في علو وجاهة المفتي ما اقتضى الاتفاق بينه وبين آل الخالدي على معارضة الحسيني ،
ولكل من الفريقين انصار فانصار الحسيني يسمون المجلسيين والآخرين يسمون المعارضين ولكل
منهما جرائد تدافع عنهم وتعلن بالآخرين ، « وعقلاء البلاد الفضلاء يخشون عاقبة هذا

- الشقاق ويمقتون جميع مظاهره ولا يهتدون الى ازالته سبيلا .
- (٥٩) النار ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٦٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢١٤ .
- (٦١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .
- (٦٢) المصدر نفسه .
- (٦٣) النار ، جزء ٢ ، م ٣٢ ، فبراير ١٩٢٢ ، ص ١٢٨ .
- (٦٤) تشير الهلال في جزء ٢ ، م ٤٠ اول يناير ١٩٢٢ ، ص ٢٥١ الى ان فشل شوكت علي في سعيه للتوفيق ثم عطفه على المعارضة ، كان سببا في فتور العلاقات بينه وبين الفريق الاخر . وقد ظهر هذا الفتور في اول ايام المؤتمر ثم لم يلبث ان تجلى بعد ذلك .
- (٦٥) الفوري ، اميل . ص ٢٠٦ . يقول الفوري ان عقد هذا المؤتمر كان بايعاز انكليزي ولايستبعد دروزة في مذكراته غير المنشورة ان يكون اليهود قد بذلوا اموالا طائلة عن طريق فخري النشاشيبي وكان لولب الحركة المعارضة والاشد نشاطا للقيام بهذه الحركة التشويبية ضد الحاج وضد المؤتمر ويبدى دروزة اسفه لعمل المعارضين وقد عقد مؤتمر المعارضة في فندق الملك داود .
- (٦٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٤ .
- (٦٧) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة .
- ونقلا عن اعداد جريدة الجامعة العربية (القدس) ١٩٢١/١١/٢٥ كما وردت في كتاب نويهض الحوت ، بيان ، ص ٨٧٢ فان الافطار العربية والاسلامية التي قدمت منها الوفود هي : مصر ، سورية ولبنان ، الاردن ، العراق ، تونس ، مراکش ، السعودية ، اليمن ، عدن ، الجزائر ، القفقاس ، كاشغر ، جاوه ، سيلان ، نيجيريا وافريقيا الوسطى ، ايران ، الاورال ، البوسنة والهرسك ، يوغوسلافيا ، البانيا ، الهند ، كامبالا واوغندا ، اميركا الشمالية والجنوبية .
- (٦٨) كانت الدعوة قد وجهت الى بعض ملوك المسلمين وامراتهم ولكن امام اليمن كان الوحيد من رؤساء الدول العربية الذي رحب رسميا بالدعوة الى المؤتمر فبيل انعقاده ، ولم يكتف بارسال مندوب بل ارسل مقدار طن من بن الملكة اكراما لاعضاء المؤتمر . غنيم ، عادل ، ص ١٢١ نقلا عن المقطم ٢٤/١٠/١٩٢١ والبلاغ (القاهرة ٢٠/١٠/١٩٢١) .
- (٦٩) كان الملك عبد العزيز آل سعود قد عين مثله كامل القصاب بعد ايام من بدء المؤتمر . غنيم ، عادل ص ١٢١ نقلا عن وادي النيل ١١/١٢/١٩٢١ .
- (٧٠) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٨٧١ جدول باسماء اعضاء المؤتمر نقلا عن اوراق نبيه العظيمة الخاصة (مؤسسة الدراسات الفلسطينية) .
- (٧١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .
- (٧٢) تذكر الهلال في ج ٢ ، مجلد ٤٠ اول يناير ١٩٢٢ ص ٢٥١ ان من بين اعضاء المؤتمر عياض اسحاق بك مندوب مسلمي اورال في روسيا وقد وافى مندوب الهلال بالشيم الكثير عن مسلمي روسيا وما يلقونه من اضطهاد البلاشفة ومناواتهم لهم . واخبره انه يعيش في بولندا لان البلاشفة حكموا عليه بالاعدام لانتصاره لدينه واحتجاجه على محاربتهم للاديان اذ انهم يحاربونها كلها على السواء .
- (٧٣) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة ، ورشيد رضا في النار ج ٢ ، م ٢٢ مارس ١٩٢٢ ص ١٩٥ يقول دروزة ان ليلة الافتتاح كانت ٢٧ رجب بينما يقول رضا انها ٢٦ رجب .

- (٧٤) المنار ، العدد السابق .
- (٧٥) يروي رشيد رضا - العدد السابق ص ١٩٦ - انه سعى في كلمته الى « تقريب وقوع منقبة الاسراء الى العقول بما اجمع عليه العلماء والفلاسفة الروحانيون » ، كما ذكر من حكمته تسمية هذا المكان الشريف بالمسجد الأقصى بعد خراب ما بناه سليمان عليه السلام ومحو اثره هو ان الله تعالى شرفه بجعله معبدا للمسلمين الى آخر الزمان ، وجعله في المرتبة الثالثة بعد المسجد الحرام ومسجد الرسول ، وارجب على المسلمين صيافته وحفظه الى آخر الزمان ولهذا اختير افتتاح هذا المؤتمر الاسلامي العام فيه واقامته بجواره .
- (٧٦) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٥ نقلا عن الجامعة العربية (القدس) ١٩٣١/١٢/١٦ .
- (٧٧) غنيم ، عادل ، نقلا عن البلاغ ١٩٣١/١٢/٨ . وكان من الخطباء عبد الرحمن عزام الذي ابلغ تحيات رئيس حزب الوفد المصري (مصطفى النحاس) ورجال الوفد وتضامنهم مع اعضاء المؤتمر ومقاصده ، ويقول دروزة في مذكراته غير المنشورة انه بعد خطاب عزام « قام صاحب الكشكول (القاهرة) بالهتاف للملك فؤاد فكانت مفاجأة وخرج حتى خشي من ذلك على مصير المؤتمر لولا ان استجار صاحب الكشكول بالفتي وانتهت الحفلة بسلام ، وكان الرأي العام العربي متعاطفا بقوة على الملك ورئيس وزرائه اسماعيل صدقي » .
- (٧٨) البلاغ (القاهرة) ١٠ كانون اول / ديسمبر ١٩٣١ .
- (٧٩) الجندي ، انور ، عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الاسلامية ١٨٧٩ - ١٩٤٤ بيروت ١٩٨٤ ص ٢٢ ، ٥٨ - ٦٤ . ويذكر المؤلف ان الثعالبي كان قد بعث اليه بعد وصوله الى القدس ابان الاعداد للمؤتمر بطاقة مفتوحة رسمت على احد وجهيها صورة البحر الميت وفي سفافها يهودي يستحم فيها وعلى رأسه مظلة تقيه حرارة الشمس ويده كتاب يقرأه ، وديع الثعالبي في الوجه الثاني « كلمات حارة تصف غيرته وحفاظه على الوطن العربي وعدائه للاستعمار والصهيونية ، وتندلق اسى وحسرة على ان انشب الاستعمار والصهيونية مخالبيهما في هذه البقعة الطيبة المباركة المقدسة من وطننا العربي ، وان كانت فلسطين مراحا وسراحا لليهود يوشك ان يقيموا فيها دولتهم ان لم ينهض العرب والمسلمون لطردهم قبل استفحال امرهم فيها . » ويضيف المؤلف انه قد اجتمع بالثعالبي ابان المؤتمر « ونحن نجاهد هذين العدوين : الاستعمار والصهيونية » . المصدر السابق ، ص ١١٤ .
- (٨٠) المنار جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٣٢ ص ١٩٥ . ويقول رضا انه من اجل التمهيد لراحة اعضاء المؤتمر والاقتصاد في نفقاتهم اتفق المجلس الاسلامي مع اصحاب الفنادق على اسقاط قدر غير قليل من النفقة المعتادة عنهم ، واتفق مع اصحاب سيارات الركاب على نقلهم من الفنادق الى المؤتمر ومنه اليها او الى حيث شغلوا على حساب المجلس ، « بل احتمل المجلس جميع نفقة الفنادق عن بعضهم » .
- كما يذكر رضا في المنار ج ٣ ، م ٣٢ ، ص ١٢٢ . ان اعضاء المؤتمر قد دعوا الى مآدب تكريم في القدس نفسها وفي يافا وفي ضواحيها « فكانت السيارات تجري بهم ارسالا وكان اهل القرى والزارع في طريقهم يجتمعون لتحياتهم والهتاف لهم » . قد نشرت صورة لاعضاء المؤتمر خلال الوليمة على الطريقة العربية في اريحا (الشونة) في مجلة الهلال الجزء ٢ ، م ٤٠ ، اول يناير ١٩٣٢ .
- (٨١) علقت صورة جمال الدين الافغاني في القاعة الرئيسة للمؤتمر وقد اقترح تقديم نسخة من الصورة لكل عضو (مقررات المؤتمر الاسلامي في دورته الاولى القدس ص ٢٢) .
- (٨٢) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة . تم الاتفاق بالترشيح والموافقة على ان يكون الحاج رئيسا

للمؤتمر ومحمد علي علوية وفضياء الدين الطباطبائي ومحمد اقبال ومحمد زبارة (مندوب امام اليمن) وعسرت دروزة ورؤوف مندوب سيلان وابراهيم الواعظ (العراق) والشيخ عبد القادر المظفر امعاء للسر واحمد حلمي عبد الباقي امينا للمال والشيخ محمود الدجاني مساعدا لامين المال وشكري القوتلي ورياض الصلح مراقبين . ويشرح دروزة كيف ان النشاط الاقوى كان له لان الكتب جعل الشيخ المظفر مختصا بالطلاقة بينه وبين الناس وابراهيم الواعظ مختصا بحفظ الملفات وكان رسم رؤوف السيلاني شكليا لانه لا يحسن العربية ويضيف « فكننت انا يد الرئيس ولسانه والمشارك الاول في صياغة القرارات وتاليها وشارعها ومقررها » .

(٨٣) المنار ، جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٢٢ ص ١٩٨ .

(٨٤) المصدر السابق ص ١٩٧ .

(٨٤) المصدر السابق، ويقول رضا « وقد دخل زهاء نصف الاعضاء في لجنة تنقيح القانون الاساسي للمؤتمر فكان اكثر الكلام في جلساتها لقوا جدلا باطلا » .

(٨٦) كان من بين الذين بعثوا برسائل الى المؤتمر : الملك فيصل ملك العراق ، عباسي حلمي خديوي مصر السابق ، احمد حلمي الصباح امير الكويت ، سلطان لحج ، مصطفى النحاس ، احمد شفيق باشا ، وزير خارجية ايران ، حمد الباسل ، عبد الوهاب عزام ، الامير عمر طوسون ، الامير شكيب ارسلان ، اهالي سومطرة ، الطلبة المراكشيين في باريس ، مسلمو بولونيا وهنلندا . غنيم ، عادل ، ص ١٢٧ نقلا عن البلاغ ١٩٢١/٢/٨ ، السياسة ١٩٢١/١٢/٩ وادي النيل ١٩٢١/١٢/١١ . وكان من بين الرسائل الهامة التي تلقاها المؤتمر تلك التي وردت من مسجونين ثورة ١٩٢٩ من العرب الفلسطينيين جاء فيها « من اعماق السجون ، التي يسيطر فيها قوة المستعمر الفاشم ، يرتفع صوت مرحبا بكم ايها المؤتمرون الاباء » . المصدر نفسه ، نقلا عن مصر ١٩٢٢/١/١٩ .

(٨٧) الفوري ، اميل ، ص ١٤٦ .

(٨٨) نويهض الخوت ، بيان ، ص ٢٤٦ .

(٨٩) وكان قد عقد في يافا في تلك الفترة المؤتمر العربي الارثوذكسي الثاني للاشراف على انتخاب بطريرك عربي للطائفة الارثوذكسية خلفا للبطريرك اليوناني الذي توفي . صدقة ، نجيب ، ص ١٦٠ .

(٩٠) المنار جزء ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٢٢ ص ١٩٩ .

(٩١) كان الامير سعيد الجزائري (حفيد عبد القادر ويعيش في دمشق) يتولى رئاسة جمعية الدفاع عن سكة الحديد الحجازية الاسلامية ووزع على المؤتمرين كراسة تاريخية سرد فيها تاريخ هذه السكة وجميع التطورات التي طرأت عليها . الهلال ، ج ٢ ، م ٤٠ اول يناير ١٩٢٢ ص ٢٥٠ .

(٩٢) كان من بين المواد منشورا من بعض اهل مكة معاديا للملك عبد العزيز آل سعود .

FO 371/16009

Kupferschmidt, p.142

وردت في مقال

(٩٣) المنار ج ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٢٢ ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٩٤) كان مع رضا في اللجنة رضا توفيق (وزير المعارف في الدولة العثمانية) ومحمد عبد الرسول كاشف الغطاء (من علماء النجف الشرعيين) والشيخ محمد عبد اللطيف دراز (من علماء الازهر) وحسن ابو السعود (قاضي الرملة) واسعاف التشاشيبي (من ابناء فلسطين) .

(٩٥) يقول رضا في المنار ، ج ٣ ، م ٣٢ ، مارس ١٩٢٢ ص ٢٠١ انه سجل نفسه في لجنة تانيه في لجنة القانون الاساسي لاجل حضور بعض مواده واهمها عنده المادة الثالثة التي موضوعها تاليف

المؤتمر وقد قاوم فيها رأي الزعيم شوكت علي جعل المؤتمر (شعوبيا) كما اقترح في مؤتمر مكة « وتقرر فكان الفعل الاسباب في قتل ذلك المؤتمر واقترح مثل هذا في مؤتمر القدس ففند اقتراحه فلم يقبل » .

(٩٦) المنار ، ج ٤ ، م ٣٢ ، ابريل ١٩٢٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٧ .

(٩٧) اثار التقرير بعض الجدل بين اعضاء المؤتمر واتهم البعض رشيد رضا بان التقرير وضع لتأييد مذهب الوهابية ، واقتتح رشيد رضا دفاعه عن التقرير بالاشارة الى ما يعرفه اكثر اعضاء المؤتمر وغيرهم «من جهادي مدة ثلث قرن ونيف في سبيل جمع كلمة المسلمين على طريقة استاذي العصر وحكيمه السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ويشهد لي بذلك اكثر من ثلاثين مجلدا من مجلة المنار » . المنار ، المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .

(٩٩) كانت جمعية الشبان المسلمين قد تأسست في القاهرة على يد مجموعة من الرجال المتدينين ، وركزت على الامور الدينية والاجتماعية وحاولت ان تبتعد عن النشاط السياسي ، وقد جاء في نظام الجمعية ان اهدافها : نشر القيم الاسلامية الدينية والخلفية . السعي لتكوين الشباب بالمعرفة وبطريقة تتلاءم مع روح العصر ، مقاومة العادات الشاذة والفاسدة التي يمكن ان توجد في الاحزاب والجماعات ، اخذ كل ما هو مفيد من حضارات الشرق والغرب ونبذ كل ما هو ضار . وانشأ الاعضاء ناديا تلقى المحاضرات فيه حول موضوعات ثقافية واجتماعية وتجرى فيه مختلف انواع الرياضة والالعاب والموسيقى ، واصدرت الجمعية ١٩٢٩ مجلة تبشر برسالتها وافتتحت فروعا لها في فلسطين وسورية والعراق ولكن الجمعية المصرية المركزية وصحيفتها ذات الانتشار الواسع هي التي ارست التعاليم الاساسية للجمعية . وفي ١٩٣٠ عقدت الجمعية مؤتمرا في القاهرة رسم خطوط نشاطها في المستقبل ، وكان اول رئيس للجمعية عبد الحميد سعيد عضو البرلمان والعضو النشط في الحزب الوطني .

Khadduri, Majid Political Trends in the Arab world, Johns Hopkins Press U. S. A. 1970, pp. 71 - 73 .

ويذكر الشقيري ان فكرة الجمعيات قد رافت لبعض الشباب في فلسطين بعد ان قام عبد الحميد سعيد بجولة في معظم مدن فلسطين داعيا الى تأسيس هذه الجمعيات شارحا اهدافها ومبادئها وكان من الحوافز على ذلك قيام جمعيات الشبان المسيحية في فلسطين وهي تحت رعاية السلطة . وقد قرر مؤتمر يافا تأسيس الجمعيات في كل انحاء البلاد « وحرصنا ان تظل الجبهة الوطنية في فلسطين الاسلامية المسيحية قوية متماسكة وبت مفهومها لدى الاوساط المسيحية ان تاليف الجمعيات هو قوة جديدة للحركة الوطنية وليس انفصاما للجنة القومية » .

(١٠٠) الشقيري ، احمد ، اربعون عاما في الحياة العربية والدولية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١٠ - ١١١ . مجلة - الشبان المسلمون - جزء ٤ سنة ثالثة ، يناير ١٩٢٢ ، ص ٢٣٦ - ٢٤٤ « كلمة جمعية الشبان المسلمين الى المؤتمر الاسلامي العام في بيت المقدس » .

(١٠١) يذكر رشيد رضا في المنار ج ٧ ، م ٢١ ، ص ٥٥٨ ، انه منذ الفترة التي سبقت عقد المؤتمر اتفق الحاج أمين مع شوكت علي السعي في العالم الاسلامي لانشاء مدرسة عربية اسلامية جامعة في القدس الشريف لتقوية الاسلام والعرب فيها تجاه الخطر الصهيوني والمدارس اليهودية في فلسطين .

(١٠٢) الهلال ، ج ٢ ، م ٤٠ ، اول يناير ١٩٢٢ ، ص ٢٥٠ .

(١٠٣) المصدر نفسه .

- (١.٤) كان كاشف الفطاء قد تعرض في خطابه الى الوحدة الاسلامية وطريقة نموها وقرر المؤتمر طبع خطبه وتوزيعها بكل اللغات ، وقد نشرتها اللجنة التنفيذية للمؤتمر ١٩٢٢ . غنيم ، عادل ، ص ١٢٩ .
- (١.٥) ارسلان ، شكيب ، تطبيق على حاضر العالم الاسلامي جزء ١ القاهرة ١٩٢٥ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
- (١.٦) اثرت مشكلة لغة التدريس في الجامعة المقبلة ففي حين طالب شوكت علي ان يكون التدريس بكل اللغات الاسلامية ، عارضه الثعالبي وكثيرون والخوا ان تكون العربية هي لغة التعليم نظرا لان على كل مسلم ان يكون قادرا على التحدث بهذه اللغة . وارضاء لشوكت علي فقد قبل اقتراحه بتخصيص قسم خاص في الجامعة المقبلة لتعليم العربية للطلاب الذين ليس لديهم المام كامل باللغة على ان تقوم مدرسة روضة المعارف في القدس بدور هام في هذا البرنامج التعليمي، ولكن لغة القرآن هي اللغة الوحيدة الرسمية للجامعة . Gibb, p.106
- (١.٧) اشار الى ذلك دروزة ، عزة ، في مذكراته غير المنشورة وفي كتابه حول الحركة العربية ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٨٧ .
- (١.٨) اعداد الجامعة العربية (القدس) من ١٢-١٦ ديسمبر / كانون اول ١٩٢١ وشارك في لجنة الاماكن المقدسة عدد كبير من الفلسطينيين منهم امين عبد الهادي ، حسن ابو السعود ، عزة دروزة وجمال الحسيني .
- (١.٩) غنيم ، عادل ص ١٢٧ ، نقلا عن الجهاد (القاهرة) ١٢/١٢/١٩٢١ .
- (١١٠) اشار رضا في رسالة بعث بها من القدس اثناء انعقاد المؤتمر الى شكيب ارسلان في جنيف ، الى ان شوكت علي قد اتهمه بان من انصار الانكليز الفلاة في المسالة الهندية وغيرها وانه يحاول في المؤتمر منع التشجيع عليهم وعلى الفرنسيين والاطليان المستعمرين وظهر منه هذا في المؤتمر فتعامل عليه الوطنيون بعض التحامل وفندوا بعض ارائه واقتراحاته .
- ارسلان ، شكيب ، رشيد رضا واخاه اربعين عاما ، ص ٥٦٤ .
- (١١١) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .
- (١١٢) غنيم ، عادل ، ص ١٢٧ نقلا عن المقطم ١٧/١٢/١٩٢١
- (١١٣) غادر عزام القدس في حراسة بريطانية الى مدينة غزة ١٧ ديسمبر / كانون اول وترك هذا الابعاد اثرا سينا في نفوس اهل فلسطين واعضاء المؤتمر واقامت مظاهرات في بعض مدن فلسطين تحتج على هذا التصرف .
- غنيم ، عادل ، ص ١٢٨ نقلا عن البلاغ ١٨/١٢/١٩٢١
- (١١٤) دروزة ، عزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .
- (١١٥) غنيم ، عادل ، ص ١٢٨ - ١٢٩ نقلا عن مقررات المؤتمر الاسلامي .
- (١١٦) كان هناك تجاوب شعبي كبير للمشروع تجلّى بسيل البرقيات والتبرعات التي بعث بها اهل فلسطين الى المؤتمر . الجامعة العربية . ١٥٩١ ديسمبر/كانون اول ١٩٢١ . وكانت القرارات التي تبناها المؤتمر حول الجامعة تنص على ان تكون دينية وعلمانية في منهجها وان تقدم التعليم الثانوي والعالي معا للوقوف بوجه المدارس الثانوية غير الاسلامية ، كما تقرر ان ينفذ المشروع على مرحلتين تبدا المرحلة الاولى بجمع المال اللازم ، وبعد ذلك يتقرر بالتشاور مع مجموعة من الخبراء امور تنظيمها من وجهة النظر التعليمية .
- (١١٧) هو مشروع مصري تقرر ان يعد في مصر باشراف محمد علي علوية ، وتعود فكرة المشروع الى عام ١٩٢٨ ، واعيد احياءه في المؤتمر الاسلامي . الجامعة العربية ١٢/١٢/١٩٢١ .
- (١١٨) لم تكن الفكرة جديدة الا ان القرار كان وراء الحملة التي سيتولاها المفتي ضد بيع الاراضي في

السنوات التالية . وقد لاقى مشروع انشاء الشركة دعما مغنويا بالفا .

الجامعة العربية ، ١٩٢١/١٢/١٧ .

(١١٩) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٢٠) المصدر نفسه .

(١٢١) نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، حول قرارات المؤتمر .

(١٢٢) المصدر نفسه .

(١٢٣) المصدر نفسه .

(١٢٤) المصدر نفسه .

(١٢٥) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٢٦) المصدر نفسه . كان من بين اعضاء اللجنة المفتي ، الطباطبائي ، محمد علي علوبة ، رشيد رضا ،

شكري القوتلي ، سعيد ثابت ، الثعالبي ، بشير السعداوي ، محمد المكي الناصري ، شوكت علي ،

سعيد شامل ، عياض اسحاق ، محمد زيارة ومنتدوبان عن فلسطين هما توفيق حماد وعوني عبد

الهادي . المصدر السابق .

(١٢٧) المصدر نفسه .

(١٢٨) نويهض ، الحوت ، بيان ، ص ٨٧٤ ، نقلا عن الجامعة العربية ١٧ كانون اول ديسمبر ١٩٢١ .

(١٢٩) دروزة ، عزة . مذكرات غير منشورة .

(١٣٠) المصدر السابق ، ويقول دروزة انه كان من جملة نظام الجباية والتبرع بطاقات مطبوعة بخمسين

ملا وقد وزعت مجلداتها في فلسطين في بدء الامر ، وبلغ المجموع منها في الشهر الاول نحو الف

جنيه ، واهتم الحاج امين بتشجيع المشروع واستعان عليه بموظفي الاوقاف والوعاظ والقضاة

والائمة والمدرسين والخطباء .

(١٣١) لم يقاوم الانتداب وحده نفوذ الحاج امين في العالم الاسلامي فالدوائر الصهيونية احتجت على ذلك

النفوذ وقاومته بشدة ، وعبر الكاتب الصهيوني (امار بن ابي) في مقال له نشرته جريدة

(دوار هايوم) ١٩٢١/١/١٢ عن حقه الشديد على النفوذ العالي للحاج امين ، ودعا الى انشاء

مجمع ديني يهودي كبير في القدس يتألف من كبار حاخامي اليهود ، وهو ما يسمى بالعبرية

(سنهدين) اي الكنيس الاكبر ويرمي بن ابي من وراء السنهدين الى اقامة مؤسسة دينية يهودية

عالمية في فلسطين تقف في وجه المجلس الاسلامي الاعلى . نويهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٨ .

(١٣٢) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ص ٢٦٨ . وقد وجه رشيد رضا نقدا للمؤتمر

للطريقة التي اختارها لانتخاب اللجنة التنفيذية اذ انتخبت ٢٥ عضوا من اقطار بعيدة عن المركز

(القدس) . واجتمع هؤلاء الاعضاء مرة واحدة في مساء اليوم الذي انتخبوا فيه وانتخبوا بصفة

اعضاء لادارة مكتب اللجنة من المقيمين في فلسطين وسورية ومصر ، ومضى على ذلك بضعة اشهر

ولم يجتمعوا ولم يتيسر للطباطبائي السكرتير العام (ومقامه في اوربة) العودة الى القدس الا بعد

تلك المدة واكتفى في ادارة اعمال المكتب بمن يوجد في القدس من اعضاء . المنار ج ٧ ، ص ٢٢ ، يوليو

١٩٢٢ ، ص ٢٥٥-٥٥٦ .

(١٣٣) كان رأي رشيد رضا ان لا يسرع المكتب الان في جمع المال لانشاء المدرسة الجامعة بل يجب اولا

ان يضي بوضع النظام والرسم الهندسي لبنائها ، وتقدير النفقات الدقيقة لها ثم يضع النظام

لجمع المال من جميع الاقطار الاسلامية التي يعلم ان لاهلها من الحرية مايمكنهم من البذل لمصلحة

الاسلام العامة . وقد لاحظ رشيد رضا ان لجنة الجامعة قد وافقت على البدء بثلاثة فروع من كلياتها : وهي الشرعية والصناعية والطبية واهملت الدعوة والارشاد والتي هي اهمها بنظره ، وجل مباحث المؤتمر كانت تدور حولها . المنار ، العدد السابق ص ٥٥٦-٥٥٧ .

(١٣٤) نوبهض الحوت ، بيان ص ٢٤٦

(١٣٥) ابو بصير ، صالح مسعود، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٦١ .

(١٣٦) المصدر نفسه .

(١٣٧) Lesch, P.104

(١٣٨) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة ، وكانت المنار قد تلقت من مكتب المؤتمر نداء الى مهندسي المسلمين بشأن جامعة المسجد الأقصى لوضع الخرائط والتصميمات وفق القواعد التي بينها المكتب والتي تتالف من ثلاث شعب في ابلن انشائها شعبة العلوم الشرعية ، شعبة الفنون والصناعات ، شعبة الطب والصيدلة .

(١٣٩) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة .

(١٤٠) نوبهض الحوت ، بيان ، نقلا عن يوميات اكرم زعيتر ٦ - ١٩٢١/١٢/١٦ .

(١٤١) FO 371/16854

Kupferschmidt, p.141 وردت في مقال

Gibb, p.107 وايضا

(١٤٢) دروزة ، عزة ، مذكرات غير منشورة

(١٤٣) كيالي ، عبد الوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٢٦٩

(١٤٤) نوبهض الحوت ، بيان ، ص ٢٤٩ .

(١٤٥) عبر المجلس الاسلامي منذ ١٩٢٩ عن فكرة استنقاذ الاراضي بتحويلها الى وقف . وكانت ترد على المجلس بين حين وآخر اقتراحات لتحويل الاراضي العربية الى وقف .

Erskins, Steuart, Palestine and the Arabs, London 1935 , p.141

(١٤٦) CO 733,311 - (75528/6)

Kupferschmidt, p.157 وردت في مقال

من تاريخ سورية الحديث

العلاقات السوريّة - التركيّة *

١٩١٨ - ١٩٢٦

د. عبد الكريم رافق
جامعة دمشق

- ١ - التعاضد والدعم لمواجهة العدو المشترك (١٩١٨ - ١٩٢١) .
- ٢ - العلاقات السورية - التركية والمطامع الاستعمارية الاوربية (١٩٢١ - ١٩٢٦) .

* * *

يتناول هذا البحث فترة من تاريخ سورية ، كانت ، على الرغم من قصرها ، بالغة الاهمية ، اذ شهدت تطورات مصيرية في تاريخ كل من سورية وتركيا ، في وقت حاولت فيه كل من الدولتين اعادة تنظيم بنيانها على اسس قومية وطيدة . ولكنها جوبهتا بالمطامع الاستعمارية الاوربية ابان الحرب العالمية الاولى وفي اعقابها .

وكان من نتائج التدخل الاوربي بشؤون كل من الدولتين ازمات سياسية وقومية تركت اثارها في حياة كل من البلدين وفي العلاقات بينهما . وفي حين استعادت تركيا قوتها في فترة قصيرة نسبيا وبدلت في بنيتها السياسية والاجتماعية ، في عهد مصطفى كمال اتاتورك ، فان سورية وبلاد الشام ، بل الاقطار العربية بعامّة ، قاست من

* اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث للعلاقات العربية-التركية ، جامعة اليرموك- مكتب ارتباط عمان ، ٢٥-٢٧/٤/١٩٨٥ .

الاستعمار الاوربي الذي مزق اوصالها وفرط بحقوق اهلها ، وباراضيتها التي اؤتمن عليها من قبل المجالس الدولية .

ونظرا لتشابك الاحداث القطرية والاقليمية والدولية في هذه الفترة الحاسمة ، فمن الضروري تفسير الاحداث على هذه المستويات المتعددة والمتداخلة .

١ - التعاضد والدعم لمواجهة العدو المشترك (١٩١٨ - ١٩٢١) .

ادرك الاتحاديون الاتراك ، في الاسابيع الاخيرة من حكمهم في سورية ، قرب خسارتهم الحرب وخروجهم من سورية ، فحاولوا الاتصال بالوطنيين السوريين ، في الداخل وفي الخارج ، لاجراء المصالحة معهم ومنحهم حقوقهم القومية . وارسلوا في صيف عام ١٩١٨ وفدا يمثل دمشق وبيروت ، يضم رضا الصلح ورضا باشا الركابي وسليم سلام وفارس الخوري ، الى سويسرا للاتصال بالعرب المطالبين بالاستقلال . وكانت الحركة الوطنية العربية على مفترق طرق تحاول كل من بريطانيا وفرنسا ، وحتى تركيا التي انهكتها الحرب ، ان تشدها باتجاهها . وحدث انقسام في الراي بين العرب ، تدل على ذلك الرسائل التي وجهها احمد مختار الصلح من القاهرة في ٢٩ اب ١٩١٨ الى اعضاء الوفد هؤلاء ، يذكرهم فيها بدعم بريطانيا للعرب ويندد بمساوىء الاتحاديين وبالحادهم ، وبان الاسلام لن يتأثر من انهيارهم ولكنه سيتأثر من انهيار العرب (١) . ولم تجد محاولات الاتحاديين هذه في ثني العرب عن رايبهم ومطالبتهم بالاستقلال .

وفي اعقاب الهزيمة العسكرية التي منيت بها تركيا وحليفها المانيا ، على ايدي العرب والحلفاء ، انسحب الاتراك من دمشق في ٢٧ ايلول ١٩١٨ ، ومن حلب في ٢٥ تشرين الاول . ووقعت تركيا الهدنة مع الحلفاء في مودرس ، في جزيرة لمنوس ، في ٣٠ تشرين الاول ، واتمت انسحابها الكامل من سورية في ١٢ تشرين الثاني بعد ان اخلت منطقة دير الزور (٢) . وتسلمت القوات العربية التي ارسلها الشريف حسين بقيادة ابنائه ، وعلى راسهم الامير فيصل ، الحكم في سورية بمساندة القوات البريطانية .

ومن الطبيعي ان تثار مساوىء الحكم التركي ، وبخاصة سياسة القهر والتتريك والتجنيد التي اتبعتها جماعة الاتحاد والترقي ، واعدام جمال باشا شهداء العرب في عام ١٩١٦ ، لتمكين الحكومة العربية من تأليف الناس من حولها . وحدث انقسام في صفوف السوريين ، بين ما عرف بطبقة الذوات القدامى التي خشيت على مصالحها ان تتهدد من دعاة الاستقلال فعارضت حكومة فيصل العربية ، والوطنيين الشباب الذين

أيدوا الأمير فيصل لتحقيق الاماني العربية في التحرر والاستقلال . وانقلب الدوات هؤلاء فيما بعد الى مؤيدين للحكم الفرنسي الذي انهى حكومة فيصل العربية للحفاظ على امتيازاتهم (٣) .

والى جانب هذا الازدواج في الولاء حدثت ازدواجية في السلطة . فالحاكم العسكري العام للمنطقة الشرقية ، الخاضعة للنفوذ البريطاني ، كان رضا باشا الركابي الذي كان مركزه دمشق . وهو من اعيان هذه المدينة ومن كبار الملاك فيها ، وقد عينه في هذا المنصب الجنرال البريطاني اللنبي القائد العام للقوات الحليفة في الشرق الاوسط ، وجعله مسؤولا مباشرة تجاهه . وبالمقابل ، كان هناك الأمير فيصل ، ممثل والده الشريف حسين ، والقائد العام للقوات العربية العاملة في المنطقة الشمالية . وقد اعترف فيصل بحكومة الركابي كاول حكومة عربية في سورية . ولكن الركابي بقي يخضع للنفوذ البريطاني الى ان تم الاتفاق الفرنسي - البريطاني في ١٥ ايلول ١٩١٩ القاضي بجلاء الجيوش البريطانية من سورية وكيليكيا واحلال الجيوش الفرنسية مكانها ، مقابل تنازل فرنسا عن المطالبة بمنطقة الموصل والتخلي عن شرقي الاردن لبريطانيا . وتازمت العلاقات ، في اعقاب ذلك ، بين الأمير زيد ، ممثل فيصل في سورية ، وبين الركابي الذي عارض مقترحات الأمير زيد بالاعداد للدفاع الوطني ضد الفرنسيين . فاستقال هذا الاخير في ١٠ كانون الاول ١٩١٩ (٤) . واصبحت المبادرة السياسية اثر ذلك في يد فيصل .

وكان فيصل ، ازاء معارضة بعض الفئات له ، والازدواجية في السلطة مع بريطانيا ، وخطر التآمر الفرنسي - البريطاني ، حريصا على عدم الامعان في استثارة الاتراك ومؤيديهم في الداخل . لذا هاجم حكم الاتحاديين حين وجب ذلك ، كما فعل في حلب . حين القى خطابا فيها في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، بين فيه جهود والده لانقاذ العرب من الحكم التركي الفاسد ، وعرض بالاتحاديين الاتراك ، وبسياستهم تجاه العرب ، وبتنكيلهم بالاحرار واعدامهم الشهداء . وعلق بعض المراقبين انه لم يصدر عن فيصل مثل هذا التعريض لا في دمشق ولا في حمص او حماه ، ولكنه فعل ذلك في حلب ردا على ما « كان يأمله الاتراك من مناصرة الحلبيين لهم لدى انسحابهم ، استنادا لصلة القربى مع بعض الاسر البارزة في حلب ولوجود اقلية تركية في بعض اقصيتها الواقعة على الحدود » (٥) .

ولم تكن تركيا ، من ناحيتها ، في وضع يسمح لها بمعاداة العرب . فقد كانت مهددة ، في عقر دارها ، باحتلال الدول الاوربية لارضها وبالاتقسام الشديد بين

الحكومة الاتحادية المهزومة التي يرأسها السلطان - الخليفة ، والوطنيين الاتراك ،
بزعامة الضابط مصطفى كمال ، الذين يرفضون الخضوع للاحتلال الاوربي ويدعون
لاقامة حكم وطني ثوري .

وقد سيطر الحلفاء ، في اعقاب هدنة مودرس ، على العاصمة استانبول في
٨ كانون الاول ١٩١٨ ، واحتل البريطانيون كيليكيا ، بعد احتلال سورية . وتوغل
الفرنسيون ، بعد احتلالهم الساحل السوري ، بما في ذلك الاسكندرونة وانطاكية ، في
منطقة اضنة باتجاه كيليكيا . وانزلت ايطاليا قواتها في نيسان ١٩١٩ في انطاليا ،
بموجب الاتفاقيات السرية بين الحلفاء . وكان السلطان - الخليفة العثماني منشغلا
آنذاك بملاحقة اعدائه من جماعة الاتحاد والترقي . واستثار الاتراك ، اكثر من كل شيء ،
احتلال جيش يوناني لمدينة ازمير في ١٥ ايار ١٩١٩ ، بحماية من قوات الحلفاء ، وبدأت
تترأى مخاطر احياء احلام اليونان القديمة وبيزنطة . وتركزت انظار الوطنيين الاتراك على
شخص مصطفى كمال الذي انسحب مع القوات التركية والالمانية من سورية . وقد
رفض السلطان طلبه باعادة تنظيم الجيش الذي اصدر امرا بحله . ومع ذلك تمكن
مصطفى كمال من تنظيم بقايا الجيش في الاناضول ، ودعوة الوطنيين للالتفاف من حول
ميثاق وطني ، واقامة مجلس وطني كبير في انقرة في نيسان ١٩٢٠ ، ثم مجلس وزراء
في الشهر التالي متحديا بذلك حكومة السلطان في استانبول . وقد تعرض السلطان الى
نقمة كبيرة بتوقيعه مع الحلفاء معاهدة سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠ التي اقترت مكاسب
الحلفاء في تركيا .

وتمكن مصطفى كمال من استغلال النقمة على السلطان وعلى الدول الاوربية
فهزم اليونانيين في اول موقعة كبرى معهم عند نهر سقاريا في آب ١٩٢٠ ، واستحق
بذلك لقب « غازي » (٦) . واضطرت الدول الكبرى ان تعترف بحكومته في انقرة *

★ عقدت ايطاليا في ١٢ اذار ١٩٢١ اتفاقية مع حكومة مصطفى كمال سحبت بموجبها قواتها من
الاناضول ، وعقدت معها السوفيات اتفاقية في ١٦ اذار ١٩٢١ . وكان الفرنسيون قد وقعوا معها اتفاقية
هدنة في لندن في ١١ اذار من العام نفسه اتبعوها باتفاقية شاملة في انقرة في ٢ تشرين الاول ١٩٢١ تخلوا
بموجبها عن معظم امتيازاتهم التي منحتم اياها معاهدة سيفر . وهزم مصطفى كمال اليونانيين واجلاهم
عن الاناضول في ايلول ١٩٢٢ ، وبذلك استعاد كافة مناطق الاناضول من سيطرة الدول الاوربية . واضطر
البريطانيون في ١١ تشرين الاول ١٩٢٢ الى عقد هدنة مودانيا مع حكومة مصطفى كمال تخلوا بموجبها عن
استانبول والمضائق وراقيا الشرقية . وتأكدت هذه الانتصارات التركية في معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ .
وكان مصطفى كمال قد صمم على الغاء السلطنة والاحتفاظ بالخلافة كمرحلة اولى . وتم ذلك في الاول من
تشرين الثاني ١٩٢٢ ، وهرب السلطان محمد الرابع وحيد الدين ، وعين عبد المجيد خليفة . وانتخب
مصطفى كمال رئيسا للجمهورية في ٩ آب ١٩٢٣ بعد ان نقل مقر الحكومة الى انقرة . والفيت الخلافة في ٣
اذار ١٩٢٤ ، واطيح بأسرة عثمان (٧) .

وكان الحكم العربي الفيصلي يرسخ قواعده في بلاد الشام ، في أعقاب انسحاب الاتراك منها ، مؤكداً على زعامة الشريف حسين للحركة العربية والمسلمين . واطلق رسمياً في دمشق على الشريف حسين القاب سلطان العرب وخليفة المسلمين ، وكذلك ملك العرب . وصدرت الاحكام في محكمة الحقوق الاولى بدمشق باسم الحسين وبالقاب هذه (٨) . واعتمدت سجلات محكمة البداية بدمشق تاريخ ابتداء قيام الدولة العربية بانه في غرة محرم ١٣٣٧ / (٧ تشرين الاول ١٩١٨) ، وبدأ ترقيم القضايا في هذه المحكمة برقم جديد (رقم ١) اثر ذلك ، كما استخدمت العربية محل التركية في السجلات (٩) .

ولم يؤثر انسحاب القوات التركية من سورية على نشاط السوريين والعرب المقيمين في استانبول والذين كانوا يعملون لاستقلال الاقطار العربية . وما ان سمع هؤلاء بخبر نشرته صحيفة « التايمز » اللندنية في ١٩ ايار ١٩١٩ حول منح بريطانيا « الامة العربية » استقلالها ، حسب تعبيرهم ، حتى توجه وفد منهم برئاسة نجيب ملحمة وعضوية رشدي الصفدي وعبد الرحمن العابد من دمشق ، واحسان الجابري من حلب ، وروحي عبد الهادي من نابلس ، الى مقر المفوض السامي البريطاني في استانبول يشكرون فيه ملك بريطانيا وحكومتها على هذه المبادرة . وقد اربك هذا التفؤل العربي المسؤولين في المفوضية لانه لا علم لهم بأي قرار من هذا النوع ، وربما كان ذلك للتذكير (١٠) .

ان عنف الاحداث التي شهدتها تركيا في هذه الفترة لم يصرفها عن الاهتمام باحداث سورية سواء في عهد فيصل ام في عهد الانتداب . وفي الواقع ادى احتلال الحلفاء لاجزاء كبيرة من سورية وتركيا واستمرار قواتهم في توسيع عملياتها ، وبخاصة تصميم الفرنسيين على احتلال سورية بكاملها ، الى التقارب بين المسؤولين في البلدين الى حد الدعم العسكري . وتحدثت الانباء عن عقد اتفاقية سرية بين الامير فيصل ومصطفى كمال في حلب بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٩ بوساطة متصرف الكرك اسعد بك . وكان اسعد بك هذا عضواً في جمعية الاتحاد والترقي . ونقل نص الاتفاقية بالفرنسية دون الاشارة الى اللغة التي كتبت بها الاتفاقية في الاصل .

تتألف الاتفاقية من تسعة بنود يذكر اولها ان الطرفين المتعاقدين ، الامة التركية والامة العربية ، يشهدان بكل اسف انقسام العالم الاسلامي ، وان واجبهما راب الصدع وتاكيد التعاون بين الامتين اللتين تربطهما المصالح المادية والروحية والدينية . وان على الامتين التعاضد والدفاع بقواتهما الموحدة عن الدين والوطن . وجاء في المادة الثانية انه في هذه اللحظة التي يتهدد فيها استقلال العرب ووحدة وحرية الاتراك ،

بسبب رغبة الدول الاجنبية ان تقسم فيما بينها العراق وفلسطين وسورية وما جاورها ، بالاضافة الى جزء كبير من اسيا الصغرى ، فقد عزمنا غداة انعقاد مؤتمر الصلح في باريس واصداره قرارا بشأننا ، على اعلان الجهاد المقدس للدفاع عن الدين والوطن . ولبوغ هذا الهدف فان الطرفين المتعاقدين يتفقان على البنود التالية :

البند الثالث (حسب تسلسل بنود الاتفاقية) : لا يمكن للطرفين المتعاقدين قبول تقسيم الامبراطورية التركية والبلاد العربية (Arabie) او احتلالها من قبل القوى الاجنبية .

البند الرابع : تعترف الحكومة العثمانية رسميا بتشكيل حكومة عربية تنضم اليها الحجاز و (Médome) ★ والعراق وفلسطين ودمشق وبيروت وحلب ، شريطة ان ترتبط البلاد العربية بالامبراطورية العثمانية وان تبقى مخصصة للخلافة . وتقبل الحكومة العثمانية وتصادق على سلطة الشريف حسين على هذه البلاد باستثناء ما يتعلق بالتفاصيل حول شكل الحكومة والقضايا الاخرى التي ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقية اخرى .

البند الخامس : في المناطق التي يحتلها جيش الشريف سيذكر اسم السلطان من منابر الجوامع وسيعترف بخلافة السلطان من جديد ويعلن ذلك .

البند السادس : لكي يبدأ الجهاد المقدس وتؤكد وحدة الاتراك فان صاحب السمو الشريف يوجه بيانا ، بلغة تتناسب والاضاع ، في كل البلاد العربية شارحا لها الموقف العدواني للقوى الاجنبية تجاه الدين الاسلامي . وللبداء بالجهاد المقدس يجمع الشريف حسين جميع شيوخ وزعماء القبائل العربية ويعقد معها اتفاقيات ومعاهدات . وينظم الشريف جيوشا وطنية مماثلة للتنظيمات الوطنية في الاناضول بشكل تكون فيه هذه القوى ، عند اعطاء الاشارة ، جاهزة تماما للمساهمة مباشرة في الجهاد المقدس .

البند السابع : يتعهد الشريف ، بمساعدة القوى الوطنية في الاناضول ، بجمع قواته المتوافرة وغير المشتغلة بمهام اخرى ، ويتعهد الطرفان المتعاقدان بالتعاون المتبادل ، ماديا ومعنويا ، في الهجوم كما في الدفاع ، حتى تحقيق هدفهما .

البند الثامن : يعلم الشريف بمضمون هذه الاتفاقية ليس فقط عرب الحجاز

★ لا يعرف معناها بدقة . واذا كانت (Médone) فهي مديان ، وتعني باللغة السامية شرقي الاردن .

وزعماء القبائل ولكن ايضا الامام يحيى والسيد ادريس والمسلمين في بنغازي ومراكش وتونس والجزائر والهند ، ويبدل جهوده ليجعل هؤلاء يساهمون في الانتفاضة العامة . ويتعهد الشريف ان يتخذ في الحال جميع الاجراءات التي لا بد منها لتحقيق هذا الهدف .

البند التاسع : كتبت هذه الاتفاقية على نسختين وقعتا وتبودلتا في حلب في ١٦ حزيران ١٩١٩ بواسطة اسعد بك متصرف الكرك . وبلي ذلك اسم مصطفى كمال من اليسار ثم اسم الشريف فيصل .

يصف تقرير المخابرات البريطانية في استانبول الموجه الى هيئة الاركان العامة البريطانية فيها ، بتاريخ ٣ اب ١٩١٩ (رقم ٥٣٧) ، المعطوف على تقرير سابق بتاريخ ٢٤ من الشهر السابق (رقم ٥١٧) وعلى غيره من التقارير ، يصف هذه الاتفاقية ، التي يورد نصها بكامله بالفرنسية ، بانها « مزعومة » ، ويقول ان النص الفرنسي هو ترجمة ولكن لا يذكر باية لغة كتب النص الاصلي . ويذكر ان المخابرات حصلت على النص الفرنسي بواسطة عميل حصل عليه بدوره من موظف في مكتب المراسلات الخاصة في وزارة الداخلية التركية ، وقد وصلت نسخة النص الى هذه الوزارة من والي ارضروم . اما النص الاصلي فيقول التقرير انه حمله الى استنبول الجنرال كجك جمال باشا (جمال باشا الصغير) الذي رفعه الى السلطان . وكان هذا الجنرال يعمل مع مصطفى كمال في قونية . ويضيف التقرير ان نسخة اخرى من هذه الاتفاقية قد شريت لحساب السلطات الفرنسية بمبلغ مائة وخمسين ليرة تركية على يد ارمني هو الدكتور طوبجيان . ويذكر ايضا ان مصطفى كمال كان قد تلقى اوامر من وزير الحربية ومن غيره في الوزارة بالوصول الى اتفاق ما مع العرب لمقاومة الاحتلال الاجنبي بتشكيل عصابات من الثائرين وانه بناء على هذه التعليمات وقع الاتفاقية مع فيصل . ويقول التقرير انه لم يمكن الحصول على معلومات اخرى للتأكد من صحة نسخة الاتفاقية ، اي النسخة الفرنسية (١١) . ويقول تقرير بريطاني آخر بتاريخ ٢٤ تموز ١٩١٩ ان مفاوضات كانت تدور بين الامير فيصل والسلطان ، بواسطة اسعد بك وكجك جمال باشا ، حول اقامة حلف اسلامي - تركي ، وان الامير فيصل بعث برسالة الى السلطان الذي ناقشها في اجتماع وزاري بتاريخ ٢١ تموز ١٩١٩ وارسل جوابا عنها الى فيصل (١٢) .

لم يكن الاتصال وارسال الوفود وحتى عقد الاتفاقيات بين الحكومة العربية في سورية والحكومة التركية منعزلا . فقد ذكر سعيد حيدر ، احد مؤسسي جمعية الفتاة والكاتب العام آنذاك لحزب الاستقلال العربي انه ذهب في وفد رسمي من دمشق

الى استانبول عام ١٩٢٠ ، وقابل ممثلي مصطفى كمال ووضع اتفاقا وديا من اربع نقاط بين الطرفين رفع لموافقة الحكومة السورية . ويتضمن الاتفاق تعديل الحدود ، وبخاصة في منطقة الموصل ، وتشكيل جبهة موحدة ضد الاعداء ، من معان الى البحر الاسود ، ووضع الجيوش التركية والعربية تحت قيادة موحدة . وفي حال نجاح الطرفين ضد القوى الاجنبية فسيعيش العرب والأتراك في دولتين مستقلتين وتكون علاقتهما كما في الامبراطورية النمساوية - الهنغارية قبل الحرب . ويذكر سعيد حيدر انه عندما عاد الى دمشق في نيسان ١٩٢٠ كان الوضع قد تغير ورفض فيصل (الذي اصبح ملكا مستقلا) الدخول في مفاوضات مع تركيا . وعندما غير رايه في تموز ١٩٢٠ كان الاوان قد فات (١٣) .

وعلى هذا فالاتصالات بين فيصل والسلطان والاتفاقية بين فيصل ومصطفى كمال ، ان صحت ، لم تكن الوحيدة في اثناء قيام الحكومة العربية في دمشق ، ولا الاخيرة . ولكن مما يلفت النظر ان ايا من الكتابات العربية المعاصرة للاحداث او مذكرات السياسيين المعاصرين لم تذكر الاتفاقية ، ربما لكونها سرية . ويلاحظ ان تشجيع الثورات ضد الفرنسيين ، في سورية والاناضول ، ومدّها بالدعم ، كما نصت الاتفاقية في البند السادس ، قد نشط بعد تاريخ الاتفاقية ، واعلن الثوار السوريون الجهاد على الفرنسيين ، وترقب السدعم من تركيا وشغلوا قسما كبيرا من القوات الفرنسية التي كانت ستتوجه ضد الاتراك ، كما نشطت الدعوات الى الجهاد المقدس في المدن السورية والتركية ، ونشرت بيانات موجهة من مصطفى كمال الى السوريين بضرورة التعاون وذلك بعد تاريخ الاتفاقية . واذا كانت قد حدثت اتصالات اخرى واعد مشروع اتفاقية بين الجانبين ، كما روى سعيد حيدر ، فان اتفاقية فيصل - مصطفى كمال قد نصت في بندها الرابع على ان القضايا الاخرى ستناقش فيما بعد وتقررها اتفاقية اخرى .

والجدير بالذكر ايضا ان الامير فيصل سافر من دمشق الى حلب في ٩ حزيران ١٩١٩ حيث القى خطابا في ناديها العربي (١٤) . والمعلوم ان اتفاقته مع مصطفى كمال تذكر انها وقعت في حلب بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٩ . وقد اشار القنصل الامريكي في حلب الى قيام اتصالات بين مصطفى كمال وفيصل ، والى طلب فيصل دعم تركيا ، ملمحا الى امكان اقامة اتحاد بين سورية والحجاز وتركيا ، وان ملك الحجاز ارسل وفدا الى السلطان للمصالحة والاتحاد في ظل الروابط الدينية والسياسية (١٥) .

وقد تتالت علائم التعاون العربي التركي بعد الاتفاقية « المزعومة » ، على المستويين السياسي والعسكري . فعلى المستوى السياسي كثرت تصريحات

المسؤولين الاتراك وتوجهاتهم الى عواطف العرب الدينية للوقوف معا في وجه الاستعمار الاوربي . ومن الطبيعي ان تكون مدينة حلب مركزا هاما لهذا النشاط السياسي . وكمثال على ذلك تصريح وجهه مصطفى كمال الى السوريين ، بواسطة مؤيديه (ربما حزبه) في حلب ، في حوالي ٩ تشرين الاول ١٩١٩ . وقد اهاب مصطفى كمال بالسوريين ان يصفوا الى صوت امة حزينة يتحكم فيها الاستبداد ونوايا الاعداء الشريرة . وينبه مصطفى كمال الاهلين ، كاخ في الدين ، الا يأخذوا بالصراع الذي فرق بيننا ، ويدعوهم لازالة كل سوء فهم بين الطرفين ، وتسديد السلاح معا ضد الاحزاب الخائنة التي تود التفريق بين البلدين . ويهيب بهم الا يصفوا الى وعود اعداء الدين الملحد . ويستثير مصطفى كمال العاطفة الدينية بدعوته لانقاذ البلاد والاسلام من ايدي الاعداء ، ويشير الى انتصاراته في قونية وبروسه ، وان المجاهدين الاتراك سيؤيدون اخوانهم العرب ويمزقون الاعداء . ويختتم البيان بالدعوة الى العيش كاخوان في الدين وبالتمني بزوال الاعداء (١٦) .

ووزع في حلب ، في النصف الاول من تشرين الاول ١٩١٩ ، بيان بالتركية يبين مطالب الاتراك ورفضهم الحكم الاجنبي ، وتعهدهم بحماية الاهالي بقطع النظر عن الدين . ويشير البيان الى حب المسلمين للسلطان والى احقية الاتراك بالخلافة (١٧) .

وكانت تصل حلب تباعا رسائل من قبل مصطفى كمال موجهة الى زعماء العرب والاتراك والبلاشفة تحضهم على توجيه الجهود ضد القوى الاوربية . وكانت حلب مركزا رئيسيا لنشر الدعايات العربية والتركية والبشفية وغيرها ضد الانكليز والفرنسيين في سورية والعراق ، وضد الانكليز في الهند (١٨) .

وفي محاولة من حكومة فيصل العربية ، في الاسابيع الاخيرة من وجودها ، لتجنيد كافة القوى لمجابهة الخطر الفرنسي المهدق ، وصل يوسف العظمة ، وزير الحربية في حكومة هاشم الاتاسي ، التي شكلت في ٨ ايار ١٩٢٠ ، الى حلب بتاريخ ٨ حزيران ١٩٢٠ ، واجتمع بقائد القوات الوطنية التركية العاملة في كيليكيا ، في قرية ترجمان ، قرب كلس ، لتنسيق الجهود العسكرية . ولم تقترن هذه الزيارة بالنجاح نظرا للتحسن الذي حصل انذاك في العلاقات بين الاتراك والفرنسيين والذي وصل الى حد الاتفاق ، في محاولة من الاتراك لاستخدام الفرنسيين ضد القوى الاوربية الاخرى (١٩) .

وحضر فيصل بنفسه الى حلب في ١٥ حزيران ١٩٢٠ ، واشيع انه سيقادر الى دير الزور في اليوم التالي . ولكنه الفى سفره الى هناك ، وحاول الاتصال بالاتراك في

محاولة منه للحيلولة دون الاتفاق بينهم وبين الفرنسيين . وقيل انه فشل في ذلك . واعلن انه سيعود الى دمشق في ٢٠ حزيران (٢٠) . ومع ذلك ظل الملك فيصل ، حتى الايام الاخيرة من حكمه في سورية ، يدعم الاتراك في نضالهم ضد الفرنسيين . وعارضت حكومته استخدام الفرنسيين سكة حديد رياق - حلب لنقل الجنود والعتاد الى الشمال باتجاه اورفه وكلس وعنتاب . ويقول ساطع الحصري ، وزير المعارف آنذاك ، ان موقف حكومة فيصل هذا ساعد الاتراك مساعدة ثمينة وازعج الجنرال غورو الى درجة كبيرة . وكانت هذه القضية موضوع البث الاول في الانذار الذي وجهه غورو في ١٤ تموز ١٩٢٠ الى فيصل واحتل دمشق في اعقابه . وحتى بعد مغادرة فيصل سورية ارسل الحصري الى تركيا للاتصال بالكماليين لتنسيق الجهود معهم (٢١) .

وكان الملك فيصل قد ابدى استياءه ، في الاشهر الاخيرة من حكمه في سورية ، من ازدياد النفوذ البلشفي على حكومة مصطفى كمال وانتقال هذا النفوذ ، اما مباشرة او عن طريق الاتراك ، الى سورية ، مما اغاظ ايضا بريطانيا لانه كان موجها ضدها بصورة خاصة . وقد ارسل فيصل في ربيع عام ١٩٢٠ عدة رسائل الى النبي ، الذي كان المفوض السامي في مصر آنذاك ، يبين له مدى تفشي النفوذ البلشفي في المنطقة . وابلغت لندن بهذه الرسائل بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٢٠ . وضمت احدى رسائل فيصل بياناً بلشفياً بالعربية مؤرخاً في ١٣ ايار ١٩٢٠ يهاجم الانكليز ويشير الى هزائمهم على ايدي الروس والى انتفاض الهنود ضدهم ، ويذكر مساعدة روسيا للشعوب الاسلامية ، ويعرض على هذه الشعوب ، تركية كانت ام عربية ام هندية ام فارسية ، مساعدتها في الثورة لتستخلص حقوقها ، وان روسيا حشدت ثلاث فرق من البلاشفة المسلمين على حدود ارمينيا لهذا الغرض . وفي احدى رسائل فيصل الى النبي بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٢٠ اشار الى ان الهدنة مع تركيا وجهت انظار شعبنا الى مصطفى كمال . ولكن التدخل البلشفي ، بواسطة الاتراك ، الذي وصفه فيصل بالخطر الذي اجتاز الحدود التركية الى سورية ، جعله يعطل بعض الصحف اليومية في سورية التي كانت تروج له وان يبعد بعض الافراد الذين كانوا على استعداد للسير تحت راية الاتراك - البلاشفة (٢٢) .

استغلت حكومة مصطفى كمال ، من ناحيتها ، النفوذ البلشفي وتزويد البلاشفة السوفيات لها بالسلاح ، وتتويج ذلك ، فيما بعد ، بعقد اتفاق بين البلدين في ١٦ اذار ١٩٢١ ، في مجابهة الاحتلال الاجنبي لاراضيها وفي مواجهة القضية الارمنية . واصبح النفوذ البلشفي عنصراً جديداً في العلاقات بين الاتراك والسوريين سواء في المجال السياسي ام العسكري . واخذت بالظهور بوادر المطامع التركية في منطقة حلب وفي شمال سورية بصورة عامة . وشهدت سورية ، وبخاصة حلب ، نشاطاً بلشفيًا قويا

من خلال الاتراك ، في الحقبة التي اعقبت احتلال الفرنسيين لسورية واستئناف القتال بينهم وبين الاتراك في كيليكيا .

وقد وصل الى حلب في اول تموز ١٩٢٠ ضابطان تركيان متخفيان واشاعا ان مصطفى كمال يعد حملة على حلب ، وان تقاهما يسود العلاقات بين السوفيات ومصطفى كمال ، وانه تلقى منهم السلاح والدعم (٢٣) . وذكر في ١٣ كانون الاول ١٩٢٠ ان منشورات بلشفية بالعربية ، تحمل توقيع لينين ، موجهة الى سكان حلب ، قد وزعت في حلب على مقربة من المكتب السياسي الفرنسي . وهي تحذرهم من الاستعمار الفرنسي وتنصحهم بتبني البلشفية كوسيلة لمقاومة الفرنسيين (٢٤) . وفي ١٨ كانون الاول علفت في حلب ملصقات مكتوبة بالعربية وبالتركية تتضمن تحذيرا للسكان من الفرنسيين ، وتحضهم على الثورة وطرد الفرنسيين خلال عشرة ايام واذا لم يستطيعوا ذلك فليبقوا على الحياد ويتركوا الامر للاتراك . ولم يعرف مصدر هذه الملصقات ولكن قيل انها صادرة عن مقر مصطفى كمال وروجها عملاؤه في حلب (٢٥) .

واكب الاهتمام التركي بسورية ، على المستوى السياسي ، تقديم الاتراك المساعدة للثائرين على الحكم الفرنسي في سورية على المستوى العسكري . وافساد الطرفان ، العربي والتركي ، من ذلك ، لان الثائرين السوريين شغلوا قوات فرنسية كبيرة كان من الممكن ان تدعم القوات الفرنسية العاملة ضد الاتراك في كيليكيا . والعكس صحيح ايضا .

نشبت في سورية عدة ثورات ضد الفرنسيين منذ ان بدا هؤلاء باحتلال الساحل السوري ، اي المنطقة الغربية ، وبالتوسع باتجاه الشرق والشمال . ولم تتوقف الثورات باستيلاء الفرنسيين على جميع المدن السورية وعلى قسم كبير من البلاد بل ازدادت شدة مع مرور الزمن . وما يهمننا من هذه الثورات الموجة الاولى منها التي قامت بين ١٩١٨ و صيف عام ١٩٢١ . وقد اصبحت هذه الثورات بضربة كبيرة في اعقاب اتفاقية الهدنة التي وقعت في لندن بتاريخ ١١ اذار ١٩٢١ بين الفرنسيين والاتراك والتي اوقف الاتراك بموجبها دعمهم للثوار السوريين (٢٦) . وتلت ذلك الاتفاقية الفرنسية التركية في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ التي انسحبت بموجبها القوات الفرنسية من كيليكيا ، مما مكن الفرنسيين من تركيز وتكثيف قواتهم ضد الثائرين السوريين .

ولا يتسع المجال هنا لتحليل هذه الثورات ، لان الهدف هو تسليط الضوء

★ انظر دراستنا حول تحليل هذه الثورات ، بابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، في بحثنا بالانكليزية بعنوان : الاقتصاد والمجتمع والسلطة السياسية في سورية ١٩١٨ - ١٩٢٤ ، الذي القيناه في الندوة الدولية حول « الشرق الاوسط في فترة ما بين الحربين - تفاعل التطور السياسي والاقتصادي والثقافي » التي نظمتها معهد التاريخ الاوربي في باد هومبورغ بالمانيا ، في اب ١٩٨٤ . البحث قيد النشر بالانكليزية وبترجمة الى الالمانية .

على العلاقات السورية - التركية من خلالها . وتبرز في هذا المجال ثلاث ثورات شغلت منطقة الساحل بدءا من بانياس جنوبا وحتى الاسكندرونة شمالا بما في ذلك الجبال المحاذية لها ، ثم المنطقة الشمالية بين حارم وكفر تخاريم وادلب شمالا وجبل الزاوية وجسر الشفور جنوبا وقضاء صهيون في منطقة اللاذقية غربا ، ثم معرة النعمان واطراف حماه شرقا . وكان اقل الثائرين شانا ، من الناحية العسكرية ، صبحي بركات الذي ثار في منطقة الاسكندرونة - انطاكية ، وكان على اتصال مع الاتراك . واكبر الثائرين شانا في هذه المناطق الزعيمان ابراهيم هنانو قائد ثورات المنطقة الشمالية والشيخ صالح العلي قائد ثورة الساحل وجبال العلويين . وقد ترأس هنانو اربع ثورات في المنطقة الشمالية : الاولى في منطقة انطاكية ، المعروفة بالقصر ، حيث تزعم الثائرين يوسف السعدون في اعقاب مصالحة صبحي بركات مع الفرنسيين ، والثانية في منطقة صهيون ، ومركزها الحفة ، حيث تزعم الثائرين الصهاونة عمر البيطار ، والثالثة في جبل الزاوية وتزعمها مصطفى الحاج حسين ، والرابعة في منطقة كفر تخاريم وترأسها نجيب عويد . وكان هنانو القائد الاعلى لهذه الثورات التي عرفت بمجموعها بالثورة الهنانية .

وكان هناك اتصال وثيق بين هؤلاء الثائرين والحكومة العربية برئاسة فيصل . فقد عهد رشيد طليع محافظ حلب ، الذي يمثل الحكومة العربية ، الى صبحي بركات وابراهيم هنانو بتزعم ثورات انطاكية والشمال ، على التوالي ، في محاولة لتنظيمها وتوجيهها الوجهة الوطنية الصحيحة . وظهرت في ثورات انطاكية ، منذ البداية ، عناصر تركية بسبب تواجد الاتراك بين سكان المنطقة من ناحية ولان معظم قادة الثورة سبق لهم ان خدموا في الجيش التركي او شغلوا مناصب في الادارة العثمانية من ناحية اخرى . وعرف عن صبحي بركات انه لا يتقن العربية ، وعندما عين رئيسا للاتحاد السوري كانت خطاباته تلقى نيابة عنه .

واشترك في ثورة صبحي بركات ابن خالته عاصم وكان برتبة بكباشي ركن في الجيش التركي ، واصله من انطاكية . وقد نفته الدولة العثمانية لخلاف بينهما الى هذه المدينة فانضم الى ثورة صبحي بركات مع تركي اخر هو حقي بك . وقد اغرى الفرنسيون صبحي بركات وعاصم بالاستسلام ففعلا ، وكافأوا الاول بتعيينه رئيسا للاتحاد السوري الذي ضم دولتي دمشق وحلب وبلاد العلويين في ٢٩ حزيران ١٩٢٢ . وهناك من يقول ان تعيين صبحي بركات لهذا المنصب كان بالحاج تركيا وارضاء لها من قبل الفرنسيين . وبقي في هذا المنصب حتى كانون الاول ١٩٢٥ (٢٧) . اما عاصم فقد خشي من الايقاع به من قبل الفرنسيين فلجأ بمن معه من الثائرين الى مرعش حيث دعموا الثوار الاتراك ضد الفرنسيين . وعهد الاتراك ، فيما بعد ، الى عاصم

بأمرة قوة أرسلوها لدعم ثورة إبراهيم هنانو . ومما تجدر ملاحظته ان الدعم لم يكن من جانب واحد اذ ان اوائل الثوار السوريين ، في منطقة انطاكية ، التحقوا بالثورة التركية وحاربوا الجيوش الفرنسية في مناطق مرعش وعنتاب وغيرها (٢٨) .

وكان إبراهيم هنانو ، الذي خدم في الجيش التركي وعين رئيسا لديوان ولاية حلب ، قد عهد اليه الشريف ناصر ، قائد القوات العربية التي حررت سورية ، بتطهير منطقتي حارم وانطاكية المجاورتين لقرية كفر تخاريم ، حيث تقوم زعامة هنانو الاقطاعية وتقيم أسرته ، من فلول الجيش التركي المتراجع . واقام فيها في تشرين الثاني ١٩١٨ حكومة عربية تابعة لحكومة فيصل . وحين اعلم الجنرال اللنبي ممثل الحكومة العربية في حلب ان هاتين المنطقتين تقعان ضمن النفوذ الفرنسي استدعي هنانو الى حلب . ثم انتخب مندوبا عن حلب واقضيتها الى المؤتمر السوري الذي انعقد في دمشق في ٣ حزيران ١٩١٩ . ومن موقعه كممثل للشعب عهد الى هنانو ، في مطلع تشرين الاول ١٩١٩ ، بقيادة الثورة في المنطقة الشمالية ضد الفرنسيين . وكان هنانو وصالح العلي وغيرهما من قادة الثورة يعملون بتأييد ومباركة ودعم حكومة فيصل العربية التي امدتهم بالسلاح والعتاد والمال والضباط لتدريب رجالهم ومساعدتهم . ومن هؤلاء الضباط في الجيش العربي ابراهيم الشفوري الذي كان همزة الوصل بين الحكومة العربية وثورة هنانو . واصبح الشفوري امين سر ثورة هنانو ومرافقه العسكري .

وقد منع الانكليز الشريف حسين من ارسال المال الى ابنه زيد في سورية في ربيع عام ١٩٢٠ خشية وصول هذا المال الى هنانو . وكان الانكليز قد طلبوا من الحسين الا يرسل اي جزء من اعانتهم المالية الى الثائرين على حلفائهم الفرنسيين في سورية (٢٩) . ولم يتمكن الانكليز ان يحولوا دون دعم حكومة فيصل العربية للثائرين . وكما امدت هذه الحكومة هنانو بالدعم امدت كذلك ثورة الشيخ صالح العلي بالدعم والمال والضباط حتى ان يوسف العظمة وزير الحربية التقى بالشيخ صالح قرب مصياف للبحث في شؤون الثورة (٣٠) . وكان اخر نداء للحكومة العربية الى الثائرين ذلك الذي وجهه الشريف زيد بن الحسين حين ارسل برقية من حماة في ٢٥ تموز ١٩٢٠ الى هنانو يقول فيها ان داوموا على اعمالكم ولا تصفوا الى اوامر حلب (٣١) . وكانت القوات الفرنسية قد احتلت حلب في ٢٣ تموز ١٩٢٠ ، وذلك بعد ان غادرها في اليوم السابق رشيد طليع واليها ونبيه العظمة مدير الشرطة وغيرهما (٣٢) .

بعد ان قضى الفرنسيون على حكومة فيصل العربية ، واحتلوا المدن الرئيسية في سورية ، وتخلى صبحي بركات وجماعته عن الثورة في تموز ١٩٢٠ ، شعرت الثورة المهنانية ، شأنها شأن ثورة الشيخ صالح العلي ، بحاجتها للعتاد والدعم ، وبخاصة

الخرطوش ، لمواصلة الثورة ومقاومة الفرنسيين الذين كانت تدعمهم ، بالإضافة الى قواتهم ، اعداد كبيرة من المرتزقة المحليين الذين اشار اليهم الثوار بالمتطوعة . وقرر هنانو ورفاقه الاتصال بتركيا التي كانت هي الاخرى تحارب الفرنسيين في كيليكيا . وسافر هنانو على راس وفد من الثوار الى تركيا في ١٧ اب ١٩٢٠ وقابل في مرعش صلاح الدين عادل بك قائد الفيلق الثاني التركي . ووقعت اتفاقية بين الطرفين في ٧ ايلول ١٩٢٠ . واتفق ، كما يروي الشغوري عضو الوفد ومرافق هنانو ، ان ما يقوم به هنانو من اعمال حربية هو باسم الحكومة العربية السورية ، اي ان تركيا اعتبرت هنانو استمرارا للحكومة العربية ، وان ما يعطى للجانب السوري من عتاد وسلاح يكون هدية لا قيمة له في الحال والمستقبل . وتقرر ان تبقى الحدود مفتوحة لتبادل التعاون العسكري عند الاقتضاء (٢٣) . ويضيف يوسف السعدون ، زعيم الثورة في منطقة القصير ، التي كانت ضمن الثورة الهنانية ، ان من جملة بنود الاتفاقية ان تقدم تركيا الخرطوش ومدفع واحد او اكثر حسب اللزوم ، وان لا تحدد الحدود بين سورية وتركيا الا بعد جلاء العدو عن اراضيها وحصولها على الاستقلال التام فعندئذ تعين لجنة مشتركة لوضع الحدود . كما تقدم الحكومة التركية بعض الجنود المدربين على المدفعية لتدريب الثوار . وحين يتوافر بين الثوار متدربون على المدافع بانواعها يعود هؤلاء الجنود الاتراك الى بلادهم (٢٤) . وكان تزويد تركيا الثائرين بالخرطوش والعتاد من اهم العوامل التي مكنت الثائرين من متابعة القتال .

وقد وجه هنانو في أعقاب عودته من تركيا في ١٢ ايلول ١٩٢٠ بيانا الى الشعب بداه بعبارة « من العرب الى العرب » ، جاء فيه ما بالكم ترضخون وانتم خير امة اخرجت للناس . ان جريمتكم انكم من ابناء الشرق المسلمين . ونبه الى اتخاذ الفرنسيين الاديان ستارا للمطامع ، واهاب بابن سورية ان ينهض للمحافظة على حريته ودينه . و اشار الى الخونة وعقابهم . ووجه نداء الى قناصل الدول يناشدتهم فيه التوسط لوضع حد لسفك الدماء . واختتم البيان بالقول : نحن السوريون نموت ونتبلشف اي نصير شيوعيين ونجعل البلاد رمادا ولا نخضع لحكم الظالمين . وارفق بيان هنانو بفتوى من مفتي الاتحاد الاسلامي (لا يعرف من يمثل) الحاج محمد افندي ابي زاده تبيح دم من يتعاون مع الذين يحاربون الاسلام (٢٥) .

وقد لاحظ هنانو ان الشعب يكاد لا يصدق عقد مثل هذه الاتفاقية ، سيما وان الثورة تلاقي المصاعب ، فقرر قبول العرض التركي بارسال سرية من الجيش التركي مجهزة بالرشاشات ومدفع واحد على الاقل ، لا لزجها في الحروب بل لتهدة النفوس المضطربة التي تشكك بوجود حكومة تشد ازر الثائرين . وبالفعل وصلت هذه السرية المؤلفة من مائتي جندي نظامي بقيادة الرئيس بدري بك الشركسي ، وهي تحمل علما

يشير الى الاخوة بين العرب والأتراك اذ حمل احد وجهيه العلم العربي والوجه الاخر العلم التركي . وزنر كل منهما بوشاح ابيض نقش على الوجه الاول منه بالقصب الاية الكريمة « انما المؤمنون اخوة » ، وعلى الوجه الثاني « فاصلحوا بين اخويكم » (٢٦) . وقد تجولت السرية التركية في مناطق الثوار ، بما في ذلك منطقة الشيخ صالح العلي ، لتقوية الروح الثورية لديهم . وذكر انها كانت تحمل العلم التركي لتدل به على وجودها كقوة تركية . وفي حين يذكر الضابط الشفوري ، مرافق هنانو والذي خاض معه المعارك ، ان القوة التركية لم تدع لاي عمل حربي واحتفظ بها كرمز للتأخي (٢٧) ، يذكر ادهم آل الجندي ، الذي لم يخض الثورات بل ارخ لها ، ان القوة التركية خاضت المعارك الى جانب الثوار (٢٨) . ولا يتطرق الثائر السعدون في مذكراته الى اي نشاط عسكري للقوة التركية .

ويتجلى في بيان هنانو الى الاهالي ، وفي بنود الاتفاقية التي عقدها مع تركيا ، التوجه العربي والاسلامي في آن واحد . فقد خاطب العرب باسم العرب ، كما انه استثار الاخوة الاسلامية بين العرب والأتراك للوقوف في وجه العدو المشترك . ويعلق السعدون زعيم ثوار منطقة القصير - وهو المعروف بتدينه ، واستشهاده باستمرار في مذكراته بالايات الكريمة ، ووصفه تركيا بالدولة الاسلامية التي تقاتل المشركين - بان الثورة في سورية ليست لحساب الأتراك بدليل ان هنانو ، بعد فشل ثورته ، لجأ الى الاردن وليس الى تركيا . ويعلق السعدون على موقف هنانو هذا بقوله : « وبان رحمة الله لا يطمئن قلبه للأتراك ولمساعدتهم السورية » (٢٩) . ومع ذلك يقول السعدون بمناسبة محاكمة هنانو في حلب واطلاق سراحه في اذار ١٩٢٢ ، بعد ان اعتقله الانكليز وسلموه للفرنسيين ، ان ذلك تم بتدخل تركيا وباتفاق دولي (٤٠) . كما ان السعدون نفسه يروي انه ونجيب عويد ، قائد ثورة كفر تخاريم والمساعد الايمن لهنانو ، رفضا تنفيذ طلب تركيا ، بعد لجوئها اليها ، حين حاولت تجنيدهما لمساعدتها في ضم الاسكندرونة عام ١٩٣٦ (٤١) . ويظهر كلام الثائر السعدون هذا حسا وطنيا عاليا تدعمه روح دينية تبعث فيه الاخلاص للجهاد في سبيل الوطن فقط .

وقد حرص زعماء الثورة على تنقيتها من المستغلين والمستهترين وغير المنضبطين لتحافظ على مصداقيتها واحترام الشعب والاعداء لها . وطبقوا ذلك حتى على القادة العسكريين الأتراك الذين ارسلتهم تركيا لدعمهم * ، وذلك حرصا على الثورة من ان تشوه صورتها .

* حدث في اواخر ايام ثورة هنانو ان هاجم افراد من القوة التركية قرية الصقيلبية المسيحية ، في منطقة حماة ، وسلبوا اهلها مالهم ومواشيهم ، فقتل ابراهيم هنانو ونجيب عويد مجسسا عسكريا فوراً اقر اعدام الضابط التركي المسؤول عاصم ، وتم ذلك بموافقة السلطات التركية (٤٢) .

ولم يقتصر الدعم التركي على الثورة الهنانية ، فقد اتصل الشيخ صالح العلي في ١٠ شباط ١٩٢١ بهنانو يطلب توحيد جهود الثورتين والحصول على السلاح من تركيا نظرا لاشتداد المعارك بينه وبين الفرنسيين . ويفسر تركيز جهود الفرنسيين ضد ثورة الشيخ صالح العلي بعنف المقاومة التي كانوا يلاقونها من ثواره ، وبخطتهم في القضاء عليه اولا ثم توجيه قواتهم ضد ثورة صهيون وثورة هنانو . لذا حشدوا قوات كبيرة ضده واخذوا يحرقون قرى الثوار (٤٣) . وقد سهل الاتصال بين ثورتي هنانو والعلي انضمام جبل الزاوية بزعامة مصطفى الحاج حسين الى ثورة هنانو ، في ٢٧ شباط ١٩٢١ ، مما اتاح نقل الامدادات بينهما . ووصلت وفود الشيخ صالح الى تركيا ، وتم تزويدها بالخرطوس والسلاح (٤٤) .

والى جانب الحصول على الدعم العسكري عمد قادة الثورة الى الاتصال بالقناصل الاجانب لينفوا اتهامات الفرنسيين لهم بانهم يعملون للفوضى والنهب . وقد قاموا بتسليم رسائل متشابهة في ٢٩ اذار ١٩٢١ الى قناصل كل من امريكا وبريطانيا وايطاليا واسبانيا بحلب ، يؤكدون فيها رفضهم الاحتلال الاجنبي ، وعملهم الى جانب الخلافة الاسلامية ، اي العثمانية ، التي تشكل جزءا من الوحدة الاسلامية التي تدعمهم ، واز اعمال الثوار تصدم من القلب ومن وطنية الامة التي تمثلها . وتضيف الرسائل انه بنا على رغبة اللجنة الوطنية التي اجتمعت رسميا في مقر القيادة العسكرية الوطنية ، التي تنتظم فيها جميع فصائل الثوار والاحزاب السياسية في سورية ، وبناء على القرارات التي اتخذتها بتاريخ ٢٧ شباط ١٩٢١ في جلستها الثالثة ، تقرر توجيه هذه الرسائل الى القناصل في بيروت وحلب والمدن السورية الاخرى لابلاغ عصبة الامم بصوت الثوار وقد وقع الرسالة الموجهة الى القنصل الامريكي بحلب ، باسم المجلس الوطني المنعقد في مقر القيادة العسكرية الوطنية ، كل من نائب رئيس الحركة الوطنية العامة في سوريا وفلسطين سيف الدين هلال ، ونائب رئيس قائد الحركات الوطنية العمومية في منطقة حلب صالح العلوي ، وكاتب العام قائد حركات العمومية بمنطقة غربي حلب ابراهيم هنانو . ولا تحمل الرسالة تاريخا (٤٥) . ويتبين من هذه الرسالة اعتماد الثوار على الدء المعنوي للخليفة العثماني ، وبالتالي على دعم الاتراك العسكري . كما انها تشير الى تنظيمات ثورية على مستوى سورية بل بلاد الشام بكاملها .

وفي نيسان ١٩٢١ حدث تبدل هام في موقف تركيا من الثوار وفي موقف هو العسكري ككل . فقد توصلت فرانسبا وتركيا . كما سبق القول ، الى اتفاقية هدنة وقعت بينهما في لندن في ١١ اذار ١٩٢١ ، وناب عن تركيا فيها سامي بك بكير مندو المجلس الوطني الكبير في انقرة ، وعن فرانسبا رئيس وزرائها ووزير خارجيتها اريست

بريان . وتوقفت ، بموجب هذه الاتفاقية ، العمليات العسكرية بين الطرفين ، الفرنسي والتركي ، في منطقة كيليكيا ، كما توقفت تركيا عن تقديم العون العسكري للشوار السوريين ، وسحبت قواتها التي كانت قد أرسلتها لدعم هؤلاء الثوار (٤٦) . وقد ذكر الشفوري (٤٧) أن نجدات فرنسية تزيد على خمسين ألف جندي جلبت من كيليكيا الى سورية في اعقاب الاتفاقية ، فرفضت اعداد الجيش الفرنسي الذي يقاتل الثوار السوريين الى خمسة وسبعين ألف جندي . واكد تقرير المخابرات البريطانية في ٢٠ نيسان ١٩٢١ ان الاتفاقية الفرنسية - التركية وتوقف العمليات في كيليكيا اتاح للفرنسيين استخدام اعداد كبيرة من الجنود ضد الثائرين (٤٨) .

وترتب على هذه التطورات نتائج هامة . فقد اختلت ، اول الامر ، المعادلة العسكرية على الجبهتين السورية والتركية . وكانت القوات التركية المشتبكة مع الفرنسيين في كيليكيا قد افادت من اشغال الثوار السوريين لقوات فرنسية كبيرة ، كان من الممكن ان توجه ضد الاتراك في غياب الثورات السورية . وذكرت التقارير الفرنسية ، مثلا ، ان اكثر من سبع فرق عسكرية فرنسية كانت تقاتل ثوار الشيخ صالح العلي في جبال العلويين في عام ١٩٢١ (٤٩) . ولا ادل على شدة ما اوقعه الثوار السوريون من اصابات في صفوف القوات الفرنسية في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ من اجزاء هذه الاصابات التي قدمتها الحكومة الفرنسية لمجلس النواب الفرنسي في جلسته بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٢٥ . فقد جاء ان عدد الفرنسيين الذين قتلوا ، باستثناء ما قتل من قوات تعمل في الجيش الفرنسي من اصول افريقية شمالية او محلية متطوعة ، بلغ ٢٨٩٣ قتيلا عام ١٩٢٠ ، و ٢٠٣٢ قتيلا عام ١٩٢١ . ثم هبط العدد الى ٦٣٦ عام ١٩٢٢ ، وعاد وارتفع الى ٥٨٨٥ خلال ثلاثة اشهر (١٥ تموز - ١٥ تشرين الاول ١٩٢٥) . ابان الثورة السورية الكبرى (٥٠) .

وبسبب هذه التطورات غدا من الصعب على الثوار الانتصار على الفرنسيين . وكان الحصول على السلاح من الفرنسيين في المعارك أحد المصادر التي زودت الثوار بالسلاح ، والمصدر الاخر هو شراؤه ، وبخاصة من منطقة حماة ، حيث يكثر في ايدي البدو (٥١) . وقد شح هذا المصدر بدوره بسبب تشديد الفرنسيين قبضتهم على القبائل البدوية ومصادرتهم السلاح الذي كان يشتري للثوار من لبنان وفلسطين . وتوقف كذلك المصدر الثالث للسلاح عن طريق تركيا (٥٢) . وكان زعماء الثورة ، مثل هنانو وصالح العلي ، ينفقون ، في تمويل الثوار وتزويدهم بالسلاح ، من واردات املاكهم وقراهم ، ومما يرد الى الثورة من جباية العشر في المناطق التي تسيطر عليها . وكان الممول الاكبر لثورة هنانو الحاج فاتح المرعشي الذي هرب من حلب الى مرعش بسبب

ملاحقة الفرنسيين له ، وكان يُمد الثوار وهو في مرعش بالمال من واردات قراه في المنطقة الحدودية ، كما كان صلة الوصل الرئيسية بينهم وبين الاتراك (٥٣) .

وكان الهاشميون ، سواء في الاردن ام في العراق والحجاز ، يسعون لمد الثورة بالمال والسلاح بقدر ماتسمح به الظروف . وكان ذلك استمرارا لسياسة الشريف حسين وحكومة فيصل العربية في دمشق بدعم الثورات السورية على الفرنسيين . وقد سبقت الاشارة الى ان الجنرال اللنبي اشترط على الشريف حسين عدم ارسال المال الى الثوار . ويذكر الشفغوري (٥٤) ان هنانو وصالح العلي اتصلا بالامير عبد الله في شرقي الاردن لهذه الغاية ، ولكنهما لم يحصلوا منه على اكثر من الوعد بالمساعدة . وقد ذكر ان الامير فيصل ظل يرسل الدعم الى الثوار السوريين بعد خروجه من سورية ، وانه ارسل ، قبل سفره الى العراق ، رسالة الى الشيخ صالح العلي من جدة بتاريخ ٥ شوال ١٣٣٩ / ١٢ حزيران ١٩٢١ يقول فيها انه تلقى رسالة الشيخ صالح ، وانه امر الشريف شند حاكم المدينة بالذهاب فورا الى معان ومنها يتوجه الى الشيخ صالح . وقال فيصل في رسالته انه سيذهب الى العراق ويتابع من هناك الاتصال بالشيخ صالح وينسق العمليات معه . وطلب من الشيخ صالح الا يوقف الاتصال مع شرقي الاردن وان يثابر في العمليات العسكرية ، واضاف « حيث اخذت كلام قطعي من لندن ان لا تنازل عن سورية ، وارجو سيادتكم (هكذا) على اندفاعكم ريثما تتم مخابراتنا مع العشائر » . وقد نفى فيصل رسالته هذه ، كما نفتها الحكومة البريطانية في حين اكدها القنصل البريطاني في بيروت . وتحفظ الوثائق الفرنسية بنص الرسالة العربي وترجمتها الفرنسية التي حصل الانكليز على نسخة عنها (٥٥) . وارسل ابراهيم هنانو بدوره برسالة الى الشريف علي بن الحسين ، قائد عمليات الشمال ، يذكر فيها انه تلقى رسالة من الامير عبدالله بتاريخ ٢٩ اذار ١٩٢١ . ويضيف هنانو انه يحارب لاجل الدين باسم الشريف علي وباسم اللنبي ، وانه بمساعدة الشريف علي قد وحد جهوده مع الشيخ صالح العلي ومع حاجم باشا (عله الامير البدوي من قبيلة العنزة في منطقة الرقة) * ، وانه اسس اربع دول في سورية الشمالية (ربما يشير الى الثورات الاربع التي كان يرأسها) ، باسم الملك حسين . واختتم بقوله « انه يحارب من اجل عقيدتنا ولدعم القضية العربية » . ويلقب هنانو نفسه في التوقيع بانه زعيم الدفاع الوطني في سورية الشمالية (٥٦) .

* يذكر احمو وصفي زكريا ، عشائر الشام ، جزاين ، ط ٢ ، دمشق ١٩٨٢ ، ص ٥٩٨ ، ان حاجم ال مهيد تقلد المشيخة على الفدعان ، ولقب بباشا في عهد الملك فيصل ، وان اهالي قضاء الرقة كلفوه بالاستيلاء على حلب التي احتلها الفرنسيون فسار اليها بقوة بدوية مع سرية من الجند التركي واكن الفرنسيين صدوه .

ولكن نظرا لصعوبة وضع الثائرين العسكري قبل هنانو التفاوض مع الفرنسيين في ١٧ نيسان ١٩٢١ . وتم ذلك في بلدة كورين ، في منطقة ادلب ، دون الوصول الى اية نتيجة (٥٧) . ولذلك عدل زعماء الثورة الهنانية من استراتيجيتهم العسكرية وقرروا جعل تشكيلاتهم الثورية وحدات صغيرة تختص كل واحدة منها بمنطقة معينة . واوصوا بتجنب الاشتباك في معارك مكشوفة تستجرهم اليها القوات الفرنسية ، وبالاكتفاء بأعمال التفجير والمداهمة والمباغته وبالاتقاضي على وسائل التمويل وعلى الدوريات والمخافر . اما الشيخ صالح العلي فقد جرب التفاوض مع الفرنسيين وفشل (٥٨) ، ثم احتل هؤلاء مركز قيادته في الشيخ بدر . واصبحت كل فئة من ثوار الشيخ صالح تعمل مستقلة عن الاخرى . وبعد ان اخذت ثورته بالتلاشي احتجب الشيخ صالح مدة من الزمن ثم استسلم للفرنسيين الذين وضعوه قيد الإقامة الجبرية ، وذلك بتاريخ ٢ حزيران ١٩٢٢ (٥٩) . وتعلق برقية ارسلت من قبل هيئة اركان الجيش الفرنسي في بيروت الى باريس بتاريخ ٧ حزيران ١٩٢٢ تشعر باستسلام الشيخ صالح بان ذلك كان نتيجة لتوقف تزويده بالسلاح من قبل الاتراك في اعقاب الاتفاقية التي عقدها مع الفرنسيين في انقرة في ١٩٢١ . وتضيف البرقية ان الفرنسيين سروا باستسلامه ، الذي توقعوه بعد هذه الاتفاقية ، لانه يعتبر مرحلة هامة نحو استسلام جميع المنطقة التي يتمتع فيها الشيخ صالح بالنفوذ (٦٠) .

وبالرغم من اجراء تعديل في خططهم العسكرية ، لم يتمكن هنانو وثوراه من الثبات . وفي اجتماع لهم رأى البعض الالتحاق بالجانب التركي لقربه وأملا بشأن الهجمات منه ضد الفرنسيين في سورية . ورأى البعض الاخر ، وعلى رأسه هنانو ، الالتحاق بشرقي الاردن ، حيث ثوار الجنوب ، أملا بالمساعدة . ووجدت فئة ثالثة « افعدتها كبر العائلة وكثرة الاولاد عن اللحاق باحدى الفئتين » ، فاختارت البقاء ولكنها اقسمت انها لن تخون القضية (٦١) .

ومن قادة الثورة البارزين الذين انسحبوا الى تركيا ، في الفترة بين ٥ آب واولل كانون الاول ١٩٢١ ، نجيب عويد قائد ثورة كفر تخاريم ، ومصطفى الحاج حسين قائد ثورة جبل الزاوية ، وعمر البيطار قائد ثورة صهيون ، ويوسف السعدون قائد ثورة القصير (٦٢) . وقام هؤلاء بعد ذلك ، وعلى فترات ، حسب الظروف ، بشأن هجمات على الفرنسيين عبر الحدود . واتصف موقف الاتراك منهم ، كما سنرى ، بالتشجيع او بالقمع حسب علاقتهم بفرانسا .

٢ - العلاقات السورية - التركية والمطامع الاستعمارية الاوربية (١٩٢١-١٩٢٦) .

شهدت العلاقات السورية - التركية في هذه الفترة محاولات الحكومة الكمالية

استمالة السوريين اليها عن طريق الدعاة والاحزاب ، كما شهدت الخلاف حول الحدود بين البلدين الذي لعبت فيه المطامع الاستعمارية دورا كبيرا . وتقلب موقف فرانسوا بين مؤيد لتركيا او ناقد عليها ، تبعا لتقلبات السياسة البريطانية وموقفها من الخلاف مع تركيا وفرنسا حول قضية الموصل ، ودعمها الهجوم اليوناني في الاناضول ، وفرض نفوذها في استانبول ، وانعكاس ذلك على موقفها من المعارضة للحكم الفرنسي في سورية . واستثار الموقف البريطاني حكومة مصطفى كمال في انقرة ، كما اقلق الفرنسيين ، وقرب بالتالي بينهم وبين الكماليين . وحين تفاهمت بريطانيا مع الفرنسيين انعكس ذلك على موقف هاتين الدولتين من الوطنيين في سورية ، ومن الكماليين في تركيا .

ادى الاتفاق بين الفرنسيين والكماليين في عام ١٩٢١ الى تفاضي الفرنسيين عن نشاط الكماليين ومؤيديهم في سورية ، ظنا منهم ان هذا النشاط سيوازن ازدياد نفوذ الوطنيين السوريين الذين كانوا يتطلعون الى دعم بريطانيا وامريكا لهم . واختلف موقف بريطانيا من فترة الى اخرى ، ومن قضية الى اخرى ، ومثال ذلك تسليم بريطانيا ابراهيم هنانو ، الذي اعتقلته في فلسطين بعد ان لجأ الى شرقي الاردن ، الى السلطات الفرنسية في سورية في آب ١٩٢١ .

ولم ينقطع تأييد بعض فئات السوريين لتركيا حتى بعد انسحابها الكامل من سورية ، نظرا لارتباط مصالح هذه الفئات بها ، وتمتعها ، في السابق ، بالامتيازات التركية ، او بسبب خضوعها دينيا للسلطان - الخليفة العثماني . ثم جاء احتلال الدول الاوربية لكل من سورية وتركيا فزاد من التقارب بين الشعبين ازاء العدو المشترك . وكان لانتصارات مصطفى كمال ضد تحالف الدول الاوربية المحتلة لتركيا ، وبخاصة قتاله الفرنسيين في كيليكيا ، صدى محببا لدى الشعب السوري الذي كان يقاتل هو الآخر الفرنسيين . وترجم هذا الاعجاب بالتعاون بين الثوار في البلدين . ولم يخفف من هذا التعاون ، حتى في الاوساط المحافظة السورية ، ازدياد النفوذ البلشفي في صفوف الكماليين وانتقاله من خلاصهم الى سورية . وقد زاد الاتفاق الكمالي - السوفيياتي في ١٦ اذار ١٩٢١ من نشاط البلاشفة ، ليس فقط في تركيا وانما في سورية ايضا . ووجد بين العلماء المسلمين من رحب بهذا التعاون مع روسيا البلشفية . ولا ادل على ذلك مما كتبه احد كبار العلماء ، وهو الشيخ محمد رشيد رضا ، في جريدة (المنار) التي كان يصدرها في مصر في عام ١٩٢١ قائلا : « ومن آيات الله وحججه ايضا ان سخر الدولة الروسية الجديدة لمظاهرة الترك وشد ازهرهم بعد ان كانت هذه الدولة على عهد القياصرة هي الخطر الاكبر على السلطنة العثمانية » (١٢) .

وقد اقلق هذا النفوذ التركي المتزايد في سورية الفرنسيين في وقت مبكر من

احتلالهم البلاد ، مما حدا بمراقب عالم بأمور المنطقة مثل المستشرق لوي ماسينيون ان يبدي دهشته من ازدياد هذا النفوذ ، وذلك في برقية له من حمص الى روبر دو كيه في بيروت ، بتاريخ ٢ كانون الاول ١٩٢٠ ، اشار فيها الى خطر تبلور النفوذ التركي الذي هو في اساس المشاعر الاسلامية والذي كان مفيدا لفرانسا في البدء ولكنه سيتحول ضدها اذا ما نفذ مصطفى كمال تهديده بمهاجمة حلب في الربيع (١٤) .

وظهرت ، بين الفينة والاخرى ، علائم تخوف من قبل الفرنسيين من ازدياد النفوذ التركي في سورية . ومن ذلك رفض السلطة الفرنسية طلب بعض مسلمي دمشق ، في آيار ١٩٢١ ، السماح لهم بجمع التبرعات لجمعية الهلال الاحمر التركية بحجة ان تركيا لم توقع بعد على معاهدة الصلح (١٥) .

وبالرغم من التحفظات الفرنسية على نشاط الكمالين واتباعهم في سورية ، ازداد هذا النشاط ، الى حد كبير ، في اعقاب الاتفاقين بين فرانسا وتركيا في آذار وتشرين الاول ١٩٢١ . وتسرب الدعاة الاتراك من جماعة الاتحاد والترقي ، متسترين بلبوس تجار او موظفين او ضباط عثمانيين سابقين ، الى المدن الكبرى في سورية وفلسطين ، كما تشير المخابرات البريطانية . وكان هؤلاء الدعاة ينشرون دعوتين : يقولون للذين هم من اصول تركية ويتكلمون العربية الا يقاوموا الفرنسيين بل يساعدونهم كأصدقاء ، ويقولون للعرب انتظروا قليلا لانه بعد ان اصبح الفرنسيون اصدقاءنا وغيروا سياستهم السابقة سيفعلون مثل ذلك بالنسبة لكم . ويهيئون بالجميع لمقاومة بريطانيا العدو المشترك الذي يبتلع الامم . والجدير بالذكر ان بريطانيا آنذاك كانت تحتل استانبول وتدعم الاحتلال اليوناني في الاناضول . ويعلق تقرير المخابرات البريطانية على ازدياد النفوذ التركي هذا بان الفرنسيين غير قادرين على الاحتفاظ باستمرار بخمسين الف جندي في سورية لدعم سيطرتهم عليها ، ولذلك لن يتمكنوا من مقاومة الوجود التركي المسيطر حتى في دوائر الدولة . ودليل ذلك ان قائد الدرك في دمشق ، وحيد بك ، هو تركي من جماعة الاتحاد والترقي ، كما ان حقي بك العظم رئيس دولة دمشق معروف بولائه لتركيا ، وكذلك مدير الشرطة حمدي الجلاد الذي كان يعمل لحساب جمال باشا . وفي حلب كان معظم الموظفين الكبار من المتعاطفين مع الاتراك (١٦) . وقد رحبت حلب اكثر من غيرها بالاتفاق الفرنسي - التركي بسبب تضرر تجارتها من اغلاق سوق الاناضول التقليدي في وجهها . ونشط الهدوء على الحدود تجارة حلب وقصدها تجار الاناضول لشراء منتجاتها (١٧) .

وقد تسرب النفوذ التركي ايضا من خلال جمعية سرية للكمالين تدعى استقبال ، بدا التحدث على وجودها في تموز ١٩٢١ . وكان المركز الرئيسي لهذه الجمعية في سورية في حلب ، ولها فرع في دمشق ، وهي على اتصال دائم بمسؤول تركي يدعى نهاد باشا

في ماردين . وكان اكثر اعضاء الجمعية نفوذا في دمشق حسب تسلسل اهميتهم : يحيى حياتي ، الذي كان ضابطا في الجيش التركي ثم التحق بالجيش العربي الشريف ، محيي الدين مملوك ، وهو ضابط سابق ويشغل آنذاك رئيس معتمدية الدرك ، بديع بكداش ، ضابط في الدرك ، الضابط سليم (٤) ، وحيد بك قائد الدرك ، وهو شقيق يحيى حياتي ، ووجيه الايوبي ، وهو ضابط سابق في الجيش العثماني . ويجمع بين هؤلاء انهم كانوا ضباطا سابقين في الجيش التركي ثم التحقوا بجيش الامير فيصل . ويليهم في الاهمية عثمان الشرابي ، وهو تاجر ، وعبد الله المهاني من الميدان ، وجلال باقي ، ثم والده باقي افندي ، والشريف تقي الدين (٥) نقيب الاشراف السابق ، ونسيب البكري ، مستشار الامير فيصل سابقا ، وشاكر بك الحنبلي ، متصرف دمشق . واقتصر عمل فرع الجمعية في دمشق على الدعاية للكماليين . وكانت الجمعية ككل معنية بمساعدة الموظفين السابقين في العهد التركي في العودة الى الوظيفة . وذكر ان الرئيس العام لجمعية استقبال هو التركي كمال بك ، ابن علي رضا بك ، وانه زار دمشق في ايلول ١٩٢١ قادما من انقرة . ولا يعلم فيما اذا كان المقر الرئيسي لهذه الجمعية هو انقرة (٦٨) .

وازدادت مع الزمن اعداد السوريين المجندين للقضية الكمالية . ونذكر في دمشق الاشخاص التالية اسماؤهم الذين كانوا يجمعون المال للكماليين في تشرين الاول ١٩٢١ ، وهم : سعيد عبيد ، سعد دمشقية ، محيي الدين جمعة ، وجميعهم من التجار ، ثم حقي زكريا من الشرطة (٦٩) . كما ذكرت ، في الشهر نفسه ، أسماء عدد من الكماليين الناشطين في دمشق ، وهم : مصطفى (٤) ، وكان ضابط احتياط في الجيش التركي ، كول اغاسي عرفان افندي ، وهو ضابط سابق في الجيش التركي ، ابراهيم حقي ، وهو الاخر ضابط سابق في الجيش التركي ، وجميعهم من اصل عربي . والى جانب هؤلاء ذكر الضابط زكي الحلبي ، وكان قائدا للشرطة في عهد فيصل ، وضابط المدفعية عبد الفتاح ، الذي عمل في وزارة الحربية في عهد فيصل . وداب هذان الضابطان على تجنيد الاعضاء للجمعيات الكمالية السرية في دمشق (٧٠) .

وشاع في دمشق ، في تشرين الاول ١٩٢١ ، امر رسالة يعث بها هندي من برلين ، عبر انقرة ومرعش ، الى هندي في دمشق يدعى رمضان محمد او رمضان بن محمد . وكان هذا يمتن الكحالة ، ويحمل التابعة البريطانية ، ومسجلا في القنصلية البريطانية بدمشق . وهو عضو في فرع دمشق لجمعية دولية تسمى الجمعية الاسلامية . وتحدث الرسالة التي كتبت بالعربية عن اطماع الدول الغربية لابتلاع الامم الشرقية بعامة ، والعالم الاسلامي بخاصة ، وان هذه الدول قد زادت في شدة استبدادها ، وهدفها القضاء المبرم على جميع امم الشرق . لذا ، تقول الرسالة ، اتصل « عقلاء الامم

الشرقية » ، من سائر الاديان والاجناس ، ببعضهم ، وقرروا تأسيس جمعية عمومية شرقية غايتها خلاص الشرق من اسر الغرب . وانضم الى هذه الجمعية الشرقية كثير من احرار الامم القريبة . واجمع عقلاء الامة الاسلامية في الشرق على تأييد هذه الجمعية وتشكيل فرع اسلامي لها مستقل في ذاته يتفق معها في المبدأ ، وهو تخليص الشرق من الغرب ، وينفرد عنها في شؤون خصوصية ، وهي ضم جميع العناصر الاسلامية بعضها الى بعض ، والاهتمام بترقية شؤون المسلمين . وقد تأسست هذه الفرقة في برلين تحت اسم « الجمعية الاسلامية » ، واعضائها من اعظم الرجال من سائر الاقطار الاسلامية . وتشكلت شعبة عسكرية مخصوصة لهذه الجمعية برئاسة انور . وقد اتسعت هذه الحركة واتفقت مع الفرق الانقلابية بين المسلمين . وتعمل الجمعية الاسلامية في مصر وانقرة وغيرها . وهي متفقة مع موسكو وايرلندا وغيرها ، لنجدها بالسلح والمال والقوة ، من غير ان يكون هناك اقل اتفاق للقبول بالمبدأ البلشفي . وتذكر الرسالة انه سيعقد بعد قليل مؤتمر عام ثان في برلين للجمعية الاسلامية . وتضيفان حكومة انقرة ستعقد الصلح طبق رغائبها ، ولكن الامة التركية لم تنته وظيفتها لان القيام سيكون عاما في سائر الاقطار الاسلامية والشرقية . ولا يمكن تحرير البلاد الا بحرب العصابات . وتطلب الرسالة جوابا عليها ، وعندئذ تعلم الجمعية فروعها بعنوانها في برلين وروما وغيرها من المراكز . وقد اعطيت نسخة من الرسالة الى ثروت بك ، وكان سابقا في خدمة الهاشميين . ووصلت هذه النسخة الى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي اعطاها بدوره الى القنصل البريطاني بدمشق . وحصل على نسخة اخرى حسن افندي الزنبركجي ، مخبر القنصل . واعطيت هذه النسخة الى علي رضا باشا الركابي الذي اخبر القنصل بها . وكان الزنبركجي عضوا في الجمعية ثم انسحب منها لانها تعمل ضد الهاشميين . وضم فرع الجمعية الاسلامية بدمشق الاسماء التالية : الشيخ عبد القادر الاسكندراني ، مدرس السنائية ، وهو رئيس الفرع ، وزكي الطيبي ، وعبد الفتاح ومحمود كول اغاسي ، وسليم طبنج ، وكلهم ضباط سابقون في الجيش التركي ، بالاضافة الى راجي افندي ، وهو كاتب رئيسي في المحكمة الجزائية بدمشق وشوكت العائدي ، شقيق منيف العائدي ، وهو ضابط سابق لدى الامير عبد الله طرده الامير ، ورمضان محمد . وقد حاولت الجمعية استمالة الامير عبد الله للانضمام اليها ولكن الامير اعتقل موفدها وارسله الى مصر (٧١) .

ويبدو ان الجمعية الاسلامية هذه كانت تعمل بصورة وثيقة مع الكمالين ، بدليل ان احد اعضائها البارزين وهو رمضان محمد الهندي تلقى رسالة منهم ، بطريق مرعش ، في اوائل كانون الاول ١٩٢١ ، تشير الى تفهم الكمالين لانزعاج الدمشقيين من توقيع الاتفاقية بينهم وبين الفرنسيين . والمقصود طبعا اتفاقية فرانكلين - بويون

المعقودة في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ . وتوضح الرسالة ان الحقيقة هي ان الاتفاقية تعطي الاتراك السيادة على سورية (في الواقع تعطيهم فقط امتيازات في لواء الاسكندرونة) وان دور فرانس كدولة منتدبة يقتصر على الامور المالية والادارية . وتضيف الرسالة ان الكمالين عندما ينهون صراعهم مع اليونانيين فسيوجهون قواتهم باتجاه سورية (٧٢) . ويلاحظ ان نشاط الجمعية الاسلامية وتأكيدها على جمع المسلمين ومعاودة الاوربيين اخرج موقف الكمالين ، اثر عقدهم الاتفاقية مع فرانس ، مما اقتضى ارسالهم هذه الرسالة لاشاعة الاطمئنان ولابداء استعدادهم بالتوجه الى سورية ضد الفرنسيين في احسن الظن .

وجرت محاولة اخرى في دمشق للتهوين من امر اتفاقية تركيا مع فرانس ولامتصاص نقمة الجمعية الاسلامية وغيرها . فقد تحدث الامير سعيد الجزائري ، في احتفال دعا اليه في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢١ بمناسبة المولد النبوي ، وشارك فيه المسلمون والمسيحيون ، على وجوب عدم النظر للمسيحيين على انهم كفار لان القرآن الكريم اعترف بهموسى وعيسى . ورغم ان هذا الكلام ينسجم مع سلوك جده الاكبر الامير عبد القادر الجزائري ، الذي دافع عن المسيحيين في دمشق ، فقد فسر كلام الامير سعيد في تلك الفترة بالذات ان القصد منه عدم وجود اعتراض ديني على الصداقة الكاملة بين المسلمين وفرنسا ، والهدف من ذلك الدفء عن الاتفاقية التركية - الفرنسية . ومن شأن هذا التصريح ايضا ان يوازن موقف الداعين الى تحقيق الجامعة الاسلامية . وحتى لو كان كلام الامير سعيد عفويا ، فمن شأنه ان يوظف لهذه الاهداف (٧٣) .

واتضحت ، فيما بعد ، نوايا الامير سعيد من تأييده لتركيا لانه ، بعد ان عجز عن الوصول الى حكم سورية بدعم من الفرنسيين ، توخى الخير من دعم الاتراك . عجز عن الوصول الى حكم سورية بدعم من الفرنسيين ، توخى الخير من دعم الاتراك . ويذكر كيف ان الامير سعيدا قد ترأس حكومة مؤقتة في دمشق دامت ثلاثة ايام ، بين انسحاب الاتراك منها في ٢٧ ايلول ١٩١٨ ودخول الجيش العربي اليها في الاول من تشرين الاول (٧٤) . وغدا الامير سعيد من انشط الدعاة للكمالين . وذكر القنصل البريطاني في دمشق ، في تقرير له بتاريخ ١٩ حزيران ١٩٢٢ ، وبكثير من التحفظ لان المعلومات نقلت اليه من اشخاص معادين للنشاط التركي ، ان الامير سعيدا ترأس جمعية تدعو للكمالين في دمشق ، وان هدفه ان يصبح اميرا على سورية بمساعدة الاتراك . وقيل ان الامير التركي صباح الدين ، الذي ايد الحركة التحررية الكمالية ، كان يدعم الكمالين في دمشق . وذكر مصدر موثوق للقنصل ان المؤيدين لتركيا في دمشق ارسلا مصطفى فخري وداود مارديني ومحمود الخيمي الى انقرة للحصول على المال للاستمرار في الدعاية للكمالين (٧٥) .

ومن المرموقين دينيا في دمشق الذين عملوا للكماليين ابان قتالهم للفرنسيين وقبل فصلهم السلطنة عن الخلافة ثم الغاء هذه الاخيرة ، الشيخ الكتاني ، ولعله السيد مكي . . وكان مغربي الاصل ، وفي دمشق من فضله على الشيخ بدر الدين الحسني . وقد زاره فيصل ابان حكمه ، وطلب منه مصطفى كمال الشخوص اليه ، ووافق الفرنسيون على سفره . وبعد عودته عمل في الدعاية للكماليين . وقيل ان جميل الاشبي ، الذي كان يتردد على الشيخ الكتاني ، عمل هو الآخر في الدعاية للكماليين (٧٦) .

ويبدو ان اتفاقية تركيا مع فرانسوا سرعان ما تناساها بعض السوريين على الاقل ، وبخاصة دعاة الكماليين في سورية . وازداد نشاط هؤلاء الى درجة كبيرة . وبرز في هذا الميدان في دمشق ، في حزيران ١٩٢٢ ، كل من سعد الله نامق من حلب ، وامين بك جركس . وغالب النائلي ، الكاتب الرئيسي في ديوان حاكم دمشق حقي بك العظم ، والشيخ عبد الجليل الدرة . وقد وصف هؤلاء بانهم يبذلون جهدا كبيرا في نشر الدعاية التركية في سورية ، وكسبوا الى صفهم انور البكري ، قريب نسيب البكري ، ونشروا بيانا حثوا فيه العرب على عدم نسيان اصدقائهم القدامى الاتراك ، ودعوا للاعداد لثورة على الفرنسيين . وتضمن البيان وعدا من الاتراك بارسال كمية من الاسلحة في وقت قريب الى السوريين المؤيدين لهم .

وكان عدد من هؤلاء المؤيدين ناشطا آنذاك في جمعية عرفت بجمعية تخليص الشرق الادنى ، دعت في دمشق الى الثورة على الفرنسيين وتأييد الاتراك . وذكر ان برنامج الجمعية اتي به من انقرة الى دمشق على يد شخص يدعى محمد محيي الدين بك الذي كانت له علاقة بالبنك الزراعي في انقرة . وقيل ان هذه الجمعية جزء من حركة تعاون فرنسي - تركي هدفه تحقيق اتحاد اسلامي تحت رعاية فرانسوا . ويدعو برنامج الجمعية الى الحكم الذاتي والاستقلال ، ويشجب تدخل الدول الاوربية ، مثل فرانسوا وبريطانيا وامريكا ، في سورية بشكل خاص وفي مصر وفلسطين وغيرها من البلاد الشرقية ، ويقول بالتعاون مع الشعوب الشرقية تحت شعار الشرق للشرقيين ، ويذكر ان الاجانب قتلوا الاقتصاد الوطني الذي يجب تشجيعه . ويؤكد البيان للسوريين ان اربع عشرة دولة شرقية تؤيدهم . ولهذه الاهداف تشكلت هذه الجمعية في سورية ، وسترفع تقاريرها الى مقر الجمعية الرئيسي . ولا يذكر البيان مكان هذا المقر .

وتمت جمعية تخليص الشرق الادنى في عضويتها كلا من : اديب تقي الدين ، عبد الجليل الدرة ، عبد الحميد العطار ، عبد المحسن الاسطواني ، انور البكري ، سليم الملقى ، محمد البكري ، حمدي الجلاد ، صادق التميمي ، سليم الجيرودي ،

محمد حسين مير كردي ، ابناء عبد الرحمن باشا اليوسف ، عطا المجلائي ، الشنيخ محمد المجتهد ، صادق الميداني ، ابو الخير الفرا ، توفيق المنيني ، محمد الكزبري ، موسى كاظم ، جلال باقي ، حلمي عزيز ، داود مارديني ، محمود عابد ، ومعظم اسرة العابد وآل السكري ، عارف القدسي وعزت الخجا (٧٧) . وشكلت هذه الاسر ، التي جانب الضباط السابقين في الجيش التركي ، دعامة النفوذ التركي في سورية ، وذلك نظرا للامتيازات التي تمتعت بها سابقا والتي طمعت بالحصول عليها من جديد . كما ان فرنسا كانت تؤيد بعضهم . ومع ذلك شكل هؤلاء ، بتوجههم نحو تركيا ، اقلية سياسية بالمقارنة مع الفئات التي تعاملت مع الفرنسيين ، والجماعات الاكثر عددا التي قاومت الحكم الفرنسي (٧٨) .

ومما شجع على ازدياد نشاط الكماليين في سورية تحسن العلاقات بشكل مطرد آنذاك بين فرنسا وتركيا ، حتى انه ذكر ان الكماليين مارسوا ضغطا على فرنسا لتعيين صبحي بركات ، الذي عرف بنشاطه وبميوه وبلغته التركية ، وبتسميته فيما بعد عضوا في البرلمان التركي ، رئيسا للاتحاد السوري في ٢٩ حزيران ١٩٢٢ (٧٩) وطبيعي ان فرنسا ، هي الاخرى ، كانت راضية عنه لتخليه عن قيادة الثورة ضدها في منطقة انطاكية واعلانه الولاء لها .

وكانت فرنسا تعد تركيا بالعتاد الحربي ، بما في ذلك الطائرات ، لاستخدامه ضد المحتلين اليونانيين في غربي الاناضول . ويشحن العتاد من بيروت وطرابلس اما مباشرة الى ميناء مرسين او الى ميناء الاسكندرونة ومنه الى كيليكيا . وهدفت فرنسا من هذه المساعدة الى اقامة توازن مع النفوذ البريطاني في المنطقة (٨٠) .

ولم تخفف مساعدة فرنسا لتركيا من معارضة السوريين للانتداب الفرنسي . واستقبلت انتصارات تركيا على اليونانيين في الاناضول بمظاهر الفرح في دمشق وبالتظاهرات والاحتفالات في حلب . واطلق على مصطفى كمال لقب سيف الاسلام . وبرزت انتصاراته لان الوطنيين السوريين كانوا يقاتلون بدورهم من مقاومة الفرنسيين لهم (٨١) . واقامت الصلوات في المساجد بهذه المناسبة . وذكر ان الاحتفالات اقيمت كل يوم في مسجد من مساجد حلب على نفقة دائرة الاوقاف (٨٢) . وارسل مصطفى كمال برقية الى مفتي دمشق يعلن فيها انتصاره على اليونانيين ويطلب اليه اقامة الصلوات في الجوامع لنصرة قضية الاسلام . واقامت الصلوات في عدة جوامع في دمشق مساء ٢٢ ايلول . وارسلت برقية من بعض الشيوخ والاعيان الدمشقيين يهنئون فيها مصطفى كمال . وفي بيروت جمعت عشرة الاف ليرة ذهبية وارسلت الى الكماليين (٨٣) . ويعلق القنصل البريطاني في بيروت على مظاهر الفرح هذه بان السكان

سجروا فعلا بانتصارات مصطفى كمال على اليونانيين وتحديه الدول الاوربية وتنافسوا موقف مصطفى كمال من الخليفة العثماني الذي جرد من صلاحياته كسلطان . ولكن السوريين لم ينسوا بعد الماضي ، وبخاصة تجنيد الاتراك لهم وارسال الالاف منهم الى جبهة اليمن حيث قتلوا (٨٤) . وخشيت العناصر غير الموالية لتركيا من اعادة احتلال تركيا لشمال سوريا على الاقل ، وربما للبلاد بكاملها . ومما ساعد على هذا التخوف ان بريطانيا والشريفيين في الاردن والحجاز كانوا منشغلين آنذاك بالتوسع الوهابي وحشد القوات على حدود المنطقتين . وزاد في الامر ان قائد الدرك في دمشق عرض في ٢٢ ايلول ١٩٢٢ على حوالي الفي ضابط تركي سابق يقيمون في دمشق التوظيف في لبنان الكبير . وبدا للناس ان القصد من ذلك اعادة تدريب هؤلاء الضباط لصالح الاتراك .

ونشط الكماليون في مجال توزيع المنشورات في سورية ، كما عملت بعض الصحف لصالحهم . وابرز هذه الصحف جريدة « فنى العرب » ، ذات التوجه الاسلامي التي عرف عنها موالاتها للكماليين (٨٥) . ولم يغب عن ذهن المراقبين في دمشق تساهل الفرنسيين تجاه توزيع المنشورات المؤيدة للكماليين وشدتهم بالنسبة لموزعي المنشورات الوطنية الذين صدرت الاحكام بسجنهم ، كما ذكرت تفاصيلها جريدة « الف باء » بتاريخ ٢٢ ايلول ١٩٢٢ و ٢ تشرين الاول ١٩٢٢ و ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٢ . حكم على موزعي المنشورات الوطنية ، بموجب هذه الاحكام ، بالسجن مددا راوحت من سنة الى خمس سنوات .

وكانت اكثر المنشورات التركية رواجاً صور مصطفى كمال ، وتحمل احداها ، التي وزعها دعاة في دمشق ، العبارات التالية بالعربية ، في الاعلى : وما النصر الا من عند الله ، وفي الجانب الايمن : حب الوطن من الايمان ، وفي الطرف الايسر : الوطن فوق كل شيء ، وفي الاسفل : محرك العواطف العثمانية والقائد العام للجيش الوطني بطل الاناضول دولة المشير الغازي مصطفى كمال باشا . وبلي ذلك اسم دار النشر وهي مكتبة الامل ، بيروت ، شارع المعرض . ووزعت ايضا صورة اكبر لمصطفى كمال تحمل كتابة تركية (٨٦) .

ووزعت المنشورات الدعائية التركية في دمشق اما مجانا او بسعر اقل بكثير من سعر التكلفة . ويدل بيعها على رواجها ، كما ان تقاضي سعر رمزي عنها يضيف عليها الاحترام . وتظهر احدي الصور التي بيعت في دمشق انور باشا يقدم خريطة تركيا الى مصطفى كمال باشا . وكتب بالعربية على هذه الصورة : البطل انور باشا يهدي خريطة تركيا الى الغازي مصطفى كمال باشا عقب انتصار الجيش العثماني . ولقبت

انتباه الناس في هذه الصورة ان سورية تظهر على الخريطة باللون الاحمر وانور باشا يشير اليها باصبعه . وتظهر صورة اخرى الشيخ السنوسي ، الذي كان يقاتل في الاناضول الى جانب الكماليين ، ومصطفى كمال باشا وصالح الدين الايوبي وهم يحيطون بالقرآن الكريم . وكان المطلب شديدا على هذه الصورة ، وباعها الاولاد في الشوارع بشفير بخس . ومثلت صورتان اخريان حرية النساء في ظل الحكم التركي ، وبيعتا في مجموعات كتب على غلافها بالفرنسية : جميلات شقيقات ، وبالتركية : هدايا استانبول وكان لهذه الصور زواج كبير بين النساء السوريات بسبب الازياء التي ظهرت فيها (٨٧) .

وقد وصفت الدعاية التركية في سورية في تشرين الثاني ١٩٢٢ بانها ناجحة . ووضعت مبالغ كبيرة من المال بتصرفها . وكانت بعض الطبقات المحافظة والدينية تؤيدها علنا . وقام بالترويج لها في الغالب شبان من اصول تركية ومعطية . واثار هذا التأييد خشية الطبقات العليا من اقطاعيين وبورجوازيين ومثقفين وطنيين الذين عارضوا النفوذ التركي . كما ان الجمع بين الدعاية الكمالية والدعاية البلشفية من قبل البعض اثار غائلة بعض المحافظين ، وكذلك حفيفة بريطانية خشية تسرب ذلك الى فلسطين والعراق . لذا قرر القنصل البريطاني بدمشق التشدد في منح الكماليين والبلشفيين سمات الدخول الى مناطق الانتداب البريطاني .

وجرت محاولة آنذاك لانشاء حزب تركي بلشفي في سورية . واعتقل الفرنسيون كلا من مصطفى فخري وراجي افندي القباني ، لذهابهما الى أنقرة وتفارضهما مع الاتراك لهذا الغرض ، وكذلك لذهابهما الى بيروت لمقابلة محيي الدين باشا حاكم ارضنة وكيليكيا وتبادل الرأي معه حول انشاء هذا الحزب . وقد اعطاهما مائتي ليرة تركية ذهبية لانشاء الحزب ، ووعد ان يحصل لهما على ٢٥٠٠٠ ليرة لهذا الغرض . وقد اعترف راجي افندي القباني بهذه الوقائع امام محكمة عسكرية في دمشق بينما نفى زميله ذلك (٨٨) .

وطبيعي ان الكماليين لم يكونوا يعملون في فراغ ، لان الحركة الوطنية في سورية ضد الفرنسيين كانت مسيطرة على الساحة المحلية ، سواء في المدن ام في الارياف ، ويمثلها في المدن نخبة من الوطنيين تدعمهم تنظيمات سياسية وتحركات شعبية . وكان من ابرز هذه التنظيمات في السنتين الاوليين من الانتداب الفرنسي جمعية القبضة الحديدية . وتخرج معالجة هذه التنظيمات عن نطاق بحثنا .

وحدث في اواخر عام ١٩٢٢ تحول كبير في العلاقات الفرنسية - التركية ، بسبب حشد تركيا قواتها على حدودها الجنوبية وتهديدها باحتلال منطقتي الموصل والاسكندرونة وغيرهما من المناطق بحجة تسوية الحدود . وقد قربا هذا الخطر

المشترك بين بريطانيا وفرنسا ، وبرزت مشكلة الحدود بشكل عنيف منذئذ . وعادت تركيا الى دعم الثوار السوريين اللاجئين اليها في شن هجماتهم عبر الحدود ضد الفرنسيين في سورية . ووجدت لجان كمالية متطرفة في عنتاب وكلس واورفه ، كانت على اتصال بالعناصر الموالية للكماليين في حلب وجوارها . كما كانت تقدم الدعم لمجموعات الثوار السوريين في جبل الزاوية وعلى العاصي . وكان ابرز هؤلاء المتطرفين الشيخ السنوسي ومركزه اورفه (٨٩) . وتأثرت الحالة الاقتصادية في حلب الى حد كبير من جراء استئناف هجمات الثوار الاتراك والسوريين عبر الحدود وتهديد قطاع الطرق للطريق التجاري بين حلب والاسكندرونة .

وانعكس هذا التطور في العلاقات الفرنسية - التركية على نشاط الكماليين في سورية ، اذ اخذت فرنسا في ملاحقتهم في اوائل عام ١٩٢٣ . ونشرت جريدة « فتي العرب » الدمشقية بتاريخ ٦ شباط ١٩٢٣ بيانا اذاعه الكولونيل بتشون ، مراقب الامن العام في لبنان الكبير ، الى رجال الامن العام هذا نصه : لقد علمت للمرة الثالثة ان بعضهم يبيع كتباً ورسوماً قصد بث الدعوة الكمالية ، واتصل بي ان احد الباعة كان يعرض في شارع النبي خريطة سورية والعلم العثماني مرفوع فوقها على حلب وانطاكية وحماه فلذلك انبه الى ضرورة منع هذه الامور ومصادرة كل خريطة او رسم او كتاب من هذا الصنف (٩٠) . وفي حلب ، في الفترة نفسها ، اوقف الفرنسيون بيع كمية من صور مصطفى كمال التي كان يعرضها اصحاب المحلات في واجهات محلاتهم (٩١) .

وضرب الفرنسيون بقوة ضد جمعية ثورية تركية اتخذت اسم الحزب الثوري الوطني ، وكانت تعمل في حلب . ووزع هذا الحزب ، قبيل زيارة الجنرال ويفان المفوض السامي الفرنسي لمدينة حلب ، منشورا في مختلف انحاء المدينة ، كما بعث برسالة مؤرخة في ٢٧ ايار ١٩٢٣ ، ضمنها نسخة من المنشور ، الى القنصل البريطاني في حلب . ويقول القنصل ان لغة الرسالة العربية ركيكة وتظهر صياغة تركية . وجاء فيها ان رسالة وصلت الحزب الثوري من عنتاب تعلم بالوصول الى اتفاق بين حكومتكم (اي بريطانيا) وحكومتنا التركية . ولهذا فان حزبنا الوطني الحلبى ، الذي يرتبط مباشرة بالمجلس الكبير في انقرة ، يشكركم على هذا الاتفاق . وتضيف الرسالة ان الحزب الثوري امر بان يشرح الى سكان حلب مهمة الجنرال ويفان ، ولهذا اصدر الحزب المنشور وفقا للاوامر التي تلقاها من حزب الدفاع التركي . وتطلب الرسالة من القنصل المساعدة المادية والمعنوية ومنح الحماية الادبية لبعض الاشخاص اذا ما قبل ان يلتقي ومندوب الحزب . وتمضي الرسالة الى القول ان هدف الحزب طرد الفرنسيين وان تحركاته مبنية على تحركات الجيش التركي وحزب الدفاع . وتحمل الرسالة في النهاية اربعة احرف بمثابة التوقيع . ويبدأ المنشور باسم الله ثم يهيب

بالعرب ان يفيقوا من سباتهم . ويندد بمساويء الفرنسيين ويقول ان الجيش الكمالي على اهبة الاستعداد للسير الى سورية ، ويطلب من السكان دعمهم له . ويشير الى ان الضباط الاتراك السابقين التحقوا بالجيش الكمالي واقسموا على دخول حلب رافعين العلم المقدس ، وعلى السكان ان يدعموهم . ثم يذكر كيف ان الفرنسيين بعد ان دعموا الاتراك قاموا ضدهم الان ، في حين انكلترا ، عدوتهم وحليفة امريكا ، قد عقلت وتفهمت الاتراك .

وقد اعتقل الفرنسيون اعضاء هذا الحزب الثوري ، وحاكموهم امام محكمة عسكرية ، وحكموا بتاريخ ٩ ايلول ١٩٢٣ على عدد منهم بالسجن مددا راوحت بين خمس سنوات وعشرين سنة ، مع مصادرة اموالهم ونفي بعضهم . والذين حكم عليهم هم : بهجت بك ، علي اسحق ، محمد سليمان المعروف بابي سليم ، سليم الوراق ، الحاج احمد ابو قدرو المصري ، حمدي بك ، محمد صبري ، عبدو ابن قدري ، صفو المصري ، فتاح البيطار ، طاهر بن عبد القادر ، مصطفى بن علي الخربوطلي ، محمد صبري سليمان ، وهو مأمور في الشرطة ، وتوفيق حسن بك الشامي . وقد اطلق سراح الحاج احمد ابو قدرو المصري وطاهر بن عبد القادر وتوفيق حسن بك الشامي لان الحكم ضدهم لم يكن بالاجماع . كما انحي باللائمة ، اثناء المحاكمة ، على مدير شرطة حلب ، عزيز بك خياطة ، وهو من اصل عراقي ، لقوله بانه لا يعرف شيئا عن وجود هذا الحزب ، ثم طرد من الخدمة وامر بمغادرة حلب الى بغداد (٩٢) .

وبالاضافة الى محاولة الفرنسيين قمع الحركة المؤيدة للكماليين ، قام هؤلاء ، من ناحيتهم ، باغضاب عدد كبير من مؤيديهم داخل تركيا وخارجها حين الفوا السلطنة وابقوا على الخلافة في ١ تشرين الثاني ١٩٢٢ . ففي حلب مثلاً ، حيث كان النشاط الموالي للكماليين قويا ، استقبل الغاء السلطنة وتجريد الخليفة من اية سلطة مدنية بالوجوم ، وبخاصة في اوساط رجال الدين ، الذين اعتبروا ذلك العمل خطيئة سياسية كبرى (٩٣) . ومع ذلك ، لم يشن الراي العام المتدين هجوما سافرا على الكماليين بسبب ذلك . وكانت « المنار » تعبر عن رأي الكثيرين حين قالت ان فصل السلطنة عن الخلافة والغاء الاولى هو خطيئة يجب الا تتخذ عذرا لاضعاف صمود الكماليين ضد الاستعماريين . فالكماليون يستحقون الدعم ، ويؤمل ان يعيدوا الاعتبار الى الخليفة في المستقبل (٩٤) . وكتب محمد جميل بيهم ، وهو مؤرخ لبناني ، في مجلة « العرفان » انبيروتية انه بالرغم من تصدي مصطفى كمال ومؤيديه للدين ، فهم ليسوا اعداء الاسلام (٩٥) . وعلقت « العرفان » التي استعرضت تاريخ الخلافة فيما بعد على الفائها بقولها : « فما هي باول قارورة كسرت في الاسلام » (٩٦) . وحين الفى الكماليون الخلافة في ٣ اذار ١٩٢٤ اصيب النشاط الموالي للاتراك في سورية بضربة كبرى (٩٧) .

واغتاز الفرنسيون حين أعلن الشريف حسين خليفة ، لأن ذلك سيثير الاضطرابات عليهم في سورية ، فقاموا باعداد عريضة لتوقيعها من علماء دمشق ضد خلافة الملك جنين (٩٨) .

والسؤال الذي يطرح نفسه بشأن ازدياد الشعور المؤيد لتركيا الكمالية في سورية هو: الى اي مدى يعبر هذا الشعور عن رغبة حقيقية وعامة في العودة الى الحكم التركي ؟ . لقد أعجب السوريون ، كما أعجب غيرهم ، وبخاصة الشعوب التي كانت تناضل ضد الاستعمار الاوربي ، ببطولة مصطفى كمال وطرده الدول الاوربية من الاناضول لأن السوريين انفسهم كانوا يرزحون تحت الحكم الاوربي . كما انهم قدروا مساعدة الكمالين للثورات السورية الاولى ، قبل أن يتحولوا عن دعمها اثر اتفاقهم مع فرنسا . ولم يغب عن زعماء الثورات السورية مغزى تحول تركيا عن دعمهم ، حين تعارضت مصلحتها مع مصلحتهم ، لذلك الحوا على الانتماء القومي بأكثر من الرابطة الدينية وهم المتدينون ، كما رأينا في امثلة ابراهيم هنانو ويوسف السعيدون وغيرهما .

وقد قوّم أحد المراقبين الغربيين في دمشق ، في ١٢ شباط ١٩٢٣ ، موقف السوريين من تركيا فقال بأنهم لا يرغبون بعودة الحكم التركي ، واذا كانوا قد أثاروا شعورا مواليا لتركيا فهدفهم تهديد الفرنسيين والانكليز لاعطائهم التنازلات ، واذا أيدوا العودة الى امبراطورية تركية فليتخلصوا من الانتداب وليس حبا بالامبراطورية . وعلق مراقب آخر في بيروت ، في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٣ ، بأن انتصارات مصطفى كمال على اليونان والدول الغربية جعلت المسلمين يتناسون تجريده الخلافة من السلطنة والغاية هذه الاخيرة . ولكن العرب ما زالوا يذكرون تجنيد الاتراك لهم وموتهم في حروب الامبراطورية (٩٩) . وذكرت تعليقات غربية اخرى من حلب ، في ١٢ شباط و ٣١ ايار ١٩٢٣ ، أن مؤيدي تركيا يمنون انفسهم بان الاتراك سيمنحونهم مقاديرا من الحكم الذاتي اكبر مما يمكن أن يمنحهم اياه الانتداب الفرنسي . كما أن الشعور الموالي لتركيا بين سكان حلب خارج اطار الاتراك او من هم من اصل تركي هو ردة فعل ضد الفرنسيين وضد الاوضاع الاقتصادية السيئة لمدينة حلب في عهدهم بسبب فصل هذه المدينة عن اسواقها التقليدية في الاناضول ، وحتى عن بقية المدن السورية ، حين جعلت فرنسا ولاية حلب دولة قائمة بذاتها . وحتى المسيحيين في حلب ، الذين تضرروا كالمسلمين من سوء الوضع الاقتصادي في ظل فرنسا ، كانوا يحنون الى وحدة اقتصادية مع الاناضول في ظل الاتراك ، رغم خوفهم من تدفق اللاجئين المسيحيين ، بما فيهم الأرمن ، الى حلب من الاناضول (١٠٠) .

قضايا الحدود :

اثارت قضايا الحدود ، بين سورية وتركيا ، كثيرا من الحساسيات في العلاقات بين البلدين . وكانت منطقة الاسكندرونة في طليعة هذه القضايا . وكانت فترة الحكم العربي الفيصلي هادئة بالنسبة لحدود سورية الشمالية لان كلا من الحكومتين ، التركية والعربية الفيصلية ، كانتا منشغلتين بمقاومة الفرنسيين . ولكن الامر فيصل ابدى تخوفه من التحالف البلشفي - التركي ، وشكى الى النبي في حزيران ١٩٢٠ من الخطر الذي اجتاز الحدود التركية الى سورية (١٠١) .

وبعد الاحتلال الفرنسي لسورية اصدر الجنرال غورو قرارا بتشكيل حكومة مستقلة في ولاية حلب ، اعتبارا من اول ايلول ١٩٢٠ ، تكون عاصمتها حلب . والحق لواء الاسكندرونة الذي كان تابعا للمنطقة الغربية الساحلية الموضوعة من قبل الحلفاء تحت النفوذ الفرنسي ، بحكومة حلب بدءا من ذلك التاريخ ، مع احتفاظه باستقلاله الاداري بموجب القرار الفرنسي رقم ٣١٩ تاريخ ٣١ آب ١٩٢٠ . وعهد باللواء السي متصرف مرتبط بحاكم حلب (١٠٢) .

ثم اصدر غورو تنظيما مؤقتا لدولة حلب نشرته جريدة « حلب » الرسمية بتاريخ ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ . وتقرر ان تشتمل حدودها الادارية على ثلاثة صناعق حلب والاسكندرونة ودير الزور (١٠٣) . وكانت دولة حلب واحدة من اربع دويلات اوجدها الفرنسيون في سورية آنذاك ، والثلاث الاخرى هي : دمشق ، بلاد العلويين ، ولبنان الكبير .

وفي اتفاقية الهدنة التي وقعتها فرنسا وتركيا في لندن في ١١ آذار ١٩٢١ ، حددت الحدود الشمالية لسورية بانها تبدأ من نقطة على الساحل تبعد حوالي ١٥ ميلا شمالي الاسكندرونة ، وتمر في ميدان اكبس ، ومنها باتجاه الجنوب الشرقي نحو كلس ، ثم شرقا على طول الخط الحديدي حتى نصيبين . واعطي الفرنسيون حق تشغيل الخط بين بياس وميدان اكبس لتأمين المواصلات بين حلب والاسكندرونة . وفي اواخر ايار ١٩٢١ ابلغ الاتراك الجنرال غورو ان هذا الاتفاق ليس في صالحهم وطالبوا بمناطق كبرى جنوبي الحدود تشمل الاسكندرونة وحلب . واتبع الاتراك ذلك بتحريك ثلاث فرق عسكرية يبلغ عدد افرادها ١٢٠٠٠ رجل الى منطقة الحدود . ورافق ذلك ارسال وفود تركية الى الشمال الشرقي من حلب ، والى الغرب من الخط الحديدي بين حلب وحماة ، والى الشرق منه بين حماة وحمص لاثارة المشاكل على الفرنسيين . وخشيت فرنسا من ان تستخدم روسيا البلشفية ، صديقة تركيا هذا التحرك التركي من اجل مضالحتها (١٠٤) . وكانت روسيا تعد الكماليين بالسلاح

والعتاد بهدف تشديد قبضتهما معا على جمهورية ارمينيا التي سبق لتركيا ، بموجب معاهدة سيفر، في ١٠ آب ١٩٢٠ ، ان اعترفت بوجودها. وازالة جمهورية ارمينيا يسهل الاتصال بين روسيا وتركيا .

وعمدت فرانسافعل عوامل متعددة ، منها عدم احراز اي تقدم عسكري في كيليكيا ضد الكماليين، وتعرضها لخسائر كبيرة في حربها مع الثوار السوريين - الامر الذي اثار معارضة داخلية في فرانساف وخشيتها من ازدياد النفوذ البريطاني المؤيد للغزو اليوناني في الاناضول والمسيطر في استانبول ، وانعكاس ذلك على الوجود الفرنسي في سورية ، ومحاولتها الحد من التسرب البلشفي الى تركيا ، عمدت الى توقيع اتفاقية شاملة مع حكومة مصطفى كمال في انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ ، عرفت باتفاقية فرانكلين - بويون ، وهو اسم المفاوض الفرنسي الذي وقعها . واستاء الحلفاء من هذه الاتفاقية واعتبروها خرقا لمعاهدة سيفر . ولكن الواقع ان الاتفاقية اطلقت يد الكماليين في التفرغ لقتال اليونانيين واحراج موقف الانكليز (١٠٥) . وادت الاتفاقية ، من ناحية اخرى ، الى خوف الارمن والمسيحيين من عاقبة انسحاب الفرنسيين من كيليكيا ، بأكثر مما خشوا سابقا انسحاب بريطانيا الكامل منها في تشرين الثاني ١٩١٩ ، فأخذوا يهاجرون الى حلب او مرسين ، قبل ان يبدأ الفرنسيون باخلاء كيليكيا في كانون الثاني ١٩٢٢ . وادت الهجرة الى حلب الى مشاكل اجتماعية وسياسية هامة .

اعطت اتفاقية انقرة هذه للاتراك امتيازات في لواء الاسكندرونة ، التابع لدولة حلب ، أكثر من تلك التي حصلوا عليها بموجب اتفاقية ١١ اذار ١٩٢١ التي نصت على اقامة ادارة خاصة في منطقة الاسكندرونة (١٠٦) . ونص البند السابع من اتفاقية انقرة على قيام سلطة ادارية خاصة في منطقة الاسكندرونة ، وعلى تمتع السكان الاتراك فيها بتسهيلات لتطوير ثقافتهم ، وعلى الاعتراف بالتركية لغة رسمية الى جانب العربية والفرنسية (١٠٧) . وكانت الاوساط الفرنسية تعتقد ان اقامة الحكم الذاتي في لواء الاسكندرونة لن يضعف من علاقته الاقتصادية مع حلب التي احتاجته مثلما احتاجها، في هذا المجال ، عبر القرون . والتطور الهام ، على اية حال ، هو الاعتراف برسمية اللغة التركية (١٠٨) . وقد قدر القنصل البريطاني في حلب ، في تقرير له مفصل حول لواء الاسكندرونة ، في ٧ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، ان نسبة الاتراك في اللواء ٣٨٪ يقابلها ٦٢٪ من العرب على اختلاف مذاهبهم (علويون ٢٨٪ ، سنة ٢٢٪ ، مسيحيون ١٢٪) (١٠٩) .

وبقي امر اللواء من الناحية القانونية على هذا الوضع ، اي انه يتمتع بادارة خاصة مع ارتباطه بحلب ، ومن خلالها بالسلطات العليا السورية المعنية ، في ظل

الانتداب الفرنسي ، سواء كانت هذه السلطات هي دولة حلب ، ام الاتحاد السوري الذي اعلن في ٢٨ حزيران ١٩٢٢ . وحين اعلنت الدولة السورية في ١ كانون الثاني ١٩٢٥ ، وضمت دولتي دمشق وحلب ، اخرج الفرنسيون اللواء من تابعيته لحلب وربطوه مباشرة برئيس الدولة السورية ، على ان يحتفظ بالادارة الخاصة به (١١٠) . وبقي اهم تطور في اللواء لصالح الاتراك هو اعتبار التركية لغة رسمية . ويذكر انه في اجتماع المجلس التمثيلي لدولة حلب احتج النواب العرب على استخدام بعض نواب انطاكية اللغة التركية . فتدخل المندوب الفرنسي (ركليس) وقال انه نظرا لكون اللغة التركية احدى اللغات الرسمية في اللواء ، بموجب اتفاقية انقرة ، فلا يمكن معارضة نواب تلك المنطقة من استخدامها شريطة ان تكتب سجلات المجلس الرسمية باللغة العربية فقط (١١١) .

ويبدو ان حكومة انقرة لم تكن تسيطر على الغلاة من الكماليين في مناطق الحدود . فلم تكن مثلا اللجان التركية المتطرفة في عنتاب وكلس واورفه براضية عن الامتيازات التي منحها فرانساً لتركيا . لذا كانت تدعم الثوار السوريين اللاجئين الى تركيا في استئناف نشاطهم ضد الفرنسيين في سورية . كما نظرت الى اتفاقية انقرة على انها قصاصة ورق ، واصلت انها تتطلع الى اليوم الذي تسلم فيه حلب والاسكندرونة الى تركيا (١١٢) .

ومع ذلك كانت المساعدات العسكرية الفرنسية للكماليين ، في اعقاب اتفاقية انقرة ، تنهال عليهم باتجاه استانبول واذنة ، بطريق الاسكندرونة ، وكذلك عن طريق حلب ومنها الى الحدود التركية - العراقية . وكان حجم هذه المساعدات كبيرا اذا ما قيس بتفاصيل العتاد الذي نقله الفرنسيون للاتراك بين آذار وآب ١٩٢٢ (١١٣) . وكانت بعثة تركية قد وصلت بيروت ، برئاسة محيي الدين باشا ، في صيف عام ١٩٢٢ ، للتباحث مع الفرنسيين في عقد معاهدة جمركية مع سورية . ولكن هدف البعثة الاساسي كان اجراء محادثات عسكرية لاستمرار الدعم الفرنسي للاتراك . وبالمقابل اشتد العداء بين الكماليين وبريطانيا ، بسبب دعمها اليونانيين في حربهم مع تركيا ، الى درجة جعلت احدى صحف بيروت تصف الحرب بين اليونانيين والكماليين انها حرب بين بريطانيا وفرنسا .

وبعد ان هزم الكماليون اليونانيين واستعادوا منهم ازمير في ٩ ايلول ١٩٢٢ ، وقعوا مع الحلفاء ، وعلى راسهم بريطانيا ، هدنة مودانيا في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢ وبموجبها استعادت تركيا سيادتها على استانبول والمضائق وشرقي تراقية . ثم وقعت تركيا معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ التي اعترفت فيها الدول الكبرى بسيادة تركيا

على الاناضول وبالقضاء نظام الامتيازات الاجنبية . واكدت هذه المعاهدة ما جاء في اتفاقية انقرة بين تركيا وفرنسا في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ من بقاء لسواء الاسكندرونة ضمن الاراضي السورية . وبقي امر مطالبة تركيا بالموصل معلقا في معاهدة لوزان ، واتفق انه اذا لم يتم التوصل الى حل خلال سنة تحال الى تحكيم عصبة الامم .

كان الحصول على الموصل في مقدمة اهتمامات تركيا آنذاك . ويذكر ان الموصل كانت ضمن منطقة النفوذ الفرنسي بموجب اتفاقية سايبكس - بيكو ، ولكن الفرنسيين تخلوا عنها للانكليز في كانون الاول ١٩١٨ مقابل حصة من بترول الموصل . وكانت تركيا تطالب بالموصل بحجة ان الانكليز احتلوها في ٣ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وذلك بعد اربعة ايام من انتهاء الحرب مع تركيا وعلان هدنة مودرس . واثار هذا الاحتلال مشكلة اخرى مع الاكراد . ولم ينقطع الاتراك ، ابان حربهم مع اليونان ، من ايلاء قضايا الحدود الجنوبية اهتمامهم . ولكنهم لم يكونوا على استعداد لحل هذه القضايا بالسلاح نظرا لانهم اكدوا في حروب الاناضول ولانصرافهم للوضع الداخلي . ومع ذلك ، كانوا يمدون الشيخ السنوسي في اورفه بالمال لشراء الدعم لهم في العراق (١١٤) . كما انهم اشترؤا بالمال دعم زعيمين بدويين من قبائل العنزة يسيطران في منطقة دير الزور - اورفه ويتحكمان بالطريق بين حلب والعراق ، وهما حاجم ومجحم بن مهيد (١١٥) .

وبعد ان انتصر الاتراك على اليونانيين وجهوا قوات كبيرة ، اسموها جيش الشرق ، نحو الحدود مع العراق ، كان بعض عتادها فرنسيا نقل بالخط الحديدي من ميناء طرابلس الى حلب ، ومنها الى جرابلس حيث نقل في الفرات ، وبعدها بالخط الحديدي الى الشرق (١١٦) . واشيع آنذاك ، في ايلول ١٩٢٢ ، انه اذا ما استعادت تركيا الموصل فان فرنسا ستتخلى لها عن شمال سورية طمعا بالحصول على امتيازات اكبر في بترول الموصل وفي الخطوط الحديدية ، وفي تمديد الكهرباء في كيليكا ، وان بريطانيا ستكون مشغولة بالحركة ، في هذه الجهة ، بسبب انشغالها بهجمات الوهابيين المركزة في الجنوب (١١٧) . وتفسر هذه المعطيات السياسية اشتداد الدعاية الكمالية في سورية آنذاك كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ادى ازدياد الاستعدادات العسكرية التركية على الحدود السورية والعراقية وانتشار الشائعات بين السوريين عن قرب انسحاب الفرنسيين من المناطق الشمالية واحتلال الاتراك الى خشية كل من فرنسا وبريطانيا من التوسع التركي ، لذا حدث تقارب بين الدولتين ، وتباعد بين فرنسا وتركيا ، واضطرت فرنسا الى ان تصدر بيانا نفت فيه انها ستتخلى عن اي جزء من سورية لتركيا . وازاء الحشود التركية على الحدود السورية توجه الجنرال دي لاموت de Lamothe ، القائد العام للقوات

الفرنسية في منطقة حلب ، الى فلسطين في شهر كانون الاول ١٩٢٢ ، حيث اجتمع بالجنرال البريطاني تيودور Tudor . وتعطي تقارير الاستخبارات البريطانية ، المبنية على تقارير هيئة الاركان العامة الفرنسية ، بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٢٢ ، تفصيلات ضافية عن اعداد القوات التركية وانواعها واسلحتها واماكن تواجدها ، مع خرائط تفصيلية لهذه الاماكن ، واسماء قادتها الاتراك (١١٨) .

وعقد اجتماع بين ضابط الارتباط البريطاني في بيروت والجنرال الفرنسي غودو Goudot ، رئيس اركان جيش الشرق ، تباحثا فيه بشأن تبادل المعلومات حصول الاستعدادات العسكرية التركية على الحدود الشمالية . وابدى الجنرال غودو رغبته بان يتم تعاون وثيق بين الجيشين البريطاني والفرنسي كما كان عليه الحال في الحرب العامة . وقيل انه اذا هاجم الاتراك الموصل فانهم سيهاجمون ايضا شمال شرقي سورية ، وان الجنرال غودو مدرك تماما انه اذا تخلى الانكليز عن الموصل لتركيا فلن يكون باستطاعة الفرنسيين التمسك بالاسكندرونة وحلب ، والعكس صحيح ايضا . لذا كان الفرنسيون آنذاك يعارضون بشدة التخلي عن أي جزء من الاراضي السورية . وليعيق الفرنسيون نقل الجنود الاتراك الى الحدود السورية طلبت السلطات العسكرية الفرنسية من شركة فرنسية (كانت ستمنح امتياز اصلاح وتشغيل خط حديد بغداد) الامتناع عن اصلاح الجزء المعطل من الخط في جبال الامانوس بفعل احداث ١٩٢٠ - ١٩٢١ (١١٩) .

وفي تقرير للملحق العسكري البريطاني في باريس ، ارفق برسالة السفير البريطاني فيها بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩٢٢ ، ذكر انه اجتمع برئيس دائرة الاستخبارات العسكرية الفرنسية وعلم منه انه نتيجة الضائقة الاقتصادية في فرنسا فقد خفضت جيش الشرق من ٣٥ الف الى ٢٦.٥٠٠ جندي ، بما فيهم اعداد الفرقة السورية المقدرة بـ ٦.٠٠٠ جندي ، وذلك اعتبارا من اول كانون الثاني ١٩٢٣ ، شريطة ان تبقى حدود سورية واطراف الامن فيها هادئة على ما هي عليه الان ، وعلاقات فرنسا مع تركيا ودية . اما اذا ساءت هذه العلاقات فسيزداد عدد الجيش . و اضاف المسؤول الفرنسي ان بلاده حين وجدت ان قدرة جيش الشرق لن تمكنه من مقاومة الكماليين في كيليكيا في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، وتحت الحاح الضائقة الاقتصادية ، قررت الانسحاب من المناطق التركية بموجب اتفاقية انقرة . وباستتباب السلام مع الاتراك تقرر تخفيض جيش الشرق الى اعداده الحالية . وحين سئل المسؤول الفرنسي عن التخلي عن مناطق في سورية لتركيا نفى ذلك بشدة وقال ان فرنسا مؤمنة على سورية من قبل عصبة الامم . ونبه الى ضرورة عدم تخلي بريطانيا عن الموصل لتركيا لان ذلك يجعل من الصعب على فرنسا عدم تسليم الاسكندرونة ، والعكس صحيح . ورجبت

السلطات الفرنسية المدنية والعسكرية في سورية بهذا الموقف الفرنسي في العاصمة من تركيا (١٢٠) ، وشددت من قبضتها ضد ازدياد النفوذ التركي والدعاية الكمالية في سورية كما سبق القول .

وفي الجانب التركي ، جرت مناقشات في المجلس الكبير في انقرة في كانون الاول ١٩٢٢ حول الحدود الجنوبية لتركيا ، حددت فيها المخططات التركية من قضايا الحدود . وشنت الصحف في كيليكا حملة تطالب بمناطق الاسكندرونة وانطاكية . وذكرت هذه الصحف ان الحدود التي رسمتها اتفاقية انقرة غير منطقية لانها تترك على حد قولها ، نصف مليون تركي في سورية . واتهمت فرانساً بعدم اعترافها بالمطالب التركية ، وبايجاد الزاس - لورين في سورية . وردت الصحف السورية بان ارقام السكان التي يوردها الاتراك خيالية ، وان عدد سكان لواء الاسكندرونة ٢١٢.٠٠٠ نسمة منهم ٨٧ ألف تركي وتركماني والباقيون هم عرب (١٢١) .

وازاء هذا الموقف التركي ازداد التقارب الفرنسي - الانكليزي ، وقام الجنرال تيودور بزيارة دمشق في ١١ نيسان ١٩٢٣ كمرافق رسمي لفريق رياضي وفي الواقع للتباحث مع الضباط الفرنسيين حول تنسيق الجهود العسكرية على الحدود الشمالية واثار مغادرته دمشق توجهت تعزيزات فرنسية الى الحدود الشمالية (١٢٢) .

وسمع الاتراك لمجموعات الثوار السوريين اللاجئين في اراضيهم باجتياز الحدود ومهاجمة الفرنسيين في شمال سورية . واشتدت هذه الهجمات بدءاً من صيف عام ١٩٢٣ واستمرت في عام ١٩٢٤ . وهذا ما تؤكد ايضا مذكرات هؤلاء الثوار . وقام عطيل اسقاطي ورفاقه من المجاهدين الثوار بعمليات ضد الفرنسيين في منطقتي انطاكية وجبل الزاوية ، كما قام مصطفى الحاج حسين ونجيب عويد ونجيب البيطار بعمليات اخرى في منطقة ادلب . وهاجم يوسف السعدون صندوق مالية مملحة الجبول (١٢٣) . وأشارت الصحف التركية ، الواردة الى حلب ، الى مناطق الاضطرابات هذه بانها « الجبهة » والى الثوار السوريين بانهم « اخوة وطن » يحاربون في سبيل الاستقلال والوحدة مع تركيا (١٢٤) . وازدياد العداء بين تركيا وفرنسا ، اشتدت الدعوة الى الجامعة الاسلامية في سورية ، كما سبق القول ، وظهرت ملصقات في حلب في حزيران ١٩٢٤ تتحدث احداها عن المومسات وشرائهن العطور الاجنبية والامراض التي يسببها وتهيب بالناس على اختلاف مذهبهم ان يلبسوا الملابس البسيطة (١٢٥) .

وانقسمت الصحافة السورية فيما يتعلق بتأزم الوضع على الحدود . وقد نقلت صحيفة « فتى العرب » الدمشقية ، الموالية لتركيا ، في عددها بتاريخ ١١ ايار ١٩٢٤

اقوال الصحف التركية واقترحت ضرورة اقامة حدود منطقية بين سورية وتركيا . واستعمال كلمة « منطقية » فيه الكثير من الغموض ويحتمل اكثر من تفسير . اما صحيفة « التقدم » الحلبية ، وهي من ابرز الصحف المستقلة ، فتري ان لا تطبيق اهمية كبيرة على المطالب التركية في سورية لان الانتداب قائم على سلطة الدول وان فرانساً قادرة على حماية البلاد (١٢٦) . وفي الجلسة الثالثة لمجلس الاتحاد السوري ، كما اوردت جريدة « الف باء » الدمشقية بعددها رقم ١١١٩ وتاريخ ١٨ ايار ١٩٢٤ ، وافق المجلس على ارسال برقية الى الجنرال ويغان يبين له فيها اساليب الاتراك آنذاك ، وهي اشبه باساليبهم في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، للاستيلاء على اراضي سورية ، ويحثه ، بموجب ميثاق الانتداب ، ان يدافع عن حدود سورية وعن اراضيها وشعبها (١٢٧) .

ثم نشبت ثورة كردية كبرى في شباط ١٩٢٥ في المناطق الشرقية من الاناضول بزعامة شيخ الطريقة النقشبندية . وكان الاكراد يحاولون اقامة دولة خاصة بهم . وادعى قادة الثورة انهم ناقمون على علمانية الكماليين والغائهم الخلافة . وشكت تركيا ان اثاره هذه المشكلة تم بتحريض من بريطانيا لالهائها عن المطالبة بالموصل . وتقلت تركيا اكثر من ٣٥٠٠٠ جندي عبر سورية ، بطريق الخط الحديدي المار في كيليكيا وشمال سورية . وتعاون الفرنسيون من جديد مع الاتراك باعطائهم التسهيلات اللازمة لنقل الجنود والعتاد ، وحتى بتزويدهم بالطائرات . وقضى الاتراك على الثورة في نيسان ١٩٢٥ .

وكان هذا الدعم الفرنسي لتركيا مؤقتا املاه خطر ثورة الاكراد من ناحية وندر قيام الثورة السورية الكبرى من ناحية اخرى . واضطرت فرانساً الى اجراء تنقلات بين قواتها على الحدود الشمالية وسحبت الجنود المراكشيين من حلب ووجهتهم الى الجنوب واحلت مكانهم جنودا من مدغشقر . وساءت العلاقات الفرنسية - البريطانية آنذاك بسبب اتهام فرانساً ببريطانيا بتشجيع الثورة ضدها في سورية . وكانت بريطانيا قبل ذلك قد حاولت التقرب من تركيا وعرضت عليها مساعدتها في سورية مقابل التخلي عن الموصل . وقد نشرت صحيفة « اوم ليبر » الفرنسية *Homme Libre* بعددها بتاريخ ٢٧ ايار ١٩٢٤ مقالا بعنوان « مؤامرة انكليزية - تركية ضد فرانساً في سورية » ضمنها برقية من استانبول تقول ان الحكومة البريطانية تعرض مساعدة تركيا في سورية والبلقان مقابل موافقة تركيا على القبول بوجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بالموصل (١٢٨) .

واثارت تركيا من جديد قضية الحدود بينها وبين سورية . وكانت لجنة سورية

برئاسة الكولونيل ماي Mailles قد تشكلت قبل اربع سنوات ، بموجب المادة الثامنة من الاتفاقية الفرنسية - التركية في انقرة ، ولكنها لم تقم باكثر من عقد الاجتماعات . وتوجه الكولونيل ماي الان الى انقرة بشأن قضية الحدود وقيل انه احرز بعض التقدم . وقام فرانكلين - بويون هو الاخر بزيارة الى انقرة لهذا الغرض . وعينت تركيا احد ضباطها الاحتياط وهو طلعت بك قنصلا لها في حلب (١٢٩) .

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة السورية في اوجها برزت مشكلة اخرى بين الاتراك وسورية حول حق حلب بحصة من مياه نهر قويق الذي ينبع من الاناضول وتشكل مياهه المصدر الرئيسي لري بساتين حلب . وكان الاتراك قد حولوا مياه النهر عن حلب . وسبق ان تقرر بموجب اتفاق فرنسي - تركي ان تحصل حلب على حصة من مياه هذا النهر مقابل حصة اخرى لتركيا . ولم تُقد زيارة لجنة رسمية من حلب الى كلس للتباحث في هذا الامر (١٣٠) .

وانجحت الانظار في هذه الاثناء الى قضية الموصل والقرار الذي ستتخذه بشأنها عصبة الامم . وكانت معاهدة لوزان في ١٩٢٣ قد اقرت بقاء الموصل تحت الاحتلال البريطاني الى ان يتم التوصل الى اتفاق بشأنها . واذا لم يتم الاتفاق خلال سنة فستعرض القضية على عصبة الامم للتحكيم . وبالفعل رفعت قضية الموصل الى العصبة في عام ١٩٢٥ . وعينت لجنة دولية لمعالجتها . وقامت تركيا بنقل قوات عسكرية كبيرة الى جبهة الموصل بواسطة الخط الحديدي في شمال سورية . وكانت فرانساً آنذاك منشغلة بالثورة السورية ضدها . واحتجت بريطانيا لدى فرانساً لسماعها بمرور القوات التركية في الاراضي السورية (١٣١) .

ومما يدل على ترابط الاحداث في المنطقة كلها ما نشرته صحيفة سان فيل Sans Fil الباريسية الواسعة الاطلاع حول قضايا الشرق الادنى ، في عددها الصادر بتاريخ ١٨ ايلول ١٩٢٥ ، بان الوضع في سورية مرتبط بقضية الموصل التي ستملي على تركيا ما ستتخذه بشأن القضية السورية . فاذا جاء قرار لجنة التحكيم في جنيف لصالح ضم الموصل الى تركيا فالثورة السورية ستسير ببطء ، أي ان تركيا لن تدعمها . واذا كان الامر عكس ذلك فسيكون رد الفعل التركي موازيا لما ستتخذه في الموصل . وازافت الصحيفة ان عشرين الف مقاتل سوري مسلحين ومنظمين في لجان موزعة على انحاء البلاد ، بادارة لجنة سورية ثورية تقيم خارجها ، سيشاركون في الثورة ضد فرانساً (١٣٢) .

جاء تقرير لجنة التحكيم التي شكلتها عصبة الامم للنظر في قضية الموصل لصالح

بريطانيا . وبناء على هذا التقرير وافق مجلس عصبة الامم في ١٦ كانون الاول ١٩٢٥ على اعطاء الموصل للعراق شريطة ان يستمر الانتداب البريطاني على العراق لمدة خمس وعشرين سنة . واحتجت تركيا بان قرار المجلس كان لارضاء بريطانيا لا للتحكيم في الخلاف . وردت بان عقدت في اليوم التالي ، في ١٧ كانون الاول ، اتفاقية جديدة من الصداقة وعدم الاعتداء مع الاتحاد السوفياتي .

وطرا تحول في موقف تركيا من الثوار السوريين اللاجئين اليها فبعد ان مانعت في تايد هؤلاء للثورة السورية الكبرى عند قيامها سمحت لهم ، بفعل هذه التطورات ، في اجتياز الحدود ومهاجمة الفرنسيين (١٢٣) . ونشرت صحيفتان في بيروت هما : « لاسيرى La Syrie » ، وهي صحيفة شبه رسمية تصدر بالفرنسية ، وصحيفة « لسان الحال » التي تنطق بلسان الماسونيين الاحرار من العرب ، مقالين متشابهين بتاريخ ١٧ كانون الاول ١٩٢٥ . ويشير المقالان الى محاولة لاقامة تحالف بين الثوار في جنوب سورية والأتراك لمضايقة الفرنسيين في شمال سورية وفي وسطها ، في منطقة حماة - حمص (١٢٤) .

وقد أرسل القائمون بالثورة السورية مبعوثين لتنظيم الثوار في المنطقة الشمالية ونشر الثورة فيها ضد فرانسوا . وذكرت الصحف ان المؤتمر السوري - الفلسطيني كلف يحيى بك حياتي ، وهو من دمشق ومعروف بميوله للكماليين ، بتمبئة ثوار الشمال والاتصال بتركيا . واشيع ان فرانسوا القت القبض على مبعوثيه في الشمال في اوائل كانون الاول ١٩٢٥ . وذكر ان يحيى بك حياتي سافر الى انقرة والتقى مع مصطفى كمال والسفير الروسي فيها . ولم تتوافر معلومات حول النتائج التي اقترنت بها محادثاته (١٢٥) .

وتوجه المفوض السامي الفرنسي الجديد هنري دي جوفنيل الى حلب في ١ كانون الاول ١٩٢٥ ، بعد ايام من وصوله الى بيروت ، ليحول دون انضمام المنطقة الشمالية الى الثورة السورية . ووصل الى حلب في الوقت نفسه رئيس الدولة السورية صبحي بركات للمهمة ذاتها . وبعد ذلك بايام استقال صبحي بركات من منصبه في ٢١ كانون الاول احتجاجا على السياسة الفرنسية . واستقال كذلك في ١ كانون الثاني ١٩٢٦ حاكم ولاية حلب نوري باشا الملاح احتجاجا على قمع الفرنسيين التظاهرات الوطنية فيها (١٢٦) .

وكانت الحكومة الكمالية ، في هذه الاثناء ، مهتمة بقضايا الاصلاح الداخلي وباكتشاف مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال في ١٥ حزيران ١٩٢٦ (١٢٧) ، لذا اقتصر عملها ،

بالنسبة للثورة السورية ، على تشجيع الثوار السوريين اللاجئين اليها في العمل ضد فرانساً . ويروي يوسف السعدون في مذكراته تفاصيل الهجمات التي قام بها ورفاقه في الجهاد ، مثل نجيب عويد ومصطفى الحاج حسين وعقيل اسقاطي ، عبر الحدود السورية في المناطق الشمالية . ويقول السعدون انه ارسل اكثر من كتاب الى زعماء الثورة للحصول على الخرطوش ولم يتلق جواباً ، ولو فعلوا ، كما قال ، لقطع علاقته وثاره بالأتراك الذين كانوا يلحون عليهم للتخلي عن نشاطهم وعودتهم . وعبثاً حاول الاتصال بكبار الاقطاعيين في المنطقة لمدة بالمعونة الضرورية . واضطر هؤلاء الثوار ، تحت ضغط الفرنسيين ، الى العودة الى تركيا في ٢٨ نيسان ١٩٢٦ . وهكذا انتهت سلسلة من الثورات الهامة في شمال سورية ، بدأت عام ١٩١٨ ، ولم تتمكن الان بسبب ضعفها وانقطاع الدعم عنها من توحيد جهودها مع الثورة السورية الكبرى (١٢٨) .

وعادت المفاوضات من جديد بين فرانساً وتركيا لتحديد الحدود . وسافر الى انقرة لهذه الغاية المفوض السامي الفرنسي دي جوفنيل ، وتوصل الطرفان الى توقيع اتفاقية بينهما في انقرة في ٣٠ ايار ١٩٢٦ ، وقعها عن فرانساً سفيرها في انقرة البير سارو A. Sarraut ، وعن تركيا وزير خارجيتها توفيق رشدي بك . وجاء في عنوان الاتفاقية انها اتفاقية صداقة وحسن جوار تركي - سوري . كما جاء في مقدمتها انها مبنية على اتفاقية انقرة في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢١ . وقد وافقت فرانساً على الاتفاقية ونشرتها جريدتها الرسمية في ٢٧ آب ١٩٢٦ . وعرفت هذه الاتفاقية باتفاقية انقرة الثانية ، وقد نصت على تشكيل لجنة فرنسية - تركية لتخطيط الحدود على اساس ما ورد في اتفاقية انقرة الاولى وما اتفق عليه بموجب البروتوكولات الملحقه بالاتفاقية الجديدة . وبموجب البروتوكول رقم ١ الملحق بالاتفاقية والذي سبق ان وقع عليه دي جوفنيل وتوفيق رشدي بك في انقرة في ١٨ شباط ١٩٢٦ ، حول تحديد الحدود ، اعتمدت اتفاقية انقرة الاولى ولكن ادخلت عليها بعض التعديلات لصالح تركيا بحيث امتدت الحدود داخل الاراضي السورية لبضع كيلو مترات في بعض المناطق . وتبدأ الحدود من البحر جنوبي مصب نهر باياس بكيلو متر واحد ، كما انها تمتد جنوباً بمقدار سبعة كيلو مترات عند مدينة كلس . وجرت مثل هذه التعديلات الطفيفة على نقاط اخرى من الحدود (١٢٩) .

وقد استاء السوريون من هذه التعديلات كما استأوا اصلاً من استيغادهم من المشاركة في المفاوضات التي ادت الى توقيع اتفاقية الحدود هذه والتي ناقشت امور بلادهم (١٣٠) . وفي رسالة رفعها احسان الجابري والامير شكيب ارسلان ، بصفتهم مندوبين عن المؤتمر السوري - الفلسطيني والاحزاب المطالبة بالاستقلال السوري ، الى رئيس مجلس عصبة الامم واعضائه في جنيف ، بتاريخ ١٥ آذار ١٩٢٦ ، احتجوا على

عقد فرانساً وتركيا الاتفاقيات على حساب الارض السورية وكأنها ارض الجمهورية الفرنسية ، وطالباً بان تشرك سورية في كل الاتفاقيات التي تتعلق بها (١٤١) .

اما لواء الاسكندرونة فقد سبق ان انفك ارتباطه بدولة حلب بموجب المرسوم التنظيمي الذي اصدره الجنرال ويزان برقم ٢٩٨٠ وتاريخ ٥ كانون الاول ١٩٢٤ ، والحق بدولة سورية ، التي تشكلت من دولتي حلب ودمشق ، اعتباراً من اول كانون الثاني ١٩٢٥ . واتخذ مجلس اللواء التمثيلي قراراً في ٢٠ اذار ١٩٢٦ باعلان استقلاله عن دولة سورية وتشكيله دولة مستقلة ، وطالب المفوض السامي الفرنسي بالموافقة على ذلك . وخشيت سورية ان يكون ذلك مقدمة لضم اللواء الى تركيا . ولكن هذا المجلس عاد وعدل عن قراره باغلبية تسعة اصوات مقابل صوت واحد ، وذلك بعد اقتناعه بحجج مندوبي رئيس دولة سورية الداماد احمد نامي وهما : يوسف الحكيم وزير العدل وشاكر نعمت الشعباني وزير المالية . وبقي اللواء محتفظاً باستقلاله الاداري (١٤٢) .

وبالرغم من كل هذه التسويات كانت قضايا الحدود تثار بين الحين والآخر واللجنة المشتركة الفرنسية - التركية تنعقد هي الاخرى بين الحين والآخر . وعين لرئاسة اللجنة جنرال دانمركي زار حلب وانقرة في تشرين الثاني ١٩٢٦ ، ثم استقال بسبب صعوبة الوصول الى حل المشاكل المعلقة . وشكلت لجنة اخرى في اذار من العام التالي (١٤٣) .

وجرت محاولات ، في هذه الاثناء ، لتبادل الرعايا بين البلدين بموجب اتفاقية انقرة الثانية وملحقاتها . وقدر عدد السوريين في تركيا في عام ١٩٢٧ ، بالفين ، والأتراك في سورية بخمسة عشر الفا ، وذلك بعد ان اعطوا حق اختيار الجنسية التي يرغبون بها (١٤٤) .

وبهذا نكون قد استعرضنا مرحلة حافلة بالتطورات في العلاقات السورية - التركية من خلال الاوضاع الدولية المستجدة في المنطقة .

الهوامش

- (١) انظر الترجمة الانكليزية لهذه الرسائل في :
Foreign Office dispatches (FO) , 371,3384 E 6758, Director of Military Intelligence , 15 October 1918 .
- (٢) يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٥١-١٦٠ .
- (٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .
- (٤) المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٥٨ ، ١١٤ ، ١٢٢ - ١٢٤ .
- (٥) المصدر السابق ، ص ٢٤ . وانظر نص الخطاب الكامل في : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، بيروت ، ١٩٤٧ .
- (٦) كان يطلق هذا اللقب ، عند نشأة الإمارة العثمانية ، على امارات التركمان القزاة في الاناضول ، ومنها اماره عثمان ، وذلك منذ القرن الحادي عشر ، لان هذه الامارات كانت تغزو اعداء الدين .
- (٧) للحصول على تفاصيل وافية حول هذه التطورات انظر :
B.Lewis , The Emergence of Modern Turkey, 2 nd ed.,Pb., OUP 1966, PP. 238 - 264 ; G.Lenczowski, The Middle East in World Affairs , 4 th ed . Pb ., Cornell , 1981 , PP . 98-107 .
- (٨) انظر مثلا سجلات المحاكم التجارية بدمشق ، مجلد رقم ١٤٧ ، ص ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢ .
- (٩) انظر مثلا سجلات المحاكم التجارية بدمشق ، مجلد رقم ١٤٩ (بعض سجلات المحاكم الاخرى مدرجة تحت عنوان المحاكم التجارية) .
- (١٠) انظر نص الكتاب والتواقيع في :
FO, 371,4181 E 88766, C'Ple , 28 May 1919 .
- (١١) انظر النص الكامل للاتفاقية بالفرنسية وتقرير المخابرات البريطانية حولها في :
FO, 371, 4233 E 6779 , I.C. 537, (C'Ple) 3 August 1919 .
(' Traité Secret entre les Gouvernements Turc et Arabe Signé par Emir Fayçal et Moustafa Kémal le 16 Juin 1919 à Alep) .
- (١٢) FO, 371 , 4182 E 6778 , B.I. 4963, (C'ple) 16 August 1919 (Report dated 24. 7.19 , titled Turkish - Arab Pan - Islamic Activities-) .
- (١٣) انظر تفاصيل ذلك في كتاب : الدكتور خيرية قاسمية ، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ ، ص ١٥٤ وبخاصة الهامش ١ وانظر تفاصيل اخرى في :
Zeine N.Zeine , The Struggle for Arab Independence , Beirut, 1960 , PP, 147, n.2, 148.

- (١٤) الحكيم ، سورية والمهد الفيصلي ، ص ٧٤ ، انظر نص الخطاب في الحصري : ص ٢١٢ - ٢١٧ .
- (١٥) National Archives (Washington)(NAW), Records of the Department of State , M 722 , roll No. 8 , Dispatch number 463 , Aleppo . 28 February 1920 .
- (١٦) FO , 371 , 4233 E 6778 (Translation of a Proclamation issued by the Mustapha Kemal Party in Aleppo about 9/10/19) .
- (١٧) FO , 371 , 4186 E 6749 , Damascus , 15 October 1919 .
NAW,M 722, r. 8. No . 498 , Aleppo, 1 May 1920 .
- (١٨) NAW,M 722, r.8, Aleppo, 14 June 1920, C'ple, 30 June 1920.
- (١٩) NAW ,M 722, r.8, No. 520, Aleppo, 17 June 1920.
- (٢٠)
- (٢١) الحصري ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، ١٦٥ - ١٧٨ ، الحكيم ، سورية والمهد الفيصلي، ١٧٩-١٨٠ .
- (٢٢) FO , 371 , 5036 E 7277/2/44 , Cairo, 23 June 1920 .
- (٢٣) NAW , M 722 , r . 8. No. 526, Aleppo, 3 July 1920 .
- (٢٤) NAW, M 722, r. 8, No. 598, Aleppo , 17 December , 1920.
- (٢٥) NAW, M 722, r.8, No. 600, Aleppo, 20 December , 1920 .
- (٢٦) FO , 371, 6453 E 854/117. 89, Beirut, 30 December 1920.
- (٢٦) انظر نص الاتفاقية في :
Ministère des Affaires Etrangères (AE),Quai d'Orsay
Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, Paris, vol. 35, pp. 182-182, E. 313.
1., Londres, 11 mars 1921 .
- (٢٧) الحكيم ، سورية والمهد الفيصلي ، ص ١٦٨ ، سورية والانتداب الفرنسي، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨٦ ، ١٢٧ .
- (٢٨) انظر تفاصيل ذلك في : ادوم آل الجندي ، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي ، دمشق ١٩٦٠ ، ص ١٢ ، ١٣٠ ، يوسف السعدون ، مذكرات يوسف السعدون عن ثورة هناتو ، دارالوثائق التاريخية ، القسم الخاص ، الوثيقة ٢١ ، ص ٤ - ٦٥٥ - ١١ (مكرر) ، ابراهيم الشفوري ، مذكرات ابراهيم الشفوري عن ثورة هناتو ، القسم الخاص ، الوثيقة ٢٢، ص ٦-٧ .
- (٢٩) FO, 371, 5035 E 4459/2/44, Cairo, 20 April 1920 .
- (٣٠) الجندي ، ص ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .
- (٣١) المصدر السابق ، ص ٦٤ - ٦٦ ، ١٢٩ ، السعدون ، ص ١١ ، الشفوري ، ص ٢ ، الحكيم ، سورية والمهد الفيصلي ، ص ١٦٨ .
- (٣٢) FO, 371, 5039 E 10316, Cairo, 12 August 1920 (including dispatch from American Consular Service in charge of British interests,Aleppo, 30 July 1920) .
- (٣٣) الشفوري ، ص ١٠-١١ ، الجندي ، ص ٧٤ .

- (٢٤) السعدون ، ص ١٢
- (٢٥) الشفوري ، ص ١٠ - ١١ ، الجندي ، ص ٧١ .
- (٢٦) الشفوري ، ص ١٢-١٣ ، الجندي ، ص ٧٤ .
- (٢٧) الشفوري ، ص ٤٢ .
- (٢٨) الجندي ، ص ٧٥ ، ٧٩ - ٨٠ .
- (٢٩) السعدون ، ص ٣٦ .
- (٤٠) المصدر السابق ، ص ٤٥ .
- (٤١) المصدر السابق ، ص ١٢-١٣
- (٤٢) المصدر السابق ، ص ٣٥ ، الشفوري ص ٤٢ - ٤٣ ، الجندي ص ٩٠-٩١ .
- (٤٣) الجندي ، ص ٣٩-٤٠ .
- (٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، الشفوري ، ص ٢٦-٢٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، السعدون ، ص ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٢ .
- (٤٥) NAW, M722, r. 8, No. 634 , Aleppo , 31 March 1921.
- (٤٦) السعدون ، ص ٤٥ - ٦١ ، الشفوري ، ص ٤١ ، الجندي ، ص ٥١ .
- وانظر ايضا هامش ٢٦ .
- (٤٧) ص ٤١ .
- (٤٨) FO, 371 , 6454 E 5715/117/89 , Beirut, 3 May 1921 .
- (٤٩) AE , Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban , vol. 117 , Beyrouth, 5 juin 1922 .
- (٥٠) FO , 371, 3558 E 1085, Paris , 7 November 1925 .
- (٥١) الشفوري ، ص ٢٩-٣٦ ، السعدون ، ص ٢٠ .
- (٥٢) الشفوري ، ص ٢١-٢٢ ، الجندي ، ص ٤٩ - ٥٠ .
- (٥٣) الجندي ، ص ١٢٥
- (٥٤) ص ٤١ .
- (٥٥) FO, 371, 6455 E 3362/117/80 , Beirut , 1 August 1921 , 7845 E 597 /274/89, Colonial Office to Foreign Office , 16 January 1922; AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban , vol. 36, P. 162 .
- (٥٦) AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, vol. 36, P.161 .
- (٥٧) الشفوري ، ص ٣٦ - ٣٩ ، السعدون ، ص ٢٠ ، غالب المياشي ، الايضاحات السياسية ، بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١٤ .
- (٥٨) الجندي ، ص ٤٠-٤٣ .

- (٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٧-٥٤ . انظر تفاصيل ذلك في :
FO, 371, 945 E 9810/117/89, Paris, 29 August 1921 (Le Temps, Paris, 26 August) , E 11026/117/89, Beirut, 24 September 1921, E. 11482/117/89, Beirut, 5 October 1921 ; AE, Levant , 1918 - 1929 , Syrie - Liban , vol. 40, p. 138, Beyrouth, 5 juin 1922.
- (٦٠) المصدر الفرنسي السابق ، وانظر ايضا :
FO, 371 , 7847, p.69 (Translation of French Report on the situation in Syria and Cilicia, 26 th May to 10 th June 1922) .
- (٦١) الشفوري ، ص ٤٤-٤٥
- (٦٢) السمون ، ص ٤٥ - ٤٧ .
- (٦٣) « النار » مجلد ٢٢ ، جزء ١٠ . (١٩٢١/١٢٤٠) ، ص ٧٤٢ .
وانظر ايضا :
- FO, 371, 4653 E 3013/117/89, Beirut, 21 February 1921
AE, Levant, 1918 - 1929, Syrie - Liban, vol. 35, p.138, (٦٤)
IV annexe, Télégramme à M. R. de Caix, HCF , Beyrouth, Homs, 2 décembre 1920.
- FO, 371, 6455 E 6280/117/89, Damascus, 18 May 1921 . (٦٥)
- FO, 371, 6454 E 6280/117/89, secret Intelligence Service Report, 25 May 1921. (٦٦)
- FO, 371, 6455 E 9105/117/89, Aleppo, 23 July 1921 . (٦٧)
- FO, 371, 6455 E 9296/117/89, Damascus, 29 July 1921, 6456 E 9657 /117/89 , Damascus , 9 August 1921 , 6457 E 11532/ 117 / 89 , Damascus, 27 September 1921. (٦٨)
- FO, 371, 6463 E 11983/11978/89, Damascus, 17 October 1921. (٦٩)
- FO, 371, 6463 E 12243/11978/89, Damascus, 24 October 1921. (٧٠)
- FO, 371, 6462 E 12485/11978/89, E 14239/11978/89, Damascus, 9 December 1921. (٧١)
- FO, 371, 6463 E 14236/11978/89, Damascus, 13 December 1921. (٧٢)
- FO, 371, E 13741/13741/89, Damascus, 24 November 1921. (٧٣)
- (٧٤) الحكيم ، سورية والمهد الفيصل ، ص ١٩-٢٠ .
- FO, 371, 7847 E 6605, Damascus , 19 June 1922. (٧٥)
- FO, 371, 9056 E 2857/2857/89, Damascus, 1 March 1923. (٧٦)
- FO, 371, 7847 E 6857, 274/ 89, Damascus , 27 June 1922; (٧٧)
- NAW , M722, r.11, Damascus. 14 August 1922.
- NAW, M722, r 8, No. 284, Damascus, 29 September 1922. (٧٨)

- FO, 371, 7849 E 14041/274/89, Damascus, 30 November 1922. (٧٩)
- NAW, M722, r.8, No. 780, Aleppo, 3 March 1922, No. 844, Aleppo, 28 August 1922 ; FO , 371 , 7848 E 9298/274/ 89 , War Office , 14 September 1922. (٨٠)
- NAW , M 722, r.8, Telegram, Beirut, 30 September 1922, Damascus, 29 September 1922, No. 854, Aleppo, 29 September 1922, No. 802, Beirut, 10 October 1922. (٨١)
- FO, 371, 7848 E 10963/274/89, Aleppo, 27 September 1922. (٨٢)
- FO, 371, 7848 E 10967/274/89, Damascus, 23 September 1922. (٨٣)
- FO, 371, 9053 E 867/867/89, Beirut, 1 January 1923 . (٨٤)
- FO, 371, 7846 E 2765/274/89, Damascus, 23 February 1922, 7847 7847 5510/274/89, Damascus, 13 May 1922 . (٨٥)
- NAW, M 722, r.8, No. 292, Damascus, 13 October 1922. (٨٦)
- NAW, M722, r.8, No. 309, Damascus, 16 November 1922. (٨٧)
- FO, 371, 7849 E 13430/274/89, Damascus , 16 November 1922. (٨٨)
- FO, 371, 7847 E 5759, Beirut, 25 May 1922 , 7874 , (٨٩)
- PP. 30 - 33 (Translation of French Secret Report on the Situation in Syria and Cilicia for the Period 1st to 20 th May , 1922) .
- NAW , M 722 , r. 11 , No. 358 , Damascus, 13 February 1922 . (٩٠)
- FO , 371 , 9055 E 2345/2204/89 , Aleppo , 12 February 1923 . (٩١)
- FO , 371 , 9053 E 6332/867/89 , Aleppo , 31 May 1923 , E 9385/867/89 , Aleppo , 5 September 1923 , E 9623/867/89 , Aleppo , 10 September 1923 . (٩٢)
- FO , 371 , 7849 E 14040/274/89 , Beirut , 4 December 1922 . (٩٣)
- « المنار » مجلد ٢٢ ، جزء ٩ (١٩٢٢/١٢٤١) ص ٧١٦ - ٧١٨ . (٩٤)
- « العرفان » ، مجلد ٩ (١٩٢٢/١٢٤٢) ، ص ٦٢٢-٦٢٧ . (٩٥)
- المجلد ٨ (١٩٢٢/١٢٤٢ - ١٩٢٣) ، ص ١٥٨ . (٩٦)
- FO , 371 , 10160 E 4178/218/89 , Aleppo , 30 April ; 1924 . (٩٧)
- FO , 371 , 10164 E 4171/4171/89 , Damascus , 24 April 1924 . (٩٨)
- FO , 371 , 9053 E 867/867/89 , Beirut , 10 January 1923 . (٩٩)
- FO , 371 , 9055 E 2345/2204/89 , Aleppo , 12 February 1923 , 9053 E 6332/867/89 , Aleppo , 31 May 1923 . (١٠٠)
- FO , 371 , 5036 E 2277/2/44 , Cairo , 23 June 1920 . (١٠١)
- FO , 371 , 5040 E 12976/2/44 , Beirut , 5 October 1920 . (١٠٢)

- FO , 371 , 6453 E 485/117/89 , (Cairo) , 30 December 1920 . (١.٣)
- FO , 371 , 6455 E 8309 , Enclosure 7 , 7 June 1921 . (١.٤)
- Lenczowski , P. 105 , NAW , M 722 , r. 8 , No, 715 , Aleppo , 9 November 1921 . (١.٥)
- انظر تفاصيل الاتفاقية اذار في : (١.٦)
- AE , Levant , 1918 - 1929 , Syrie - Liban , Vol 125, P. 182 , Londres , 11 Mars 1921.
- انظر حول التطورات التي ادت الى هذه الاتفاقية : افاديس سانجيان ، سنجق الاسكندرون ، (مترجم) ، دمشق ، ١٩٨٠ ، ص ١٥-٢٠ . (١.٧)
- انظر تفاصيل اخرى وتطبيقات حول المنجق في : (١.٨)
- FO , 371 , 7846 E 4800/274/89 , Beirut , 28 April 1922 (Enclosure 3 , No. 1 , P. 5 , Extract from the «Syrie» of 9 March 1922 , entitled « 1 , Autonomie du Sandjak d , Alexandrette et le Recensement »).
- FO , 371 , 9053 E 12159/876/89 , Aleppo , 7 November 1923 . (١.٩)
- الحكيم ، سورية والانتداب الفرنسي ، ص ١١ . (١١.٠)
- FO , 371 , 9053 E 12168/867/89 , Beirut , 12 December 1922 . (١١.١)
- FO , 371 , 7847 , P. 30 (Translation of French Secret Report on the Situation in Syria and Cilicia for the Period 1st to 20th May, 1922). (١١.٢)
- FO , 371 , 7848 E 9298/274/89 , War Office, 14 September 1922 (Enclosure No.1, Report on the Situation in Syria, dated 22August 1922) , E 10961/274/89, Beirut, 3 October 1922 ; NAW , M722 , r.8, No. 780 , Aleppo , 30 March 1922. (١١.٣)
- NAW , M 722 , r.8, No. 780, Aleppo, 30 March 1922. (١١.٤)
- NAW, M 722, r.8, No. 836, Aleppo, 29 July 1922 . (١١.٥)
- NAW, M 722, r.8, No, 854, Aleppo, 29 Septamber 1922 . (١١.٦)
- NAW , M722, r.8, No. 84, Damascus, 29 September 1922. (١١.٧)
- NAW , M 722, r.9, Beirut , 27 December 1922 (Enclosed Order of Battle of Turkish Forces up to 6 th December 1922) . (١١.٨)
- NAW , M 722, r. 9, Beirut , 22 December 1922 (British Liaison Officer Report , B. L./3/35, Beyrouth) . (١١.٩)
- Ibid ., (British Liaison Officer Report, B. L./5/2. (١٢.٠)
- NAW, M 722, r. 9, No. 936, Beirut, 27 February 1923. (١٢.١)
- NAW, M 722, r. 9, No. 12, Damascus, 20 April 1923. (١٢.٢)
- الشفوري، ص ٤٨-٥١، السعدون ، ص ٥٧، وانظر تفاصيل اخرى هامة عن هجمات الثوار على الفرنسيين في : (١٢.٣)

- NAW, M 722, r. 9, No. 973, Aleppo, 4 June 1923, No. 997, Aleppo 25 July 1923, No. 1003, Aleppo, 2 August 1923, No. 3, Aleppo, 24 August 1923; Aleppo, 19 November 1923; FO, 371, 9055 E, 7012, Aleppo, 8 June 1923, E 7047, Aleppo, 5 July 1923, 10163 E 1834/1057/89, Aleppo, 7 February 1924, E 2993/1057/89, Aleppo, 24 March 1924, E 3179 1057/89, Aleppo, 27 March 1924, E 4176/1057/89, Aleppo, 23 April 1924.
- NAW, M 722, r. 9, No. 197, Aleppo, 15 May 1924. (١٢٤)
- NAW, M 722, r. 9, No. 973, Aleppo, 4 June 1923. (١٢٥)
- NAW, M 722, r. 9, No. 197, Aleppo, 15 May 1924. (١٢٦)
- FO, 371, 10163 E 4674/1057/89, Damascus, 20 May 1924. (١٢٧)
- FO, 371, 1063 E 4530/1057/89, Paris, 23 May 1924. (١٢٨)
- NAW, M722, r. 9, No. 401, Aleppo, 24 April 1925, No. 438, Aleppo, 6 August 1925. (١٢٩)
- NAW, M722, r.9, No. 438, Aleppo, 6 August 1925. (١٣٠)
- NAW, M 722, r. 9, No. 469, Aleppo, 24 October 1925, No. 477, Aleppo, 12 November 1925. (١٣١)
- NAW, M 722, r. 9, No. 758, Paris, 18 September 1925. (١٣٢)
- انظر : السعدون ، ص ٥٨ ، والشفوري ، ص ٢٩-٥٠ . (١٣٣)
- NAW, M722, r. 9, No. 49, Aleppo, 19 December 1925. (١٣٤)
- NAW, M 722, r. 9, No. 488, Aleppo, 15 December 1925; FO, 371, 11517 E 236/236/89, Damascus, 30 December 1925. (١٣٥)
- NAW, M 722, r. 9, No. 487, Aleppo, 14 December 1925, No. 493, Aleppo, 30 December 1925, No. 300, Damascus, 30 December 1925, No. 502, Aleppo, 13 January 1926. (١٣٦)
- انظر تفاصيل ذلك في : (١٣٧)
- Lewis, PP. 268 FF.
- انظر تفاصيل العمليات التي قام بها السعدون ورفاقه في : السعدون ، ص ٥٨-٧٧ . وانظر تفاصيل أخرى في : (١٣٨)
- NAW, M 722, r. 9, No. 569, Aleppo, 17 May 1926; FO, 371, 11511 E 1233, Aleppo, 10 February 1926, Aleppo, 9 April 1926.
- انظر نص الاتفاقية وملحقاتها ونقاط الحدود بالتفصيل وكذلك التعليق عليها في : (١٣٩)
- FO, 371, 11519 E 3898/1189/89, Paris, 25 June 1926, NAW, M 722, r. 10, No. 10, Aleppo, 18 September 1926.

- NAW, M722, r. 10, No. 579, Aleppo, 18 June 1926. (١٤٠)
- FO, 371, 11515 E 1905, pp. 121-124. (١٤١)
- NAW, M 722, r. 12, No. 66097, Paris, 26 March 1926, r. 10, No.579, Aleppo , 18 June 1926, No. 599, Aleppo, 7 August 1926. (١٤٢)
- وانظر أيضا : الحكيم ، سورية والانتداب الفرنسي ، ص ١٥٥ ، ١٦٦ .
- انظر حول اعمال هذه اللجان : (١٤٣)
- NAW, M 722, r. 10, No. 26, Aleppo, 19 November 1926 , No. 28, Aleppo, 18 December 1926, No. 34, Aleppo, 8 February 1927, No. 47, Aleppo, 15 April 1927.
- NAW, M 722, r. 10, No . 34 , Aleppo , 8 February 1927, No . 47 , Aleppo , 15 April 1927 . (١٤٤)

الحياة الفكرية في الأندلس

من هذا النشاط الفكري في بوط الحكم المستنصر بالله

د. أحمد بدر

جامعة دمشق

مكتبة ضخمة قدر عدد ما حوته من الكتب بأربعمئة ألف مجلد ، وتمويل وتوجيه للبحث والتأليف تجلى بوضع مئات - ان لم نقل الاف - من الكتب في شتى صنوف المعرفة ، وشكل من اشكال توفير التعليم الاولي المجاني لابناء الفقراء تجسد بإنشاء سبعة وعشرين مكتبا للتعليم في قرطبة .

معالم بارزة على دروب تطور الحياة الفكرية في الحضارة العربية الاسلامية ، تعكس النشاط الكبير لهذا المظهر من مظاهرها في الاندلس وازدهاره العظيم ، لاسيما في عصر الخلافة الاموية فيها .

ارتبط جل هذا النشاط والازدهار باسم الحكم المستنصر بالله ، تاسع الحكام الامويين في الاندلس وثاني خلفائهم فيها ، بين ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ (٩٦١ - ٩٧٦) ، وان يكن توجيه الحكم لهذا النشاط وتشجيعه له قد بدأ قبل هذا التاريخ بعقدين من السنين على الاقل ، كان خلالهما وليا للعهد .

انعكست آثار هذا النشاط في كتب التاريخ وتراجم الاعلام ، على شكل وقائع صغيرة مبثوثة ومبعثرة في هذا المصدر او ذاك ، لكنها مع ذلك تستلفت نظر القارئ .

وقد اغرت وفرتها الباحث الاسباني ملشور انطونيا في اوائل القرن الحالي بجمعها والخروج منها بصورة للنشاط الفكري في بلاط الحكم (١) ، كانت من الدقة والكمال بالدرجة التي يسمح بها المعروف والمكتشف حتى زمنه من مصادر التاريخ الاندلسي . لكن تتابع الاكتشافات وتكاثر البحوث عن الحياة الفكرية في الاندلس ، والتي تلامس حينها هذه النقطة أو تلك ، أو تنير بعض جوانبها أحيانا أخرى ، تستدعي البحث من جديد لرسم صورة أدق وأكمل . وسعيا للوصول الى اجابات على تساؤلات عدة تدور كلها حول اسهام الحكم في الحياة الفكرية ، مثل : دوافعه ، وهل كانت ذاتية أم موضوعية ، أم كليهما معا . . ما هو شكل اسهامه ، هل كان قاصرا على الانفاق والتمويل أم تعدى ذلك الى المشاركة والتوجيه . . ما رؤيته في هذا المجال ، هل كان مقلدا يسير على سنن سابقه ودروب اسلافه ، أم كان مجددا يستشف حاجات دولته ومتطلبات بلده الناجمة عن مجموعة الظروف المحيطة به ، ويحاول ان ينجز ما فيه تحقيق المتطلبات وتلبية الحاجات في تلك الظروف . .

العوامل المؤثرة في تكوين الحكم الفكري :

يتضح لنا بجلاء من دراسة سيرة الحكم المستنصر ان عظمته وليدة نتاج وتفاعل بين جهد ذاتي ومناخ وبيئة محيطة، شأنه في ذلك شأن كل البارزين والعظماء في التاريخ الانساني . ويمكن تحديد اطار هذه البيئة في المجال السياسي ، بان الاندلس في زمن ابيه قد توحدت بعد تجزؤ والتام شملها بعد شتات وتمزق . كما أصبح سلطان خلفائها معترفا به من قبل ملوك وامراء الدويلات الاسبانية في الشمال ، وتحارب تحت لوائه ، في الجنوب ، قبائل زناته المغربية منافسيها من قبائل صنهاجة واسيادهم الائمة الفاطميين ، الذين أضفوا على اشخاصهم صفات قدسية تجعلهم يتبوؤن - حسب زعمهم - مرتبة سامية بين المراتب الكائنة بين البشر وخالقهم . وقد اتخذوا قاعدة لسلطانهم في المغرب الادنى، قبل انتقالهم للقاهرة التي أنشئت لهم في مصر . اما في داخل الاندلس ، حيث خيم سلام نسبي ، فقد نشطت الفعاليات الاقتصادية بشتى اشكالها ، مما ساعد على تنشيط المبادلات التجارية مع الخارج الذي توسعت اطرافه وتعددت جوانبه ، فدخلت ضمن دائرة التبادل مع الاندلس دولة امالفي الإيطالية (٢) ، اضافة للمغرب والمشرق الاسلامي . وتمخض نشاط هذه الفعاليات عن ظهور طبقة غنية في الاندلس نجد مؤشرا على درجة غناها في الهدايا الثمينة التي قدمها افراد منها للخلفاء بلغت قيمتها مئات الالوف من الدنانير الذهبية . وقد تجاوز هؤلاء الخلفاء القوائد غير المباشرة ، التي جنوها من نشاط الفعاليات الاقتصادية، الى الافادة المباشرة

عن طريق المشاركة فيها بواسطة ضياعهم المغلة الكثيرة ، وممارسة التجارة ، التي مكنهم مركزهم من احتكارها وجني أرباح طائلة منها .

كان لهذه الأوضاع الاقتصادية - الاجتماعية داخل الأندلس أثر إيجابي على الحياة الفكرية فيها ، إذ أنفق هؤلاء الأغنياء سخاء على تطوير الفكر ، من خلال رعاية رجال الفكر وتشجيعهم ، واقتناء الكتب وإنشاء المكتبات . وإذا تصدرت العائلة الأموية المالكة في الأندلس هذه الطبقة الفنية ، فإنها كانت أيضاً في مقدمة المشاركين في النشاط الفكري ومشجعيه . ونلاحظ تقدماً مطرداً لأمرائها وخلفائها في هذا المضمار ، حتى اقترب من الذروة بشخصية عبد الرحمن الناصر والد الحكم (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) الذي أظهر اهتماماً غير عادي بالعلم والثقافة ، فلم تمنعه المشاكل السياسية المعقدة التي واجهها ومشاغله في الحروب الكبيرة ، من تخصيص وقت يكرسه للفكر ، فنراه يجمع عدداً من المثقفين لبحث ترتيب قصائد الشاعر المشرق المشهور أبي تمام عندما جمعت له في ديوان . ويحسّ أحد الأطباء باهتماماته في هذا الميدان فيؤلف له كتاباً عن « الأنيسون وفوائده في المعالجة » (٢) .

بهذا كان عبد الرحمن جزءاً أساسياً من البيئة المحيطة بالحكم ، والتي أسهمت في خلق توجهاته الفكرية ، لما يمثله الأب من قدوة للبناء . وزاد على ذلك اتخاذ الإجراءات المساعدة على تكوينه التكويني الفكري الراقي ، فاستمر أول الأمر على اتباع التقليد الذي ساد في البلاط الأموي منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) والهادف إلى تخصيص موارد اقتصادية مستقلة لكل من أبناء الأمراء على حدة ، وتعيين شخص للإشراف على استثمارها من جهة ، وللاعتناء بتثقيف وتربية هذا الولد من جهة ثانية ، مما يعوض عن عناية الأب ، الذي قد لا تدع له مهامه السياسية وقتاً كافياً للإشراف على تربية أبنائه الكثيرة العدد في الغالب . وقد نقل المؤرخ الأندلسي ابن حبان عن الكاتب القبشي هذا التقليد بقوله : « كان يعجل - أي الأمير محمد - لكل واحد من الأبناء ، أول ترعرعه بقصر يسكنه وضياع تغل له وعقار بداخل البلد يجري عليه خرجه ، إلى رزق هلاله ومعروف سنوي (أي مرتب شهري وآخر سنوي) يجريهما عليه تتأكد بهما ملوكيته وتتأثل نعمته ، ويختار لكل ولد منهم في وجوه الناس وأولي مرواتهم وكيلا يسند بشأنه إليه ويقلده النظر في دخله وخرجه وأمر قصره وضياعه يرزقه على ذلك ما يقوم به . فلا تزال نعمة الولد تنمي بنمو سنه » . ويتابع المؤرخ ذاته اقتباسه مما يذكره الكاتب نفسه عما أدخله عبد الرحمن الناصر من تجديد في هذا المضمار ، يتعلق بزيادة المخصصات وتوسيع دائرة إشراف الوكلاء على أبنائه الأحد عشر من الذكور بقوله : « قرن الناصر لكل واحد منهم القصر بمنية (بستان) بخارج البلد في أمكنة منتزهاته الحسنة وأضعف لهم على ذلك

الارزاق الهلالية والمعارف السنوية واوسع لهم من الضياع المظلة والعقار الخراجية» (٤) ورغم اننا لا نعرف على وجه الدقة مقدار واردات هذه المصادر كلها بالنسبة لكل ابن ، لكن يمكن القول انها كانت ضخمة لان الاشراف عليها لم يعد مقتصرا على الوكيل بل عين فوقه كاتب يدقق في حساباته ويشاركه في الاشراف على ترتيب امر الولد لدى حذاق المعلمين .

وفرت هذه البيئة الاندلسية والعائلية سبل النضج الثقافي والرقى الفكري لابناء عبد الرحمن الناصر الاحد عشر . وهنا يبرز اثر الجهد الذاتي اذ لم يبرز منهم سوى اثنان اولهما عبد الله الذي اتسعت دائرة ثقافته لتشمل المعرفة باللغة والخبر وقرض الشعر والادب ، حيث وضع كتابا في اخباره بعنوان « العليل والقتيل في اخبار بني العباس » . و اضاف الى اتساع دائرة الثقافة عمقا وتجديدا في بعض نواحيها ، فتراه عالما في مجال الفقه مستقل الرأي فيه ، اذ كان شافعييا في بلد سادته المالكية كمذهب اوحده ، واعتبرت الاسرة الحاكمة فيه نفسها حامية له خارج حدود الاندلس (٥) . من ناحية اخرى عقد هذا الامير العالم صلات وثيقة مع العلماء الآخرين ، لعل من اشهرهم احمد بن عبد البر بن يحيى الذي الف له كتاب « تاريخ الفقهاء والقضاة » ، الذي اعتبره الكتاب المعاصرون ومن تلاهم مصدرا هاما ، رغم ماخذ بعضهم عليه مردها تتبعه لمثالب الائمة . وقد اتهم الامير وصديقه بالتامر على الخليفة ، فقبض عليهما معا ولقيا مصيرا واحدا وهو القتل (٦) .

اما ثاني البارزين من الابناء فكان الحكم ، الذي سيصبح ولي عهد ابنه وتاليه على عرش الخلافة . وقد اتيح له ، كأخيه ، اخذ العلم منذ نعومة اظفاره على حذاق المعلمين ، ووفر له بقاءه على قيد الحياة ومكانته ان يتابع الاخذ عن العلماء حتى تجاوز اخاه في اتساع دائرة معارفه وتعمقه فيها . ويمكننا التعرف على الخطوط الاساسية لاتجاه ثقافته من تتبع كبار من اخذ العلم عنهم بعد تحصيله الاولني والاساسي . كان في مقدمة هؤلاء علماء بالعربية والحديث والفقه والادب ، وكلها فروع من المعارف مجمع على ضرورتها في الاندلس . لكنه لم يقتصر عليها بل اخذ عن علماء في علوم مكروهة لدى الاندلسيين ، كالفلسفة ، بما حوته انذاك من علوم كالمنطق والرياضيات وغيرها (٧) . ولم يتم تكوين الحكم في فترة طفولته وفتوته وشبابه الاول فقط ، بل استمر طيلة حياته تقريبا ، فنراه وهو في الثامنة والعشرين من عمره (اي سنة ٣٣٠ هـ) يستقدم علماء من المشرق ، كأبي علي القالي ، يأخذ عنهم ، هذا اضافة لمن يستقدمه من علماء المناطق الاخرى بالاندلس وعلماء قرطبة ، الذين يسمع منهم ويتدارس معهم قضايا علمية متنوعة .

جهود الحكم في النشاط الفكري :

واكبت عملية استزادة الحكم من العلم عملية تسهيل نشره وارتقائه ، عن طريق جمع كتبه وتشجيع وتمويل البحث والتأليف في شتى مناحيه ، وتوجيهه .

كانت عملية نشر العلم بين الناس سهلة نسبيا في الاندلس ، لما شاع فيها من اقبال عليه ، وخاصة لدى الطبقة الغنية التي انفتحت بسخاء على اقتناء الكتب ، وعلى مؤدبي ابنائها . لكن الطبقة الفقيرة بقيت محرومة حتى من الاساسي منه ، والذي يدور حول تعلم قراءة القرآن الكريم . فحاول الحكم سد النقص حسب ما يورده ابن عذاري بقوله « ومن مستحسنات افعاله وطيبات اعماله اتخاذ المؤدين يعلمون اولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع وبكل ريش من ارباض قرطبة ، واجرى عليهم المرتبات ... » . وقد بلغ عدد المكاتب التي انشأها لهذه الغاية سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة حول المسجد الجامع وباقيها موزع على ارباض المدينة . وقد ذكر هذا العمل الخير احد الشعراء من خلال مدحه للحكم بقوله :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتبا لليتامى في نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وواعيها (٨)

لكن المهم والجوهري في دور الحكم الفكري كان الاسهام في تطوير وترقية الفكر عن طريق جمع كنوزه المكنونة في الكتب ، والعمل في الوقت نفسه على وضع البحوث والمؤلفات الجديدة . وتكون من مئات العاملين لدى الحكم وبتوجيهه شكل من أشكال « الاكاديمية » أو المجمع العلمي المعروف في عصرنا الحديث . كان لهذه « الاكاديمية » مقر للعمل هو قصر ملكي مطل على نهر قرطبة يدعى بدار الملك ، سمي بذلك لكونه منزلا لعدة امراء اندلسيين انتقلوا منه مباشرة لقصر الخلافة ، كان المنذر بن محمد آخرهم ، وانتقلت الدار من ورثته بالبيع لعبد الرحمن الناصر الذي حبا بها بكره الحكم ، رغم اجباره له من دون سائر اخوته على الاقامة معه في قصر الخلافة ، ثم في الزهراء مدينة الملكية . اما دار الملك هذه فقد جعلها حسب قول المؤرخ الرازي « الخاصة نشبه (النشب المال الاصيل من الناطق والصامت) ومخازن امتعته ومساوون دفاتره ، ومجالس نساخه ومقابل دواوينه ، واحلها ثقات خدمة واقادم كتابه . . ينتابهم فيها بالاوقات لما يتخذ له فيها ويختزن في مخازنها » . يفهم مما مر وما يرد في ثنايا الحديث عن تراجم العاملين ، ان دار الملك كانت مقر اقامة عمل دائمة لجهاز المكتبة ، ومقرا مؤقتا للمؤلفين والباحثين ، اذ ارادوا الرجوع لمصادر المكتبة او التمسوا اعتزال المشاغل والناس للتفرغ للتأليف .

المكتبة والجهاز العامل فيها :

اقتنى الامراء والخلفاء الامويون ، شأنهم في ذلك شأن كثير من الاندلسيين ، مكتبة كانوا يدعونها خزانة الكتب . لكنها لم تتميز عن غيرها كثيرا ، على ما يبدو ، ولم تستلفت بالتالي اهتمام الكتاب ، الذين اعتنوا بذكر كل صغيرة وكبيرة عن حياتهم . واختلف الامر زمن الحكم فتواترت الأنباء عن مكتبته وكثرت الاشارات غير المباشرة اليها كذلك ، مما يمكننا من رسم صورة غنية بالتفاصيل لها . ينقل ان حزم عن قيمها الفتى تليد : ان عدد الفهارس المحتوية لتسمية الكتب اربع واربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر اسماء الدواوين فقط ، وان عدد كتبها بلغ اربعمائة الف مجلد (٩) .

يمكن تصديق الخبر عن ضخامة عدد المجلدات ، وتفسير هذه الضخامة من ملاحظة امور عدة ، كالعمل الدائب والسعي المستمر في عملية جمع الكتب واغناء المكتبة ، وطول المدة التي استغرقها جمعها ، وكذلك تعدد مواردها وتنوع اعمال العاملين بها . فقد ظل الحكم دأبا على جمع الكتب خلال فترة ولايته للعهد التي استمرت عدة عقود من السنين ، واثناء مدة خلافته التي بلغت نحو ستة عشر عاما . وكانت موارد الكتب متعددة ، فمنها ما ورثه عن سلفه ، كما هو الحال في نسخة الموطأ لمالك بن انس ، التي وصفت بانها بالغة الجودة وقد ورثها عن ابيه الناصر وقرا بها ابنه هشام (١٠) ، ومنها ما كان من مكتبة اخيه بعد مقتله . اما المورد الاهم فكان الشراء من منبع ثقافة الاندلسيين ، وهو المشرق العربي الاسلامي ، حيث كان له وكلاء ينتخبون له غرائب التواليف من اشهرهم محمد بن طرخان وراق الحكم في بغداد ، وعمر بن محمد المعروف بابن الوفي ، الذي اقام بالبصرة حوالي عشرين سنة تولى خلالها ابتياع الكتب والذخائر له ، وبلغت النفقات التي جرت على يديه لهذا الغرض مائة وعشرين الف دينار (١١) . نستنتج من المثلين السابقين ان وكلاء الحكم كانوا مؤهلين لاختيار الجيد المناسب من الكتب شكلا وموضوعا ، فالكتب كانت صناعة الاول ، الذي ينعت بالوراق ، كما كان الثاني فقيها عينه الحكم إثر عودته قاضيا في مدينتين كبيرتين . ويبدو ان الوكلاء لم يكتفوا بشراء المعروض من الاسواق ، بل عملوا ايضا كهزمة وصل بين الحكم ومشاهير المؤلفين في المشرق ، من ذلك الاتصال بين الحكم وابي الفرج الاصبهاني الذي تلقى من الخليفة الاندلسي الف دينار ذهبي مع التماس لنسخة من كتابه « الاغانى » ، فارسل اليه منه نسخة حسنة منقحة قبل ظهور الكتاب لاهل العراق او نسخه من قبل احد منهم ، والف له ايضا « انساب قومه بني امية موشحة بمناقبهم واسماء رجالهم ، فاحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجدا وأرسل به الى قرطبة » ،

وانفذ معه قصيدة حسنة من شعره يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش فجدد عليه الصلة الجزيلة» (١٢) . إضافة لما كان يرسله الوكلاء للحكم ، كانت أعداد غفيرة من الأندلسيين تتراد بلدان المشرق حتى وصل بعضهم إلى الهند ، طلبا للعلم وسعيا للاخذ عن مشاهير الشيوخ ، وربما اشترى بعضهم الكتب فوصلت للحكم ، الذي كان أكثر رغبة باقتناء كتب الاسمعة للعلماء ، من الأندلسيين المتجولين في المشرق ، نظرا لسعة ادراكهم وتحريهم عندما يسجلون ما يسمعون ؛ ممن ينقله بسند مباشر عن المؤلف نفسه ، كما هو حال كتاب « الكامل » للمبرد (١٣) ، الذي سمعه وسجله محمد بن أبي علاقة القرطبي من الاخفش الذي سمعه بدوره من المبرد نفسه ، وصار الكتاب للحكم الذي قال : كتاب الكامل لم يصح عنده برواية الا من قبل ابن علاقة . واقتنى الحكم من الفقيه يوسف بن محمد الهمداني (ت ٣٨٣ هـ) ، كتاب « الام » للشافعي في مائة وعشرين جزءا ، الذي سجله الفقيه بخطه ، وكان من جملة ما سمعه في المشرق خلال اقامته مدة عشر سنوات فيه اعتنى فيها اضافة لذلك بكتب الطبري المشهور من تاريخ وتفسير واختلاف الفقهاء (١٤) . واذا كان الحكم قد اهتم باقتناء الكتب من اماكن بعيدة في المشرق ، يبدو من الطبيعي ان يجمع نتاج بلده منها ، في وقت بلغ النشاط الفكري فيه ذروة لم يبلغها من قبل ، وان يضيف فيه الى الشراء نسخ ما لا يتوافر منه نسخ مطروحة للبيع ، وأخيرا ، لم يكن من المتيسر دائما بالنسبة لتلك العصور توافر المؤلفات ، وخاصة الكبيرة منها ، في نسخ كاملة ، بل كان الشائع بالنسبة للكثير منها ان يكون اشتاتا مبشرة بين ايدي التلاميذ الذين يسمعونها جزئيا أو كليا عن شيوخهم وقد يسجلون كل ما يسمعون او بعضه . وكان هذا المورد الاخير موضوع ومجال عمل اكثرية افراد الجهاز العامل في المكتبة .

تمايز افراد الجهاز العامل بمكتبة الحكم في فئتين : الوراقون والمقابلون . كانت عملية الفئة الاولى بسيطة لا تتعدى النسخ ، لكن الحكم الساعي وراء جودة الكتابة ودقة المکتوب استخدم ذوي مؤهلات عالية تتعلق بالمهمة ، فلم تقتصر على حسن الخط وجماله بل تعدته الى المعرفة حتى يستطيع ضبطه ، لذلك نرى كل نساخيه من ذوي المعارف العلمية المختلفة ، فقد كان يوسف البلوطي حسن الخط والضبط ذا معرفة بالادب ، ومثله اسحاق بن محمد الذي وصف بأنه من اهل الادب والفهم . ووجد المبرزون في هذا الميدان من بلاد اخرى سوقا رائجة لهم في بلاط الحكم فقصدوه ، وصل ظفر البغدادي من بغداد وعينه الحكم رئيسا للوارقين ، ومن صقلية ورد عليه ايضا عباس بن هارون الكناني بعد اقامته في القيروان لمدة واحد وعشرين عاما ، وكان عالما بالكلام والرد على اصحاب المذاهب (١٥) .

عملت الفئة الثانية فيما سمي بخطة المقابلة ، ومهمة المشتغلين بها مقابلة النسخ المتعددة للمؤلف الواحد ، أو قطع منها لنساخين متعددين ، بغية اخراج اكمل واصح نسخة للمؤلف ، وبهذا تكون مماثلة لعملية التحقيق في العصر الحاضر ، وقد تكون اكثر منها صعوبة في بعض الحالات . ولعل في بعض انجازات هذه الفئة ما يقدم صورة واضحة لنوعية العمل وصعوباته . فقد كان من جملتها اخراج نسخة كاملة للبارع المعجم اللغوي الكبير الذي وضعه ابو علي القالي في بلاط الحكم وأملاه على الناسخين على مدى ستة عشر عاما تخللتها فترات انقطاع . ثم حاول جمع ما كتبوا وتنقيحه ، الا ان الاجل وافاه ولم يتم له تنقيح سوى اجزاء الهمزة والعين والهاء ، في حين بقيت الاجزاء الاخرى غير منقحة وبخطوط متعددة ، منها ما كان لمحمد الفهري وعمر الجباني فكلف الاثنان باتمام العمل واخراج نسخة كاملة قدمت للحكم المستنصر . وكان القالي نفسه قد ترأس قبل ذلك فئة من المقابليين للقيام بمهمة مماثلة ولكنها اكثر صعوبة ، وهي اخراج نسخة كاملة وصحيحة من معجم « العين » المنسوب للخليل بن احمد الفراهيدي . ومن المعروف ان انتشار الكتاب كان بطيئا حتى في المشرق . فقد توفي المؤلف سنة ١٧٠ هـ . لكن الكتاب وصل الى البصرة سنة ٢٤٨ هـ عندما حمله اليها من خراسان أحد الوراقين بثمانية واربعين جزءا . ويسجل اول دخول له الى الاندلس في نهاية القرن ذاته ، أي القرن الثالث الهجري ، على يد قاسم بن ثابت بن حزم وابيه . ومنذ ذلك الوقت كان حاملو العلم من المشرق يدخلون الاندلس منه نسخا او قطعاً متفاوتة في الضخمة والضبط ، مما جعل الحكم يكلف ابا علي القالي مع محمد بن الحسين وابنا سعيد بمقابلة جميع النسخ واخراج نسخة جديدة كاملة وصحيحة . ومثل هذا العمل جرى في وضع الدواوين الشعرية لشاعر مشهور ، بعد جمع قصائده المبعثرة او المحفوظة لدى اناس متعددين ، كما حصل في شعر الكاتب الاندلسي المشهور ابن عبد ربه الذي جمع بأمر من الحكم في ديوان واحد مؤلف من نيف وعشرين جزءا (١٦) . لهذا كانت المؤهلات التي تتطلبها الحكم في المقابليين اعلى من تلك المطلوبة في النساخ ، اذ يتطلب عملهم معرفة واسعة وعميقة وخاصة باللغة ، وهو امر يتجلى بوضوح لدى تصفح اخبار من استخدمهم في هذه الخطة . فقد رأينا مثلاً عليهم في ابي علي القالي ، كما نعث على امثلة اخرى غزيرة : كاحمد المعافري الذي استكمل ثقافته في المشرق بعد الاندلس وادخل منه لبلده علما جما ، ومنهم ايضا احمد بن عبد الوهاب المعروف بابن صلى الله ، وكان فقيها شافعيا ذكيا بصيرا بالحجاج وذا حظ وافر من العربية ، وكذلك محمد بن يحيى الرياحي الذي يصفه الزبيدي بالقول « كان حاذقا بعلم العربية دقيق النظر فيها غاية في الابداع والاستنباط وكان قد طالع كتب اهل الكلام وتفنن فيها ونظر في المنطقيات فاحكمها » . ويضيف الى ذلك انه احدث تفسيرا كبيرا في تعليم النحو على نطاق الاندلس كلها .

جمع العلماء

كانت قرطبة مركزا فكريا مزدهرا زاخرا بالعلماء . لكن الحكم لم يكتف بهم بل كان يستقدم العلماء الذين يبرزون في حواضر الأندلس الأخرى بعد استكمال تحصيلهم العلمي في المشرق بعد بلادهم . ثم تجاوز ذلك إلى البلاد الأخرى ، المجاورة منها في المغرب أو البعيدة ، مثل بلدان المشرق . استقدم من سبته محمدا بن حارث الخشني ، الذي اعتبره أهلها حجة في العلم فأطاعوا قوله وشرقوا قبله مسجدهم الجامع لأنه وجد فيها تفريبا ، رغم تعدد الأجيال التي أدت صلواتها فيه . وهو على هذا الوضع . كما تمسكوا به إلى الحد الذي يقترب من الحبس . ومن أشهر مراكز المغرب الفكرية ، وهو مركز القيروان ، استقدم محمدا بن يوسف الوراق العالم الخبير بأرض المغرب وبلدانه وسكانه . كما قدم عليه محمد بن الأزرق من مصر وهو صاحب معرفة بالأدب والعلوم الحكمية أو الفلسفية ، ومن حلب في الشام محمد بن العباس حافظ وحامل أسناد الشام . ومن العراق أكبر المراكز الفكرية في المشرق حل في حاشية الحكم محمد بن أبي بردة البغدادي الشافعي الذي لم يصل للأندلس أفهم منه بالمذهب ، على حد قول ابن الفرضي (١٨) . لكن عالما آخر طغى عليه ، وربما على سائر القادمين الآخرين ، وهو اسماعيل بن القاسم أبو علي القالي ، الذي استغرقت رحلته من العراق إلى الأندلس قرابة ثلاث سنوات ، نزل بعدها على شواطئ الأندلس سنة ٣٣٠ هـ ليجد في استقباله وفدا من وجوه رجال الكورة التي نزل بشاطئها برفقة واليها ، ورافقه بعد ذلك إلى قرطبة تنفيذا للأمر الصادر لهم من ولي العهد الحكم بن الناصر . ألف القالي بتشجيع من الحكم وتوجيهه عددا كبيرا من المؤلفات ، لكن أهميته لا ترجع إلى هذا الأمر بقدر ما ترجع إلى مقدار ما حمله من نتاج الثقافة العربية والذي يشتمل في جملة مواضيع أخرى على مؤلفات رجال الأدب واللغة الكبار ، كسيبويه وابن قتيبة ويعقوب السكيت وأحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب وأبي عبيد . ومن ناحية أخرى أسهم أسهاما كبيرا في الحركة الفكرية بواسطة من أخذوا عنه من التلاميذ أو أولئك الذين ناقشوه من العلماء الأندلسيين في قضايا أثرت حول ما درسه أو ألفه .

قد تختلف الآراء حول سبب قدوم هؤلاء العلماء للأندلس ، وهل قدموا بدعوة من الحكم أم سعيًا وراء رزق في سوق عرفوا رواج بضاعتهم فيه . . لكن الاتفاق قائم على أن شهرتهم في الأندلس وغزارة إنتاجهم فيها مرده لتقريب الحكم المستنصر وزعايته لهم . ويبدو أن تنوع أصول ومواطن هؤلاء المقربين لم يكن وليد اعتبار أو مخض صدفة ، وإنما كان مقصودا على الأرجح لتحقيق غايات معينة ، منها أن عددا من العلوم العربية وخاصة الدينية منها ، كانت علوم حفظ ورواية عن السلف تعود بدورها

الاولى واصولها الاساسية الى الصحابة الذين حلوا في كل قطر ، لذلك فان عالم قطر من الاقطار تعلق اسناده لتصل الى الصحابة الاول الذين نزلوا في هذا القطر . اصف الى ذلك ان العلوم كلها قد اتخذت اتجاهات متميزة في تطورها ورقيا ، ومن شأن تعدد اقطار العلماء الوافدين اىصال هذا التنوع للاندرلس . واخيرا فان بعض العلماء كانوا ذوي خبرة بأوضاع بلادهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية ، ومن السهل عليهم نقلها الى رجال الاندرلس وحكامها .

كانت مؤهلات المحيطين بالحكم العلمية وسيلة ايضا لنيل الوظائف في ادارة دولته ، كالقضاء والشورى والكتابة . ويظهر ان الخدم المحيطين به ادركوا اهمية التحلي بحلية العلم لنيل حظوة اكبر لديه فانكب بعضهم على تحصيله حتى برزوا فيه ، على الرغم من ان هؤلاء كانوا من الصقالبة الذين اشتهروا بجهلهم . وقد عبر عن هذا المعنى ابن حيان في وصفه لخادمي الحكم فاتن وجؤذر « اجمع اهل الدولة انه لم يرق على راس امير بالاندرلس من هذا الجيل الفليظ الطباع من المصقلب كهذين الخادمين فاتن وجؤذر سعة معرفة . . . خلاف ما عليه العصابة » (١٩) . لكن شهرة هؤلاء العلماء لم تكن نتاج المراكز الادارية التي شغلوها ، وانما بالمؤلفات التي درسوها او وضعوها ، وكانوا في هذا الميدان يمثلون شتى نواحي العلم والمعرفة مما يمكننا من تصنيف نشاط التأليف في بلاط المستنصر حسب التقسيم المألوف للعلوم .

علوم اللغة والادب

ابدى الحكم اهتماما بالغا باللغة تجلّى في سعيه الدائب لجمع نسخة كاملة صحيحة من معجم العين كما رأينا ، كما انعكس هذا الاهتمام في الحفاوة التي اظهرها باللفوى المشرقي ابي علي القالي ، لا عند استقباله فقط وانما خلال اقامته بجواره ، اذ ينقل الحميدي عن ابن حزم قوله « وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الامور وبعد ان صارت اليه ، يبعثه على التأليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالافراط في الاكرام » وقد ألف القالي استجابة لذلك عددا من المؤلفات المتفاوتة فيما بينها من حيث الجودة والاهمية والضخامة ، لكن ما يجمعها كونها باجمعتها في اللغة والنحو .

ولعل اهم هذه المؤلفات معجم البارع ، الذي استغرق العمل فيه ستة عشر عاما تطلتها فترة انقطاع . وما انجز في هذه المدة كلها منه كان املاؤه ثم تهذيب وصياغة كتاب الهمزة والهاء والعين فقط ، وتوفي قبل انجاز التهذيب والصياغة فأكملها معاوناه ، كما مر سابقا ، وخرج في مائة مجلد . وقد تجاوز القالي - حسب رأي معاصريه - معجم العين للفراهيدي بزيادة في كلمات البارع قدرها خمسة الاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة . وقد قدم هذا للزبيدي مبررا لحكمه القائل « لا اعلم احدا من العلماء

المتقدمين والمتأخرين ألف مثله في الاحاطة والاستيعاب « (٢٠) . ومن كتب القالي الهامة كتاب « الامالي » المشهور والمتداول على نطاق واسع حتى ايامنا هذه . وهو من كتب المجموعات الادبية التي تحوي اخبارا ولغة وادبا . ويقول عنه ابن حزم انه « مبار لكتاب الكامل الذي جمعه ابو العباس المبرد ، ولئن كان كتاب ابي العباس اكثر نحوا وخبرا ، فان كتاب ابي علي لاكثر لغة وشعرا » (٢١) .

يلي ابا علي القالي في الشهرة بين المؤلفين في ميداني اللغة والنحو ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، وكانت صلته بالحكم وثيقة الى حد ان كل ما ألفه كان بامر وتوجيه وتخطيط للموضوع منه ، او بمباركته في حالات اخرى . ياتي في مقدمة هذه المؤلفات اختصاره لكتاب « العين » ، وقد جاء ميسرا للاستفادة من مادة المعجم حتى فضله الناس على الاصل ، اذا صدقنا ما ينقله صاحب المزهري من قول لابي الحسن الشاري بان الناس « قد لهجوا كثيرا بمختصر العين للزبيدي فاستعملوه وفضلوه على كتاب العين لكونه حذف مما اورده مؤلف كتاب العين من الشواهد المختلفة والحروف المصحفة والابنية المختلفة ، وفضلوه على سائر ما ألف على حروف المعجم من كتب اللغة » (٢٢) .

وكان للحكم ايضا دور مماثل في مؤلف آخر للزبيدي هو « طبقات النحويين واللفويين » وقد عرض من هذا الكتاب المتداول حتى ايامنا هذه الى ذكر تراجم لكل من الفئتين في مراكز الفكر المشهور بديار الاسلام بدءا من اوائلهم وحتى ايامه على طبقاتهم . تقدمت البصرة هذه المراكز وتلتها الكوفة ثم مصر فالقيروان ، وختم كتابه بطبقات النحويين واللفويين بالاندلس .

في الكتاب الثالث للزبيدي وهو « لحن العامة » او « لحن عوام الاندلس » ، يقتصر دور الحكم على المباركة فقط اذ يقول في مقدمته « وكان الذي دعانا لتأليف هذا الكتاب ما املناه في الثقة التي اسندها الى المؤلف الامام الفاضل والخليفة العادل . . » . اما مضمون الكتاب فيأخذ بعين الاعتبار طبقة القراء التي يتوجه اليها ، هي بالطبع متعلمة وبالتالي فانه لا يحتوي على كل ما يلحن به العوام اذ يمكن للمتعلم تمييزه بسهولة ولا ضرورة لتنبهه عليه . ويقتصر ما يورده على ذلك اللحن الذي تسرب الى العامة الى المثقفين مع الزمن فاستعمله جملة الكتاب وعلية الخدمة وضمنه الشعراء اشعارهم ، فهو والحالة هذه من قبيل الخطأ الشائع الذي تتوهم صحته . . وقد سبقه لهذا الموضوع عديد من المشاركة لكن فائدة كتبهم في الاندلس محدودة ، فحسب قوله « سلمت عامة الاندلس من موافقة الكثير من لحن اهل المشرق ونطقت بوجه الصواب فيه » (٢٣) .

عمل في ميدان اللغة والنحو أيضا محمد بن عبد العزيز الشهير بابن القوطية ، وان كان يدين بشهرته لعمله في مجال التاريخ والاخبار . وقد اشتهر في الميدان الاول بعمله بعنوان « شرح رسالة ادب الكاتب » مع ان مضمونها لا يتعدى شرح مقدمة ادب الكاتب ، للكاتب المشرق المشهور ابن قتيبة .

على شاكلة ما جرى في المشرق رافق جمع كلمات اللغة في المعاجم جمع الشعر العربي ، وقام الحكم بتوجيه عملية جمع الشعر الاندلسي على وجه الخصوص . واتخذ اشكالا عدة منها جمع اشعار شخصية ادبية مشهورة غزيرة الشعر في ديوان ، كما هو حال الكاتب والاديب والشاعر الاندلسي احمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، والمتوفى سنة ٣٢٨هـ عن عمر يناهز اثنين وثمانين عاما . وقد انتج في هذا العمر الطويل الكثير من الشعر لدرجة ان مدائحه في بني امية الحاكمين كانت من نصيب اربعة عاصرهم . وراى ابن حزم ديوان شعره فوصفه قائلا : وشعره كثير مجموع رايت منه نيفا وعشرين جزءا (٢٤) .

واتخذ جمع الشعر بأمر الحكم شكلا ثانيا هو المختارات الشعرية ، ونرى مثالا عليها فيما وضعه له ابو عمر احمد بن محمد بن فرج الحياتي ، في كتابه المعروف « الحقائق » الذي عارض فيه كتاب « الزهرة » المشرقى لابي بكر محمد بن داود . وقد تجاوز كتاب الحقائق كتاب الزهرة من ناحية الحجم على الاقل اذ احتوى على اربعة امثال ما احتواه الكتاب الثاني . ويقول ابن حزم في هذا الصدد ان « ابا بكر بن داود انما ذكر مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وابو عمر اورد مائتي باب في كل باب مائتي بيت » . ثم يضيف لهذه الميزة ميزة اخرى قائلا « احسن ابو عمر الاختيار ما شاء واجاد فبلغ الغاية واتى الكتاب فردا في معناه » (٢٥) .

يمكننا ايضا اعتبار المؤلفات في اخبار الشعراء شكلا ثالثا من اشكال جمع الشعر وحفظه . وقد صنفت هذه الكتب لتسجيل اخبار شعراء مناطق او كور الاندلس ، وقد راى ابن حزم بعضها فقال بصدددها « ومنها كتب كثيرة جمعت فيها اخبار شعراء الاندلس للمستنصر رحمه الله تعالى رايت فيها اخبار شعراء البيرة في نحو عشرة اجزاء » . من ناحية اخرى لم يخل بلاط الحكم المستنصر من مؤلفين في الادب كعمر بن عمير المعروف بابن الجرز والذي ألف رسالة ناقض فيها عبد الله بن المقنع (٢٦) .

العلوم الدينية

ويأتي في مقدمتها علم الحديث . وكانت كتب الصحاح للبخاري ومسلم والنسائي

والترمذي قد نقلت للاندلس، واستمر العمل بهذا العلم في المشرق على اساس دراسة الاسناد ورجالها . واسهم الاندلسيون في بلاط الحكم بشيء من هذا العمل ، فوضع محمد بن أحمد بن مفرج تبويبا لكتاب الاسماء والكنى لابي عبد الرحمن النسائي ، وظل هذا الكتاب يدرس حتى بعد قرن ونصف على الاقل في الاندلس . وقام العالم ذاته بجمع احكام رجال الحديث من الاجيال الاولى في المشرق، وجاء جمعه لفقه الحسن البصري في سبعة اسفار ، أما فقه الزهري فجمعه في كتب كثيرة ، واشتهر بين الاندلسيين في علم الحديث محمد بن معاوية من الاسرة الاموية الحاكمة ، الذي تتلمذ على النسائي وادخل سننه للاندلس . وبعد وفاته أمر الحكم يعيشا بن سعيد الوراق بتأليف كتاب عما رواه ابن الأحمر من الحديث وسماه « مسند حديث ابن الأحمر » (٢٦) . انصب الاهتمام في مجال علم الفقه على الدراسات ووضع المؤلفات عن الامام مالك ومذهبه ، خاصة وان المذهب اضحى الرسمي للدولة واصبح العمل بموجب احكامه لدى قبائل المغرب وبلدانه تعبيرا عن ولائها لخلفاء الاندلس وخروجها عن سلطان الفاطميين . تزامن ذلك مع افول نجم آل حماد ، القضاة وذوي الثروة والنفوذ في بغداد نهائيا عام ٣٢٩ هـ ، أي عندما كان الحكم وليا للعهد ، وكانوا اصحاب اليد الطولى في بسط مسائل المذهب والمنافعة عنها . فتسلم الحكم راية حماية المذهب والمنافعة عنه ، والسعي لبثه ، وآية ذلك اكماله لمشروع بدأ به اصحابهم في بغداد ، وكان عبارة عن تأليف ديوان جامع لقول مالك بن انس لا يشاركه فيه قول أحد من اصحابه وباختلاف الروايات عنه وذكر من رواها . وتم تأليف خمسة اجزاء حول الموضوع وقعت بيد الحكم ، فكلف بعد التشاور مع قاضيه ابن السليم والفقهاء ابي بكر المعيطي وابي عمر بن المكوي باتمام العمل وانجازه . استطاع الفقيهان انجاز العمل بعد ما اباح لهما الحكم البحث في مكتبته عن اقوال مالك حيث كانت في روايات المكيين والمدنيين والعراقيين والمصريين والاندلسيين وغيرهم ، وخرج المؤلف في مائة جزء ودعي بكتاب « الاستيعاب الكبير » . وقد اعجب به الحكم فوصل كلا منهما بألف دينار ومنديل بكسوة وقدمهما الى الشورى .

عمل الفقيهان المصنفان لكتاب الاستيعاب تجاه اقوال مالك ما فعله كل من مسلم والبخاري تجاه اقوال الرسول (ص) ، وفي الاتجاه ذاته سار البحث حول الامام مالك فبدأت دراسة الرجال الذين رووا عنه ، كما كان يجري في الحديث الشريف حول دراسة سلاسل اسناده ، وقد تصدى لهذا العمل محمد بن أبي دليم القرطبي (ت ٣٥١ هـ) ، وكان قاضيا للحكم على عدة مدن ، وانجز كتاب « الطبقات فيمن روي عن مالك واتباعهم من أهل الامصار » . وظل الكتاب بعده واحدا من اكبر المصادر لمن ألف وكتب عن اعلام المالكية .

وفي خضم الجدل المذهبي الذي ملا آنذاك دنيا المغرب والاندلس خدمة لاغراض

سياسية ، دخل الاندلسيون ميدان الحجاج والمجادلة بعد طول احجام ، وalf أحد المقربين للحكم الذي قدمه للشورى وهو ولي عهد ، كتب عدة في نصره مذهب مالك منها « كتاب الدلائل والبراهين على مذهب المدنيين » (٢٨) .

التاريخ والجغرافية

نشط التأليف في هذين المجالين في بلاط الحكم ، بتوجيه وامر منه ، وفق أنماط جرى التأليف عليها بالاندلس تقليدا للمشرق . من هذه الانماط ذلك النمط من التاريخ الوثيق الصلة بمؤلفات الرجال في علم الحديث . وإذا كان الهدف في المؤلفات الأخيرة معرفة الرواة في النواحي التي تساعد على التثبت من صحة الاحاديث التي يروونها ، فان الغاية أصبحت في المؤلفات الاندلسية القريبة معرفة المشاهير والبارزين في الاندلس كلها او في حدود كورة من كورها او مدينة من مدنها . وقد يتسع نطاقها ليشمل البارزين في شتى المجالات ، او يضيق ليقتصر على البارزين في مجال واحد من مجالات النشاطات الفكرية او الادارية (٢٩) . من الامثلة على رجال الاندلس ، ما ألفه خالد بن سعد باسم « رجال الاندلس » للحكم المستنصر الذي اعتبر الكاتب مفخرة من مفاخر الاندلس في مواجهة علماء المشارقة المماثلين . اما المؤلفات عن البارزين في ناحية محددة ، فقد نالت فئة الفقهاء والقضاة الحظ الاوفر من اهتمام المؤلفين وتكريس المؤلفات . ومع ذلك فقد ضاع جل هذه المؤلفات على كثرتها ولم يبق منها سوى نتف واقتباسات لدى الكتاب المتأخرين . ولعل أشهر ما تبقى منها كان لابن حارث الخشني ، الذي استقدمه الحكم - كما مر - من سبته ، وalf له على ما يقال مائة ديوان (٣٠) ، يهمنها منها في هذا الصدد كتاب عن علماء افريقية ، وآخر عن قضاة قرطبة ، الذي حقق في زمنه للحكم رغبته في التعريف بقضاة الجماعة وبحاضرتهم وتخليد ذكرهم ، لكنه اعتبر لدى الكتاب المحدثين منبعاً ثرا للمعلومات عن سائر نواحي الحياة بقرطبة ، ويعبر سانشيت البورنوث عن ذلك بقوله « ان القارئ المتعمق للكتاب يشعر وكأن اهل قرطبة الذين عاشوا قبل ألف عام قد بعثوا من القبور لانه يرى امام ناظريه كل نواحي حياتهم : لهجات كلامهم ونظم ادارتهم وعاداتهم في البيت والسوق وماكلهم وملابسهم » (٣١) . شكل آخر من اشكال الكتابة التاريخية ازدهر في بلاط الحكم ، تجاوز مشاهير المدن والحواضر لبحث في كل شيء يتعلق بمنطقة من المناطق او كورة من الكور ، كالبحث في ارضها ومنتجاتها وتاريخها ومشاهيرها . وقد يقوم نفس المؤلف بالتأليف في النمطين ، كما هو حال مطرف بن عيسى الفسائي (ت ٣٥٦هـ) ، الذي ألف كتابا في فقهاء البيرة وآخر في شعرائها ثم تجاوز هذا الاطار المحدود ليؤلف حسب قول ابن بشكوال للحكم المستنصر كتابا سماه « المعارف في اخبار كورة البيرة واهلها وبواديها واقاليمةا وغير ذلك من منافعها » . وظل الكتاب مرجعا لكل من حاول

الكتابة عن المنطقة حتى أواخر أيام التاريخ الأندلسي (٢٢) . وفي الكورة المجاورة وهي كورة رية وحاضرتها مدينة مالقة قام ابن مسعدة أو ابن سلمة بالتأليف في النمط نفسه بكتاب ذي أجزاء كثيرة في « أخبار رية من بلاد الأندلس وحصونها وولاتها وحروبها وفقائها وشعرائها » . ثم قام بتجاوز هذا الإطار وألف بناء على أمر من الحكم المستنصر كتاباً شاملاً لأخبار الأندلس . ويبدو مما اقتبسه المتأخرون من هذا المؤلف الضائع أنه شمل فترات تاريخ الأندلس منذ الفترة التي سبقت فتحها (٢٣) .

وفي فترة ولاية الحكم للعهد وخلال خلافته ، أنتج أب وابنه من عائلة الرازي أهم مؤلفات هذه الفترة في التاريخ والجغرافيا . وتنتمي العائلة إلى قبيلة كنانة العربية ، وبذلك يكون أصلها عربياً صريحاً . لكنها استوطنت الري في بلاد فارس ، ومن هنا جاءت شهرتها ونسبت إلى المدينة . واتصل الداخل منها ، وهو والد المؤرخ محمد بن موسى ، بالأمير الأموي في الأندلس وعمل لديه جاسوساً ، وينسب إليه تأليف كتاب « الرايات » وهو عمل تاريخي صغير ينصب على موضوع محدد لا يتجاوز القبائل العربية التي دخلت الأندلس تحت راية موسى بن نصير . وعاش أحمد ابنه شبابه وبقيته حياته في عصر خلافة الناصر والد الحكم (توفي ٣٤٤ هـ) ، ووضع في التاريخ والجغرافية عدة مؤلفات ، ففي الميدان الأخير وضع كتاباً في طبوغرافية قرطبة ذكر فيه صفتها وخططها ومنازل العظماء بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور فيها ، كذلك ألف في الموضوع ذاته كتاباً عن جغرافية الأندلس بكاملها جمع فيه النمطين المعروفين لدى العرب وهما : المسالكي والبلداني ، وقد وصفه ابن حزم بأنه « كتاب ضخيم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاة مدنها وأجنادها الستة وخواص كل منها وما فيه مما ليس في غيره » .

أما في التاريخ فقد وضع كتاب الفائق في « أنساب مشاهير الأندلس » ويصفه ابن حزم بأنه في خمس مجلدات ضخمة (٢٤) . ووضع كتاباً في التاريخ العام للأندلس بدءاً من الفترة الأسطورية ، أي ما قبل الروماني فالقوطي فالإسلامي . وقد اعتمد عليه المؤرخون الأندلسيون في العصور التالية ، وعبرت شهرته الحدود الإسلامية لتصل إلى إسبانيا المسيحية فتستوحي منه الرواية العامة لإسبانيا التي أمر بكتابتها بعد ثلاثة قرون الفونسو الحكيم - مراحل التاريخ الإسباني إضافة للمعلومات التاريخية ، كما عبرت البحر إلى المشرق ، واعتمد عليه ابن الأثير فيما كتبه عن فترته من تاريخ الأندلس . وفي القرن السابع الهجري أيضاً أمر ملك البرتغال دون ديونيس بترجمته مع وصف الأندلس الجغرافي ، وضاعت هذه الترجمة ، وما بقي ترجمة عنها للإسبانية باسم « مروية المسلم راسيس » cronica del moro Rasis (٢٥) وأعاد بعده ابنه عيسى للحكم المستنصر صياغة تاريخ الأندلس بشكل أكثر غنى ، وقد ادعى أن إياه

أحمد هو مبتكر علم التاريخ بالاندلس وذلك بقوله « فغلب عليه حب الخبر والتنقير عنه ، ولم يكن من شأن أهل الاندلس ، فالتقطه عن لحقه من مشيختهم ورواتهم ودوته ، ووضع قواعد التاريخ بالاندلس مبتدئا ، فازلفه بالسلطان واعتلت به منزلة والده ، من بعده ، واكسبوا أهل الاندلس علما لم يكونوا يحسنونه » .

يتضح من هذا القول ان مفهوم التاريخ هنا قاصر على التاريخ العام ، الذي يرتب الحوادث على السنين خلال فترة طويلة ، ويتناول اضافة لها حديثا عن الشخصيات البارزة كالامراء والوزراء . اما تراجم الرجال والمؤلفات التي تروي حادثة والاراجيز التي تقص تاريخا ، وهي مؤلفات معروفة عند الاندلسيين منذ زمن ، فلا تعتبر تاريخا . ومع ذلك فان في حديث الابن عن أبيه مبالغة واضحة ، اذ وجد لكل من مؤلفات أبيه ما يشابهها في الفترة نفسها التي عاشها وفي البلاط الذي عاش قريبا منه ذاته ، وهو بلاط عبد الرحمن الناصر ، حيث كان ولي العهد المستنصر مهيمنا في هذا المجال . فاذا بدأنا بالانساب نرى الحكيم عبد الله بن عبيد الله (المتوفى سنة ٣٤١ هـ) ، يرفع للناصر سنة ٣٣٠ هـ كتابا ألفه في الانساب يحتوي على « ذكر الخلفاء ومن تناسل منهم في الاندلس ومن سائر قريش ومواليهم وأهل الخدمة والتصرف لهم ومشاهير العرب الداخلين الى الاندلس من المشرق من غير قريش ومواليهم ومشاهير قبائل البربر الذين احتلوا الاندلس » (٢٦) .

وعاش في بلاط الناصر ثم في بلاط ابنه ككاتب له عريب بن سعد (أو ابن زيد) ، وكان عالما موسوعيا ، فهو شاعر له مؤلفات في الطب والزراعة ، كما ألف للحكم كتابا في الانواء ، نشره دوزي مع رسالة مشابهة لاسقف قرطبة تحت عنوان « تقويم سنة ٣٦١ هـ » (٢٧) . واشتهر أيضا بكتاب له في التاريخ العام على السنين وصل به تاريخ الطبري باخبار عن المشرق بين سنوات ٢٩٠٠ - ٣٢٠ هـ ، وهو مطبوع متداول في عصرنا . بهذا يبدو غير صحيح القول بأن أحمد الرازي كان المبتكر الوحيد لفن التاريخ ، حتى لو أخذنا التاريخ بالمفهوم المشار اليه سابقا . ويبدو أنه ظهر في فترته لدى عديدين لتوافر العوامل الموضوعية الملائمة لظهوره ، وفي مقدمتها تراكم الى الحد الكافي في المعلومات التاريخية ، مثل المعلومات عن الرجال والحوادث بالنسبة للفترة الاسلامية من تاريخ الاندلس ، وكذلك اخبارها قبل الاسلام بنتاج ما ألفه وترجمه بعض المستعربين عن أيام القوط ومن سبقهم .

العلوم القديمة :

وهي بمفهوم العرب المسلمين تلك العلوم الداخلة ضمن اطار الفلسفة او

الحكمة ، والتي تضم ، عدا الفلسفة بمفهومنا ، مجموعة العلوم الرياضية والطبية والكيميائية . وقد سميت كذلك لآخذ العرب لها من الحضارات القديمة ، وخاصة اليونانية . كانت هذه العلوم مكروهة في الاندلس لدرجة أنهم لم يتجردوا للبحث فيها الا في اواسط القرن الثالث الهجري ، وابقوا عملهم فيها في طي السرية والكتمان ، وحصل الانقلاب الكامل تجاهها في عهد الحكم حسب قول صاعد الطليطلي « ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر ، وذلك في أيام أبيه ، الى العناية بالعلوم والى ايثار أهلها واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التأليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة ... فكثر تحرك الناس في زمانه الى قراءة كتب الاوائل وتعلم مذهبهم » (٢٨) .

لقي العاملون في هذا المضمار لدى الحكم ما لقيه غيرهم من العلماء في المجالات الأخرى من التقريب والحنو ، الا أنه قريبهم تحت ستار كونهم اطباء ، أما من لم يعرف منهم بالطب فقد ابقى نفسه على مسافة منه ، كما هو حاله مع عبد الله بن محمد المعروف بالسري ، المبرز في علوم العدد والهندسة وينسب اليه العلم بصناعة الكيمياء ، وكان الحكم يعظمه ويؤثره ويروم الاستكثار منه فيقبضه عنه ورعه ويكفه عن مداخلته زهده . وقد انشأ الحكم للباقيين المعروفين بالطب ديوانا يشرف على نفقاتهم كل بحسب مرتبته . ويظهر ان عطاياه لهم كانت كبيرة لدرجة ان العديد منهم كانوا اصحاب وظائف عالية في مجالهم بالمشرق فقدموا الى موطنهم الاندلس والتحقوا بخدمة الحكم ، ومن مشاهيرهم احمد وعمر ابنا يونس الحراني ، اللذان اتما تحصيلهما في العراق ثم عملا بخدمة رجال السلطان ببغداد ، ثم قدما على الحكم وبقيا في خدمته حتى الوفاة ، وقد خلف الثاني منهما ما تزيد قيمته على مائة الف دينار . تابع هؤلاء الاطباء المقربون للحكم عملهم في مجالات عملهم ، بعضهم يعمل في الفلسفة والمنطق وبعضهم الآخر في الهندسة والحساب ، كما ان ابني الحراني اقاما داخل سكنهما بمدينة الحكم الملكية الزهراء معملا صغيرا لتركيب الادوية . ويروي عن ابن جليل انه رأى لاحد الحراني فيه « اثني عشر صبيا صقالبة ، طباخين للاشربة صناعين للمعجونات بين يديه . وكان قد استاذن امير المؤمنين المستنصر ان يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فاتاح له ذلك » (٢٩) .

يلاحظ من تتبع اسماء المقربين للحكم في مضمار العلوم القديمة ان اغلبهم قد اكملوا علمهم في المشرق ، حيث تطورت هذه العلوم اثر ترجمة اصولها الى العربية ، ويبدو ان الحكم اراد للاندلسيين الاطلاع على الاصول القديمة من يونانية ولاينية مباشرة وتبلور الشكل الذي اخذه هذا المسعى ، بالطريقة التي اتبعها في ترجمة كتابين ، احدهما يوناني والاخر لاتيني ، يقال انهما وردا ضمن هدية من امبراطور بيزنطة لبلاط

الخلافة في قرطبة . الكتاب اللاتيني هو « كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين »
الفه باولوس اوروزيوس ، المحرف في الرواية العربية الى هيروشيشتس ، ويعرف
« بانه تاريخ للروم عجيب فيه اخبار الدهور وقصص الملوك الاول وفوائد عظيمة » .
يورد ابن خلدون ان الكتاب قد ترجم للحكم المستنصر من قبل كل من قاضي نصارى
قرطبة وترجمانهم فيها ، وقاسم بن اصبع شيخ العصر . ويبدو ان الاول كان ينقل
الفكرة من اللاتينية الى العربية او العامية الاندلسية ويقوم الثاني بصياغتها صياغة
عربية سليمة .

وقد شك الباحث الايطالي ج . ليفي دي لا فيدا بأن تكون القسطنطينية مصدر
المؤلف التاريخي اللاتيني ، لكن احدا لم يشك باصل الكتاب الثاني وهو لديسقوريدس
اليوناني ، ويحتوي على الحشائش الطبية ، يضاف اليها حسب قول ابن جطل « صور
للحشائش بالتصوير الرومي العجيب » . ولم يكن هذا الكتاب مجهولا بالاندلس ، اذ حوت
مكتبة القصر ترجمة مشرقية له انجزت زمن المتوكل العباسي . لكن فائدها بقيت محددة
لان اسماء اعيان الحشائش في المشرق لا تطابق دائما اسماءها الاندلسية ، اضاف الى
ذلك ان المترجم المشرقي لم يعرف اعيان بعض النباتات فتركها على شكلها اليوناني ،
عسى ان يتعرف عليها غيره (٤٠) . شجع الحكم عملية ترجمته من جديد ، وطلب من
امبراطور بيزنطة ان ينفذ اقتراحه بايفاد عارف باليونانية من بلاطه ، فوافد الراهب
نقولا الذي انضم اليه فريق اندلسي بينهم عارفون باللاتينية واطباء وعلماء نبات
ولغويون . واستمر العمل به امدا توفي خلاله نقولا الراهب ، الا انه تيسر للاندلسيين
عارف باليونانية من مسلمي صقلية . وانجز العمل بدرجة من الاتقان كافية ، اذ
استطاع العاملون التعرف على « اشخاص » الحشائش العقاقير في كتاب ديسقوريدس
بمدينة قرطبة ونواحي الاندلس ، ولم يبق دون معرفة الا حوالي عشرة ادوية .

اسهام الحكم في الحياة العلمية والرؤية الموجهة لسياسته فيها

لعل اول اسهام له كان التمويل وتقديم عطايا للعاملين بلغت ضخامتها حدا
جعل بعض اعلام المشاركة يشدون الرحال اليه متحملين مشاق الرحلة الطويلة والبعيد
عن الاوطان . وتبع التمويل تيسير سبل العمل بتهيئة المكان المريح الملائم وبأمين المكتبة
والسماح بالرجوع لوثائق دواوين ادارته . وقد لا يبدو الحكم ضمن هذه الحدود
متميزا عن غيره من الخلفاء والسلاطين المسلمين ، اذ انهم اولو أمر في دول اسلامية
والاسلام يحض على طلب العلم ، اضاف الى ذلك ان تجمع العلماء في بلاط ما يخلق حول
الحاكم هالة من العظمة ، اذ لا يخلو ان يكون بينهم شاعر او شعراء يتغنون بامجاده
ومؤرخ او مؤرخون يسجلون ما هو مشرق من احداث حكمه .

لكن الحكم تجاوز غيره بكثير من نواح عدة ، منها انفتاحه وتسامحه ، كما تجلى لنا ذلك من تقديمه للعلماء من مذاهب أخرى غير المالكية ، وكذلك في انفتاحه على العلوم القديمة ، لكن هذا التسامح لم يكن مطلقا ولا يصل لحد السكوت عما يتهم في دينه من العلماء . لذلك نراه يبعد فقيها شافعيًا قد آواه في بلاطه ، عندما نعي اليه انه على مذهب الاعتزال .

مما تميز به الحكم عن غيره ايضا انه شارك في التأليف كتابة وتخطيطا ومراجعة . كتب في الأنساب والرجال ، اذ ينسب اليه ملحق لكتاب « قضاة قرطبة » للخشني ، وكذلك تعليقات كثيرة على بعض كتب مكتبته تناولت حديثا عن اطباء ايضا ، وتبدو انه كان متقنا لما يكتب كثير التحري عن صحته ، اذ تتردد كثيرا لدى مؤلفين عاشوا بعد عصره وزوال حكم أسرته جملة « قرأت ذلك بخط الحكم المستنصر وقوله حجة عندنا بالأندلس » . وفي حالة وضعه مخطوطا للوُلفات اتخذ تخطيطه اكثر من شكل ، فاحيانا يكون تحديدا دقيقا ، كما هو الحال في طبقات النحويين للزبيدي الذي يقول في مقدمته « الفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به امير المؤمنين اعزه الله واقمته على الشكل الذي حده ، وامدني ابقاه الله في ذلك بعنايته وعلمه ووسعني من روايته وحفظه » . وأحيانا يكون التخطيط عبارة عن تحديد الهدف والغاية فقط من الكتاب والاكتفاء بوضع الاطار العام ، كما يظهر ذلك في كتاب « قضاة قرطبة » للخشني ، الذي يقول في هذا الصدد « ان الحكم منطلقا من الرغبة في حفظ العلوم ومطالعة الاخبار وفي معرفة النسب وتقييد الآثار ، وفي الإشارة لفضائل السلف والتقليد لمناقب الخلف وفي التذكير بالنسب من الانباء والاشارة للسالف من القصص وبخاصة ما كان في مصره قديما وفي عصره حديثا وقد امر بتأليف كتاب القضاة مقصورا على من قضى للخلفاء بارض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة ولعمالهم بها من قبل » .

قام الحكم ايضا بمراجعة بعض المؤلفات على الأقل ، ومن الامثلة على ذلك انه لما اكتمل معجم البارع لابي علي القالي « ورفع اليه اراد ان يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجمع عليها من كتاب العين فبلغ ذلك الى خمسة الاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة » . وشبهه بهذا ما حدث لمختصر العين الذي قام به الزبيدي « على التصنيف والترتيب اللذين حدهما له . . ارتضى عمله فيه عند تصفحه . . واوصله الى نفسه يومه هذا ففأوضه في عمله الذي برع فيه واستثار له من غوامض فنونه . . » صفوة القول ان النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر كان موجها من قبله . ويبقى المهم بالتالي تبين رؤيته الموجهة وهل كانت تقليدية ، بمعنى اعطاء قوة دافعة فقط لمسيرة الحياة الفكرية وفق الخطوط التي كانت تسير عليها ضمن اطار تقليد المشرق . . . يبدو لاول وهلة ان النشاط الفكري ظل على انتاج الانماط نفسها ، كما

يتجلى ذلك في المؤلفات اللغوية والأدبية التي تختصر أو تعارض تلك المؤلفات التي ظهرت في المشرق . إلا أن نظرة أكثر شمولاً في الاستقصاء وأعمق في التأمل تدل على أن ظروف الواقع الأندلسي والحاجات المنبثقة عنه كان لها تأثير كبير بحيث كونت تلبية الرؤية الموجهة للحكم في توجيه النشاط الفكري ببلاطه .

يمكن إجمال ظروف الواقع الأندلسي بكون الأندلس الموحدة القوية التي تبسط نفوذها على شمال إسبانيا من جهة ، كانت تواجه تحدياً خطيراً من الجنوب متمثلاً بالفاطميين الذين يسيطرون على جزء كبير من المغرب العربي الإسلامي ويطمحون لاختصاص ديار الإسلام كلها ، بما فيها الأندلس ، لسلطان أمهم الذي اعتبروه الإمام الوحيد لها . وقد رد الأندلسيون سياسياً على هذا التحدي بإعلان أميرهم خليفة أوحده لديار الإسلام ، من دون الإمام الفاطمي في المغرب والخليفة العباسي في المشرق . وفي مواجهة المذهب الفاطمي دعم الخلفاء الأندلسيون المذهب المالكي وفقهاءه ، كما حاولوا إبراز مكانة قاعدتهم وهي الأندلس وجلاء تفوقها لا على المغرب فحسب بل وعلى العراق أيضاً .

انبثقت الرؤية الموجهة للنشاط الفكري لدى الحكم من ضرورات تلبية حاجات الأندلس ودولة الأمويين فيها . وهكذا نرى اهتماماً موحها نحو تمجيد وتعظيم الأمويين ، إذ يؤلف شيخه وشيخ أبيه قاسم بن أصبغ كتاباً في فضائل قریش . علماً أن أموي الأندلس ينعتون أنفسهم بالقرشيين . كما أن الحكم يجمع أشعار الخلفاء من بني أمية في كتاب ، كما يحاول أن يعلي من ذكر أسرته في الأقطار الأخرى فيكافيء من يؤلف عنهم كما هو حاله مع أبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ، الذي ألف في أنساب قومه ومدحهم معه بقصيدة ، وكذلك هديته المالية إلى أبي عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب كتاب الولاية والقضاة ، الذي ألف عن آخر الروائيين مروان الجعدي . وفي الوقت نفسه سدت الحاجة لتمجيد قاعدتهم الأندلس بتلك المؤلفات الكثيرة في الجغرافيا والتاريخ ، التي أعطت صورة عن غناها بالموارد المادية والطاقات البشرية التي عكستها كتب تراجم الشعراء والأطباء والفقهاء والمحدثين . ونظراً لمكانة الآخرين الدينية بذل الحكم جهداً شخصياً لإبرازهم عند المؤلفين المشارقة . فقد ألف أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري تاريخاً لأهل الأندلس والمغرب أخذه من كتاب أنفذه إليه الحكم المستنصر (٤٢) . أما التاريخ العام فيبدو في الظاهر وكأنه تقليد للنمط المشرقي ولا علاقة له بتمجيد الأندلس ، لكن الإطلاع على مضمون المؤلف منه في الأندلس يبين أنه يخدم الغرض خدمة وإفية ، إذ يتحول هنا لتاريخ للأندلس فقط منذ العصور القديمة ، وبالتالي يعكس استمرارية حكم الأمويين من جهة ويجلي عراقتها كقاعدة للملك منذ أقدم العصور . لكن الشعوبيين الأندلسيين استفلوا هذا الغرض ليدسوا في

ثنايا المكتوب ما يبين فضل اهل الاندلس القدماء على العرب المسلمين ، كما يظهر ذلك واضحا من كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية (٤٢) .

من ناحية اخرى اقتضت ضرورات الصراع مع الفاطميين الى اعتماد الاندلسيين على جملة وسائل ، منها دعم الفقهاء المالكيين والمذهب المالكي واعتبار سير القبائل المغربية بموجب احكامه علامة طاعة لهم . ولم يقتصر دعم الفقهاء على من وجد منهم في الاندلس والمغرب بل تعدى الامر ذلك الى مصر ، حيث كانت الهبات توزع عليهم بمعدل مائة دينار للواحد ، مع مضاعفتها لكبيرهم . ويصب في المجرى نفسه التشجيع الذي رايناه من الحكم للتأليف حول اقوال مالك ورجاله . وتتضح الغاية الدعائية في الحديث عن رجال المالكية واضحة بجلاء في كتاب الخشنى « علماء افريقية » الذي يبدو كتابا ذا طابع موضوعي يعرض لعلماء افريقية كلهم وعلى اختلاف مذاهبهم . لكن تفحصه بشيء من الدقة يوصل الى مكن الدعاية فيه ، فبينما تقتصر تراجم الغالبية فيه على سطور قليلة من المطبوع نراه يخص سعيدا بن الحداد ، الفقيه المالكي الذي تحلى بالقدرة على الجدل والدفاع عن المالكية ضد الدعوة الفاطمية المعادية بعشرين صفحة ٢٥٧ - ٢٧٨ من هذا المطبوع . والاهم من طول الترجمة في تعيين الغاية هو مضمونها ، اذ حوت على وقائع مجادلاته مع احد كبار الدعاة الفاطميين وافحامه له ونقضه للاسس الفكرية التي يقوم عليها مذهبه ، كقضايا ترتيب كبار الصحابة في الفضل ، والامامة بالنص والامر الالهي لا باختيار الناس ، وامامة المفضول مع وجود الافضل . وبذلك يكون الخشنى قد بث بين مطالعي الكتاب تسفيها للفكر الفاطميين . من الجوانب الفكرية التي شجعها الحكم تلك التي تخدم ضرورات سياسته الخارجية القائمة على فرض الهيمنة وبسط النفوذ في المغرب وشمال اسبانية . ففي المنطقة الاولى كان يحارب الفاطميين باثارة القبائل والقوى الاجتماعية في المدن ضدهم ، وتتحرك رسله عبر المغرب في كل الاتجاهات لتحقيق الغرض ، وبالتالي كان لابد له من معرفته ارضا وسكانا ، وتيسر له ذلك بمؤلفات محمد بن يوسف الوراق القيرواني الموطن ، الذي الف له « في مسالك افريقية وممالكها ديوانا ضخما وفي اخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمعة وكذلك الف في اخبار تاهرت ووهران وسجلماسة ونكور والبصرة تواليها حسانا » (٤٤) . اما الشمال الاسباني فكان يعرفه عن طريق مبعوثيه المقيمين ، نظرا لصلات المنطقة مع امراء الفرنجة في غاليا ، فقد تعرف على اخبارهم وملوكهم بواسطة اسقف مدينة جرندة الحدودية بين اسبانيا وغاليا ، الذي ارسل له كتابا بهذا الصدد راي المؤرخ المشرقي المسعودي نسخة منه بمصر (٤٥) .

ولبي حاجات التنافس مع المشرق ايضا ذلك الجانب من النشاط الفكري في بلاط الاندلس ، المتمثل اولا بانتهاء التبعية الثقافية للمشرق ، ويظهر ذلك بنقل الاصول

الفقهية للفقهاء القدماء كالزهري والحسن البصري ، وفي العلوم القديمة بالاطلاع على اصولها القديمة ، لاعبر الترجمات المشرقية بها ، كما رأينا في كتاب ديسقوريدس . ولدينا العديد من المؤشرات الاخرى على رغبة الحكم لا بانتهاء التبعية للمشرق فحسب بل التفوق عليه ، فعندما بلغه نبأ انسحاب احد اعضاء الوفد الذي ارسله لاستقبال ابي على القالي وامتناعه عن مرافقته لانه اكتشف له اخطاء في رواية شعر ، لم يحاسبه الحكم على ذلك بل بارك عمله بقوله « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد اهل العراق الينا وابن رفاة اولى بالرضا عنه من السخط » .

اصابت عدوى منافسة الاندلس للعراق في تبوؤ مركز الصدارة في ديار الاسلام للجماعات الخاضعة من اهل الذمة ، فقد كانت الجماعة اليهودية في الاندلس على سبيل المثال تتبع السلطة اليهودية المشرعة والمديرة لشؤون اليهود في بغداد ، والتي كانت منذ ايام الساسانيين تضع القواعد والتشريعات الهادفة الى تسير حياة جماعتها وفق احكام التلمود (٤٦) . وهكذا كان يهود الاندلس « يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت اعيادهم ليهود بغداد . وفي زمن الحكم قام احد خدمته في الطب وهو حسداي بن اسحق اليهودي باستجلاب تاليف من المشرق وعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا يجهلونه واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه » (٤٧) .

من هذا كله يمكننا القول ، انه كان لدى الحكم المستنصر رؤية واضحة في توجيهه للنشاط الفكري في بلاطه ، قائمة على جعل هذا النشاط يخدم ويلبي الحاجات المنبثقة من واقع سلطانه وسياسته الداخلية والخارجية .

الحواشي :

- (١) Melchor M. Antuna, La Corte Literaria de al-Hakam II, el - Escorial, 1929 .
- (٢) ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، ج ٥ ، تحقيق شاكيتا وآخرين (مدريد ١٩٧٩) ، ص ٣٢٢ .
- (٣) الزبيدي ، طبقات النحويين ، (القاهرة ، ١٩٧٢) ص ٢٨٢ - ٢٨٣ . ابن الأبار ، التكملة (ط القاهرة ١٩٦٥) ج ١ ، ت ٥٤٨ .
- (٤) المقتبس ، تع شاكيتا ، ص ١٤-١٥ .
- (٥) ابن الأبار ، الحلة السراء ، تع حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) ص ٢٠٦-٢٠٨ .
- (٦) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، تع أحمد بكير محمود (بيروت) ج ٢-٤ ، ص ٤٢١-٤٢٠ .
- (٧) طبقات النحويين ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ و ٢٨٤ و ٣٠٣ . ابن القرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، (ط القاهرة ١٩٥٤) ، ت ١٥٤٥ و ١٠٧٠ .
- (٨) ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تع بروفنسال ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .
- (٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تع بروفنسال ، ص ١٠٠ التكملة ، ت ٦٢١ .
- (١٠) المقتبس ، تع عبد الرحمن الحجى ، ص ٢١٧ .
- (١١) ترتيب المدارك ، ج ٣-٤ ، ص ٥٧ - ٥٧٣ .
- (١٢) الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .
- (١٣) ابن النديم ، الفهرست ، (ط خياط) ، ص ٥٩ .
- (١٤) التكملة ، ج ١ ، ت ٩٨٠ . ابن القرضي ، ت ١٦٣٦ .
- (١٥) المقري ، نفع الطيب ، ع محمد الدين عبد الحميد ، (القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ، ص ١٠٨ ، تكملة ج ١ ، ت ٩٣٦ و ٥٠٨ . ابن القرضي ، ت ٨٨٦ .
- (١٦) الفهرست ، ص ٤٢ - ٤٣ . الحميدي ، جلوة المقتبس ، تع محمد بن تاويت الطنجي ، ت ١٧٢ . ابن القرضي ، ت ١٠٦٢ .
- (١٧) المصدر السابق ، ت ١٥٩ ، طبقات النحويين ، ص ٣١٠ - ٣١٤ .
- (١٨) نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١١٧ . ابن القرضي ، ت ١٤٠٢ و ١٤٠٤ .
- (١٩) التكملة ، ج ١ ، ت ٦٩٩ .
- (٢٠) من مؤلفاته التي لم نورد لها ذكرا في المتن « المعود والقصور » و « فعلت وافعلت » و « حلى الانسان والخيول وشياتها » و « مقاتل الفرنسان » و « تفسير القصائد المعلقة » و « الامثال » . انظر ، طبقات النحويين ، ص ١٨٦ .
- (٢١) جلوة المقتبس ، ت ٣٠٣ ، أنباه الرواة ، ج ١ ، التكملة ، ت ١١٠٤ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٧٤ . ياقوت الحموي ، معجم الأديباء ، ج ٧ ، ص ٣٣-٢٥ .
- (٢٢) الزهر ، ص ٤٤ . البير حبيب مطلق ، الحركة اللغوية في الأندلس ، ص ١٣٠ .
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ١٤٦-١٦٥ .
- (٢٤) جلوة الاقتباس ، ت ١٧٢ .
- (٢٥) رواية ابن حزم في « جلوة الاقتباس » ، ت ١٧٦ وفي نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .
- (٢٦) طبقات النحويين ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

- (٢٧) ابن خنر ، فهرسة ما رواه من شيوخه (سرقسطة ١٨٩٢) ، ص ٢١٤ ، نفع الطيب ، ج١ ، ص ١٦٤ جلوة الاقتباس ، ت ٩١٥ .
- (٢٨) تريب الماركة ، ج٢-٣ ، ص ٦٢٤ - ٦٢٥ و ٤٤٠ - ٤٤١ . ٢٢٧-٢٢٨ .
- (٢٩) الف محمد بن هشام الرواني كتاب « اخبار الشعراء » وقاسم بن مسعودان كتاب « فقهاء ريه » وابو اسحاق الباجي « رجل باجه » و « فقهاء باجه » واحمد بن عبد البر « فقهاء قرطبة » والف ابن عبد البر « فقهاء قرطبة » والف ابن عبد البر الكشكشاني « فقهاء وقضاة قرطبة » .
- (٣٠) من كتبه الاخرى التي ألفها للحكم « فقهاء المالكية » و « التعريف » و « المولد والوفاء » و « النسب » و « الاقتباس » .
- (٣١) J.Ribera, al-Jusani, Historia de los Jueces de Cordoba, PPXXII - XLIII .
- C. Sanchez. Albornoz, En Torno a los Origenes del Feudalismo (Buenos-Aires 1977) T.II, PP 162-166.
- (٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ١٣٦٧ . ابن القرصي ، ت ١٤٤٢ . ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار قرطبة ، تع عبد الله منان ، ج١ ، ص ٢٢٠ .
- (٣٣) ابن القرصي ، ت ٢٢٨ . جلوة الاقتباس ت ٢٠٥ . نفع الطيب ، ج ٢٤ ، ص ١٦٦ . القتبس ، تع شاليتا ، ص ٤٦ و ٢٧٨-٢٧٩ .
- (٣٤) القتبس ، تع محمود مكي ، ص ١٦٥ - ٢٦٩ . الكلمة . ت ١٨٥ ، جلوة الاقتباس ، ت ١٧٤ .
- (٣٥) Pons Poigues , Historiadores Y Geografos Arabigo - Espanoles , Madrid 1898 PP. 62- 66.
- C.Sanchez Albornoz , En torno .. PP. 115-158.
- (٣٦) محمد بن عبد الملك المراكشي ، الدليل والكلمة ، تع محمد بن شريفة ، ق١ ، ص ٢١٢-٢١٣ .
- (٣٧) Levi Provencal , Historia de Espana, Mosulmana, (Madrid 1957) , P,137-135.
- (٣٨) صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، ص ٨٦ و ٨٧ .
- (٣٩) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ و ٤٨٧ .
- (٤٠) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ، ص ٣٠-٣٩ .
- (٤١) محمد بن حارث الخشني ، فضاء قرطبة ، نشر الحسيني ، ص ١٠ .
- (٤٢) ابن القرصي ، ص ٩-١٠ .
- (٤٣) J.Ribera, Disertaciones Y Opusculos (Madrid 1956), T.I,PP 119-129.
- (٤٤) الكلمة ، ت ٩٩٦ و ١٧٧ .
- (٤٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٨٠٢ .
- (٤٦) Michael Morony, Iraq After the Muslim Conquest , Oxford 1983, PP 306-314 .
- (٤٧) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ص ٤٩٨ .

القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الإسلامي

د. محمد ضيف الله البطاينة
جامعة اليرموك

وجود العرب في بلاد الشام سابق على انتشار الإسلام فيه ، وقد استرعى ذلك اهتمام المؤرخين المعاصرين عند دراسة حركة الفتوحات الإسلامية ، وترك أثرا بينا في أثناء تحليل النصر الذي أحرزه المسلمون ، وتفسير السرعة التي تمت الفتوحات فيها (١) .

وانتشار العرب بكثرة أو بقلة ، بين الداخل والساحل من بلاد الشام ، وبين البادية والحاضرة منها ، أمر له أهميته في العلاقات العربية الشامية والقوى السياسية الأخرى قبل الفتح الإسلامي للشام وبعده .

فيل كانت كلب تنزل في الجاهلية دومة الجندل ، وكان ينزل معها قوم من قضاة وغسان ومدحج (٢) ، وغزاهم في دومة الجندل عبد الرحمن بن عوف عام تسنت من الهجرة (٣) .

كما نزلت كلب تبوك وأطراف الشام (٤) ، واتصلت منازلهم في هذه البلاد بتدمير ،

وحمص ، والسويداء ، وبادية السماوة من حد دومة الجندل الى عين التمر ، وقيل لم يخالطهم فيها أحد (٥) ، وقرأقر وسوى ، وهما من مياه كلب التي مر بها خالد بن الوليد في أثناء قدومه من العراق الى الشام (٦) .

وكانت فزارة تنزل وادي القرى وحسمى من جنوب الاردن ، وغزاها في وادي القرى زيد بن حارثة (٧) .

ونزلت بهراء شمالي منازل بلي ، وامتدت منازلها من ينبع الى ايلة (٨) ، وكانت لخم وجدام تنزل على طول الطريق الى الشام ، وامتدت منازلهم بين مدين الى تبوك فالى اذرح (٩) ، وغزاهم عمرو بن العاص في ذات السلاسل (١٠)

وغزاهم اسامة بن زيد بن حارثة عام ١١ هـ في آبل الزيت وبينى بين البلقاء وفلسطين ، وأغار على منازلهم ، فاصاب في بني الضبيب من جدام ، وفي بني خليل من لخم (١١) .

ويبدو ان قوما من لخم كانوا ينزلون فلسطين ، لهما روي ان وفداً من الدارين من لخم كان يضم تميم بن اوس واخاه نعيم بن اوس ، ويزيد بن قيس وعرفه ابن مالك ، قدموا من الشام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاقطعهم الرسول (ص) حبرى وبيت عينون ومسجد ابراهيم ، فلما افتتح الشام دفع ذلك اليهم (١٢) .

ومضت سليح وتنوخ وخشين والقين وغيرها من قبائل قضاة الى الشام ، فنزلت سليح بناحية فلسطين على بني اذينة بن سميدع من عاملة (١٣) ، وكان بنو عاملة وهم من القبائل اليمنية ، ينزلون قرب دمشق في جبل الجليل الذي يشرف على طبريا ، ويمتد الى البحر المتوسط ، وقد نسب اليهم وعرف باسم جبل عاملة (١٤) .

ونزلت تنوخ حاضراً قنسرين مذ اول ما اقاموا بالشام ، واتخذت خيم الشعر لسكنائها ، ثم ابتنوا به المنازل ، وكان حاضراً حلب يجمع اصنافاً من العرب من تنوخ وايلاد وغيرهم ، ونزل بنو القعقاع العبسيون الحيار التي عرفت باسمهم « حيار بني القعقاع » ، وكانت تجاور منطقة حلب (١٥) ، وبذكر البلاذري ان طبيعة عياض بن غنم انتهت الى الرقة ، فاغاروا على حاضراً كان حولها للعرب (١٦) .

ويروى انه لما اتى عمير بن سعد الانصاري شق الفرات الشامي ، عرض الاسلام على من هناك من بني تغلب (١٧) ، ويذكر الهمداني ان الفرات ياتي من بلد الروم شاقاً

في طرف الشام على التواء الى العراق ، فقريه ديار كلب ، وشرقيه ديار مضر (١٨) ، ومن قبائل مضر بنو كلاب قوم زفر بن عاصم الهلالي (١٩) .

وفي قول للواقدي ، ان الرسول (ص) بعث سرية الى مؤته بقيادة زيد بن حارثة ، واهل مؤته يومئذ غسان (٢٠) . وكانت منازل غسان (٢١) ، متفرقة في بلاد الشام ، نزلوا البلقاء ، والجولان ، واليرموك ، والفوطه ، ودمشق (٢٢) ، وكان خالد بن الوليد لما ترك ميدان العراق الى الشام اغار على غسان في مرج راهط ومرج الصفر (٢٣) .

وعندما يتحدث الازدي (٢٤) عن اهل الاردن وفلسطين يذكر منهم : .. وكثير من العرب .

ولما فتح المسلمون قيسارية وجدوا بها خلقا من العرب ، وكانت فيهم شقراء وقيل شعناء ، التي يقول فيها حسان بن ثابت :

تقول شقراء لو صحوت عن الخمر لاصبحت مشري العدد (٢٥)

ويقول ابن حوقل (٢٦) ، واما بادية الشام فانها ديار لفزارة ، ولخم ، وجدام ، وبلي وقبائل مختلفة من اليمن وربيعة ومضر . ويرد ذكر بعض القبائل العربية في الشام في الاخبار التي تتحدث عن معركة مؤته ، فتقول ، ان المسلمين لما نزلوا معان في جنوب الاردن ، بلغهم ان بيزنطة حشدت قبائل العرب من لخم ، وجدام وبلقين ، وبهراء ، وبلي ، وقبائل من قضاة وغيرها من القبائل التي كانت تنزل تلك البلاد من جنوب الشام (٢٧) .

ويذكر ابو جعفر الطبري (٢٨) هذه القبائل ثانية في اثناء خروج المسلمين لفتح بلاد الشام في خلافة ابي بكر ، ويذكر لقاء المسلمين بهم دون زيزاء ، منهم كلب وسليح ، وتنوخ ، ولخم ، وجدام ، وغسان ، كما يذكرهم الازدي (٢٩) في اثناء فتوح الاردن منهم ، جدام ، ولخم وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاة .

بخصوص هجرة العرب من مواطنهم وانتقالهم الى الشام وغيرها من البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، يقول ابو جعفر الطبري ، وكان ناس من العرب يحدثون في قومهم الاحداث ، او تضيق بهم المعيشة ، فيخرجون الى ريف العراق ، او الى ما يليهم من بلاد اليمن ، او مشارف الشام (٣٠) .

ونظرة الى الوجود العربي في الشام زمن الراشدين والامويين والعباسيين ، ثم

الى الحلف الذي عقده صالح بن مرداس امير الكلابيين في شمال الشام ، وسنان بن عليان امير الكلابيين في وسط الشام ، وحسان بن الجراح امير الطائيين في جنوب الشام عام ٤١٥ هـ لاجراج الفاطميين من الشام (٢١) ، ودلالته على مراكز القوى للقبيلة العربية وتجمعها في الشام ، نجد ان الخطوط الرئيسية لخارطة انتشار القبائل العربية في الشام قبل الفتح الاسلامي وبعده ، تنطوي على بعض نقاط الالتقاء والتشابه ، وتكاد الفوارق بين الوضعين تكون في الكثافة العددية للقبيلة التي اخذت بطونها وافخاذها تتحرك من مواضعها في داخل الجزيرة ومن تخومها الى الشام بدافع ذاتي وبترتيب اداري (٢٢) من جهة ، وبسعة المنطقة التي صارت القبائل تنزل فيها وتمتد حتى تصل الى الساحل احيانا من جهة اخرى .

وفي الفترة التي نتحدث عنها ، كانت بلاد الشام تابعة لبيزنطة ، وكان من المعقول جدا ، ان لا تظل القبائل العربية في الشام خارجة عن تدابير بيزنطة واجراءاتها في الشام ، تلك الاجراءات التي كانت ترمي الى حماية سلطان بيزنطة في المنطقة ، وضمان الامن والاستقرار فيها لخدمة مصالحها ، سيما وقد كانت المنطقة تشهد الصراع الذي كان يحدث بين بيزنطة وفارس ، وكان الاستيلاء على تخوم الشام واطراف شسبه الجزيرة باعتبارها معابر لاهم الطرق التجارية يمثل واحدا من مظاهر هذا الصراع (٢٣) ، كما كانت سلامة الطرق التجارية ، وحماية القوافل التجارية من الاعتداءات عليها ، وبخاصة اعتداءات الاعراب ، بعدا آخر في سياسة هاتين الدولتين . لذلك قبلت بيزنطة القبائل العربية التي كانت تنزل الشام ، وملكت المتغلب منها عليها ، ومدتها ببعض المال سنويا (٢٤) ثم فوضت اليها حماية الحدود ، والمواضع التي يصعب حمايتها ودفع هجمات القبائل عنها ، وفي احيان كانت تشاركها معها في حروبها الخارجية . ويبدو ان بيزنطة وجدت سياسة اتخاذ هذه القبائل العربية لحرب العرب المناوئين ، حلا عمليا مجديا عسكريا واقتصاديا ، وبخاصة في الدفاع عن الحدود ضد عدو مراوغ فرّار (٢٥) .

فهي لما وجدت قبيلة تنوخ تغلبت على غيرها ، ملكتها على العرب بالشام ، ثم وردت سليج وغلبت تنوخ ، فملكها بيزنطة على العرب (٢٦) ، ثم وردت غسان ، وكانت خاضعة اول الامر لسليج ، وتدفع لهم اثاوة (٢٧) ، ولكنها تغلبت عليهم فملكها بيزنطة على عرب الشام (٢٨) ، وبخصوص تأثير بيزنطة لغسان ، ذكر ابن حبيب في المحبر قال ، لما غلبت غسان سليج ، خافت بيزنطة ان يعيبل الفساسنة مع الفرس ، فاستمالتهم ، وكتبت كتابا جاء فيه ان يساندوها وتساندهم (٢٩) ، وتكاد اماره غسان ان تكون آخر الامارات العربية التي ظهرت ببلاد الشام في فترة ما قبل الفتح الاسلامي ، وجاء ظهورها عام ٥٢٩ في عهد الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير (٥٢٧ م -

٥٦٥ م) (٤٠) ، وقيل كان ذلك عام ٥٠٢ م ، في عهد الامبراطور البيزنطي انستازيوس الاول (٤٩١ م - ٥١٨ م) . الذي وقعت في زمنه الحرب الفارسية البيزنطية ما بين ٥٠٢ - ٥٠٦ م (٤١)

بلغت الامارة الفسانية منزلة جيدة عند البيزنطيين ، وكان امراء غسان يحملون منذ عام ٥٣٦ م لقب « فيلارك » ، بمعنى رئيس أو شيخ القبيلة أو عامل ، وانعم القيصر طيباريوس قسطنطين (٥٧٨ م - ٥٨٢ م) عام ٥٨٠ م على الامير الفساني المنذر ب « التاج » ، وكانوا ينعمون قبلا على عمالهم ب « الاكاليل » (٤٢) ، وشملت سلطة الامارة الفسانية القبائل العربية الرحل ، أو شبه الرحل التي كانت تنزل دوماً ، أو في اوقات معلومة في فلسطين الثانية ، والولاية العربية ، وفينيقية لبنان ، حتى في فلسطين الثالثة ، وربما ايضا في ولايات سورية الشمالية ، اي القبائل العربية في جميع بلاد الشام ، أما في البیداء فبلغت الى الحد الذي كان العرب يخشون فيه بأس الامير الفساني وسلاحه ، وقدمت الحكومة البيزنطية للامارة الفسانية الاعانات السنوية ، غير انها جعلت سلطة الامير الفساني مقيدة بسلطة الحكام المدنيين والحريين المعينين من لدن الحكومة البيزنطية المركزية (٤٣) .

لم ينعم الفساسنة بهذه المكانة طويلا ، وتأثر وضعهم بتطور الاحوال السياسية والاقتصادية في بيزنطة ، تلك الاحوال التي اسفرت عن ضعف مركز بيزنطة في العلاقات البيزنطية الفارسية ، وفرض الاتاوات المالية على بيزنطة نتيجة خسارتها الحرب مع فارس غير مرة (٤٤) ، كما تأثر وضع الامارة الفسانية بالخلافات الدينية التي كانت تجري في بيزنطة وبخاصة بين المركز والاطراف كبلاد الشام حول طبيعة المسيح (٤٥) .

ثم لم يلبث الفرس ان قاموا بهجوم شامل على الامبراطورية البيزنطية منذ عام ٦٠٥ م ، واستولوا على دمشق وطرسوس والقدس عام ٦١١ م ، ثم على مصر عام ٦١٩ م ، وظلت هذه البلاد خارجة عن سلطان بيزنطة حتى عام ٦٢٨ م ، (٤٦) ولا بد ان الفرس في هذه الفترة لم يبقوا في هذه البلاد على عمال بيزنطة ، وطبعي ان عمال الفرس من العرب لم يشاءوا ان يتركوا الحكم في سورية بأيدي الفساسنة الذين اراقوا دماءهم وعاثوا في ديارهم (٤٧) .

ثم خرج الفرس عام ٦٢٨ م وقيل عام ٦٢٩ م من بلاد الشام ، وعادت بلاد الشام الى سلطان بيزنطة ، فما الذي جرى في مجال العلاقات العربية البيزنطية في بلاد الشام .

ذكر نولدكه ان المصادر السورية والبيزنطية انقطعت عن رواية اخبار الامارة

الغسانية منذ نهاية القرن السادس الميلادي (٤٨) ، وأما ميرسون (٤٩) ، فذكر أن بيزنطة بعد عودتها الى سورية اعتمدت في جنوب فلسطين على القبائل البدوية في تلك المنطقة في حفظ الأمن على مداخلها وطرقها مقابل مبالغ مالية معينة ، وأقامت في جنوب البحر الميت خطا دفاعيا اعتمدت فيه على الجند من حرس الصحراء ، وكان القائد البيزنطي في فلسطين يجمعهم لرد اعتداءات أهل البادية ، وأما بخصوص الحدود الشرقية مع فارس ، فذكر ميرسون أن جستنيان كان قد اعتمد على انفساسنة في حمايتها ، مثلما اعتمدت فارس على المناذرة ، ولكنه لا يذكر بعد عودة بيزنطة الى بلاد الشام شيئا عن الترتيبات التي اتخذتها في هذه المنطقة ، وبخاصة فيما يتعلق بالامارة الغسانية ، وعندما تعرض اسماعيل الخالدي (٥٠) لسقوط الامارة الغسانية ، كان اعتماده في تتبع الاخبار المتعلقة بزوال هذه الامارة على المصادر العربية وذكر ، اعتمادا على ذلك ، أن جبلة بن الايهم كان آخر امراء الغساسنة ، وأن معركة اليرموك كانت نهاية الامارة الغسانية .

وورود غسان وجدام وبلقين وغيرها في المصادر العربية ، يعني القبائل التي كانت تسكن بلاد الشام عند الفتح الاسلامي ، وورود بعض الاسماء مثل جبلة بن الايهم وغيره كامراء ، يعني شيوخ هذه القبائل ورؤساءها ، وأما الشواهد التاريخية فلا تدل بعد عودة بيزنطة الى بلاد الشام ، على قيام اسرة مالكة غسانية ، أو غير غسانية يتمتع امرها بما كان الامر الغساني الحارث أو المنذر مثلا يتمتع به ، من بسطة في النفوذ والسلطان

ويبدو ان الاطاحة بالاسرة اللخمية نظيرة الاسرة الغسانية . اضافة الى الحرب البيزنطية الفارسية التي ادت الى هزيمة الفرس وكسيرتهم في عقر دارهم ، كانت سببا الى عدم اقامة امارة غسانية ثانية ، وان الامبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠م - ٦٤١م) لم ير ذلك ضرورة ملحة ، واكتفى بالتعامل مع رؤساء القبائل المختلفة كجزء من خطته في حفظ الأمن على حدود الامبراطورية ، وتأمين سلامة الطرق والمعابر التجارية .

وهكذا لم تؤد العلاقة العربية البيزنطية الى توحيد موقف الجانبين ، وتدعيم جبهة مشتركة بينهما ، بل شهدت أواخر القرن السادس الميلادي والثلاث الاول من القرن السابع الميلادي ، حالة ارتخاء وفتور وعداء احيانا ، ثم مبانة واضحة بين الجانبين (٥٢) .

وفي الجانب الآخر ، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد في بداية القرن السابع الميلادي ، ظهور الدعوة الاسلامية في مكة ، ثم قيام الدولة الاسلامية من بعد في المدينة ،

وصارت المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية موضع اهتمام الرسول (ص) منذ السنة الخامسة للهجرة، وصارت قبائل قضاعة من سليح وبلي وكتب وعذرة وبهراء، وغيرها من القبائل العربية التي تنزل هذه المنطقة وامتدادها نحو تخوم الشام وداخله طرفا في العلاقات الإسلامية ، فقد بعث الرسول (ص) زيد بن حارثة في جيش الى جذام من السنة السادسة للهجرة ، وبعث من السنة نفسها عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل ، وقاد الجيش بنفسه عام سبعة للهجرة الى خيبر وما حولها ، وارسل عمرو بن العاص في الجيش عام ثمانية للهجرة الى ارض بلي وعذرة من بلاد قضاعة ، ذلك ان ام العاص بن وائل كانت امرأة قضاعية من بلي ، وبعث من السنة نفسها عمرو بن كعب الفقاري الى ذات اطلاق بناحية البلقاء من الشام ، كما ارسل زيد بن حارثة الى مؤتة ، ثم قاد الجيش في السنة التاسعة للهجرة بنفسه الى تبوك ودومة الجندل وابلة ومقنا واذرح وجرباء والبلاد الاخرى من حولها (٥٤) .

والى جانب ذلك ، وجه رسله بالكتب الى الملوك والامراء من اهل البلاد المجاورة، فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قيصر الروم (٥٥) ، وشجاع بن وهب الاسدي الى الحارث بن ابي شمر الغساني ، وقال ابن هشام ، بعثه الى جبلة بن الايهم الغساني وكتب معهم اليهم يدعوهم الى الاسلام (٥٦) .

وفي ظني ان دعوة الناس الى الاسلام لم تكن وقفا على الجهود الدبلوماسية فحسب ، بل كانت البعثات العسكرية مجالا آخر من مجالات التبادل والاتصال الفكري ، واعطت الدبلوماسية والجهود العسكرية معا نتائج ملموسة في هذا الجانب، فعندما بعث الرسول (ص) عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل ، قال له : ان اطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، فاسلم القوم وتزوج عبد الرحمن بن عوف تماضر بنت الاصبح الكلبي ، ولما مات الرسول (ص) كان عامله على كلب امرؤ القيس بن الاصبح الكلبي ، ولما قيل ارتد من ارتد بعد وفاة الرسول (ص) بقي امرؤ القيس على دينه ، وكان عامله على القين عمرو بن الحكم ، وعامله على سعد هذيم ، معاوية الوائلي (٥٧) .

ونجح الرسول (ص) في عقد معاهدات مع اهل ابلة ، وجرباء ومقنا ، وتعهد اصحاب هذه البلاد بدفع الجزية ، وان يقرروا المسلمين اذا مروا بهم ، وان لا يكونوا عيوناً او ادلاء عليهم (٥٨) .

وقبل اسلم اكيدر دومة الجندل (٥٩) ، وجاء وفد من كلب ، فكتب الرسول (ص) لهم كتابا ولاهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب (٦٠) .

وقدم على رسول الله (ص) رفاعه بن زيد الجذامي ، فاهدى لرسول الله (ص)
فلاما ، واسلم ، وكتب له الرسول (ص) كتابا الى قومه يدعوهم فيه الى الاسلام
فاسلموا (٦١) .

واسلم فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي ، وكان عاملا للروم على من يليهم
من العرب في منطقة معان وما حولها من بلاد الشام ، وارسل للرسول هدية بغلة بيضاء
ولما علم الروم اسلامه طلبوه ، وارادوه على الرجوع عن الاسلام ، فلما ابى ضربوا
عنقه (٦٢) .

ووفد الى الرسول (ص) عدي بن حاتم الطائي، وكان فرّا الى الشام ، فآكرمه
الرسول ، واحسن وفادته ، واسلم عدي ، واسلم قومه ، وولاه الرسول صدقات
قومه وانقلب بغضه للرسول حبا وايمانا ، ولما ارتد من ارتد بعد وفاة الرسول ومنع
الزكاة ، روي ان عدي بن حاتم قال لقومه : « والذي نفس عدي بيده ، لا اخيس بها
ابدا ، ولو كنت جعلتها لرجل من الزنج لوفيت بها فان ابستم قائلتكم » ، فانقاد
له قومه ودفنوا زكاة اموالهم ، فسار عدي بها الى ابي بكر (٦٣) .

ووفد على رسول الله (ص) بنو الدار بن هانيء من الشام (٦٤) ، كما وفد عليه
وفد من غسان ثلاثة اسلموا ، وعادوا الى قومهم في الشام (٦٥) .

ويبدو ان هذه النتائج وفرت للدعوة الاسلامية مناخا حسنا ، وجعلت مشاعر
المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الاولى من الحركة الاسلامية ،
جعلتها باتجاه التطلعات الاسلامية واغراضها ، وتركها وسط تيار الاسلام المتوثب
نحو بلاد الشام ، اذ ليس من قبيل المصادفة ، ان تصير قبائل طي وقضاعة وغيرها
من القبائل العربية التي كانت تسرب اليها البعوث الاسلامية بالامس ، ان تصير مددا
للجيوش الاسلامية السائرة الى بلاد الشام عام ١٢ هـ / ٦٣٣ م في خلافة ابي بكر (٦٦) .

وقل الشيء نفسه بخصوص القبائل العربية التي كانت تنزل ارض مؤاب من
بلاد الشام . قال ابو جعفر الطبري ، استنفرت الروم القبائل العربية ، ونفر اليهم
من ابراء ، وكتب ، وسليح ، وتنوخ ، ولخم ، وجدام ، وغسان من دون زيزاء بثلاث ،
فسار اليهم خالد بن سعيد بالمسلمين ، فلما دنا منهم ، تفرقوا واعروا منزلهم ، فنزل
خالد ، ودخل عامة من كان تجمع له في الاسلام (٦٧) ، مع ان هذه القبائل هي القبائل
التي ذكرتها الروايات العربية شريكا للروم في مأساة مؤتة زمن النبي (ص) .

وقالت لخم وجذام في معركة اليرموك مع المسلمين ، وقيل ان الذين استنفرهم هرقل من مستعربة الشام ، ما لوا وقائدهم جبلة بن الايهم ، الى جانب المسلمين (٦٨) .

وفي معركة فحل قاتلت لخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة ، والقين ، وقبائل من قضاة الى جانب المسلمين ، وذكر ابو طيبة القيني قال ، حضر قومي بنو القين يوم فحل ، وحضرتها لخم ، وغسان ، وعاملة ، وقضاة مع المسلمين ، فكان من هذه القبائل هناك جمع عظيم قوي بهم المسلمون على عدوهم (٦٩) ، ولما بلغ المسلمون ارض قنسرين وما حولها من شمال الشام ، دخل اكثر من كان هناك من العرب وغالبيتهم من تنوخ في الاسلام ، ومن لم يسلم صالح على الجزية ، ثم اسلموا بعد ذلك الا قليلا منهم ، وكانوا مع المسلمين على الروم (٧٠) .

واما ما ورد من اخبار عن وقوف بعض العرب ممن كان لهم نية في النصرانية الى جانب الروم (٧١) ، فهي اخبار تصف حالات فردية ، وتنطبق على القلة ، اكثر مما تصف حالات عامة ، وجماعية ، او تنطبق على الكثرة ، وفضلا عن ان هذه الاخبار جاءت مجردة ، وعامة ، ولا تذكر قبائل عربية بعينها ، فان الروايات التي تحدثت عن موقف عرب الشام من حركة الفتح الاسلامي ، ذكرت انحياز القبائل العربية الى جانب المسلمين ، وسمت هذه القبائل باسمائها ، وورود لفظ « القبيلة » في هذه الروايات ، ينسجم مع طبيعة الحياة العربية التي كان يحكمها الاطار القبلي ، ويلعب الدور الاساس في علاقاتها الخارجية .

وهكذا لما اثار المسلمون تفكير الناس في الشام ، انتفعوا برابطة القربى مع القبائل العربية فيها (٧٢) . وعملت رابطة القربى على تعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين ، والمشاركة في طرد البيزنطيين (٧٣) ، ولم يكن ايقاظ الفكر محصورا في عرب الشام فحسب ، بل نجد غيرهم من اهل الشام يبرز في ظلال انظروف المستجدة « غرباء وبلديين » (٧٤) ، ويبحث مع المسلمين امر مواطنهم بعيدا عن المداخلات البيزنطية ، ولعل اقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت اهل الشام عربا وغير عرب في موقفهم من الحركة الاسلامية من جهة وبيزنطة من جهة اخرى ، ما ورد عن خالد بن الوليد ان قال في العراق : ويحكم ! ما انتم ! اعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! او عجم ! فما تنقمون من الانصاف والعدل ! (٧٥) .

الحواشي :

- (١) انظر : اسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج ١ ، ص ٢٤٨ . عبد العزيز النوري ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، ص ١٥ - ١٦ . فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ج ١ ، ص ١٩٤-١٩٥ .
- (٢) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ١٨٠ (مخطوط) .
- (٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ١٢١ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٢٥ .
- (٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٣١٦ .
- (٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٢٢٤ . ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ص ٤١ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٢ .
- (٦) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٢١ .
- (٧) خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٧٧ . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٢٥ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٧٢ .
- (٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٢١٧ .
- (٩) الهمداني ، صفة ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ . ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ٤٢١-٤٢٤ .
- (١٠) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٥٧٣ (مخطوط) . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٧ .
- (١١) ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ . البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ١٠١ .
- (١٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ / ٣٦٨ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ١٥٢ . ابن عسافر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .
- (١٣) البكري ، معجم ، ج ١ ، ص ٢٣ .
- (١٤) اليعقوبي ، كتاب البلدان ص ٢٢٧ . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٢٢٤ - ٢٢٩ الهمداني ، صفة ، ص ٢٧٢ .
- (١٥) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٤ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ج ٢ ، ص ٤٢ . انساب الاشراف ، ص ٥٧٣ (مخطوط) . المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٧ .
- (١٦) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
- (١٧) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ٢١٦ .
- (١٨) الهمداني ، صفة ، ص ٢٧٥ .
- (١٩) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٧٣ .
- (٢٠) الواهدي ، كتاب المغازي ، ص ٤٠١ .
- (٢١) غسان من بطون الازد ، وكانوا ينزلون على ماء بالقرب من اليمن يدعى غسان واليه نسبوا .

(٢٢) اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٢٦ ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٥٧ . ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٩ . الهمداني / صفة ، ص ٢٧٤ ، ٢٢١ - ٢٢٢ . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٠ . البلاذري / انساب الاشراف ، ص ١٨٠ (مخطوط) ابو جعفر الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ ، ٥٧ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٢١٩ . شيخو ، اداب النصرانية ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢٣) ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ . البلاذري / فتوح ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢٤) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٢٥) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٢ . الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٢٦ .

(٢٧) ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢٩) الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٠٧ ، ١١١ .

(٣٠) ابو جعفر الطبري / تاريخ ، ج ١ ، ص ٦٠٩ ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٣١) انظر : تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ص ٢٤٤ .

(٣٢) للتدليل على ذلك ، نذكر ان لبا عبيدة رتب في انطاكية وبالس جماعة من المسلمين ، واسكن قوما من العرب ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزحوا من البوادي من قيس ، ويذكر البلاذري ان كان في صور والسواحل جند من العرب ، ثم نزع اليها اهل بلدان شتى ونزلوها ، وشحن معاوية بن ابي سفيان في آخر خلافة عمر بن الخطاب او اول خلافة عثمان بن عفان السواحل بالقاتلة ، وفعل مثل ذلك في اثناء خلافة ، واهتم بتعمير السواحل وشحنها بالناس الخلفاء من بعد ، عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وابو جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، والمعتصم وغيرهم . انظر : البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص : ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٨٧ . ابو جعفر الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

(٣٣) احمد الشريف ، فريش قبيلة العرب قبل الاسلام ، مقالة نشرت في مجلة كلية الاداب والتربية ، الكويت ، العدد الاول حزيران ١٩٧٢ ، ص ١٢٠ .

(٣٤) انظر جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤٠-٤٢ ، ٦٠١-٦٠٤ .

(٣٥)

Trimingham: Christianity among the Arabes p. 180.

Mayerson, Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine

A.D. 633 - 634 PP. 188-189 .

(٣٦) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٧٨ .

(٣٧) ذكر الفروز بادي ، ان فسان كانت تؤدي كل سنة الى ملك سليح دينارين عن كل رجل ، وكان المتولي لامر الاتوة رجلا اسمه سبطة بن المنذر السليحي ، فجاء سبطة يسأل يوما رجلا من فسان اسمه جذع ، الدينارين ، فدخل جذع منزله ، وخرج مشتملا سيفه ، ولحرب به سبطة حتى قتله وقال : خذ من جذع ما اعطاك الفروز بادي ، القاموس المحيط ، مادة جذع .

(٢٨) السعدي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٩) ابن حبيب البغدادي / المعبر ص ٢٧١ .

(٣٠) نولدكة / امراء غسان ص ٩ - ١١ .

(٣١) انظر :

Kawar Irfan, Article: Ghassan and Byzantium: A New terminus a quo. Islam , 1958, vol. 33 P . 235 .

وانظر :

Ismail R.Khalidi , Article : The Arab Kingdom of Ghassan : Its Origins, Rise and Fall, Muslim World 1956, vol 46 , P197 .

وانظر ، نولدكة ، امراء غسان ، ص ٤

(٤٢) ذكر بروكوبيوس ان جستنيان وفي الامير الفسائي الحارث بن جبلة الى رتبة « ملك » ، وبسط سلطته فوق قبائل عربية متعددة ليتخذها خصما قويا في وجه المنذر ملك عرب الفرس ، ويقول نولدكة بصدد لقب ((ملك)) ، لكن لقب « ملك » هو لقب القيصر فقط ، ومثل اطلاق هذا اللقب على امراء غسان هو من صنيع الناس في الشرق ، اذ لم يكونوا يدققون في معنى هذه الالقاب ودرجاتها ، فكانوا يطلقون على من كانت له سلطة كسلطة بني غسان لقب « ملك » ، ويذكر نولدكة ، ان المؤرخ ثيوفانس ذكر عام ٥٦١ م لقباً رسمياً للحارث الفسائي هو «الحارث البطريق رئيس القبيلة» ، وأضاف نولدكة ان الامير الفسائي كان يحمل منذ عام ٥٢٦ م اسم « فيلارك » . انظر : نولدكة ، امراء غسان ، ص ١٢ ، ١٤ ، ٢٦ .

(٤٣) نولدكة ، ص ١٦ ، ١٧ ، وانظر :

Ismail Khalidi . Article : The Arad Kingdom of Ghassan Moslem World , 1956, vol 46 pp 199-203 .

(٤٤) كانت الحرب بين بيزنطة وفارس واحدا من معالم السياسة الخارجية لبيزنطة ، وفي عهد جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، حركت سياسته التوسعية الدولة الفارسية في عهد كسرى انوشروان الى مهاجمة الاراضي البيزنطية في سورية واسيا الصغرى عام ٥٢٩ م ، واضطر جستنيان بسبب ذلك الى توقيع معاهدة مع فارس لمدة خمسين سنة ، ودفع جزية سنوية اقل من تلك التي كانت تؤديها بيزنطة لفارس من قبل ، ونقضت الاتفاقية في عهد الامبراطور البيزنطي جستين ، واندلعت الحرب ثانية بين فارس وبيزنطة ، واستمرت في عهود من تلاح من الاباطرة البيزنطية ، ثم جاء الزحف الفارسي الشامل من بعد على اسيا الصغرى وسوريا ومصر عام ٦١١ م ، وقد كلفت هذه الحروب وغيرها من الحروب في الجبهات المختلفة الامبراطورية البيزنطية مبالغ طائلة ، وادت الى حدوث ازمة اقتصادية خطيرة في داخل الامبراطورية البيزنطية ، وكان من بعض نتائجها ان بيزنطة كانت تتأخر في دفع الاعانات السنوية للامارة الفسائية احيانا ، وتوقفها احيانا اخرى ، كما اتهم الامير الفسائي المنذر بن الحارث بن جبلة بالخيانة والتواطؤ مع العدو ، مما كان لذلك اثره في زعزعة العلاقات الفسائية البيزنطية وانعكاساته على موقف بيزنطة من الامارات الفسائية ، وتصعد الامارة الفسائية في نهاية القرن السادس الميلادي .

انظر : اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، تعريب د. مصطفى بدر ، دار الفكر العربي ١٩٥٢ .

- وانظر : نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٦٠ ، تعريب د. حسين مؤنس ، و د. محمود زايد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعة ثانية ١٩٥٧ .
- وانظر : البازا المعري ، الدولة البيزنطية ٢٢٢ - ١٠٨١ م ، طر النهضة المصرية ١٩٨٢ ، ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٩ . نولدك ، امراء فسان ، ص ٢٩ - ٢٤ .
- انظر : Vasiliev, A : The Byzantine Empire, Madison 1982 .
- وانظر : Arthur E.R. Boak, William Sinnegen
History of Rome to A.D. 565 p : 495 .
Fifth edition New York , London 1964 - 1965
- (٤٥) قيل ان الامبراطور البيزنطي جستنيان الكبير وخلفاءه من بعده ، كانوا يتخلطون الارثوذكسية مذهباً رسمياً للدولة ، ويعملون على ربط رعاية الدولة بكيان الكنيسة الرسمي ، وكان امراء الفلاسفة من اتباع مذهب الطبيعة الواحدة المتأوي للمذهب الرسمي للدولة ، وعقدوا تحت رعايتهم بعض الجامعات الدينية ، وتولوا الدفاع عن اتباع هذا المذهب الذين تعرضوا لاضهاد الدولة ، وقيل ان هذا الخلاف الديني كان من اسباب غضب بيزنطة على الامارة الفساسية ، وزعزعة العلاقات بين الجانبين .
- انظر : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٨٧ . نولدك ، امراء فسان ص ٢١-٢٢ .
- (٤٦) البازا المعري ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ .
- وانظر : Philip Mayerson : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine A.D.633.634 vol.xv 1965 pp : 190 - 192 .
- (٤٧) نولدك ، امراء فسان ، ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٤٨) نولدك ، امراء فسان ، ص ٢٥ . وانظر : جواد علي ، المنهل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤١٨ .
- (٤٩) انظر : Mayerson : Article : The First Muslim Attacks on Southern Palestine pp : 189 - 192
- (٥٠) انظر : Ismail R. Khalidi : Article :
The Arab Kingdom of Ghassan : Its Origins , Rise and Fall pp: 205-206.
- (٥١) قيل ان كسرى ابرويز اطاح بالاسرة اللخمية ، وازال ملكهم اواخر القرن السادس الميلادي ، واهل مملكتهم ايلس بن قبيصة الطائي في الحيرة ، ثم اخذ الفرس زمام الامور من ايلس وفوضوها الى حاكم فارسي ، من اجل ذلك انظر :
ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، مكتبة المتنى ببغداد ، ص ١٠٩-١١٠ .
ابو جعفر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، ص ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ .
حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانباء ، ص ٩٦
ابن حبيب ، المعبر ، المكتب التجاري ، بيروت ، ص ٣٦ .
- (٥٢) كان ممن تعرض للحديث عن فتح بلاد الشام والطلاقات العربية البيزنطية قبيل الفتح الاسلامي وفي التالاه :

De Goeje , Wright, Wellhausen , Kremer , Muir , Caetani , Weil ,
Caussin , Mayerson and others.

وقد اكد هؤلاء على المال ، والمعونات السنوية ، اساسا في العلاقات العربية البيزنطية ، وراوا
اعتمادا على ما ذكره ثيوفانس وغيره ، ان القبائل العربية حولت وجهتها عن بيزنطة ، حين اوقفت
الاحيرة المعونة المالية السنوية التي كانت تقدمها لهذه القبائل من اجل ذلك انظر :

Mayerson : Article: The First Muslim Attacks on Southern Palestine
pp : 156 - 159 .

وانظر : George Haddad : Article : The Fall of Damascus In The Hands
of The Saracens , Beirut, March 30 ,1928. See the preface pp.XI-XII

وفي حين ذكر بعض الباحثين ، ان الخلافتان الدينية والخلافتان الملهبية بسين الامارة الفسائية
وحكومة بيزنطة ، كانت من اسباب الجفاء بين الجانبين ، نجد اكثر الباحثين لا يقيم وزنا للنصرانية
القبائل العربية في التأثير على العلاقة بين الجانبين :

يقول ولغنسون : « اني اعتقد ان النصرانية لم تتطلب في وقت ما على النفوس العربية » .

انظر : ولغنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، القاهرة ، ص ٢٧
ويذكر ريتشارد بل : يمكن القول بعدم وجود وازع ديني عند هذه القبائل .

انظر : R. Bell, The Origins of Islam In Its Christian Environment. p17
The guning lectures , Edinburgh Univ. Frank Cass and Co.Ltd. , 1968.

ويذكر ترون وسير وليم ميور : « ان تدين القبائل العربية بالنصرانية كان اسبيا » .

انظر : A.S.Triton, The Caliphs and their Non - Muslim Subjects: p:76
Frank Cass and CO.LTD., 1970

Sir william Muir , The Caliphate : Its Rise , Decline and fall . p:48
Beirut, Khayats , 1963 .

ومهما يكن اختلاف هؤلاء الباحثين ، فانهم مجمعون على ان الباطنة كانت الحالة القائمة بين
الجانبين ، وان كل جانب ظل محتفظا بشكله في الغالب ، ولم تخدم الظروف بغض النظر عن كان
كان مسؤولا عن ذلك، اتجاه الاندماج بقدر ما خدمت اتجاه الاستقلال بين الطرفين .

(٥٣) ذكر السعدي في التنبيه والاشراف قال : « ثم غزوته (ص) دومة الجندل ، وهي اول غزواته
للروم ، وبين دومة الجندل وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشر ليلة ، وقيل
ثلاث عشرة ، وكان صاحبها اكيدر من طاعة هرقل ملك الروم ، وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم ،
وتطرق اهل دومة الجندل ، ولم يجد الرسول (ص) بها احدا ، وكان ذلك في السنة الخامسة
 للهجرة .

انظر : السعدي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٢٠ .

(٥٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ص ٦٤٢ ، ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٧ .

(٥٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ص ٢٥٤ .

(٥٦) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ص ٧٩ .

- (٥٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
- (٥٨) انظر : البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ٧١ - ٧٢ . ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ١٦٩ . الشافعي ، الام ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .
- (٥٩) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ٧٢ .
- (٦٠) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
- (٦١) ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) كتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد اني بعثته الى قومه
هامة ، ومن دخل فيهم ، يدعوهم الى الله والى رسوله ، فمن اقبل منهم ففي حزب الله وحزب
الرسول ، ومن ادبر فله امان شهرين ، فلما قدم رفاعة على قومه اجابوا واسلموا .
- (٦٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .
- (٦٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (٦٤) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .
- (٦٥) انظر : ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .
ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .
الكلاعي ، الاكتفاء في السير ، ص ٨٢ (مخطوط) .
- (٦٦) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .
- (٦٧) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
- (٦٨) ذكر الازدي ان ملحان بن زمساد الطائي ، اخا عدي بن حاتم الطائي لأمه ، اتى ابا بكر في نحو
الف من قومه من طي من اهل شمال شبه الجزيرة العربية .
- انظر : الازدي / فتوح الشام ص ٢٤ .
- وذكر ابو جعفر الطبري ، ان عمرو بن العاص والوليد بن عقبة ناديا في قبائل قضاة فتنام اليهمابشر
كثير ، الحقهم ا بو بكر بجيوش الشام . انظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .
- (٦٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .
- (٧٠) قيل جمع هرقل جموعا كثيرة من الروم واهل الجزيرة وارمينية ، وجعل على المقدمة جبلة بن
الايم في مستعمرة الشام من لخم وجذام وغيرهم ، وذكر البلاذري ان جبلة بن الايم انحاز الى
الانصار وقال : اتم اخوتنا وبنو ابينا واقهر الاسلام .
- انظر : البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٦٠ - ١٦١ . الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٧١ . اليعقوبي ،
تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٤١ . المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج ٢ ، ص ١٤١ .
- (٧١) انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١١١ ، ١٢٠ .
- (٧٢) البلاذري ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ .
- (٧٣) انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ٤٤ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٦٩ ، ١٧٥ .
- (٧٤) انظر : Butler : The Arab Conquest of Egypt : 152.

(٧٢) انظر : George Haddad : Article : The Fall of Damascus in The Hands of The Saracens . p3 .

(٧٤) ذكر ابن البطريق ان منصوراً عامل دمشق صعد على الباب الشرقي لدمشق وكلم خالد بن الوليد ان يعطيه الامان له ، ولاهله وابان معه ، ولاهل دمشق ، سوى الروم .
انظر : ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ص ١٥ . وسال اهل فحل المسلمين الصلح لانفسهم ، ومن كان من الروم ان يلحق بالروم انظر : الازدي ، فتوح الشام ، ص ١٤٠ .

(٧٥) انظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

ثبت باهم مراجع البحث ومصادره

- ١ - ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت - ١٩٥٨ .
- ٢ - ابن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق - مطبعة الابهاء اليسوعيين عام ١٩٠٩م .
ومعه تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي .
- ٣ - ابن حبيب البغدادي ، المعبر ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت .
- ٤ - ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ٥ - ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ومعه كتاب البلدان لليعقوبي ، لندن - ابريل ١٨٩١ .
- ٦ - ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر - بيروت ١٩٦٠ .
- ٧ - ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق ، تهذيب عبد القادر بدران - الطبعة الثانية ١٩٧٩ . دار
المسيرة - بيروت .
- ٨ - ابن قتيبة الدينوري ، المعارف ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق الصاوي ، الطبعة
الثانية ١٩٧٠م .
- ٩ - ابن هشام ، السيرة النبوية تحقيق السقا ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة
الثالثة ١٩٧٠ .
- ١٠ - ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال مكتبة المثنى ، بغداد .
- ١١ - احمد الشريف ، قريش قبيلة العرب قبل الاسلام ، مقالة - مجلة كلية الاداب والتربية - الكويت
العدد الاول ١٩٧٢ .
- ١٢ - الاودي ، تاريخ فتوح الشام تحقيق عبد المنعم عامر ، مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠ .
- ١٣ - اسد رستم ، الروم وصلاتهم ، دار المكشوف ، الطبعة الاولى ١٩٥٥ بيروت .
- ١٤ - الاصطخري الكرخي ، المسالك والممالك تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال - دار العلم ١٩٦١ .
- ١٥ - الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانباء .
- ١٦ - السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية دار النهضة المصرية ١٩٨٢ .
- ١٧ - اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى بدر ، دار الفكر العربي .
- ١٨ - البكري / معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الاولى ١٩٤٥م .
عالم الكتب - بيروت .
- ١٩ - البلاذري / فتوح البلدان تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد / مكتبة النهضة المصرية . انساب
الاشراف / مخطوط ، ماهر افندي ٥٩٧ السليمانية - استانبول .
- ٢٠ - جواد علي / الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٦ .
- ٢١ - حتي ، فيليب / تاريخ العرب مطول ، الطبعة الرابعة ١٩٦٥ - دار الكشف للنشر والطباعة
والتوزيع .

- ٢٢ - خليفة بن خياط / تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق الدكتور اكرم العمري / مؤسسة الرسالة - بيروت ، دار القلم دمشق .
- ٢٣ - الدوري ، عبد العزيز ، الجذور التاريخية للقومية العربية ، الطبعة الاولى ١٩٦٠ ، دار الطلم للملايين .
- ٢٤ - الشافعي / كتاب الام ، مطبوعات دار الشعب / القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢٥ - شيخو / النهرانية وآدابها ، الطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٢٤ .
- ٢٦ - الطبري / تاريخ الرسل والملوكة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم - دار المعارف .
- ٢٧ - القلقشندي / صبح الاعشى في صناعة الانشاء نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .
- ٢٨ - الكلاعي / الاكتفاء في السير ومغازي الخلفاء الثلاثة مخطوط ايا صوفية ٢٩٧٢ - السليمانية - استانبول .
- ٢٩ - المسعودي / مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر . الطبعة الرابعة ١٩٦٤ ، التنبيه والاشراف ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت
- ٣٠ - المقدسي / البلد والتاريخ - طبعة ١٨٩٩ - باريس .
- ٣١ - نورمان بيتز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور حسين مؤنس د . محمود زايد ، الطبعة الثانية ١٩٥٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٣٢ - نولدكة / امراء غسان ، تعريب بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، الطبعة الكاثوليكية ١٩٢٢ ، بيروت .
- ٣٣ - الهمداني / صفة جزيرة العرب ، نشر محمد بن بليهد - مطبعة السعادة بمصر .
- ٣٤ - الواقدى / كتاب المغازي - طبعة ١٨٥٥ م .
- ٣٥ - ولفنسون / تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام - القاهرة .
- ٣٦ - اليعقوبي / تاريخ اليعقوبي ، دار صادر - بيروت ١٩٦٠ م .
- 37 — Bell, R. : The Origins of Islam in Its Christian Environment
The guning lectures , Edinburgh Univ . Frank Cass and Co
Ltd 1968.
- 38 — Butler , A.J. : The Arab conquest of Egypt : the last thirty
years of the Roman Dominion .
Second abition, Printed in Great Britain at Univ. Press,Oxford.
- 39 — Haddad , George : Article : The Fall of Damascus in the Hands
of The Saracens . Beirut, March 30 , 1928 .
- 40 — Irfan, Kavar:Article: Ghassan and Byzantinm: a new terminus
aqueo . Islam , 1958 , vol. 33 PP : 232 - 255 .

- 41 — Khalidi , Ismail : Article : The Arad Kingdom if Ghassan .
Moslem World, 1956, vol 46 pp.199 - 203.
- 42 — Mayerson , Philip : Article : The First Muslim Attacks on
Southern Palestine (A.D. 633-634) Trans . Proc. Amer. Philol.
ASSOC . 95 (1964) PP.155-199 .
- 43 — Muir, Sir William : The Caliphate : Its Rise, Decline and fall
Beirut, Khayats, 1963 .
- 44 — R,E, Arthur Boak and William Sinnegen : History of Rome to
A.D. 565
Fifth edition 1964 New York , London .
- 45 — Trimingham , J.S : Christianity Among the Arabs in pre-Islamic
times. Longman . London and New York .
- 46 — Triton, A.S : The Caliphe and Non - Muslim Subjects Frank
- 47 — Vasiliev, A, : The Byzantine Empire , Madison , 1952.
Cass and Co. Ltd., 1970.

دور جذام في الفتوح الإسلامية

د. صالح المحارنة

الجامعة الأردنية

ان دور جذام في الفتوح الإسلامية يماثل الى درجة بعيدة دور بقية القبائل العربية التي كانت تسكن الديار الشامية ، خاصة الاجزاء الجنوبية منها، في الفترة التي سبقت الفتح . . بيد ان لجذام خصوصيتها . وقبل ان ندخل في تفصيل ذلك يجدر بنا ان نحدد قعر المستطاع مساكن جذام ومنازلها آنذاك .

كانت جذام قبيل الفتح تنزل المناطق فيما بين الحجاز والشام ومصر وكانت مجموعها المتعددة منتشرة على مساحة شاسعة من ارض العرب تمتد من الحدود الشمالية لوادي القرى - في المساحة من تبوك في الحجاز شمالا بامتداد الشمال الشرقي من وادي عربة حتى البحر الميت الى البلقاء ، حول مدينة عمان ، ثم الى الجنوب الغربي الى غزة جنوب فلسطين (١) . بالقرب من تبوك يرتفع جبل حسمى الذي يعتبر جبل جذام ، وجاء في تاج العروس جذام من اليمن تنزل بجبال حسمى وراء وادي القرى (٢) ، ومن ابرز منازل جذام مدين ، وكما يذكر البكري « ومدين منازل جذام ، بلد الشام معلوم تلقاء غزة » (٣) ويقول ابن خلدون . . ونزلت جذام من حدود ايله الى ينبع محاذية للساحل (٤) ، وكانت لهم رئاسة في معان وما حولها من ارض الشام (٥) .

اعد هذا البحث للندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، الجامعة الأردنية ، ١٦-٢٢ اذار ١٩٨٥ .

ومنطقة حسمى تقع في الاردن اليوم في الجنوب من مدينة معان من راس النقب الى الجنوب حيث موقع القويرة وما جاورها .

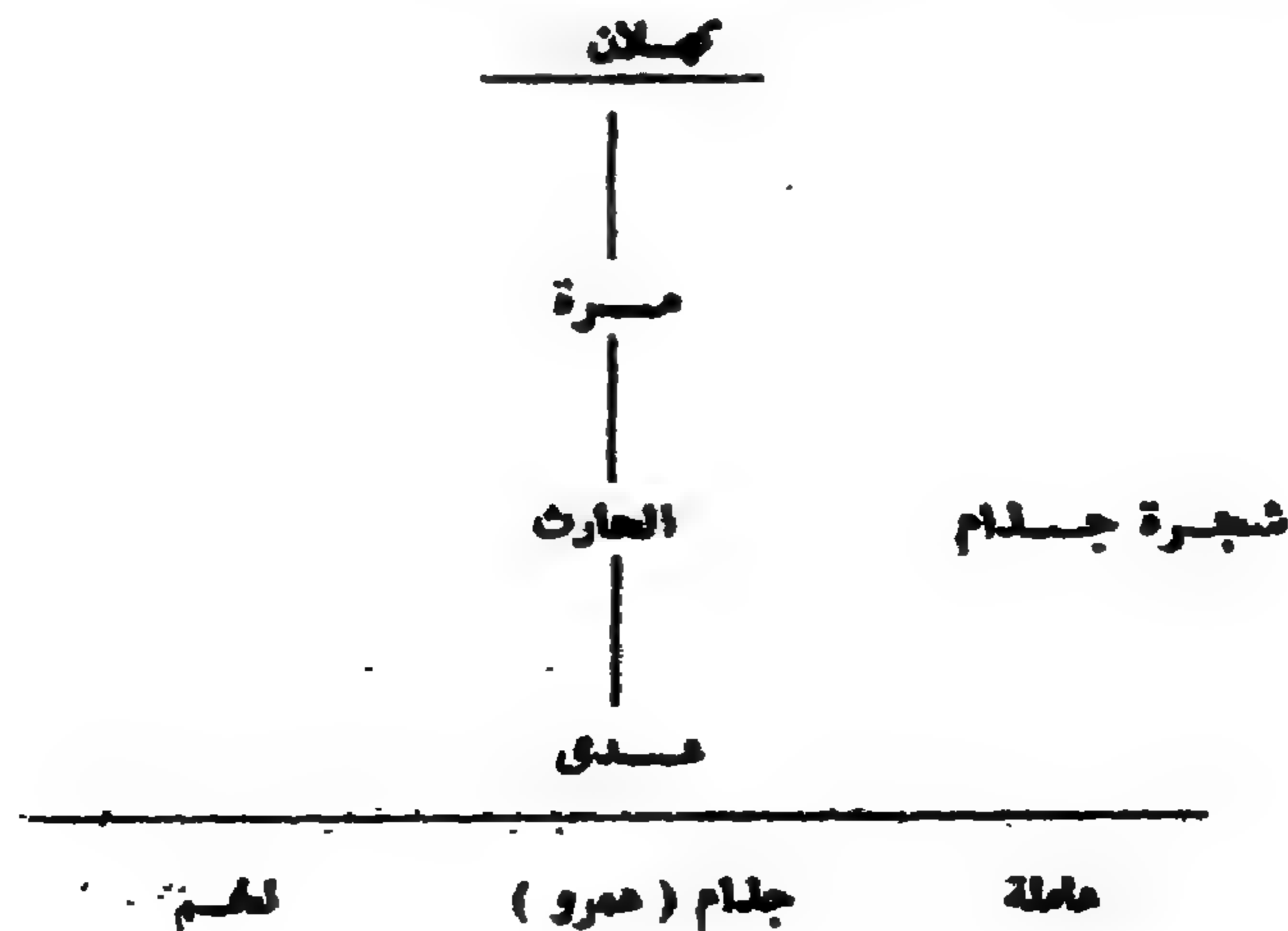
الذين فبنو جندام قد امتدت مساكنهم من شمال الحجاز ، وكان جبلهم حسمى ومن مراكزهم معان ، والبلقاء ، والى ايلة وجنوب فلسطين حتى سيناء الى حد الفرما ، ومن خلف الفرما الى مصر ، ويقول الهمداني « . . ما تياسر نحو البحر من بلد القبط فهو يمانى » (٦) ، وتذكر المصادر كثيرا ان بني جندام ، نزلوا غزة وبعض منهم في بيت جبرين والعريش ، وبعض ما بين طبرية من ارض الاردن الى اللجون واليامون * ، وناحية عكا (٧) .

مما سبق نرى ان منازل جندام تقع في وسط الطرق التجارية وطرق القوافل وطرق الحج ما بين مصر والشام والحجاز . فكانت القوافل تمر في ديارهم ويتولى رجالها حراستها وجباية الرسوم والمكوس من التجار الذين يجتازونها (وكان عمر بن الخطاب في الجاهلية قد مر تاجرا بهم ودفع العشر) (٨) .

يضاف الى ذلك وجود مراعى لابلهم وجندام من اكثر العرب ابلا (٩) ، بل يبدو لنا ان اقساماً منهم كانت تمارس الزراعة من سكان القرى والحوضر الكثيرة . .

بنو جندام في الواقع تكون مؤتلف قبائل ، وحسب تعبير ابن خلدون « بطن متسع له شعوب كثيرة » (١٠) وجندام هي المهيمنة . واما العرب الذين كانوا في معادن الخصب . . للمراعى والعيش . . مثل لخم وجندام وغسان وطى وقضاعة واباد ، فاختلقت انسائهم وتداخلت شعوبهم (١١) وهناك « بطون ثلاث يقال لهم الاحلاف من جميع قبائل العرب من كنده ولخم وجندام وعبد قيس » واما جندام واسمه عمرو بن

* اليامون : قرية تقع الى الشمال الغربي من جنين على مسيرة قسح كيلو مترات منها . مصطلح الدباغ : بلادنا فلسطين ، القسم الاول ، الجزء الاول ، ص ٧٠٩ .



عدي اخو لخم بن عدي وعاملة بن عدي (انظر الشجرة) فبطن متسع له شعوب كثيرة (١٢) .

لست هنا بصدد ذكر ما قاله النسابون من أن جذام من مضر وانهم انتقلوا الى اليمن في الايام الخالية ، لكنني مع الرأي الغالب عند النسابين ان جذام من اليمانية (١٣) .

بل انني أريد ان اذهب أبعد من ذلك فأقول - مستطردا - ان جذام وهي بطون كثيرة او بالأصح بطن متسع له شعوب كثيرة ، انما تتكون في مجموعها من مؤلف قبائل ، سكنت نفس المواطن تقريبا - مع اختلافات بسيطة - التي سكنها من قبل المديانيون ، والادميون - (في جزء بسيط) وخاصة الانباط ومن جاء بعدهم أهل ثمود .. التي كانت منازلها في حسمى ، فلما هلكت ثمود انتقل ملكهم الى قوم آخرين ، آخر من نعرف منهم « جذام » الذين كانوا ينزلون في حسمى عند ظهور الاسلام ، وهم في زعم الاخباريين ابناء جذام شقيق عاملة ولخم (١٤) .

وازعم ان هدم الشعوب شعوب ارومية Autochton قد ذابت بعضها ببعض واندمجت وظهرت لنا بالتالي باسم جذام وقد هيمن هذا الاسم الذي حملته القبائل العربية الخارجة من الجزيرة وعلى فترات ابرزها في القرن الرابع الميلادي ، فهذه الشعوب والقبائل العربية التي نزلت ارض الشام خاصة في القرنين الثالث والرابع للميلاد قد غدت الارض الشامية بدماء جديدة فزادت في الكثافة السكانية وزادت بالتالي من ازدهار المنطقة وفعاليتها ، ولم يخلق وجودها اي اضطراب او عداوات ، اذ في حقيقة الامر انما نزلت في ارض الشعوب العروبية (السامية) القديمة التي سبقتها والتي خلقت حضارات هذه المنطقة على مدى آلاف السنين خدمت بها الانسان وقضية تقدمه منذ نشأة الحضارات ، اذن فهذه الشعوب قد تداخلت مع السكان السابقين تداخلا واسعا وسهلا بسبب الارومة الواحدة من جهة ، ومن جهة اخرى فان الديار الشامية الواسعة وقد استوعبتها فزادت بذلك قوة وفعالية ، ناهيك عن وحدة الحضارة في الاساس مما حفظ للجميع البقاء والاستمرار امام العناصر الخارجية . ويكفي دليلا ذكر (مجر ذكر) أهم القصبات والمدن العربية التي اشتهرت في تلك الحقبة : مثل بصرى ، وغزة ، والبتراء ، ومعان ، وايلة والعريش ومدين (١٥) ...

قبل الفتح الاسلامي انتشرت النصرانية في البلاد الشامية انتشارا واسعا وقد كان في عداد المسيحيين الاوائل الشعوب العروبية (السامية) الاراميون وبعدهم

الانباط العرب ، وقد تأثرت بقية الشعوب العربية ببناء عمومتهم الاراميين «الريان» الذين سبقوهم الى النصرانية، وايضا بتاثير مباشر من البيزنطيين في الفترة اللاحقة (١٦) .

فنسمع ان الضجاعة وهم فرع من سليح قد تنصرت وملك في الشام - في منطقة البلقاء قبل الفساسنة ، وجاء في الاخبار ان اسم احد امراء الضجاعة داوود ابن الهبوبة المعروف بالثقي تنصر (وتنصر من نفس العائلة اناس قبله) وذلك في اواخر القرن الثاني للميلاد (١٧) ، ويذكر المسعودي « وكانت قضاة بن مالك بن حمير اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فمدوهم بعد ان دخلوا النصرانية على من حول الشام من العرب » (١٨) وان القبائل الكبيرة مثل جذام ولخم وعذرة وبهراء وقسم كبير من كلب وطي ، وغيرها، هذه القبائل جميعها قد تنصرت وبدوافع عدة ، في حين ان القبائل التي تقع في الجنوب منها مثل : سليم ومزينة وجهينة وبلي بقيت في الغالب الاعم حتى مجيء الاسلام على وثنياتها وحيث ان جذام كانت في عداد كبرى هذه القبائل ومن اقواها ، وذلك بسبب من مؤلفها القبلي الكبير ، فقد اصبحت في مصاف القبائل العربية المشهورة امثال كنده ، وغسان ، وكنب ، وما ان اخذت الغزوات الاسلامية تزداد وتندفع في اتجاهها نحو الشمال - نحو الشام - عندها وجدت بيزنطة في جذام القوة التي يمكن ان تقف في مواجهة العرب المسلمين ، خاصة وان ملك الفساسنة قد ذهب اثر الحروب الفارسية الساسانية ولم يبق حكم او دولة قوية تكون حاجزا وقائيا امام شعوب الجزيرة العربية كما في السابق (١٩) .

مع تصاعد قوة الاسلام وانتشاره في الجزيرة وخارجها ، نستطيع ان نقسم دور جذام في الفتوح الى ثلاثة اقسام ، او ادوار ، تبقى متداخلة لتداخل الاحداث التي تأخذ بعضها ببعض :

الدور الاول : زمن الرسول الكريم وفي عهد ابي بكر الصديق .

الدور الثاني : في خلافة عمر بن الخطاب .

والدور الثالث: مابعد خلافة عمر بن الخطاب حتى قيام الدولة الاموية .

ويمكن ان نصف دور جذام ايام الرسول وابي بكر بالنسبة للفتوح بانه دور سلبي وذو طابع معاد - في الغالب - للمسلمين ، مع الاستثناءات التي سنشير اليها .

اما دورها ايام عمر بن الخطاب فكان دورا ايجابيا على العموم وتبرز ايجابيته بشكل خاص بعد معركة اليرموك وتصل ذروة ايجابيته بالمشاركة الفعالة لجندام في فتح مصر .

أما بعد خلافة عمر ووقوع الفتنة ، فتأخذ جذام مكانها الكبير في طليعة أهل الشام المناصرين لبني أمية والذابين عن حكمهم ، فكان لدور كلب وجذام والقبائل اليمانية - الشامية عموما الأثر الحاسم في تمكين معاوية بن أبي سفيان من الخلافة ونقلها لولده يزيد ، ثم في ترسيخ البيت الأموي أيام مروان بن الحكم وولده عبد الملك ، وساهمت جذام مساهمة فعالة في كل الأحداث التي تمت آنذاك ويكفي أن نذكر دور روح بن زنباع الجذامي زعيم الجذاميين خاصة واليمانية عامة ووقوفه بجانب مروان وولده عبد الملك ، ودور يمانية الشام في الفتوحات الكبرى التي تمت فيما بعد ، خاصة أيام الوليد بن عبد الملك .

دعنا الآن نرجع إلى مصادرنا التاريخية التي تعالج السيرة النبوية ، والمغازي والفتوحات الكبرى . . نستعين بها على تفهم الوضع ولو بشكل شمولي .

أن أول شيء يجب الالتفات إليه هو أن جذام لم تكن وحدة موحدة في تصرفاتها أمام الأحداث سواء أيام الرسول أو بعدها ، وكما قلنا فإن غالبية جذام كانت موافقة أيام الرسوم ضد المسلمين غير أن أفرادا منها ومعهم بطون صغيرة من قومهم انتقلت إلى صف الرسول مع الإسلام فمثلا : تذكر المصادر أن رفاعة بن زيد الجذامي الضبيبي قدم على رسول الله في هدنة الحديبية قبل خيبر وأسلم وأهدى رسول الله غلاما ، وكتب له الرسول كتابا إلى قومه وفي الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ، أني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل معهم ، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ، فمن قبل فمن حزب الله وحزب رسوله ومن أدير فله أمان شهرين ، فلما قدم رفاعة على قومه أجابوا وأسلموا (٢٠) .

ولكن الأمور لا تمضي بهذا الوضوح ، فتحدثنا المصادر أن قوما من جذام اعتدوا على مبعوث رسول الله دحية بن خليفة الكلبي ، في طريق عودته من الديار الشامية - في تجارة له وفي نفس الوقت في مهمة للرسول - وأن رسول الله قد أرسل الصحابي زيد بن حارثة - وهو أيضا بالأصل من كلب - لتأديب المعتدين وقد شمل هذا التأديب أصحاب رفاعة بن زيد الضبيبي الجذامي ، وتفصيل ذلك في النص التالي : أن رفاعة بن زيد لما قدم من عند رسول الله بكتابه يدعوهم (قومه) إلى الإسلام ، فاستجابوا له ، ولم يلبث أن أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر الروم - ربما من عند عظيم بصرى - حين بعثه رسول الله ومعه تجارة له ، حتى إذا كان بواد من أوديتها ، يقال له شنار أغار على دحية الهنيد بن عوض وابنه عوض بن الهنيد الضليعيان - والضليعي بطن من جذام - فأصابا كل شيء كان معه ، فبلغ ذلك نفرا من بني الضبيبي ، قوم رفاعة ممن كان أسلم وأجاب . فنفروا إلى الهنيد وابنه . . حتى لقوهم فاقتلوا . . فاستنفذوا ما كان في يد الهنيد وابنه فردوه على دحية .

وتمضي الرواية « فسار دحية حتى قدم على رسول الله واخبره .. فبعث الرسول زيد بن حارثة وذلك ان الذي هاج غزوة زيد جذاما ، وبعث معه جيشا ، واقبل جيش زيد من ناحية الاولاج فأغار بالفضافض (موقع) من قبل الحرة وجمعوا ما وجدوا من مال واناس ، وقتلوا الهنيد وابنه (فيمن قتل) . ويبدو من سياق الروايات ان بعضا من قوم رفاعه بن زيد اصيبوا بأذى كبير اذ اخذوا يصيحون في وجهه جيش زيد بن حارثة « انا قوم مسلمون » وتمضي الروايات فتقول : ان جماعة من قوم ضبيب - من جذام جاءوا رفاعه حيث يقيم بظهر الحرة على بشر - هناك - وهو لا يعلم بما جرى - فقالوا له : انك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام يجرون اسارى ، قد غرها كتابك الذي جئت به ، فدعا رفاعه بن زيد بجمل له ، فجعل يشكل عليه رحله وهو يقول : « هل انت حي او تنادي حيا » ثم غدا رفاعه بن زيد الى المدينة فدخل على رسول الله واشتكى امره ، فأمر رسول الله علي بن ابي طالب فرد للقوم اموالهم وانصفهم ، وأطلق لهم رجالهم (٢١) .

وسرية اخرى قامت بغزوة عرفت بغزوة ذات السلاسل ، والسلاسل ماء لجذام ، بعث هذه السرية رسول الله لمحاربة قضاة (بمختلف فروعها) وذلك حين بلغ الرسول ان جمعا من قضاة قد تجمعوا يريدون ان يدفعوا عن اطراف المدينة فدعا رسول الله عمرو بن العاص وعقد له لواء ابيض ، وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلثمائة من سراة المهاجرين والانصار - فيهم ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح - والمصادر تشير انه لم يحدث صدام ، اذ حين اقبل المسلمون وحملوا عليهم (اي على قضاة) هربوا في البلاد وتفرقوا . وتعرف هذه الغزوة « بجيش ذات السلاسل » (٢٢) .

أجل ان هذه الغزوات من الناحية الحربية ليست بذات بال ، فما هي الا مناوشات طفيفة خفيفة ولكن ارى ان مدلولها كبير وكبير جدا فهي :

اولا : تدلنا على ان اقساما من جذام واختها لخم وغيرها من قبائل قضاة قد وفدوا على رسول الله معلنين اسلامهم واسلام البطون التي تتبعهم ، وهذا له أهمية بالغة اذ انه المقدمة لاسلام عرب الشام ، ويبدو لنا ان اسلام هذه البطون لم يكن ضئيلا ويدل عليه ان الرسول الكريم قد عين من قبله رجلا هو من ابرز الصحابة ومن كبار قادة المسلمين عمرو بن العاص عينه على صدقات جذام ولخم « كان رسول الله (عمر بن العاص) صدقات سعد هزيم وعذرة ومن نصها من جذام وحدث (بطن من لخم) (٢٣) .. وجدير بالذكر انه في نفس الفترة عين الرسول عبد الرحمن بن عوف على صدقات كلب وهذه اشارة الى ان قسما من هذه القبيلة الكبيرة قد اسلم » (٢٤) .

ثانيا : ان هذه المناوشات قد بعثت القلق في قلوب الروم وقلق مع الروم كبار رجال القبائل العربية المتنفذة في الشام وشمال الحجاز والموازية للروم جميعهم باتوا يخافون من تصاعد قوة المسلمين* لذا أخذوا يدنون بفاراتهم من المدينة ، ويعتدون على التجار الذين يسرون بتجارهم ما بين المدينة ودومة الجندل والبلاد الشامية . . فكما اعتمدوا على دحية بن خليفة الكلبي اعتدوا كذلك على غيره من التجار ، ويؤيد ذلك المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف حيث يقول : « وكان صاحبها (دومة الجندل) اكيدر بن عبد الله الكندي يدين بالنصرانية وهو في طاعة هرقل ملك الروم وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم » وليسوا بنو جذام الذي يسكنون على الطرق التجارية بمعنى عن كل هذا (٢٦) .

وثالثا : فان الامر الخطير الذي كانت الروم تخافه هو نقل اخبارها للمسلمين عن طريق التجار الذين يأتون المدينة من الانباط وغيرهم من أعوان المسلمين ، فيذكر ابن عساكر ذلك فيقول « كانت . . الانباط يقدمون المدينة بالدرمك (الدقيق) والزيت في الجاهلية ، وبعد ان دخل الاسلام فانما كانت اخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الانباط . ويؤكد هذا المعنى الواقدي في المغازي » . لذا فالروم في ضيق وفي خوف من تواصل التجارة ما بين البلدان المجاورة والمسلمين في المدينة ، فالروم وحلفاؤهم لا يريدون لهذا الشريان الحيوي الاستمرار والتدفق ، بجانب ان الروم منزوعة من هؤلاء الانباط وغيرهم من العرب الذين يغدون على المدينة للتجارة ، وهم ينقلون بنفس الوقت اخبار الشام في كل يوم للرسول واصحابه ، فوق كل هذا فاعداد الذين يسلمون منهم ومن غيرهم في ازدياد مضطرد .

قد تكون معركة مؤته قد وقعت قبل شهر واحد من غزوة ذات السلاسل من السنة نفسها (٨هـ / ٦٢٩م) ، لكن طبيعة هذه المعركة واستعداد الرسول والمسلمين لها يختلف اختلافا جذريا عن سابقتها .

لقد اصبحت معركة مؤته من المعارك المشهورة في التاريخ العربي الاسلامي وذكرها حية في اذهان ووجدان كل العرب والمسلمين* . والامر الذي نشده في بحثنا

* وذكر الواقدي : « ان دومة الجندل وايلة تميماء قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما راوا العرب قد اسلمت له » (٢٥) .

* وحتى هذه الايام فان سكان شرق الاردن ، وخاصة في الجنوب من البلاد يروون قصصا شعبية يتداولها الناس فيما بينهم من مشاهدة مناظر القتال ، وسماع اصوات صهيل الخيول وصليل السيوف في ايام معدودة من السنة - في موضع مؤته - بل يتحدث الناس عن سماع التكبير والعت على القتال والترحيب بالاستشهاد ولقاء وجه الخالق .

في حيثيات وقائع هذه المعركة هو دور جذام فيها ، والذي جاء واضحا ان جذام في غالبيتها قد وقفت بجانب الروم وضد المسلمين فيها . فقد جاء عند الطبري : « فبلغ الناس ان هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة الف من الروم ، وانضمت اليه المستعربة عن لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة الف منهم » (٢٧) .

ويبدو لنا ان دور جذام في هذه المعركة كان كبيرا وذلك للأسباب التالية :

أولا : لقد جرت المعركة في ديار جذام ومؤلفها ، فكما قلنا مساكن جذام تمتد من تبوك الى جبال حسمى في شمال الحجاز الى الشمال الشرقي ، فالى وادي عربة وحتى البحر الميت الى البلقاء (٢٨) ، ومن ايله شمالا الى ينبع جنوبا على طول الساحل .

ثانيا : سبق وان حصل في البلاد الشامية خراب كثير ودمار واسع بسبب الحرب الطويلة التي وقعت ما بين الفرس الساسانيين وبين الروم البيزنطيين فالفرس عند احتلالهم الاراضي الشامية عام ٦١١ م ، دمروا البلاد وقتلوا العباد وانتشر بين الناس الجوع والهلع واحتلوا كبرى مدن الشام مثل انطاكية وحلب ودمشق والقدس ، وهدموا الكنائس وابادوا كثيرا من القرى ومن جملة ما ابادوا ملك غسان . فلما تم النصر للروم ، واخذوا يتهياون لتنظيم سورية واعادة السيطرة عليها عام ٦٢٩ او ٦٣٠ ، بعد ان تضعض نفوذهم كثيرا حتى ان سيطرتهم لم تتعد البحر الميت في حين كانت في السابق تمتد حتى ايلة (٢٩) . .

ولسد هذا الفراغ جاء الروم بجذام وقلدوها الرئاسة بشخص فروة الجذامي في معان وما حولها (وسنأتي بالحديث عنه فيما بعد) الذي اصبح عاملا للروم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب (٣٠) .

ثالثا : لا حاجة بنا ان نستغرب عدم ذكر غسان بين المستعربة التي جاءت لقتال المسلمين في مؤتة ، فلم يذكرها الواقدي ولا الطبري ولا كثير غيرهما ، واكتفت المصادر ذاتها بالقول ان قاتل رسول الله (الحارث بن عمير الازدي) الى ملك بصرى هو شرحبيل بن عمرو الغساني . واخلص من كل ما تقدم بالقول ان دور جذام ومؤلفها كان كبيرا في معركة مؤتة (٣١) . فكانت هي الركيزة والمعول .

أما بالنسبة للمسلمين فبالرغم من أن المعركة لم تحقق نتائج عسكرية وراح ضحيتها ثلاثة من أبرز شهداء المسلمين (زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة) ، مع هذا يبدو انه لم يكن في الطرفين كثير من القتلى . وتفسير ما تذكره المصادر عن الاعداد الغفيرة للجيشين (مائة الف جيش الروم) وجيش المسلمين

(ثلاثة آلاف) (٢٢) ، قد يعود ذلك الى أن البلاد السورية ما زالت تعيش آثار الحرب الفارسية البيزنطية وفي جنوب سورية بالذات . نستشف من المصادر أن الفريقين المتحاربين جلهم من العرب ، فعرب الشام بدعم من الروم تحارب ضد العرب المسلمين ، لوقف تصاعد قوة الرسول والمسلمين .

وتذهب بعض الكتابات التاريخية الى القول من أن أحد أهداف المسلمين من غزوة مؤتة هو الوصول الى السيوف المشرقية الشهيرة ، التي يعتقد أنها كانت تصنع في مؤتة ونواحيها ، او في قرية مشارف الشامية القريبة . وفي معجم البلدان « السيوف المشرقية منسوبة الى مشارف ، وهي قرى من ارض العرب تدنو من الريف » ، بل ان ياقوت نفسه يحدد في حديث عن مؤتة : « ثم مضى الناس حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء لقتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف » هذا النص يجعلها قرية بعينها بهذا الاسم ، كما وردت في خطط الشام لمحمد كرد علي (٢٢) . ومعلوم ان منطقة وادي عربة وعجلون وغيرها مشهورة بمناجم الحديد وقد استغل بشكل واسع منذ الفترة الرومانية (٢٤) وقبلها . كما وانه الى الشمال من مؤتة توجد اليوم قرية اردنية باسم المشيرفة .

حملة مؤتة كانت هي الحملة الاولى والوحيدة التي جردها المسلمون نحو الشام في حياة الرسول ، وهي بذلك تؤلف الحملة الاولى في معركة تحرير البلاد الشامية من البيزنطيين الامر الذي تم بفضل الفتوحات الباهرة التي تلتها .

اما غزوة تبوك (٩ هـ) فدور جذام فيها يتضح كمايلي :

لقد ذكرنا ان اخبار بلاد الشام كانت تصل الى رسول الله في المدينة عن طريق الانباط وغيرهم ، فقدمت قادمة عام تسع للهجرة فذكروا ان الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق أصحابه لسنه ، وانه استنفر العرب المنتصرة فاجلبت معه لخم وجذام وعاملة وبهراء وغيرها من عرب الشام وزحفوا وقدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها ، فرأى الرسول ان لم يبدأ الروم القتال بداه ، فأمر في سنة تسع للهجرة بالتجهيز لغزو الروم ، والطلب بدم جعفر ومن استشهد معه في مؤتة في السنة الفائتة . وجاء عند الطبري . « ان رسول الله أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم . . وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد . . وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها . . الا ما كان من غزوة تبوك ، فانه بينها للناس لبعث الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو . . ليتأهب الناس لذلك أهبطه ، وأمر الناس بالجهاز » (٢٥) . ويذكر محمد كرد علي انه كان معه (الرسول) (الرسول) أهل الفنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الفنى

فاحتسبوا وانفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ، ولم ينفق أحد اعظم من نفقته .
كذلك فان ابا بكر انفق في تجهيز هذا الجيش جميع ماله « (٢٧) » .

ومع كل هذا الاستعداد والمشقة الفائقة الوصف - حتى سميت هذه الغزوة بغزوة العسرة - فان المسلمين لم يلاقوا كيدا ، فعادت الحملة من تبوك دون ان تصطدم بقتال ولكنها حققت المهام التالية :

أولا : كانت غزوة تبوك تجربة كبيرة لمستقبل التعبئة النفسية والاستعداد العسكري لحروب الفتح المقبلة .

ثانيا : عقد رسول الله خلالها الصلح مع اصحاب اهم المواقع التي تقع على الطرق التجارية ما بين الشام والبلاد الحجازية ، واكثر هذه المواقع تمر بديار جذام ومن جاورها من القبائل .

ثالثا : ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبح ضرورة ملحة سيما بعد معركة مؤتة كما يقول صالح درادكة ، فلا بد اذن من ترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو البلاد الشامية (٢٨) .

ولهذا اتخذ الرسول عدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز ، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الامان .

واثر غزوة تبوك تم بالفعل عقد الصلح مع الحواضر التالية :

أ - تم الصلح مع اهل اثرح من جبال الشراه (في هذا الموقع تم فيما بعد التحكيم ما بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وذلك عام ٣٨ هـ) (٢٩) .

ب - صالح الرسول اهل جرباء - من الشوبك ايضا واهل مقنا على مقربة من ايلة - كما وسبق الصلح مع دومة الجندل .

ج - ثم صالح الرسول الكريم اسقف ايلة يحنه بن رؤبة . و صلح ايلة له دلالة عميقة فأيلة - كما هو معروف - مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الاولى . واهلها يعيرون هذا الامر جل اهتمامهم ، وحيث ان الرسول في هذا الوقت اصبح يسيطر على اهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى ايلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، لذا سارع اهلها بقيادة صاحبها يحنه بن رؤبة بعقد الصلح مع الرسول وقبلوا دفع الجزية وتبادل الرسول مع اسقفها الهدايا (٤٠) .

ويبرز هنا امر جانبي يمس دور جذام ، ذلك ان بعض المؤرخين يذهب الى القول

ان يحنه بن روبة اسقف ايلة هونفسه من جذام (٤١)، ناهيك ان كثيرا من اساقفة ايلة قبله كانوا من اصل عربي (٤٢) .

د - يذكر الطبري في حوادث السنة التاسعة للهجرة ان « وفدا من الدارين (من لخم) قدموا على رسول الله واسلموا » ونرجح انه في السنة نفسها اعلن فروة الجذامي اسلامه (٤٣)، وفروة بن عمرو الجذامي من بني نفاثة كان - كما ذكرنا سابقا - عاملا للروم على قومه لبني النافرة من جذام - وعلى من حوالي معان من العرب ، ولما وقعت غزوة تبوك بعث الى رسول الله باسلامه واهداه ، وعلم قيصر الروم بذلك فسلط عليه الحارث بن شمر الفسائي فاعتقله وصلبه بفلسطين . وورد ذكر فروة الجذامي عند ابن الاثير هكذا « فلما بلغ الروم اسلامه (فروة) طلبوه حتى اخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفرى - شمال مدينة الطفيلة اليوم بفلسطين - . وقال ابن اسحق زعم الزهري انهم لما قدموه ليقتلوه قال : بلغ سراة المسلمين بانني سلم لربي اعظمى ومقامى (٤٤) .

ويعلق دونر على مقتل فروة الجذامي قائلا «ربما انها مجرد قصة دينية وفي الهامش يقول ربما ان فروة الجذامي قد قتل بسبب الحرب الفارسية البيزنطية » (٤٥) ويقول مصطفى الدباغ « فروة الجذامي اول عربي استشهد (من) بلاد الشام بسبب اسلامه » (٤٦) .

ويحلو لصاحب الاوائل ان يطيل في وصف قصة فروة الجذامي وفي سرد الابيات الشعرية التي قيل انه قالها وهو مصلوب ويقارنها بابيات جميلة لابي تمام ولان القصة مؤثرة وهدية فروة للرسول قد اثارت على ما يبدو اهتماما ما في المدينة ، راينا اثباتها :

* قال ابو الهلال العسكري :

بعث فروة بن عمرو الجذامي حين اسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بثياب فيها قباء سنن من محوص بالذهب وفرس وحمار وبغلة شهباء ، فكانت اول شهباء وثيت في المدينة : وكان فروة عاملا من قبل الروم على عمان (والاصح معان) من ارض البلقاء ، فقسم رسول الله الثياب بين نسائه ، اعطى القباء مخزومة ، ومات الحمار عند منصرفه من حجة الوداع ، وبلغ ملك الروم صنيع فروة ، فاراده على الرجوع الى دينه فابى ، فامر بصلبه ، فقال حين صلب :

على ماء عفرى فوق احدى الرواحل
مشلبة اطرافها بالناجس

قيدت لهم من مريضة النجار
ايدي الجنوب مدارعا من قنار
ابدا على سيف من الاسفل

الا هل اتى هندا بان خليلها
على ناقة لا يضرب الفحل امها
ومن هنا اخذ ابو تمام قوله في مصلوبين :
امسوا وانصحووا في متون ضواهر
سود الثياب كاتمها نسجت لهم
لا يبرحون ومن رآهم خالهم

العسكري ، ابو هلال ، ج ١ ، ص ١٦٩ - ١٧١ ، دمشق ١٩٧٥ .

وقبل ان تنتقل الى المراكز الكبرى والحاسمة والتي وقعت في الديار الشامية لتواصل تتبعنا لدور جذام ، يجدر بنا ان نرجع الى الورااء قليلا لنسوق ملاحظة هي بالحقيقة مربكة ولكنها تتعلق بجذام ، او بالحرى تتعلق ببني النضير وبني قريضة من يهود يثرب حيث قيل انهما من جذام ، يذكر اليعقوبي في تاريخه ان بني النضير وهم فخذ من جذام الا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير ، فسماوا به ، اخرجهم رسول الله من يثرب (المدينة) فتحملوا الى الشام والى خيبر (سنة ٦٢٦هـ) ونزلت في بني النضير سورة الحشر كلها (٤٧) ، وهو « الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم » (٤٨) .

ويذكر اليعقوبي الامر نفسه عن بني قريضة : « بنو قريضة وهي فخذ من جذام ، ويقال ان يهود بني قريضة كان في ايام السموال (عاديا) ، ثم نزلوا بجبل يقال له قريضة فنسبوا اليه ، وقيل ان قريضة اسم جدهم . وكان بينهم وبين رسول الله صلح فنقضوه وحالفوا قريش (٤٩) .

لا ندري هل من الممكن ان نقبل ما ذكره اليعقوبي وغيره ، ولكن ان صح ما ذهب اليه ، ففيه دليل آخر على نفوذ جذام وبعد اثرها .

ومع هذا وبتردد زائد نسوق بعض الاشارات التي تدعم مقولة اليعقوبي ، تاركين الحكم فيها للقارئ الكريم :

اولا : ان اليهودية كانت دينا تبشيريا لعصور طويلة .

ثانيا : ان كثيرا من العرب قد تهودوا في فترات متباينة ، فيذكر اهل الاخبار وجود اليهودية في حمير وبني الحارث بن كعب وكنده ، و يهود بني حنثة من بلي ودخولهم تيماء (٥٠) .

ثالثا : ويذكر حمد الجاسر ان كثيرا ممن سكن خيبر كان من صرحاء العرب مع انهم يهود مثل مرحب اليهودي الذي سجلت الكتب جانباً من بطولته وهو من قبيلة حمير القحطانية (٥١) .

رابعا : ان جماعة اليهود المتعصبة التي استطاعت بسبب ضعف السلوقيين ان تكون زعامة ما (المخابيون) في القرن الثاني قبل الميلاد في فلسطين وكانت لتخوفها من

الهيلينية ، قد حملت الناس في جنوب فلسطين وفي الجليل على اليهود ، تحت طائلة الطرد والإبادة .. وقد تكون هذه الاعمال قد امتدت عبر السنين فنسمع عن اليهود بين سكان جنوب سورية حتى أيام هيرودس الكبير والي روما في فلسطين ، وكان هو نفسه وأهل بيته من الادوميين ، فمشيا مع هذه النظرية نقول ان هذه الاعمال اصاب جدام أو بالحري اصاب جزءا من الشعوب التي كانت تسكن المنطقة وذابت في وسطها واندمجت فيه واخذت تحمل اسم جدام فيما بعد من الزمن .

ليس موضوعنا في هذا البحث الكلام عن دوافع الفتح واسبابه وسير المعارك العظمى التي جرت وانما هدفنا رصد دور جدام رغم تواضعه خلال هذه الاعمال العظام ، فقبيل خروج جيوش الفتح التي تشكلت في خلافة ابي بكر الصديق وقعت كما هو معروف حروب الردة ، اثر انتقال الرسول الكريم الى ربيعة الاعلى .. فشمروا ابو بكر الصديق والمسلمون لحرب المرتدين . ومن جملة هؤلاء كان بطن من جدام سبق وان اسلم وهم بنو الضبيب قد ارتدوا فيذكر الطبري انه « لما توسط اسامة (بن زيد) بلاد قضاة بث الخيول فيهم وامرهم ان ينهضوا من اقام على الاسلام الى مثل من رجع عنه ، فخرجوا هرابا حتى ارزوا (التجأوا) الى دومة واجتمعوا الى وديعة (الكلب الذي ارتد بدوره) ورجعت خيول اسامة اليه ، فمضى فيها اسامة حتى اغار على الحمقتين (موقع) ، فاصاب من بني خبيب من جدام ، ومن لخم ولفها من القبيلين وحازهم من ابل (موقع) وانكفأ سالما غانما » (٥٣) هذه ملاحظة بسيطة سجلناها ونمشي مع سير المعارك .

قلنا ان غزوة تبوك قد مهدت الطريق لجيوش المسلمين للسير نحو الشام ، وطبعي ان الطريق الذي سلكته معظم الجيوش الاسلامية قد مرت في ديار جدام التي نحسب ان ارتالا منها قد انضمت لجيوش المسلمين بعد الاعلان عن اسلام اقسام منهم ومن بني لخم (٥٤) .

وكما ذكرنا كان سكان الشام قد اثقلتهم الضرائب التي فرضها هرقل للتعويض عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالبلاد اثر الحرب الفارسية البيزنطية الطويلة .

ان اكثرية السكان النصارى الذين لم يسلموا بعد كانوا في خصام مذهبي شديد مع الكنيسة الرسمية المملكانية .

وقد لاقى رجال الدين ، وكثير من الشعب العنت والاضطهاد من الحكام البيزنطيين نتيجة للخلافات والصراعات ما بين المذهب الكنسي السوري (الشامي) المونوفيسي وبين الكنيسة المملكانية . فاصبح المجتمع السوري معاديا من الناحية الروحية للسلطات الحاكمة . وما المونوفيسيتية بالحقيقة الا تعبير وطني عن انفصال

الحضارة السامية عن الفكر الروماني الهيليني الدخيل ، لذا اختار العرب الوقوف بجانب اخوانهم المسلمين ، الذين جاؤوا ارض الشام والعراق لنشر الاسلام ، ولمحاربة سلطان الدولتين الاجنبيتين الكبيرتين آنئذ بيزنطة وفارس ، ولم يكن النصراني العرب في يوم من الايام على سجل الاعداء بل العكس ، والارجح ان النصرانية الارامية العربية- القبطية كانت حليفا للاسلام في اطار الصراع التاريخي ، الذي ظل يتجاذب المنطقة قرونا قبل ظهور الاسلام (٥٥) .

وللموضوعية نرجع هنا الى المصادر الاجنبية نفسها التي تخبرنا عن الترحيب الذي لقيه العرب المسلمون من السكان الاصليين للبلاد السورية ، يورد الاب قنواتي عدة نصوص تبين ترحيب السكان بالعرب وفرحهم بخلاصهم من ظلم البيزنطيين ونسجل كمثال نصا اخذه عن بطريك انطاكية في مذكراته « ميخائيل السوري » مترجمة الى الفرنسية والانكليزية نورد ترجمته بالعربية كمايلي « انتقام من الله ، الذي راى شرور الروم ، الذين حيثما حكموا فحكمهم ظالم : هدموا كنائسنا واديرتنا ، ساسونا بسلا رحمة .. حتى جاء من الجنوب اولاد اسماعيل ليتم خلاصنا من الروم على ايديهم » (٥٦) . كل هذا يحملنا على القول ان جذام ولخم وغيرهما من القبائل العربية من الشام اسرعت وانضمت ، خاصة بعد معركة اليرموك ، الى اخوانهم العرب المسلمين واعتبروهم محررين لهم بدليل استسلام وانسياق كثير من الحواضر والمدن للمسلمين دونما حرب ، وعلى سبيل المثال مؤاب (٥٧) .

اما ما قبل اليرموك ، فنستشف من مصادرنا ان اقساماً من المنتصرة العرب خاصة غسان وقفت بجانب الروم . فيذكر الطبري « سار هرقل في الروم حتى نزل انطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة ، وتلك من قضاة ، بشرا كثيرا ، ومعه من اهل ارمينية مثل ذلك ، فلما نزلها اقام بها » ، وبعد ذكر الاعداد والقادة يقول « سار اليهم المسلمون وهم اربعة وعشرون الفا عليهم ابو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة ١٥ هـ » ويستمر الطبري « فاقتتل الناس قتالا شديدا حتى دخل عسكر المسلمين ، وقاتل نساء من نساء قریش بالسيوف ، حتى سابقن الرجال وقد كان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام . فلما راوا جد القتال فروا ونجوا الى ما كان قريبهم من القرى ، وخذلوا المسلمين .. وقال قائل من المسلمين حين راى من لخم وجذام ما راى :

القوم لخم وجذام في الهرب ونحن والروم بمرج نضطرب

فان يعودوا بعدها لا نصطب

وما جاء عند الطبري ذكرته كثير من المصادر العربية الاخرى مع اختلافات بسيطة (٥٨) .

من هذه النصوص نحكم ان اقساماً من جذام كانت حتى اليرموك مع المسلمين وقسم مع الروم وعند الازدي نرى المسألة أكثر وضوحاً حيث يقول بصدد معركة اليرموك « خرج الناس على راياتهم وفيها اشراف العرب وفرسانهم من رجالهم وقبائلهم وفيها الازد . وفيها همدان ومذحج وخثعم وقضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن اعظم الناس من اهل اليمن » . . . ويفسر الازدي ذلك فيقول « ولم يحضرها يومئذ اسد ولا تميم ولا ربيعة ، ولم تكن دارهم وانما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق » . ويذكر في مكان آخر « ان جذام ولخم حاربت في ميسرة المسلمين حيث انكشفوا للعدو » . من هذا النص نرى ان جذام وغيرها من قبائل العرب في الشام حاربت مع المسلمين في اليرموك ايضاً (٥٩) .

وبما ان معارك مثل دائن (وهي من قرى غزة) واجنادين ما بين الرملة وبيت جبرين ، (وبيت جبرين سكانه من جذام كما مر معنا) ، قد وقعت في اراضي جذام فنحسب ان جذام كانت بجانب المسلمين آنذاك (٦٠) . ونلمح ذلك بوضوح عند فتح قيسارية حيث ارسل قائد الفتح معاوية بن ابي سفيان باثنين من بني جذام يحملان بشرى الفتح للخليفة عمر بن الخطاب (٦١) . وقيسارية من المدن الشامية التي قاومت لانها كانت مركزاً هاماً للبيزنطيين ومعقلاً كبيراً للهلينية في الارض الشامية .

يقول الاستاذ محمد كرد علي « ومن المحقق ان العرب المنتصرة - ومنهم جذام - في الشام عادوا بعد ان صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين واخذتهم النقرة الجنسية . . واصبحوا للمسلمين عيوناً على الروم » (٦٢) .

وشاركت جذام مشاركة فعالة بالفتوح ودلينا المادي على ذلك هو اجتماع يوم الجابية الذي وقع ١٧هـ على الأرجح حيث اجتمع عمر بن الخطاب مع امراء الجيش ورؤساء الشام وبصحبه عدد من كبار الصحابة ، وكان من دواعي الشهرة ان يكون المرء من شهود هذا اليوم . امر عمر بان يوزع العطاء على المقاتلين في فتوح الديار الشامية . . . ورؤي اول الامر استبعاد القبائل العربية من اهل الشام في العطاء ولكن هؤلاء العرب الذين شاركوا الفاتحين من الحجاز واعانواهم عارضوا هذا الرأي فلم يؤخذ به ، فيذكر اليعقوبي « وامر عمر بن الخطاب - بالجابية - ان تقسم الغنائم بين الناس بالسوية خلا لخم وجذام وقال : اجعل من خرج الشقة الى عدوه كمن خرج من بيته » (٦٣) .

ولكن صاحب الاموال ساق الخبر بتفصيل اكثر وبما انتهى فعلاً اليه فذكر

« شهدت خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، قال : فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإن هذا الفيء شيء أفاءه الله عليكم ، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ، ليس أحد أحق به من أحد ، إلا ما كان من هذين الحين . **لخم وجذام** فاني غير قاسم لهما شيئاً ، فقام رجل من لخم فقال : يا ابن الخطاب ، انشدك الله بالعدل والتسوية ، فقال : ما يريد ابن الخطاب بهذا إلا العدل والتسوية ، والله اني لاعلم ان الهجرة لو كانت بصنعاء ما خرج اليها من لخم وجذام إلا قليل . أفاجعل من تكلف السفر وإبتاع الظهر بمنزلة قوم انما قاتلوا في ديارهم . فقام ابو حدير فقال : يا أمير المؤمنين ان كان الله تبارك وتعالى ساق الهجرة الينا في ديارنا فنصرناها وصدقناها اذاك الذي يذهب حقاً ؟ فقال عمر : والله لا قسم لكم ، ثم قسم بين الناس فاصاب كل رجل منهم نصف دينار ، اذا كان وحده ، واذا كانت معه امراته اعطاه ديناراً (١٤) .

ان مشاركة جذام ولخم بالعطاء يعطينا دليلاً مادياً يثبت المشاركة الفعلية لهما في الفتح الامر الذي استحققتا معه المشاركة في العطاء على السواء .

في نهاية بحثنا . . لنقف عند حادث اليم اصاب المسلمين وهو طاعون عمواس ، وتقول اكثر المصادر انه وقع في عام ١٨ هـ . وسمي باسم المدينة الفلسطينية عمواس - التي تقع على الطريق الرئيسي الموصل القدس باللد .

وطاعون عمواس كان عنيفاً وامتد الى مناطق واسعة ، ويذكر ياقوت في معجمه انه راح ضحيته خمسة وعشرون الفا من المسلمين (١٥) .

ان يحدث طاعون في الارض الشامية - او مناطق منها على الاقل - في ذلك الوقت ليس بالامر الغريب ، يذكر كونراد في دراسة له حول الطاعون انه قد حل بسورية طاعون جارف في ايام جستنيان الاول عام ٥٤٢ م ، وفي اواخر القرن السادس ، وفي مطلع القرن السابع للميلاد ، وقع طاعون آخر . وتشير المصادر الى ان الطاعون كانه قد استوطن بعض الارض الشامية في الفترة الاموية وبداية الفترة العباسية (١٦) .

ولكن السؤال : ما علاقة ذلك بدور جذام في الفتوح ؟ موضوع بحثنا . . انني افترض انه بسبب هذا الوباء الذي راح ضحيته تلك الالاف من الشهداء المسلمين ، كان من بينهم قادة جيش الفتح ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان ، ومعاذ بن جبل وآخرون - رضوان الله عليهم - ، قد احدث فراغاً في القوى البشرية للمسلمين وهم في نشوة انتصاراتهم على البيزنطيين في الشام ، ويستعدون للسير لفتح مصر . وحيث ان هذا الوباء يصيب الحواضر وسكان المدن اكثر مما يصيب البوادي ،

والهضاب والواحات واطراف الصحراء حيث تعيش جذام وجموعها ، تلك الجموع التي كما قلنا اكثر العرب ابلا . . فهم معها خارج المدن المكتظة ، وجدام ومؤلفها تسم انضمامها في هذا الوقت بالذات الى صفوف المسلمين . اذن ففي الجموع الجذامية وجد المسلمون التعويض البشري الكبير عن كوارث الطاعون والمجدد الوافر من المجاهدين للانضمام الى جيش فتح مصر . . ودون الخوض بتفاصيل كثيرة حول فتح مصر ودور جذام في تلك الفتوح يكفي القول ان جذام ومعها لخم وبهراء وبلي وغيرهم قد كونت عماد جيش الفتح بقيادة عمرو بن العاص ، الذي انطلق من موطن جذام جند فلسطين .

وحيث ان موضوع فتح مصر ، يخرج بنا عن نطاق حدود هذا البحث ، فيكفي ان نسوق هذه الملاحظات البسيطة نختم بها حديثنا عن دور جذام في الفتوح :

ان اول من سكن الفسطاط هم اهل الراية وفيهم القبائل التي شاركت بالفتح منها بلي ولخم وجدام خاصة فرع وائل التي شكلت اهم الفرق (١٧) . يقول القلقشندي « بنو جذام اول من سكن مصر من العرب جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص ، واقطعوا فيها بلادا بعضها بأيدي بنيهم الى الان » . وقال في موضع آخر « ومن اقطاعاتهم سبني جذام - هريبط ، وتل بسطه ونوب وغير ذلك » . وذكر القلقشندي عدة بطون لجدام وقال « بالاسكندرية من جذام ولخم اقوام ذو عدد وعدة واهل شجاعة واقدام وضرب بالسيف ورشق بالسهم ولهم ايام معلومة واخبار معروفة ووقائع في البر والبحر مشهورة » (١٨) .

المصادر والمراجع :

- (١) القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٩ . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٢ ، دار المعارف المصرية ١٩٥٢ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، الكتاب اللبناني بيروت . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ، الطبعة الأوروبية .
- (٢) الزبيدي ، تاج العروس ، ج ٨ وايضا التويري ، نهاية الارب ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، القاهرة . ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ٢٥١ ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
- (٣) البكري ، معجم ما استمع ، تحقيق السقا ، القاهرة ج ٤ ص ١٢٠١ . ايضا القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ .
- (٤) ابن خلدون ، العبر ج ٢ ، ص ٢٧ .
- (٥) ابن خلدون ، العبر ج ٢ ، ص ٢٧ ، الكتاب اللبناني : بيروت .
- (٥) ابن خلدون ، العبر ج ٢ ، ص ٢٧ .
- (٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٧) ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ، ص ١١٤ ، بيروت ١٩٧٩ . اليقوبي ، بلدان ، ٢٢٠-٢٢٩ (مع كتاب الاعلاق النفسية) لبنان ١٨٩١ .
- (٨) الحلبي ، المناقب الزيدية ، ج ١ ، ص ٧٠٦٧ .
- هبة الله ، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات ، عمان ١٩٨٤ .
- (٩) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٤ ص ٢٥٦ ، القاهرة ١٢٠٢ هـ .
- (١٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ .
- (١١) ابن خلدون ، ن.م ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .
- (١٢) ابن خلدون ، ن.م ، ج ٢ ، ص ٥١٧ .
- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٤٠٢ .
- (١٣) ابن حزم ، جمهرة الانساب ، ص ٢٩٥ . القلقشندي ، نهاية الارب ، ص ٢٠٦ ، القاهرة ١٩٥٦ .
- (١٤) جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٤ ، ١٦٦ - ١٦٧ .
- (١٥) عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ . فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ، بيروت ١٩٦١ . شاعر مصطفى ، العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ (من كتاب القضية الفلسطينية) ، الموصل ١٩٨٣ .

انقسر :

Trimingham, J.S., Christianity among the Arabs in pre-Islamic Times, Longman, London 1971 .

- (١٦) صالح العمارة ، المسيحية في ارض الشام في اوائل الحكم الاسلامي ، (من كتاب المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) عمان ١٩٧٤ ، ص ٥٤٩ - ٥٥١ .

(١٧) توفيق فهدي ، ماوية وضجعم او العرب والرومان في اواخر القرن الرابع ، بحث مقدم المؤتمر بلاد الشام الرابع ١٥-٢١ تشرين اول سنة ١٩٨٢ .

(١٨) المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد عبد الحميد ، ج ١ ، ص ٦١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(١٩) ترمينجهام ، ن.م ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٠) الطبري ، تاريخ ج ٢ ، ص ١٤٠ . ابن هشام ، السيرة ج ٢ ، ٣٤ تحقيق عبد السلام هارون .

(٢١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ١٢١ لجنة الثقافة القاهرة . الطبري ، تاريخ ج ٣ ، ص

١٤٠ - ١٤١ . ابن الاثير ، اسد الغابة ، ج ٢ ، ص ١٨١ . خليفة بن خياط ، تاريخ ص ٨٥ .

تحقيق اكرم العمري . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥١ ، بيروت سنة ١٩٧٩ .

(٢٢) الطبري ، تاريخ ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٨ . خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٨٥ . ابن سيد الناس ،

عيون الاثر ، ج ٢ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، القاهرة ١٢٥٦ هـ .

(٢٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

(٢٤) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٥) الواقدي ، المغازي ، ج ٣ ، ص ٢١ . محمد بن عمر ، تحقيق جونس .

(٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٤٨ ، بيروت سنة ١٩٦٢ .

علي بن الحسن

(٢٧) ابن عساکر ، تاريخ دمشق تحقيق ، صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، ص ٤١٢ ، دمشق ١٩٥٤ .

الواقدي ، كتاب المغازي ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ ، ج ٣ ، ٩٨٩ ، القاهرة ١٩٦١ . صالح الحمارة ،

دور الابطاح في الفتوح الاسلامية ، مجلة دراسات « الاردنية » المجلد السابع ، العدد ١ ، عمان

١٩٨٠ ، ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٢٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ . ابن خلدون ، المعبر ، ج ٢ ، ص ٢٤١ . جواد علي ،

المفصل ج ٤ ، ص ٢٤٥ .

(٢٩)

Donner, F., The Early Islamic Conquests, pp,99 - 101, Newjersey 1981.

Trimingham

Anawati, G., Factors and Effects of Arabization and Islamization in

Egypt and Syria, p.20, Otto Harrassowitz , wiesbaden 1975.

نودلكه ، امراء فسان ، ص ٤٩-٥٠ الترجمة العربية ، بيروت ١٩٢٣ .

(٣٠) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٤ : ص ١٢٤١ القاهرة سنة ١٩٥١ . ابن الاثير : اسد الغابة

ج ٢ ، ص ١٧٨ .

(٣١) الواقدي : كتاب المغازي ج ٢ ص ٧٥٥ - ٧٦٩ تحقيق جونس اكسفورد ١٩٦٦ .

الطبري : تاريخ ج ٢ ، ص ٣٦-٤٢ .

(٣٢) الواقدي ، المغازي : ج ٢ : ٧٥٥ - ٧٦٩ اكسفورد ١٩٦٦ .

(٢٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص ٥٣٦ طهران ١٩٦٥ التريبي : تاج العروس ج٦ : ص ١٥٤ دار ليبيا للنشر . ابن منظور : لسان العرب (مادة الشرق) ج ٩ : ص ١٧٤ دار صادر بيروت . ف - حتى : تاريخ العرب مطول ص ١٩٩ بيروت ١٩٦١ . محمد كرد علي : خطط الشام ٧/١ دمشق ١٩٦٩ .

Rothenberg, B., Timma Valley of the Biblical Copper Mines London, (٢٤) Themes and Hudeon, (1976).

Coughenour, R. , Preliminary Riport on the Exploration of Mugharat el Wardeh and Abu Thawab, Annual of the Department of Antiquities, XXI, 1976, Amman, Jordan.

(٢٥) الطبري : تاريخ ج ١ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، دار المعارف المصرية . البلاذري : فتوح ص ٧١ . ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ١٤٠ ، صادر بيروت سنة ١٩٧٩ . محمد كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٧٤ وما بعدها ، دمشق ١٩٦٩ .

(٣٦) محمد كرد علي : ن.م ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣٧) الطبري : ن.م ، ج ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ . محمد كرد علي : ن.م ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣٨) صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة - العقبة - في العصر الاسلامي ص ٦٧-٧٨ مجلة دراسات تاريخية جامعة دمشق العددان ١٥ ، ١٦ ، دمشق ١٩٨٤ .

(٣٩) الطبري : تاريخ ، ج ٥ ، ص ١٥٨ وما بعدها . نبيه عاقل : خلافة بني امية ص ٤١-٤٢ دمشق ١٩٧٢ .

(٤٠) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ . محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٤١) ابن سعد الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٨١ دار صادر بيروت ١٩٥٧ . ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ٢٢٤ صالح درادكة : لمحات من تاريخ ايلة ، ص ٧٢ .

(٤٢) لويس شيخو : النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية ، ج ٢ ، ص ٤٨ ، بيروت ١٩٢٢ .

(٤٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٤٤) ابن الاثير ، اسد الغابة ، ج ٢ ، ص ١٧٨ . البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٤ ، ص ١٢٤١ القاهرة ١٩٥١ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٥٢٥ دار الكتاب البناني بيروت . الزركلي ، الاعلام ج ٥ ، ص ٩٤٥ . مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا ج ١ قسم ١ ، ص ٧٠٨ .

(٤٥) Donner, F., The Early Islamic Conquests, p.105, p. 304 .

(٤٦) مصطفى الدباغ ، فلسطين بلادنا ، ج ١ قسم ١ ص ٧٠٨ .

(٤٧) اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥٢ ، صادر بيروت .

(٤٨) سورة الحشرة ٢ .

(٤٩) اليعقوبي ، ن.م ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٥٠) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٢٤ . ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٢٢٥ . جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ - ٦٢٩ ، بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٢ . عبد العزيز الدوري ،

اليهود في المجتمع الاسلامي عبر التاريخ ضمن كتاب ((القضية الفلسطينية)) ص ٢٩-١٢٠ الموصل ١٩٨٢ .

(٥١) حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ص ٢٣٦ دار اليمامة : الرياض . ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ طبعة الحلبي القاهرة .

(٥٢) شاكر مصطفى ، العرب والاسلام وفلسطين عبر التاريخ ضمن كتاب « القضية الفلسطينية » ، ص ٣٢-٣٣ ، الموصل ١٩٨٣ . نقلا عن :

Josaphos, Antiquities, Book XII , eh. 15,p.4.

انجيل مرقس ٧٠/١٤ ومتى ١٤ ٢ . فليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان ج ١ ، ص ٢٧٢ وما بعدها بيروت ١٩٥٨ .

(٥٣) الطبري ، ج ١ ١٧٧٩ (الاوروبية) . ابن سعد ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٥٤) فكتور سحاب ، من يحمي المسيحيين العرب ، المستقبل العربي ، ص ١٢٠ - ١٦١ ، ١٩٨٠/٨ بيروت .

(٥٦) Chronique de Michel , Le Syrien Patriarche Jacobite d'Antioche , ed . and trans . J.B., Chabot , Paris (1905) , XI,U.

من مقالة

Anawati, G., Factors and Effects ..pp;20 - 44 .

(٥٧) الازدي ، فتوح الشام ٢٩ ، القاهرة ١٩٦٩ .

(٥٨) الطبري ، تاريخ ٢ (٥٧٠ - ٧٥١) . ابن خلدون : المعبر ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ . الواقدي ، فتوح الشام ص ١٠٧ . البلاذري ، فتوح ، ص ٦٤٠ ..

(٥٩) الازدي ، فتوح الشام ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، القاهرة ١٩٦٩ .

(٦٠) اليعقوبي ، بلدان ص ٣٣٠ .

(٦١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥١ بيروت ١٩٦١ . البلاذري ، فتوح ١٤٧ - ١٤٨ .

(٦٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٦٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، ١٤٧ ، بيروت ١٩٦٠ .

(٦٤) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٧٤-٢٧٥ ، المطبعة الزهرية ، القاهرة ١٩٦٨ .

(٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥٢ E.I. 2 طبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥٦ وما بعدها .

(٦٦) Conrad, L.I., The paagae in Bilad al - Sham in pre - Islamic Times , (A Paper for Bilad al - Sham Conference, Amman, Oct, 1983.

(٦٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١١٦ الطبعة الاوروبية . القرظي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٩٦-٢٩٨ ، بولاق ١٢٧ هـ ، ١٨٥ م .

Kubiak, W., Al Fustat, its Fondation and Early Urban Development, pp. 83 - 97 , Warsau, 1982 .

(٦٨) القلاشندي ، نهاية الارب ص ٢٠٦-٢٠٧ ، القاهرة ١٩٥٦ .

عواملُ سياسيَّةٌ واقتصاديَّةٌ في تطوُّر سورية في العصر الآرامي القديم

(حتى أواخر القرن الثامن ق.م)

د. محمد عرب فرزات

جامعة دمشق

منذ الربع الأخير من الألف الثاني ق.م برزت جملة من التغيرات الأساسية على المسرح السياسي في سورية الشمالية وفي كل المشرق القديم ، نتيجة لتدخل عاملين اثنين من العوامل التي أثرت بصورة متزامنة وعميقة في تاريخ المنطقة : أولهما ، تحرك الشعوب التي عرفت باسم « شعوب البحر » في الوثائق المصرية الفرعونية ، وثانيهما ، تحرك الاقوام العربية القديمة من البادية العربية السورية ، بادية الشام ، نحو انحاء مختلفة من الهلال العربي الخصيب ، في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وهي الاقوام الآرامية التي تربط فيما بينها لغة مشتركة ، وإن اختلفت لهجاتها ، هي اللغة الآرامية الأم ، التي تعد كما هو متداول عادة من « اللغات السامية » .

وإننا في هذا البحث سنحاول ان نلقي بعض الضوء على هذه المرحلة من تاريخ المشرق العربي القديم وما آلت اليه من نتائج خطيرة ، أبرزها على الصعيدين الديموغرافي والسياسي انتشار القبائل الآرامية واستقرار بيوت حاکمة آرامية في أهم مدن سورية الشمالية منذ أواخر الألف الثاني ق.م ومطلع الألف الأول ، أي في العصر الذي يعرف عادة بالعصر الآرامي القديم . وتعتبر هذه التحركات البدوية العربية من حيث نتائجها هذه ، المباشرة والبعيدة ، أهم مراحل الانتشار العربي قبل الفتوحات العربية الإسلامية . أما على الصعيد الاقتصادي فهو ظهور الآراميين في سورية الى جانب البابليين في الرافدين والفينيقيين على الساحل كاهم عامل اقتصادي في المنطقة مدة

سبعة قرون (من القرن العاشر - القرن الثالث ق.م) اي الى العصر الهلنستي .

١ - انقلاب الوضع الدولي في سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م .

مع تحرك « شعوب البحر » تعرضت سواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط الى سلسلة من الهجمات منذ القرن الثالث عشر كان من نتائجها وقوع انقلاب وتغيرات تاريخية في اوائل القرن الثاني عشر منها (١) : تهديم الحضارة الإيجية في كريت وحوض بحر ايجيه ، وانهيار الامبراطورية الحثية في اسية الصغرى ، واختفاء مدينة اوجاريت العظيمة على الساحل الكنعاني الشمالي في سورية ، واستقرار بعض عناصر من « شعوب البحر » الهائجة في الساحل الكنعاني الجنوبي ممن اطلق عليهم اسم فلسطين (فلسطين ، بلست) لان بينهم من كان ينتمي الى قبائل آخائية إيجية كانت تحمل هذا الاسم ، وبدأت تدعى تلك المنطقة عند اليونان ، وكذلك في الديوان الملكي الاشوري (منذ القر الثامن ق.م) ، باسم مشتق من هذا الاسم ، والذي غلب على البلاد بعدئذ في العصر الروماني ، بصيغة فلسطين .

ولم تنج مناطق سورية الشمالية من عواقب هذه التغيرات ، اذ يرجح وقوع هجمات من الشعوب التي كانت تقطن سواحل خليج مرسين وشمالى خليج الاسكندرونة ، وهي المنطقة التي كانت تعرف في المصادر الحثية باسم كيزوواتنا ، ثم وردت باسم قوّة في المصادر الآرامية وهي كيليكية (٢) . ولكن هذه العناصر من الاقوام الشمالية اصطدمت بالسكان المحليين ، وهم خليط من عناصر حورية وامورية ذات ثقافة بابلية ابرز ملامحها استخدام الكتابة المسمارية على الواح من الطين . وهذه العناصر هي بقايا مجتمعات امبراطوريتي ميتاني وحاثي وممالك امورو وبخاصة مملكة حلب - يمحاض ، التي قامت بأدوار اساسية في الصراع الدولي الذي نشب حول المنطقة واشترك فيه فراعنة مصر اعتبارا من القرن السادس عشر وطوال اربعة القرون . ولقد كان من عواقب نهاية مملكة حلب وتدهور ميتاني المبكر ، وسقوط الامبراطورية الحثية وانحسار نفوذ الفرعون المصري وتقلص مملكة بابل ، ترك الجبل على الغارب امام العوامل الفاعلة التي ظهرت بقوة على المسرح الدولي وهي :

اولا : الشعوب الاخائية وغيرها التي كانت فرت من وجه الغزو الدوري المتحرك من البلقان نحو سواحل هيلاد (اليونان) وجزر بحر ايجيه ، لكي تبحث بالقوة عن وطن جديد على شواطئ اسية الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة ، اي على امتداد شواطئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط . لكن هذه الاقوام التي لم تخلف وراءها وامامها سوى الدمار لم تجد بندا من الانضواء تحت نفوذ الفرعون المصري وعميسيس

الثالث الذي عمل على توطينها واستقرارها مع الكنعانيين في منطقة عسقلان واسدود وغزة على الساحل الفلسطيني الجنوبي .

وثانياً: القبائل الآرامية التي استطاعت بانتشارها السريع والكثيف ان تسد الفراغ وان تحل محل الدول الكبرى المنهارة دولاً جديدة هي سلسلة من الامارات والممالك العديدة التي تزعمتها بيوت حاكمة اتخذت قواعد راسخة لها في مدن وحصون قديمة على سفوح طوروس وفي شمال سورية . واذا ما القينا نظرة على الخارطة السياسية التي ارتسمت في اعقاب هذا التغيير لوجدنا الوضع الدولي في سورية العليا (سفوح طوروس) وفي شمالي سورية ، فيما بين القرنين العاشر والثامن ق.م (٣) ، على الشكل التالي :

انقسمت المنطقة الى دول عديدة : ففي اقصى الشمال اتحاد ممالك وامارات طابال الذي كان يضم العديد من الدويلات الصغيرة على سفوح طوروس العليا ، وترجع اهمية هذه المنطقة الى ثروتها المعدنية واهمها الفضة والحديد مما جعلها هدفا دائماً للحملات الاشورية وبخاصة في القرنين الثامن والسابع . ويتصل هذا الاتحاد بشعوب كيزوواتنا الحثية ، خيلاكو (كيليكية بعدئذ) التي كانت تتحرك باتجاهين من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الغرب اي على امتداد كيليكية التاريخية التي شكلت في ذلك العصر ، اي في مطلع الالف الاول ق.م ، جبهة احتكاك وتفاعل مباشر مع الاقوام العربية القديمة التي كانت تتكلم لغات ولهجات سامية ، وهم القبائل الآرامية التي عرفت اولا باسم اخلامو . ومن الدويلات التي تشكلت على هذه الجبهة السورية الشمالية : قوه في سهول كيليكية وكانت مشهورة بالخيول . ويؤوديا وعاصمتها شمال اقصى مدائن بلاد العرب . وقد ذكرت شمال مهموزة على انها الشمال وهي ريع تهب من قبل الشام نحو بلاد العرب (٤) . وعنقي (العمق) ومملكة « حاتي الكبرى » وهي المملكة التي بقيت تحمل اسم الدولة الحثية حول كركميش (جرابلس) حتى القرن السابع ق.م . اما اهم هذه الممالك فهي ياخان في منطقة لوحوتي (وهي لعش في النصوص الآرامية كما في نصب ملك حماه ذكر في النقوش الآرامية من القرن التاسع ولعل الاسم محرف من نوحاشة الواردة في النصوص المصرية من اواسط الالف الثاني) ، وهي منطقة حلب التي احتفظت باهميتها الاقتصادية ومكانتها الدينية وبخاصة بعد ان تزايدت اهمية معبد هدد المعبود الآرامي الرئيسي . واضحت ياخان التي ورثت يمحاض القديمة جزءاً من مملكة آرامية كبيرة بزعامة اسرة آرامية حاكمة هي بيت أجوشي التي جعلت معاقلها في ارفاد (تل رفاد) واعزاز . وقد قامت هذه المملكة الآرامية في شمال سورية في القرن الثامن بدور يماثل في الاهمية الدور الذي قامت به مملكة آرام دمشق في سورية الوسطى والجنوب سياسياً واقتصادياً .

وقد رافق هذا التغير العنيف للخارطة السياسية للمنطقة بدء مرحلة انتقالية على الصعيد الثقافي واللغوي بخاصة . فزوال الامبراطورية الحثية من الوجود لم يكن ليعني زوال الحضارة الحثية ، فلقد استمر التأثير الثقافي للغة الحثية والفن الحثي على طول شريط سفوح طوروس ومناطق سورية الشمالية . ويلاحظ غورني بحذر انه يمكن ان نميز خطا مفترضا مارا بجبال طوروس وجبال أمانوس ، تبرز السمات الحضارية الحثية في شماله بينما تبرز ملامح ثقافية ولغوية عربية سامية في جنوبه . ولكن ينبغي ان نلاحظ انه ليس من الحكمة تبسيط الامور وصبها في قالب شكلي جازم على هذه الصورة ، لان التبادل الثقافي لغويا وفنيا واجتماعيا كان عميقا ومتنوعا تبدو آثاره في الآثار المكتوبة وفي العمارة والطقوس واللباس والحياة المنزلية . ولعل اهم مراكز التلاقي والتفاعل الحضاريين في تلك الفترة مملكة كركميش (جرابلس على الفرات) التي كانت تمثل بقية الامبراطورية الحثية في الوسط الآرامي المتعظم الى جانب مراكز اخرى اقل أهمية مثل مرعش (شمال أرفاد) وكوموخو على الضفة اليمنى للفرات (وهي كوماجين الكلاسيكية) .

وينبغي علينا ان نشير هنا الى ان التغير لم يقتصر على سورية الشمالية ، لان مناطق سورية الجنوبية وفلسطين تعرضت بدورها الى تغير مماثل نجم عن الضعف الذي اصاب مصر نتيجة للهزات الداخلية التي مرت بها زمن الاسرة العشرين والغزوات المتلاحقة التي قامت بها « شعرب البحر » لاراضي الامبراطورية الفرعونية على الساحل الكنعاني الجنوبي وبرقة حتى انها اخترقت اراضي مصر نفسها الى دلتا النيل . لكن رمسيس الثالث (١١٩٧ - ١١٦٥) تمكن من احتواء الخطر واستطاعت مصر ان تنجو ، لكن وضعها الدولي تضعف ، ونفوذها تراجع عن ارض كنعان المنقسمة ، فسقطت هذه البلاد في خضم صراع بين شعوبها وقبائلها التي تنازعت على السيطرة فيها . وانتهى الامر الى تاسيس مملكة على راسها داود الذي اورث ملكه لابنه سليمان (القرن العاشر ق.م) . الا ان هذه المملكة ، حتى في ذروة قوتها وفي اقصى درجات اتساعها . لم تزد عن كونها قوة اقليمية محلية لم تستطع ابدا ان توازي في اهميتها القوى الدولية التي سادت المنطقة في المرحلة السابقة (٥) . وهكذا فان الفراغ الذي تشكل فيما بين الفرات والبحر المتوسط جذب القوى المتحركة الحديثة في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وفي طليعتها الآراميون والآشوريون .

لقد كان لابد من نشوب صراع مرير وطويل بين العناصر القادمة الجديدة وبين العناصر القديمة ، استغرق قرابة القرنين ، وبدأت ملامح نهايته في اواخر الالف الثاني ق.م عندما اخذت سورية تسترد شيئا فشيئا اسس الاستقرار السياسي والاقتصادي مع تاسيس الاسرات الحاكمة وتكوين الدول الآرامية في المنطقة على ايدي زعماء

القبائل العربية البدوية الآرامية الذين تحركوا من بادية الشام وانداحوا بعشائرتهم نحو مراكز المعمورة والحضارة سواء في وادي الفرات أم في سورية الشمالية والوسطى.

وعلى الرغم من هذا التبدل الكبير في الخارطة السياسية لسورية في تلك الفترة من مطلع الالف الاول ق.م ، فان المصطلحات الجغرافية القديمة^(١) بقيت هي الدارجة في الحوليات الآشورية الرسمية وفي النصوص التاريخية من العهد القديم . فاصطلاح « بلاد حاتي » بقي يتردد في هذه المصادر ليدل على مناطق من سورية العليا على سفوح طوروس وسورية الشمالية وعلى الاخص مملكة كركميش (جرابلس) وخطينا (شمالي حوض العمق) . كما يتردد اصطلاح « بلاد حاتي الكبرى » ليشمل ميليد (ملاطية) ، وطابال وخیلاکو (كيليكية) ، وجرجم (مرعش) التي تلامس حدودها الشمالية حدود مملكة بيت أجوشي الآرامية القوية في أرناد (تل رفاد) .

وينبغي هنا ان نشير بوضوح الى ان وصف هذه المناطق بالحثية ليس له أي معنى إثني فهو لا يعني ان السكان كانوا حثيين او ان الحضارة حثية. فليس للاصطلاح سوى قيمة جغرافية اقليمية لان الشعوب كانت مختلطة في هذه المنطقة وهي من اصول حورية وحثية وامورية وآرامية .

وهكذا حل الانقسام والتعدد محل الوحدة السياسية التي تمثلت بالامبراطورية الحثية الى حين سقوطها . ولم تستطع هذه الدول الصغيرة الجديدة سد الفراغ السياسي والعسكري الناجم عن التغير في خارطة المنطقة ، وكان لابد من احلال توازن دولي جديد محل التوازن المنهار بسقوط القوى القديمة او بتراجعها . وهكذا اتاح الوضع الجديد الفرصة لظهور القوى الدولية الجديدة على مسرح الاحداث ممثلة بالدولة الآشورية والحلف الآرامي ، يضاف اليها مملكة اورارتو (أرمنية) التي تزايدت أهميتها واقتربت من مسرح الصراع في شمال سورية خلال النصف الاول من القرن الثامن . وقد كانت آشور من بين هذه القوى الدولية كلها هي الالهة ، على الرغم من المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهتها ، واكثر عوامل الاستقرار شانا في المنطقة . وذلك خلال مدة طويلة امتدت من القرن الثاني عشر الى اواخر القرن السابع . ولم يكن بوسع اورارتو منافستها بالدرجة نفسها من القوة والفعالية ، بسبب من موقعها البعيد جغرافيا من جهة والغريب حضاريا من جهة اخرى . اما الآراميون فقد كانوا يملكون من عناصر القدرة على الصراع ما مكنهم من الصمود طويلا ، ومن فرض ثقافتهم ولغتهم اخيرا ، رغم سقوط دولهم . اما وراء جبال زاغروس فقد اخذت القبائل التي كانت تظهر في لمحات خاطفة خلال المراحل السابقة ، كالفوتيين والكاشيين ، تتحد لتكون دولا قوية في شمال ايران وجنوبها اهمها مملكة الميدين والفرس .

إننا سنتبع فيما يلي هذا الدور الآرامي سياسيا واقتصاديا في مناطق سورية الشمالية نظرا لطبيعة هذا الدور الذي تميز بمواجهة التوسع الآشوري . ولن نتعرض في هذا البحث الى الدور الآرامي في الجنوب ، وهو الدور الذي تميز بمواجهة التوسع العبراني وبفرض العامل الآرامي في سورية الوسطى وفلسطين عسكريا واقتصاديا ولغويا لان لهذا الموضوع مجال آخر سنتناوله في فرصة أخرى .

٢ - الدول الآرامية عامل سياسي في المشرق القديم وسورية الشمالية :

الى جانب هجمات « شعوب البحر » نحو بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، يشكل تحرك القبائل الآرامية من شمال الجزيرة العربية وبادية الشام نحو حوض الفرات وبلاد الشام العامل الاخر المهم في تاريخ المشرق العربي القديم كله منذ القرن الثالث عشر ق.م .

وترجع بدايات الموجة الآرامية الى اواسط الالف الثاني ق.م عندما اخذت قبائل بدوية آرامية تتحرك وباعداد كبيرة ، نحو حوض الفرات وارااضي الجزيرة وسهول سورية الداخلية كما فعلت موجات سابقة كالاموريين قبل ذلك بآلف عام تقريبا (٢٣٠٠ ق.م) . لكن الانتشار الآرامي كان اقوى واعم واشد رسوخا ، ومتصلا ، ولذا كانت آثاره الديموغرافية والسياسية والحضارية ، الثقافية والاقتصادية ، كبيرة جدا .

فقد اخذت الدويلات التي كانت منضوية في نطاق الامبراطورية الحثية السابقة تتساقط في ايدي بيوت حاكمة آرامية . فتكونت مملكة بيت عديني حول العاصمة تل برسيب في وادي الفرات جنوبي كركميش (جرابلس) . واقام بيت حباري ، مملكة شمال ، محل يؤوديا . اما حلب التي كانت مركز مملكة ياحان فقد حلت فيها أسرة حاكمة آرامية قوية هي بيت جوشي التي اتخذت من ارفاد قاعدة لها .

اننا لا يمكن ان نعرف كيف وقع هذا التغير بالتفصيل ، فالمصادر لا تقدم لنا سوى معلومات محدودة ومجزوءة . ولاسبيل الى تفهم الظروف التي احاطت بالاحداث التي وقعت في مطالع الالف الاول ق.م الا بالعودة الى ما كان يجري في الالف الثاني عندما كانت تتوغل القبائل البدوية العربية القديمة (الامورية والآرامية) في اراضي بلاد الشام والجزيرة وحوض الفرات متتبعة خطى تحركات اسبق بنفس الاتجاه (٧) . ويتقدم ج بوتشلاتي (١٩٦٦) بفرضية تقول ان اصول الاموريين ترجع الى بادية الشام والى منطقة جبل بشري بخاصة . وهو يربط بين حركات هذه القبائل وبين تحركات الاخلامو الآراميين، ومنهم السوتيون، في اواخر الالف الثاني، ويعتبر الاستيطان

الارامي متمما للاستيطان الاموري القديم الذي كشفت حفريات تل مردوخ (إبلا) عن مدى اهميته . ان تتبع مجريات التطورات تجعل نظرية بوتشلاتي مقبولة ولكن ينبغي ان نلاحظ انها لم تكن جديدة تماما ، الا انها تلخص المعطيات السابقة وتربط فيما بينها (٨) . فقد سبق ن. شنايدر (١٩٤٩) الى القول بوجود عناصر آرامية في عصر مبكر يرقى الى الزمن السومري الاخير ، عصر اور الثالثة (٢٠٠٠ ق.م) ودرس كوبر في كتابه الهام عن « البدو في ضوء وثائق ماري » (١٩٥٧) تحركات القبائل البدوية ومراحل استيطانها في وادي الفرات منذ مطلع الالف الثاني ق.م . وطرح ليفراني (١٩٦٢) مسألة وجود عناصر آرامية في مملكة أوجاريت . وفي ضوء هذه الدراسات كلها يمكن التأكيد دون تردد مع ا. دويون - سومر (١٩٥٣) ان بدايات التاريخ الارامي ترقى الى زمن أبعد من الزمن التي قامت فيه الدول الارامية المعروفة في مناطق كثيرة من سورية وحوض الرافدين .

وقد توصل الآراميون بالتدريج الى السيطرة على المناطق الواقعة غربي الفرات ومناطق الجزيرة الواقعة بين الخابور والفرات (آرام النهرين) ، ثم نجحوا في شق طريقهم في اتجاهات متعددة نحو بابل ونحو شمال سورية وجنوبها .

وإذا ما أردنا ان نعيد تكوين تطور الاحداث في ضوء المعلومات المتوفرة لدينا فائنا نجد مثالا على ذلك في تصورنا لتقدم القبائل الارامية من مناطق سفوح جبل بشري الذي كان يعتبر معقلها الاول باتجاه ضفاف الفرات شمالا نحو ارفاد واعزاز ، وغربا نحو حوض نهر قويق (الجاف حاليا) ، ومنطقة نوحاسه التي يرد ذكرها في المصادر المصرية وهي لعش في المصادر الآرامية (٩) . ومركزها الطبيعي والاقتصادي والحضاري مدينة حلب نفسها عاصمة يحاض الامورية وياحان الحثية (١٠) . وتوضح من طبيعة هذا التحرك واتجاهه الدوافع الاقتصادية من أجل السيطرة على طرق القوافل والتجارة ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط وما بين الاناضول والجنوب ، اي نحو بلاد جزيرة العرب ومصر ، وهي طرق تمر كلها في منطقة حلب .

ويجد الباحثون اصداء هذه الاحداث وما سببته من اضطراب لحبل الامن في الوثائق الرسمية الحثية والاشورية . فالملك الحثي حاتوشيلي الثالث (١٢٨٣ - ١٢٦٠) يعبر عن قلقه من تحركات قبائل الاخلامو التي اضرّت بسلامة المواصلات مع بلاد بابل . كما شكل هؤلاء الاخلامو انفسهم ، وهم الذين يرد ذكرهم الى جانب الآراميين في اقدم الوثائق المعروفة ، خطرا كبيرا اقضى مضاجع الآشوريين في المرحلة التي نهضوا فيها لاحتلال موقعهم القل في تاريخ المنطقة بعد الفراغ الذي خلفه الانهيار الحثي المفاجيء في مطلع القرن الثاني عشر .

وقد ظهرت أقدم إشارة تاريخية إلى الغزاة الآراميين في حوليات تكلات فلاصر الأول (أواخر القرن الثاني عشر) ملك آشور بصيغة (آرامايا) ولكن ذكرهم بقي مقرونا باسم (الأخلامو) الذين استطاعوا قبل ذلك اختراق حدود بلاد آشور وعملوا على اضطراب حبل الأمن فيها زمن الملك أريك - دين - إيلي (أواخر القرن الرابع عشر) . واهتم عدد من الباحثين في بدايات التاريخ الآرامي بمعاني التسميات القديمة التي أطلقت على أجيال الآراميين الأولى من أجل فهم الصلات فيما بينها والروابط القبلية والاجتماعية فيها . ومن بين هؤلاء الباحثين ر.ت. أو كلاغان الذي وجد في اصطلاح اخلامو معنى (صديق أو رفيق) بالعودة إلى جذر (خلم) في معاجم اللغات السامية ومنها العربية . ففي العربية، الخلم : الصديق الخالص ، والجمع اخلام ، وخلماء ، وهم الأصحاب ، والأخلام ايضا مرابض الغنم (١١) . ولكن س.موسكاتي ينتقد هذه النظرية واساسها اللغوي وينتهي إلى أن اخلامو علم على قبيلة أو مجموعة من القبائل البدوية المتحالفة .

أما إذا اعتبرنا أن لاصطلاح اخلامو صلة بالجذر (حلم) فاصل مدلول الكلمة يمكن أن يشير عندئذ إلى معان أخرى نجدها في المعجم الآرامي والعبري ، مثل القوة والبأس (١٢) ، وما يضادها في العربية مثل الأناة والعقل ، فأولو الأحلام والنهى هم ذوو الألباب والعقول ، وعند ابن سيدة ، الأحلام : الأجسام (١٣) . فأخلامو أرمايا يمكن أن تعني إذن : أحلاف الآراميين ، أو شيوخ الآراميين وحلمائهم . ومهما يكن ، فقد ورد ذكر تغفل عناصر من الأخلامو إلى بابل في أواسط الألف الثاني حتى وصل بعضهم إلى شواطئ شرق الجزيرة العربية (ديلمون) وإلى مناطق من الفرات والجزيرة كما يؤكد جارييلي . وقد بقي الاصطلاح المزدوج اخلامو - أرمايا واردا في المصادر الآشورية في عصر آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) . إلى أن تغلب الاصطلاح أرمايا الدال على الآراميين على الاصطلاح الآخر اخلامو ، ولكن هذا الاسم لم يزل من الاستخدام حتى عصر سنحريب (القرن السابع ق.م) . فاضحى كلا الاصطلاحين مترادفين ، ولكن لا يوجد في المصادر ما يمكن أن يثبت أن الأمر كان كذلك في القرنين الثاني عشر والحادي عشر .

وكما أثارت كلمة اخلامو اهتمام الباحثين اللغويين والمؤرخين ، فإن اسم الآراميين يرقى إلى زمن أبعد بكثير من الزمن الذي شغل فيه الآراميون دورا خطيرا في تاريخ المنطقة (خلال الألف الأول ق.م) . فقد قيل أن أقدم إشارة إلى اسم آرام تعود إلى القرن الثالث والعشرين ق.م ، في وثيقة يعلن فيها نرام - سين الملك الأكادي العظيم انتصاره على هرشميتكي (هرشمه = هرثمة ؟) وهو سيد آرام وعم . ولا أدري لماذا تردد الاستاذ فرانسوا توروب - دانجان في قبول الصلة بين اسم آرام في هذا النص

القديم وبين الآراميين (١٤) ، ما دام هذا الاسم يرتبط باسم قبائل عمّ . وهي قبائل عربية كثيرا ما أثير إليها في عين المرحلة التاريخية في المصادر الفرعونية المصرية عندما كانت تذكر قبائل عمّ في بلاد الشام وسيناء والصحراء الشرقية (١٥) . وهي قبائل كانت بصورة ما تمت بصلات القربى الى أجيال الاموريين أو العموريين .

وبالإضافة الى ذلك يرد ذكر كلمة آرام (آرام - كي) في وثائق رافدية تعود الى عصر اور الثالثة (اواخر الالف الثالث) ، وفي وثائق تجارية تعود الى حوالي ٢٠٠٠ ق.م كما يرد آرام في اسم علم في نص من نصوص ماري من عصر زمري - ليم ملك ماري (١٦) .

ومهما يكن ، فان هذه المؤشرات جميعا ان لم تؤكد ان الاخلامو هم الاجيال الاقدم من الآراميين ، فان المصادر الاشورية ربطت ما بين الاخلامو والآراميين لوجود تشابه اجتماعي وثقافي ما بين هؤلاء جميعا ، كما لاحظ لأول مرة برنكمان (١٧) . وإننا نستطيع ان نؤكد بدورنا انه يصعب علينا الفصل فيما بين هذه الشعوب البدوية العربية التي كانت تمت جميعا الى ارومة واحدة وترجع الى اصول واحدة مهما تعددت الاسماء التي اطلقت عليها من قبل الحضرة المقيمين ، سواء اكانت من الاموريين (الالف الثالث) ، ام من الاخلامو والآراميين (الالف الثاني ق.م) . وقد تفهم هذه الحقيقة الاستاذ كوبر بوضوح وشرحها فيما يلي : « كانت حركة البدو نحو مناطق العمران والحضر متصلة ومستمرة . وانه لمن الصعب التمييز بين هذه العشائر او تلك لانها تنحدر من اصل واحد وتتكلم لهجات متقاربة . اما القبيلة الاكثر عددا والاشد بأسا فهي التي كانت تفرض اسمها دون غيرها . وربما يكون ذلك لمجرد الصدفة ، او لما ينشأ من علاقات وثيقة بين بعض القبائل البدوية وبين سكان المدن والحضر الذين كانوا يتعلمون معها » (١٨) .

وهكذا يمكن ان نقول ان الانتشار الآرامي الواسع تكرر على الارض التي انتشر عليها الاموريون قبل ذلك باكثر من الف عام . ولكن نجاح الانتشار الآرامي كان حاسما ، لما تميز به من كثافة وقوة وبراعة في اختيار نقاط الارتكاز والاستقرار ، وبخاصة في المنطقة التي تعتبر الجسر الاستراتيجي الممتاز ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط ، حيث فرض الآراميون اسمهم على طريق آرام او حقل آرام (فدآن آرام) ، وعلى ارض الجزيرة التي عرفت باسم آرام النهرين (آرام نهرايم) . ولم يقتصر انتشار الآراميين على شمال سورية ووادي الرافدين فقد امتد كما هو معروف الى كل مناطق سورية الداخلية والوسطى وبخاصة مناطق البقاع ودمشق والجولان وشمال وادي الاردن .

كان على حركة الانتشار الآرامي هذه ان تواجه في آن واحد تحديين اثنين . فمن الشمال والشرق كانت مملكة اشور ، التي تكونت نواتها الاولى في منطقة تقع عند التقاء نهر الزاب بنهر دجلة ، هي التي وقفت في وجه التوسع الآرامي وعملت على احتوائه في صراع طويل استمر عدة قرون . اما في الجنوب فقد اصطدم الانتشار الآرامي بحركات الشعوب والقبائل المتنازعة على الاستيطان في ارض كنعان ووادي الاردن ، واهم هذه الحركات هي التي ادت الى استيطان قبائل عبرية في بعض مناطق من كنعان وتكوين مملكة على انقاض الممالك الكنعانية المتداعية بعد صراع طويل كان للحلف الآرامي بزعامة مملكة آرام دمشق الدور الاكثر أهمية فيه من القرن العاشر الى القرن الثامن ٧٣٢ ق.م .

لم يستطع الآراميون ان يحققوا انتصارا حاسما على آشور وان استطاعوا ان يشككوا خطرا مهددا لها في بعض المراحل ، كما حدث في القرن الثاني عشر قبل ان ينجح تكلات فلاصر الاول في دحرهم الى ما وراء الفرات . كما استطاعوا ان يمنعوا شلمنصر الثالث في معركة قرقر على العاصي (القرن التاسع) من تحقيق ما كان يرمي اليه من حملته التي قادها بنفسه واضطر الى التوقف عند ميدان المعركة ثم الى الانسحاب . ولكن الدول الآرامية والدول الاخرى في كنعان وفلسطين تداعت كلها امام الحملات العسكرية المتعاقبة للفتاح الاشوري تكلات فلاصر الثالث وخلفائه (القرن الثامن) ، الذي تمكن من القضاء على اكبر دولتين آراميتين : بيت اجوشي في ٧٤٠ ، ودمشق في ٧٣٢ ق.م .

ولئن لم ينجح الآراميون سياسيا في تكوين وحدة سياسية فانهم نجحوا في تكوين دول وممالك قامت بدور هام سياسيا واقتصاديا خلال النصف الاول من الالف الاول ق.م . وتمكنت في بعض الفترات وفي ظروف حرجية مرت بها المنطقة من تكوين احلاف آرامية قوية بزت في اهميتها العسكرية والسياسية الدولة الاشورية نفسها ، كما فعلت ارفاد (منطقة حلب) ودمشق .

اما الاثر الاكبر للدور الآرامي في تاريخ المنطقة فهو دون شك النجاح في نشر اللغة الآرامية التي اصبحت لغة متداولة ومعروفة في كل وادي الرافدين وبلاد الشام منذ القرن التاسع ، وازدهرت لغة رسمية ثانية الى جانب الاشورية التي كانت تكتب بالمسمارية في الديوان الاشوري نفسه (١٩) ، الى حد ان الدولة الاشورية نفسها اصبحت سكانيا وثقافيا بل واداريا بعد تكلات فلاصر الثالث دولة مزدوجة الجنسية ، اشورية - آرامية ، كما يؤكد دوران ولومير (٢٠) .



لنحاول بعد هذه النظرة المجملية الى الدور التاريخي للآراميين في سورية الشمالية، ان نوضح بشيء من التفصيل أهمية هذه الدول الآرامية سياسيا في المدة الواقعة ما بين القرنين الحادي عشر والثامن ق.م.

لقد ادى احتلال الآراميين للنقاط الاستراتيجية الهامة على طرق المواصلات في غربي الفرات ، أي بلاد أمورو وفي سورية الشمالية ، الى تمكينهم من بسط سيادتهم على المنطقة بصفة مطلقة . فقد استقروا بقوة على ضفتي الفرات عند المنعطف الكبير حيث قامت مملكة بيت عديني ، وفي وادي الخابور حيث قامت مملكة بيت بخياني على انقاض غوزانا الحثية (تل خلف) . ولم يكن نجاح التغلغل الآرامي في الفرات الاوسط أقل أهمية مما حدث في وادي الفرات الاعلى . فقد اضحى الوزن الديموغرافي والسياسي للآراميين حول بابل من القوة لدرجة انه مكن زعيما آراميا من احتلال عرش بابل وهو (ادد - ابال - ادينا) ، (١٠٦٧ - ١٠٤٦) (٢١) ، بينما كانت قبائل آرامية اخرى تستوطن وتستقر على نطاق واسع في منطقة غوطة دمشق والبقاع ووادي الاردن الاعلى وبخاصة في جبال الجليل وسفوح حرمون وهضبة الجولان وبدأت تتكون حول آرام دمشق قوة آرامية عسكرية وسياسية استطاعت ان توقف التوسع العبراني في بداية القرن التاسع وان تمد نفوذ الدولة الآرامية الى حدود مملكة بيت اجوشي الآرامية الاخرى في الشمال ، كما يستدل من نصيب برهدد المكرس للقرت والذي عثر عليه في موقع البريج (٢٢) . واننا يمكن ان نجد من المؤشرات ما يؤكد وجود شعور بالقرب والانتماء القبلي المشترك ما بين هذه الدول الآرامية . أو لم يتوجه ملك صوبة (البقاع) الى مناطق الفرات مستنجدا ، ساعيا الى طلب العون والايدي من اجل التصدي لحملات وهجمات الملك داود . ولكن ألم ينشب ايضا وبالمقابل ذلك الصراع المرير ما بين ملك آرام دمشق وحلفائه من آرام والساحل الفينيقي من جهة ، وبين زكر ملك حماة ولعش من جهة اخرى ، بسبب النزاع على زعامة العالم الآرامي ، وهو الصراع الذي خلد ذكره في وثيقة مشهورة من أواخر القرن التاسع (٢٣) . كان برجوش ملك أرفاد الحليف الاول لملك دمشق برهدد بن حزئيل في هذا الصراع كما وقف الى جانبه فيه ملك قوة (كيليكية) والعمق وجرجم وشمال وميليد (ملاطية) وآخرون . ولم ينته الصراع الداخلي الى نتيجة حاسمة لانه كان على الحلف الآرامي ان يواجه خطرا اكبر هو تحرك الملك الاشوري ادد نيراري الثالث نحو سورية عبر الفرات في ٨٠٥ ق.م .

ان موقع الملك برجوش في هذا التحالف الآرامي السوري الكبير يبرز لنا أهمية مكانة مملكة أرفاد في شمال سورية ، بمقابل الأهمية التي تميزت بها مملكة آرام دمشق في الوسط والجنوب . ولربما عرفت دمشق بدورها هذا للدور الذي سجل لها في

الاسفار التاريخية من العهد القديم . ولكن الدور الذي قامت به ارفاد وحلب في الشمال لم يكن اقل أهمية ، كما تدل على ذلك الوثائق الآرامية على انصاب سفيرة (القرن الثامن) . وتدل الوثائق التي تبرز فيها مملكة ارفاد طرفا في حلف سياسي مع برجاية ملك « كتك » ضد طرف ثالث على ان لارفاد تاريخا طويلا يرقى الى ما قبل القرن الثامن . ويمكن ان يعتبر وريثا لدور مملكة حلب الامورية وباحان الحثية (٢٤) .

لقد فرض الآراميون انفسهم ، على الرغم من انقسامهم ، عاملا رئيسيا في الصراع السياسي - العسكري الطويل الذي امتد قرونا (القرن الثاني عشر - القرن الثامن) ، وقامت فيه دمشق بزعامة ملوكها ، وبخاصة برهدد وحزائيل ، وارفاد بزعامة برجوش وامتع إل ، بدور بارز كان من الممكن ان يؤدي الى قيام اتحاد آرامي حقيقي يضم آرام العليا وآرام السفلى . اي آرام الشمالية وآرام الجنوبية . ولكن الجهود الآرامية والسياسية آلت اخيرا الى الاخفاق واحبطت كل محاولات الاتحاد امام هجمات الآشوريين المنهكة .

ولكن رغم هذا الاخفاق سياسيا فان الآراميين برهنوا ، مع ذلك ، على قدراتهم المبدعة وعلى فعالية امكاناتهم على الصعيد الاقتصادي واللغوي .

٣ - الآراميون عامل اقتصادي في المنطقة :

كان لظهور الآراميين على مسرح المشرق العربي القديم نتائج هامة على الوضع الاقتصادي للمنطقة التي كانت تمر آنذاك في مرحلة تغير جذري . فبعد فترة من الاضطراب والعنف ساد المنطقة جو من الاستقرار ساعد على استرداد الفعاليات الاقتصادية نشاطها السابق ، في وقت تميز بتطور تقني هام في تاريخ الحضارة العام وهو التوسع في استخدام الحديد في الصناعة وتقلص صناعة البرونز ، مما كان مؤشرا على دخول الشرق الأدنى في عصر الحديد (اواخر الالف الثاني ق.م) . ورافق ذلك تطور في المواصلات كانت له انعكاساته على الصعيد العسكري أيضا ، وتميز كذلك باستخدام الخيل على نطاق واسع وما يتصل بذلك من تطور صنع العربات وكل ما يتعلق بها من التقنيات بالإضافة الى ازدياد أهمية حرفة سائس الخيل والفرسان (٢٥) . وفي مثل هذه الظروف التاريخية التي تعتبر من اهم مراحل تطور تاريخ المنطقة كان الآراميون الوافدون من البوادي يجدون الابواب مفتوحة امامهم على مصاريعها للعمل في الحرف والمهن وفي التجارة والجيش .

ومن المعروف ان لسورية تاريخا عريقا في التجارة والاقتصاد يرقى الى ما قبل العصر الآرامي بقرون . ولمنطقة حلب مكانة خاصة في هذا المضمار بكونها الجسر الطبيعي

للاتصال ما بين وادي الفرات والحوض الشرقي للمتوسط . فكل الطرق في سورية الشمالية تؤدي عبر طرق الامانوس الى آسية الصغرى او عبر حوض العمق الى موانئ البحر المتوسط ، الى اوجاريت وارواد وجبيل وغيرها ، ومنها موانئ كانت لها فعالية تجارية مرموقة منذ عصر ابلا في الالف الثالث ومنذ تاسيس اقدم العلاقات التجارية عن طريق البحر ما بين مصر والساحل الكنعاني - الفينيقي (٢٦) . وقد تطورت هذه الفعالية واحتفظت بعض الموانئ بأهميتها ، او ظهرت موانئ اخرى خلال الالف الاول ، مثل عرقة وسيميرا والمينا الواقعة مقابل اوجاريت .

وقد استطاع الآراميون الذين اضحوا سادة سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م . ان يفرضوا لانفسهم مركزا متفوقا على الصعيد الاقتصادي والتجاري ، خاصة في منطقة المشرق القديم ، بعد ان وطدوا اقدامهم عند مفارق الطرق وعند المحطات الاساسية لطرق المواصلات التقليدية وبخاصة ما بين الاناضول ومناطق آسية الصغرى من جهة وسورية والرافدين من جهة اخرى . وقد وضع اهمية هذا الدور كل من **ج ماكوين و ج ملارت** في دراستهما القيمة (٢٧) . وقد ابرزا فيها مقدار ما تحقق في سورية من ثراء وغنى وعمران مما جعلها مطمعا للغزاة والطامعين . وقد كانت مملكة اشور على راس هذه القوى المجاورة الطامعة بثروات سورية ، ولم تكن لترضى ان تفيد منها ببناء علاقات تجارية منظمة ، فقد بنت سياستها الاستراتيجية تجاه سورية المنقسمة والفنية على اساس من التوسع والتفوق بالاستناد الى الاداة العسكرية الساحقة التي كان يتمتع بها الجيش الاشوري . وقد اوضحت هذه السياسة التوسعية الاشورية تجاه كل بلاد امورو وآرام الواقعة غربي الفرات وحتى البحر المتوسط سياسة تقليدية ما بين القرنين التاسع والسادس ، اي منذ اشور ناصر پال وحتى سقوط اشور على ايدي التحالف الميدي - الكلداني ، وكان هدفها الاساسي فرض السيطرة المباشرة على اقتصاد البلاد واعتباره مصدرا اساسيا لحاجات الحياة اليومية في المدن الاشورية عامة وفي البلاط الملكي وقصور الطبقة الحاكمة خاصة . وقد ورث هذه السياسة فيما بعد ملوك بابل الكلدانيون ، ثم الملوك الفرس الاخمينيون . ومن الجدير بالذكر ان لاشور تقاليد عريقة في بناء سياستها الاقتصادية على اساس الاستغلال في مناطق خارجية وبعيدة ، كما تشهد بذلك دراسة فعالية المستعمرات الاشورية في كابا دوكية منذ اوائل الالف الثاني ق.م ، وقد كشف عن بنيات هذه السياسة بوضوح الاستاذ **ب. جاريلى** في دراسته الرائعة عن الاشوريين في كابادوكية (٢٨) .

وبعد ان تحقق لاشور السيطرة على معابر الفرات الرئيسية اثر نزاع طويل منذ عصر تكلات فلاصر الاول (اواخر القرن الثاني عشر) الى عصر اشور ناصر پال الثاني

(اوائل القرن التاسع) ، وبعد ان اوضحت الضفة اليمنى للنهر بيد اشور بعد انهيار مملكة بيت عديني الارامية ، دار الصراع حول مناطق سورية الشمالية والمعابر والطرق المؤدية الى شواطئ المتوسط . في تلك المرحلة كانت مصر بعيدة تماما عن الساحة لما كان يكتنفها من ضعف وانقسامات داخلية وصراع على السلطة المركزية بين الاسرات الحاكمة في وادي النيل (الاسرات ٢١ - ٢٤) . اما آسية الصغرى فلم تظهر فيها قوة كبرى هامة منذ سقوط الامبراطورية الحثية في القرن الثاني عشر حتى ظهور الفريجيين في غرب آسية الصغرى في القرن الثامن ق.م . ولذلك فقد بقيت الساحة خالية تقريبا امام التحركات العسكرية الاشورية التي اوضحت تحركات موسمية للغزو وجمع الغنائم والمحاصيل وفرض الغرامات كلما كان الطرف مناسبا وكلما ازداد الانقسام في العالم الارامي . ولم تتدخل لمنافسة اشور سوى دولة واحدة هي مملكة اورارتو التي برزت في مرحلة محدودة خلال النصف الاول من القرن الثامن ، عندما توسعت هذه الدولة من مركزها الاساسي حول بحيرة وان (ارمينية) نحو الغرب وسفوح طوروس الجنوبية باتجاه الممالك الارامية الشمالية وبخاصة مملكة بيت اجوشي في ارفاد . ومن النافل ان تؤكد ان الدافع الاساسي لهذا التدخل هو سعي كل من اورارتو واشور ، وهما كلاتهما دولتان داخليتان ، الى الوصول الى البحر المتوسط .

ومن اهم الدراسات الحديثة حول السياسة الاقتصادية الاشورية دراسة الباحثة السوفياتية ن.ب. يانكوفسكا (٢٩) التي وجهت الانتباه بصفة خاصة الى تنوع العلاقات ما بين اشور والاقطار الاخرى ، ومنها بلاد آرام ، بصورة تتناسب مع اختلاف شروط الانتاج في كل منها وحاجة الدولة الاشورية لهذا الانتاج . ويوضح لنا اختلاف المصطلحات المستخدمة في اختلاف نوعية هذه العلاقات وقيمها القانونية . فهناك الضريبة التي تكون بالواقع غرامة مفروضة (بالاكادية : ييلتو) ، والتقدمات او الهبات التي يتوجب على المغلوبين تقديمها للملك ورجاله من القادة والحكام (وهي بالاكادية **مانداتو** ، من الفعل نادانو : اعطى . وفي العربية الندى الكرم والعطاء) . وهناك الغنائم التي تعقب الحروب مباشرة . تلاحظ يانكوفسكا ان التشابه واضح في المواد التي يرد ذكرها سواء في قوائم الغرامات ام في قوائم الغنائم التي يحرزها الجيش الاشوري في اعقاب تحركاته . فمهما تعددت الصيغ القانونية او الرسمية فان ما كان يهم الدولة الاشورية هو الحصول على الانتاج المطلوب من اقتصاد المناطق المفتوحة ، او المغلوبة . ولا تتيح دراسة قوائم الغرامات والغنائم والاسلاب معرفة مصدر المواد التي تسم الاستيلاء او الحصول عليها ان كانت من صنع محلي في سورية او مستوردة . اما المعدن المستخدم للدفع او لتسديد القيمة فهو الفضة على الاغلب والقصدير والنحاس . ولم يستخدم الذهب كمادة نقدية الا في زمن متأخر وعلى الاغلب في القرن السابع بعد الاقتراب من مصر وازدياد التعامل معها .

{ - اقتصاد الدول الآرامية ، « ارفاد » نموذجا :

بعد هذه النظرة الشاملة على دور الاقتصاد السوري في العصر الآرامي القديم وأهميته في اقتصاد الدولة الآشورية وسياستها التوسعية ، يمكن ان نتعرف على نموذج لبنية هذا الاقتصاد الآرامي ومقوماته من خلال العلاقة ما بين دولة آرامية هامة هي مملكة ارباد (ارفاد) وبين مملكة آشور . وتستند هذه الدراسة الى ما تقدمه لنا معطيات التنقيبات الأثرية في موقع تل رفاد (تل رفعت) في شمال سورية، بالإضافة الى ما يستخلص من الحوليات الملكية الآشورية التي تعود الى الفترة الواقعة في القرنين التاسع والثامن ق.م .

فقد اظهرت نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثة البريطانية بقيادة سيتون وليامس وجود بقايا اثار من أوان نحاسية يرجح ان يكون مصدرها من اورارتو . وقد ربطت سيتون وليامس بين وجود اشياء من هذا النوع في تلك الفترة وبين الظروف الدولية التي اتاحت الفرصة في فترة ما لنمو العلاقات السياسية والاقتصادية بين مملكة اورارتو على عهد ملكها ساردور الثالث وبين مملكة ارفاد على عهد ملكها متع إل خلال القرن الثامن (٢٠) . على ان مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الطرفين ما هي الا مرحلة في تاريخ العلاقات التي لم تنقطع منذ اقدم العصور بين اقطار الاناضول وما وراء طوروس وبين دول الجزيرة وسورية الشمالية منذ عصر تل حلف في الالف الخامس ق.م .

وقد عثر في هذه السوية من سويات التنقيب (خلال موسم ١٩٦٠) ، على بقايا قطع من مرآة على قاعدة من الجص . واشياء مصنوعة من الحديد وسكين بقرابها . وكسرة من آنية غرانيتية عليها كتابة آرامية ، واشياء اخرى برونزية واسلحة من البرونز والحديد ولكنها بحالة سيئة . ويعتبر وجود هذه الاثار المعدنية دليلا ماديا على المرحلة الانتقالية التي كان يمر بها التطور التقني في المنطقة من العصر البرونزي الاخير الى عصر الحديد .

أما الفخار الذي وجد في هذه السوية فلا يزيد على كسرات صغيرة جدا من النوع الذي عثر عليه في موقع المينا (السوية ٨) ومجدو (السوية ٥-٤) وفي حمص . بالإضافة الى ذلك عثر على لقي واشياء وكسرات فخارية قبرصية واغريقية تعود الى القرنين الثامن والسابع ق.م ، وجد اكثرها في غرفة من السوية الثانية (ب) ، بالإضافة الى بعض الحلي وادوات الزينة . وتدل هذه المؤشرات جميعا على وجود علاقات تجارية واسعة مع مناطق داخلية من آسية الصغرى ومع مناطق واسعة من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما يؤكد على الأهمية التجارية والاقتصادية لموقع ارفاد في شمال سورية في الفترة التي ندرسها (٢١) .

أما الوثائق التاريخية الآشورية فإنها تقدم لنا معلومات أغنى وأكثر أهمية عن القدرة الاقتصادية لمملكة أرفاد الآرامية خلال مراحل التوسع الآشوري نحو أمورو ، أي غربي الفرات ، وهو الاسم الذي كان يطلق على معظم بلاد الشام . وأنا سنحاول أن نقدم صورة عن **القدرة الاقتصادية** ، لهذه الدولة الآرامية الهامة ولبعض الدول المجاورة المعاصرة لها ، من خلال الحوليات الآشورية ، ونعتمد إلى حد كبير على الدراسة القيمة التي قامت بها الباحثة ن.ب. ياتكوفسكا ، والتي سبقت الإشارة إليها .

تشير حوليات الملك الآشوري **أشور ناصر بال الثاني** (٨٦٣ - ٨٥٩) إلى الانتصارات التي حققها الملك وما ترتب عليها من نتائج . فقد أرغمت مملكة بيت أجوشي على دفع مبالغ من الذهب والفضة والقصدير والنحاس ، وعلى تقديم أعداد من الماشية وبخاصة من الأغنام والجلود ، ومن الملابس الممتازة المصنوعة من الكتان الملون والمصبوغ واللمع ، ومن الأقمشة (٢٢) . وقد ذكر في وثائق أخرى أن كركميش وبيت عديني قدمت للملك أشياء ثمينة مصنوعة من الذهب والفضة .

أما في زمن **شلمنصر الثالث** (٨٥٨ - ٨٢٤) فقد كان على بيت أجوشي بعد هزيمتها مرة أخرى أمام آشور أن تدفع غرامة مقدارها ١.٠ مينا من الذهب (= ٥ كغ تقريباً) و ٦ و زئات من الفضة (= ١٨٠ كغ) . وبالإضافة إلى ذلك مواداً عينية أخرى من الأغنام والجلود والملابس والأقمشة مما اشتهرت به مناطق سورية الشمالية ، بالإضافة إلى ذكر كميات من الخمر . ويتباهى العاهل الآشوري بأنه تلقى من آرامي ملك بيت أجوشي سريراً نفيساً مرصعاً بالذهب والفضة (٢٣) .

إن أية موازنة تجري بين المبالغ التي كان على أرفاد أن تدفعها للفاتح الآشوري وبين ما كان يفرض على جيرانها ، تظهر لنا أن أرفاد لم تكن تعتبر في المرتبة الأولى من حيث الثروة المعدنية . وفي الدراسات المتتابعة التي قام بها ب. مايسنر حول مصادر الفضة عند الآشوريين منذ مطلع هذا القرن (عام ١٩١٢) (٢٤) ، وتابعها بعده آخرون مثل جارييلي (١٩٥٩) ولارجمان (١٩٦٣) وغيرهما (٢٥) ، ما يؤكد على أهمية مناطق الأناضول كمصدر لأهم المعادن التي كانت يحتاج إليها الاقتصاد الآشوري . وكانت حطينا في وادي نهر عفرين أكثر قرباً من مناجم التعدين في الأناضول ويبدو أنها كانت أكبر ثروة من أرفاد ، كما يستدل من مقادير القرامات الباهظة التي كانت تفرض عليها حسب الوثائق الآشورية . ولكن ينبغي أن نشير إلى أن الفاتحين الآشوريين استطاعوا أن يستولوا على أكبر ما تم تحصيله من مقادير من الذهب من مدينة صور أعظم موانئ المتوسط في عصرها . واضطرت دمشق عاصمة آرام أن تدفع كميات هامة ولكن أقل مما فرض على صور . أما الدول التي كانت تملك ثروات من الفضة فكانت دمشق .

وكرميش تأتي في مقدمتها ، وتليها مصيصير في اورارتو وطابال في بلاد الاناضول نفسها . وهاتان المنطقتان الاخيرتان من اغنى المناطق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة ، في ذلك العصر ، وهذا مما جعلهما هدفا دائما للحملات الاشورية وللتدخل الموسمي للجيش الاشوري .

كانت الفضة تأتي في المرتبة الاولى بين المعادن المرغوبة في التبادل التجاري قبل ان تتخلى عن دورها الممتاز للذهب (٣٦) خلال الالف الاول ق.م . وبعد هذين المعدنين الثمينين ياتي القصدير في المرتبة الثالثة من حيث الاهمية ، وكان يطلب الى جانتي النحاس لتصنيع البرونز . وقد وجدت سبائك نحاسية وقصدير بكميات هامة في المراكز والمدن والموانئ الرئيسية في كل الشرق الادنى القديم ، وبخاصة في موانئ البحر المتوسط وفي كرميش وارفاد ، كما يتضح من دراسة الحوليات التاريخية من عصري سلطنة الثالث (القرن التاسع) وتكلات بلاصر الثالث (القرن الثامن) (٣٧) .

وقد تمكن الاشوريون خلال حملاتهم على سورية من الحصول على النحاس والقصدير من المناطق التالية : دمشق التي دفعت غرامة للملك ادد نيراري الثالث (٣٨) (حوالي ٨٠٥ ق.م) مقدارها (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف وزنة (= ٩٠ طنا) من النحاس . بينما تلقى اسلافه كميات هامة من القصدير والنحاس من الموانئ الساحلية الفينيقية ومن كرميش وبيت عديني على الفرات ومن حطينا (عنقي) وهي منطقة العمق (٣٩) .

وقد افصح الحديد في المرحلة التي ندرسها المعدن الاستراتيجي الاكثر اهمية في ذلك العصر ، ومع ذلك كان ذكره في المصادر الاشورية اقل من ذكر المعادن الاخرى التي اشرنا اليها . وكان يستحصل عليه ويستورد من مناطق مختلفة من اسية الصغرى ويصنع على الاغلب في الموانئ الكنعانية - الفينيقية في سورية ، ثم يجري تصديره الى بلاد الرافدين . وتأتي دمشق في المرتبة الاولى من حيث الكميات التي قدمتها لادد نيراري الثالث تليها حطينا وكرميش . وقد ذكر ان دمشق قدمت (٥٠٠٠) خمسة الاف وزنة (= ١٥٠ طنا) من الحديد ، ولكن مدن الساحل قدمت كميات اكبر لجيش تكلات بلاصر الثالث (٤٠) . فاستنادا الى هذه المعلومات التي حملتها لنا الوثائق الرسمية من الديوان الاشوري يمكن ان نستنتج ان ارام دمشق كانت اكثر الدول الارامية غنى بالنحاس والحديد لان الطريق التجارية الرئيسية من الشمال الى الجنوب كانت تمر بدمشق حاملة بضائع وموارد اسية الصغرى عن طريق عملاء تجاريين من حطينا وبيت اجوشي كانوا يتعاملون مع ارام دمشق اكبر دول العالم الارامي واكثرها اهمية سياسيا واقتصاديا .

وكان النسيج الذي تنتجه المدن السورية مرغوبا في اشور وغيرها ، وكانت له شهرة قديمة ومعروفة منذ قرون بعيدة . وقد فرض على ارفساد ان تقدم للجيش الاشوري كميات كبيرة من الملابس (٤١) . وفضل انواع القماش الارجماني (بالاكادية ارجماتو) والقماش المصبوغ بالازرق والبنفسجي المعروف باسم (تاكتو) وهي من منتجات المدن الساحلية الفينيقية .

ولا ننسى قيمة الاخشاب وتجاريتها في اقتصاد سورية القديم لما لها من أهمية في البناء ، بناء المعابد والقصور وعمارة المراكب والسفن والاثاث والادوات . وكانت الاخشاب تستورد من سورية الى اشور وبابل بصورة منظمة واما مصادرها فهي جبال الاماثوس ولبنان . وكانت تعد البعثات للحصول على الاخشاب تجاريا او بطريق الحرب كغنائم او غرامات تدفع سنويا .

وماتزال نتائج التنقيبات الاثرية في ارفاد تزونا بمعلومات اضافية عن أهمية الموقع في العصر الارامي القديم وبعده ، كما اكدت ذلك الحفريات التي اجرتها بعثة جامعة لندن عام ١٩٧٧ . وهناك قطعة من رقيم مسماري وجد في حصن شلمناصر في موقع نمرود في شمال العراق يفيدنا عن كمية من الاقواس (٧٨٤ قوسا) كان يتوجب ارسالها من ارفساد الى مخازن الاسلحة الاشورية . ولا نعرف بالضبط تاريخ هذه الوثيقة ، ولكن لابد ان ترجع الى مرحلة اسبق من ضم ارفاد الى المملكة الاشورية في ٧٤ ق.م . وقد نالت هذه الوثيقة حظا كبيرا من الاهتمام ودرسها كل من ماللوان ، واوانس (٤٢) . وقد بقيت ارفاد تحتفظ بدورها بعد ان اضحت تدار من قبل الادارة الاشورية . ففي حوليات الملك اسر حدون (٦٨٠ - ٦٦٩) نجد ما يفيد بأن اشور استجلبت من ارفاد الخيول والبغال .

ه - خاتمة :

قبل نهاية هذا البحث يمكن ان نستنتج ان ارباد (ارفاد) كانت تمثل في سورية الشمالية أهمية استراتيجية فوق أهميتها الاقتصادية . كانت الواجهة التي تلقت الضربات الاشورية بعد انتقال اشور الى ضفة الفرات اليمنى . لم يؤد سقوط ارفاد الى سقوط الدويلات السورية تباعا امام الزحف الاشوري ؟ ان ملاحظة الشواهد السابقة التي عرضناها في حديثنا عن الاقتصاد الارامي وأهميته بالنسبة لاقتصاد اشور تؤكد لنا مرة اخرى ان السياسية الاستراتيجية التي رسم خطوطها ونفذها الملك تكلات بلاصر الثالث لتحويل الدويلات السورية الارامية والفينيقية الى ولايات اشورية تدار من قبل الحكومة المركزية او باشراف ممثلها المعينين ، لم يكن هدفها حماية أمن

اشور وحسب ، ولكن بالدرجة الاولى وضع اليد مباشرة على طرق المواصلات الدولية التي تعبر اراضي سورية الشمالية ، ووضع المدن الرئيسية وهي مراكز التجارة والاقتصاد في سورية في خدمة الدولة الامبراطورية الاشورية . وهذا مايفسر لنا كيف استخدمت الثروات الضخمة التي رفدت بها التجارة الارامية ، عبر الطرق ما بين الاناضول والمتوسط ومصر والجزيرة العربية، خزائن العواصم الاشورية . وانه على الاخص في هذا العصر بالذات ،اي في النصف الثاني من القرن الثامن وفي خلال القرن السابع بلغت اشور اقصى درجات اتساعها واعلى درجات الثراء وشادت ارفع البنيان وعمرت الحصون والقصور في كلح ونيوى وغيرهما .

لقد اتجهت حركة التوسع الاشوري في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ المنطقة باتجاهين : **الاول** نحو الغرب الى بوابات التجارة البحرية على البحر المتوسط اي نحو الموانئ الفنية العامرة : ارواد وعرقه وسيميرا وجبيل وصور ، اما الثاني فكان نحو **الجنوب**، اي الى بابل وبلاد البحر (سومر القديمة) لانتزاع التجارة من ايدي البابليين الكلدانيين والاراميين في تلك المنطقة من اجل الاشراف على التجارة مع مناطق الخليج: ديلمون وماجان (اي بلاد البحرين وعمان) .

وكان هؤلاء الاخلامو والاراميون القدماء ، الذين شكلوا في السابق مصدر ازعاج لاية سلطة مركزية في بلاد الرافدين ، هم العامل الاقتصادي الاهم في المنطقة ، لما كانوا يقومون بهمن دور الوساطة التجارية بين البلاد الداخلية في حوض الفرات والجزيرة وحتى الى مصر من جهة ، وبين الهند البعيدة كانوا يستوردون الحجارة الكريمة والتبر والذهب والخشب النفيس والعاج المرغوب من اجل الزينة وصنع اثاث القصور . وهكذا اضحت تلك الاقوام ، مصدر الاضطراب في اواخر الالف الثاني ق . م ، هي عامل الازدهار والاستقرار في الالف الاول ، وهي التي ، بعد ان فقدت استقلال دولها، كان عليها ان تستمر في تادية دورها الحضاري قرونا طويلة في ميداني الاقتصاد واللغة حتى جعل الاراميون من اللغة الارامية لغة رسمية الى جانب لغات الفاتحين من الاشوريين والكلدانيين والفرس . وهذا الدور الحضاري يجعل للاراميين في الالف الاول ق . م دورا في الدرجة الاولى من الاهمية ، مهد السبيل بما تركه من اثر ثقافي ارامي - سرياني لتجدد الحضارة العربية وانبعاث رسالتها .

- (١) من أجل تفصيلات أحداث هذه المرحلة : T. Bossert, Anatolien (1942) P. 67;
Seton - lloyd, Early Anatolia (1956) P. 159;
J. Howinktcate, Kleinasien - Zwischen Hethitern u. Persern, Fiseher
Weltgeschichte 4 (1967) , P . 112.
- (٢) ورد اسم المكان قو من ديار بكر شرقي جزيرة العرب . وقو جبل عند الهمداني في « صفة جزيرة
العرب » ، وذكر على أنه من منازل اباد . و « ذات القوة » موضع اليمن . فربما حملت الهجرات
العربية هذا الاسم الى اقصى الشمال .
- (٣) انظر : A. Goetze, Kizzuwatna and The Problem of Hittite Geography
New - Haven, Yale Univ . Press (1919) P. 4-5, R. Gurney, The Hittites,
(Penguin Books) , (1967) , P. 40 .
- (٤) انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة « شمل » .
- (٥) A. Alt, Das Grossreich Davids, (Kleine Schriften II), (1955) P66-75,
A. Malamat, The Kingdom of David and Solomo in its Contact With
Egypt and Aram Nahraim , (Biblical Archeologist B.A , XXI), 4 ,
(1958) , P.96 .
- P.Naster , L' asie Mineure et L Assyrie au VIII et VII ,
siècles av .J.C. d' après Les Annales des reis assyriens , Biblio-
theque du Museon 8) , Louvain (1938) P . 2 sq .
- L . Delaporte , Les Hittites (Bibliotheque des Syntheses Histori-
ques ; coll , (L' Evolution de L' Humanité) Paris (1936) carte III.
- D. D. Luckenbill, Ancient Records Of Assyria and Babylonia , Chi-
cago , (1926 - 1927), I = ARAB.
- العهد القديم ، ٢ ، ٧ : ٦ سفر العدد ، ٢ ، ١ : ١٧
انظر : (٧)
- G. Buccellati, The Amorites of the Ur III Period , (Instuto
Orientale di Napoli , 1966) P . 133 , 236 - 237 .
- انظر : (٨)
- N . Schnelder , Aram und Aramaer in des UrIII Zeit , Biblica , 30
(1949) P . 109 - 111 ; A. Dupont - Sommer , Sur tes débuts de L,
Histoire araméenne « dans Supplement à Vetus Testamentum , Vol.
I , Leiden , (1953) P . 4 - 9 .
- J . P . Kupper , Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de
Mari , Paris (1957) , Ch . III .
- M . Liverani , Storia di ugarit , Roma (1962) P . 153 .
- انظر نصب زكر ملك حماة ولعش في : (٩)
- H. Donner W . Rollig , Kanaanäicsche u. Aramaicshe Inschriften ,
= (K A I) , No 202 , S . 204.

- (٢٦) انظر :
Polanyi et oppenheim, Trade and Market in the Early Empires, (1957),
p. 12 - 27 , 38 .
- وحول العلاقات التجارية ، انظر :
Schachermeyer , Agais und Orient , Wien (1967) , p . 20 - 26 ;
انظر مقالة جان لوكلان Jean Leclant في :
W. A. WARD, The role of the Phoenicians in the interaction of the
Mediterranean civilizations; Beirut , the American Univ. (1968) ;
A. Parrot, M. Chehab et S. Moscati, Les Phéniciens, Gallimard, Paris
(1975) P. 34 - 35.
- (٢٧) انظر حول الطرق التجارية مع اسية الصغرى خلال الالف الثاني:
J. G. Macquen, Geography and History in Western Asia Minor in the
second Millenium B.C. «Anatolian Studies » 18, (1968) P. 169 - 185;
J. Mellart, «Anatolian Trade with Europe and Anatolian Geography and
culture Provinces in the Bronze Age» in An.St. 18 (1968) P. 187-200;
P. Garelli, les Assyriens en Cappadoce, Paris (1963) p. 225. راجع : (٢٨)
- (٢٩) انظر دراسة ياتكوفسكا
N. B. Jankowska, some problems of the economy of the Assyrian
Empire. p. 253 - 275 .
- في كتاب لعدد من المؤلفين باشراف الاستاذ دياكونوف
I. M. Diakonoff (ed) , Ancient Mesopotamia , Socio - Economic
History, Moscou , (1969).
- انظر ايضا :
H. Farzat, Le royaume arameenn d'Arpad , p. 40, 134.
Seton - Williams, Iraq XXIII (1961) , planche XL; I no 14, p. 79.
- (٣١) انظر مقالة سيتون وليامز في مجلة الحوليات الآثريّة العربيّة السوريّة ، عدد ١٧ (١٩٦٧).
Seton - williams, « tell Rifat » AAsyr XVII , 1967 , p.67 , 72.
- (٣٢) انظر :
D.D. Luckenbill, Ancient Recorde of Assyria and Babylonia (1926) =
ARAB Vol. I, N° 477.
- (٣٣) راجع المصدر السابق :
Luckenbill = ARAB , I, n° s 475 - 476 , 600-601.
- (٣٤) انظرا :
B. Meissner , « Woher haben die Assyrier silber bezogen ? »
Orientalische Literaturzeitung = Olz , XV , (1912), 145-149.
- (٣٥) انظر جاريللي ، التاريخ العام للعمل :
P. Garelli, Histoire generale du travail , I, Paris (1959) p. 49 - 104;
Dictionnaire archéologique : Métrologie ومقاييس Métallurgie ومادة تعدين
des Techniques , 2 vols . Paris 1963 ; Langement, II p. 660. D.Arnaud

contribution à l' étude de la metrologie Syrienne au II ème millé-
naire , in Revue de L'Assyriologie = RAss 61 (1067).

R. J. Forbes , Gold in the ausient Near - East, dans Ex. Oriente Lux (٣٦)
N° 6, (1936) p. 237 - 250 ; **Forbes** , Metallurgy in Antiquity, Leiden
n°6, (1950).

Luckenbill, ARAB ,I, ns . 603, 772, 801, : انظر (٣٧)

ARAB, I, no 740. : انظر المصدر السابق : (٣٨)

nos 454 , 466, 475 , 476, 479; 518; nos 593, 601, 585, 655 , 769. : انظر المصدر السابق ، الأرقام : (٣٩)

وهذه الوثائق تعود بالترتيب الى حكم كل من : اشور ناصربال الثاني ، شلمنصر الثالث، وتكلات
بلاصر الثالث .

ARAB, I, 740, : المصدر السابق ، (٤٠)
585; 476, 477, 772, 801 , 601. : ايضا :

476, 479, 601, 655, 740. : المصدر السابق ، الأرقام : (٤١)
Jankowska, idem , p. 285. : انظر ايضا :

M. E. L. Mallowan, Nimrud and its remains I , II , London (1969) , (٤٢)
I,p. 386, n° 21 . II, p. 406 ; **D. Oates**, Fortshalmanassar , an Interim
Report, Irap, XXI, (1959) P. 98 - 129.

الصلات التجارية بين مصر وسورية منذ عصور ما قبل الأثرى حتى نهاية الدولة القديمة (٤٠٠٠ - ٢٢٨٠ ق.م.)

د. محمود عبد الحميد أحمد
جامعة دمشق

هوامل كثيرة ساعدت على قيام صلات تجارية مبكرة بين مصر وسورية (١) ، من أهم تلك العوامل ، الموقع ، الطرق ، اختلاف منتجات البلدين الواحد منهما عن الآخر وضرورات التبادل التجاري .

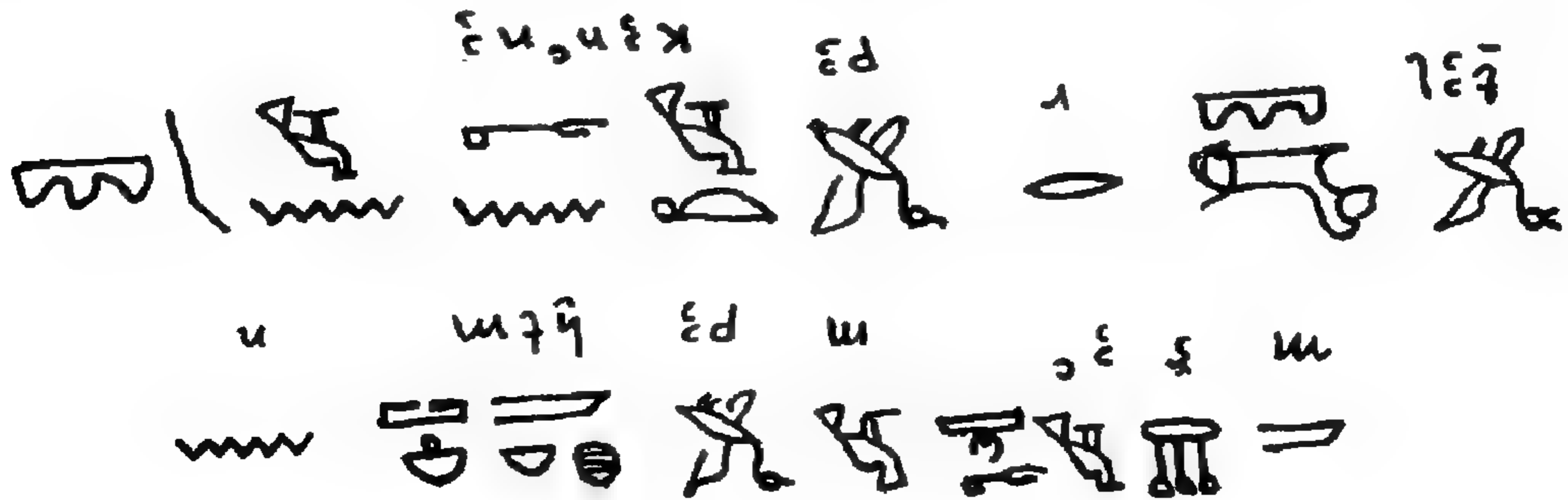
فمن ناحية الموقع ، فان سورية تجاور مصر برا ، ولا يفصلهما فاصل طبيعي لا يمكن التغلب عليه (٢) . كما ان مصر وسورية تقعان على بحر واحد . فسورية تحتل كما هو معروف الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، أما مصر فتحتل الطرف الجنوبي الشرقي من هذا الساحل .

أما فيما يتعلق بالطرق ، فقد اتصل البلدان الواحد منهما بالآخر بواسطة طريقين ، الأول بحري والثاني بري اذ كان الطريق الأول (البحري) يبدأ من مصاب نهر النيل على البحر الأبيض المتوسط ، متجها نحو الشرق ويستمر بمحاذاة الشاطئ الشمالي لشبه جزيرة سيناء ، فسواحل فلسطين ولبنان وسورية . وتدل اسطورة اوزيريس وايزيس ، على ان طريق البحر قد سلك منذ وقت مبكر جدا ، حيث تبدأ الاسطورة بالاعلان عن ولادة (الملك العادل) اوزيريس ، الذي حقق العدل بين الناس ، وعلمهم عبادة الالهة ، لكن اخاه ست ، كان يتقد غيرة منه ، ولذلك دبر له مؤامرة اشترك فيها اثنان وسبعون رجلا . وتتلخص المؤامرة في أن ست صنع صندوقا جميلا بحجم اخية اوزيريس ، وعرض هذا الصندوق خلال مأدبة اقامها ، ووعد أن يهدي

الصندوق لمن يناسب جسمه تماما . وبطبيعة الحال لم يناسب الصندوق جسم أحد ، الى ان وصل الدور الى اوزيريس ، الذي تمدد فيه ، وكان مناسبا لجسمه ، وفي هذه اللحظة اسرع المتامرون فأغلقوا الصندوق والقوا به في نهر النيل ، حيث جرفت مياه النهر الصندوق الى البحر الابيض المتوسط ، واخيرا قذفت أمواج البحر الصندوق فاستقر على الشاطئ بالقرب من جبيل عند شجرة صغيرة (٣) . ونمت الشجرة بسرعة واحتوته بداخلها ، غير ان ملك جبيل اعجب بضخامة هذه الشجرة ، فقطعها واستخدمها عمودا في قصره . وتخبر الريح المقدسة الاخت المفجوعة ايزيس بكل ما حدث ، فترحل الى جبيل . وفي جبيل جلست بجوار نبع تبكي بصمت ولا تكلم احدا عدا وصيفات الملكة ، وكانت تصفف شعورهن وتعطرهن بالطيب الخاص بها . ولاحظت الملكة كل ذلك ، فأمرت باحضار المرأة الاجنبية ، واتخذتها مربية لطفلها . وبعد فترة قصيرة استطاعت ايزيس ان تنزع العمود من سقف القصر ، وتخرج الصندوق (التابوت) حيث حملته على سفينة وعادت به الى مصر (٤) .

أما فيما يتعلق بالطريق البري ، فقد كان يبدأ بالقنطرة الحالية على حدود مصر الشرقية ، وينتهي عند رفح أول مدن فلسطين . ويعد سير آل جاردنر من العلماء الكبار الذين استطاعوا أن يحددوا بداية هذا الطريق ، والمواقع المميزة الهامة التي يمر بها عبر شمال سيناء الى أن ينتهي عند رفح . وقد وضع جاردنر مخططا للطريق بالاعتماد على دراسة علماء المصريين للمنطقة الواقعة على حدود مصر الشرقية منذ حملة نابليون بونابرت على مصر . كما اعتمد في وضع مخطط الطريق على دراسة قام بها هو شخصيا ، تناولت سلسلة المناظر المنحوتة على الجدار الخارجي لقاعة العمود الكبرى في معبد الكرنك عند جهتها الشمالية (٥) .

استنتج العالم الكبير ان الطريق يبدأ من حصن تل ، او سيلة (٦) ، وينتهي بمدينة رفح في كنعان (فلسطين) ، حيث جاء في النقش (الشكل - ١) : [السنة الاولى للملك



الشكل (١)

على قيام صلات تجارية مبكرة بين البلدين ، وسوف تقصر بحثنا هذا على صلات البلدين التجارية منذ عصور ما قبل الاسرات وحتى نهاية الدولة القديمة عند الربع الاخير من الالف الثالثة قبل الميلاد ، اي في الفترة الواقعة بين ٤٠٠٠ - ٢٢٨٠ ق.م .

تركزت الآثار المصرية التي ترجع الى عصور ما قبل الاسرات المصرية ، وتلك التي تؤرخ بعصر الدولة القديمة ، في مدينة جبيل على الساحل السوري . وقد عثر في هذه المدينة على الآثار المصرية التالية التي تؤرخ بعصور ما قبل الاسرات وهي : خرزة من الذهب ، طائر من العاج ؟ ، قطعتان من حجر الكوارتز ربما استخدمتا في لعبة ما ؟ ، تمثال قرد صغير ، اناء حجري يشبه بعض الاواني المصرية الحجرية التي ترجع الى هذه الفترة (١١) . يضاف الى ما سبق قطعة من اناء حجري (١٢) ، نقش عليها سرخ ملكي مصري ، واسم الملك المصري خع سخموي ، اخر ملوك الاسرة الثانية المصرية (١٣) .

قبل عرض الآثار المصرية الدالة على التجارة بين مصر وسورية خلال عصر الدولة القديمة ، لا بد ان تقدم للقارئ الفكرة القائلة ، انه نظرا لدين المصريين ، وللاهمية التجارية الكبيرة التي تمتع بها ميناء جبيل ، تولد عندهم اعتقاد ، مفاده ، انه لا بد لهم ، ليتيسر حصولهم على الخشب ، من ارضاء آلهتها ، اي الهة جبيل ، التي يحصل المصريون من منطقة عبادتها على الخشب الثمين . كما ان نجاح انتفاعهم بالخشب ونجاح رحلاتهم في المستقبل كان يعتمد على ارادة الهة جبيل . ولذلك اسرع ملوك مصر من الدولة القديمة الى تقديم الهدايا الى امراء جبيل والى آلهتها (١٤) . وهكذا اعتبرت هداياهم تلك خير دليل على ازدهار التجارة بين مصر وسورية . وفيما يلي نعرض لاهمها :

— اناء من حجر الديوريت على شكل قرد ، ربما كان يرجع الى عهد الملك خوفو من ملوك الاسرة الرابعة المصرية (١٥) .

— كسرة اناء من حجر الالباستر عليه سرخ خوفو وبداخله اسم الملك (١٦) .

— كسرة من الالباستر منقوش عليها اسم الملك « منكاورع » (١٧) من ملوك الاسرة الرابعة .

— كسرة اناء من حجر الالباستر ، بقي عليها اثار علامتين من اسم الملك « نفرابير كارع » ثالث ملوك الاسرة الخامسة المصرية (١٨) .

— كسرات عدة تحمل اسم الملك « اوناس » اخر ملوك الاسرة الخامسة المصرية (١٩) .

— اناء كامل يحمل اسم الملك السابق (٢٠) .

— كسرتان عليهما ما يحتمل انه اسم الملك « تيتي » اول ملوك الاسرة السادسة (٢١) .

— اثناء جميل من الالباستر ، يحمل اسم الملك « بيبي الاول » (٢٢) من ملوك الاسرة السادسة .

— عدة كسرات حجرية تحمل اسم الملك السابق (٢٣) .

— كسرة حجرية تحمل الاسم الحوري كاملا للملك « مرنرع » من ملوك الاسرة السادسة المصرية (٢٤) .

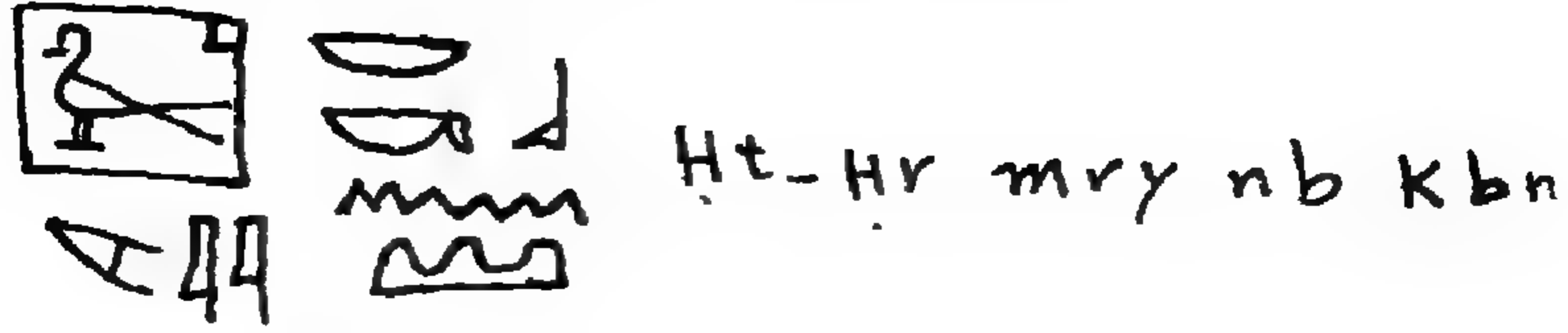
— عدة كسر تحمل اسم « بيبي الثاني » اخر ملوك الاسرة السادسة (٢٥) .

— سداة جرة تحمل اسم الملك السابق (٢٦) .

— جزء من مائدة قربان حجرية ، تؤرخ بالايام الاولى للاسرة الرابعة ، كتب عليها اسم موظف مصري والقابه ويبدو انه كان واحدا من الكتاب الملكيين المقيمين في جبيل ، ومن المحتمل انه كان مسؤولا عن مجموعة من الكتاب الملكيين المقيمين فيها ، حيث كان وجودهم هنا ضرورة ملحة لتسيير اعمال الجالية التجارية المصرية في جبيل ، ولتسهيل وتنظيم عملية نقل الاخشاب الى مصر (٢٧) .

واخيرا نعرض لـ « المعبد المصري » الذي عثر عليه في جبيل ، هذا المعبد الذي يعد من الادلة الكبيرة على ازدهار التجارة بين مصر وسورية .

عثر في مدينة جبيل على معبد مصري (٢٨) يؤرخ بعض الاسرة الرابعة ، من المحتمل انه اقيم هنا لخدمة الجالية التجارية المصرية المقيمة في جبيل ، واهم ما يلفت النظر في اثار هذا المعبد لوحة حفر عليها مشهد يصور ملكا مصرية جاثيا ، وقد حمل آيتين صغيرتين يقدمهما الى الهة امامه ، خست ببعض رموز الالهة المصرية حاتور . ولكن كتب في اعلى اللوحة « محبوب حاتور سيدة جبيل » (٢٩) فهل قصد المصريون بذلك الالهة بعلته الهة مدينة جبيل ، بعد ان رسموها برموز آلهتهم ؟ ام هي محاولة للتوفيق بين بعلته وحاتور ، حيث وجد المصريون صفات مشتركة في رموز الالهتين . . ؟ مهما كان الامر ، فمن المؤكد ان المعبد المصري قد وجد في مدينة جبيل ، ووجوده هذا يدل دلالة قاطعة على مدى اهمية ميناء جبيل التجارية بالنسبة لمصر ، كما يدل على ان كثيرا من المصريين قد اقاموا في جبيل اقامة دائمة بصفة تجار او كتبة ، ارسلهم ملك مصر لتنظيم عملية نقل الاخشاب الى مصر من ميناء جبيل ، ولشراء ما تحتاجه مصر من منتجات اسيا المختلفة الواردة الى جبيل .

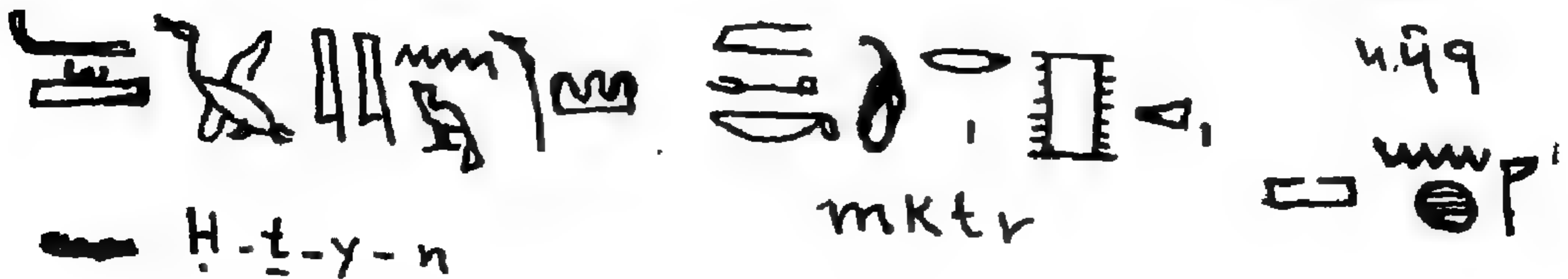


الشكل (٦)
« محبوب حاتور سيدة جبيل »

تناولنا في الفقرات السابقة الصلات التجارية بين مصر وسورية خلال عصور ما قبل الاسرات وعصر الدولة القديمة ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الادلة الاثرية التي عثر عليها في مدينة جبيل بخاصة . وفي مقال تال سوف نعرض الادلة التي عثر عليها في مصر ، والتي تتعلق بالتجارقيين مصر وسورية منذ عصور ما قبل الاسرات وحتى نهاية الدولة القديمة .

الحواشي :

- (١) يقصد الباحث سورية الطبيعية .
- (٢) يرى بعض الباحثين ان منطقة الشرق العربي امتداد لقارة افريقيا ، اذ ان مظاهر السطح لا تتغير الا عند جبال طوروس و زاغروس .
- (٣) تقع جبيل على ساحل البحر الابيض المتوسط شمال مدينة بيروت .
- (٤) ارمان ، ا. ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحمد انور شكري ، القاهرة ص ٩٨-٩٩ .
- (٥) يعود تاريخ القائمة والنقوش الى عهد الفرعون « ستي الاول » من فراعنة الاسرة التاسعة عشر (١٢٠٩ - ١٢٩١ ق.م) .
- وتصور النقوش والنص الهيروغليفي المرافق لها ، استقبال المصريين للكم الذي عاد منتصرا من كنعان ، والطريق الذي سلكه في عودته .
- (٦) حصن تل هو تل ابو صالي الحالي على بعد ميلين من القنطرة الحالية . ومن الجدير بالذكر ان الموقع نفسه كان يدعى سيله في كتابات اليونان والرومان . الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الاول ص ٢٢١ .
- (٧) تقدر المسافة الواقعة بين بشرين متجاورين بحوالي (٩-١٠ كم) .
- (٨) اطلق على هذه الاماكن الهامة في نقوش ستي الاول الاسماء التالية قلعة (شكل ٢) ومجدل (شكل ٤) وحصين (شكل ٥)



الشكل (٥)

الشكل (٤)

الشكل (٣)

واللفظان الاخران عربيان ، وقد بقيا مستخدمين في مصر حتى العصر البطلمي حيث كتب كما يلي:

MIꜣTOꜣ

MEꜣ TOꜣ

مجتول (شكل ٧)

مشتول (شكل ٦)

Gardiner, A. The Ancient military road bitween Egypt and Palestine, Journal of Egiptian Archaeology, vol. VI, p. 99 FF. (٩)

(١٠) حجر سليسي متبلر ، غالبا ما يكون بلون اسود ، يستخدم في صنع أدوات الزينة .

Montet, P., BYBLOS ET L'EGYPTE , Paris, 1928, No. 170 333 , 334, 176. (١١)

Dunand, M., FEUILLES DE BYBLOS, 1, Paris, 1939 , No. 1115, P. 26 . (١٢)

(١٣) السرخ لوحة حجرية مستطيلة الشكل ، كتب بداخلها ضمن اطار اسم الملك ، ورسم تحت هذا الاسم واجهة بناء ربما تمثل واجهة القصر الملكي .

(١٤) (الولي عهد الملك تحوتمس الثامن ، ذهب رئيس الخزانة الى جبيل لاجتار كتل من خشب الارز . ولكنه قبل ان يصعد الى القابة المليئة بالاشجار ليختار ما يريد من الخشب ، قدم القرابين لالهة جبيل المسماة بعله ، التي تعرف عليها المصريون وقالوا بانها الهتهم حاتحور « . ويلسون ، ج ، الحضارة المصرية ، ترجمة احمد فخري ، القاهرة ١٩٥٥ ص ٢١٤ .

Montet, P., op. cit., No. 58. (١٥)

Dunand, M., op . cit., No. 4506. (١٦)

Dunand , M; , FBII, No. 11327. (١٧)

Dunand, FB I , No. 4909 . (١٨)

Dunand, FB I, No. 7867, 3980, 4029 . (١٩)

Ward, W., Egypt aid the East Mediterranean from Predynastic Times table end of the old kingdom, J.E.S.H.O., vol. VI, P.23 (٢٠)

Dunand , FB I, No. 3753 . (٢١)

Ward, op. cit.p.23 (٢٢-٢٣)

Dunand, FB I.No. 1940. (٢٤)

Dunand, FBI, No. 3800, 1927;2874. (٢٥-٢٦)

Ward, op. cit ., p.21. (٢٧)

(٢٨) عثر على هذا المعبد بالقرب من نبع مدينة جبيل

Ward , op. cit., p.24.

Montet, op. cit ., No. 11. (٢٩)

تفرد مجلة ((دراسات تاريخية)) بهذا من هذا العدد بابا خاصا لنشر بحوث
الدارسين ، المرشحين لمناقشة الرسائل المعدة لنيل شهادة الماجستير او الدكتوراه في
جامعة دمشق .

الموقف الدولي

من أحمد علي محمد علي باشا البدر الشام (١٨٣١-١٨٤٠)
من خلال الوثائق العثمانية

علي يوسف البلخي

جاءت حملة محمد علي على بلاد الشام في اعقاب انتصارات هامة حققها جيشه
في الحجاز وفي اليونان وفي السودان . وكانت الظروف الدولية مواتية لهذه الحملة ،
فبريطانية كان يشغلها الاصلاح الداخلي لاستبعاد خطر الثورات التي ظهرت في فرنسا،
وفرنسية منشغلة بثورات ١٨٣٠ في باريس التي جاءت بالملك لوي فيليب الى الحكم .
وكان يشغلها ايضا الوضع المضطرب في الجزائر الذي ادى الى ثورة الامير عبد القادر
الجزائري عام ١٨٣٢ م . وكانت الامبراطورية النمساوية مهددة بثورة بولونية . اما
الدولة العثمانية فكان جيشها الجديد ما زال فتيا بعد قضاء السلطان محمد الثاني على
الانكشارية عام ١٨٢٦ ، كما ان الاسطول العثماني كان قد هزم من قبل الاساطيل
الاوربية ابان حرب اليونان في معركة نغارينو عام ١٨٢٧ (١) .

راى محمد علي باشا بشاقت نظره ضعف الدولة العثمانية فقرر تأسيس عرش
له يتربع فوقه ويورثه لاحفاده ، لذلك احكم قبضته على مصر ثم جهز قوة عسكرية
برية وبحرية بقيادة ابنه ابراهيم وامره باحتلال بلاد الشام ، وانطلقت تلك القوات من
مصر في ٢٩ تشرين الاول ١٨٣١ م .

وبرهن ابراهيم باشا على قدرة قتالية عندما هزم قوات عبد الله الجزار ودخل
مكا عام ١٨٣٢ ، وتقدم الى دمشق بعد ان بدد قوات عثمانية قريبا ، وتابع سيره
الى الزرعة وانتصر على الجيش العثماني فيها وتقدم الى حماة وحلب ومضيق بيلان .

والحق ابراهيم باشا هزيمة ساحقة بالجيش العثماني في معركة قونية في ٢٧ رجب ١٢٤٨ هـ / ٢١ كانون الاول ١٨٣٢ م ، واسر رشيد باشا قائده .

تركت هزيمة العثمانيين في قونية آثارا سلبية على العثمانيين والمصريين على السواء ، بسبب التدخل الاوربي في شؤون السلطنة العثمانية ، بحجة كبح محمد علي . وحاول السلطان العثماني توقيع الصلح مع محمد علي باشا فارسل وفدا الى مصر برئاسة صارم افندي ، أحد كبار رجال الديوان السلطاني ، ليقنعه بالصلح ، فباءت محاولته بالفشل ، وعرض السلطان عليه ولاية عكا وطرابلس ، فرفض محمد علي واصر على ضم بلاد الشام الى مصر . وارسل الباب العالي (٢) خليل رفعت باشا ، وهو أحد اعيان استانبول ، الى مصر ، حاملا الى محمد علي عفو السلطان عنه . ونظرا لوجود صداقة بين خليل رفعت باشا ومحمد علي فقد قررا ابرام الاتفاق على انتهاء الحرب ضد السلطنة العثمانية مقابل اعطاء محمد علي ولاية سورية وادنة . وثم انتهاء النزاع على هذا الوجه (٣) .

وحتى يتضح موقف الدول الاوربية تجاه وجود محمد علي باشا في بلاد الشام ، نرى من الضروري بيان سياسة كل دولة اوربية على حدة . والدول المعنية بهذا المجال هي : انكلترا ، فرنسا ، النمسا ، وثم روسيا وبروسيا .

كانت سياسة روسيا منذ عهد بطرس الاول (٤) تهدف الى الوصول الى المياه الدافئة في الدردنيل والبوسفور . لذلك اغتتم قيصر روسية هزيمة العثمانيين في قونية وارسل وفدا عسكريا برئاسة الجنرال مورافيف الى الاستانة ليعرض مساعدته العسكرية ، البرية والبحرية ، للسلطان العثماني . وبعد هزيمة قونية كلف السلطان محمود الثاني ريس افندي ، الذي كان صدرا اعظما ، بمقابلة بوتيف سفير روسية بالاستانة لطلب مساعدة عسكرية روسية قوامها ٢٠ او ٢٥ الف جندي ، فاتصل السفير الروسي بالقيصر وابلغه طلب السلطان فاصدر اوامره الى الاسطول الحربي بالتقدم من سيباستبول الى البوسفور في ١٤ شباط ١٨٣٣ فوصل الى مياه الاستانة في ١٩ شباط ، وأمر القيصر الجزال كيسليف باجتياز الروملي الى استانبول ووضعت قوات اوديسا على اهبة الاستعداد (٥) .

اما مورافيف فكان قد غادر الاستانة الى مصر وقابل محمد علي باشا في ١٣ شباط ١٨٣٣ وعرض عليه رغبة القيصر باتفاقه مع السلطان ، فرد محمد علي عليه بانه عرض الاتفاق على السلطان منذ شهر تشرين الثاني عام ١٨٣٢ ، وعاد مورافيف من الاسكندرية الى استانبول وابلغ الباب العالي بان محمد علي قد أمر ابنه ابراهيم

هذه الوثيقة موجودة في أرشيف رئاسة الوزراء التركي في استانبول ومحفوفة بدوسية رقم ٧٨ .
وتتضمن موقف كل من فرنسا وانكلترا وروسية تجاه احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ، وقد دونها
محمد نافع بك الذي كان سكرتيرا خاصا للسلطان محمود الثاني ، وقد جمع معلوماتها من رسائل ملوك
الدول المذكورة والموجهة الى السلطان العثماني .

مفتی محمد قاری

طبعیه عجزت از انباشته شدن و قبیه انکار بر روح و قوه قبول او موقوف
 کار به دولت است که مقدس حق انکار و دنی انکار و طلب علی اولاد اعانه خصوصه
 بر او واجب و بر او است که در این چاکر هفتاد و یک سالگی تقیه نگیرد بلکه
 ابرو بکشد باریه معصوم الطیفه و بر او حال تبرع بر قدری است خسته تر باشد
 کون قویه جازیه جنگاه که برین نیم ملک صد عظم مقصودیه از جمع مصلحت کار است
 و نه اولوب مناله صد عظم مقصودیه که کار بر اندازد و برین ضری و دوازده عظم قوه
 دنی و حکم از این که کوه دبی قوه بلا به دول اجنبیه میگرداند مجلسی و دوله طایفه
 اعتبار و بر وجه او در دین اعتدال و تکرار بلکه در این ایستای کون اجنبیه
 طبعیه عجزت از انباشته شدن و قبیه انکار بر روح و قوه قبول او موقوف

[illegible][illegible]

بالتوقف في كوتاهية ، لكنه نصح رجال الباب العالي باخذ الحيطة والحذر من محمد علي . وعندما عسكر ابراهيم باشا في كوتاهية وصل اليه ثلاثة رسل :

الاول من قبل الباب العالي ليبلغه انه ارسل خليل رفعت باشا الى مصر من اجل الاتفاق مع والده (١) .

والثاني من قبل مورافيف الذي ارسل احد معاونيه (دوهامل) لينصح ابراهيم باشا بالتوقف عن القتال .

واما الرسول الثالث فهو : بودوليا رسول سفير فرنسة ، وكانت مهمته اقناع ابراهيم باشا بالتوقف عن القتال .

وكان جواب ابراهيم الى الرسل الثلاثة بانه قائد لقوات محمد علي باشا ، وانه خاضع لتعليماته ومنفذ لاوامره .

وخافت كل من فرنسا وانكلترا من تعاظم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية فتدخلتا لتسوية الامور بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا ، واسفر تدخلهما عن ابرام معاهدة كوتاهية في ٥ ايار ١٨٣٣ والتي جاء فيها :

١ - انسحاب ابراهيم باشا من الاناضول الى ما وراء جبال طوروس .

٢ - اعطاء ولاية مصر لمحمد علي مدى حياته ، ومنحه حق تعيين الولاة على ولايات بلاد الشام الاربعة (عكا ، طرابلس ، حلب ، ودمشق) واعطائه جزيرة كريت .

٣ - تعيين ابراهيم باشا واليا على ارضه .

اعتبر السلطان العثماني معاهدة كوتاهية هدنة ليعيد تنظيم قواته من اجل طرد ابراهيم باشا من بلاد الشام .

وردت روسيا على التدخل الاتكليزي الفرنسي بأن وقعت مع السلطان محمود الثاني في ١٨ محرم ١٢٤٩ هـ / ٨ حزيران ١٨٣٣م معاهدة هجومية عرفت بمعاهدة اونكيار اسكدة سي ، تعهدت بموجبها بالدفاع عن الدولة العثمانية اذا هاجمها المصريون او غيرهم ، وحازت بذلك على حق التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية .

واعتبرت معاهدة اونكيار اسكدة سي نصرا كبيرا لروسيا لانها حققت حلمها بالوصول الى المياه الدافئة .

استقلال دایمی رسد دولت ملت را اقدار تقویم ایمنی اولی تقاریر معهود شده از قبله نخبه دولته تقدیم
 الیه می تقدیریه اولی وقت برنج عمومی الیه جنابله طرفه و برپود جهتی افکنده و کلان کوشش است
 لوند ۵۰ صفر نخبه صحنه آینه کوشش محمد عینک حاد و کیفیت بیاد ابرار دوله علیه اطاعت و تقیاد
 اندک مستزاد برکت اولی صحنه فقه بحیرتی افند بر دوله علیه و برستی عمومی الیه نازکانه اشیا و تجمع
 ایمنی اولی اول وقت بالذاته منظور عجز از اولی اندک و کلای سابق طرفه اصف اولی اول وقت
 مقام والدیه دخی بوقضیه بی تجربه اشعار و اخبار کتایم اولی اولی لکن شمدیک تقضای وقت
 و حد کوه برنج متریک جنابیک صبر زنی و از ۵۰ سابقه خیریه بوقت علیه نظر الحاقه هند کارک
 اولی صلاحی دگر اولی معهود بر وجه بلاد فقه بحیرتی دوله علیه تعلیم اولی بر دخی عیاد
 انجمن برکت و برستی اولی کیفیت عاوریاتی قولک برنج عمومی الیه جنابله بیاد استواری ایمنی
 حال معهود و بطار افکنده مستزاد برنج نخبه ایمنی صحنه نخبه و مطالبه به عمومی الیه صبر
 ۱۵۰۰ خیریه استیصال اولی اول وقت افکنده و زانی و روبره و وظای طرفه دخی بر دخی حاشیه
 کوشش ایمنی ملحوظ اولی ایری بر مام و از خاکای دوقدر نخبه استیصال اولی جواب و روده قدر
 زمانه فرصه فقه و ایمنی معلوم و وظای بیوشی و صبر و عیاد و کوشش نخبه کوشش عیاد
 رتبه بلک اتری بند بر طرفه خاکای علیه اشعار ایمنی اولی و جلد جابر صحنه مباشره ایری
 بر طرفه دخی معاونه اندک کلکی اولی بیاد ابدیکند قولک دخی نخبه صبر و اشتیاق امواجیه
 نازی و بقتور جنابله طعام مدعو اولی و خصوص مذکور و از دخی ملاد معاونه و التام
 مدافعت استیصال صحنه عمومی الیه فزانی مستزاد و وقوع اولی مکانه نخبه عمومی الیه
 بر ابرار بویله غیره و دخی نخبه ایمنی سارعه نیکانم اولی معلوم و وظای بیوشی
 و حال اولی و دخی عیاد و نخبه افصح طرفه کوشش



أما السياسة الانكليزية فكانت تهدف الى بقاء الدولة العثمانية ضعيفة وابعد النفوذ الروسي عنها ، وان لا تقوم دولة قوية على طريقها الى الهند ، وان لا يملك محمد علي العراق والخليج العربي وسواحل بلاد الشام . وكان الباب العالي راغبا بالاستناد الى دولة قوية لرد خطر محمد علي ، وكان في الوقت نفسه يخشى مطامع روسيا وانكلترا في المضائق ، الدردنيل والبوسفور ، لذلك كلف الباب العالي ريس افندي بمقابلة سترافورد كاننج ، سفير انكلترا بالاستانة ، فقابلته في ١١ آب ١٨٣٢ وأبلغه رغبة الباب العالي بالمساعدة الادبية والمادية ضد محمد علي باشا .

وارسل الباب العالي أمرا الى ماورو باني سفير تركيا في فيينا بأن يتجه الى لندن فوصلها في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٢ م حاملا اقتراحات الباب العالي الى الحكومة الانكليزية بخصوص طلب المساعدة ، وان تركيا تتحمل كافة نفقات تلك المساعدة ، وتمنح انكلترا جميع الامتيازات التجارية التي تريدها مقابل وقوفها ضد محمد علي . فاجابت انكلترا بانها لا تستطيع الرد العاجل على مقترحات الباب العالي (٧) . وكرر الباب العالي محاولة طلب المساعدة من انكلترا فوصل نامق بك السكرتير الخاص للسلطان محمود الثاني الى لندن في ١٢ كانون الاول ١٨٣٢ حاملا مقترحات السلطان والباب العالي بطلب المساعدة ، فردت انكلترا انها لا تستطيع الاندفاع في عمل عسكري وانها تفضل الانتظار . ورات انكلترا ان ترسل اسطولا حربيا الى مياه الدردنيل بقيادة الاميرال ماندفيل بعد معركة قونية المارة الذكر .

أما فرنسا ، فقد كانت السبب الذي جاء بمحمد علي الى مصر . ذلك انه دخل الى مصر مع الفرقة الالبانية التي جهزها السلطان العثماني لطرد الفرنسيين من مصر . وهذا يستوجب وجود عداوة بين محمد علي وفرنسا . ولكن الاحداث كشفت عن نوايا نابليون بونابرت وطموحه الى كرسي العرش الفرنسي ، وان بريطانيا لن تترك فرنسا على هواها فتصعد لها ، وحتى تقيم فرنسا العراقيل امام انكلترا فقد وعتت محمد علي باحتلال الجزائر ، ولكنه لم يستجب لطلبها لانه صمم على احتلال بلاد الشام ، التي رأى فيها اقتصادا مزدهرا يتيح له انجاز مشاريعه ، ويوفر شبابا يجنده لخوض ساحات القتال ، وحدا عازلا عن السلطة العثمانية (٨) . وأفاد محمد علي من التنافس الاستعماري الانكليزي - الفرنسي بأن نال دعم فرنسا له في بداية تنفيذ مشروعه باحتلال بلاد الشام .

لكن السياسة الروسية السابقة الذكر لم ترق لفرنسا في عام ١٨٣٢ - ١٨٣٣ . لذلك جهزت اسطولا حربيا وارسلته الى مياه الدردنيل بقيادة الاميرال روسين ، الذي وصل الى المضيق المذكور في ٢٠ كانون الثاني ١٨٣٣ م ، وأبلغ الباب العالي عندما وصل

الى المياہ التركية انه سيدافع عن مصالح الدولة العثمانية ضد ابراهيم باشا ، اذا سحبت الدولة طلب المساعدة من روسيا . ولم تتحقق آماني روسين بسبب وصول الاسطول الروسي الى مياہ البوسفور ، فابلق الباب العالي بان مجيء القوات الروسية يذهب عنه كل استقلال ، ولذلك فقد بات وجود السفير الفرنسي باستانبول هبثا . وعلم ريس افندي بمقترحات روسين فكلفه بالوساطة بين محمد علي والباب العالي لوقف القتال على ان يعطى محمد علي ولاية عكا وطرابلس والقدس ونابلس ، فوافق روسين على الوساطة شريطة ان يغادر الاسطول الروسي المياہ العثمانية . ووقع ريس افندي مع روسين اتفاقا بهذا الخصوص في ٢١ شباط ١٨٣٣ (٩) .

وارسل روسين رسولا الى كوتاهية ليبلغ ابراهيم باشا الاتفاق الذي وقعه مع ريس افندي ، والذي ينسحب ابراهيم باشا بموجبه الى ما وراء جبال طوروس ، لكن ابراهيم باشا رد عليه ، بأنه مقيم في كوتاهية بأمر من والده ، وانه لن يعمل الا بالاوامر الصادرة عن محمد علي باشا .

وكان روسين قد اعاد الحكم العثماني الى ازميز في ٢٤ شباط ١٨٣٣ ، بعد ان احتلها ابراهيم باشا على اثر تقدمه الى كوتاهية . ووقف قناصل كل من انكلترا والنمسا وبروسيا الى جانب روسين في امره باعادة حكم السلطان العثماني الى ازميز (١٠) .

ولم يتاثر الموقف الروسي باتفاق ٢١ شباط بل ازداد قوة عندما عين رؤوف باشا صدرا اعظما في عام ١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣ م .

وفي ١٥ آذار ابلى الاميرال روسين الباب العالي بان على الاسطول الروسي مغادرة مياہ البوسفور خلال ٢٥ ساعة ، واذا لم يغادر خلال هذه المدة فانه ناقض لاتفاق ٢١ شباط لذلك استدعى السلطان العثماني ديوانه الى الاجتماع وكلف ريس افندي بابلاغ الجنرال مورافيف (١١) ان الاتفاق قد أبرم مع محمد علي باشا ، فهو يأمل اعادة الاسطول الروسي الى المياہ الروسية . وكانت انكلترا قد نظرت الى اتفاق ٢١ شباط نظرة ارتياح فكتب بالمرستون وزير خارجيتها رسالة الى وليام كامبل سفيرها في الهند قائلا ما معناه : ان تركيا افضل دولة تملك طريق الهند فهي افضل من اي ملك عربي ، والواجب على الانكليز مساعدة السلطان العثماني (١٢) .

اما النمسا فقد تلقت خبر اتفاق ٢١ شباط بارتياح ، غير ان مترنيخ (١٣) وجه اللوم للجنرال روسين لانه جرح الشعور الروسي عندما طلب انسحاب الاسطول الروسي

من مياه البوسفور . ويرى مترنيخ أنه لولا طلب هذا الانسحاب في الاتفاق لانسحب الاسطول الروسي .

واحكمت روسيا قبضتها على البوسفور بأسطول حربي وجيش بري نكاية بالموقف الفرنسي . وارسل روسين رسالة مع رسول الى محمد علي ليبلغه اتفاق ٢١ شباط للعمل بموجبيه ، فرفضه محمد علي ووجه انذارا الى الباب العالي بأن ابراهيم باشا مخول بالسلطة المطلقة للحصول على ولاية سورية وأدنة . فغضب روسين وكتب الى وزير خارجية فرنسة رسالة جاء فيها انه اذا ارادت فرنسا واوروبا انقاذ السلطنة العثمانية وجب عليها ايقاف محمد علي ولو ادى هذا الى اعلان الحرب عليه ، وأشار في رسالته الى احتمال (١٤) وصول ابراهيم باشا الى الاستانة بعد مرور ثمانية ايام وسيضطر السلطان الى اعطائه ولاية سورية . وتملك الباب العالي جزع شديد ، لذلك طلب رجاله النجدة من سفير روسيا ، وقرر روسين احباط خطة الباب العالي فتقرب من رجاله واتفق معهم في ٢٩ آذار ١٨٣٣ على ارسال فارين وكيل سفير فرنسا باستانبول مع مندوب عن الباب العالي (رشيد بك) الى كوتاهية للاتفاق مع ابراهيم باشا على منحه ولاية سورية كلها ، وعلى تخفيض الشروط الخاصة بادنة . وحمل الرسولان كتابي روسين وماندفيل الى ابراهيم باشا بهذا الخصوص (١٥) . وارسلت فرنسا بوالكنت وهو من كبار موظفي وزارة الخارجية الفرنسية الى محمد علي ليقنعه بالجلء عن الاناضول ، في الوقت الذي اصدر فيه بالمرستون الانكليزي اوامره بتعزيز البحرية الانكليزية بالبحر المتوسط . واشتد الاضطراب في لندن بسبب مجيء نجدة روسية الى استانبول في ٥ نيسان ١٨٣٣ م ، فاقترح تاليران وزير خارجية فرنسا ان تتفق انكلترا والنمسا وفرنسا وروسيا على مساعدة السلطان العثماني دون ان تطمع اي منهن بامتلاك ارض تركية ، فوافقت انكلترا على: (١٦)

١ - عدم تجزئة تركيا .

٢ - يجب ان يتضمن كل اتفاق بين الباب العالي ومصر سيادة تركيا .

٣ - استخدام الوسائل اللازمة لارغام محمد علي على قبول هذا الاتفاق .

ولم ينل الاتفاق موافقة النمسا وروسيا ، لان السياسة الروسية تهدف الى السيطرة على المضائق ، وكانت النمسا متعاطفة مع روسيا .

اما فرنسا وانكلترا فقد صممتا على ابعاد النفوذ الروسي عن الدولة العثمانية والحيولة دون ان يؤسس محمد علي دولة قوية .

لم تكن معاهدة كوتاهية الا تسوية مؤقتة لان محمد علي باشا لم يقبل بها الا خوفا من اجبار الدول له على ترك فتوحاته ، اما السلطان العثماني محمود الثاني فانه قبل بها لتفرق جيوشه وعدم امكانه صد هجمات ابراهيم باشا عن الاستانة الا بمساعدة روسيا واعتبرها بمثابة هدنة ليعيد بناء قواته ، ومن ثم شن الحرب على ابراهيم باشا واعادة بلاد الشام ومصر ولاية عثمانية دون اي امتياز .

* * *

وبعد توقيع معاهدة كوتاهية في ٥ ايار ١٨٢٣ اخذ ابراهيم باشا ينظم ادارة بلاد الشام ، فعمل على ضرب نظام الاقطاع العثماني واعلن المساواة الدينية بين فئات السكان وشجع الزراعة واحياء الارض الموات واعادة الحياة الى القرى الخربة ، ومنع البدو من اخذ (الخوة) او الاعتداء على المزروعات . وبدا ابراهيم باشا للاهالي في بداية حكمه تمصلح (١٧) لكنه خضع لاوامر والده فاضطر الى فرض الضرائب الكثيرة ، وكان جنوده يصادرون المواشي وحيوانات الزراعة ، فنشبت الثورات الاولى ضده في نابلس والقدس ، ثم امره والده بنزع سلاح السكان (٤٨) وفرض التجنيد الالزامي عليهم ، فتصاعدت الثورات ضده في صافيتا وعكار وجبال العلويين . وكانت ثورات حوران ١٨٣٧ - ١٨٤٠ اعنف ثورات بلاد الشام واشرسها ضد الحكم الصري (١٩) .

استغل السلطان العثماني والانكليز اندلاع الثورات في بلاد الشام فدرسوا الدسائس ضد ابراهيم باشا . والامر الجدير بالملاحظة هو : ان ابراهيم باشا قد طور اقتصاد بلاد الشام ولكن لخدمة سياسة محمد علي ، وان الدسائس العثمانية لم تكن لصالح الثوار بل لاعادة الحكم العثماني الى البلاد . اما الدسائس الانكليزية فقد كان هدفها التغلغل الاقتصادي في البلاد ، فقد دخل اول قنصل انكليزي الى دمشق في ٢١ رمضان ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م (٢٠) . وارسل سفير انكلترا في الاستانة في عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م ريتشارد وود ترجمان السفارة الانكليزية الى لبنان بحجة حبه لتعلم اللغة العربية ، فاتخذ كسروان مقرا له واخذ يدس الدسائس ضد ابراهيم باشا (٢١) . وكانت انكلثرة الذراع القوي الذي استند اليه الباب العالي في حربه ضد ابراهيم منذ عام ١٨٣٤ ، فاخذ يحشد الجيوش في سيواس ، واسند مهمة تدريبها الى ضباط بروسين (ملباخ وفيشر وفون مولتكه ..) وكانت القيادة العليا في سيواس لرشيد باشا الذي اسره ابراهيم باشا في موقعة قونية كما مر .

وكان ابراهيم باشا ، على الرغم من تصاعد ثورات بلاد الشام ضده ، لا يغفل الحدود العثمانية . فقد كان يتوقع شن هجوم عثماني مفاجيء لان السلطان محمود

الثاني لم يغفر لمحمد علي فعلته تجاه بلاد الشام . وتروي المصادر العثمانية ان رشيد باشا توفي اثر اصابته بحمى ادت الى التهاب النخاع الشوكي ، فخلفه في قيادة الجيش العثماني حافظ باشا (٢٢) .

وكان اتجنود العثمانيون يناوشون جنود ابراهيم باشا ، حتى انهم اجتازوا نهر الساجور - احد روافد الفرات - وهاجموا فرقة فرسان مصرية ففرقوها وقتلوا منها واسروا ٧٠ أسيرا . وكان الانكليز والنمساويون يدفعون بالاتراك الى قتال الجيش المصري ، فأصدر السلطان العثماني أمرا الى حافظ باشا بالهجوم على قوات ابراهيم باشا ، فعبر هذا نهر الفرات عند بلدة (بلاجيق) في شهر نيسان ١٨٣٩ وعسكر في سهول مدينة نصيبين (نربا) في ١١ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ٢٤ حزيران ١٨٢٩ حيث التقى بالجيش المصري ، ودارت معركة شديدة اسفرت عن فوز المصريين وتقهقر الجيش العثماني ، وغنم الجيش المصري ١٦٦ مدفعا وعشرين الف بندقية وكثيرا من الذخائر والمؤن . ومن قبيل المصادفات ان المنية وافت السلطان محمود الثاني دون ان يعلم بنتيجة معركة نرب ، وصعد الى عرش السلطنة ابنه عبد المجيد البالغ من العمر يومذاك سبع عشرة سنة (٢٣) . واسند الخليفة منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا غير عالم بالعلاقة السلبية بين احمد باشا ، قائد الاسطول العثماني ، وبين خسرو باشا الذي كان على علاقة سيئة مع محمد علي باشا ، لانه اخرج من مصر بناء على رغبة اهليها عندما طالبوا بتعيين محمد علي واليا عليها ، فقاد احمد باشا الاسطول العثماني واتجه الى الاسكندرية ، وهناك سلمه الى محمد علي باشا في ٢ جمادى الاولى ١٢٥٥ / ١٤ تموز ١٨٣٩ ، وطلب اللجوء السياسي من محمد علي (٢٤) .

وعندما علم قناصل الدول الاوربية بالاستانة بتسليم الاسطول العثماني الى محمد علي باشا خشوا ان يزحف ابراهيم باشا على الاستانة فترسل روسيا جيوشها لمحاربته استنادا الى معاهدة اونكيار اسكلة سي ، لذلك اجتمع سفراء فرنسا وانكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا ووجهوا مذكرة موقعة منهم الى السلطان العثماني في ١٦ جمادى الاولى ١٢٥٥ / ٢٨ تموز ١٨٣٩ ، طلبوا منه بموجبها ان لا يقر شيئا في امر المسألة المصرية الا باطلاعهم ، وابدوا استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه المشكلة . وقبل السلطان والباب العالي مذكرة قناصل الدول الاوربية ، واجتمع اولئك السفراء مع الصدر الاعظم وتداولوا فيما يجب اعطاؤه لمحمد علي . وأبدى سفيرا انكلترا والنمسا ضرورة ارجاع بلاد الشام للدولة العثمانية ، وعارضهم في هذا الرأي سفيرا فرنسا وبروسيا وطلبا ان يمنح محمد علي مصر وولايات الشام الرابع . لكن سفير بروسيا انحاز الى الرأي الاول ، واقترح مترنيخ مستشار النمسا ان يعقد مؤتمر دولي في مدينة فيينا او لندن لاتمام المحادثات حول المسألة المصرية (٢٥) .

وقد عارضه كل من سفيرى فرنسا وانكلترا لعدم ثقتهم به ، وأعلن سفير روسيا حق بلاده في التمسك بمعاهدة اوتكيار اسكلة سي . لذلك طلب سفير فرنسا وسفير انكلترا من الباب العالي تصريحاً لمراكب دولتيهما بالمرور من مضيق الدردنيل لحماية الدولة العثمانية ، عند الضرورة ، من روسيا ومن العساكر المصرية ، وجاء الاميرال ستوفورد الى الاستانة للحصول على هذا التصريح . ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول انشقاق بين الدول المتوسطة . وأعلن سفير روسيا بأنه سيقطع علاقته مع الباب العالي ويفادر الى موسكو اذا دخل الاسطول الانكليزي او الفرنسي مضيق الدردنيل او البوسفور . وكانت حكومته قد ارسلت له مركبا حربياليسافر عليه اذا اقتضى الحال (٢٦) . وكتبت النمسا رسالة الى لندن واخرى الى باريس معلنة ان طلبهما مغل بمسلم اوروبا ، وان النمسا ستخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل ، اذا اصررت الدولتان على هذا الطلب . وعندما علم الباب العالي بموقف النمسا خاف من تفاقم الخطب ، فرفض طلب حكومتي فرنسا وانكلترا ، وطلب منهما ابعاد اسطوليهما عن مضيق الدردنيل (٢٧) . وتقدم بوسونبي سفير انكلترا بالاستانة بعرض الى الباب العالي جاء فيه ان دولته قادرة على ارغام محمد علي باشا على رد الاسطول العثماني شريطة حصوله على موافقة الدولة العثمانية على السماح للاسطول الانكليزي بدخول خليج استانبول لصد الاسطول الروسي عند الضرورة . وعندما علمت فرنسا بالعرض الانكليزي ارسلت الى الاميرال لالاند قائد الاسطول الفرنسي بالياه العثمانية في ١٨ كانون الاول ١٨٣٩ أمرا بان لا يشترك مع الاسطول الانكليزي في اية حركة عدوانية ضد محمد علي باشا . واصبح الخلاف بين انكلترا وفرنسا حول المسألة المصرية أمرا محتما ، إذ رأت انكلترا ارجاع محمد علي باشا من بلاد الشام الى مصر ، في حين كانت فرنسا ترغب ببقائه فيها (٢٨) . اما النمسا ، فقد قررت عدم التدخل لان الدول لم توافق على طلبها بعقد اجتماع في فيينا او برلين ، واعلمت كل من روسيا وبروسيا بانهما تقبلان كل ما تقرره الدول بشأن المسألة المصرية شريطة ان يكون الحل موافقا لرغبة الباب العالي .

ودار النقاش بين انكلترا وفرنسا ، فقد رأت الاولى تجريد محمد علي من بلاد الشام في الوقت الذي رأت فيه فرنسا عدم حرمانه من بلاد الشام وخاصة بعد ان قهر الجيش العثماني في معركة نرب ، واعلنت انكلترا موافقتها على اعطاء محمد علي نصف بلاد الشام الجنوبي مدى حياته بشرط ان لا تدخل مدينة عكا من هذا النصف ، فرفضت فرنسا اقتراح انكلترا بحجة انه يفتح باب الحرب امام محمد علي ، ويتيح الفرصة لتدخل روسيا ، وتكون الحرب العامة نتيجة لذلك (٢٩) . اما روسيا فقد رأت ان تفتنم فرصة الاختلاف بين انكلترا وفرنسا لتعزيز نفوذها في الشرق وحق حمايتها

للدولة العثمانية ، لذلك ارسلت البارون دي برونو الى لندن بصفة سفير فوق العادة ، فوصلها في ٢٨ ايلول ١٨٣٩ ، واعلن للحكومة الانكليزية نيابة عن قيصر روسيا بان حكومته تترك لانكلترا حرية العمل بمصر وتساعد في اذلال محمد علي باشا بشرط ان توافق على انزال جيش روسي قرب استانبول في مدينة سينوب على شاطئ البحر الاسود . لكن بالمرستون لم يقبل الحل الروسي بحجة استقبح الرأي العام له ، بل طلب من روسية ان تتنازل عن كل ما خولتها اياه معاهدة اوتكيار اسكلة سي من حق في حماية الدولة العثمانية ، فرفضت روسيا ذلك . وارسلت روسيا للمرة الثانية برونو الى لندن في تموز ١٨٤٠ ، حاملا اقتراحات جديدة : ان ترسل كل من انكلترا وفرنسا ثلاث سفن حربية الى بحر مرمرة للاشتراك مع الجيش الروسي في حماية الاستانة لو هاجمها ابراهيم باشا ، ولم تفز روسية بمرامها في هذه المرة ايضا (٢٠) .

وعلم محمد علي باشا بالمحادثات الدائرة ضده على ساحة اوربا ، وتأكد من تصميم انكلترا على ارجاع جيشه من بلاد الشام الى مصر ، ومن ان فرنسا لا تتمكن من مساعدته ، بالاضافة الى تعصب معظم دول اوربا ضده . لذلك قرر رد القوة بالقوة بحيث لا يسلم شبرا من الارض التي احتلها الا مضطرا . ، واخذ يستعد لخوض معركة قريبة الحدوث مع الدول الاوربية . وعادت النمسا في اوائل عام ١٨٤٠ م الى طلب عقد اجتماع الدول في مؤتمر في فيينا لتسوية المسألة المصرية ، واستجابت انكلترا لطلبها وتقرر عقد المؤتمر في لندن ، وان يكون للباب العالي مندوب فيه مراعاة له لما يتمتع به من سيادة على البلاد المتنازع عليها (٢١) . وجاء تولي تيير رئاسة الوزارة الفرنسية في اول اذار عام ١٨٤٠ ليضع خطة جديدة في حل المسألة المصرية ، اذ قرران يحلها باتفاقه مباشرة مع الباب العالي ومحمد علي باشا ، وذلك بان يلزم الباب العالي بان يترك لمحمد علي ولايات مصر والشام ، وهدد بالوقوف الى جانب محمد علي باشا . وارسل تيير الى والي مصر بان لا يقبل مطالب انكلترا . ولما علم بالمرستون بنوايا تيير حقد عليه وبذل جهودا كثيرة في الاتفاق مع النمسا وروسيا وبروسيا لارجاع محمد علي الى مصر . ونجح بالمرستون في مسعاه ووقع في ١٥ تموز ١٨٤٠ مع الدول الثلاث ومندوب الباب العالي معاهدة لندن . وجاء فيها (٢٢) :

١ - يلزم محمد علي باشا بارجاع ما احتله للدولة العثمانية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من بلاد الشام ماعدا مدينة عكا .

٢ - ان يكون لانكلترا حق الاتفاق مع النمسا في محاصرة موانئ بلاد الشام ومساعدة كل من اراد من الاهالي خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العثمانية ،

واشغال نار الثورة ضد الجيوش المصرية كي لا تقوى على مقاومة المراكب الانكليزية والنمساوية .

٣ - يحق لاساطيل اكلترا والنمسا وروسيا الدخول معا الى مياه البوسفور لحماية الاستانة في حال تعرضها لهجوم الاسطول المصري .

٤ - لا يحق لاي اسطول حربي دخول مياه البوسفور مادامت الاستانة غير مهددة .

٥ - يجب على الدول الموقعة على معاهدة لندن ان تصدقها خلال مدة لا تزيد على شهرين وان يكون التصديق في مدينة لندن .

ابرمت معاهدة لندن بين دول اوربية بحضور مندوب عن الباب العالي . وقد قررت الدول الموقعة على تلك المعاهدة معرفة موقف السلطان ، تجاه المعاهدة من جهة ، وتجاه محمد علي باشا من جهة ثانية ، لذلك ابرمت مع السلطان عبد المجيد اتفاقية عرفت بملحق معاهدة لندن ، ضم الملحق البنود الاتية : (٣٣)

١ - يمنح السلطان العثماني محمد علي باشا وسلالته من بعده ولاية مصر ، ويمنحه ولاية عكا والجزء الجنوبي من بلاد الشام مدى حياته ، بشرط قبوله هذه المنح خلال مدة عشرة ايام من تبليغها اليه في الاسكندرية على يد رسول من قبل السلطان ، ويسلم محمد علي الى رسول السلطان الاوامر اللازمة لقواد قواته برا وبحرا لينسحبوا في الحال من الاناضول وبلاد الشام ، ماعدا الجزء الذي منحه له السلطان .

٢ - اذا لم يقبل محمد علي هذه التسوية خلال عشرة ايام يفقد ولاية عكا وتبقى ولاية مصر له وسلالته بالوراثة ، شرط ان يعلن قبوله هذه المنحة في مدى عشرة ايام تالية للعشرة الاولى ، ويسلم محمد علي التعليمات اللازمة لانسحاب قواته برا وبحرا الى حدود ولاية مصر .

٣ - ان يعيد محمد علي الاسطول التركي الى السلطنة العثمانية في مدى عشرين يوما تبديء من اليوم الاول الذي يتلقى فيه البلاغ (الملحق) ويشهد روبرت ستوفورد قائد اساطيل الحلفاء تسليم الاسطول المصري .

٤ - تعتبر المعاهدات والقوانين النافذة في السلطنة العثمانية نافذة في مصر وولاية عكا . ويمنح محمد علي حق تحصيل الضرائب والرسوم مقابل دفعه اناوة للسلطان العثماني .

٥- تعد القوات البرية والبحرية التي ينظمها محمد علي باشا في مصر قسما من قوات السلطنة وتعتبر دائما معدة لخدمة الدولة العثمانية .

٦ - اذا لم يقبل محمد علي في مدى عشرين يوما بنود الملحق ، يكون السلطان حرا باتباع الخطة التي يراها مناسبة ، طبقا للنصائح التي يسديها اليه حلفاؤه .

وبعد اقرار بنود الملحق وقع الحلفاء اتفاقا بينهم بتنزههم جميعا عن كل ربح او مغنم . وارسل السلطان العثماني ، في ١٤ اب ١٨٤٠ ، رفعت بك الى الاسكندرية ليبلغ محمدا عليا قرار السلطان والدول الاوربية . وعندما علم محمد علي بنود الملحق اجاب : ان ما اخذته بالسيف لا اسلمه الا بالسيف . وجاء قناصل الدول الاربع انكلترا ، النمسا ، روسيا وبروسيا ، في ١٥ جمادى الثانية ١٢٥٦ هـ / ١٥ اب ١٨٤٠ ، الى مقر محمد علي باشا وابلغوه قرار الدول (معاهدة لندن ١٨٤٠) واستمهلوه عشرة ايام ، وابلغوه ان فرنسا لا تستطيع مساعدته وان الدول مصممة على تنفيذ قرارها وان ادى ذلك الى اعلان الحرب ضده ، فاصر محمد علي على ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة (٢٤) . وفي ٢٤ آب عاد قناصل الدول ومندوب السلطان وابلغوا محمد علي انه لم يبق له حق في ولاية عكا لانه لم يعلن قبوله في الايام العشرة الاولى ، وان الدول لن تسمح له الا بولاية مصر كما جاء في قرارها . فاحتد محمد علي غضا وطرده القناصل من حضرته ، لكنهم اعطوه مهلة عشرة ايام اخرى لاعطاء جوابه ، فان لم يفعل تكون الدول المتحالفة غير مسؤولة عن النتائج ، اما فرنسا فلم تقدم المساعدة التي وعدت بها الى محمد علي ، وحمل الشعب الفرنسي تير المسؤولية وطالب باعفائه من منصبه ، فتخلى عنه في ٢٩ تشرين الاول عام ١٨٤٠ م . وشكلت الدول الموقعة على معاهدة لندن قوة مشتركة لالزام محمد علي باشا بتنفيذ بنود المعاهدة اذا رفض قبولها . وكانت القوة من قسمين : برية بقيادة الجنرال الانكليزي سميت ، وبحرية مؤلفة من عشرين سفينة انكليزية وثلاث سفن نمساوية وثلاث سفن عثمانية بقيادة القبطان الانكليزي ووكر ، المعروف عند الاتراك باسم ياور باشا (٢٥) . وفي ٩ ايلول ١٨٤٠ وصل الاميرال الانكليزي ستوفورد القائد العام لقوات الحلفاء الى مدينة بيروت ، وانضم الى قوات نابير الانكليزي الذي كان قد اعلن عن مجيء القوات الحليفة وتوزيعها السلاح على الاهالي والثائرين ضد ابراهيم باشا . ونزلت القوات الحليفة مقابل بيروت وهاجمت ميناءها الذي كان قاعدة للجيش المصري ، وانزل الاسطول الجيوش على شواطئ جونيه ، وقد اعلنت الدول الاوربية التي اشتركت في الحرب ضد ابراهيم باشا الغاية من تدخلها كما جاء في اعلان وزارة الخارجية البريطانية وهي : الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية ، والدول الموقعة على معاهدة لندن ١٨٤٠ الحق في الحفاظ على سلامتها لان سلامة

السلطنة العثمانية من مقتضيات توازن القوى في اوروبا وهي ضرورة لحفظ السلام في العالم .

وعندما كان الاسطول الانكليزي راسيا امام بيروت وصلت سفينة من مصر فامر الاميرال نابير بتفتيشها فوجدوا فيها رسالة من بوغوص بك وزير خارجية محمد علي باشا الى سليمان باشا الفرنسي معاونا ابراهيم باشا يؤكد فيها ان فرنسا ستستدعي قنصلها مورا من بيروت لانه كان يساعد الثوار ضد المصريين (٢٦) . اما امير جبل لبنان بشير الشهابي الثاني الذي اضطر الى الوقوف الى جانب ابراهيم باشا فقد حرم على اهالي لبنان التعاون مع القوات المشتركة وهدد بانزال اقصى العقوبات بالتعاونين معها . واستمرت قوات الحلفاء في شن الهجوم على جيش ابراهيم باشا ، خلال الفترة من ٩ ايلول حتى ١١ تشرين اول ١٨٤٠ ، وكانت معركة قرية (بحر صاف) معركة شديدة اسر الحلفاء فيها من جيش ابراهيم باشا ٧٠٠ اسير . وارتد ابراهيم باشا الى البقاع في ١١ تشرين الاول وسلمت الحامية المصرية المرابطة في بيروت (٢٧) . وكان الحلفاء قد خلعوا الامير بشير الشهابي الثاني وعينوا بدلا منه ابن عمه الامير بشير قاسم ، وعلم الامير بهزيمة ابراهيم باشا وتسليم حامية بيروت لذلك غادر مقره في بيت الدين في ١١ تشرين الاول ١٨٤٠ واتجه الى صيدا واعلن الى خالد باشا متسلم صيدا انه جاء مستسلما . فقابلته بالاجلال والاحترام ، واتجه من صيدا الى بيروت في سفينة خاصة مع ابنه الامير امين وحفيده الامير محمود ولما وصل بيروت ابغى عزت باشا الذي عين واليا على سورية ان يختار لنفسه مكان الاقامة ما عدا فرنسا ومصر وسورية ، فاختار جزيرة مالطة ، واتجه اليها على ظهر باخرة انكليزية في ١٦ تشرين الاول ١٨٤٠ م ، ومعه زوجته واولاده واحفاده وثلة من اعوانه وخدمه . وهكذا طويت صفحة امارته بعد حكم طويل (٢٨) . وبعد تسليم الامير بشير ، انسحبت الحاميات المصرية من طرابلس واللاذقية وادنة بدون قتال ، ولم يبق من مدن الساحل في ايدي المصريين سوى عكا . واصدرت انكلترا اوامرها الى الاميرال روبرت ستوفورد في اواخر تشرين الاول بمهاجمة عكا ، فجمع قوات برية وبحرية وحاصرها في ٢ تشرين الثاني ١٨٤٠ ، وامطرها وابلا من القذائف دمرت حصونها وكبد المصريين خسارة فادحة في الارواح قدرت بالفئ قتيلا وجريح وثلاثة الاف اسير ، وبعد الاستيلاء على عكا اتجه اسطول الحلفاء الى يافا واحتلها بلا قتال . وبعد السيطرة على عكا ويافا وحيفا ارسل الحلفاء الاميرال الانكليزي نابير الى الاسكندرية ليضغط على محمد علي فوصل اليها في ٢١ تشرين الثاني وفي يوم ٢٢ منه وجه رسالة الى محمد علي عن طريق بوغوص بك ، ووقع نابير اتفاقا في ٢٧ تشرين الثاني ، مع محمد علي باشا ، نص على جعل حكم مصر والسودان وراثيا في اسرته (٢٩) .

وبقي الموقف الفرنسي الى جانب محمد علي باشا . فقد وجهت الحكومة الفرنسية مذكرة الى الحلفاء في ٨ تشرين الاول حملت الحلفاء فيها اسباب وقوع الحرب لانهم حرموا محمد علي ثمرة انتصاراته واقدموا على تنفيذ قرار السلطان العثماني بعزله .

وكانت فرنسا قد وجهت رسالة الى محمد علي باشا حضته على ترك بلاد الشام والاكتفاء بمصر ، فوجدت رسالتها قبولا عندما علم محمد علي باشا بتعيين الامير بشير قاسم بدلا من الامير بشير عمر الشهابي الثاني ، وبسبب سيطرة الحلفاء على ساحل بلاد الشام ، بالاضافة الى نقص الاموال في مصر ، وكان جيشه في بلاد الشام تعباً بسبب الحروب التي ما زال يخوضها منذ ثماني سنوات . وكان السلطان العثماني قد حصل على فتوى في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٠ بخلع محمد علي من الحكم واعلن تعيين عزت محمد باشا خلفا له في حكم مصر وسورية (٤٠) .

وكان اتفاق نابير مع محمد علي المار الذكر . والموقع في ٢٧ تشرين الثاني ، قد اكده قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر المتوسط (نابير) الذي ذهب الى ميناء الاسكندرية وعرض على محمد علي ان يعرض الاتفاق بينهما على دول اوربية لتثبيت حكم محمد علي الوراثي في مصر ، لذلك اصدر محمد علي امرا الى ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من بلاد الشام والعودة الى مصر والتزم محمد علي باتفاق ٢٧ تشرين الثاني والذي تضمن اعادة الاسطول التركي والانسحاب من بلاد الشام والاكتفاء بحكم مصر على ان يورث هذا الحكم لاولاده الذكور .

وتلقى ابراهيم باشا امر والده في ٩ كانون اول ١٨٤١ بالانسحاب فاخذ يستعد لمغادرة بلاد الشام ، وكان الحلفاء قد اعدوا خطة للايقاع بابراهيم باشا خلال انسحابه لكن ابراهيم باشا ، بعد ان اعلن طريق انسحابه ، تحول عنه فجأة الى طريق اخر فجنب نفسه خطورة مؤكدة ، وعاد الى مصر .

المصادر

- (١) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .
 - (٢) الباب العالي : بني في استانبول ، وكان مقرا للصدر الاعظم ، واعتقد الناس انه مركز السلطة العليا بالسلطنة العثمانية منذ ان وصل مصطفى باشا من اسرة كوبرولي الى منصب الصدارة العظمى (١٦٩١) . وتعرض الباب العالي الى الهدم مرات عديدة واعيد ترميمه . ويقع الان خلف مديرية الامن باستانبول وقرب ارشيف باشي باكانليك (رئاسة الوزراء) فيها .
 - (٣) وكان عدو محمد علي باشا في استانبول الصدر الاعظم خسرو باشا الذي بدا خدمته في قصر السلطان العثماني وترقى الى المناصب الرفيعة ، ناصب محمدا عليا والي مصر العداء ولعب دورا خطيرا في المشاكل التي نشبت بين توكية ومصر ، اباد الانكشارية . امضى اخريات ايامه في عمل الخير وتوفي في عام ١٨٥٥ م .
 - (٤) بطرس الاكبر او بطرس الاول (١٦٧٢ - ١٧٢٥ م) ، امپراطور روسية (١٧٢١ - ١٧٢٥ م) وقصرها . وهو مؤسس الدولة الروسية الحديثة . كان اصغر اولاد القيصر الكسيس من زوجته الثانية . لقب بطرس صباه شبه منفي باحدى ضواحي موسكو ، يحيط به رفاق من اشد الصبية خشونة ، وظهرت عليه موهبة القيادة في حالة مبكرة . وجعل هدفه بعد ان وصل الى الحكم السيطرة على البحر البلطي والبحر الاسود لكي تصبح روسية دولة بحرية وتجارية .
 - (٥) ارشيف استانبول (رئاسة الوزراء) ، دوسية ٧٨ .
 - (٦) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثيقة المرفقة رقم (١) .
 - (٧) المصدر نفسه
- Dosya Usulu - Iradaler Jurba - 78
- الوثيقة المرفقة رقم (٢) .
- (٨) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثيقة المرفقة رقم ٢ . ثم انظر محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ١٧٠ .
 - (٩) عبد الرحمن الرافعي بك ، مصر محمد علي ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٩١ . ثم انظر الوثائق العثمانية المرفقة ، ثم انظر كادلفين وبارو ، حرب مصر ضد الباب العالي والاتاصول سنة ١٨٢١ - ١٨٢٣ ، ص ٤١٢ .
 - (١٠) ارشيف استانبول ، خارجية ، دفتر رقم ١ تاريخ ١٢٤٩ ، الوثيقة رقم ٢٤ .
 - (١١) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ، وثيقة رقم ٢٥٨٢٢ .
 - (١٢) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٩ ، الوثيقة رقم ٣٦٨١٢ .
 - (١٣) مترنيخ : سياسي نمسوي ، كان سفيرا للنمسة في باريس عام ١٨٠٦ وترأس مؤتمر فيينا ويانة في عامي ١٨١٤ و ١٨١٥ ، كان زعيما للرجعية واعتزل السياسة عام ١٨٤٨ وتوفي عام ١٨٥٩ .
 - (١٤) ارشيف استانبول ، ارادة ، الدفتر رقم ١٢٤٩ داخلية ، الوثائق ٢٣،٢٩ ، ١٢٣ ، ١٥٠ .
 - (١٥) ارشيف استانبول ، مهمة مصر دفتر ، من اوائل ربيع الاخر عام ١٢٤١ الى اخر جمادى الاخرة ١٢٨٠ هـ رقم الدفتر ١٢ ، الصفحة ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

- (١٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ - ١٣٥ .

(١٧) H. Dodhel , The Founder of Modern Egypt, Cambridge, 1931 , p.253.

وانظر ، اسد رستم ، المخطوطات الملكية المصرية ، ج ٢ ، بيروت ١٩٤١ ، ص ١٢٤ .

(١٨) اسد رستم ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ . ثم انظر سميليا نسكاي ، الحركات الفلاحية في لبنان ، ص ٧٥ .

(١٩) اسد رستم ، المصدر السابق ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٤٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٣ - ٢٤٤ ، الجزء الثالث ، بيروت ١٩٤٢ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢٠) محمد كرد علي ، خطط الشام ج ٢ ص ٦٢ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وانظر بيكرتيس ، ابراهيم باشا في سورية ، تعريب بدران ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٢١٣ ، ٢٥٨ .

(٢١) ريتشارد وود : قنصل انكلترا في الاسكندرية ، ارسل الى لبنان لزرع بذور الثورة ضد ابراهيم باشا ، ووقف ضد الامير بشير الشهابي الثاني ودعم الامير بشير قاسم الذي عين بمساعيه حاكما على جبل لبنان بعد رحيل الامير بشير الثاني .

(٢٢) ارشيف استانبول ، الدفتر ١٢٥٥ ، ارادة داخلية ، الوثائق رقم ١٢٢ ، ١٥٠ ، ٢٢٧ ، ٢٧٠ . وانظر الارقام : ١٩٤٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٤٧ ، ١٠٣ في الدفتر نفسه .

(٢٣) ارشيف استانبول ، ارادة داخلية ، الدفتر ١٢٥٥ ، ارقام ٢٣ ، ٤٥ ، ٧٧ ، ٨٧ .

(٢٤) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٢٤٢ .

(٢٥) ارشيف استانبول ، Gefdet Lktisat مؤرخة في عام ١٢٥٥ هـ ص ١٢٢ .

(٢٦) ارشيف استانبول ، جودت ، مالية ، دفتر رقم ١ ، الوثائق ذات الارقام : ٩١.٧ ، ٩٣.٦ ، ٩٣٥٧ ، ٩٦٧٥ .

(٢٧) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ، الوثائق : ٢٥٧٩١ ، ٢٥٨٢٢ ، ٢٣٨٥٦ .

(٢٨) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ١٨ ، الوثيقة رقم ٣٦٢.٦ .

(٢٩) ارشيف استانبول ، المصدر نفسه ، الوثائق : A ٣٦٢.٠ - B ٣٦٢.٠ - C ٣٦٢.٠ - D ٣٦٢.٠ .

(٣٠) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ ص ٢٣٩ .

(٣١) ارشيف استانبول ، Hariciys ، Meclis ، دفتر ٢٦ ، ١١ الوثائق ذات الارقام ١٢٢ ، ١٧٣ ، ١٨٢ .

(٣٢) المصدر نفسه ، الوثائق ١٨٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ .

(٣٣) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ص ٤١٠ ، ثم انظر محمد فريد بك المحامي - المصدر السابق ص ٢٤٣ .

(٣٤) ارشيف استانبول ، مهمة مصر دفتر ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٣٥-٣٦-٣٧) ارشيف استانبول ، خط همايون ، دفتر رقم ٩ ، الوثائق : ١٧٢١٣ ، A ١٧٢٨٥ ، B ١٧٢٩٧ .

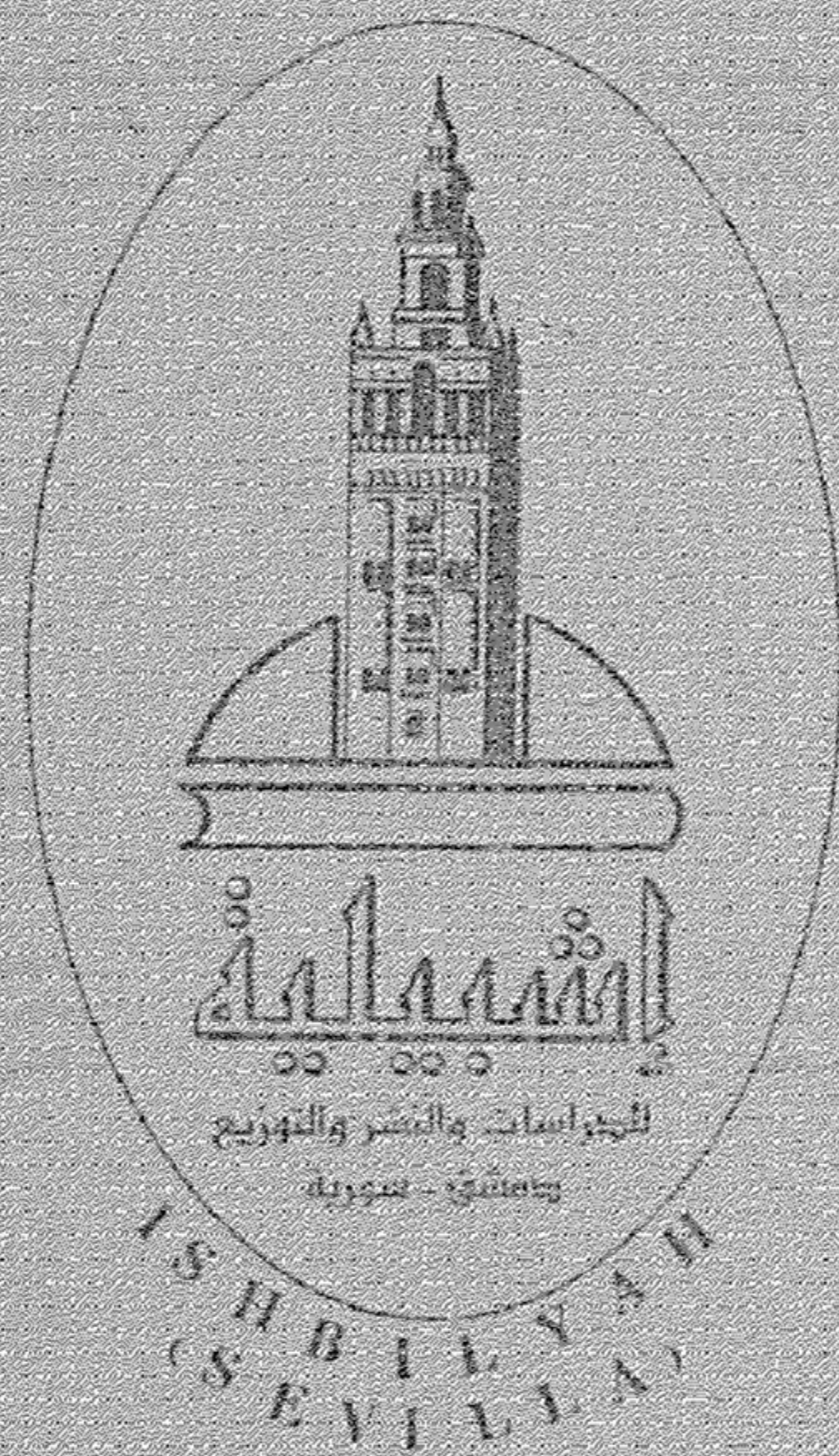
(٣٨) فيليب حتى ، تاريخ لبنان ، تعريف د. انيس فريضة ، بيروت ، ط ٢ ١٩٧٨ ، ص ٥١٦ .

(٣٩) محمد فريد بك المحامي ، المصدر السابق ص ٢٤٠ .

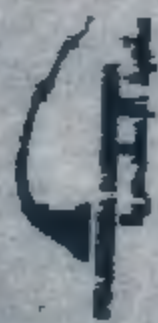
(٤٠) ارشيف استانبول ، ارادة داخلية ، دفتر عام ١٢٥٦ ، الوثائق ١.٥٦ ، ١.٩٦ ، ١.٩٧ ، ٢ : ١.٩٧ ، ٢ : ١.١٩ ، ١.١٩٠ ، ١.١٩١ .



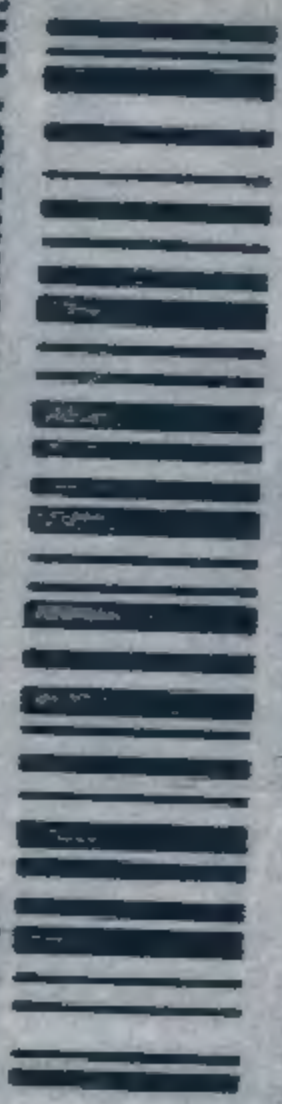
Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P. O. Box : 4363, SYRIA



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS, P. O. Box 4363, SYRIA



Bibliotheca Alexandrina



0536050